بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنية

جامعة اليرموك

بلاد الشام في صدر الإسلام

٢٤ ـ ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ ١٦ ـ ٢٢ آذار ١٩٨٥

المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

من

أوراق الندوة الثانية



(كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل)

تحرير

محمد عدنان البخيت

المجلد الثالث عمان ١٩٨٧

الجامعـــة الأردنيــة



جامعـة اليـرموك

بلاد الشام في صدر الإسلام

٢٤ ـ ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ ١٦ ـ ٢٢ آذار ١٩٨٥

المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

من
أوراق الندوة الثانية

(كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل)

تحـــرير

محمد عدنان البخيت

المجلد الثالث عمـــان ١٩٨٧

٩٥٦
مؤت المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (الرابع : ١٩٨٥ ـ الجامعة الأردنية) بلاد الشام في صدر الاسلام : الندوة الثانية/تحرير محمد عدنان البخيت . ـ عمان : الجامعة الأردنية، إربد : جامعة اليرموك، ١٩٨٧.
٤٤٠ ص ؛ ج ٣
ر. أ (١٩٨٧/٢/٦٨)
١ ـ بلاد الشام ـ تاريخ ٢ ـ خلفاء راشدون ـ تاريخ
أ ـ محمد عدنان البخيت (محرر) ب ـ العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية)

مطبعة الجامعة الأردنية/عمان

مقدمـــة

يتناول المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الذي بدأت الجامعة الأردنية بالاعداد له منذ مطلع عام ١٩٨١، بالتعاون مع جامعة اليرموك، تاريخ هذه البلاد منذ العهد البيزنطي حتى أواخر العهد الأموي.

وقد رأت (**لجنة تاريخ بلاد الشام**) أن يكون عملها في هذا المجال على شكل ندوات تعقد في فترات زمنية متفاوتة، تتناول كل ندوة جانباً معيناً من الموضوع، وتدرسه دراسة دقيقة مستفيضة، و بمنهجية علمية عميقة، ثم تعقد مؤتمراً عاماً للنظر في القضايا الرئيسية والنتائج الأساسية التي توصل إليها الباحثون والعلماء.

وانطلاقاً من ذلك عقدت اللجنة ندوتين، كان موضوع الأولى منهما : (**بلاد الشام في العهد البيزنطي**)، وكان موضوع الثانية : (**بلاد الشام في صدر الاسلام**)، وقد صدرت أبحاث الندوة الأولى في مجلدين. وصدر المجلد الأول من أبحاث الندوة الثانية باللغة العربية بعد أن تم تقييمها حسب الأصول المنهجية والعلمية وأجازها المقيمون. وصدر مجلد ثان يضم الأبحاث المقدمة باللغة الانجليزية واللغة الفرنسية بعد أن تم تقييمها أيضاً حسب الأصول العلمية المرعية.

و يسعدنا أن نقدم إلى القارىء الكريم المجلد الثالث من أبحاث هذه الندوة، وهي بقية الأبحاث التي قدمت باللغة العربية. ونأمل أننا بذلك نتيح المجال للقارىء الكريم للافادة من هذه الأبحاث و بذلك تستكمل الفائدة المرجوة.

فقد تناول الدكتور شاكر مصطفى في بحثه (**الفتوح العربية الاسلامية في الاطار الاسلامي**) ثلاث خواطر هي : سرعة الفتوحات الأولى ومعاركها، وقوة هذه الفتوحات وروعتها بالمقارنة مع فتوحات الشعوب الكبرى، والاسراع إلى ذكر الأمويين والعباسيين ثم إمارة الأندلس وخلافة الفاطمية بعد إتمام هذه الفتوحات. وهي خواطر حاول الباحث الربط بينها.

أما البحث الثاني، وهو (**استقبال بلاد الشام للفتح العربي : الخلفية الثقافية**)، فقد تحدث فيه الباحث الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى أسباب التجاوب الملحوظ الذي تميز به استقبال بلاد الشام للفتح العربي. وهو تجاوب ترجع أسبابه إلى التوافق الكبير في التكوين الثقافي بين أهل بلاد الشام من جهة، و بين الفاتحين الذين جاؤوا من شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى.

وفي البحوث الثلاثة التالية: وهي : (**حملة مؤتة، مقاربة للمشروع السياسي الأول للدولة الاسلامية في بلاد الشام**) للدكتور ابراهيم بيضون. و (**تجربة مؤتة**) للدكتور سامي العاني و (**تجربة مؤتة بين التاريخ والشعر**) للدكتور يحيى الجبوري، فتتناول غزوة مؤتة من زوايا مختلفة تدل عليها عناوين هذه البحث. فقد أبرز الدكتور بيضون كيف أن غزوة مؤتة لم تكن غارة من الغارات البدوية المألوفة. وانما كانت تعبيراً عن جبهة اسلامية متماسكة في وجه جميع التحديات. بينما توصل الدكتور العاني بعد أن استعرض أحداث المعركة إلى أن المسلمين حققوا فيها انتصاراً تعبوياً واضحاً مهد لهم كل الانتصارات التي حققوها على الروم فيما بعد. وأما الدكتور الجبوري فقد بين أسباب المعركة ونتائجها، وذكر ما قيل فيها من شعر... وخاصة شعر قادتها أنفسهم، وعلى رأسهم عبد الله بن رواحة الذي صور أحداث المعركة، كما عبر تعبيراً صادقاً عن نفسه كقائد مسلم يثق بنفسه ودينه وقوة ايمانه، ويصمم على الشهادة في سبيل الله.

ويتناول البحثان السادس والسابع معركة اليرموك، فيدرس أحدهما وهو (**معركة اليرموك ـ دراسة تاريخية نقدية**) للدكتور جاسر أبو صفية،الروايات التي أرخت للمعركة دراسة نقدية، لبياني أثر الاختلاف في التاريخ على الحدث الذي ارتبط باليرموك، وتناقله الرواة قديماً وحديثاً، وخلطوا فيه تخليطاً كثيراً، وهو عزل خالد ابن الوليد. ويدرس الثاني، وهو (**أسرار النصر العربي في فتوح الشام ـ معركة اليرموك ـ**) للدكتور عرفان شهيد أسباب انتصار المسلمين في هذه المعركة الفاصلة.

وعن (**موقف سكان بلاد الشام من الفتوح**) يتحدث الدكتور نبيه عاقل فيبين : ـ القبائل العربية النازلة في المنطقة الحدودية بين الحجاز والشام وقفت في البداية موقفاً معادياً من العمليات الأولى للفتح، ثم انقلب هذا الموقف إلى التحالف والمشاركة في العمليات العسكرية إلى جانب المسلمين، وذلك لأسباب كثيرة وضحها الباحث.

وكذلك وضح الدكور عبد المنعم ماجد (**موقف الروم العرب من الاسلام**) فذكر أنه في البداية كان موقف عداء، الا أنه تبدل عندما أوجد الاسلام له أنصاراً بين قبائلهم.

أما الدكتور سعيد عاشور، فقد تعرض في بحثه (**الامبراطور هرقل ومقاومته الفتح الاسلامي لبلاد الشام**) إلى مواقف هرقل من الفتح الاسلامي.. فهو.. أي هرقل لم يول الخطر الاسلامي أول الأمر الاعتبار الكافي ظناً منه بأن ما يترامى الى مسامعه من أخبار عن المسلمين، لا تتعدى ما عرفه عن الجزيرة العربية وقبائلها منذ أمد طويل، وهو أنهم قبائل تقوم بأعمال الغزو بين الفينة والأخرى لأغراض لا تتجاوز السلب والنهب. ولم يدر في خلده أن هذه القبائل التي وحدها الاسلام قد أصبحت جبهة قوية مرهوبة الجانب.

وتحدثت الدكتور سهيلة الريماوي عن مدينة حمص ومعالمها الرئيسية وتكوينها السكاني والديني عند الفتح الاسلامي، وذلك في بحثها الموسوم بـ(**مدينة حمص عند الفتح الاسلامي**)، ثم تحدثت عن الفتح الاسلامي نفسه لهذه المدينة التي أصبحت بعد فتحها مقراً لجند حمص، مما يدل على عظم شأنها ومكانتها.

أما (**العلاقات الاسلامية البيزنطية في الشام وتخومه في صدر الاسلام في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى**) فقد أبرزها الدكتور جوزيف نسيم يوسف، الذي استعرض علاقات الفرس والروم ببلاد الشام، ثم غزوات الرسول، صلى الله عليه وسلم، ضد محالفي بيزنطة عند تخوم هذه البلاد، والفتوحات التي تمت في عد الخليفتين أبي بكر وعمر. وما تلا ذلك من صراع بين الغرب الأوروبي والشرق الاسلامي متمثل في الحروب الصليبية.

وفي مجال (**مصادر تاريخ بلاد الشام**) تحدث الدكتور محمود سعيد عمران عن كتابات الرحالة أركولف الذي زار هذه البلاد في عصر الراشدين، وسجل معلومات قيمة عن الآثار المسيحية فيها.

وقدم الدكتور عواد مجيد الأعظمي دراسة عسكرية حضارية في بحثه (**بلاد الشام ـ الأرضية والقاعدة في التطلع العربي الاسلامي لفتح مدينة القسطنطينية**) فتحدث عن الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام ومصر، وعن الاصلاحات العديدة التي نفذها المسلمون في البلاد المفتوحة.

وأما سكينة الشهابي فقد استعرضت (**تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر**) و بينت أهمية هذا الكتاب الكبيرة جداً في تاريخ عصر صدر الاسلام، لما يمتاز به هذا الكتاب من غزارة وتنوع وقدم لموارده الكثيرة، وفي مقدمتها الموارد الأدبية والتاريخية وكتب النصوص والشعر والمسانيد.

والبحث الأخير من بحوث هذا المجلد هو (**السلطة في الاسلام ـ دراسة في نشوء الخلافة**) للدكتور رضوان السيد الذي بين فيه أهمية مسألة السلطة في الاسلام، وكيف نشأت هذه السلطة وكيف تطورت، وما هي طبيعتها، وهل هي ثيوقراطية أم اوتوقراطية أم ديمقراطية؟.

و يسعدنا هنا أن نسجل شكرنا للعاملين في لجنة تاريخ بلاد الشام وللقائمين على أمر مطبعة الجامعة الأردنية.. أما فضل الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي، رئيس الجامعة الأردنية فهو بين وكبير ولولا دعمه المتواصل لما تمكنا من إصدار هذا المجلد.

وفي الختام نرجو أن يكون هذا المجلد إضافة نافعة إلى المكتبة العربية، ونسأل الله أن يمدنا بالقدرة لاتمام هذا العمل الذي بدأناه، لكي نصل الى الغاية المرجوة.

محمد عدنان البخيت

عمان في : ١٩ رمضان ١٤٠٧ هـ
١٦ أيار ١٩٨٧ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفتوح العربية الاسلامية في الإطار العالمي

شاكر مصطفى
كلية الآداب ـــ جامعة الكويت

خاطرات ثلاث فرضت هذا العنوان العريض على ما فيه من الدعوى المبررة. ومع أني أكاد أعتقد أن الأمر في كل الأحوال قد ينتهي إلى نوع من التقويم. للفتوح العربية الاسلامية، في اطار التاريخ العالمي،لا إلى الفرق في تفصيل من تفاصيلها الا أني أرى أن هذه الخواطر تستحق التوقف إن لم يكن التوقف الطويل :

ـــ فنحن، في الفتوح الاولى تأخذنا سرعتهاالصارخة ومعاركها، وبنودها الخفاقة ورجالها العمالقة فننسى أن نقف عند العصر كله، وعند تحركات مختلف الشعوب المماثلة التي سبقت هذه الفتوح أو لحقتها بفتوح من مثلها وتركت أو لم تترك بصماتها في التاريخ العالمي هنا وهناك ألم يكن ثمة ياترى من محاولات اخرى مماثلة ؟ فلماذا أجهضت ونجح العرب ؟ أو على الاقل لماذا لم تأخذ المدى الأوسع ولا الدور الحضاري الكبير الذي أخذته الفتوح العربية ؟ وأين الجرمان السلاق والهانز والمغول وغيرهم في الموقع العالمي ؟

ـــ ونحن في الفتوح الأولى تأخذ بنا آيات التمجيد، وصخب القوة والروعة الراقصة فلا يخطر في بالنا أن نضع الفتوح في الميزان مع فتوحات الشعوب الكبرى قبلها كالرومان، أو الكبرى من بعدها كالتحرك الصليبي الغربي وكالمغول بغية المقارنة والتقويم واستخلاص ما يستحق أو ليس هذا من صميم العمل التاريخي ؟

ـــ ونحن أخيرا نركض بعد الفتوح مباشرة إلى ذكر الامويين والعباسيين ثم امارة الاندلس وخلافة الفاطميين ومن بين هذه وتلك من الممالك الطولونية والزيادية والاخشيدية والحمدانية والمروانية والطاهرية والسامامتية والادريسية والرستمية ونعد ثم إن شئنا ما يزيد على أربعمائة دولة إسلامية اخرى وننسى أن تكوينا حضاريا عالميا ظهر بين هذه وتلك من خلال هذا التعدد السياسي المنثور وليس كمثله تكوين سابق ولا لاحق حتى اليوم. أليس من وقفة تجميع وتركيب شاملة تربط الأول بالآخر؟

هذه الورقة ليست أكثر من محاولة أولية في الاتجاه الأول على الأقل لعلها ولعلها .....

من الحقائق المعروفة أن العالم المتحضر كان، حتى مطالع العصر الحديث في أواخر القرن ١٥ يمتد على شريط عريض من حوض البحر المتوسط إلى الهند ثم إلى جنوب شرقي آسيا والى الصين وما وراء ذلك كان من المجاهل المرعبة والاسطورية أحياناً. واذا نحن استثنينا جنوبي الصحراء الكبرى التي لم تخرج عبرها حركات هجومية نحو الشمال ان لم تستقبل بالعكس هجمات منه غيرت من وجهها وتاريخها وذلك بسبب سعتها الضخمة وقحطها المطلق الذي يمنع اختراقها الا من منافذ محددة، وغلبة الاكتفاء الذاتي على السكان في جنوبها فكان الحاجز بينهم و بين الشمال طبيعيا و بشريا معا.

واذا وضعنا جانبا أيضاً الفتوح العربية الاسلامية عنها فان جميع تحركات الشعوب البدوية التي هاجمت هذه المنطقة المتمدنة من العالم ما بين فرنسا حتى كوريا انما تحركت في جبهتها الشمالية سواء في المناطق الغابية الكثيفة كما في أوروبا أو في المناطق الصحراوية والرعوية مثل منغوليا وغوبي. الجنوب كله كان هادئا أو شبه هادىء عدا المنطقة العربية وأما الشمال فكان حوارا دون انقطاع تحركت عليه مجموعات مختلفة متعددة من الأقوام بدأت بها في الواقع القرون المسماة، في الغرب، بالقرون الوسطى واستمرت تتحرك عليها فترة تزيد على ألف سنة حتى هدأت حوالي القرن الخامس عشر. بل يمكن أن نعتبر الانسياح الاوروبي خارج القارة في حركة الاكتشافات الجغرافية ثم الانسياح الاستعماري نوعا من الامتدادات الاخيرة لها.

هذه القرون كانت من زاوية من زوايا النظر تتسم بالسمات التالية:

أ) كانت فترة توضع للشعوب جديد في مختلف أنحاء العالم. ظلت شعوب العالم تتحرك حوالي عشرة قرون، ما بين القرن الرابع والخامس عشر لتتخذ على خريطة العالم المتمدن مواقع جديدة. كانت قرون تشكيل صورة جديدة للعالم المسكون، وقرون إزاحة وصراع على الاستقرار بين الأمم المختلفة حول المنطقة المعتدلة من العالم. وهكذا توالى تحرك الجرمن والسلاف والهانز والترك والعرب والفايكنغ والاوربيين الغربيين في الصليبيات، والمغول الى أن أستقر التوزيع الجديد لهذه الأمم مي مطلع العصور الحديثة. وهذا التموضع الجديد كان في الدرجة الاولى نتيجة التكاثر البشري لهذه الشعوب في فترات متفاوتة. فهي لم تكن تتحرك طوعا ولكن تحت ضغط بشري ــ اقتصادي عنيف أضيف اليه هنا وهناك عوامل اخرى متفاوتة الأثر والنتيجة.

ب) كانت فترة صراعات دامية عنيفة متطاولة فلم يكن التوضع سهلا ولا سلميا ولا مختصر الزمن. ولكن مختلف شعوب الأرض دفعت ثمنه غالياً وغاليا جدا لأن هذا التغير في المواقع أخذ شكل الهجرات البشرية التي وصلت مقاييس واسعة جدا ومديدة جداً كما ترتب عليها حدوث معارك وصدامات خطيرة سقطت فيها ملايين الضحايا بكل مكان وبخاصة في المواقع المفصلية للطرق وللانتاج والثروة. فالجرمن تحركوا من سواحل البلطي إلى أوروبا الغربية كلها والسلاف تحركوا إلى البلقان ووسط اوروبا والهانز ملأوا ما بين الصحراء المغولية وفرنسا في أوسع هجرة بشرية معروفة والعرب ملأواما بين خراسان والسند الى الاندلس وجنوبي فرنسا وجنوب الصحراء الكبرى. واذا تحرك الفايكنغ ضمن غرب اوروبا كرة اخرى فان الاوروبين تحركوا بشكل توسعي في إسبانيا وايطاليا ووصلتهم موجتهم مع الصليبيات الى الشرق الادنى ليصطدموا هناك بموجة الترك السلاجقة التي كانت حديثة التوضع فيما بين خراسان إلى الآناضول وسورية وتلتها موجة المغول الكبرى التي وصلت ذؤاباتها إلى سورية والجزيرة العليا والى شرقي اوروبا وظلت بعد ذلك تهدد هذه البقاع على مدى مائتي سنة قبل أن تنحسر.

جـ) وأخيرا كانت لفترة ازمات روحية وبحث عن يقين اطمئناني اكثر إنسانية وسموا في مختلف أنحاء الأرض وربما كان منشأ ذلك اقتصاديا لكنها الازمات ظهرت بشكل تساؤلات دينية وتلهف عميق، تجلى في مختلف انحاء العالم، إلى حلول روحية مختلفة، وتطلع عنيف إلى آفاق أخرى ترضي الانسان وتمنحه الطمأنينة. والرضى والقناعة وهكذا في الوقت الذي كانت تتفلسف المسيحية في مواطنها الأولى، وتتفلسف البوذية وتتفرقان شيعا ومذاهب شتى كانت هاتان الديانتان واحدة في اتجاه الشمال الغربي من العالم المتمدن (المسيحية في أوروبا الغربية) والثانية في اتجاه الشمال الشرقي (البوذية في الصين) وفي الوقت الذي دخلت فيه المسيحية انكلترا وهو القرن السادس (مع الراهب أوغسطينوس سنة ٥٩٦) دخلت البوذية على الطرف الآخر إلى اليابان بشكل واسع سنة ٥٥٢ لكن مركز بعث وانطلاق المسيحية كان قد اصابه القلق الشديد، في الشرق القديم (مصر وسورية) لدرجة التحول إلى الرهبنة والعزوف عن الدنيا كردة فعل على الترف والفساد في عين العقيدة التي

شاعت بين الجدل المنطقي والرفض الرهباني. ولم تنج الزرادشتية رغم طابعها القومي الفارسي من الهزات فبعد أن تأثرت بالمسيحية وظهر فيها المذهب المآنوي (في القرن الثاني) عادت في القرن السادس فخضعت لتأثيرات الحياة الفارسية فظهرت فيها المزدكية المشاعية ثم ظهر الاسلام فأوجد الحل للتأزم الروحي فترة تزيد على القرنين باعلانه الوحدانية المطلقة الكاملة . ولكنه كسب على حساب المسيحية بصورة خاصة قبل أن يكسب على حساب البوذية في الهند وجنوب شرقي آسيا وفي الصين وحين توزعت فيه الفرق والمذاهب بالجدل الفقهي الفلسفي اتصل هذا الجدل بالامور الثانوية فيه وليس بالعقيدة وكيانها المتين. وكان النزاع منه في كل الأحوال لا يتعلق بأصول العقيدة ووظيفة اللاهوتية نفسها والناسونية ــ كما في المسيحية ــ ولكن في الفروع والتفسير. واذا تقبل الاسلام أفكار التصرف ــ وبعضها يستقي من جذور بوذية ــ فلم تقم فيه أزمات روحية عنيفة. بل ظل على توازنه المادي والروحي وتقبلت بسرعة حتى الشعوب البدوية الغازية بعد أن استطاع اقامة حضارة مادية روحية باذخة. وهكذا دخل فيه السلاجقة الترك كما دخل فيه المغول الذين لابسوه وتعاملوا معه. وان استعصى الصليبيون الذين لم يقم في المشرق الاسلامي منهم إقامة دائمة إلا الكميات القليلة وبقيت طبيعة علاقاتهم مع المسلمين طبيعة استعمار استثماري حتى ما قبل العصور الحديثة. ولكنهم تأثروا مع ذلك بالاسلام حين جاءهم مع العثمانيين. ولم يعرف العالم بعد الاسلام دينا آخر فقد جاءهم بالحل الروحي الاخير.

واذا عدنا للمقارنة بين الحركة العربية الاسلامية في فتوحها وتوضع العرب بعد ذلك في الاقاليم المفتوحة وبين التحركات الاخرى، سواء تلك التي سبقتها أو تلك التي لحقت بها وجدنا العديد من الفروق التي يمكن أن تفسر لا انتصاراتها المتوالية فجميع التحركات الاخرى قد انتصرت بقوة ضرباتها للمناطق المدنية، في أوروبا كما في الهند والصين ولكنها تفسر أمرين تميزت بهما الدولة العربية الاسلامية التي نشأت أثر الفتوح وتفسر بروز هذه الدولة كدولة اولى ووحيدة خلال فترة تزيد على قرنين ثم استمرار وجودها ككتلة حضارية واحدة، مسيطرة مدة تزيد على ألف سنة (حتى عصر الانحطاط العثماني) هذان الامران هما :

١ ـ سرعة الفتوح العربية الاسلامية وسرعة تقبل الشعوب للحلول الاسلامية في الفكر الديني.
٢ ـ بقاء اثر هذه الفتوح الثقافي والديني إلى اليوم.

وثمة أوجه عديدة للمقارنة بين الفتح العربي ـ الاسلامي والتحركات الاخرى يمكن أن نجمل بعضها في النقاط التالية:

١ ـ كانت الفتوح العربية الاسلامية هي الوحيدة التي تحركت من الجنوب ومن المناطق الجافة وشبه الحارة نحو المناطق المعتدلة بينما كانت الشعوب الاخرى تتحرك بالعكس من الشمال الى الجنوب ومن المناطق الباردة الى المناطق المعتدلة. ولم تتكرر حركة الفتوح العربية الجنوبية مرة اخرى خلال العصور الوسطى كلها بينما تكررت حركات الشعوب الشمالية وتعددت سواء في مراكز انطلاقها أو في تنوع عروقها الانثولوجية أو في اتجاهاتها أو في مصائرها.

وكانت مراكز انطلاق هذه التحركات خمسة مراكز بصورة اساسية: وحدهم انطلق العرب من الجزيرة العربية لجبهة الجنوب بينما توزعت مراكز الانطلاق في الشمال على أربعة مراكز بصورة اساسية: البحر البلطي، والسهوب الروسية الغابية حول آرال وسهوب تركستان وصحراء غوبي ـ منغوليا. وقد خرجت من مركز البحر البلطي مجموعتا الجرمن والفايكنغ ومن السهوب الروسية مجموعة السلاف ومن السهوب التركستانية مجموعات الترك ومن صحراء منغوليا المغول.

واذا انطلق العرب بصورة كثيفة واساسية نحو الشمال أولا ثم المشرق والمغرب معا أي نحو الهلال الخصيب، ثم ايران ومصر ثم شمال افريقيا وتركستان والهند، فان الجرمن مثلهم كمثل الفايكنغ اتجهوا نحو غرب أوروبا والجنوب أي نحو المناطق المتمدنة منها. واتجه الترك الاتجاه نفسه ولكن الى مناطق الحضارة الاسلامية، في جنوبهم الغربي، فدخلوها خاصة مع السلاجقة في القرن الخامس الهجري (١١م).

بينما توزع جهد المغول في اتجاهين معا: اتجاه جنوبي إلى الصين التي هدموا حضارتها مرة بعد مرة واتجاه غربي امتد معهم أحيانا إلى قلب فرنسا كما انحدرت منه فروع نحو الجنوب سواء ضد الهند أو ضد ايران الساسانية أو العرب المسلمين فيها أو ضد الدولة

البيزنطية في البلقان وايطاليا . قام بذلك الهانز أولا في القرنين الخامس والسادس الذين دخلوا الصين ودخل الهفتاليون منهم الهند ووصلوا مع آتيلا الى فرنسا وايطاليا (٤٥٠ ـ ٣٤٥٢) ثم قام بذلك مغول جنكيز في القرن السابع الهجري (١٣ م) ثم تترتيمور (أوائل القرن ١٥/٩ م) الذين طوقوا البحر الأسود من الشمال كما دخلوا ايران وشمالي الهند في نوبات متعاقبة .

٢ ــ ولم تكن الفتوح العربية الاسلامية فتوحا بدوية . هذا الوهم التاريخي يجب أن يزول أو على الأقل أن يصحح . صحيح أن بعض الجموع التي قامت بالفتوح الأولى كانت من قبائل البدو في نجد لكنا ننسى أنهم لم يكونوا وحدهم وأن كتلة المشاركين فيها كانت من أهل القرى في الحجاز، ومن أهل نجران واليمن وحضرموت وعُمان والبحرين، بالاضافة الى عرب الشام وعرب العراق. هؤلاء جميعا لم يكونوا من البداة ولا كانت حروبهم مجرد غزوات بدوية والا فأين ذهبت الممالك التي أسسوها والحضارات التي أقاموا والأبنية والطرق والحرف والاسواق والتجارات ؟ ان عددا من الحقائق التاريخية تقف حائلا دون قبول مقولة التبدي التي يصر عليها المؤرخون رغبة منهم ــ فيما يبدو ــ في اعطاء الاسلام والفتوح الاسلامية تألق القفزة التاريخية المعجزة من هذه الحقائق :

أ) أن الفتح البدوي يقوم على النهب والتدمير واحيانا يتبع ذلك الانسحاب . ولم تقم الفتوح العربية على ذلك . لقد جر المؤرخون بعض ما حدث في اللحظات الاولى فأسقطوه على كل ما جرى بعده وجعلوه القاعدة مع أن وصية أبي بكر لجنده بألا يقطعوا شجرة ولا يحرقوا زرعاً ولا يزعجوا راهبا في بيعته ثم ايقاف عمر لمصادرة الارض واقتسامها كغنيمة كانا الغاية في الموقف المدني ، لأن الارض وما عليها هما مصدر الثروة والعمل .

ب) والبدوي يكره المدنية ويدمرها ، حسداً أو رغبة في النهب أو رفضا لحياتها ولم نسمع بتدمير مدينة ، أي مدينة أثناء الفتوح العربية . ولكنا نعرف بالعكس عن انشاء مدن عديدة جديدة ، والفتح ما يزال في مطالعة الاولى . وثمة على الاقل أربع مدن منها ما تزال قائمة الى اليوم هي البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان . وظهور هذه المدن في ذلك الوقت المبكر هو الرد على كل مزاعم

البداوة في الفتوح وتأكيد لوجود الفكر المدني الكامل لدى المسلمين الأولين.

جـ) حافظ الفاتحون على الثروة الزراعية والارض واسرعوا في احياء مواتها وتثمير ثرواتها. بدليل ارتفاع خراجها المتمادي في العراق ومصر وسورية خاصة في القرن الاول وهو عمل لا يقوم به البداة ان لم يقوموا بعكسه.

د) تبنى الفاتحون الطبقات الحرفية في المدن وتعاملوا معها مادة وجدلا وأخذاً وعطاء فكانت النواة الاولى للمسلمين الجدد فان ظهر لديهم نوع من احتقار الحرف في الفترة الاولى فانما كان ذلك نتيجة تفضيلهم فريضة الحرب والجهاد كعمل على القبوع في الدكاكين باعتبار الجهاد مهمتهم الاساسية.

هـ استمرت التجارة الداخلية والعالمية على طرقها وتنظيمها السابق للعرب بل زادت حركتها مع إلغاء الحواجز التي كانت تعيقها في المناجرات البيزنطية الساسانية.

و) تبنى الفاتحون وابتكروا في الوقت نفسه كثيراً من العناصر الفنية في البناء والتصوير والغناء والموسيقى وآلاتها والكثير من عناصر الحياة المدنية. ظهر ذلك واضحا منذ العهد الاموي في مدارس الشعر والغناء كما في مدارس البناء والتصوير أو في النماذج الحرفية الفنية.

وبالمقابل نجد أن الجماعات البدوية حقا إنما كانت الجماعات الشمالية الرومان كانوا يسمونها العالم البربري وكذلك كان الصينيون يسمون المغول في شمالهم بالبرابرة وبعيون الهمج. فقبائل الجرمن مثلا (على تنوع شعوبها من ألمان وفرنجة ولومبارد و بورغند وفاندال وقيزيقوط واوستروغوط) شكلت منذ اواخر القرن الرابع ما يشبه الكابوس البشري الذي انهارت أمامه الحدود الرومانية عبر الدانوب والرين بما فيها من قلاع وحصون وكنائس. واندفع السيل البشري الجارف كأرتال الجراد ووقعت اعلاق الفن وروائعه والمباني التي كانت تزهو بها المدن والرياش فريسة للغزاة الذين أهملوا أمرها ولم يلبث أن عفا الكثير من معالمها فأصبحت نسيا منسيا. وهكذا زال من الوجود ما كان قائما فيها من مدارس وكنائس كما بادت فيها الجوالي والجماعات المسيحية وعفا كل أثر للحدود الرومانية واقتسمت القبائل الجرمانية الارض... وكان عبورهم خلال إيطاليا وغاليا

واسبانيا في طريقهم الى افريقية كارثة هزت اركان العالم اللاتيني وهددته بالمحق لما انزلوا في هذه البلاد من خراب ودمار ونهب وسلب وما أضرموا فيها من حرائق ضروس أكلت الأخضر واليابس .... وعمت الفوضى مرافق البلاد واختلت الحركة التجارية . وانقطعت وسائل الاتصال والانتقال كما انقطع استيراد المواد الغذائية من الخارج ... وارتد الناس حتى إلى الأوثان والأصنام مستغفرين . واحتل في النهاية اودواكر سنة ٤٧٦ روما منهيا بذلك امبراطوريتها ! وحين حاول الامبراطور جاستينيان في القرن السادس احياء الامبراطورية الرومانية تحت سلطته ، لم يستطع في حروبه أن يسيطر على اكثر من الشواطيء الجنوبية لأوروبا وعجزت جنوده وقواه عن التوغل شمالا إلى المناطق البربرية الضاربة التي شقت طريقها لوحدها وهكذا وقعت في يده افريقيا سنة ٥٥٣ والاندلس سنة ٥٤٤ وايطاليا ما بين سنتي ٥٣٥ و٥٦٣ وافلت من يده ماوراء ذلك وسرعانما ظهر وضع جديد انفصلت فيه البلاد الاوروبية الجنوبية المطلة على المتوسط عن جسم القارة الذي وقع فريسة بيد أكثر الجرمان همجية وبربرية .

وبينما الغيت في روما وظيفة القنصلية سنة ٥٤١ وألعاب المصارعة سنة ٥٤٩ وألعاب الظفر سنة ٥٥٢ وكان آخر اجتماع لمجلس الشيوخ سنة ٥٧٩ حيل بين كتلة القارة وبين البحر المتوسط اللاتيني وغرقت القارة في البربرية الجرمانية وهمجيتها عدة قرون وخشنت طباعها وانقطع فيها الذهب فلم تعد فيها عملة ذهبية تصك وتكاثر صك العملة الفضية بعد خلطها بالرصاص بنسبة عالية وحل الشمع محل الزيت في الانارة وغاب ورق البردى تماما وحلت محله حتى في الديوان الملكي الرقوق والجلود ... وانحطت الحياة الروحية حتى لدى رجال الدين وانحلت الاخلاق ونشطت الاساطير وبلغ من انهيار الوازع الديني ما تعبر عنه الهياكل البشرية الباقية من آثار الكلوم والجراح والتشويه والكساح ويجب أن ينتظر غرب اوروبا حتى عهد شارلمان الكبير الامي ليرى مطلع التحرك نحو النهضة في مطالع القرن التاسع الميلادي ولتنتكس من جديد تحت ضربات الفايكنغ ذوي المراكب كالسيوف الرفيعة المديدة الذين سوف يغيرون مرة اخرى من تركيبها السكاني وحضارتها التي قضت ما لا يقل عن ٥٠٠ سنة حتى بدأت تتفتح .. وعادت اوروبا من جديد الى فوضى القبائل المتنقلة والشعوب التي تعيش على الصيد والنهب وانكمشت فيها الزراعة واعتصمت الحضارة بمراكز ريفية بقلاع النبلاء ويحميها السيف الاقطاعي .

هذه الصورة للغرب الاوروبي تتكرر في شرق اوروبا الذي سيطر عليه في الفترة نفسها توسع السلاف الذين رغم تضارب الاراء حول اصلهم الاول الا انا نجدهم ينتشرون في القرن الرابع، بعد ارتحال الجرمان غربا، في حوض الدانوب الاسفل وجنوب روسيا. وقد رافقهم في التحرك والتوضع قبائل الآفار والبلغار حتى جبال الالب الشرقية وحتى البحر البلطي. وقاموا على مثال البلغار والآفار بأعمال الغزو والنهب بينما اهملت بيزنطة امرهم لقلة الموارد التي تأتيها من تلك البقاع. لكن عبورهم المتصل للحدود جعل قسما كبيرا من اهل الريف يهاجرون الى الاماكن الحصينة و يهجرون الارض للبرابرة الذي ظلوا الصيد الثمين للعبيد طوال القرون الوسطى واعطوا اسمهم لكلمة عبد (Slave) ووصل الصقالبة سواحل بحر ايجه والبحر الادرياتي دون كبير عناء. وحوالي سنة ٦٤٠ والفتوح العربية ــ الاسلامية في أوجها. جاءت موجة جديدة من الصقالبة فيها الكروات والصرب عرفوا باسم السلوفين استعان بهم هرقل لدفع الآفار لكنه دفع ثمن ذلك انهم توطنوا وظهرت لهم بسرعة اول مملكة منذ اواخر القرن السابع بقيادة اميريدعى ساموا! ضمت التشيك والمورارف والسلوفاك... اما صقالبة الشمال والشرق فظلوا على البدائية الاولى التي حدثتنا عنها رحلة ابن فضلان في القرن التاسع ونعني خارج العالم المتمدن بينما تبربرت المقاطعات التي وقعت في ايديهم في الجنوب البلقاني، في انتظار خروجهم من الوضع القبلي البدائي.

أما في الشرق فتحكمت الجغرافيا أكثر من غيرها من العوامل الاخرى، وهكذا كان تحرك الشعوب البدوية وهي في شمالي الصين ذا اتجاهين فاما الى الجنوب الصيني أو الى الغرب عبر السهوب التركستانية. ومن هناك الى الهند عبر افغانستان أو الى ايران أو الى شرقي أوروبا من شمال بحري آرال وقزوين.

ففي الوقت الذي تحرك الجرمن في اوروبا تحرك البرابرة الرحل من المغول والتتر والهانز يقرعون حدود الصين الشمالية بنجاح متجاوزين السور الاعظم الذي انما بني في الجبال لصد غاراتهم وبعد أن توغلوا فيها ما بين ٣٠٤ ــ ٣١٦ واستولوا سنة ٣١١ على العاصمة لو يانغ «القوا القبض على الامبراطور وذبحوا اكثر من نصف سكان مدينة تشانغ ــ تفان وساموا الامبراطور الأسير الذل والمهانة وجعلوا منه ساقيا لطاغيتهم هيونغ ــ نو ليونان الملقب بحق (آتيلا الصين) قبل أن يعدموه. ووصل هؤلاء في غزوة أخرى إلى تشانغ ــ تفان ولم يكن مصير آخر ملوك تشن في الشمال (وهو الامبراطور منتي ٣١٢ ــ

٣١٦) بأفضل من صاحبه فقد وقع في قبضة ملوك الهانز وامسى غاسلا للصحون في المطبخ قبل أن يعدم.

وهكذا وقع شمال الصين كله في الفوضى وافتقد الأمن وزاد شقاء الطبقات الشعبية وبؤسها وتقطعت أوصال الصين، تحت همجية المغول والهانز الى دول وممالك شتى متناحرة ونزح الناس امام البرابرة من الشمال الى الجنوب زرافات ووحدانا وجلت اسر بقضها وقضيضها عن ارزاقها واملاكها بعد أن سدت بوجهها ابواب الرزق. وبينما تكاثف السكان في الجنوب وضاق الرزق وزاد الفقر والمشاكل كانت المناطق الشمالية ترجع مسافات إلى الوراء فيتوقف فيها تعمير الأرض وتتخرب المزارع وتهجر السدود وتتحول الأراضي إلى املاك كبيرة مهملة وحين سقطت دولة هيونغ ــ في أواسط القرن الرابع ونهضت أسرة فو كانت المذابح والفساد قد وصلت بانظمة الحكم إلى الحضيض ولم تستطع هذه الاسرة ولا التي قامت بعدها باسم ملوك دابي (٣٩٦ ــ ٥٣٤) أن تفعلا شيئاً لأن المنطقة ظلت تتعرض لغزوات متلاحقة من البدو الرحل في الفيافي المجاورة. وبالرغم من أن البوذية انتشرت في هذه الفترة الا أن بعض الملوك ارتكبوا المنكرات والفظائع كالتتري ذي اللحية الزرقاء شا ــ هو الذي كان يفرش المائدة على اشلاء محظياته الجميلات والامبراطورة هو (٥١٥ ــ ٥٢٨) التي انتقلت من محظية إلى سيدة للبلاد وارتكبت من الفظائع والدسائس ما آثار عليها ثورة حمراء ولم ينقذها لجؤها إلى الرهبنة فانتهت باغراقها في نهر هوانغ ــ هو. ومع أن الصين الجنوبية حاولت بعد سنة ٤١٠ استرداد الشمال اثر قيام اسكاف اسمه ليو ــ يو باسترداد مقاطعة نان ــ ين من المغول ومملكة هيو ــ تسن ومدينتي تشانغ ــ تفان ولو يانغ إلا أنه فشل بعد ذلك وعادت البلاد الى الفوضى. وسقطت فيها (الصين الجنوبية) أسر مالكة عديدة: سونغ (٤٧٩) وتسي (٤٧٩ ــ ٥٠٢) وجماعات من العسكريين ثم اسرة تشن (٥٥٦) ثم اسرة سواى سنة (٦١٧). وكان على الصين انتظار اسرة تانج لتتوحد الى حين.

ولم يقتصر أثر المغول على الصين فالهانز منهم بعثوا بهجرة بشرية عارمة في اتجاه الغرب، تغلي بالنشاط المحموم عبر الصحاري المغولية المحرقة فهبطوا من جبال التاي الى ما وراءها. كانت همجيتهم تفوق كل ما يخطر في البال وقد هبطوا بعرباتهم وقطعانهم على الجياد جبال التاي وتجمعت أرجالهم فيما وراء بحيرة آرال. كانوا يجهلون الزراعة ولا

يعرفون الكتابة ولا الملابس الاالجلود الخشنة وركوب الخيل وقد صمدت الحدود الايرانية امامهم فاتجهوا صوب أوروبا ، والسهوب الغابية الباردة ما بين أورال والكربات .

وقد وصلت هذه الهجرة في تحركها حتى قلب فرنسا وايطاليا . مزلزلة النفوس حول الطريق الأول ما بين منغوليا وغرب أوروبا واجتاز احد زعمائهم المسمى آتيلا نهر الدانوب سنة ٤٤١ واتجه بعد ذلك بعشر سنوات الى غاليا بكل قواته فاضرم الحرائق في مدينة متز سنة ٤٥١ وحاصر اورلشان ثم عاد الى حوض الدانوب لينتفض من جديد على ايطاليا سنة ٤٥٢ ثم ليعود فيقضي نحبه في المجر بعد سنة من ذلك .

هذا القائد الذي كان يسره أن يدعى بنقمة الرب أو سوط الله المرعب كان مولعا بزرع الخراب والدمار مستسلما للخرافات وان احاط نفسه بجمهرة من الادباء والعلماء للزينة . كان الصورة المسبقة لخلفه المقبل جنكيز خان . وقد تفككت امبراطوريته فور موته وزال بسرعة كل ذكر لقومه الهانز من اوروبا بعد أن انكفأوا نحو سهول روسيا ونالت منهم بيزنطة اولا سنة ٤٦٨ عند مجرى الدانوب الاسفل ثم نالت منهم كرة أخرى سنة ٥٥٩ بعد أن مزقتهم المشاحنات الداخلية والفتن فيما بينهم .

وما لبثت أن اطلت موجه جديدة كاسحة من هؤلاء البرابرة هي غزوة الآفار الذين أسسوا مملكة عبر السهوب الروسية الغابية بينما تأسست في الوقت نفسه في منغوليا على الطرف الآخر مملكة جوان ـ بين سنتي ٤٠٧ و٥٥٣ وقد انقض الآفار حين كان جوستينيان يلفظ أنفاسه على الحدود البيزنطية وأسسوا مملكة امتدت من منغوليا حتى مشارف النمسا ودخلوا مع بيزنطة في صراع مميت استمر طيلة القرن السابع للميلاد واستمرت هذه الموجة البدوية تهدد اوروبا طويلا حتى كبح جماحها شارلمان أواخر القرن الثامن .

أسس البدو الرحل الآخرون على الطرف الآخر امبراطورية اخرى في القرن السادس تدعى توكيو ولكنها كانت تركية هذه المرة خلفت مملكة جوان وامتدت ما بين صحراء منغوليا والصحاري والسهوب المجاورة لها حتى البحر الاسود وبالرغم من أنها اعتنقت المزدكية إلا أنها تحالفت مع بيزنطة ضد إيران . وظلت امبراطورية بدوية تموج فوق أعداد هائلة من خيام اللباد وفرسان القتال وتنتقل شعوبها وقواها طلباً للماء والكلأ وتربية الماشية والصيد ، والفخر الأكبر لرجالها أن يموتوا على الحراب والعار الكبير أن يموتوا مرضى

على الـفـراش وهذه القبائل وان أقام ملوكها في الديباج والحرير الموشّى إلا أنها ظلت بدو ية متنـقـلـة وعلى الفقر الشديد والأمية و بدائية الحياة يسيل لعابها لمرأى المدن وخيراتها وتقيم حيـاتـها على العيش من وراء الحيوان تر بية واستغلالاً ومن وراء حمايتها أو مهاجمتها للقوافل التـجـاريـة الـعـابـرة بين الـصـين والـغـرب، عن طريق الحرير، تماماً كمـا يجري في الأجزاء الصحـراو يـة من الجزيرة العر بية وحين انقست هذه الدولة قسمين متنافسين ضعف شأنها وزالت من الوجود أمام سيطرة أسرة سواي الصينية ثم اسرة تانغ وعفا كل أثر لها ليحل محلها أواخر القرن السادس قبائل الاوديفور التركية.

على أن تـدفـق الهانز لم ينقطع. كان المنبع الصحراوي المغولي ما يزال يتدفق جموعا بـشريـة بـعـد جوع تلك الأعداد الضخمة التي جمعت في شمال تركستان لم تتحرك كلها في اتجاه اورو بـا. الخـميرة الباقية ظلت تراقب الحدود الساسانية والثروات المدنية التي تغري وراءهـا. وقـد تـدفـقـت جوعهم منذ أوائل القرن الخامس على بـلاد الصغد والبكتريا (أيام الملك الـسـاسـاني بـهـرام حور (٤٢٠ ــ ٤٣٨) و بعد أن انتصروا على خليفته الثاني فيروز (٤٥٩ ــ ٤٨٤) اسـتـقـروا في مـرو وهـراه. واذا اسـتـطـاعـت قـوة ايران منعهم من اختراق حدودها بدرعها العسكري المنيع فقد اندفعوا في اتجاه افغانستان طاردين أمامهم السكان. ثم راحوا يـهاجمون منذ سنة ٥٠٠ بلاد الهند، في سلسلة من المعارك الدامية أنهكت دولة الغو بتا إنهاكاً ، كـمـا سـامـوا الـسـكـان أبشع العذاب والذل بعد أن أخذوهم بالمذابح الهائلة واضطهدوا بخاصة الجماعات البوذية ودمروا معابدها.

وحين اخـذت امـارات الـضعف ترتسم على إمبراطورية الغو بتا الهندية هاجمها الهانز بعنف شديد وتوالت غزواتهم الماحقة بقيادة طورامانا، وميهيرا كولا فزرعت الخراب والدمار في الـبلاد وسيطرت عليها مدة تزيد على القرن. حتى مطالع القرن السابع كانت هذه الفترة كافية لتدمير الملامح الحضارية التي كانت من مفاخر عصر الغو بتا فبالاضافة الى الاضطهاد الـشديـد للـبـوذيـة، تـهـدمـت الاديار واستبيحت المحرمات وقضي على روائع الفنون ودرست معالمها لدرجة أن الدراسات عاجزة الآن عن تحديد تلك الملامح الا من خلال بعض النماذج النادرة.

على ان برابرة الهانز الذين دخلوا الهند ما لبثوا أن ضاعوا تماما في أرجائها منذ اواسط الـقـرن الـسـابـع امـا لاسـتـئـصـالهم او لذو بانهم ضمن سكان البنجاب وغوجرات ودخول

زعمائهم ونبلائهم في الارستقراطية الهندية مثلهم في ذلك كمثل ابناء عمومتهم الذين وصلوا اوروبا اما الهانز الذين زحفوا على الصين فقد استقروا هناك واعرقوا فيها و«تصينوا» فصاروا قطعة مميزة ضمن الحضارة الصينية .

كل هذه التحركات البشرية التي سبقت ظهور العرب المسلمين على مسرح التاريخ لم تنته بظهورهم وبالفتوح التي فتحوا لقد كانوا فصلا خاصا من فصولها ، وفصلا مميزا . واذا استطاعوا الى حد كبير نشر «السلام الاسلامي» فترة تزيد على أربعة قرون فقد عادت التحركات من جديد تهز هذا السلام وتدمره . لقد آثار العالم الاسلامي بحضارته وخيراته وعمرانه طمع الشعوب البدوية الشمالية من جديد لا سيما بعد أن تمزق الى قوى سياسية عديدة متناحرة وانفتح المجال بهذا الشكل لثلاث قوى متفاوتة في بربريتها ان تهاجمه من الشرق والغرب :ـ

١) توغلت الموجه السلجوقية في تركستان وخراسان ثم اذربيجان واخترقت ارمينية والأناضول حتى اقصاه كما ملأت ايران والعراق والشام . كان مرورها مدمراً أعاد الكثير من اراضي الاناضول والشام والعراق الى الحال الرعوية وافرغها من السكان رغم اسلامها الذي لم تستفق عليه الا متأخرة بعد أن وقعت حتى خلافة بني العباس في يدها سنة ١٠٥٥/٤٤٧ وقد غير دخولها من التركيبة السكانية في هذه المناطق كلها كما بدل البنى الاجتماعية السابقة ولكن الجماعة السلجوقية ، بحكم عسكريتها واستلامها للسلطة كانت مجبرة على أن تقف للدفاع عن المكاسب والاراضي التي كسبتها حين واجهتها القوة الاخرى القادمة من الغرب : قوة الصليبيين منذ سنة ١٠٩٥/٤٨٧ .

٢) جاءت هذه القوة من الغرب بشكل موجة بشرية جارفة فيها الأطفال والقسس كما أن فيها النبلاء والحرفيين والنساء .. وجاءت على دفعات متلاحقة ترفع الصليب في يد ، وتنهب بالاخرى كل ما تصل اليه ايديها . كانت موجات بشرية تسوقها المصالح الاقتصادية وان وضعت على صدورها شارة الصليب كانت جمهرتها الساحقة من الطبقات الدنيا الباحثة عن الرزق والهاربة من المجاعة ومن الديون . أما طبقاتها العليا فباحثون عن المصالح والاقطاعيات التي أفسدت أبوابها في اوروبا والتقت القوى السلجوقية البعيدة المرمى بالسيف الفرنجي الثقيل الضخم على حساب

الكتلة الحضارية الاسلامية ما بين الأندلس الى صقلية إلى الشام ومصر وامتد الصراع مائتي سنة لكن القوى الصليبية ظلت خلال ذلك غريبة عن المجتمع الاسلامي الذي تحكم سواء في اسبانيا أو صقيلية أو المشرق. رأت نفسها هي الأكثر عدداً في اسبانيا فظلت تسحق المجتمع الاسلامي حتى العظم في محاكم التفتيش أكثر من مائتي سنة. ورأت نفسها أضعف منه في صقيلية فداورته حتى تمكنت منه ورأت نفسها جذراً ضمن جوعام يعاديها في الشام ومصر فاضطرت للرحيل بالسيف عنه، لم تترك فيه أي أثر سوى بعض القلاع الحجرية.

٣) وفي منتصف الفترة الصليبية ظهرت من أقصى الشرق خيول المغول يقودها جنكيز خان الذي ألغى اسمه من ذاكرة الناس اسم آتيلا. لانه كان سوط الرب الفعلي وتوغلت جماعاته المغولية في الصين توغلها حتى اواسط اوروبا وحتى البحر الادرياتي لكن ضربتها الفعلية إنما كانت في العالم الاسلامي الذي دمرت مدنه وقتلت ملايين السكان فيه ونهبت أثمن كنوزه في بلاد الشام.

واذا دخل مغول جنكيز الى الصين وحكموها اكثر من مائة وخمسين سنة «وتصينوا» فيها كما دخلوا العالم الاسلامي فاسلموا وتوالت منهم عدة سلالات فيه فقد كان ذلك نتيجة تفاعالات عديدة استمرت اكثر من خمسة قرون في تلك الفيافي، وكان السلاجقة بعضا من نتائجها التي دخلت تاريخ الاسلام...

أ) ففي القرن السادس بعد أن ارتد الجوان جوان والهانز البيض الى الشمال سنة ٥٥٠ على يد قبائل ـ تو ـ كيو عادت هذه المملكة فانقسمت بفوضويتها مملكتين متناحرتين مما أدى لانهيارهما.

ب) وبينما سحقت الصين منغوليا أقام الاديفور جنوب بحيرة بايكال امبراطورية تركية جاعلين من قرة بلاساغون عاصمة لهم.

جـ) ثم قام برابرة الترك الكرغيز سنة ٨٤٠ محل الأديفور فثبتوا اقدامهم في تركستان وأعادوا منغوليا الى همجيتها حتى سنة ٩٢٠، واستفادت قبائل الترك الشاتو من ضعف تانغ فاحتل شمالي غربي الصين سنة ٨٠٨.

د) واخيراً في أوائل القرن العاشر طرد الكرغيز وأبيدوا على أيدي برابرة آخرين من العرق

المغولي هم الكيتات الذين كانوا قد حاولوا منذ القرن السابع التسلّل إلى الصين فردهم أباطرة تانغ بضراوة فلما انهارت قوة الصين نفذوا بقيادة رئيس جريء وراء السور الكبير ونصبوا على العرش قائداً صينيا فرضوا عليه حمايتهم فكان ذلك مقدمة لاستيطان العديد من البرابرة في شمال الصين ولفتحها. وقد «تصين» الكيتات مع الاقامة الدائمة في البلاد وحملوا اسم كين (أي الذهب) واغاروا مراراً وتكرارا على الصين الجنوبية دون أن يفقدوا طاقاتهم الحربية.

هـ) وقد اختلف تاريخهم في هذا عن تاريخ اقوام (المجر) المغول الاخرين في الطرف الغربي الذين شنو الغارات على ربوع الغرب المسيحي ثم ارتدوا إلى سهول هنغاريا واعتنقوا المسيحية وصاروا درع الدفاع عنها في قلب اوروبا ضد البدو الاخرين المتدفقين عليهم.

و) كما اختلف هذا وذاك. عن مصائر جماعية مغولية بربرية ثالثة أقامت شمال بحر قزوين على حوض الفولغا هي جماعة الخزر الذين كانوا ملتقى تجار الفراء المسلمين والبيزنطيين والذين استطاعت اليهودية أن تتغلغل فيهم فتهودوا (و يعرفهم بعض المؤرخين المحدثين باسم القبيلة الثالثة عشرة) وقد حاولوا الامتداد نحو الشمال الروسي ونحو الغرب حتى كييف فردهم عنها امراؤها سنة ٩٦٥ ثم سحقهم الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني سنة ١٠١٦ فتلاشوا بعد سنة ١٠٣٠.

ز) وحل محل الخزر الترك البوشناق حتى قضى عليهم الامبراطور البيزنطي حنا كومنين سنة ١٠٧١ ثم حل محلهم الترك الغز (الذين كان منهم السلاجقة) ولكن قسما منهم نفذ حتى البلقان.

ح) وبرز بعد ذلك القرن خانيون الترك الذين انساحوا ما بين خوارزم، على بحيرة آرال، و بين سجستان واعتنقوا الاسلام.

ط) واما في حدود الصين الشمالية فقد حاول الامبراطور الصيني التعاون مع جماعة الجورشات (من منشوريا) ليخرج الكيتات من بكين فما انتصر الجورشات عليهم حتى استقروا مكانهم والفوا امبراطورية شملت منشوريا وشمال الصين. بينما استقر

بين منغوليا وتركستان عند حوض تاريم شعب الاو يفود التركي...[1].

كل هذه الشعوب البدوية ذات التحركات الواسعة كانت شعوبا رعوية، أوطانها محمولة في خيام اللباد المتنقلة، وحصونها السيوف والأقوات ولغاتها محلية لم تكتب ابدا ولا عرفت لها من الفنون الا الالوان البدائية والرقص الحربي فالقتال الوحشي كان فنهم الأكبر. على أن هذه الشعوب لم تتناول العالم الاسلامي بالهجوم وظلت على هامشه البعيد وان تناولت الصين الشمالية وكوريا بصورة خاصة واطراف بيزنطة الشمالية ومشارف الدول الاوروبية إلى أن ظهر مغول جنكيز منذ مطالع القرن الثالث عشر فظل العالم الاسلامي يعاني من هجماتهم المدمرة وهجمات التتر من بعدهم من جهة و يستأنسهم فيدخلون في الاسلام من جهة أخرى ثلاثة قرون حتى وصل الاسلام إلى كازان والى شمال غربي الصين وبعض المواقع من سيبيريا كما لحق بهم إلى الهند.

واذا نحن اعتبرنا كل ما مضى نوعا من المقارنة بين «بدواة» العرب المزعومة وبداوة الشعوب الشمالية الاخرى المعاصرة لهم من الجرمن الاوائل حتى المغول والتتر الاخيرين فان ثمة حقيقتين تبقيان من امتياز الجماعة العربية الفاتحة هما : عقيدة التوحيد الاسلامية، واللغة العربية الكاملة المرفودة بكتابة تسمح لها بالثبات والبقاء. الأقوام الأخرى التي ملأت القرون الوسطى حركة وقتالا وتنقلا في المواضع لم تحمل معها لا رسالة روحية ذات قيم، ولا لغة موحدة من ورائها كتابة تربطها إلى التسجيل. وانا لنلاحظ بسهولة في هذا المجال أن الاديان البارزة في عصر الفتوح الاسلامية كانت على نوعين :ـ

أ) أديان محلية قومية ان شئت أو اقليمية : كالزارادشتية في ايران والبراهمية في الهند والكونفوشية والطاوية في الصين والشنتوية في اليابان والشامانتية في الشعوب المغولية ـ التركية.

ب) أديان كبرى تجاوزت في دعوتها حدود قوم معين إلى إقليم محدود وهي المسيحية في حوض البحر المتوسط والبوذية التي انتشرت من الهند الى جنوب شرقي آسيا والى الصين والى طريق الحرير والى اليابان.

---

١. ضربنا صفحا من ذكر عدد من الشعوب التركية الصغيرة امثال المراكيت والكونجرات والكرايبت، والينمان وغيرهم.

وهذان الدينان انتشرا من الجنوب الى الشمال الى المناطق الباردة ووصلا في عصر واحد تقريبا هو القرن السادس الى الجزر البريطانية من جهة والى الجزر اليابانية من جهة اخرى .

غير أن ازمات حادة لكن على درجات متفاوتة كانت تعصف فيما بين القرنين الرابع والسابع بهذه العقائد :

فالنصرانية التي واجهها الفتح الاسلامي اول ما واجه في الشام ومصر وفي بعض العراق كانت قد تحولت بسبب المشاحنات الدينية العنيفة ذات الجذور المحلية إلى عدة شيع وفرق ينظر بعضها إلى بعض على أنه هرطقان واذا كانت شعوب الشرق الأدنى تنظر إلى النظام السياسي البيزنطي وكأنه سيطرة أجنبية دخيلة فان المسيحية التي كانت تجمعها به قد توطنت في كل اقليم واتخذت لنفسها طريقها في الاقليم الآخر. والاختلاف حول فهم طبيعة السيد المسيح لم يؤد الى ظهور فلسفات وتخريجات لاهوتية شتى فقط ولكنه ادى الى انفراد كل جماعة بمذهب وهكذا ظهرت على أساس المانوفستية الكنيسة القبطية في مصر واليعقوبية في الشام كما ظهرت الأ يوسية والنسطورية التي ألجأها الاضطهاد الى العراق وايران والجزيرة العربية وظهرت الارثوذكسية في بيزنطة واليونان والكاثوليكية التي التي اعتصمت بها البابوية في الغرب واختلطت بذلك وأكدته رواسب من الثقافات القومية كالسريانية والقبطية والأرمنية والكرجية والعربية واليونانية . وكره الكثيرون هذه الشحناء فانصرفوا إلى حياة الرهبنة والعزلة والى تعذيب الذات للفوز بالخلاص الابدي . وهكذا تسممت العلاقات لا بين الشعوب فقط ولكن بين الطبقات أيضا مدة تزيد على قرنين ولم تنفع كل المحاولات التي تمت لاعادة توحيد الفكر الديني المسيحي في كنيسة واحدة.

والزرادشتية بدورها ، ورغم إقليميتها لم تسلم من الاضطراب فمنذ القرن الثاني تفرعت عنها عقيدة شعبية اختلطت بالمسيحية هي المانوية وكانت من التنظيم والحيوية بحيث لعبت دورها في الشام وافريقيا خلال العهد الاموي والعباسي الأول كما تسللت إلى اواسط آسيا بعد ذلك والى الأناضول والبلقان ووصلت جنوب فرنسا قبل الحروب الصليبية باسم الالبيجانسية وشنت عليها فرنسا حربا صليبية ابادتها في القرن الثالث عشر. ثم تفرعت عن الزرادشتية عقيدة شعبية اخرى في القرن السادس هي المزدكية كانت في حقيقتها اكثر من كل دعوة دينية سابقة استنكارا صارخا للوضع الاجتماعي في البلاد وتميزت

بدعوتها الى تقاسم خيرات الارض بالسوية وقد عرف عنها رغبتها في قمع الشر عن طريق إزالة أسبابه، ولما كانت اسبابه، في نظرها هي المال والمرأة فمشايعتهما هي التي تزيل الشر من الدنيا. وكان هذا المعتقد نوعا من الاحتجاج على غنى الطبقات العليا في المجتمع الساساني والرفض لعادة التسري المتبقية على نطاق واسع بين عظماء البلاد، والتحطيم للفوارق الاجتماعية التي كانت الأرستقراطية توطدها.

وحين جاء الفاتحون العرب لم يأتوا وحدهم ولكنهم جاؤوا معهم برسالة روحية استطاعت دون عناء أن تلغي كل الجدل النصراني وكل التنوعات الزرادشتية وتمنح المناطق التي دخلتها اطمئنانا روحيا جديدا تسرب شيئاً فشيئاً الى الناس وجاؤوا معهم كذلك بلغة استوعبت حضارات المناطق المفتوحة كما كتب بها تلك الحضارات دون كبير عناء أن تحل محل اللغات والكتابات الاخرى وهكذا زحفت النصرانية شمالا ضمن اوروبا بعد أن اضطرت الى تقليص وجودها على السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر الأبيض المتوسط. ولم تستطع الدفقة العربية الاسلامية التي استمرت اكثر من ١٣٠ سنة أن تطوق هذا البحر من الشمال لا عن طريق القسطنطينية ولا عن طريق فرنسا وايطاليا ولا عن طريق باب الابواب في القفقاس فتوطدت المسيحية الاروبية وراء ذلك وكسبت بعض الجرمن والمجر والسلاف والفايكنغ والآفار وافلت من يدها الخزر الذين تهودوا قبل أن يسحقوا.. وقد حاولت اوروبا أثناء الحروب الصليبية عقد الصلات مع المغول واقامة هذه الصلات على اساس المذاهب الهرطقية التي كانت نفذت منذ زمن الى هناك باسم الاريوسية والنسطورية. ولكن طبيعة المغول التي لم تستطع فهم التثليث والخطيئة الأولى والفداء حالت دون انتشار المسيحية وبالتالي دون توطدها.

أما الزرادشتية فظلت بمذاهبها المختلفة تقاوم الاسلام على أرضها نفسها وتتراجع وتؤكل الأرض التي تقوم عليها مدة تزيد على ثلاثة قرون حتى انهزمت وصارت ايران قلعة اسلامية أما البوذية فكانت في القرنين السادس والسابع للميلاد وسواء في الهند أم في الصين على صراع داخلي مع العقائد الأخرى وعلى صراع خارجي مع الأقوام البدوية المهاجمة من الهانز وغيرهم. فاذا اصطرعت البوذية في الهند مع البراهمية حتى توازت معها فإنها اصطرعت في الصين مع الطاوية والكونفوشية واستطاعت الطاوية تكوين فلسفة لا تقل سمواً أو مثالية عن الفلسفة البوذية التي أصبحت عقدتها شعبية وانشأت كالطاوية

مراسم وطقوساً غاية في الروحانية وانتشر بين الناس القول بالنتائج والتقمص وكرست عبادة الموتى والنذور.. على أن غزوات البرابرة البدو سواء في الصين أم في الهند هددت البوذية بكوارث ماحقة فقد ضيقوا عليها الخناق في الصين لدرجة أنهم حظروا على الشعب اعتناقها خلال القرن الرابع وأخذ الرهبان البوذيون ينزحون إلى الجنوب لاحقين بالبلاط الامبراطوري الهارب الى نانكين مخلفين وراءهم الهياكل والمعابد بعد أن استباحها الغزاة ونهبوا كنوزها وتحفها الفنية ولم يبق من ١٣٧٥ معبداً سوى ٤٢١. لكن الغزاة لم يقدموا بديلا عن البوذية التي ما لبثت أن غزتهم فاعتنقها بعضهم (كالامبراطور هونغ) الذي تنازل عن العرش سنة ٤٧١ ولحق ببعض الأديرة وعاد الموقف العدائي فصار ودياً، في مطلع القرن السادس أقام راهب هندي (يدعى بوذي دارما) عند ملوك وآبي وتولى رئاسة فرقة دينية عرفت باسم تشان ينقطع أصحابها للتجريد إلى اليابان وقام وفد بوذي سنة ٥٢٢ بحمل تمثال بوذا إلى ملك اليابان ليبدأ بذلك عهد اليابان البوذية بجانب الشنتوية.

وحين هاجم الهانز البيض بلاد الهند بعنفهم الشديد توالت غزواتهم الماحقة بقيادة طوار امانا وميهيرا كولا تزرع الخراب والدمار حوالي قرن استهدفت خلاله الديانة البوذية بالاضطهاد الشديد فهدمت الاديار واستبيحت محرمات وقضي على روائع الفن لكن ذلك لم يلغ البوذية التي قامت حول جبال همالايا حلقة متكاملة متصلة تبدأ من الهند الى جنوب شرقي آسيا إلى الصين ثم إلى السهوب التركستانية ثم سجستان ثم السند وكان يوطد هذه الحلقة مجموعات الرهبان الذين ينقلون النصوص البوذية من الهند الى الصين عن طريق الجنوب وعن طريق تركستان.

على أن التوزع الروحي في الصين بين ثلاث عقائد كان يخلق نوعا من الأزمة يزيدها الفقر والغارات البربرية قسوة ولذلك ما أن استطاعت اسرة سواي التي لم يدم حكمها سوى ٢٩ سنة (٥٨٩ ـ ٦١٨) ان توحدت الصين كلها باحتلال نانكين بعد أن ظلت مجزأة حوالي ١٧٠ سنة حتى انعكس ذلك على الفكر الديني فقامت حركة عارمة حاولت توحيد الأديان الكبرى الثلاث في الصين : البوذية والطاوية والكونفوشية وقد وضع سنة ٦١٠ فهرس بالكتب والأشعار الدينية التي أمكن انقاذها ودرج الاباطرة الاوائل الذين تسلموا الحكم سنة ٦١٨ ولمدة تقارب ثلاثمائة سنة على طلب كتب الدينانات المختلفة

الاخرى إلى أبلاطهم وترجمتها وكان من ذلك القرآن الكريم الذي كان يحمله التجار المسلمون معهم إلى هناك فأودعت نسخة منه في البلاط لترجمتها فهي أول ترجمة نعرف خبرها للقرآن في التاريخ ولم تنته محاولة التوحيد الى امرجدي لكنها كشفت التطلع الى افق ديني أرحب واسمى ثم عرفت البوذية الطاو ية معاً هجوما شديدا من الكونفوشية في القرنين الثامن والتاسع ضد صوفيتهما السلبية وانتهى الامر بظهور نحلة جديد روحانية لقيت انتشارا واسعا في البلاد حتى بلغت اليابان تحت اسم (تزن).... وقد جرت محاولة أخرى لتوحيد الاديان في الهند في القرن السابع الميلادي ايام الامبراطور هارشا البوذي. كان رجل أدب وحرب معا ورجل فكر تسامح مع مختلف الديانات إلى أن أفضى إلى مذهب توحيد الأديان. لكن لم تأت مطالع القرن الثامن حتى وقع الاصطدام بين البوذية والاسلام بعد خمس وسبعين سنة من اصطدامه بالنصرانية والزرادشتية. بدأ الاصطدام مع بدء فتوح السند، وعلى غير العادة الاسلامية رافق الصدام هاهنا تخريب للأوثان والانصاب. لم يجر مثله على الكنائس ولا معابد النيران ولكن المسلمين مع البوذية كانوا يقفون وجها لوجه امام الوثنية المناقضة للتوحيد. ولقيت البوذية نتيجة لذلك تراجعا وانكفاء متواليا بعدما لقيت من منافسة الديانة الهندوكية التي كانت آنذاك في أوج ازدهارها. واخذت تتراجع التراجع النهائي أمام الفاتحين العرب الذين اوغلوا بعيدا حتى بلغوا المنطقة المقدسة في حوض نهر الفانج وحين قضي تماما على آخر ملوك الدولة البوذية في الهند من اسرة بالاسينا كانت البوذية تلفظ آخر انفاسها مع أنها البلد الذي اطلع البوذية وشهدها تترعرع وتنمو وتنتشر وقد عرفت الهند قبل ذلك بقليل كيانا مضطربا فبعد الوحدة التي حققها الملك هارشاده كانوج، في النصف الاول من القرن السابع، عرفت البلاد عهداً من التفسخ السياسي تطاحنت فيه دولها وهدرت فيه قواها وهذا ما مكن للدولة الغزنوية وللدول الاسلامية من بعدها حتى المغول سبيل التوسع وادخال الاسلام الى شمال الهند واواسطها..

ولم يكن لشعوب المغول المتعددة عقائد راسخة وكانت معتقداتهم الشامانية القديمة مأهولة بالارواح وقوى الطبيعة الرهيبة ولهذا كانوا إذا ما انتهى فتحهم للبلاد وتوقفت فورة القوى والقتال يعتنقون الديانة التي يجدون عليها الناس في تسامح بدائي ساذج ولهذا عرفوا الطاو ية والبوذية والكونفوشية في الصين وعرفوا المسيحية الأريوسية والنسطورية والارثوذكسية فيما بين التركستان وجنوب روسيا كما اعتنقوا الاسلام في تركستان

وايران والعراق والهند......

إن مكانة الفتوح العربية الاسلامية في التاريخ، سواء في رجالها أو في وقائعها أو في النتائج الحضارية التي ترتبت عليها إنما تظهر في اطار الاحداث العالمية التي سبقتها او رافقتها أو اعقبتها ومن خلال مقارنة العمل الحضاري الضخم الذي اضطلعت به الجماعة العربية المسلمة بأعمال الأمم الأخرى المعاصرة وذات الظروف المشابهة. ولم نقصد بهذه المحاولة أكثر من رسم بعض الخطوط في هذا السبيل.

استقبال بلاد الشام للفتح العربي : الخلفية الثقافية

لطفي يحيى
كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية

القضية التي أطرحها في هذه الدراسة هي أن استقبال بلاد الشام للفتح العربي كان استقبالاً فيه قدر كبير من التجاوب الذي جاء نتيجة للتوافق الكبير في التكوين الثقافي بين أهل بلاد الشّام من جهة، وبين الفاتحين الذين جاءوا من شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى ــ وهو توافق يقابله من الجانب الآخر تباعد بين ثقافة بلاد الشام وبين ثقافة الطبقة الحاكمة التي كانت تمسك بمقاليد الأمور في البلاد في الفترة السابقة للفتح العربي. وأبادر هنا فأقول أنّي لا أعني بالثقافة حصيلة المكتسبات العلمية والفلسفية التي لا يمكن أن تشكّل، في خير صورها، سوى ظواهر متغيرة في المجتمع، وانّما أعني بها أسلوب الحياة والتفكير والتصوّر الذي ينعكس في العقائد والقيم، ومن ثمّ يكون له التأثير الأساسي في المواقف التي يتخذها المجتمع ازاء المراحل التاريخية التي يمرّ بها.

وأشير، قبل بدء الحديث إلى ملحوظتين في هذا الصدد : احداهما هي أن التكوين الثقافي بالمعنى الذي ذكرته أمر لا يمكن أن يتمّ في فترة قصيرة، ومن هنا فاذا كانت المرحلة التي وصل اليها في بلاد الشام في العصر البيزنطي هي التي أدّت بشكل مباشر الى الموقف الذي اتخذه أهل هذه البلاد ازاء الفتح العربي، فانّ تطوّر هذا التكوين الثقافي أمر ينبغي بالضرورة أن نتتبّع شواهده التاريخية في فترات سابقة لهذا العصر. أما الملاحظة الثانية فهي أنّي لن أخوض في مضمون هذا التكوين، فهو أمر يخرج عن نطاق هذه الدراسة، ومن ثمّ سيكون تتبّعي لهذه الشواهد قاصراً على مجالين هما : مظاهر التكوين الثقافي والأسباب التي أرى أنها أدّت اليه.

ــ ١ ــ

وفي بداية الحديث عن استقبال بلاد الشام للفتح العربي أودّ أن أميّز بين مفهومين لهذا الاستقبال : الأول هو موقف البلاد من الفاتحين أثناء فترة الحرب ذاتها، أما المفهوم الثاني فهو موقف بلاد الشام من الفتح العربي بعد أن أصبح هذا الفتح واقعاً تاريخياً في

حيـاة أهل البلاد . وفي إطار هذا التمييز فانّي أرى أنه لا ينبغي لنا أن نبحث عن التجاوب بين بـلاد الـشام و بين الفاتحين العرب خلال فترة الفتح ، فالأمر هنا تحكمه الظروف العامّة الـتـي تحكم أيّ فتح آخر، والتي قد تكون مواتية أو غير مواتية أو يتداخل فيها النوعان ، ومن ثمّ يتأرجح موقف البلاد من الفاتحين بدرجات متفاوتة بين المقاومة والمسالمة .

وفـيما يخصّ بلاد الشام فانّ فتح العرب لها لا تشير أحداثه في مجملها الى أنّه « كان فـتـحاً سـهـلاً » كـمـا يودّ أن يصفه بعض المؤرخين المعاصرين[1] ، فقد استغرق ثمان سنوات كـاملة بين ٦٣٣ و ٦٤٠م ، وهي مدّة أطول بكثير من تلك التي استغرقها ، على سبيل المثال ، فتح الاسكندر للبلاد والذي تمّ في أقلّ من سنة واحدة بين ديسمبر (كانون أول) ٣٣٣ ق . م وأكـتـوبر / نوفمبر (تشرين أول / تشرين ثان) في السنة التالية . كذلك فهو أطول من فتح الـعـرب لمصر، الذي استغرق أقلّ من ثلاث سنوات بين يناير (كانون ثان) ٦٤٠م وسبتمبر (أيـلـول) ٦٤٢م . وفي هذا الصدد فاننا نجد مؤرخاً مدقّقاً مثل البلاذري ، اذا كان يذكر أن عـدداً كـبـيـراً مـن الـمدن في بـلاد الشام قد تمّ فتحه مصالحة و يصف ذلك بأنّه « كان فتحاً ميـسّراً » فـانّه يـقـدّم لنا حالات عديدة نقض فيها أهل المدن المفتوحة هذه المصالحة ، كما يـذكـر في حـالات غير قـلـيـلة أن عدداً من المواقع والمدن لم يتمّ استيلاء العرب عليه إلاّ بعد قـتـال يـصـف عـنـفه وشراسته بأوصاف مدبّبة ليس أقلّها أنّه كان « أشدّ القتال وأبرحه » . وهـو، الى جـانـب ذلـك ، يـقـدّم لـنـا حالات أخرى هرب فيها قسم من السكّان توجّساً من الـفـاتحين ، كما يتحدّث عن حالات الحصار الطويل الذي تعرّضت له بعض المدن ، والذي صـمـدت له إحدى هذه المدن ، وهي قيسارية ، سبع سنوات كاملة ــ وهو ما يقرب من جلة سنوات الفتح . هذا ، إلى جانب ما يذكره البلاذري في حالة واحدة على الأقل ، وهي معركة الـيرموك ، من أنّ الذين قاتلوا ضدّ الفاتحين العرب ، كان من بينهم مقاتلون من قبائل عربية اسـتـوطنت بادية الشام ، اشتركوا في جبهة واحدة مع آخرين من الروم ومن أهل الشام ومن

---

١. على سبيل المثال :

Bailly, Auguste: Byzance, Paris, 1939, p. 134. Ostrogorsky, George: History of the Byzantine State (English Tranlation by Joan Hussey), Oxford, 1956, pp. 98—99. Hitti, Philip: History of the Arabs (7th ed.), London, 1961, p. 153.

وأود أن أشير هـنـا الى أن المواضـع الـتـي يرجع فيها الدكتور حتي الى البلاذري (ص ١١٦ سطر ١٨ وص ١٢٦ سطور ١٣ و ١٩ من فتوح البلدان) يتحدث فيها البلاذري عن مناطق محدّدة من بلاد الشام وليس عن كلّ البلاد .

آرمينية تحت لواء قائد عربيّ، هو جبلة بن الأيهم الغسّاني، لمقاومة الفتح العربي[٢].

هذا عن المفهوم الأول لاستقبال بلاد الشام للفتح العربي، وهو مفهوم يجب أن ندرجه تحت اسمه الحقيقي، وهو أنّه يمثّل موقفاً ازاء حالة حرب وليس حالة استقرار، ومن ثمّ لا يمكن الاّ أن يكون موقفاً مؤقتاً لا نستطيع أن نحكم من خلاله على شيء. فاذا تركنا سنوات الفتح وانتقلنا الى الفترة التي أصبح فيها الحكم العربي لبلاد الشام واقعاً حياتيّاً، نجد أن قدراً كبيراً من التجاوب قد ظهر بين أهل البلاد و بين الطبقة الحاكمة التي آل اليها قياد الأمور على أثر الفتح العربي. فلم يقم في بلاد الشام ما يمكن أن نصفه بأنه حركات «وطنية» أو «تحرّرية» مهما كان اللّون الذي تتخذه هذه الحركات، والذي عرفت البلاد أكثر من مظهر له في مراحل سابقة ــ كما حدث، على سبيل المثال، في أثناء الحكم السلوقي حين حاول بطليموس Ptolemaios بن منّايوس Mennaeos (لا علاقة له ببطالمة مصر)، وهو الحاكم العربي المتأغرق من قبل البيت المالك على اقليم خالكيس Chalcis (الاقليم الذي تتوسطه مدينة عنجر اللبنانية حالياً في البقاع الشمالي) أن ينفصل عن حكم الملك السلوقي أنتيوخوس الثاني عشر Antiochus XII وفي أوائل القرن الأول ق. م. وكما حدث في موقف التحدّي الذي اتخذه أهل بلاد الشام لتوجيهات الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية ابّان الصراع المذهبي بين الطرفين، والذي بلغ نقطة اللاعودة في عهد الامبراطور هراكليوس Heraclius (هرقل) في الشطر الأول من القرن السابع الميلادي. أو مثل محاولات رفض الحكم العربي من جانب العناصر الشعوبية ذات الأصل الفارسي في العراق على عهد الدولة العبّاسيّة، أو محاولات احتواء النفوذ العربي في أثناء هذه الخلافة، سواء أفشلت هذه المحاولات كما في حالة البرامكة، أم نجحت مثل محاولة البويهيين ومحاولة السلاجقة.

وانّما انحصر النزاع في بلاد الشام حول أحقية فرد أو آخر، من أفراد الأسرة الحاكمة، بالخلافة. وحتى حين اتسع هذا النزاع ليتحوّل إلى صراع سياسي على النفوذ بين القيسية واليمنيّة، وصل الى حمل السلاح في بعض الأحيان، لمساندة هذا أو ذاك من

٢. البلاذري: فتوح البلدان (طبعة ليدن). أمثلة عن المصالحة في صفحات ١١١ و١١٣ و١٢٦ و ١٣١. عن نقض المصالحة في صفحات ١١٦ و١٤٧. عن القتال الشديد في صفحات ١١٥ و١١٨ و ١٣٢ و ١٣٥. عن توجّس السكان في ص ١٣٠. عن هرب السكّان في ص ١٢٣. عن موقعة اليرموك في ص ١٣٥. عن حصار قيسارية في ص ١٤٣.

المتنازعين على الخلافة، فانّ هذا الصراع لم يكن في محصّلته النهائية الا امتداداً لعصبية قديمة من جانب قبائل عربية، دون أن يستهدف احتواء الحكم العربي أو الخروج عليه (٣).

— ٢ —

وأنتقل الآن إلى الحديث عن التكوين الثقافي الذي باعد بين أهل بلاد الشام وبين البيزنطيين قبل الفتح العربي بقدر ما قارب بينهم وبين الفاتحين الذين قدموا من شبه الجزيرة العربية في الربع الثاني من القرن السابع الميلادي. وفيما يخصّ الشطر الأول من القضيّة فإنّ الثقافة التي سادت بين الطبقة الحاكمة في العصر البيزنطي كانت ذات أصول اغريقية ترجع إلى فترة الاستيطان الاغريقي في المنطقة وهي فترة بلغت ذروتها في أعقاب فتوح الاسكندر المقدوني واستمرت ما يقرب من ألف عام حتى اتمام الفتح العربي. ولكن هذه الثقافة لم تستطع أن تمدّ لها جذوراً في بلاد الشّام (وفي الواقع في كلّ منطقة الشرق الأدنى حيثما حلّت هذه الثقافة)، ومن ثمّ لم تستطع أن تؤثّر على التكوين الثقافي للبلاد إلاّ في أضيق الحدود، سواء أكان ذلك في العصر المتأغرق (الهلّنستي) على عهد السلوقيين الذين حاولوا ارساء قواعد هذه الثقافة عن طريق توطين أعداد كبيرة من الاغريق، أو تحت حكم الرومان الذين كانوا يجدون في الثقافة الاغريقية مثلهم الأعلى، أو طوال العصر البيزنطي الذي كان يمثل الانتصار الرسمي لهذه الثقافة في القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية، وهو القسم الذي اتخذ من بيزنطة، المدينة الاغريقية، عاصمة له.

وفي هذا الصدد فنحن نستطيع أن نتتبع أثر هذه الظاهرة من خلال تتبّع شواهدها في مجالين: أحدهما يتّصل بالوضع الديني في بلاد الشام سواء قبل ظهور المسيحية وانتشارها

٣. عن موقف بطليموس بن منايوس أنظر:

Kammerer, A., Petra et la Nabatene, Paris, 1929, p. 153

عن الأصل العربي (ومن ثمّ الحركة الوطنية) له راجع التعريف بأبيه منّايوس أو مونيكوس في ستيفانوس البيزنطي. النص اليوناني لستيفانوس موجود في:

Jones, A.H.M., Cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford, 1937, p. 453, No. 37.

عن تحدّي المسيحيين في بلاد الشام للكنيسة الارثوذكسية في القسطنطينية أنظر Ostrogorsky، المرجع ذاته، ص ٩٧، كذلك Bailly، ذاته، ص ١٣٥. عن صراع القيسية واليمنية على النفوذ راجع Hitti، ذاته، ص ص ٢٨٠ — ٢٨٢.

أو بعد ذلك. وفيما يخصّ هذا الوضع فنحن نجد أن عقائد الآلهة السورية (بالمعنى الجغرافي لهذا الوصف الذي يشمل كلّ بلاد الشام) تظلّ محافظة على انتشارها في الفترة السابقة لانتشار المسيحية، أمام عقائد الآلهة الاغريقية القادمة مع المستوطنين الاغريق. بل أكثر من ذلك تصل الآلهة السورية الى قوة جديدة تبلغ ذروتها حين تحتوي هذه الآلهة الاغريقية وتنتشر بين الإغريق المستوطنين تحت صور أو أسماء الآلهة الاغريقية.

ومن أمثلة ذلك في العصر السلوقي أن الاله هدد، الاله الآموريّ القديم، يتّخذ صورة الاله زيوس Zeus ، كبير الآلهة عند الإغريق، ليصبح زيوس دمشق وزيوس هليوبوليس Heliopolis (بعلبك) وزيوس هيرابوليس Hierapolis (منبج). كذلك نجد مدينة سلوقية التي كانت تقع على الساحل السوري الشمالي Seleuceia in Pieria تتبنّى في نفس العصر، عبادة بعل شامين (آله السموات) في صورة زيوس آله البرق Zeus Keraunios (٤).

وقد استمرّت هذه الظاهرة في العصر الروماني، وفي هذا الصدد نجد عبادة الاله النبطيّ القديم «ذو الشّرى» الذي عرفه الاغريق باسم دوساريس Dusares ، ممثّلة على ظهر عملة من بصرى من عهد الامبراطور الروماني ديكيوس Gaius Decius (حكم بين ٢٤٩ و ٢٥١م) الذي تظهر صورته على وجه العملة. والنّص يتصل باحتفالات الآكتيا Actia التي كانت الامبراطورية الرومانية تقيمها تخليداً لموقعة أكتيوم Actium التي انتصر فيها اكتافيانوس في ٣١ ق. م. على خصمه انطونيوس، وهو انتصار اعتبر الرومان مناسبته البداية الحقيقية لقيام الامبراطورية الرومانية. ولكن النّص لا يشير الى اسم اكتافيانوس أو الى لقب أغسطس Augustus ، الذي أضفى على هذا القائد بعد هذه الموقعة بأربعة سنوات. وانما يتصل اسم الاحتفالات باسم الآله «ذو الشّرى» في عبارة Actia Dusaria (الاحتفالات المتصلة بذَي الشّرى). وهي عبارة تحيط من الجانب الأ يسر بصورة تمثل محراباً لهذا الاله يحيط به حجران مقدّسان و يظهر فوقه ما يمثل سبعة أرغفة من الخبز على هيئة قربان أو تقدمة (٥). والنقطة ذات المغزى أن تسمية الاحتفالات هنا تختلف عمّا نعرفه في

٤. Tarn, W.W. and Griffith, G.T., Hellenistic Civilization, 1974, pp. 342-3.

٥. صورة العملة موجودة في Kammerer، ذاته، ص ٤٠٢.

مثل هذه المناسبات، فهي لم تنسب إلى إله روماني بصفته آلهاً للدولة، كما كانت احتفالات الباناثينايا في أثينة مثلاً تنسب إلى الآلهة الاغريقية أثينا، ولم تنسب الى الأسرة الحاكمة كما كانت أعياد البطوليماية Ptolemaea في مصر تنسب الى الأسرة البطلمية الحاكمة، وانما نسبت الاحتفالات إلى آله محلّي من بلاد الشام هو الاله النبطي ذو الشّرى.

والشاهد الأخير الذي أقدمه في التدليل على استمرار التكوين الثقافي لبلاد الشام وابتعاده عن ثقافة الطبقة الحاكمة هو ما حدث ابّان النزاع المذهبي بين أتباع مذهب الطبيعة الواحدة الذي كان سائداً في بلاد الشام وبين مذهب الطبيعتين الذي كانت تعتنقه كنيسة القسطنطينية. لقد ظلّ مسيحيّو بلاد الشام على موقفهم. وحتّى حين خرج المجتمعون في مجتمع خلقدون بحلّ وسط بين المذهبين في ٤٥١م، استمروا على ما هم عليه ووجدوا أنّ الحلّ المطروح مجرّد حلّ شكليّ لا يرضي تصوّرهم الديني، وذلك رغم الاضطهاد الذي لحقهم من جرّاء موقفهم. هذا على أيام الامبراطور يوستينيوس الثاني Justinus II (٥٦٥ ــ ٥٧٨م) ــ وهو موقف لم يتغيّر حين أعلن الامبراطور هراكليوس (هرقل) من مذهب جديد هو مذهب «المشيئة الواحدة» (بايحاء من سرجيوس، بطريرك القسطنطينية) ليتخطىّ به النزاع بين المذهبين. ففي هذه الحالة، كذلك، رفضت بلاد الشام حلّ القسطنطينية حين أعلن سوفرونيوس، بطريرك القدس، في ٦٣٤م أن مذهب المشيئة الواحدة monotheism ليس إلا نوعاً من المروق الديني(٦).

أما الظاهرة الثانية التي تدلّ على مدى استمرارية التكوين الثقافي لأهل بلاد الشام في مواجهة الثقافة الاغريقية، فنستطيع أن نتعرّف عليها من أسماء المدن التي اتخذت اسماء اغريقية في العصر الذي امتدّ من بداية العهد السلوقي الى نهاية الحكم البيزنطي ثم عادت الى أسمائها القديمة بعد الفتح العربي. لقد أسّس السلوقيون أربع مدن جديدة في بلاد الشام أسكنوها بشكل يكاد يكون تامّاً للمستوطنين الاغريق، وهي سليوكية Seleuc in Pieria على الشاطىء السوري الشمالي، وأنتيوخية Antiochia، ولاوديكية Laodicia وأبامية Apamia، كما أطلقوا أسماء اغريقية على عشرات من المدن الأخرى التي كانت قائمة فعلاً واستوطنها مهاجرون اغريق الى جانب سكانها الأصليين. وقد ظلّ

---

٦. أنظر Bailly، ذاته، الصفحة ذاتها.

هذا التقليد مستمراً بعد العهد السلوقي. فقد أنشئت نيابوليس Neapolis على عهد الامبراطور فسياسبانوس Vespasianus في العصر الروماني، كما انشئت يوستنيانو بوليس Justinianopolis على عهد الامبراطور يوستنيانوس Justinianos في العصر البيزنطي.

ولكن الأغلبية الساحقة من هذه المدن عادت اليها أسماؤها السورية القديمة حين تراجعت الثقافة الاغريقية واللغة الاغريقية من البلاد بعد الفتح العربي. وهكذا على سبيل المثال ــ عاد إلى عكّا اسمها القديم بعد أن كان قد تحوّل الى بطوليمايس Ptolemais ، وعادت فحل إلى اسمها القديم كذلك بعد أن كان قد تغيّر إلى بلاّ Pella ، وعادت ربّة عمّون الى ما يقارب اسمها القديم فأصبحت عمّان بعد أن استبعدت لفظة «ربة»، وكان قد تغيّر الى فيلادلفية Philadelphia ، وعادت بعلبك الى اسمها بعد تسميتها الاغريقية هليوبولس Heliopolis وعرفت تدمر باسمها القديم بعد بالميرا Palmyra ، وكذلك الحال في حماة بعد لاوديكية Laodicia وعادت حلب إلى صورة مقاربة لاسمها القديم (حلبو) بعد أن كانت قد أصبحت بورو يه Boroea ، وزنزار القديمة أصبحت شيزر بعد تسمية لاريسّة Larissa الاغريقية والشيء ذاته في قنسّرين التي عادت الى اسمها بعد أن كانت قد تحوّلت الى خالكيس Chalcis وهكذا الحال في عديد من أسماء المدن الأخرى (٧).

ولا نستطيع أن نقول أن العرب هم الذين فرضوا عودة هذه الأسماء، فالأسماء القديمة هي التي عادت تلقائياً بغضّ النظر عن اشتقاقها الذي كان في أغلب الأحيان، إن لم يكن في كلّها، غير عربي. ودليل ذلك أن أسماء المدن التي أنشئت لأول مرّة أيام الحكم السلوقي وفي الفترة التالية له ليسكنها إغريق أو أغلبية اغريقية ــ ومن ثمّ عرفت باسمائها الاغريقية من البداية، ظلّت محافظة على أسمائها الإغريقية بعد الفتح العربي، لم يطرأ عليها إلا تحريف لا يكاد يذكر لتناسب النطق العربي، أو ربّما لتناسب نطق أهل البلاد. وهكذا أصبحت أنتيوخية تنطق انطاكية ولاوديكية تنطق اللاذقية، وأبامية تحوّلت الى فاميه وسليوكية إلى سلوقية ــ وهي أسماء عرفت بها هذه المدن عند الجغرافيين والمؤرخين العرب في العصر الاسلامي ــ ومثلها تريبوليس Tripolis التي احتفظت باسمها الاغريقي في صورة طرابلس، ونيابوليس Neaplis في صورة نابلس، وتيبرياس Teberias في صورة

٧. انظر Jones ، ذاته، ص ص ٢٢٩ ــ ٢٣٢، راجع كذلك الخريطة مقابل ص ٢٢٧.

طبرية وهكذا(٨).

كان هذا، إذن، هو موقف التكوين الثقافي لبلاد الشام أمام الثقافة الاغريقية ابتداء من العهد السلوقي حتى نهاية العصر البيزنطي. وهو موقف احتفظت فيه ثقافة البلاد بكيانها أمام الثقافة الواردة. فهي اما احتوتها، كما في حالة العقائد الدينية بحيث أصبح كلّ التصوّر الديني للبلاد (بما في ذلك طبقة الاغريق المستوطنين) منفصلاً عن التصور الديني للطبقة الحاكمة، واما استغنت عنها حينما جاء الظرف المناسب كما في حالة اسماء المدن، فيما عدا القليل الذي أنشىء أساساً بأسماء اغريقية وسكان من الاغريق. والمؤشّر الثقافي واحد في المجالين ـــ وهو التباعد بين ثقافة أهل البلاد وثقافة الطبقة الحاكمة.

وأنتقل الآن إلى الحديث عن الشقّ الثاني من القضيّة، وهو التقارب بين ثقافة بلاد الشام وثقافة شبه الجزيرة العربية. وأبادر هنا فأقول أني لا أود أن أردّ هذا التقارب الى وجود ثقافة «ساميّة» مشتركة كما يفعل بعض المؤرخين المعاصرين، فقد أصبح من المعروف أن صفة «الساميّة» لا تعني سوى رابطة لغوية(٩) ـــ وفي إطار هذه الرابطة قد يكون هناك تقارب أو تباعد بين الشعوب المنتمية اليها نتيجة لظروف أقوى من هذه الرابطة نفسها. وانما سأتحدث داخل إطار مؤدّاه أن بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية منطقتان متجاورتان قامت بينهما مواصلات سهلة ساعدت، الى جانب عوامل أخرى، على اتصال مستمرّ متبادل اتخذ أشكالاً مختلفة. وكانت المحصّلة النهائية تقارباً في التكوين الثقافي بين هاتين المنطقتين، أدّى في أحيان كثيرة إلى التجانس الثّقافي بينهما، ووصل في بعض الأحيان الى حدّ التطابق في هذا المجال. ومن هنا، فحين استقرّت الأمور للفتح العربي في بلاد الشّام بعد انتهاء سنوات الحرب، لم تكن هناك صعوبة في التجاوب بين أهل البلاد وبين الطبقة الحاكمة القادمة من شبه الجزيرة العربية.

٨. يذكر البلاذري، ذاته، عدداً من هذه المدن. على سبيل المثال: طبرية ص ١١٦، طرابلس ص ١٢٨، فاميه ص ١٣١، اللاذقية ص ص ١٣٢ و ١٣٤، أنطاكية ص ١٣٧، سلوقية ص ١٤٨، قيسارية ص ١٤١.

٩. راجع الآراء المختلفة في هذه المسألة ومناقشتها في:
لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة (الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٩، ص ص ٤٠ ـــ ٤٩.

ومن بين النتائج المترتّبة على هذا الاتّصال السهل بين المنطقتين، كانت القوافل التجارية التي بدأت في نقل السّلع ــ وبخاصة الطيوب والتوابل ــ من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام منذ فترة مبكّرة من تاريخ المنطقتين، ومع هذه السّلع المعتقدات والتصوّرات وأسلوب الحياة والتفكير. وفي محاولة لاظهار النشاط المستمر والمتصاعد لهذا الاتّصال التجاري بكلّ ما يعنيه هذا الاتصال من تقريب بين التكوين الثقافي لكلّ منهما، سأتوقف عند ثلاث مراحل زمنية مرّ بها هذا الخطّ التجاريّ منذ أن كان في مراحله الأولى يسعى أصحاب القوافل المحمّلة بالسّلع الى تثبيته وانتهاء بوصوله إلى ذروة نشاطه ورسوخه في الفترة التي سبقت الفتح العربي لبلاد الشام بعقود قليلة.

وفيما يخصّ المراحل الأولى لهذا الخطّ التجاري يقابلنا عدد من النصوص الآشورية بين أواسط القرن التاسع والشطر الثاني من القرن الثامن ق. م. من بينها نصّ يرجع إلى السنة السادسة من حكم الملك الآشوري شلمنصّر الثالث (٨٥٨ــ ٨٢٤ ق. م) يتحدث عن معركة عند موقع قرقره في بلاد الشام، انتصر فيها هذا الملك على تحالف آرامي يضم ١٢ ملكاً ومعهم زعيم يسميّه النّص «جنديبو العربي» و يذكر النّص أعداداً كبيرة من جنود المشاة والفرسان والعجلات الحربية قدّمها هؤلاء الملوك للمعركة كما يذكر أن هذا الزعيم العربي اشترك في المعركة بألف من راكبي الجمال(١٠). وفي ضوء هذه الأعداد الكبيرة من الجنود والعتاد فان المسألة تصبح أكبر من مجرّد غارة عابرة للملك الآشوري. والتفسير الوحيد لاشتراك الزعيم العربي في المعركة هو أنّ هذا الاشتراك يتّصل بمصلحة أساسية. والإشارة إلى العدد الكبير للجمال التي اشترك بها لا يمكن أن تعني أنّ هذا الزعيم كان شيخاً لقبيلة من الرعاة يسعون بشكل مبعثر وراء الكلأ حيثما كان، وانّما الى تجّار لهم مصلحة اقتصادية كبيرة في المنطقة، وجدوا أن تحرّك الملك الآشوري يهدّدها، ولهم تنظيم عسكري للمحافظة على هذه المصلحة هو الذي أهّلهم لأن ينضموا الى حلف يضمّ ١٢ ملكاً آرامياً في معركة جادّة تضمّ كلّ العدد والعتاد المذكور. وفي ضوء هذا التحليل لا يمكن أن تكون هذه المصلحة الاقتصادية الا المحافظة على سلامة موقع على الخطّ التجاري المؤدّي الى بلاد الشام، ومن ثمّ يشكّل مصلحة مشتركة بين هذا الزعيم العربي وهؤلاء الملوك الآراميين.

١٠. Prichard, James B.(editor), Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament (ANET), 2nd ed., Princeton, 1955, p. 279.

و يدعم هذا الافتراض نصّان آخران من عهد الملك الآشوري تجلات بليسّر الذي حكم في النصف الثاني من القرن الثامن ق . م(٧٣٣ ــ ٧٢٧ ق . م .) . وفي أول هذين النصّين، وهو من العام التاسع لحكم هذا الملك، نجد الملكة سمسي التي يسميّها النصّ ملكة العرب، هي وسكان مناطق أخرى من بينها تيماء (التي نعرف أنها كانت تشكّل موقعاً أساسياً على الخط التجاري بين شبه الجزيرة العربية و بلاد الشام في فترة لاحقة)، يقدّمون للملك الآشوري قدراً كبيراً من الضرائب التي يظهر من بينها الجمال والنوق وكلّ أنواع التوابل(١١) . والشيء ذاته يتكرّر في نصّ آخر يرجع إلى سنة غير معروفة من حكم هذا الملك و يشير الى مهاجمة تجلات بليسّر للملكة سمسي والى قتله لثلاثين ألفاً من جمالها والاستيلاء على خمسة آلاف وعاء فيها كلّ أنواع التوابل . ثم يستمرّ النصّ ليذكر أن عدداً من المدن الأخرى من بينها تيماء تؤدي اليه ضريبة ــ مرة أخرى ــ من الجمال وكلّ أنواع التوابل(١٢) .

والإشارة في النصّين واضحة في مدلولها التجاري اذا ربطنا بين الأعداد الكبيرة من الجمال (حتى إذا أدخلنا في اعتبارنا ما قد يكون في هذه الأعداد من المبالغة) و بين التوابل التي لا توجد الا في جنوبي شبه الجزيرة العربية و بين الثروة الضخمة التي كانت عند هذه الملكة وعند سكان المدن المجاورة وهو أمر نلحظه (٤٣٣٦ ميلاً ــ الميل الروماني = ١٠٠٠ خطوة) و يقسم المسيرة التي تقوم بها الجمال على هذه الطريق إلى عدد محدّد من المراحل أو المحطات (٦٥ مرحلة) و يتحدث عن الجمارك والخدمات التي يدفع التجار أجرها على طول المسيرة، ثم يحدّد، نتيجة لذلك، تكاليف كلّ جمل في هذه المسيرة (٦٨٨ ديناراً رومانيا)(١٤) . والنشاط والانتظام على الخط التجاري بين جنوبي شبه الجزيرة العربية والساحل الجنوبي لبلاد الشام، وهو ما يعنيه هذا النص، يشير إليه الكاتب بطريقة أخرى في موضع آخر من كتابه وهو بمعرض الحديث عن رواج تجارة الطيوب والتوابل العربية، فيذكر أنّ محصول اللّبان الذي كان يجمع مرّة واحدة في العام أصبح يجمع (في زمن

١١. ANET, p. 283.
١٢. ANET, p. 284
١٣. Strabo, Geographica, XVI, 4: 18 — 19.
١٤. Plinius: Naturalis Historia, XII, 32, 5

الكاتب) مرتين بسبب رواج تجارته(١٥) — وهو أمر يستتبع، بالضرورة، نشاطاً متزايداً على الخطّ التجاري المذكور.

ثم نأتي إلى المرحلة الثالثة التي وصلت فيها تجارة القوافل بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام الى ذروة النشاط والاستقرار في الفترة السابقة مباشرة للفتح العربي. والنّص المعاصر لهذه الفترة هو النّص القرآني الذي يأتي في سورة قريش «لإيلاف قريش. ايلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا ربّ هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» وقيمة النّص فيما يتصل بموضوعنا هو وصول الخط التجاري بين جنوبي شبه الجزيرة وبلاد الشام (رحلة الشتاء والصيف) الى درجة من النشاط فاقت ما كان موجوداً قبل ذلك بحيث أمكن ظهور مراكز تجارية رئيسية جديدة عليه مثل مكة (الإشارة الى الكعبة) وقبيلة قريش، وهو ظهور يمثّل تطوّراً واضحاً اذا تذكّرنا أن مكّة لم تظهر كمدينة كما لم تظهر قريش كقبيلة على خريطة بطليموس الجغرافي في القرن الثاني الميلادي رغم العدد الهائل من المدن والقبائل والأقوام التي سجّلها على هذه الخريطة كما لم تكن موجودة قبل ذلك بقرن، وهو أمر يدلّ عليه أن يلينيوس لم يأت على ذكر أي منهما رغم أنه ضمّن وصفه لشبه الجزيرة العربية قدراً كبيراً من التفاصيل عن المدن والمواقع والقبائل وأسمائها بما في ذلك الطرق المختلفة لنطق هذه الأسماء والأوضاع الاقتصادية لهذه القبائل والمناطق التي تقطنها وبعض الأحداث التاريخية التي مرّت بها — وهو تفصيل لا يفوت هذا الكاتب أن يعتدّ به ويبيّن تفوّقه فيه على من سبقه من الكتّاب(١٦). ونحن نستطيع أن نقدّر مدى الرواج التجاري الذي يمثّله ظهور مكة كمركز رئيسي على طريق القوافل بين جنوب الجزيرة وبلاد الشام اذا قارنا النّص القرآني بما يذكره الواقدي عن ظهور الثراء الكبير عند سادة قريش من التجار مثلاً في حجم قافلة القرشيين إلى بلاد الشام في الوقت الذي وقعت فيه غزوة بدر وفي حجم الفدية التي دفعها كبار هؤلاء القرشيين ليشتروا بها أطلاقهم من الأسر بعد هذه الغزوة(١٧).

---

١٥. Ibid.: op. cit., XII, 58, 83

١٦. Ibid.: op. cit., VI, 139, 156, 160.

١٧. الواقدي: مغازي رسول الله. القاهرة، ١٩٤٨، عن حجم قافلة القرشيين، ص ٩٨، عن حجم الفدية ص ص ١٧ — ١٨.

أما النقطة الثانية التي يظهرها النص القرآني فهي مدى الاستقرار الذي أصبح عليه هذا الخط التجاري والحصانة التي أصبح يتمتع بها لتدعيم هذا الاستقرار في الفقرة المذكورة ــ وهو الربط في هذا النص بين رحلة الشتاء والصيف وبين الكعبة كموقع ديني له من القدسية ما يربط بين النشاط التجاري والأمن اللازم له. ونحن نستطيع أن ندرك ما كانت عليه فكرة الربط بين الكعبة والأمن من وضوح عند أثرياء قريش اذا ربطنا النصّ القرآني بما يذكره الواقدي عن تعليق أحد هؤلاء الأثرياء من تجار مكّة، وهو كعب بن الأشرف، في مناسبة غزوة بدر، وهو تعليق يظهر فيه هذا الربط بشكل مباشر(١٨). وأخيراً، وليس آخراً، فمن الأدلة الواضحة على مدى النشاط والاستقرار الذي وصل إليه الطريق التجاري بين شبه الجزيرة وبلاد الشام ما يذكره البلاذري من أنّه «كانت لأبي سفيان بن حرب أيام تجارته بالشام في الجاهلية ضيعة بالبلقاء(١٩)» وهو أمر كان لا يمكن أن يتمّ في ظروف لا يتوفّر فيها انتظام رحلات القوافل واستقرار الأمن على الطريق التجاري، كما لنا أن نتصوّر أنّ حالة أبي سفيان لم تكن فريدة في نوعها، وانما كان لها ما يماثلها بين أثرياء قريش من كبار تجار القوافل، بكل ما يشير اليه هذا من تعارف وتداخل بين سكان شبه الجزيرة وبلاد الشام ومن ثمّ من تقارب بين التكوين الثقافي للمنطقتين.

واذا كانت القوافل التجارية بدورها الذي تقرّب فيه بين ثقافة المنطقتين لها صفة عبوريّة مهما بلغت درجة انتظامها، فإنّ هناك عدداً من الأدلّة تشير الى تحرّكات لمجموعات من أقوام أو شعوب شبه الجزيرة العربية كانت نتيجتها، الى جانب النشاط التجاري، استقرار كلّ من هذه الشعوب، سواء بشكل متزامن أو في أوقات متفاوتة في كل من شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام ــ وهو أمر يهيء الطريق للتداخل الثقافي بين المنطقتين. وأشير في هذا الصدد الى الأماكن التي وجدت فيها مجموعات من النقوش تخصّ ثلاثة من هذه الأقوام أو الشعوب: هم الثموديون والأنباط والصفويون.

وفيما يخصّ الثموديين، وهم قوم يصفهم فان دن برادن Van den Branden بأنهم يشكّلون مجموعة من القبائل تجمع بينهم روابط الثقافة والدين(٢٠)، فقد عثر على عدة

١٨. ذاته: ذات المصدر، ص ص ٩٠ ــ ٩١.

١٩. البلاذري: المصدر ذاته، ص ١٢٩.

٢٠. Van den Branden: Histoire de Thamoud, Beyrouth, 166, p. 24.

آلاف من نقوشهم على امتداد يجمع بين شبه الجزيرة العربية و بلاد الشام. والأماكن التي عثر فيها على هذه النقوش توجد في المنطقة بين حضرموت ومكّة، والمنطقة الواقعة بين تبوك والعلا، وفي القسم الشرقي من الأردن، كما عثر على نقش في صيدا وآخر في تدمر(٢١).

واذا كان نقش آشوري من عهد الملك سارجون الثاني (٧٢١ـ ٧٠٥ ق.م) يشير الى الثموديين في القرن الثامن ق.م. على أنهم قبيلة بدائية(٢٢)، فان النصوص التي ذكرت أماكنها، والتي يرجع القسم الأكبر منها الى القرنين الرابع والخامس الميلاديين، تشير إلى النشاط الهائل على طريق القوافل بين جنوبي شبه الجزيرة العربية و بلاد الشام، ومع ذلك فانّ الثموديين لم يقتصر دورهم على التجارة العبورية، فهم يظهرون لنا في مناسبتين في العصر الروماني كقوم عرفوا حياة الاستقرار في المنطقتين. ففي القرن الثاني الميلادي يضعهم الجغرافي اليوناني بطليموس على خريطته في شمالي شبه الجزيرة العربية، و يظهر واضحاً من مكانهم على الخريطة أنهم كانوا يسيطرون على قسم هام من الخط التجاري(٢٣). كذلك نجدهم يظهرون بعد ذلك بثلاثة قرون في «سجلّ الوظائف والرتب في القسم الشرقي للامبراطورية الرومانية» Notitia Dignitatum Partibus Orientis الذي يعود تدوينه الى القرن الخامس الميلادي على أنهم «الفرسان الثموديون» equites Thamudeni يقيم قسم منهم داخل فلسطين و يقومون بحراسة حدود هذه المنطقة. وقد أثبت فان برخم Van Perchem أنهم كانوا جنوداً مستوطنين يعيشون مع أسرهم و يفلحون الأرض التي يرتبطون بها و يقومون بالدفاع عنها(٢٤).

أما الشعب الثاني الذي أشير إليه في هذا الصدد فهو شعب الأنباط الذين انتشرت

---

٢١. Ibid.: op. cit., pp. 17 — 20.
Dussaud, Rene, La Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1955, pp. 132—3.

٢٢. ANET, p. 286.

٢٣. الخريطة Ptolemaios, Claudius, Georgaphike Hyphegesis,

٢٤. الوصف من: Notitia Dignitatum (ed. Böcking), pp. 204, 217

وهو مذكور ومناقش في:

Van Berchem, L'Armée de Dioclétien et la Reforme de Constantin, Paris, 1952, p. 20.

نقوشهم في الحجر، حيث توجد الغالبية العظمى من هذه النصوص، وفي البتراء وفي منطقة حوران حيث عثر على نقوش لهم في درعا وبصرى وفي القسم الجنوبي من جبل الدروز(٢٥). ويعتبر دور الأنباط في تقريب التكوين الثقافي بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام، إن لم يكن في الواقع توحيد هذا التكوين، من أكبر وأهم الأدوار في هذا المجال. فقد أقاموا دولتهم على امتداد أرضي يضمّ جزءاً من كل من المنطقتين، وعلى هذا الامتداد ساد قدر كبير من الاستقرار الذي يتيح الفرصة للاندماج الثقافي، نستطيع أن نتعرّف عليه من شاهدين: أحدهما هو القدر الهائل من الآثار التي خلّفها لنا الأنباط في الحجر والعلا والبتراء ومدى التقدّم الفنّي الذي تشير إليه عمارة هذه الآثار. والشاهد الثاني هو نشاطهم التجاري الكثيف الذي أدّى بهم الى ضمّ فلسطين إلى منطقة نفوذهم حتى يصلوا إلى منافذ الخط التجاري على البحر المتوسط. وهو نشاط نستنتجه كذلك من كلام الجغرافي اليوناني استرابيون الذي يذكر أن الأنباط دأبوا على التعرّض للسفن المصرية التي كانت تصل إلى الشواطىء الشرقية للبحر الأحمر لتحمل التجارة بحراً الى مصر ــ وهو أمر يدل على محاولة الأنباط لتنشيط الخط التجاري البرّي الذي كان يمرّ بمناطقهم إلى أقصى درجة ممكنة.

ثم أصل الشعب الثالث الذي أشير اليه في صدد التداخل الثقافي بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام، وهو شعب الصفويين الذي هاجروا من جنوبي شبه الجزيرة واستقروا في منطقة حوران وأقاموا مدينتهم الصفا في هذه المنطقة من بلاد الشام. وقد وجدت نقوشهم في منطقة تدمر ووادي مياه وحول قصر الأزرق. وتدلّ هذه النقوش، التي بلغت عدة آلاف، على الأصل العربي الجنوبي لهذا الشعب فلغتها تشير الى علاقة وثيقة باللغة العربية الجنوبية، كما تظهر في هذه النقوش عبادة «شمس» وهي عبادة عربية جنوبية(٢٦). ومن خلال استقرار هذا الشعب العربي الجنوبي استقراراً كاملاً في بلاد الشام نستطيع أن نتصوّر الى أي مدى يمكن أن يتداخل التكوين الثقافي لكلّ من المنطقتين.

---

٢٥. أمثلة من النقوش النبطية في:

Corpus Inscriptionum Semiticarum (CIS), II, Nos. 170, 174, 182, 198, 350.

٢٦. عن أماكن النقوش أنظر Dussaud، المرجع ذاته، ص ١٣٦. عن أصل الصفويين الجنوبي وتاريخ انتقالهم الى منطقة حوران (بداية العصر الميلادي)، راجع Kammerer، المرجع ذاته، ص ٤١٥. النقوش نشرها Ryckmans في CIS، المجلد الرابع، الجزء الأول.

والظاهرة الثالثة التي أود أن أعرض لها ونحن بصدد الحديث عن التداخل في التكوين الثقافي بين شبه الجزيرة العربية و بلاد الشام هي تداخل عدد من العبادات والممارسات الدينية بين هاتين المنطقتين الى حدّ التطابق في كثير من الأحيان، وقد جاء هذا نتيجة طبيعية للظاهرتين اللتين أسلفت الحديث عنهما : وهما نشاط الخط التجاري بين المنطقتين حتى بلغ قمة انتظامه واستقراره في الفترة السابقة مباشرة لفتح العرب لبلاد الشام، ثم تحرك الأقوام والشعوب لسبب أو لآخر بصفة تكاد تكون مستمرة في الإطار ذاته.

وفي هذا المجال فقد انتشرت في المنطقتين عبادات كثيرة مشتركة سواء تحت اسمها الأصلي أو بعد تحريف بسيط في مخارج الألفاظ، مثل عبادة الآلهة شمس و بعل شامين وذو سماوي واللات والعزّى ومنات. ولست هنا بصدد تعداد هذه الآلهة وعباداتها التي دخلت في التكوين الثقافي للمنطقتين، وانما اكتفي للتدليل على هذا الجانب من الظاهرة الدينية بعرض سريع للأماكن التي انتشرت فيها عبادة آلهة واحدة هي «اللات» التي تظهر عبادتها في ثلاث مناطق متتالية بين بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية. وفي أولى هذه المناطق نجد الآلهة المذكورة تظهر في تدمر في صورتين بالنحت الغائر، مرّة مع الاله شمش وأحد المتعبّدين (٢٧)، ومرة أخرى وحدها مع أحد المتعبّدين. أما المنطقة الثانية التي تظهر فيها عبادة اللاّت فهي مدينة الحجر في القسم الشمالي من شبه الجزيرة، حيث نجد نصّاً نبطياً على أحد المقابر يظهر في السطر الرابع منه ابتهال من المتوفى لهذه الآلهة (٢٨). ثم نجدها مرّة ثالثة في الحجاز في وسط الجزيرة العربية حيث يذكرها ابن الكلبي ضمن معبودات هذه المنطقة و يذكر أن قريشاً وجميع العرب كانت تعظّمها، كما كانت عبادتها تظهر في أسماء الأشخاص مثل «زيد اللات» و «عبد اللاّت» ثم نجدها تذكر في النّص القرآني «أفرأيتم اللاّت والعزّى» (٢٩).

والجانب الثاني الذي نلمس فيه التداخل الثقافي في الحياة الدينية عند كل من شبه الجزيرة العربية و بلاد الشام، هو تقديس بعض الأحجار أو عبادتها لا على أنها أحجار

---

٢٧. توجد صورتان للنحتين في Dussaud، ذات المرجع، ص ص ١٠٢ ــ ١٠٣.

٢٨. النصّ موجود في CIS, No. 198.

٢٩. ابن الكلبي: كتاب الأصنام (تحقيق أحمد زكي)، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٦، الآية في سورة النجم، ١٩.

في حدّ ذاتها ولكن اعتقاداً بأن روح الآلهة تحلّ فيها ففي القسم الشمالي من بلاد الشام نجد أهل المنطقة يعبدون حجراً مخروطياً كان موجوداً في المنطقة المجاورة لجبل كاسيوس ـــ وهو الاله الذي عبده الاغريق المستوطنون في مدينة سلوقية تحت اسم زيوس كاسيوس كما ذكرت في موضع سابق(٣٠). وفي جنوب بلاد الشام نجد الأنباط يعبدون الاله «ذو الشّرى» في هيئة حجر مكعّب. وقد أسلفت الإشارة إلى ظهور هذا الاله في هذه الصورة على ظهر عملة من مدينة بصرى على عهد الامبراطور الروماني ديكيوس(٣١). وهو أمر نجده مرّة أخرى في معجم سوايداس Suidas اليوناني الذي وضع في أواخر القرن العاشر الميلادي ونقل مؤلفوه عن كتاب سابقين لعهدهم. و يذكر هؤلاء تحت التسمية اليونانية لهذا الاله وهي: ثيوساريس Theusares أنه كان يعبد في صورة حجرين مكعّبين(٣٢). أما في وسط شبه الجزيرة فيحدثنا ابن الكلبي عن أن اللاّت التي عبدت في الحجاز في عصر ما قبل الاسلام كانت صخرة مربّعة في الطائف. أما في الفترة السابقة مباشرة لنزول الرسالة، فيحدثنا ابن هشام في «السيرة النبوية» عن مدى تقديس «الحجر الأسود» عند أهل الحجاز وهو تقديس يظهر في حديثه عن اعادة بناء الكعبة واختلاف القبائل حول أيّها يكون لها شرف وضع الحجر الأسود في مكانه منها وذلك بشكل كاد يصل الى حدّ الاقتتال قبل أن يحتكموا إلى محمد بن عبد الله قبل أن تنزل عليه الرسالة(٣٣).

أما الجانب الأخير الذي سأعرض اليه في صدد الثقافة الدينية المتداخلة عند المنطقتين فهو يتعلّق باحدى الممارسات الدينية التي تظهر عند كلّ منهما ـــ وهي ظاهرة الطواف بأماكن العبادة. والمثل الأول لهذه الممارسة نجده في نحت غائر على معبد بعل في تدمر حيث نجد صورة منحوتة لاحتفال يقوم فيه المتعبّدون بالطواف حول حجر مقدّس

---

٣٠. راجع حاشية ٤ أعلاه.

٣١. راجع حاشية ٥ أعلاه.

٣٢. Theusares: (اسم المعجم وليس المؤلف) Suidas.

٣٣. ابن الكلبي: المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
ابن هشام: السيرة النبوية (طبعة البابي الحلبي)، القاهرة، ١٩٣٦، الجزء الأول، ص ص ٢٠٩ ـــ ٢١٠.

محمول على جمل(٣٤). أما المثل الثاني فنجده في معلّقة زهير بن أبي سلمى في بيت يقول فيه «فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله... رجال بنوه من قريش وجرهم»(٣٥) ومنه نرى أن الممارسة التي عرفها أهل بلاد الشام عرفها كذلك أهل الحجاز في وسط شبه الجزيرة. والى الطواف حول الكعبة يشير النص القرآني «وما كانت صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»(٣٦).

وأخيراً، ولا زال الحديث في مجال الظاهرة الدينية المتداخلة بين ثقافتي بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، أشير الى اتجاه في التصوّر الديني أرى أنّه تعاصر في المنطقتين في الفترة السابقة للفتح الاسلامي وان كان قد ظهر بتفاصيل مختلفة عند كل منهما. والتصوّر الذي أعنيه يظهر فيه اتجاه واضح في شبه الجزيرة نحو التوحيد (الذي لم يكن قد اكتمل بعد) في مواجهة تعدّد الآلهة. كما تظهر فيه في بلاد الشام فكرة التوحيد في طبيعة السيد المسيح في مواجهة فكرة ثنائية هذه الطبيعة عند الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية. وفيما يخصّ شبه الجزيرة العربية أشير الى المعبود الجاهلي «الله» الذي يظهر في مناسبات متعددة في النقوش اللحيانية والثمودية والصفوية. وأذكر، على سبيل المثال نصّاً واحداً من بينها، وهو نصّ لحياني من المنطقة الواقعة شمالي الحجاز يقول كاتبه:

عبد منات

فلتهبه يا «الله» عمراً مديداً وحظاً سعيداً(٣٧).

والذي يلفت النظر في هذا النص هو أن صاحبه يحمل اسماً يشير إلى عبادة المعبودة «منات»، ومع ذلك فانّ ابتهاله موجّه الى المعبود «الله». والتفسير الذي أطرحه هنا هو أنّ

---

٣٤. الصورة منقولة في Dussaud، المرجع ذاته، ص١١٦.

٣٥. المعلقة حسب ترتيب الأبيات الذي يظهر في: المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو، (الطبعة الثالثة)، بيروت ١٩٦٦، الجزء الأول، ادارة ودراسة فؤاد أفرام البستاني، ص ٨٤، سطر ١٨.

٣٦. سورة الأنفال، آية ٣٥. راجع كذلك ابن الكلبي، المرجع ذاته، ص ٣٣.

٣٧. النص منقول في:

F.V. Winnett, Allah Before Islam (in: The Moslem World, Vol. XXVIII, 1933, pp. 241—42.

«الله» هو المعبود الرئيسي ومن ثمّ أفترض أن المعبودات الأخرى تنزل الى مرتبة أقلّ وتصبح مجرّد كائنات مقدّسة أو تقترب من ذلك. انّ هذا التصوّر ذاته نجده في نصّين قرآنيين يشير كل منهما الى نفس الفكرة عند عرب الحجاز في الفترة التي ظهرت فيها الدعوة الاسلامية. وأحد النصّين يجيء فيه «و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله»، أما النّص الثاني فنجد فيه «والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم الا ليقرّبونا لله زلفى» ــ وهو تصوّر أجد فيه أحد مقومات التكوين الثقافي في شبه الجزيرة العربية الذي بلغ ذروته في صورة التوحيد الكامل الذي ظهر كركن أساسي من أركان الإسلام ــ وهو تكوين أجد فيه اقتراباً كبيراً من التكوين الثقافي في بلاد الشام الذي ظهر في موقف سوفرونيوس، بطريرك كنيسة القدس، حين رفض الانصياع لتوجيهات القسطنطينية التي كانت تريد أن تفرض ثنائية مذهب الطبيعتين تحت شعار مذهب المشيئة الواحدة(٣٨). وقد كان هذا التكوين الثقافي المتقارب، أو المتجانس، سواء في هذا الجانب أو في الجوانب الأخرى التي أسلفت الحديث عنها، هو الذي أدى الى تجاوب أهل بلاد الشام مع الفاتحين القادمين من شبه الجزيرة العربية بعد أن استقرت الأمور في أعقاب سنوات الفتح.

٣٨. راجع حاشية: أعلاه.

حملة مؤتـــة
مقاربة للمشروع السياسي الأول للدولة الاسلامية في بلاد الشام

ابراهيم بيضون
كلية الآداب ــ الجامعة اللبنانية

مدخـــل :

تـكـتـسـب «مـؤتـة» خـصوصية ما في التاريخ الاسلامي لبلاد الشام، انطلاقاً من اقترانها ــ على غموض «غزوها» والتباس بعض تفاصيله ــ بأحد أخطر قرارات النبي بعد الهجرة. ولكن المدخل الجغرافي اليها، قد لا يشكل عنصراً متوازناً مع العناصر المختلفة، التي أسـهـمـت في تـكـو يـنـهـا التاريخي العام، حيث انعكس عليها بريق القادة الثلاثة، الذين سـقـطوا تباعاً في معركة مبهمة، باستثناء تفاصيلها في «المدينة»، التي تمحورت أيضاً حول هؤلاء القادة الصحابيين، المقربين من النبي والحائزين على ثقته (١).

ولـعـلـهـا بـقـيـت مجرد «قرية» منسية حتى العام السابع الهجري، حين قرر النبي اخـراج دولـتـه من عزلتها الحجازية وتجاوز الصراع الداخلي مع قريش، الذي أخذت تضيق دائـرتـه و يـتـراجـع خـطـره على المدينة، بعد فشل «غزوة الأحزاب» في العام الخامس. فقد أثـبـتـت هذه الدولة حينذاك قدرتها على الصمود والخروج سالمة من التحديات الخطيرة التي واجهتها، سواء في القضاء على اليهود وتفشيل حركة «النفاق» في الداخل، أو في استيعاب الـصـراع مع الوثنية ومراكز النفوذ القبلي الدائرة في فلكها، فضلاً عن فرض هيبة الدولة على خـطـوط الـتـجـارة في الحـجـاز، والتطلع الى مدى أوسع لها، حيث التخوم الشامية المتداخلة جـغـرافـيـاً وقبلياً (٢)، مما سيقودها تحت تأثير هذه المتغيرات. الى اتخاذ خطوات عملية، تحمل مـعـهـا بذور مشروع سياسي واضح المعالم، وهو التحوّل من دولة المدينة، الحجازية الملامح، الى الـدولـة الاسـلامـيـة الكبرى، الأكثر تعبيراً عن عالمية الدعوة، وذلك على غرار حملة مؤتة

١. راجع الزبير بن بكار، الأخبار الوفقيات ص ٣١٠ ــ ٣٢٢، الواقدي، كتاب المغازي، ج ٢ ص ٧٦٧، ابن هشام السيرة النبوية القسم الثاني ص ٣٨٠.

٢. راجع التوزيع القبلي في بلاد الشام عشية ظهور الإسلام، وتأثيره في انعدام العوائق الجغرافية مع شبه جزيرة العرب. صالح أحمد العلي. امتداد العرب في صدر الإسلام ص ١٧.

التي كانت الخطوة الرائدة في هذا السبيل.

ومن هذا المنظور، سيكون علينا البحث في الموقع الجغرافي لمؤتة، من زاوية الإنعكاس على العلاقة بين الحجاز والشام، أكثر من الاهتمام بالموقع نفسه، حيث بدا هذا الأخير هامشياً على كافة الصعد، دون أن ننفي صلتها ــ أي مؤتة ــ بشكل أو بآخر، بمراكز النفوذ المحيطة بها، سواء كانت قرشية (الحجاز) أو بيزنطية (الشام). على أن مؤتة لم تندرج بين قصبات أو مدن الأخيرة، أو حتى بين محطاتها التجارية التي ارتادتها القوافل المكية خلال القرن السادس الميلادي(٣). واذا ما رجعنا الى المصادر الجغرافية، نجد أنها تجمع أو تكاد على اعتبارها قرية صغيرة، دون ثمة اشارة اليها قبل العام الهجري الثامن، أي عام الحملة الآنفة الذكر. فقد وصفت بأنها من أرض البلقاء، حيث تقع بضع محطات، مثل تبوك ومعان وأذرح وأيلة ومدين(٤)، ولكن دون أن يتردد ذكرها بين هذه المحطات المعروفة. فهي في «بلدان» اليعقوبي «قرية من أرض البلقاء»(٥)، وفي «تقاسيم» المقدسي من «قرى» مآب الواقعة في البلقاء أيضاً(٦)، وفي «آثار» القزويني تكرار لما أورده سابقاً، بأنها «من أعمال البلقاء من حدود الشام»(٧)، لافتا في الوقت نفسه الى سيوف اشتهرت بصناعتها ونُسبت اليها وهي المعروفة بالمشرفية(٨)، دون أن يكون واضحاً، اذا ما كان لهذه التسمية علاقة ب «مشارف»، القرية المجاورة لها(٩)، أو أنها عائدة الى موقعها الجغرافي على «مشارف الشام»(١٠) على حدّ تعبيره.

---

٣. راجع ابن رسته، الأعلاق النفيسة ص ١٨٣ واليعقوبي، بالبلدان ص ٢٣٦ والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٥٥ راجع أيضاً .D. O. Leary, Arabia Before Muhammad, p.182

٤. المقدسي، أحسن التقاسيم ص ١٥٥.

٥. البلدان، ص-٣٣٦.

٦. أحسن التقاسيم ص ١٧٨. راجع أيضاً الأدب أ. س مرمرجي الدومنيكي، بلدانية فلسطين العربية ص ٢٢٤ ومحمد كرد علي، خطط الشام ج ١ ص ١٠٩.

٧. آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٧٥.

٨. راجع قبول الشاعر في هذا المعنى: أبى الله للشمّ الأنوف كأنهم صوارم / يجلوها بمؤتة صيقل، المكان نفسه.

٩. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥ ص ٢٢٠.

١٠. آثار البلاد ص ٢٧٥.

وفي «أصنام» ابن الكلبي، لا توجد أية اشارة الى مؤتة، في معرض الحديث عن البلقاء التي كان يتم التردد اليها منذ «العهد الخزاعي» في مكة(١١). أما كتب الرحلات فقد أغفلتها أيضاً، الا من اشارات عابرة الى «مزارات الشهداء الثلاثة»، وذلك على غرار «الظاهري الذي مرّ بالقرب منها، ولكن دون أن يأتي على ذكرها، مما يبعث على الاعتقاد بأنها لم تكن عامرة، في العصر الأيوبي، حيث مرّ الرحالة الآنف الذكر(١٢).

على أن غياب مؤتة عن صفحات الجغرافيين والرحالة، الا من خلال الغزوة الشهيرة ومزارات قادتها، قد لا يماثله ما كانت عليه في العصر القرشي، حين كانت مكة تعتمد في تسيير قوافلها على قبائل هذه المنطقة، عبر منظومة الايلاف(١٣)، القوة المحركة لتلك «الامبراطورية» التجارية التي قادتها مكة في ذلك الحين. فهي ـ أي مؤتة ـ ان لم تكن على امتداد الخط الشهير الذي كان يجتاز عدداً من المحطات الهامة، الا أنها كانت في قلب هذه الدائرة الحيوية أو في الفلك منها، تلك التي عُرفت بالبلقاء وضمّت أشهر القبائل التخومية النافذة، من أمثال: لخم وجذام و بلقين و بهراء و بلّي التي كانت في الغالب تدين بالمسيحية، ومعها الولاء للحكم البيزنطي(١٤)، الذي يسيطر على المنطقة حتى أعالي الحجاز.

و يبدو أن قبائل التخوم المنتشرة في البلقاء، كانت على شيء من التماوج في علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية في ذلك الحين. فقد كان ولاؤها الفعلي بيزنطيا، ولكن دون أن يكون العامل الديني وحده، محرّك هذه العلاقة، التي كان الجانب الاقتصادي فيها ظاهراً، حيث حرص البيزنطيون على تمتين الروابط المصلحية مع رؤساء القبائل، عبر تقديم الهدايا أو دفع الرواتب الثابتة، تشجيعاً لهم على القيام بدورهم في حماية الحدود البيزنطية من غارات البدو أو هجمات الفرس(١٥)، دون أن نغفل أيضاً أهمية التجارة والأسواق التي

١١. كتاب الأصنام ص ٨.

١٢. كتاب زبدة كشف الممالك و بيان الطرق والمسالك ص ٤٣.

١٣. عن مضمون الايلاف، راجع: البلاذري، أنساب الأشراف ج ١ ص ٦٠ (تحقيق احسان عباس والطبري) ج ٢ ص ١٨.

١٤. ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول ص ١٧٢. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٢٤٢.

١٥. محمد كرد علي، كتاب خطط الشام مج ١ ص ١٠٥، جواد علي، المفصل ج ٤ ص ٢٤٣

كانت تشرف عليها الدولة البيزنطية، في إطار سياسة اقتصادية وضرائبية محددة(١٦). ولكن هذه التبعية لم تكن مطلقة، كذلك العلاقة التي شابها الإلتباس بعض الأحيان، حيث كان على قبائل البلقاء أن تتأثر أيضاً بالرياح الجنوبية، في وقت تألقت فيه مكة شهرة ومركزاً استقطابياً هاماً، دون أن تستطيع الدولة البيزنطية، على قوتها، أن تنال من هذا الموقع أو تنجح محاولتها في السيطرة عليه، حين اصطنعت لهذه الغاية تاجراً من قريش، وهو عثمان بن الحويرث (من أسد بن عبد العزى)، الذي كان يدين بعقيدة هذه الدولة(١٧). وكانت لمكة في الواقع علاقات وثيقة مع تلك القبائل التي ارتبطت مصالحها ــ ربما بصورة متفاوتة ــ مع تجارة الأخيرة(١٨)، على نحو قد يفوق أحياناً ارتباطاتها بالدولة البيزنطية، التي كانت سياساتها الاحتوائية، سواء على الصعيد الديني أم الاقتصادي، تصطدم بالنزعة القبلية الفردية، مما أدى الى ضمور هذه العلاقة لا سيما في الأعوام الأخيرة من القرن السادس الميلادي(١٩).

ولعل أبرز مؤثرات هذا الوضع الجغرافي لمنطقة البلقاء، بما فيها مؤتة، أنها كانت تُعتبر امتداداً طبيعياً للحجاز، الذي كان بالاضافة الى دوره التجاري البارز، يرهص بمتغيرات جذرية، ستكون أكثر انعكاساً على هذه المنطقة من خلال عدة وسائل، لا سيما التجارة التي امتدت شرايينها حتى مدينة بصرى السوق المركزي لبلاد الشام، والواقعة على التخوم الشمالية للبلقاء(٢٠). و يبدو أن البيزنطيين كانوا غير قادرين على ضبط المسألة التخومية مع الحجاز، في وقت كان هؤلاء يعملون على استرداد الجيوب التي خرجت على نفوذهم في أطراف شبه الجزيرة، في وقت كان هؤلاء يعملون على استرداد الجيوب التي خرجت على نفوذهم في أطراف شبه الجزيرة، بعد أن تعرّض ولاؤها للاضطراب خلال

---

١٦. O. Leary, Arabia Before Muhammad, p. 187.

١٧. راجع : ابن اسحاق، كتاب السير والمغازي ص ١١٥ ــ ١١٦ وابن حبيب، المحبر ص ١٧١ واليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٥٧. وراجع كذلك تفاصيل هذه الرواية لدى الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ص ١٠٨ ــ ١٠٩. راجع أيضاً : Lammens, L'Arabie Occidentale avant l'Hégire, pp. 38 - 39.

١٨. راجع كتابنا : الحجاز والدولة الإسلامية ص ٧٦ وما بعدها.

١٩. المرجع نفسه ص ٧٩ ــ ٨٠.

٢٠. ابن خرداذبة ــ المسالك والممالك ص ٩٧. جواد علي، المفصل ج ٣ ص ٤٩

الحرب الفارسية ــ البيزنطة التي هزّت المواقع والتحالفات القائمة، مما جعل ضبط الوضع القبلي في هذه المنطقة، أمراً على جانب كبير من الصعوبة. وكانت السياسة البيزنطية قد أسهمت، ربما عن غير قصد في تداعي «الحاجز» الذي أقامته بينها وبين قبائل شبه الجزيرة أو أطرافها، تحت ضغوط تلك الحرب الطويلة، التي لم يصب تأثيرها الدولتين المتصارعتين فقط، ولكن انعكس بصورة عميقة على كافة المنطقة خلال نيف ونصف قرن من الزمن(٢١)، خصوصاً وانها جرت في قلب «الحاجز» الشهير أو «أدنى الأرض»، استناداً الى سورة الروم، التي تعني «أذرعات» حسب مروية ابن الأثير(٢٢).

أما المحصّلة الأخيرة لخلفيات «مؤتة» كحملة عسكرية رائدة الى الشام، فقد بدا واضحاً أنها لم تكن تحركاً عفوياً اتخذ طابعه الثأري ضد من وصفته المرويات بأنه أمير لهذه القرية، وانما فرضته في المقام الأول مستجدات المرحلة، حيث الطريق مفتوحة والقبائل متداخلة الانتماء والمصالح، دون أن يعيق ذلك، تعارض الولاء الذي بدا واهياً حيناً ومُخْترقاً بعض الحين، فضلاً عن معرفة النبي التفصيلية بمجمل هذه المعطيات، ومتابعته عن كثب أخبار الشام، لا سيما قرى التخوم وقبائلها المتنصّرة.

اشكاليات العلاقة مع البيزنطيين

ان بحث مسألة مؤتة، لا بد أن يعيدنا الى مناقشة ابعاد العلاقة بين النبي والبيزنطيين، التي اخذت ملامحها في الظهور، منذ «العهد المكّي» من الدعوة الاسلامية فثمّة اختلاف في الموقف الاسلامي ما بين هذا العهد وبين العهد المدنيّ، كان خاضعاً لتغيّر الظروف والمعطيات الجديدة، بعد أن تمّ للمسلمين تجاوز المأزق المكي والانتقال من «دار الاضطهاد» الى «دار الهجرة»، بكل ما يعنيه هذا التحول، كمدخل الى قيام الدولة الاسلامية أو نواتها في المدينة، بينما كان الاسلام في العهد الأول يبحث عن مستقرّ له، ويتوسّل الحلفاء الأقوياء لدفع الخطر المتربص به من جانب قريش التي اشتبكت مصالحاً وعلاقات مع القوى السياسية والقبلية في شبه الجزيرة وأطرافها(٢٣). ومن اللافت جداً أن

---

٢١. رضوان السيد، الامة والجماعة والسلطة ص ٢٣.

٢٢. الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤٧٩. راجع أيضاً محمد كرد علي، خطط الشام ج ١ ص ١٠٤.

٢٣. الطبري ج ٢ ص ١٨٠.

يدخل الاسلام حينذاك، وهو بعد مجرد دعوة متعثرة، في خارطة التحالفات السياسية، حين أوفد النبي أولئك الذين عرفوا ب «المهاجرين الأوائل»(٢٤) الى الحبشة دون أن يكون اختيارها مصادفة، وأن يكون ملكها (النجاشي) «يحسن الجوار»(٢٥)، كما نسب للنبي في وصيته لأصحابه المهاجرين.

والواقع أن حسن الجوار مع الحبشة افترض مثيلاً له مع الدولة البيزنطية، حيث ارتبطت كلتاهما بمصالح وأهداف مشتركة، ما دامت لشبه الجزيرة أهمية ما، زراعية كانت أم تجارية. ولم تكن حملة الحبشة الشهيرة (٥٧١م)، التي تزامنت ــ عبر مؤثرات داخلية وخارجية ــ مع اليمن كمركز حضاري متألق وبداية الصعود المكّي، منفصلة عن هذه العلاقة المصلحية بين الدولتين، دون أن يكون خافياً ما انطوت عليه الخطوة الثانية للحملة، التي استهدفت الحاضرة الحجازية، الممسكة حينذاك بزمام حركة التجارة الشرقية، تمهيداً للاتصال بمراكز نفوذ البيزنطيين في الشام(٢٦)، فضلاً عن الخطوة الثالثة التي أعدّها هؤلاء بعد نحو عشرين عاماً (٥٩٠م)، واستهدفت السيطرة على مكة عبر تنصيب مسيحي من قريش عليها(٢٧)، كما أسلفنا الاشارة، تعويضاً عن خسائرها في جنوب شبه الجزيرة. وكان من البديهي أن تؤدي الحرب الفارسية، المسبوقة بانتزاع اليمن من الأحباش لمصلحة الدولة الساسانية، الى تمتين العلاقة بين الحليفين التقليديين (البيزنطيين والأحباش)، بعد اضافة عنصر جديد الى القواسم المشتركة العديدة بينهما، بسبب ما لحق مصالحهما من ضرر، في أعقاب الخروج من الشام وشبه الجزيرة، مما يعني ذلك أن مصادر السلع وأسواقها، باتت بشكل أو بآخر تحت سيطرة الفرس الساسانيين.

ولعل هذه الحرب كانت أول محنة خارجية تواجه مكة وتربك تجارتها، اذا ما استثنينا المحنة الداخلية التي جسّدتها حروب الفجار الشهيرة(٢٨). ذلك أن قريشاً، التي

---

٢٤. اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٢٩.

٢٥. المكان نفسه.

٢٦. جواد علي، المفصل ج ٧ ص ٢٨٢.

٢٧. الفاسي، شفاء الغرام ص ١٠٨ ــ ١٠٩.

٢٨. ابن الأثير، الكامل ج ١ ص ٥٩٣. السهيلي، الروض الأنف ج ١ ص ٢٠٩.

وجدت نفسها أمام قوة كبرى جديدة، مهيمنة على أسواق الشام، لم يكن في متناولها الخيار المناسب، فيما يتعدى ترويج تجارتها، دون التوقف طويلاً عند الحليف الذي يرتبط به تسهيل هذه المهمة. ومما زاد الأمور تعقيداً في ذلك الحين، أن السلطة الفعلية في مكة آلت إلى كبار التجار، المتكتلين في إطار ما سُمي ب «حلف المطيبين»(٢٩)، وما أسهم فيه الأخير من طغيان المضمون الاقتصادي للايلاف وتراجع الاتجاه التعاوني (التكافلي) فيه(٣٠)، الذي كانت له فرادته في مكة، وشكّل العنصر الأقوى في تحقيق الأمن السياسي والتجاري، بالمقارنة مع الحواضر الحجازية التي حاولت منافستها خلال القرن السادس.

وكانت ثمة سياسة خارجية للاسلام أو ملامح لها، قد ظهرت حينذاك في مكة(٣١)، ستؤدي الى إعادة النظر في النهج القرشي التقليدي، القائم أساساً على التوازن، إن لم نقل الحياد، في العلاقة مع القوى المهيمنة على خطوط التجارة، لا سيما المتصلة بأسواق الشام. فقد كانت الدعوة الإسلامية، الراصدة عن كثب ما يجري على تخوم شبه الجزيرة وأطرافها، تطرح نفسها، القوة «الدولية» البديلة، دون أن تكون مقيّدة بما ارتهنت له قريش من تحالفات مصلحية، كانت تنعكس مباشرة على قرارها السياسي، الذي بدا مرتبكاً أمام تطورات المرحلة، في وقت اتخذت فيه سياسة الدعوة نهجاً آخر، كانت الاستقلالية من أبرز سماته، مجسداً ذلك الفارق بين مشروعين متناقضين في العمق، حيث اتخذ كل منهما المساحة السياسية والحضارية الخاصة به، أو الفارق بين «الدولة» الحضرية التي توجهت منذ انطلاقها، كدعوة، الى مراكز الاستقرار الأكثر استيعاباً لتطلعاتها(٣٢)، وبين «الملأ» البدوي، الذي كانت تتخذ فيه قريش، ربما من حيث المبدأ فقط، قراراتها الهامة.

وهكذا تكون الهجرة الى الحبشة، نواة هذه السياسة الخارجية للاسلام، وبالتالي ضربة ل «دبلوماسية» التوازن القرشي، التي بدت عاجزة عن مواكبة المتغيرات، لا سيما

---

٢٩. المسعودي، مروج الذهب ج٣ ص٣٣.

٣٠. القرآن الكريم، سورة قريش، البلاذري، أنساب ج١ ص٦٠، المسعودي، مروج ٣ج٤٠ ص٣٣.

٣١. ابن اسحاق، السير والمغازي ص١٨٩ وما بعدها.

٣٢. ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية ص١٠٣.

بعد فشل المحاولة في التأثير على «النجاشي» واستعادة المهاجرين المسلمين(٣٣). واذا كانت الشام وتجارتها، الأكثر بروزاً في السياسة الخارجية لقريش، فانها لم تكن غائبة عن «الدعوة» التي خرجت من بيئة كانت التجارة مصدر الارتزاق ومحور العلاقات الاجتماعية فيها. كما كانت الشام التي خرج اليها النبي يافعاً وشاباً، كما خرج اليها عدد من أوائل «جماعته»(٣٤)، حاضرة، بل شديدة الحضور، في القرار الإسلامي، حيث نجد الصدى القرآني لهذه المسألة في سنوات الدعوة الأولى، من خلال «سورة الروم» أيضاً، التي أشارت الى التناقض البيزنطي ـ الفارسي ومحاولة الإفادة منه، دون ثمة ما يحملها ـ أي الدعوة ـ على مواجهة الطرفين أو أحدهما مباشرة، أو من خلال الأطراف العربية التابعة لهذه الدولة أو تلك.

واذا ما توقفنا عند مطلع هذه «السورة» ـ غُلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ـ(٣٥) ندرك الحضور البارز للشام من خلال هذا السياق القرآني، وندرك الاهتمام المبكر للدعوة بهذه المنطقة، وما يقتضيه ذلك من موقف ازاء التطورات المختلفة التي تجري على أرضها. و يأتي التسويغ الفقهي لهذه «الآيات»، بأن المشركين من قريش، اغتبطوا لهزيمة الروم ـ وهم أهل كتاب ـ أمام الفرس المجوس، مما يعني الهزيمة أيضاً لفكر الدعوة ومعها عقيدة التوحيد(٣٦). وفي غمرة الجدل الذي أثارته الحرب في مكة، كانت هذه «الآيات» الأولى من سورة الروم، التي بشّرت بقرب غَلَبه البيزنطيين «في بضع سنين»، على أعدائهم الفرس، ومعها تكريس انتصار التوحيد على الشرك، والايمان على الكفر(٣٧). أما التسويغ التاريخي، فهو أن هذه «الآيات» ـ اضافة الى ما سلف ـ تطرح بصورة جلية، الأصول الأيديولوجية «للطرفين المتصارعين على تخوم

٣٣. ابن اسحاق ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

٣٤. المصدر نفسه ص ٨١.

٣٥. سورة الروم، الآيات ١ ـ ٤.

٣٦. سيد قطب، في ظلال القرآن ج ٦ ص ٤٣٤

٣٧. المكان نفسه، راجع أيضاً: رضوان السيّد، الوعي التاريخي العربي والكتابة التاريخية العربية مجلة الفكر العربي عدد (٢٧) ص ٢٧ لعام ١٩٨٢.

شـبـه الجـزيـرة، وفي عالمها الجغرافي والثقافي، حيث كان المسلمون أقرب «أيديولوجياً» الى عـقـيـدة الـبـيـزنطيين (المسيحية) منهم الى عقيدة الفرس (الزرادشتية)، فضلاً عن الجانب الـسـيـاسي فـيـهـا، وهـو أن هزيمة البيزنطيين، لم تقض على نفوذهم تماماً في المنطقة، حيث دارت رحـى الحـرب، ولـكنهم احتفظوا بجيوب مؤيدة لهم في أطراف شبه الجزيرة و بالقرب مـنـهـا، مما يـعـنـي أن الـوقـوف ضـدهم، وهم لا يزالون في موقع القوة، لم يكن في مصلحة «الدعوة» التي لم تخرج بعد من المعاناة ومن حصار الاضطهاد القرشي في ذلك الحين.

وفي الـوقـت الـذي تورطت قريش في هذا الصراع، معيدة النظر في المعادلة التقليدية التي اختلّت مع المتغيرات الشامية، كان النبي مستوعباً أبعاده على مختلف الصعد الجغرافية والـسـيـاسية والقبلية، حيث بلغ من الحدّة في مطلع القرن السابع، أن اضطربت معه الصيغ والتوازنات، دون أن تنجو قريش نفسها من سلبياته، بعد ازدياد ضغط الدولتين المتصارعتين على أطـراف شـبـه الجـزيـرة والـتـدخل المباشر في شؤونها، سواء في الشام أو في العراق(٣٨). وهـكـذا فـان اشـكالية العلاقة مع البيزنطيين، وضعت الشام في أولويات اهتمام النبي بعد الهـجـرة الى يـثرب، متجاوزاً في الأخيرة، التنظير القرآني الذي تصدى لمسألة شائكة ودقيقة في حـيـاة عرب الحجاز، الى الواقع الذي اتخذ بُعداً آخر، لم يعد فيه الموقف الإسلامي محكوماً بـالتعاطف مع البيزنطيين أو ب «الفرح» (٣٩) لعودتهم الى الشام، بعد أن أصبح الطرفان في المـواجـهـة لا سيما بعد السنوات الأولى من الهجرة، تلك شهدت تطورات خطيرة، سواء على مستوى شبه الجزيرة، أم على مستوى الصراع البيزنطي ــ الفارسي، الذي خرجت منه الدولة الـسـاسـانـية منهوكة ممزقة، واحتدام الصراع فيها على الحكم، الذي كان من نتائجه سقوط «كـسـرى أبـرو يـــز» (٤٠)، بـعـد وقـت قصير من «تمزيقه» لكتاب النبي الذي حمل اليه الدعوة الى الإسلام، حسب الرواية التاريخية(٤١).

---

٣٨. رضوان السيد، الوعي التاريخي العربي. مجلة الفكر العربي عدد (٢٧) ص ٧.

٣٩. سورة الروم الآية ٣.

٤٠. اليعقوبي، تاريخ ١٤٠ ص ١٧١. ابن الأثير، الكامل ٢٤٠ ص ٢١٤ ــ ٢١٥.

٤١. ابن الأثير، الكامل، ٢٤٠ ص ٢١٣.

مقدمات الحملة الى مؤتــة...

لـقـد أثـبـتت وقائع ما بعد الهجرة، أن النبي كان يتطلع الى الشام، كهدف حيوي لـدولتـه، دون أن يتـعـارض ذلـك مـع هـدفه المركزي، وهو ضرب قاعدة الوثنية في الحجاز (مـكة). ولعل القضاء على الأخيرة كان متكاملاً مع التحرك باتجاه الأولى، تأكيداً لحتمية جـغـرافيـة ــ تـاريخية، دون أن تكون الأعمال العسكرية الضيقة التي انطلقت في بدايات الهـجرة، سوى تعبير عن هذا التكامل، بدءاً بالسرايا الصغيرة التي تمحور جزء كبير منها على طـريـق الـشام(٤٢)، وانـتـهـاء بـ «الفتح» الكبير لمكة الذي جاء محصّلاً لحملة مؤتة، أولى المحـاولات الجـدّية لاختراق الحاجز القبلي (المسيحي) الى الشام. فاذا كانت هذه السياسة قد نجحت في فرض الحصار بحدود ما على مكة، وما عكسه ذلك من اضطراب في الداخل، ربمـا طرح المسألة الغذائية فيها، حسب زعم المستشرق الأميركي Donner(٤٣)، فقد كانت مـوجـهـة في الـوقـت نـفـسه، لضرب المنظومة الايلافية، القوة المحركة لتجارة قريش، وذلك بـتـحـو يل خطها الشامي الى منطقة غير آمنة، و بالتالي التأثير على موقف القبائل «المتآلفة» معها، بعد ضرب القاسم المشترك بين الطرفين.

ولـعـل مـتـابـعـة الـتـحـرك الـعسكري للمدينة قبل مؤتة، تطرح مسألة خارج نطاق المـصـادفـة، سواء في اتخـاذ غالبية السرايا النبوية محورها على طريق الشام أو حواليه، أم في تـولي زيـد بـن حـارثـة، الـشـامـي المـولـد، والمـتـحـدّر من قبيلة اتخذت منازلها بجوار دومة الجـنـدل(٤٤)، قـيـادة عـدد غير قليل منها حيث تكثفت في هذا الاتجاه خلال العام السادس للـهـجرة، وكان من أبرزها سرية «العيص»(٤٥) في سبعين ومائة راكب(٤٦) «لاعتراض عير

٤٢. الواقدي، كتاب المغازي ج ٢ ص ٥٥٣ ـــ ٥٦٦، ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ج ٢ ص ١٠٨.

٤٣. F.M. Donner, Mecca's Food supplies and Muhammad's Boycott, Journal of the Economic and Social history of the orient, Vol. xx, part, p. 256.

الواقع أننا نختلف مع Donner الذي يعتقد بأن النبي كان يعمل على تجويع مكة من خلال قطع طريق الشام. ذلك أن مـكة كانت حتى في زمن الحصار هذا، قادرة على تلقّي السلع عبر عدة طرق، دون أن ينفي ذلك ما تعرضت له من ارتباك كان يبلغ معها حدود الأزمة، لا سيما بعد اغلاق مرفأ «الجار» في وجهها الذي كانت تعتمد عليه في استيراد الحبوب من مصر، وذلك بعد أن أصبح تحت سيطرة المدينة. راجع المقدسي، أحسن التقاسيم ص ٩٧.

٤٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣ ص ٤٠. دائرة المعارف الاسلامية ج ١١ ص ١٠.

٤٥. جادى الأولى، الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٥٥٣. ابن سعد، الطبقات ج ٢ ص ١٧.

٤٦. ابن سعد، الطبقات ج ٢ ص ٨٧.

لقريش أقبلت من الشام»(٤٧)، وسرية «حِسمى»(٤٨)، التي تقع وراء وادي القرى، وكان سببها أن رجلاً يقال له دحية ــ الكلبي، كان عند قيصر في الشام، فأجازه «بمال وكساه» فلقيه ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق وأصابوا كل شيء(٤٩) دون أن تشير الرواية في سياقها الى دور هذا الرجل أو علاقته بالنبي، الا أن اسمه يتردد فيما بعد عندما أوفده الى هرقل ومعه كتاب الدعوة الى الإسلام(٥٠). وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً لخروج هذه السرية، التي تشكلت من خمسمائة رجل بقيادة زيد بن حارثة، واتخذت طريقها الى «حِسمى» ــ مكان الاعتداء على دحية ــ بغية الانتقام له(٥١). على أن هذه المهمة لا تعدم خلفية تتجاوز هذا الدافع الثأري، لتصبح أكثر تماساً مع سياسة النبي الشامية، التي أولت اهتماماً كبيراً بالقبائل العربية المتنصّرة على تخوم دولته، حيث كانت في طليعتها جذام، تلك التي قطعت الطريق على الكلبي.

وكانت الضربة الشديدة(٥٢) التي أنزلها زيد بهذه القبيلة الكبيرة، قد حملت زعيمها زيداً من رفاعة الجذامي، على القدوم الى المدينة في نفر من قومه واجراء ما يشبه المعاهدة(٥٣)، لتكون نواة هذا النوع من الاتفاقات التي سار عليها النبي في علاقته مع القبائل المتنصّرة، وكانت آخرها مجموعة المعاهدات الشهيرة التي أسفرت عنها حملته الى تبوك(٥٤).

أما السرية الثالثة، الشامية الملامح التي قادها زيد بن حارثة، فكانت الى «أم

٤٧. الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٥٥٣.

٤٨. جمادى الآخرة في السنة نفسها : ابن سعد، طبقات ج ٢ ص ٨٨. يذكر ابن حبيب أنها وقعت في السنة السابعة. المحبّر ص ١٢١.

٤٩. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٥٥٧.

٥٠. الزهري، المغازي النبوية ص ٥٨.

٥١. الواقدي ج ٢ ص ٥٥٧.

٥٢. «فأغاروا عليهم ــ أي المسلمين ــ فقتلوا فيهم فأوجعوا وقتلوا... فأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاة خمسة آلاف شاة ومن السبي مائة من النساء والصبيان. ابن سعد الطبقات ج ٢ ص ٨٨.

٥٣. راجع أحداث هذه الرواية مفصلة في مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٥٨ ــ ٥٥٩.

٥٤. الطبري ج ٢ ص ١٤٦.

قرفة» الواقعة على مسافة غير بعيدة عن وادي القرى(٥٥)، تلك السرية التي أشارت المرويات الى دوافعها الاقتصادية، حين «خرج زيد في تجارة الى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي»(٥٦). وقد نفذت هذه السرية، في وقت سارت المدينة شوطاً هاماً نحو ترتيب أوضاعها الداخلية، التي بدت محسومة بعد تطويق حركة «النفاق» واخراج اليهود، فضلاً عن انحسار الخطر القرشي وتخلّي ساسة مكة عن فكرة الحرب، مرغمين على التراجع عنها الى موقع دفاعي، حفاظاً على ما تبقى لهم من هيبة في الحجاز، ومصالح باتت تحت رحمة المدينة. وقد يصح التساؤل هنا، اذا ما كانت أهداف هذه السرية اقتصادية فقط، في وقت ربما شعر فيه النبي بضرورة تنظيم المسألة التجارية في المدينة، بعد أن تجاوزت الأخيرة مرحلة الاعتماد على الغنائم واعتراض القوافل القرشية؟ واذا ما كانت السرية تحمل معها قراراً بفتح خط تجاري الى الشام، مستقل عن الخط القرشي ومنافس له؟.. ذلك أن المدينة التي كان النمط الانتاجي الغالب فيها هو الزراعة، معتمدة على أرضها البركانية الخصبة وما يتجمع في الوديان المحيطة بها من السيول(٥٧)، فضلاً عن الخبرة التي تمتع بها الأوس والخزرج (الأنصار)، وما اكتسباه من تطوير لهذه الحرفة من اليهود، حسب «ولفنسون». الذي يرى أن هؤلاء أدخلوا «أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً جديدة للحراثة والزراعة بالآلات»(٥٨)، لم تعد ــ أي المدينة ــ بعد اكتظاظها بالمهاجرين والأنصار، فضلاً عن المسلمين الوافدين عليها من بعض القبائل الحليفة أو المجاورة لها، قادرة، من خلال مصادرها الانتاجية المألوفة غير المتوازنة، على مواجهة هذا الضغط البشري المتصاعد. ولقد حدث ذلك، في وقت يشهد انحسار المواجهة مع قريش، وتلكؤ قوافلها في ارتياد طريق الشام غير الآمن(٥٩)، مما كان له انعكاسه السلبي على الوضع الاقتصادي في المدينة أيضاً، واقتضى

---

٥٥. خرجت في رمضان سنة ست للهجرة. ابن سعد؛ الطبقات ج ٢ ص ١٠.

٥٦. اعترض زيد في هذه السرية «ناس من بني فزارة من بني بدر فضربوه وضربوا أصحابه واخذوا المكان «ثم استبل زيد وقدم على رسول الله (ص) اليهم فكمنوا النهار وساروا الليل، ونذرت بهم بنو بدر ثم صبحهم زيد وأصحابه فكبروا وأحاطوا بالحاضر وأخذوا ام قرفة ٢٢٠٠ ابن سعد ج ٢ ص ٩٠.

٥٧. وصفها ابن حوقل بأنها في حرّة سبخة من الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه نخيلهم وزروع من الآبار». كتاب صورة الأرض، ص ٣٧. راجع أيضاً اليعقوبي، بلدان ص ٣١٣.

٥٨. ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٧.

٥٩. ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية ص ١١٣.

التحوّل بالتالي، من «السرايا» الى «الغزوات» التي كانت «مؤتة»، أولاها نحو الشام.

ولا نستطيع في هذا المجال، الفصل بين مجموعة السرايا التي قام بها زيد قبل مؤتة والتي كان آخرها، تلك التي اتخذت سمة تجارية، وبين السرية التي ربما حملت السمة نفسها، وخرجت قبلها بنحو شهر في هذا الاتجاه، وهي سرية عبد الرحمن بن عوف الى «دومة الجندل» (٦٠). والواقع أن المرويات لم تشر بوضوح الى خلفية ما تؤكد هذا الافتراض أو تنفيه، سوى ما يمكن استنتاجه من خلال انتداب عبد الرحمن بن عوف لقيادتها، وما عُرف عن الأخير من موقع بارز في هذا الميدان، وما اشتهر به من «الدهاء في التجارة والمال بين المسلمين»، حسب المستشرق «وات» (٦١). ويبدو من سياق الروايات، أن هذه السرية، احتلت حيزاً هاماً في سياسة النبي الشامية، حيث أدرجها «ابن عساكر» ــ في روايته المقتبسة عن الواقدي ــ بين المغازي، واعتبرها «أول غزوات الشام»، (٦٢) وذلك خلافاً للأخير الذي صنفها في إطار المجموعة الأولى من الأعمال العسكرية للنبي. وقد يكون هذا المؤرخ على شيء من الحقيقة في هذا التقويم لسرية «دومة الجندل»، بعد أن رأى فيها ملامح جديدة للسياسة التوسعية في الاتجاه الشامي، سواء في تحديد الهدف الذي انتهت اليه، وهو احدى الأسواق البارزة في العهد القرشي (٦٣) أم في المضمون الذي أخذت تتسم به حركة الفتوح الأولى فيما بعد، متمثلاً ذلك في وصية النبي لابن عوف عشية خروجه من المدينة (٦٤)، أم في النتائج الهامة التي حققتها السرية، من دون أن تجد نفسها مضطرة لاستخدام العنف، حيث اتخذت فرادة ما في هذا المجال، بالمقارنة مع السرايا السابقة، بعد أن نجح ابن عوف في اقناع الأصبغ بن عمرو الكلبي «ومعه ناس كثير» (٦٥) بالإسلام. وقد وُصف الأخير في السياق بأنه «كان نصرانياً وكان

---

٦٠. شعبان سنة ست للهجرة. الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٥٦٠. ابن سيد الناس ١٠٨ ج ٢.

٦١. محمد في المدينة ص ٦٦.

٦٢. تاريخ دمشق الكبير، المجلد الأول ص ٣٨٥.

٦٣. اليعقوبي، تاريخ ج ١ ص ٢٧٠. جواد عليّ المفصل. ج ٧ ص ٣٧١.

٦٤. ــ اغزُ باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تغل، ولا تغدر ولا تقتل وليداً المغازي ج ٢ ص ٥٦١، ابن سعد الطبقات ج ٢ ص ٨٩.

٦٥. الواقدي، ج ٢، ص ٥٦٢، ابن سعد، الطبقات ج ٢ ص ٨٩، ابن عساكر، المجلد الأول، ص ٣٨٧.

رأسهم»(٦٦)، مما يعني ـ اذا صحت الرواية ـ خضوع دومة لسلطة المدينة في ذلك الوقت المبكر، أو أنها أقامت معها ما يشبه المعاهدة، تلك التي نلحظها عبر دلالات أخرى، مثل «إعطاء الجزية» و«زواج» ابن عوف من ابنة الزعيم الكلبي(٦٧) الذي سبقت الاشارة اليه.

لقد ناقشنا فيما سلف، سرايا العام السادس من الهجرة، التي كان لها بُعد توسعي واضح باتجاه الشام، وهي من هذا المنظور تعتبر مقدمة لغزوة مؤتة التي نحن بصددها في هذه الدراسة. وكانت تلك السرايا، كما الدوائر المائية، تتسع حلقاتها مع تعزيز الوضع الداخلي في المدينة وانحسام الصراع ضد الوثنية في مكة، الذي بدأ يتكرس منذ العام الهجري الخامس واذا كانت هذه المقدمات «التوسعية» قد جاءت محصلة لفشل «غزوة الأحزاب» القرشية، فان ثمة مقدمة أخرى-لا تقل أهمية عن سابقاتها، كانت من محصلات غزوة الحديبية التي قلبت موازين الصراع في الحجاز لمصلحة الإسلام، بعد انتقاله من موقع الدفاع الى الهجوم، وهي سرية «ذات أطلاح» في العام الثامن للهجرة(٦٨)، التي وُصفت بأنها من «أرض الشام»(٦٩). وكان ينزل بها قوم من قضاعة(٧٠)، وذلك بقيادة كعب بن عمير الغفاري(٧١). وتأتي أهمية هذه السرية، بأنها أول عمل عسكري الى المنطقة الشامية، منذ غزوة الحديبية وعمرة القضاء (القصاص)(٧٢)، حيث انهمك النبي حينذاك بحسم الوضع نهائياً في الحجاز، لا سيما في القضاء على أكبر الجيوب اليهودية في خيبر(٧٣)، ذلك الحصن

---

٦٦. المكان نفسه في المصادر السابقة.

٦٧. المكان نفسه في المصادر السابقة.

٦٨. ابن سعد الطبقات، ج ٢، ص ١٢٧.

٦٩. الواقدي، ج ٢، ص ٧٥٢، وصفها محمد كرد علي بأنها وراء وادي القرى بين تبوك وأذرعات. خطط الشام ج ١، ص ١٠٨.

٧٠. ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٣٠.

٧١. المكان نفسه.

٧٢. ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول، ص ١٧٠.

٧٣. تم غزوها في أعقاب الحديبية. الزهري، المغازي النبوية، ص ٨٤.

الشهير الذي يقع على مسافة غير بعيدة عن المدينة على طريق الشام(٧٤) . ولكن ثمة غموضاً بهذه السرية ، التي يبدو أنها لم تكن أكثر من حملة استطلاعية، كان الهدف منها ، التمهيد لغزوة مؤتة ، التي خرجت من المدينة بعد وقت قصير من هذه السرية الصغيرة(٧٥) .

وهكذا ، تتخذ السرايا المُدرجة زمنياً ما بين العامين السادس والثامن للهجرة، الحيّز الأهم في سياسة النبي الخارجية وتشكل العنصر الأ برز في التحرك الى اقامة مراكز نفوذ للإسلام على الأطراف الشامية ، حيث كان القادة على معرفة وثيقة بالمنطقة (زيد بن حارثة ـ كعب بن عمير الغفاري) ، أو لهم صفة تجارية وعلائقية مع قبائل التخوم (عبد الرحمن بن عوف) . واذا أضفنا الى ذلك ، حرص النبي الذي تجلى مع الهجرة، على ابقاء طريق الشام مفتوحاً أمام القوافل ، على الرغم من السرايا المحلية التي بثّها لعرقلة تجارة قريش ، لأدركنا بوضوح أكثر، البعد السياسي لهذه «السرايا الشامية» . ومن ناحية أخرى فان ثمةُ بعداً قبلياً ، تكامل مع الأول ، تمثّل في التوجه الاستقطابي نحو القبائل المتنصّرة عل تخوم الحجاز، لا سيما جذام وكلب ، متقاطعاً ذلك عبر اثنين من الدوافع : احدهما ، انطلق من حضور قوي لهاتين القبيلتين ، ربما وجد فيه النبي مدخلاً الى الشام ، في وقت فترت فيه العلاقة المصلحية أو كادت بين قبائل الأخيرة لا سيما التخومية منها ، وبين الدولة البيزنطية ، الساعية حينذاك الى تقوية نفوذها المركزي في المنطقة بعيد انتصارها على الفرس ، والثاني ، يعتبر محصلة السياسة ، التي ظهرت ملامحها التنظيرية في «سورة الروم» ، خلال العهد المكي من الإسلام ، وتبلورت على أرض الواقع بعد الهجرة، دون تجاهل ما يقتضيه الفارق بين الحالتين ، حيث كانت ترمي الى «استعادة» القبائل العربية المتنصّرة ـ اذا جاز التعبير ـ من التبعية البيزنطية والى ضرب التعايش المصطنع وغير المتكافىء بين العرب والبيزنطيين في الشام ، من خلال مجموعة الثغرات التي سبقت الإشارة اليها .

ولعل الأمور باتت أكثر وضوحاً في أعقاب «الحديبية» ، وما أسفرت عنه من اتفاق مع قريش ، كان له انعكاسه المباشر على حرية الحركة للاسلام والمسلمين في أطراف شبه

---

٧٤ . وصف ياقوت خيبر بأنه ناحية على ثمانية بُرد من المدينة لمن يريد الشام ، معجم البلدان ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

٧٥ . تشكلت من خمسة عشر رجلاً ، يبدو أنهم قتلوا جميعاً باستثناء واحد عاد جريحاً الى المدينة ، راجع الواقدي ، المغازي ج ٢ ص ٧٥٤ ـ ٧٥٣ .

الجزيرة لا سيما الشامية منها. فلم تعد ثمة ضرورة بعد ذلك، لأن يحشد النبي قواته في حصار قريش أو عرقلة تحركاتها، مما دفعه الى توجيه هذه الطاقة أو معظمها نحو أهداف أخرى. وفي المقابل لم تعد الدولة البيزنطية، الحليف المناسب، بعد أن أسقطت المتغيرات مسوغ استمرارها، من الناحية النظرية على الأقل. فقد عاد البيزنطيون الى الشام، ولكن غير أقوياء كما كانوا في السابق، كما عادت قوافل قريش تأخذ طريقها تحت رعايتهم الى أسواق الأخيرة، متراجعة معها الأزمة التي سادت العلاقة بين مكة والقسطنطينية، ابّان الحرب مع الفرس. وفي ضوء هذا التحوّل، فانّ حرية الحركة، وما ظهر خلالها من اهتمام خاص بأطراف شبه الجزيرة من ناحية الشام، أدّت الى اختراق هذه المنطقة والدخول الى معاقل قبلية شهيرة، قبل أن تشكّل «مؤتة» ذروة هذه «السياسة الشامية» في ذلك الوقت.

الحملة... الطريق الى الشام

كان هذا التحرك، يشكل ضرورة سياسية وعسكرية، فرضتها التطورات التي كانت دولة النبي في الحجاز محورها الأساسي، بعد تجميد الصراع مؤقتاً مع قريش، كما كانت محورها من جهة ثانية الدولة البيزنطية، التي حاولت استثمار انتصارها على الفرس، بتقوية نفوذها الذي أختلّ في بعض الجهات، لا سيما المتاخمة لمنطقة نفوذ القوة الاسلامية الصاعدة. وقد تكون هذه «العودة» البيزنطية، سبباً في حالة التوتر التي سادت التخوم، حيث أسهمت على ما يبدو في تعزيز الوضع المعنوي للقبائل المتنصّرة، على الرغم من مخالفة بعضها مذهبياً لكنيسة الدولة الرسمية، بقدر ما أسهمت في ظهور حالة الوعي المستجد لدى هذه القبائل أو بعضها ازاء الإسلام، واجدة فيه من التحدّي ــ من الناحية العقائدية على الأقل ــ ما يفوق التحدّي البيزنطي المألوف.

ومن هذا المنظور تكتسب غزوات الشمال تلك الأهمية، في مواجهة التحدّي الذي فرضته اعادة ترتيب مواقع النفوذ البيزنطي في الأطراف الشامية، «دومة الجندل»، التي يرى فيها أحد المؤرخين «أول حلقة في سلسلة الصراع الحربي بين عالمي الاسلام والنصرانية» (٧٦)، وذلك انطلاقاً مما حققته من منجزات على صعد شتى، دينية وسياسية

٧٦. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص ٢٨٥.

واجتماعية. ومما يلاحظ أن هذا التحرك الاسلامي لم يأخذ مداه الفعلي، الا بعد الفشل، ان لم نقل اليأس في تحقيق تحالف أو اتفاق أكثر شمولية، مع القبائل المتنصّرة في العامين السادس والسابع، حيث سبقتهما أعوام المجابهة مع اليهود في الحجاز، وما أعلنوه من عداء صريح للإسلام. وكان من البداهة، أن القضاء على «خيبر»، افترض موقفاً من المستقرات المسيحية الصغيرة على الأطراف، ولكن مع اتجاه الى التعامل معها، وفق مقتضيات النصوص القرآنية في هذا المجال. على أن هذه العلاقة، كانت محكومة بالواقع أكثر من النصوص، ومتأثرة بتغيّر موازين القوى في الصراع البيزنطي ــ الفارسي ومحاولة اختراق «الحاجز»، الذي لم تعد له منعته السابقة، كما أثبتت السرايا الآنفة الذكر، لا سيما «دومة الجندل» و «حسمى» و «ذات أطلاح»، التي انطلقت بصورة غير عفوية في هذا الاتجاه الشامي، وكانت مقدمة مباشرة لغزوة «مؤتة» ومرتبطة بها الى حدّ كبير.

وهكذا فان غزوة مؤتة، تصبح خارج الإلتباس أو التسطّح التاريخي الذي اتّسمت به حتى الآن، سواء في المرويات التقليدية أم في الكتابات الحديثة والمعاصرة. ولعل ابن الأثير، كان على استيعاب تاريخي خاص بها، عندما أدرج احداثها في غير موقعها الزمني، مسوّغاً ذلك بقوله: «كان ينبغي أن نقدم هذه الغزوة على ما تقدم، وانما أخّرناها لتتصل الغزوات العظيمة فيتلو بعضها بعضاً» (٧٧). على أن تفاصيل الحادثة لدى هذا المؤرخ، لا تختلف عن تلك التي وردت في تاريخ الطبري وكتب المغازي والسير، وهي لا تبحث مطلقاً في الأسباب الموضوعية، الا ما ذكرته المرويات عن مقتل موفد النبي (٧٨) الى ملك بصرى (٧٩)، على يد حليف له (٨٠)، في المكان الذي ذاعت شهرته بعد ذلك، دون معرفة ما يمثله الأخير بالنسبة لمؤتة، اذا كان أميراً عليها، أو أن «القرية» (٨١) كانت مجرد مكان اختاره «الحليف» للايقاع بالحملة والقضاء عليها، بتدبير من «ملك» بصرى أو آخرين من أتباع الدولة البيزنطية.

---

٧٧. الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤.

٧٨. الحارث بن عمير الأزدي، الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٥٥.

٧٩. لم تشر الرواية الى اسمه، راجع الواقدي، ج ٢، ص ٧٥٥. ابن سعد، غزوات الرسول وسراياه، ص ١٣٨.

٨٠. شرحبيل بن عمرو الغساني. الواقدي، ج ٢، ص ٧٥٥.

٨١. الطبري، ج ٣، ص ١٠٨.

ولا بدّ هنا من العودة الى السياق التاريخي، وما قيل عن كتاب أرسله النبي الى هرقل (الامبراطور البيزنطي)، الذي كان لا يزال حينذاك في الشام بعيد انتصاره على الفرس. و يبدو أن حامل الكتاب(٨٢)، كان قبل اسلامه يدين بالمسيحية، من خلال انتمائه الى كبريات القبائل الشامية المتنصّرة (كلب)، وهوما كان النبي حريصاً على أتباعه، عندما اتخذ أعواناً ورسلاً وقادة، على علاقة وثيقة بالأماكن التي يوفدون اليها ويحملون معهم مهمات دقيقة (دحية الكلبي، الحارث بن عمير الأزدي...) على أن الرواية لا توضح، اذا كان كتاب النبي الى هرقل، هو نفسه الذي تلقاه «ملك» بصرى — حيث أشار «الزهري»، الى أن الموفد «دفعه الى عظيم بصرى، فدفعه الى هرقل»(٨٣) — أم أن كتاباً خاصاً حمله الى صاحب بصرى (ملكها)، وكان سبباً فيما جرى بعد ذلك في مؤتة. ذلك أن اسم الأخير لم يرد بين الذين تلقوا كتباً من النبي، الا اذا كان أحد الأسماء الواردة في الرواية، التي أشارت الى «مكاتبة» النبي للملوك والأمراء، من دون ذكر صفة معينة لها(٨٤).

على أن مروية «الكتب النبوية»، ليست واضحة تماماً، وتحتاج الى نقاش لسنا في سبيله الآن، ولكن يمكننا التوقف قليلاً عند رسالة النبي الى هرقل، سواء كانت نفسها التي تلقاها صاحب بصرى، أم أنها وصلت اليه عبر الأخير، حيث الروايات لا سيما المنسوبة للزهري(٨٥)، ترى فيها مجرد دعوة عفوية الى الإسلام، دون مراعاة التطورات الخطيرة التي كانت لها سمات سياسية(٨٦) واضحة، الى جانب سماتها الدينية المبدئية. ذلك أن هرقل، العسكري المحترف(٨٧)، الذي خاض الحرب مع الفرس تحت الشعار الصليبي وتصدّى بقوة للمدّ العربي الإسلامي بعد ذلك، لم يكن مطلقاً في موقع المحاور أو

٨٢. دحية الكلبي، الزهري، المغازي النبوية، ص٥٨.

٨٣. المكان نفسه.

٨٤. مثل الحارث بن أبي شمر الغساني وهوذه بن علي الحنفي، البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٣١ (تحقيق حميد الله). ابن الأثير، الكامل ج ٢، ص ٢١٠

٨٥. المغازي النبوية، ص ٦٠ — ٦١.

٨٦. وات، محمد في المدينة، ص ٦٣.

٨٧. أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٢١.

قريباً منه (٨٨)، وقد خرج لتوه من انتصار باهر انصرف حينذاك الى توظيفه في دعم نفوذه السياسي ــ الامبراطوري. واذا كان غير مطروح، التشكيك بصحة هذه الرسائل التي قيل أنها أرسلت الى هرقل والى آخرين من الملوك والأمراء، فان تناولها على النحو الذي أوردته الروايات، في معزل كلّي أو جزئي عن متغيرات المرحلة، لا يعبّر كثيراً عن، واقع الحال في ذلك الوقت. فثمة حقيقة لا نستطيع اغفالها في هذا السياق، هي أن النبي، اذا كان قد تجاوز مقاييسه السابقة التي كان حريصاً من خلالها على الموازنة بين الفرس والبيزنطيين، مع ميل لهؤلاء، فانه بعد أن حسم أو كاد، الصراع مع قريش، بدأ يتجه لا ثبات الاسلام السياسي والديني وتجذيره في منطقة النفوذ البيزنطي، مما أدى الى وضع احدهما في مواجهة الأخر، حيث اعتبر النبي التحرك المجاور، تحدّياً له وتجاوزاً للخط المسموح به لدى الدولة الإسلامية الصاعدة، التي تعتبر هذه المنطقة امتداداً جغرافياً و بشرياً لها. ومن هذا المنظور فان «التحدّي» البيزنطي والمواجهة الإسلامية، أسهما في خلق جو تصادمي بين الطرفين، وفي تهيئة الظروف لغزوة مؤتة، في وقت كان النبي يعمل على كسر هذا التوازن، الذي اختلّ على يد البيزنطيين أنفسهم، بعدما قيل عن حشود ضخمة لهؤلاء وأتباعهم من القبائل المتنصّرة، أخذت تتجمّع في نواحي البلقاء.

ومن ناحية أخرى، فان ثمة التباساً في التوقيت بالنسبة لهذه الحملة، حيث يشير ابن اسحاق (٨٩) الى أن الأعداد لمؤتة تمّ في أعقاب غزوة خيبر انطلاقاً من علاقة ما ربطت بين الغزوتين ضمن تحرّك سياسي ــ ديني، موحد ومتواصل، في حين يجد عروة بن الزبير أن الحملة نُفّذت في أعقاب عودة النبي من «عمرة القضاء» (٩٠) الى المدينة. على أن كلتا الروايتين، تلتقيان عند نقطة هامة، وهي أن اختيار اللحظة لهذا التحرك، كان معبّراً عن موقع النبي القوي، سواء في هذه أو تلك، أي بعد اجتثاث جذور اليهود في الرواية الأولى، وتحقيق انتصاره السياسي الباهر على قريش في الثانية، مما يعني أن تلك الحملة لم تكن

---

٨٨. راجع تفاصيل اللقاء الذي قيل أنه جرى بين هرقل وأبي سفيان في بصرى، بعد استدعاء الأول للأخير للوقوف منه على أخبار النبي ودعوته. الزهري، المغازي النبوية، ص ٥٩ ـــ ٦٠.

٨٩. الطبري، ج ٣، ص ١٠٧.

٩٠. ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، المجلد الأول، ص ٣٨٨، الكلاعي، الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ج ٢، ص ٢٧٥، وابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول، ص ١٧٠.

عفوية أو مدفوعة بالموقف الثأري، بقدر ماكانت متصلة بهذه المنجزات السياسية الهامة، ومسبوقة بفترة من التأمل والإعداد الهادىء لها، بلغت نحواً من ستة أشهر(٩١)، كانت كافية لاتخاذ النبي قراره الخطير، باختراق «حاجز» القبائل العربية المتنصّرة في جنوب الشام، الى حيث القوات البيزنطية النظامية، مما سيكون له تأثيره الجذري وعلى المدى القريب جداً ــ بالنسبة لكافة الأطراف المتصارعة في المنطقة.

والواقع أن تفاصيل هذه الغزوة تبدو لنا مكررة وعلى شيء من الايجاز في المصنفات التاريخية، بما في ذلك تاريخ الطبري، الذي يميل عادة الى التفصيل والإسهاب في ملاحقة الحدث، حيث جاءت معلوماته مقتضبة(٩٢)، على الرغم من اعتماده على ابن اسحاق كمصدر رئيسي لهذه الحادثة(٩٣)، ولعلّ الواقدي، كان الأكثر دقة في مادته المسهبة عن مؤتة، مما جعل «مغازيه» المصدر الرئيسي لهذه الدراسة.

وفي مقدمة ما يستوقفنا من خلال رواية «الواقدي»(٩٤)، أن ثمة تأهباً ربما بلغ حدود الاستنفار، كان يسود المنطقة الشامية، في الوقت الذي خرجت فيه الحملة من المدينة(٩٥)، مما يعني أنها لم تكن مفاجئة للبيزنطيين وحلفائهم، حيث كانوا راصدين على ما يبدو التحركات الإسلامية في هذا الإتجاه، وواجدين فيها ما يتعدى العمليات «البدوية» المألوفة. ولعل هذا الموقف الحذر، أخذ يتبلور في أعقاب رسالة النبي الى هرقل ودعوته الى الإسلام، حيث أظهرت الرواية التاريخية، شرحبيل بن عمروالذي اعترض طريق موفد النبي (الحارث بن عمير)، أنه على احتكاك بالأحداث وعلم بالتفاصيل منها. وقد يعزّز ذلك الاعتقاد بأن ما جرى لم يكن عملاً فردياً أو قبلياً، بقدر ما كانت له خلفيته السياسية، التي تجلّت خاصة في حوار الرجلين اللذين ينتميان الى الأ رومة الأ زدية

---

٩١. ابن هشام، السيرة النبوية القسم الثاني، ص ٣٧٣، الكلاعي، الاكتفاء، ج ٢، ص ٢٧٥.

٩٢. الطبري، ج ٣، ص ١٠٧ ــ ١٠٩.

٩٣. ابن هشام القسم الثاني، ص ٣٧٣ وما بعدها، الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ٧.

٩٤. المغازي، ج ٢، ص ٧٥٥.

٩٥. خرجت الحملة في جمادى الأولى سنة ثمان، وكان قوامها ثلاثة آلاف رجل بقيادة زيد بن حارثة ومعه اثنان من كبار الصحابة هما: عبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب، فضلاً عن القائد الشهير خالد بن الوليد. راجع ابن هشام للقسم الثاني، ص ٣٧٣، والطبري، ج ٣، ص ١٠٧.

الواحدة(٩٦).

واذا كان النبي قد تأثر لمقتل رسوله، فانه وجد في ذلك مناسبة لاتخاذ مبادرة سريعة في التحرك الجدي نحو الشام، موظفاً الصدى الذي تركته الحادثة على أصحابه في المدينة، من أجل تعبئتهم نفسياً وسياسياً، حيث يتوافق ذلك والرواية التاريخية، التي أشارت الى أن النبي لمّا بلغه «الخبر اشتد عليه، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجرف»(٩٧). فقد كان النبي — حسب النص السالف — على ادراك بتفاصيل الوضع الشامي، دون أن يكون مدفوعاً فقط بالعامل الشخصي، حيث كانت له حساباته الأوسع، في التعاطي الجديد مع العدو الحقيقي في الشام، الذي لم يعد خافياً على المسلمين في ذلك الوقت.

وثمة مؤشر آخر في هذا السياق التاريخي لغزوة مؤتة، أن النبي بعد حالة الاستنفار والدعوة الى التجمع في معسكر الجرف(٩٨)، تلك الدعوة التي أسفرت عن تشكيل الحملة الى حيث قتل رسوله، أعلن أو كاد بدء حركة الفتوح، التي تأخر تنفيذها الفعلي حتى عهد الخليفة الأول، وذلك من خلال التشريع الهام، الموجّه الى قادته، والمعبّر عن الأجواء المشحونة التي بدأت تكتنف أطراف الشام في ذلك الحين(٩٩). والواقع أن قراءة متمعنه في النصوص، لا تترك مجالاً للشك بهذه المجابهة الساخنة بين الاسلام و بين البيزنطيين

٩٦. راجع رواية الواقدي.. «فلما نزل مؤتة — أي الحارث — عرض له شرحبيل ابن عمرو الغساني، فقال له: أين تريد؟ قال: الشام. قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، أنا رسول رسول الله، فأمر به فأوثق رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه». المغازي ج ٢، ص ٧٥٥.

٩٧. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٥٦.

٩٨. يقع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام. ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٢٨.

٩٩. راجع وصية النبي: «اغزوا باسم الله في سبيل الله. فقاتلوا من كفر بالله لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً. واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى ثلاث: فأيتهن ما أجابوك اليها فأقبل منهم واكفف عنهم: ادعهم الى الدخول في الاسلام، فان فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين، فان فعلوا فاخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وان دخلوا في الاسلام واختاروا دارهم، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفيء ولا في القسمة شيء الا أن يجاهدوا مع المسلمين، فان أبوا فادعهم الى اعطاء الجزية، فان فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم، فان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم..» الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٥٧.

وحلفائهم، معبّرة عنها وصية النبي لقواته، وقد سار معهم شوطاً خارج المدينة «اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام..» (١٠٠). وفي المقابل كان التأهب على أتمّه للقاء المسلمين، بعد أن تناهت الى الدولة البيزنطية أخبار تحركهم من المدينة، والهالة (١٠١) التي أحاطت بهم، مدركة خطورة المهمة التي حملوها الى الشام.

ومن اللافت، أن يتردد مرة أخرى اسم شرحبيل بن عمرو، ولكن بشيء من التواتر حيث يشير اليه ابن سعد تحديداً، بأنه «جمع أكثر من مائة ألف وقدم الطلائع أمامه» (١٠٢)، بينما يذكره الواقدي مجتزءاً بقوله «وقام فيهم رجل من الأزد يقال له شرحبيل بالناس وقدم الطلائع أمامه» (١٠٣)، أما ابن عساكر فقد أورد اسماً آخر هو «ابن أبي سمرة الغساني» (١٠٤)، كقائد لطلائع الجيش الذي تصدّى لأهل مؤتة (١٠٥). ولعل ما يعنينا في هذا المجال، أن يكون القائد نفسه، أو من العشيرة نفسها (غسان)، من تصدى للمسلمين، وهم لا يزالون في وادي القرى، حين أرسل أخاه (سدوس)، فضلاً عن أخ ثان (وبر) (١٠٦)، في محاولة ربما ترمي الى عرقلة سير الحملة واتاحة فرص أفضل للخطة المعادية التي كان شرحبيل على ما يبدو رأس الحربة فيها. ولا يكتفي هذا النص بالإشارة الى قائد الطلائع الأمامية، بل ينطوي في الوقت نفسه على تحديد نوعية العلاقة، التي بلغت حداً كبيراً من التدهور، بين المسلمين والقوى المسيطرة في الشام، حيث تردّدت عبارة «العدو» في مختلف الروايات (سمع العدو(١٠٧).. دنا العدو(١٠٨).. كثرة هذا العدو(١٠٩).. الخ..)،

١٠٠. المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٨.

١٠١. ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ١٢٨.

١٠٢. المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٩.

١٠٣. المغازي، ج ٢، ص ٧٦٠.

١٠٤. تاريخ دمشق، المجلد الأول، ص ٣٩٢.

١٠٥. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٥٨.

١٠٦. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٦٠.

١٠٧. المكان نفسه، ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ١٢٨.

١٠٨. ابن هشام، السيرة النبوية، القسم الثاني، ص ٣٧٧، الكلاعي، الاكتفاء، ج ٢، ص ٢٧٩.

١٠٩. ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول ص ١٧٢.

وذلك في معرض الإشارة الى البيزنطيين وحلفائهم، اولئك الذين أكّد النبي عداوتهم لله وللمسلمين في وصيته الآنفة الذكر(١١٠).

وهكذا يتبين لنا، من خلال الموقف المضاد للبيزنطيين والقبائل المتنصرة، والسرعة التي تحرّكت فيها قواتهم لمواجهة الحملة الإسلامية، ان هؤلاء كانوا على معرفة واسعة بتطورات الوضع السياسي في الحجاز، ومدركين خطورة الأهداف البعيدة، لمثل هذا التوغل في عمق المنطقة الشمالية. ولذلك لم تكد الحملة تبلغ «أرض معان»(١١١)، حتى تناهت اليها أخبار نزول الامبراطور البيزنطي في «مآب»(١١٢)، أي في المنطقة نفسها التي بدت حينذاك محور الصراع الإسلامي ــ البيزنطي، منذ مقتل الحارث بن عمير حتى حملة تبوك بقيادة النبي. ولن نتوقع كثيراً عن العدد(١١٣) الهائل من المقاتلين، الذي قيل أن هرقل حشده لمواجهة المسلمين، حيث الأرقام غالباً ما تكون غير دقيقة وتجنح الى المبالغة، لا سيما الرقم المرتفع الوارد في تقدير القوة البيزنطية، دون ثمة ما يسوغه كثيراً، أمام الرقم المتواضع لقوة المسلمين، فضلاً عن صعوبة اعداده والتحرّك به على هذا النحو من السرعة، كما جرى في ذلك الوقت.

على أن وضوح المبالغة في وصف القوات «المعادية»، لا يلغي عنصر التفوق غير المعادي للقوات البيزنطية وحلفائها، وذلك بالمقارنة مع القوة الإسلامية الصغيرة، التي داهمها ذلك العدد المرتفع وكان أن يدفعها الى التردد في القتال(١١٤)، لولا الموقف التحريضي لابن رواحة (أحد قادة الحملة)، الذي كان له تأثيره في رفع المعنويات

---

١١٠. الواقدي، ج ٢، ص ٥٥٨.

١١١. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٦٠.

١١٢. ذكر ياقوت أنها مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء. معجم البلدان ج ٨، ص ٣١. كما ذكر أبو الفداء أنها «مدينة قديمة أولية قد بادت وصارت قرية تسمى الربّة وهي من معاملة الكرك، ص ٣٤٧. ولكن BUHL يعتقد أنها كانت معكسراً (فسطاطاً) في ذلك الوقت. Encyclopédie de l'Islam T. III, p. 826.

١١٣. تجمع الروايات على أن هرقل قد جاء في «مائة ألف من الروم وانضمت اليه المستعربة من لخم وجذام و بلقين و بهراء و بلّى في مائة ألف». الطبري ج ٣ ص ١٠٧. راجع أيضاً: ابن هشام، القسم الثاني، ص ٣٧٥. ولكن الواقدي يكتفي بذكر الرقم الأول، أي مائة ألف. المغازي، ج ٢، ص ٧٦٠.

١١٤. الواقدي، ج ٢، ص ٧٦٠.

والتخفيف من هالة التفوق البيزنطي، مشدداً على أخذ العبرة من «بدر» (١١٥)، التي كانت النموذج الأرقى للقتال من أجل القضية، وتحقيق انتصار الايمان على الشرك (١١٦). ومن هذا المنطلق، فان حملة مؤتة تتجه الى الشام، وهي منطوية على هذا الشعور بحتمية انتصار القضية، دون أن يعني ذلك اختيار التضحية مسبقاً والسعي اليها (١١٧). ذلك أن عدد القتلى لا يعبّر كثيراً عن ذلك، حيث المرويات لم تشر الى ما يزيد عن عشرة (١١٨)، سقطوا في المعركة التي جرت في «مؤتة»، اضافة الى القادة الثلاثة، دون أن تضيف تفاصيل أخرى تتعلق بسير القتال وظروفه، باستثناء ما ذكرته عن خالد بن الوليد، الذي كان حديث العهد بالإسلام، وأخذه الراية بعد الفراغ القيادي في الحملة (١١٩)، في وقت «اختلط فيه المسلمون والمشركون» (١٢٠) حسب الواقدي، مما أدى الى اتخاذه ذلك الدور الانقاذي، بعد أن «حاشى بهم (١٢١) ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف الناس» (١٢٢) حسب رواية ابن اسحاق.

كان هذا ما توقفت عنده المرويات التي وصفت الهزيمة بأنها الأكثر سوءاً في تاريخ المسلمين (١٢٣) مما أدى الى استنكار شديد في المدينة واتهام «أهل مؤتة» بالتقصير

١١٥. راجع النص: «والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد لا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيول، الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. انطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا الا فرسان... إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله به ووعدنا نبينا، وليس لوعده خلف، وأما الشهادة فنلحق بالأخوان نرافقهم الى الجنان». الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٦٠. راجع أيضاً: ابن هشام، القسم الثاني، ص ٣٧٥.

١١٦. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٦٢.

١١٧. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٦٠.

١١٨. ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول، ص ١٧٣. راجع أيضاً: «الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٦٩. الطبري ج ٣ـ ص ١٠٩.

١١٩. ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ١٢٩.

١٢٠. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٦٣.

١٢١. من الحشي، أي الناحية، وقد وردت، أنحاش المسلمون» لدى الواقدي، ج ٢ ص ٧٦٣. ووردت حاشى بهم لدى الكلاعي، أي حجز بينهم وبين الروم. الاكتفاء ج ٢، ص ٢٨٠.

١٢٢. ابن هشام، القسم الثاني، ص ٣٨٠.

١٢٣. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٦٣.

والتخاذل (١٢٤). ولكن النبي واجه النقمة التي أحاطت بهم، و بدّد الشكوك بقدرة «أهل الايمان» على قوى الشرك، الذين لم يستطيعوا على كثرتهم أن يزرعوا الخوف في قلوب القلة المؤمنة، أو يدفعوا الى التراجع قيادتها، التي مثّلت في سعيها الطوعي الى الشهادة، نموذجاً آخر في التضحية من أجل المبدأ، ورافداً جديداً لتراث المسلمين في هذا المجال، مؤدياً ذلك الى تكوين مقاتل نوعي، شكل أداة التغيير الفاعلة في التطورات الجذرية، الممتدة ما بين «مؤتة» ومعارك الفتوح الكبرى في العهد الراشدي الأول. ومن هذا المنظور، حرص النبي على حماية معنويات العائدين من مؤتة ـــ اذا جاز التعبير ـــ وصدّ الاتهام عنهم، بل كان أكثر حرصاً على تحويل هزيمتهم الى نصر، ووصفهم بالكّرار في معرض الرد على اتهامهم بالفرار (١٢٥). ولقد ترافق هذا الموقف مع حملة اعلامية قادها شعراء المدينة دفاعاً عن «أهل مؤتة»، وفي الطليعة منهم حسان بن ثابت، حيث حفظت لنا المصادر «ثلاثا من قصائده، في تمجيد قادتهم والآخرين الذين سقطوا في المعركة، فضلاً عن قصيدة لكعب بن مالك أخذت المنحى نفسه، وأخرى لشاعر مجهول (١٢٦)، أسهمت بدورها في تغيير هذه الصورة القاتمة بعيد انكفاء الحملة «مهزومة» الى المدينة.

واذا كنا لا نملك معطيات أخرى لتقويم هذه التجربة الرائدة في غير الموقع الملحوظ في السياق التاريخي، فان الهزيمة إن صحّ وقوعها ـــ مبهمة حتى في حملة الشعراء الآنفة الذكر. ولعلّ أبرز المفارقات فيها، مقتل قياداتها تباعاً، على نحو لا يتوافق مع ضآلة عدد الجنود الذين سقطوا في المعركة، مما أتاح عودة الحملة شبه كاملة الى المدينة. ولقد وُجد من المؤرخين من شكك بهذه الهزيمة، أو حتى بالمعركة نفسها، كابن «سيد الناس» الذي أورد رواية لابن اسحاق، تحدثت عن «انحياز كل فئة عن الأخرى من غير هزيمة» (١٢٧). وثمة ملحوظة أخرى مرتبطة بأرضية المعركة وتوقيتها في آن، و بالتالي فان تساؤلاً يفرض نفسه اذا ما كانت حملة المسلمين الى «مؤتة» فعلاً اختيارياً في حينه من النبي، أم أنها ردة فعل على خطر ما، اخذ يلوح في المنطقة المتاخمة لدولته، في وقت كان البيزنطيون مهتمين باعادة

١٢٤. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٦٥.

١٢٥. المكان نفسه.

١٢٦. ابن هشام، القسم الثاني، ص ٣٨٤ ـــ ٣٨٨.

١٢٧. عيون الأثر، ج ٢، ص ١٥٥.

ترتيب أوضاعهم فيها، بعد احتلالها ابّان الحرب مع الفرس كما أسلفنا القول. ولعل الجواب على هذا التساؤل قد لا يكون ممكناً دون استيعاب هذه التطورات، وانعكاسها السلبي على العلاقة بين النبي والبيزنطيين، حيث وجد هؤلاء في نمو القوة الاسلامية على أطراف دولتهم، تهديداً لمصالحهم ومراكز النفوذ التابعة لهم، مؤدياً ذلك الى معادلة جديدة في الصراع. المنطقة، أخذت تفرض نفسها على حساب المعادلة السابقة التي انهارت أو كادت بعد هزيمة الدولة الساسانية.

ومن هذا المنظور لا يصبح التساؤل ملحاً عن الطرف الذي اختار المعركة أرضاً وتوقيتاً، حيث أصبح كلاهما في مواجهة حتمية مع الآخر، لا سيما الطرف الاسلامي، الذي رفض العودة الى الواقع القديم، بما في ذلك استنزاف قبائل التخوم وتوظيفها في الصراع العربي ــ العربي، الذي يعيق حرية الحركة بالنسبة للإسلام في منطقة شديدة الأهمية بالنسبة اليه وكان أي اختراق لها من جانب البيزنطيين، يجد فيه النبي تحدّياً لدولته، بينما حرص هؤلاء في المقابل على وضع «حاجز» أمام الأخيرة، يحول دون تسرّب خطرها الى العمق الشامي، متخذين من البلقاء على الأرجح هذه المنطقة «الحاجزة» مع الإسلام. ومن هنا فإن الحشود البيزنطية ــ على ما أحيط بها من المبالغة ــ بقيادة الامبراطور نفسه، تصبح مسوغة لدى البيزنطيين، وكذلك اختيار البلقاء ساحة المواجهة، واعتبارها خطاً دفاعياً غير مسموح ب «اختراقه»، فيما يتعدى الأسباب التجارية، ذلك الخط الذي كان الدفاع عنه من مهمات حلفائهم الغساسنة، المنتشرين جنوباً حتى البلقاء حيث كان أحد امرائهم (شرحبيل بن عمرو الغساني)، أحد الأسماء البارزة في أحداث مؤتة (١٢٨).

كسر التوازن السياسي والإقليمي

لقد كانت مؤتة تجربة دقيقة ومثيرة على المستويين السياسي والديني لدولة النبي الصاعدة، التي طرحت نفسها قوة جديدة، قادرة على حماية وجودها في وجه القوى التقليدية في مطلع القرن السابع الميلادي. واذا كانت دولة الفرس الساسانيين قد انطوت على انقساماتها الداخلية ومعاناة جراح الهزيمة، مكتفية من نصيبها في الصراع على شبه الجزيرة،

١٢٨. اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ٢٠٤.

بتحقيق السيطرة على منطقة (اليمن) بعيدة عن دائرة النفوذ الاسلامي في ذلك الحين، فإن الدولة البيزنطية، كانت في المواجهة المباشرة وعلى التخوم القريبة، مما أوجد تربة خصبة للاحتكاك، بين قوة تقليدية لها نفوذها الراسخ في الشام. وعلاقاتها القبلية والمصلحية الواسعة، وبين قوة جديدة، تدفع باهتمامها الى هذه المنطقة، ولكن من خلال طرح مميز وأسلوب احتوائي غير مألوف. ولذلك فان حملة «مؤتة»، لا تبقى بالضرورة أسيرة الطابع الثأري المتداول، بقدرما تعتبر خلوة طليعية في التاريخ العسكري للمسلمين. خارج النطاق الحجازي، حين جعلت هؤلاء بعدها «يتطلعون بأعين واسعة الى الشام»(١٢٩) حسب تعبير مؤرخ معاصر، فلم تكن مصادفة على الإطلاق، أن يحشد البيزنطيون تلك القوة الهائلة ـــ حسب مرويات مؤتة ـــ في نواحي البلقاء، في وقت خرجت فيه «المدينة» من دائرة الخطر الداخلي، وأخذت تمد خطوطها تدريجياً في داخل الأطراف الشامية، وذلك من خلال السرايا شبه الدورية التي استهدفت مراكز قبلية هامة، لا سيما «دومة الجندل»، مما جرّ الى حالة استنفار بيزنطي في الشام، تحت تأثير هذا التحرّك الإسلامي، الذي اقترب من مناطق الخطر، حيث كانت على ما يبدو تمثلها «البلقاء» في ذلك الحين.

ومن ناحية أخرى فان هذا التحرك كان يثير مسألة دقيقة لدى البيزنطيين، وهي محاولة استقطاب القبائل العربية المتنصّرة(١٣٠)، وتحريضها على التمرّد، في وقت شهد تداعي الحضور القرشي، الذي مثّل الامتداد العربي المصلحي للقبائل الشامية، بينما الاسلام آخذ في الصعود، بعد المنجزات الهامة التي حققها في الحجاز، وملامس الذات العربية، في محاولته كسر التوازن التقليدي، في المواجهة الجديدة للخطر البيزنطي، مؤدياً ذلك الى نوع من الرضا، ربما غير المعلن لدى العرب، الذين كان لهم تراثهم في هذا المجال، سواء مع البيزنطيين أم الفرس. ولم تغفل رسالة النبي الى هرقل، التي انطوت أساساً على الدعوة الى الإسلام(١٣١)، ومع العرب المحليين التابعين له(١٣٢)، مما أثار جدلاً في الشام لدى

---

١٢٩. أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٣٨.

١٣٠. F.R. Buhl, Mu'ta, Encyclopédie de l'Islam T. III, p. 126.

١٣١. الزهري، المغازي النبوية، ص ٦٠.

١٣٢. ربما كان ذكر الأريسين «(الزهري، مغازي، ص ٦٠) أو الأريسيين (مجموعة الوثائق السياسية العهد النبوي والخلافة الراشدية، ص ١٠٩)، له علاقة بأوضاع العرب المتنصرين في الشام على الصعد الدينية والسياسية =

الامبراطور وحاشيته، لم تثره رسالة أخرى الى معاصريه من الملوك.

وهكذا فان حتمية مواجهة الخطر الذي فرضته التعبئة البيزنطية الواسعة في البلقاء، كانت أبرز مسوغات هذا التحرك الاسلامي المضاد، تفادياً لاثارة المشاكل الداخلية في شبه الجزيرة، وحفاظاً على الروح المعنوية التي ولّدها انتصار «بدر» وصمود «الخندق» والقضاء على اليهود، وما صاحب ذلك من ركود الصراع مع قريش في أعقاب الحديبية، لتلتقي عدة المسوّغات جميعها مع شمولية الإسلام وفرادته كدعوة ودولة، وما يقتضيه ذلك من رفض العزلة واعتبار العالم مجالاً لرسالته. ففي ضوء هذه المعطيات، كانت تتخذ «مؤتة» طابعها الرسالي، مثبتة على الأرض ما حملته الوفود من كتب لهرقل وحلفائه من رؤسائه القبائل المتنصّرة، من دعوة الى الإسلام. كما تكتسب تلك الصفة الصدامية المتحدية لقوة عظمى هي الدولة البيزنطية، مما كان له تأثيره الجذري في تفكير المسلمين، الذين اعتبروها نهجاً وضعه النبي، وبالتالي ينبغي متابعته والسير عليه. ولعل «ابن كثير»، كان واعياً لهذه الحقيقة، في وصفه لمؤتة بأن «هذه الغزوة كانت ارهاصاً لما بعدها من غزو الروم، وارهاباً لأعداء رسول الله»(١٣٢).

ومن هذا المنظور فان النبي، لا يرى في «مؤتة» إخفاقاً أو تراجعاً لمشروعه، ولكنه يجد فيها الحافز الأقوى للإستمرار في الإطار نفسه. فتكون غزوة «ذات السلاسل» احدى النتائج المباشرة لمؤتة، وحاملة دوافعها بصورة أكثر وضوحاً، وربما استمراراً عسكرياً لها. فقد ذكرت الروايات في معرض الإشارة الى أسباب هذه الغزوة، عدة نقاط هامة في هذا السبيل، لا سيما تجنيد عدد غير قليل من شخصيات المهاجرين والأنصار(١٣٤)، الذين برزوا

= والاجتماعية، فثمة اعتقاد بأن هذه الكلمة مشتقة من «الأريوسية» (الزهري، ص ٦٠ ــ هامش) نسبة الى آريوس ARIUS، من قساوسة مصر، وكان قد قال بخلق الابن خلق الروح القدس (أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٥٦). وفي روايات أخرى حملت الإشارة الى هؤلاء بعداً اجتماعياً واضحاً، حيث وردت «الأكّارين» لدى الطبري (ج ٣، ص ٨٧)، وهم الذين اشتغلوا بحراثة الأرض وزراعتها، أو «الفلاحين» كما وردت في كتاب آخر من النبي الى امبراطور الروم.. «والا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية». محمد حيد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدية، ص ١١٠.

١٣٣. الطبري، ج ٣، ص ٨٧.

١٣٣. الفصول في اختصار سيرة الرسول، ص ١٧٣.

١٣٤. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٧٠.

خاصة في الحملة الاضافية (١٣٥)، التي استلحق بها النبي حملة عمرو بن العاص الأولى. وكان من دوافع اختيار الأخير على ما يبدو، ارتباطه بصلات من القربى مع «بليّ» (١٣٦)، احدى القبائل التي استهدفتها الحملة الى جانب «قضاعة» (١٣٧)، حيث كانت كلتاهما بين القبائل المحتشدة مع هرقل في البلقاء (١٣٨). وعلى صعيد آخر فان هذه الغزوة، تبرز من خلال مروية «ابن هشام»، ان النبي لا يزال يجد في قبائل التخوم، مدخلاً الى الشام ومحاولة ل «استئلافهم» (١٣٩)، سواء عن طريق اشعارهم، بالعزة من خلال التصدّي للبيزنطيين، أو عن طريق الاحتواء القبلي (قرابة عمرو بن العاص لبلّى عن طريق أمه)، أو عن طريق المصاهرة (زواج عبد الرحمن بن عوف من دومة الجندل)، الى آخر ذلك من الطرق التي حاول من خلالها «استئلاف» هذه القبائل المتنصّرة، الدائرة في الفلك البيزنطي.

ومن المنظور نفسه، فان تأثير «مؤتة» كان واضحاً في غزوة تبوك (١٤٠)، التي قادها النبي وقامت في ظل ظروف قريبة الشبه بتلك التي رافقت الأولى، من حشود للبيزنطيين وحلفائهم «متنصّرة العرب» (١٤١) في البلقاء (١٤٢)، ومواجهة حاسمة لها من النبي، أدت الى تحقيق ما توخاه من الحملة السابقة. فقد كان للتطورات الخطيرة التي أسهمت «مؤتة» في تسريعها وحسمها (١٤٣) تلك التي انتهت الى «فتح» مكة والسيطرة المطلقة على الحجاز، بما في ذلك مناطق النفوذ القرشي على تخوم الشام ــ أن أصبح النبي في موقع المبادر الذي يمسك

١٣٥. كانت بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب «وسراة المهاجرين والأنصار». المكان نفسه. ابن سعد، غزوات الرسول وسراياه، ص ١٣١.

١٣٦. ابن هشام، القسم الثاني، ص ٦٢٣.

١٣٧. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٧٠، ابن سعد، الغزوات، ص ١٣١.

١٣٨. ابن كثير، الفصول، ص ١٧٢.

١٣٩. ابن هشام، القسم الثاني، ص ٦٢٣.

١٤٠. حدثت في رجب سنة تسع للهجرة، ابن سعد، غزوات الرسول وسراياه، ص ١٦٥.

١٤١. ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٧٧.

١٤٢. ابن سعد، الغزوات، ص ١٦٥.

١٤٣. الطبري، ج ٣، ص ١١٠ وما بعدها.

بزمام التوقيت، فضلاً عن تعزيز وضعه العسكري، على نحو اختلف كثيراً عما كان عليه عشية «مؤتة» وارتفع بنسبة عشرة أضعاف عن هذه الأخيرة، حسب الرواية التاريخية (١٤٤).

وفي غمرة هذه التحولات، يقرّر النبي التحرك نحو الشام، تاركاً وراءه جبهة داخلية متماسكة (١٤٥) ومصطحباً قوة عسكرية كبيرة، في وقت ابتعد فيه هرقل عن المنطقة (١٤٦). ولذلك فان أية مقاومة من القبائل العربية لم تعترض طريقه، مما يعني أنها لم تعد بعيدة عن المشروع السياسي الجديد، الذي اتضحت ملامحه ووجدت فيه ذاتها المفقودة في ظل الحكم البيزنطي الطويل. وكانت «تبوك» ــ وهي احدى محطات القوافل على الطريق التجاري (١٤٧)، ووصفت بأنها تقع «بين وادي القرى والشام» (١٤٨) ــ المكان الذي انتهت اليه حملة النبي، حيث لاقته وفود القبائل المجاورة، التي صالحته على الجزية» (١٤٩)، في الوقت الذي أرسل فيه خالد بن الوليد ل «فتح» دومة الجندل واجراء اتفاق مع «ملكها» (١٥٠) الذي ينتسب الى كندة (١٥١). والواقع أن هذه «المعاهدات» التي جرت بين النبي وكبريات القبائل في البلقاء، التي اتخذت مراكزها في «أيلة وأذرح وجرباء ومقنا» فضلاً عن دومة الجندل (١٥٢)، كانت على جانب كبير من الأهمية، وجاءت بمثابة اعتراف بالقوة الاسلامية الجديدة، بعد أن سبقتها الى ذلك قريش، التي كانت لها علاقات وعهود مع هذه القبائل المنتشرة على الخط التجاري أو على مقربة منه. كما يصحّ اعتبارها من هذا المنظور، نواة الفتح الإسلامي الفعلي لبلاد الشام، التي أعطيت الأولوية

١٤٤. ابن سعد، الغزوات، ص ١٦٦.

١٤٥. المصدر نفسه، ص ١٦٨.

١٤٦. كان هرقل حينذاك في حمص، المصدر نفسه، ص ١٦٦.

١٤٧. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٠٧. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٣٨

١٤٨. ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤.

١٤٩. ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٨٠

١٥٠. وصف خليفة بن خياط صاحب دومة (أكيدر بن عبد الملك) بأنه «رجل من اليمن، كان ملكاً فأخذه خالد فقدم به على رسول الله (ص) فحقن دمه وأعطاه الجزية فرده الى قريته. تاريخ ج، ص ٦٤.

١٥١. ابن سعد، غزوات الرسول، ص ١٦٦، راجع أيضاً:

V. Vaglieri, Dumat Al- Djandel, Ency. de l'Islam T II, p. 640.

١٥٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧١ ــ ٧٤، ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٨٠ ــ ٢٨١.

في العهد الراشدي المبكر، تكريساً لهذه السياسة التي وضع النبي خطوطها الأولى.

واذا كانت «تبوك» ، الانطلاقة العملية لحركة الفتوح الشامية، فان ثمة محصلة أساسية، ان هذه الحملة تُعبر امتداداً لسابقتها «مؤتة» وحاملة المضمون نفسه. ولعل هذه الأخيرة كانت لها فرادة ما في هذا المجال، أنها شكّلت ما يمكن أن نسميه «ضمير الفتح» انطلاقاً من الهالة التي أحيطت بها، وما أحدثه استشهاد قادتها الثلاثة من تأثير في نفوس المسلمين، في وقت كانت المدينة لا تزال مفتوحة على عدة جبهات معادية، لا سيما الجبهة الشامية، التي أخذت تشكل تحدّياً سافراً بالنسبة لدولة النبي. وكان السكوت على هذا الواقع، يعني اعادة خلط الأوراق حتى على الجبهة الحجازية الراكدة، وبالتالي، وهو الأهم، التصدّي لمشروع النبي في استقطاب القبائل العربية في الشام أو «استعادتهم» من الفلك البيزنطي، تمهيداً للإنطلاقة الأوسع، بما يتوافق والمضمون الرسالي ومعه الطابع الشمولي للدعوة الإسلامية.

.. وتبقى كلمة أخيرة، أن خروج تلك القلة المؤمنة من المدينة، كان خروجاً سياسياً أكثر منه عسكرياً، وعبّر في حينه عن اتجاه النبي الى اعادة النظر في المعادلة البيزنطية التي اختلت بعد الهجرة واعلان دولة الإسلام. وكان لا بدّ لهذه الطليعة، أن تحدث الصدمة المطلوبة، لدى البيزنطيين على الأخص، بأن هذه المواجهة ليست احدى الاغارات البدوية المألوفة، وانما هي جبهة متماسكة ووحدة دينية وسياسية، في وجه التحديات مهما انطوت عليه من حشود عسكرية أو صدام مباشر مع دولة كبرى، اذا كانت المستهدفة في هذا التحدي، استقلالية وحرية الحركة للدولة الإسلامية في عالمها الخاص.

تجربة مؤتـــه

سامي العاني
كلية الآداب ــ الجامعة المستنصرية

كانت مؤتة أول موقعة يقف فيها الاسلام وجهاً لوجه أمام إحدى أعظم قوتين في العالم، أمام الدولة البيزنطية.

وأول معركة يقوم فيها المسلمون بتعرض خارجي على نطاق دولي ولم تكن أهميتها فيما حققت من نتائج سريعة بقدر ما كانت في أنها المعركة التمهيدية الحقيقية لفتح الشام، والحملة الاستطلاعية التي أفادت المسلمين كثيراً من فنون الحرب في المعارك التي خاضوها ضد الروم أو الفرس فيما بعد(١).

وقد أوردت مصادرنا التاريخية اسم هذه المعركة بأربع صور. أطلق عليها الفريق الأول، وهو الأكثر، اسم سرية، ولعل أقدم من سماها بذلك المسعودي (ت ٣٢٥ هـ) ثم توالى المؤلفون بعده(٢). والسرية قطعة من الجيش تتكون من خمسة أنفار الى أربعمائة.

وأطلق عليها الفريق الثاني اسم (بعث) وأقدمهم في ذلك ابن هشام (ت ٢١٣ هـ) وقيل: (بعث الأمراء) أيضاً(٣). والبعث في اللغة الجيش.

وسماها الفريق الثالث (غزوة) وأقدمهم في ذلك الواقدي(٤) (ت ٢٠٧ هـ). والغزو في اللغة السير الى قتال العدو.

أما الفريق الرابع فقد سماها (يوما) وأقدم من ذهب الى ذلك خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ)(٥).

ووجد بين المؤرخين من سماها غزوة مرة وسرية مرة أخرى.

---

١. انظر الرسول القائد (٢٠٣)
٢. التنبيه والاشراف ٢/ ٢٣٠ ونهاية الأرب ١٧/ ٢٨٠ وتاريخ الخميس ٢/ ٧٠ والمواهب اللدنية ٢/ ٢٦٧ وشرح المواهب اللدنية ١/ ٣٨٧.
٣. السيرة النبوية ٤/ ٤٢٧ وجوامع السيرة ٢٢٠ والدرر في المغازي والسير ٢٢٥.
٤. المغازي ٢/ ٧٥٥ وصحيح البخاري ٥/ ١٨١.
٥. الطبقات ٥ و ٩٣ وغريب الحديث ١/ ٥٨٣ و ٢/ ٧ و ٢١٤ وسماها خليفة في تاريخه ص ٨٦ وقعة.

مثل ابن كثير(٦). (ت ٧٧٤ هـ) أو بعثاً مرةً و يوماً مرة أخرى.
مثل ابن حبيب (٧) (ت ٢٤٥ هـ).

وقد جرت عادة المحدّثين وأهل السير واصطلاحاتهم غالباً أن يسموا كل عسكر حضره النبي (ص) بنفسه الكريمة غزوة، وما لم يحضره، بل أرسل بعضاً من أصحابه الى العدو سرية و بعثاً.

ولذلك قال الزرقاني معقباً على قول القسطلاني السابق:
وسماها المصنف وغيره سرية لأنها طائفة من جيشه (ص) بعثها ولم يخرج معها (٨).
و يظهر أن الصحابة لم يكونوا يفرقون بين هذه التسميات، فقد ورد عن الصحابي سلمة ابن الأكوع قوله: غزوت مع النبي (ص) سبع غزوات، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات (٩).

أما لفظة (مؤتة) فبضم الميم وسكون الواو.
قال الأخفش: كان المبرد لا يهمز مؤتة، ولم أسمعها من علمائنا إلا بالهمز.

وذكر بعض المصادر أن ثعلباً والجوهري وابن فارس قد جزموا بالهمز وحكى غيرهم الوجهين (١٠).

ومؤتة قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وقيل: من مشارف الشام. وحددها بعض الجغرافيين بقوله: موضع من أرض الشام من عمل البلقاء..

وهي واقعة الآن إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت، أي على الحدود الغربية من بلاد العرب، ما بين الكرك والطفيلة (١١).

أما البلقاء فقد وصفت بأنها كورة من أعمال دمشق بين الشام و وادي القرى،

---

٦. السيرة النبوية ٣/٤٥٥.
٧. المحبّر (١١٠) ــ (١٢٥).
٨. شرح المواهب ١/٣٨٧ و ٢/٢٦٧.
٩. اللؤلؤ والمرجان ١/٤٧٤.
١٠. الخميس ٢/٧٠ وشرح المواهب ٢/٢٦٨.
١١. معجم البلدان ومعجم ما استعجم (مؤتة) والرسول القائد ٢٩٧.

قصبتها عمان، وفيها قرى كثيرة، ومزارع واسعة(١٢).

وقد حُدّد تاريخ هذه الغزوة بجمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة ـ الموافق سنة ٦٢٩ ميلادية(١٣).

وكان خروج المقاتلين صباح يوم الجمعة(١٤).

وقد خرج المسلمون في تلك الموقعة بُغية:

قمع المعتدين وتأديب الغادرين الذين قتلوا الخمسة عشر مسلماً في ذات أطلاح من أرض الشام في شهر ربيع الأول من العام الثامن للهجرة، ثم اغتالوا الحارث بن عمير الأزدي على يد عمرو بن شرحبيل الغساني.

وكان رسول الله (ص) بعث كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا الى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً، فدعوهم الى الاسلام، فلم يستجيبوا لهم، ورشقوهم بالنبل، فلما رأى ذلك أصحاب النبي (ص) قاتلوهم أشد القتال حتى قُتلوا، فأفلت منهم جريح واحد، فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله (ص) فأخبره الخبر، فشق ذلك على رسول الله (ص)، وهمّ بالبعث إليهم، فبلغه أنهم قد ساروا الى موضع آخر فتركهم الى أن بعث الحارث بن عمير من بني لهب الى بصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمروالغساني، أحد أمراء قيصر فقال له: أين تريد؟

قال: الشام.

قال: لعلك من رسل محمد؟

قال: نعم أنا رسول رسول الله، فأمر به، فأوثق رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه صبرا. ولم يقتل لرسول الله (ص) رسول غيره.

فبلغ رسول الله (ص) الخبر، فاشتد عليه، وندب الناس، وأخبرهم بمقتل الحارث

---

١٢. المصدران السابقان (البلقاء).

١٣. ابن هشام ٤٢٧/٣ وإمتاع الاسماع ٣٤٤/١ وغيرها.

١٤. البداية والنهاية ٢٤٢/٤.

ومـن قتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجرف، وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام(١٥).

لـقـد كـان قـتـل اولئك الدعاة المسالمين، ثم الغدر برسول رسول الله (ص) السبب المباشر لارسال جيش المسلمين الى مؤتة. وثمة أسباب أخرى غير مباشرة يمكن اجمالها بـ:

١. إيقاف اعتداءات القبائل العربية الرابضة على حدود الشام من قضاعة وكلب على قوافل تجار المسلمين، وتأمين الطريق التجاري للمسلمين.

٢. محاولة تـأكـيـد سيـادة الدولة الاسلامية الجديدة خارج حدود الجزيرة العربية، وإشعار القبائل المتحالفة مع البيزنطيين والتي طالما تحرشت بالمسلمين بقوة المسلمين وقدرتهم على تأديبها ومنع تحرشها بالمسلمين.

٣. استـطـلاع قـوة وكـفـاءة قبائل الحدود المتاخمة لأرض الشام، ومعرفة خواص قوات الروم وأساليبها في القتال، وطبيعة الأرض هناك(١٦).

و بعـد أن تجـمـع الـنـاس، وتكـامـل عـددهـم، جلس رسول الله (ص) وجلس أصحابه. فقال رسول الله (ص): زيد بن حارثة أمير الناس، فان قتل زيد بن حارثة فجعفر ابـن أبي طـالـب، فـان أصـيـب جـعفر فعبد الله بن رواحة، فان أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً، فليجعلوه عليهم.

لـقـد فـعـل ذلـك رسول الله (ص) تقديراً منه لأهمية هذه المعركة وخطورتها، ولبعد الـطـريق، واحتمال مجابهة قوى كثيرة العُدة والعدد، وحرصاً على وحدة القوات الاسلامية، ومنعاً لأي فوضى أو اضطراب بينهم وهم في أرض بعيدة وغريبة.

ولـم يـول رسول الله (ص) قبل هذه السرية ولا بعدها ثلاثة قادة، ولا قائدين على سرية واحدة(١٧).

فـلما أجمعوا المسير، وقد عقد رسول الله (ص) لهم اللواء، ودفعه الى زيد بن حارثة،

---

١٥. الواقدي ٢/٧٥٢

١٦. أنظر الرسول القائد (٢١٦).

١٧. انظر دراسة في السيرة (٢٩٥).

وكان لواء أبيض، أمرهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وقيل : أنه (ص) نهاهم أن يأتوا مؤته، فركبتهم ضبابة، فلم يبصروا حتى أصبحوا عليها.

فان صحَّ ذلك احتمل أن المراد بمقتل الحارث الأرض التي قتل فيها، لا خصوص المكان الذي قتل فيه(١٨).

مشى الناس يودعونهم، و يدعون لهم، وجعل المسلمون يودع بعضهم بعضاً وخرج النبي (ص) مشيعاً لجيش المسلمين حتى بلغ ثنية الوداع، وهي ثنية مشرفة على المدينة، يطؤها من يريد مكه، قيل : أنها سميت (ثنية الوداع) لتوديع الرسول (ص) هذه السرية عندها.

وقيل : لأن المسافر كان يودع عندها قديماً(١٩) ثم وقف الرسول (ص)، وهم حوله فخاطبهم قائلاً :

أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً. أغزوا بسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تقتلوا، وليداً، واذا لقيت عذوكِ من المشركين فادعهم الى إحدى ثلاث، فأيتهن ما أجابوك اليها، فأقبل منهم وأكفف عنهم.

ادعهم الى الدخول في الاسلام، فان فعلوا فأقبل منهم، وأكفف عنهم، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين، فان فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، وان دخلوا في الاسلام واختاروا دارهم أخبرهم أنهم يكونون كاعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم الى إعطاء الجزية، فان فعلوا فأقبل منهم وأكفف عنهم، فان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

إن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فانك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا.

---

١٨. شرح المواهب ٢/٢٦٩

١٩. المصدر السابق ٢/٢٦٩.

وان حـاصـرت أهـل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسول الله، فـلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذمة أصحابك، فانكم أن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

وستـجـدون رجالاً في الصوامع معتزلين للناس، فلا تتعرضوا لهم وستجدون آخرين في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف[٢٠].

ولا تـقـتـلـن امـرأة ولا صغيراً ضرعاً، ولا كبيراً فانياً، ولا تغرقن نخلاً، ولا تقطعن شجراً، ولا تهدموا بيتاً[٢١].

فلما ودّع عبد الله بن رواحة مع من ودع بكى، فقالوا:
مـا يـبـكـيـك يـا ابـن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني، سـمعت رسول الله (ص) يقرأ آية من كتاب الله، يذكر فيها النار ((وان منكم الا واردها، كان على ربك حتماً مقضيا)) فلست أدرى كيف بالصدر بعد الورود.

فـقـال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم الينا الحين فقال عبد الله بن رواحـــة:

لـكـنـنـي أسـأل الـرحمـن مـغـفـرة ... وضـربـة ذات فـرغ تـقـذف الـزبـدا
أو طـعـنـة بـيـدي حـران مجـهـزة ... بـحـربـة تـنـفـذ الأحشـاء والـكـبـدا
حـتـى يـقـال اذا مـروا على جـدثـي ... أرشـده الله مـن غـاز وقـد رشـــدا

حتى اذا ودعهم الرسول (ص) وانصرف، قال عبد الله بن رواحة:

خـلـف الـسـلام على امرىء ودعته ... في الـنـخـل خير مشيع وخليل[٢٢]

أما قـوات الطـرفين فـقـد أجمعت المصادر على أن قوة المسلمين كانت ثلاثة آلاف رجل مـن المـهاجرين والأنصار، أما المشركون فكانوا مائة ألف من الروم أنفذهم هرقل وهو

---

٢٠. أي أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما يستوطن القطا المفاحص أي المواضع التي يسكن فيها.

٢١. امتاع الأسماع ١/٣٤٦ وأنظر الواقدي ٢/٧٥٨ وشرح المواهب ٢/٢٦٩

٢٢. سيرة ابن كثير ٣/٤٥٦

يومئذ مقيم بأنطاكية بقيادة (تيادوقس البطريق)(٢٣).

وقيل: ((ثيودورس))(٢٤).

ومائة ألف من متنصرة العرب من قبائل لخم وجذام والقين وقبائل قضاعة من بهراء و بلى و بلقين، عليهم رجل من بني أراشه من بلى اسمه مالك بن زافلة(٢٥).

وأقل ما قيل: ان الروم كانوا مائة ألف ومن العرب خمسون ألفاً مدججين بالسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب.

قال أبو هريرة: شهدت مؤتة، فلما رأينا المشركين رأينا ما لا قبل لنا به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب، فبرق بصرى، فقال لي ثابت بن أرقم يا أبا هريرة، مالك؟ كأنك ترى جوعاً كثيرة؟ قلت: نعم.

قال: تشهدنا ببدر لم ننصر بالكثرة(٢٦).

و يقال: ان هرقل انما كان في جوعه هنالك في زيارة الشكر التي نذر لله أن يؤديها اذا هو ظفر بالفرس ورد منهم صليب الكنيسة الكبرى الذي حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقدس(٢٧) وكان هرقل قد استعاد أرض الشام من أيدي الفرس الذين اجتاحوها سنة (٦١٤م) ففي (١٤) أيلول سنة (٦٢٩م) أعاد امبراطور بيزنطية الصليب الأعظم الى القدس، فنادوا به محرراً للمسيحية، ومعيداً لمجد الامبراطورية الرومانية الشرقية(٢٨).

صفحات المعركة:

مضى المسلمون، وقد أمرهم رسول الله (ص) أن ينتهوا الى مقتل الحارث بن عمير، فنزلوا وادي القرى، وأقاموا أياماً.

وسمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم، فقام فيهم رجل من الأزد، يقال له شرحبيل

---

٢٣. التنبيه والإشراف ٢٣٠

٢٤. تاريخ الشعوب الإسلامية ٥٩.

٢٥. ابن هشام ٤٢٩/٢ والطبري ٣٧/٣ والدرر ٢٢٢

٢٦. الواقدي ٧٦١/٢، والكراع: جماعة الخيل خاصة.

٢٧. أنظر عبقرية خالد ٦٠

٢٨. تأريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٣/٢

بن عمرو الغساني، وقدم الطلائع أمامه، وبعث أخاه سدوس بن عمرو في خمسين، فقاتله المسلمون وقتلوه، وخاف شرحبيل، فتحصن وبعث أخاً له يقال له: وبر بن عمرو الى هرقل يستمده

فسار المسلمون حتى نزلوا أرض معان(٢٩)، وهي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء، كان فيها حصن كبير على خمسة أيام من دمشق. فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، والتحقت بهم المائة ألف من القبائل العربية الموالية للبيزنطيين.
فأقام المسلمون في معان ليلتين، يتدبرون أمرهم، وقال بعضهم:

نكتب الى رسول الله (ص) فنخبره بعدد عدونا، فيأمرنا بأمره، أو يمدنا. فبينما الناس على ذلك من أمرهم جاءهم عبد الله بن رواحة، فشجعهم باندفاع المؤمن الصادق، وبلاغة الشاعر المنفعل وخاطبهم بقوله:

يا قوم، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح ولا بكثرة خيول، إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، انطلقوا والله لقد رأيتنا يوم بدر، ما معنا الا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، فانما هي إحدى الحسنيين: أما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله، ووعدنا نبينا، وليس لوعده خلف. واما الشهادة، فنلحق بالأخوان في الجنان.

فوافقه الجيش كله على هذا الرأي، وتشجعوا وقالوا: قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس مغادرين معسكرهم في معان، متجهين صوب الشمال، فأنشد عبد الله بن رواحه في استعداد المسلمين، وعزمهم على اقتحام مآب.

جلبنا الخيل من أجأ وفرع ... تغر من الحشيش لها العكوم(٣٠)
حذوناها من الصوان سبتاً ... أزل كأن صفحته أديم(٣١)
أقامت ليلتين على معان ... فأعقب بعد فترتها جموم(٣٢)

---

٢٩. معجم البلدان ومعجم ما استعجم (معان)

٣٠. أجأ: أحد جبلي طيء، وفرع: أطول جبل بأجأ وأوسطه، تغر: تطعم. العكوم: وأوحدها العكم وهو الجانب.

٣١. حذوناها: جعلنا لها نعالاً من حديد، والصوان: الحجارة الملساء السبت: النعال المصنوع من الجلود المدبوغة. الأزل: الأملس. الأديم: الجلد.

٣٢. الفترة: السكون والراحة. الجموم: اجتماع القوة والنشاط.

فرحنا والجياد مسومات ... تنفس في مناخرها السموم(٣٣)
فلا وأبي مآب لنأتينها ... وان كانت بها عرب وروم
فعبأنا أعنتها فجاءت ... عوابس والغبار لها بريم(٣٤)
فراضية المعيشة طلقتها ... أسنتها فتنكح أو تئيم(٣٥)

حتى اذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء، يقال لها ((المشارف)) وانحاز المسلمون الى قرية يقال لها ((مؤتة)).

وذهب العسكريون الى أنهم اختاروها لوجود العوارض الطبيعية التي يستطيعون أن يتحصنوا بها لقلة عددهم بالنسبة لعدد عدوهم(٣٦).

وتعبّى المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة يقال له : قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عبادة أو عباية بن مالك(٣٧).

و بدأ القتال، واندفع المسلمون بقيادة زيد بن حارثة، وهو يحمل راية رسول الله (ص) وقاتلوا قتال الأبطال غير مبالين بتفوق عدوهم، ولا مكترثين بما لديهم من العدة.

حتى استشهد قائدهم الأول زيد طعناً بالرماح، فغرق بدمائه وسارع جعفر بن أبي طالب، وتلقف اللواء، ثم تقدم الصفوف، ولما أحاط به الأعداء نزل عن فرسه الشقراء فعرقبها، أي ضرب قوائمها بالسيف، وراح يقاتل القوم، وهو ينشد :

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها
علي إذ لاقيتها ضرابها

وكان يحمل اللواء بيمينه فلما قطعت أخذه بشماله فقطعت أيضاً فاحتضنه بعضديه حتى هوى عليه رجل من الروم بالسيف، فقطعه نصفين، فوقع أحد نصفيه في كرم، فوجد

٣٣. مسومات : مرسلات. السموم : بضم السين جمع سم وهما مرثان في خيشوم الفرس.
٣٤. بريم : كل ما فيه لونان مختلفان(٦).
٣٥. (تيئم) : تبقى دون زوج.
٣٦. الرسول القائد ٢٠٥
٣٧. ابن هشام ٣/٤٢٩ وابن كثير ٣/٤٥٨

في نصفه ثلاثون أو بضع وثلاثون جرحاً.

وقيل: وجد ما بين منكبيه اثنان وسبعون ضربة بسيف أو طعنة برمح.

قال ابن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفراً، فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية (٣٨).

فلما قتل أسرع عبد الله بن رواحة الى اللواء فتناوله من جعفر، وتقدم به على فرسه، فقاتل حيناً، ثم نزل عن فرسه، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم، فقال: شد بهذا صلبك، فانك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، ثم انتهش منه نهشة، ثم سمع الحطمة في ناحية العسكر، فقال لنفسه: وأنت في الدنيا. ثم ألقاه من يده، وأخذ سيفه وتقدم، وهو يخاطب نفسه:

يا نفس الا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هديت
وان تأخرت فقد شقيت

يريد صاحبيه زيداً وجعفراً، ثم حدث نفسه مخاطباً: يا نفس الى أي شيء تتوقين؟ الى فلانة ــ امرأته ــ فهي طالق. والى فلان وفلان غلمان له ــ فهم أحرار، والى معجف ــ وهو بستان له ــ فهو لله ولرسوله. وجعل يستنزل نفسه، و يتردد بعض التردد، بعد أن أصابته الجراح (٣٩)، حتى تغلب على تردده، وهو يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلنه أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ... مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت الا نطفة في شنه

فقاتل حتى طعن، فاستقبل الدم بيده، فدلك به وجهه، وجعل يقول: يا معشر المسلمين ذبوا عن لحم أخيكم، فجعل المسلمون يحملون حتى يحوزوه، فلم يزالوا كذلك حتى فارق الحياة شهيداً.

---

٣٨. صحيح البخاري ٥/١٨٢.

٣٩. الواقدي ٢/٧٦٢

ولا يزال قبره وصاحبيه الى اليوم شاهد صدق على البطولة والاقدام، في قرية المزار، وهي مديرية ناحية تبعد عن مؤتة ثلاثة كيلومترات الى الجنوب، وكلاهما على الطريق المعبدة التي تربط عمان بالطفيلة (٤٠) :

فبادر ثابت بن أقرم البلوي، وتناول اللواء، ثم جعل ينادي : إليّ أيها الناس. فجعل الناس يثوبون اليه. فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا : أنت. قال : ما أنا بفاعل. فنظر الى خالد بن الوليد، فقال : يا أبا سليمان، خذ اللواء أنت أعلم بالقتال مني.

قال خالد : لا آخذه، أنت أحق به مني، لك سن، وقد شهدت بدراً. قال ثابت : خذه أيها الرجل، فوالله ما أخذته الا لك (٤١). وفي مغازي موسى بن عقبة : ثم اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله (ص) على خالد بن الوليد المخزومي (٤٢). وتختلف روايات المؤرخين وكتاب السيرة اختلافا كبيراً في الخطة التي اتبعها خالد في ادارة المعركة بعد أن تسلم اللواء، وفي النتيجة التي آلت اليها المعركة. والغريب أن بعضهم يورد روايات متتابعة متناقضة تناقضاً تاماً، من غير أن يشير الى ذلك التناقص والتضارب.

فالواقدي يورد أربع روايات مختلفات تماماً، فيروي عن رجل من بني مرة كان في الجيش أنه قال : لما قتل ابن رواحة نظرت الى اللواء قد سقط، واختلط المسلمون والمشركون، فنظرت الى اللواء بيد خالد منهزماً، واتبعناه، فكانت الهزيمة.

ويتبعها برواية أخرى عن رجل من العرب، عن أبيه قال : فأخذ اللواء خالد، فحمله ساعة، وجعل المشركون يحملون عليه، فثبت حتى تكركر المشركون، وحمل بأصحابه ففضّ جمعاً من جمعهم. ثم دهمه منهم بشر كثير، فانحاش المسلمون، فانكشفوا راجعين.

ويورد بعد ذلك رواية ثالثة عن أبن كعب بن مالك قال : حدثني نفر من قومي حضروا يومئذ قالوا : لما أخذ اللواء خالد، انكشف بالناس، فكانت الهزيمة، وقتل المسلمون

٤٠. مجلة رسالة الأردن العدد (٥) سنة ١٩٥٩ عن عبد الله بن رواحة للدكتور جميل سلطان.

٤١. انظر الواقدي ٢/٧٥٩ وابن هشام ٣/٤٢٧ وابن سعد ٢/١٢٧ والطبري ٣/٤٠ وابن الأثير ٢/٢٣٤ وابن كثير ٣/٤٥٥.

٤٢. شرح المواهب ٢/٢٧٣.

وأتبعهم المشركون، فجعل قطبة بن عامر يصيح : يا قوم، يقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً، يصيح بأصحابه فما يثوب اليه أحد، هي الهزيمة. و يتبعون صاحب الراية منهزماً.

ثم يورد رواية رابعة عن عطاف بن خالد قال : لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد ابن الوليد، فما أصبح غداً، وقد جعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتاهم وهيأتهم.

وقالوا : قد جاءهم مدد، فرعبوا فانكشفوا منهزمين، فقتلوا مقتلة لمّ يقتلها قوم(٤٣).

و يتابعه ابن سعد ٢٣٠ هـ، فيورد رواية عن هزيمة المسلمين.. تقول : فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء، وانكشف الناس، فكانت الهزيمة، فتبعهم المشركون، فقتل من قتل من المسلمين.

و يتبعها برواية مخالفة تماماً عن أبي عامر تقول : فأخذ خالد اللواء، ثم حمل على القوم، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى وضع المسلمون أشياءهم حيث شاؤوا(٤٤).

وترد مثل هذه الروايات المتناقضة عند غيرهما من المؤرخين كابن هشام(٤٥) المقريزي(٤٦).

واكتفى فريق من المؤرخين برواية تؤكد نجاح خالد بن الوليد في الانسحاب بالمسلمين سالمين.

فقال خليفة بن خياط : وأخذ خالد بن الوليد الراية فانحاز بالمسلمين(٤٧).. وقال ابن قتيبة : ولما أخذ خالد الراية يوم مؤتة دافع الناس وحاشى بهم، أي اتقى عليهم وحذر فانحاز(٤٨).

---

٤٣. الواقـدي ٢/٧٦٣.
٤٤. الطبقات ٢/١٢٩
٤٥. السيرة ٣/٣٤٩
٤٦. امتاع الأسماع ١/٣٤٩
٤٧. التاريخ ٨٧
٤٨. غريب الحديث ٢/٢١٤

وقال الطبري : فلما أخذ الرأية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وتحيّز عنه حتى انصرف بالناس(٤٩) .

وتابعهم في ذلك ابن عبد البر الأندلسي أيضاً (٥٠) . أما الفريق الثالث فقد ذهب الى تأكيد انتصار المسلمين وهزيمة أعدائهم .

ومن هؤلاء ابن كثير الذي كان أكثر المؤرخين حماساً في تأكيد انتصار المسلمين، وفي أكثر من موضع في كتابه، قال بعد إيراده حديث الرسول (ص) عن استشهاد الأمراء : فهذا السياق فيه مخالفة لما ذكره ابن اسحق من أن خالداً انما حاشى بالقوم حتى تخلصوا من الروم وعرب النصارى فقط وموسى بن عقبة والواقدي مصرحان بأنهم هزموا جموع الروم والعرب الذين معهم، وهو ظاهر الحديث المتقدم عن أنس مرفوعاً ((ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه (٥١) .

وحاول في موضع آخر من سيرته أن يوفق بين المحاشاه والانتصار، وهو رأي لم يسبق اليه من قبل قائل :

قلت : ويمكن الجمع بين قول ابن اسحق و بين قول الباقين، وهو أن خالداً لما أخذ الراية حاشى بالقوم المسلمين حتى خلصهم من أيدي الكافرين من الروم ـ والمستعربة، فلما أصبح وصول الجيش ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة، كما ذكر الواقدي توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء الى المسلمين، فلما حمل عليهم خالد هزمهم بإذن الله(٥٢) .

والتقيّ الفاسي (ت ٨٣٢هـ) الذي استند على قول الحاكم : فلما قاتلهم خالد قتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنيمة(٥٣) .

وتابعه في ذلك الديار بكري(٥٤) (ت ٩٦٦هـ) . .

٤٩. التاريخ ٣/٤٠
٥٠. الدرر ٢٢٣
٥١. السيرة ٣/٤٦٨
٥٢. السيرة ٣/٤٦٩
٥٣. العقد الثمين ١/٢٥٩
٥٤. تاريخ الخميس ٢/٧٢

وقد تنبه الى هذا الاختلاف بعض الأقدمين فنقل ابن كثير عن البيهقي قوله : اختلف أهل المغازي في فرارهم وانحيازهم ، فمنهم من ذهب الى ذلك ، ومنهم من زعم أن المسلمين ظهروا على المشركين ، وأن المشركين انهزموا (٥٥) .

ولو تفحصنا تلك الروايات المتناقضة المتضاربة لتعذر علينا التوفيق بينها وكان لزاماً علينا أن نرفض بعضها ونستبعده ونبقي ما تطمئن اليه النفوس ، و يثبت في ميزان النقد ، و يترجح بالحجج العلمية ، والبراهين المنطقية المقنعة .

وجملة القول فيما حدث بعد تسلم خالد اللواء في تلك اللحظات الحرجة الدقيقة من صفحات مؤتة التي كانت أول معركة يشترك فيها خالد بعد إسلامه .

رأى القائد الجديد أن لا طاقة لجيشه في قلة عدده ، وكثرة جراحه ، بجيوش أعدائه المتكاثرة المستعدة في حرب فاصلة وموقف حاسم ، فماذا يصنع ؟

أيطلق لهذا الجيش عنان الفرار والهرب ، وحسبه من الغنيمة أن يكون قد نجّى كتيبة المسلمين من فناء محقق ؟

أم يدفع به الى هجوم لا يبالي نتائجه كائنة ما تكون ، ما دام القائد قد استجاب لداعي البطولة والشجاعة ؟

أم يلجأ الى الفكر ، يستوحيه خطة لا تحمل على أكتاف المسلمين عار الفرار ، ولا تدفع بهم الى الهلاك والدمار .

وترمي في قلوب أعدائهم الفرق والفزع ، وتقذف في أفئدتهم الرهبة والرعب ، وتحيل الهزيمة نصراً وفتحاً مبيناً (٥٦) .

وقد وقع اختيار خالد على الفكر ، و بات ليلته يرسم الخطط التي تحقق هدفه ، فرأى أن خير ما يفعله في تلك الساعات العصيبة ، والظروف الصعبة أن ينسحب بمن معه بأمان و بلا تضحيات ، وليس الانسحاب بميسور في تلك الظروف ، ولكنه يحتاج الى خبرة وكفاءة تتغلب على قوة العدو وخبرته .

٥٥. السيرة ٣/٤٧٢

٥٦. أنظر خالد بن الوليد ــ عرجون ٥٧

و يؤكد العسكريون أن حركة الانسحاب من أصعب الحركات العسكرية، لاحتمال انقلاب الانسحاب الى هزيمة، والهزيمة كارثة تؤدي الى خسائر فادحة بالمنهزمين (٥٧). وتطبيقاً لهذه الخطة قرر أن يوهم العدو بأنه لا ينوي الانسحاب، وأنّ يوقع في روعه بأنه يروم الكر على العدو من جديد.

فظل صامداً طيلة الليلة التي تسلم فيها القيادة، مستغلاً الظلام ليعيد ترتيب الجيش و يبدل في مواقع الجند، فعمل على نقل الميمنة مكان الميسرة، والميسرة مكان الميمنة، والساقة مكان المقدمة، والمقدمة مكان الساقة، كما روى بعض المؤرخين (٥٨).

كما ألف مؤخرة قوية لحماية الانسحاب والقيام بقتال التعويق، لاحباط مطاردة العدو وانقاذ القسم الأكبر من قوات المسلمين من التطويق.

وقد انتشرت تلك المؤخرة في جبهة واسعة، وأحدثت ضجة عالية (٥٩). وعندما انبلج الصبح تقابل الفريقان فرأى العدو أمامه وجوهاً ورايات غير التي رآها بالأمس.

وسمع أصواتاً وجلبة لا يمكن أن تصدر الا عن حركة دائبة لأفراد جيش المسلمين، فوقع في روعهم أن مدداً جديداً قد وصل الى المسلمين.

وداخل العدو الخوف والتردد، اذ كيف سيواجهون المسلمين مع هذا المدد وقد ذاقوا منهم قبل المدد ما ذاقوا.

بدأ المسلمون بالانسحاب، وظل خالد مع المؤخرة يشدد الضربات و يشاغل جيش العدو، ويحاشى بجيش المسلمين، ببراعة فائقة، و بطولة نادرة، حتى اندقت في يده تسعة أسياف، ولم تصمد بيده الآ صفيحة يمانية (٦٠).

فتسمّر الأعداء في مكانهم، وتمكن المسلمون من النّيل منهم أضعاف ما نالوا منهم.

---

٥٧. . الرسول القائد ٢٠٦

٥٨. أنظر الواقدي ٢/ ٧٦٣ وابن كثير ط ٣/ ٤٦٧ والمقريزي ١/ ٣٤٩.

٥٩. الرسول القائد ٢٠٦.

٦٠. صحيح البخاري ٥/ ١٨٣ وفضائل الصحابة ٢/ ٨١٤.

ولم يجرؤوا على متابعة المنسحبين خشية أن يكون كميناً نصبه لهم المسلمون للالتفاف من خلفهم.

وبهذه الخطة البارعة الحكيمة استطاع خالد أن ينقذ جيش المسلمين الصغير من فناء محقق، على يد جيش كبير، في حرب ضروس غير متكافئة القوى والعدد، دامت سبعة أيام(٦١).

وتمكن أن يلحق بالعدو خسائر فادحة، وأن يسير بجيشه مبتعداً عن ميدان المعركة، ويظهر أن ذلك السير كان قبل أن تصل اليهم النجدة التي بعثها رسول الله (ص) لهم، بعد أن علم باستشهاد الأمراء الثلاثة حيث روى الطبرى: أن الرسول (ص) خاطب المسلمين قائلاً: أبكروا فأمدوا اخوانكم، ولا يتخلفن منكم أحد. فنفروا مشاة وركباناً، وذلك في حر شديد(٦٢).

ولم يفقد المسلمون في هذه المعركة الصعبة سوى ثمانية قتلى في رواية الواقدي، أو اثنى عشر قتيلاً في الروايات الأخرى، بينما أثخن فيهم المسلمون قتلاً، كما عبر ابن كثير(٦٣).

ولهذا استحق خالدبن الوليد أن يلقبه رسول الله (ص) (سيف الله) تقديراً، لبطولاته ونجاحه الباهر في المحافظة على سمعه ونفوس المسلمين، في تلك المعركة.

وقد سبق رسول الله (ص) كل النظم العصرية في تقدير بطولة الانسحاب. يقول الاستاذ العقاد: وقد سمعنا في عصورنا هذه بالألقاب الكبار تضفى على القادة، لأنهم نجحوا في خطة ارتداد لا محيص منها. فتلك هي السنة النبوية تسبق النظم العصرية الى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح في ارتداده، كما تقدّره بقيمة النجاح في تقدمه وانتصاره(٦٤).

ويؤيد هذا التسلسل في الأحداث، ويرجح ما ذهبنا اليه من انتصار المسلمين

٦١. أنظر شرح المواهب ٢/٢٧٣
٦٢. الطبري ٣/٤١
٦٣. السيرة ٣/٤٧٢
٦٤. عبقرية خالد ٦٣.

وعودتهم ظافرين بعد أن تولى القيادة خالد بن الوليد ما ورد في صحيح البخاري عن أنس ابن مالك قال : أن النبي (ص) نعى زيداً وجعفراً وابن رواحه للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم (٦٥) .

وقوله (ص) لما أخذ الراية خالد : الآن حمي الوطيس (٦٦) . فالنبي (ص) قد أخبر أن الله تعالى قد فتح على المسلمين بعد أن أخذ الراية خالد ، ولا تسمى الهزيمة والفرار فتحاً ، وانما عرف الفتح في عرف الحروب الاسلامية بالظفر بالعدو والنصر عليه. ، وليس لأحد مع رسول الله (ص) قول (٦٧) .

ودعم رأينا الروايات الكثيرة التي وردت عن أصحاب السيرة من المتقدمين الثقات ، عن انتصار المسلمين وهزيمة المشركين ، واصابتهم بمقتلة عظيمة ، كابن شهاب الزهري (٦٨) (ت ١٢٤ هـ) وتلميذه موسى بن عقبة (٦٩) (ت ١٤١ هـ) والحاكم النيسابوري (٧٠) (ت ٣٧٨هـ) .

وما روى عن الكاهنة الحدسية من لخم ، حين سمعت بجيش رسول الله (ص) مقبلا ، حيث قالت لقومها من حدس ، وهم بطن يقال لهم بنو غنم : أنذركم قوماً خزراً ، ينظرون شزراً ، و يقودون الخيل بترا ، و يهرقون دماً عكراً (٧١) .

فأخذوا بقولها فاعتزلوا من بين لخم ، فلم يزالوا بعد أثري (٧٢) حدس .

وكان الذين صلوا الحرب يومئذ بنو ثعلبة ، بطن من حدس ، فلم يزالوا قليلا

---

٦٥. صحيح البخاري ٥/ ١٨٢ .

٦٦. النهاية في غريب الحديث ٤/ ٢٣٤ وهو الضراب في الحرب ، وقيل : الوطء الذي يطس الناس ، أي يدقهم .

٦٧. انظر خالد بن الوليد ـــ عرجون ٦٣ .

٦٨. ابن هشام ٣/ ٤٤٠

٦٩. ابن كثير ٣/ ٤٦٧

٧٠. العقد الثمين ١/ ٢٥٩

٧١. خزراً : ينظرون بمؤخرة العين. شزراً : نظر العداوة

٧٢. أثرى : مالاً وعدداً .

بعد[٧٣].

وما روى عن قتل أمير جيش نصارى العرب المتحالفين مع الروم، حيث ذكر ابن اسحق[٧٤] أن قطبة بن قتادة العذري، وكان رأس ميمنة المسلمين، حمل على مالك بن زافلة، وهو أمير أعراب النصارى، فقتله وقال يفتخر:

طعنت ابن زافلة بن الأراش ... برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربت على جيّده ضربة ... فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بني عمّه ... غداة رقوقين سوق الغنم[٧٥]

وهذا يؤيد ما نحن فيه، لأن من عادة أمير الجيش اذا قتل أن يفر أصحابه، ثم انه صرح في شعره بأنهم سبوا من نسائهم[٧٦].

وأخيراً ما روى عن حصار المسلمين للحصن، ثم فتحه وهم في طريق عودتهم من مؤتة. فقد روى: وفي مقفلهم، أي الى المدينة، مروا بمدينة لها حصن، وقد كان أهل الحصن قتلوا رجلاً من المسلمين في مرورهم الى مؤتة، فحاصروهم وفتحوا حصنهم، وقتل خالد كثيراً منهم، فسمي ذلك المكان ((نقيع الدم[٧٧])).

فهل يمكن أن يحدث ذلك لقوم منهزمين مخذولين ؟! أما حديث تعيير أهل المدينة للمقاتلين بعد عودتهم من المعركة بالفرار في حضرة النبي (ص) والذي تناقلته بعض المصادر، كالواقدي الذي روى عن أبي سعيد الخدري قوله: فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين، تلقوهم بالجرف، فجعل الناس يحثون في وجوههم التراب، و يقولون: يا فرار، أفررتم في سبيل الله ؟

فيقول رسول الله (ص): ليسوا بفرار، ولكنهم كرار ان شاء الله. و يورد رواية

---

٧٣. الطبري ٣/٤٢
٧٤. ابن هشام: ٣/٤٣٧
٧٥. رقوقين: اسم موضع.
٧٦. أنظر ابن كثير ٣/٤٧٣
٧٧. الخميس ٢/٧٢ وشرح المواهب اللدنية ٢/٢٧٤

أخرى عن أبي بكر بن عبد الله بن عتبة أنه قال : ما لقي جيش بعثوا معنا ما لقي أصحاب مؤتة من أهل المدينة ، لقيهم أهل المدينة بالشر، حتى أن الرجل لينصرف الى بيته وأهله ، فيدقّ عليهم الباب ، فيأبون أن يفتحوا له . يقولون : ألا تقدمت مع أصحابك ؟ فأما من كان كبيراً من أصحاب رسول الله (ص) فجلس في بيته استحياء، حتى جعل النبي (ص) يرسل اليهم رجلاً رجلاً ، يقول : أنتم الكرار في سبيل الله .

وروايات أخرى كلها تدور حول هذه الفكرة (٧٨) . وقد تابعه في ذلك ابن اسحق وبعض المؤرخين الآخرين ، الا أن ابن كثير ناقش هذه الروايات، وبخاصة رواية ابن اسحق وردّ عليها ، موجهاً الحادثة توجيهاً آخر، فقال : وعندي أن ابن اسحق قدوهم في هذا السياق ، فظنّ أن هذا الجمهور الجيش ، وانما كان الذين فروا حين التقى الجمعان ، وأما بقيتهم فلم يفروا بل نصروا ، كما أخبر بذلك رسول الله (ص) المسلمين وهو على المنبر في قوله : ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ، ففتح الله على يديه فما كان المسلمون ليسمونهم فراراً بعد ذلك ، وانما تلقوهم إكراماً وإعظاماً ، وانما كان التأنيب وحثي التراب للذين فروا وتركوهم هناك ، وقد كان فيهم عبد الله بن عمر (رضي) الله عنهما .

ثم قال : ولعل طائفة منهم فروا لما عاينوا كثرة جموع الروم ، وكانوا على أكثر من أضعاف الأضعاف ، فانّهم كانوا ثلاثة آلاف وكان العدو على ما ذكروه مائتي ألف ومثل هذا يسوغ الفرار على ما قد تقرر، فلما فر هؤلاء ثبت باقيهم ، وفتح الله عليهم وتخلّصوا من أيدي اولئك ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، كما ذكر الواقدي وموسى بن عقبة قبله (٧٩) .

لقد كان ابن كثير موفقاً ومصيباً في مناقشته الى درجة كبيرة، وما ذهب اليه مقنع ، ويمكن أن يضاف اليه أن استمرار الناس في التعيير بعد ما سمعوا رسول الله (ص) يدفعه عن جنود جيشه ولا يراهم فراراً بعيد جداً عن رضاء رسول الله (ص) . كما أنه بعيد جداً من أدب الناس وطاعتهم لرسول الله ، في أمر لا يرضاه ، ولا يحبه لأحد من أصحابه ، فكيف يرضاه وقد وصفهم بالكرار (٨٠) ؟!

---

٧٨. المغازي ٣/٧٦٤

٧٩. السيرة ٣/٤٦٩

٨٠. أنظر عرجون ٦١

ـ دروس من مؤتــة ـ

لقـد أفاد المسلمون دروساً بليغة من هذه المعركة، وهي دروس خالدة تبقى عبرتها قـائمة في كل زمان ومكان، تتوارثها الأجيال، و يتدارسها أبناء الأمة ومفكروها، ومن أبرز تلك الدروس :

أولاً : ميزان جديد للفضائل

لقد وضع الرسول (ص) مبدأ عظيماً في تقدير الفضائل الانسانية للأشخاص حين أمّر عتيـقـة ومولاه زيد بن حارثة أميراً على جيش فيه سادة قريش وصناديدها، ورجالات الأنـصار وشيوخها، أمثال جعفر وخالد وابن عمر وابن رواحة، ليعلم الناس أن الاسلام قد أقام ميزاناً جديداً لفضائل الرجال، لا يقوم على الأحساب والأنساب.

لقـد كان هذا الميزان جديداً حتى على السابقين الأولين من المسلمين فهذا جعفر، وهـو من هو في الاسلام، لم يكن بمقدوره تصوره، فما أن سمع بقيادة زيد حتى وثب قائلاً : يـا رسول الله مـا كـنت أرغب أن تستعمل زيداً عليّ. قال الرسول (ص) : فإنك لا تدري أيّ ذلك خير(٨١).

ثانياً : مبادىء الفروسية

من يطلع على خطبة رسول الله (ص) التي أوصى بها المقاتلين قبل توجههم الى القتال يدرك عظمة المبادىء وسمو المثل التي دعا المتحاربين الى التحلي بها، وهم في غمرة القتال.

إن هـذه المبـادىء تجسيـد للفروسية الاسلامية التي سبقت تعليماتها وقوانينها كل القـوانين والتشريعات الحربيـة، فهي تدعو إلى عدم التعرض لغير المقاتلين من السكان كـالنساء والأطفـال والشيوخ، وإلى المحافظة على الممتلكات والأموال، والزروع، ورعاية رجـال الـدين الـذين تفرغوا للعبادة، إلى ما هنالك من المبادىء السامية والمُثل الخيّرة التي مرت بنا في الخطبة النبوية.

---

٨١. السيرة النبوية ٣/٤٦٥

ثالثاً : **بُعد النظــر**

يتـجلى في هذه المعركة بُعد نظر رسول الله (ص)، ومدى تفكيره بكل ما يمكن من الاحتـمـالات، والاعـداد لهـا . فلم يكتف بتعيين قائد واحد بل أردف تعيين القائد الأول بترشيح قائدين احتياطيين تقديراً منه لظروف المعركة كما بيناه في موضعه.

والـقـائـد الـنـاجح هو الذي يتسم ببعد النظر بالاضافة الى مزاياه الأخرى، و يتخذ لكل احتمال التدابير الضرورية لمعالجته، دون أن يترك مصائر قواته للأقدار(٨٢).

رابعاً : **القلة والكثرة**

ومـن دروس هـذه المـعـركـة وجـوب عـدم الاعـتداد بالكثرة أو التعويل عليها عند الحـروب. ومعركة مؤتة وثيقة تأريخية في حروب المسلمين، تشهد لهم بأنهم لم يحاربوا بكثرة عدد قط، وانما كانوا يحاربون عدوهم بقوة عقيدتهم، وصدق عزيمتهم، وحبهم الاستشهاد في سبيل الله، وعبقرية القيادة، و بطولة المجاهدين، واضعين نصب أعينهم قوله تعالى، ((كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله)).

وقد نبّه إلى ذلك القائد الثالث ابن رواحة في كلمته التي أثبتناها من قبل.

وفي حرب العراق العادلة ضد الفرس عبرة لمن يعتبر.

خامساً : **الإنضباط**

لـم ينفرط عقد المسلمين بعد مصرع قادتهم الثلاثة الواحد بعد الآخر وهم ملتحمون في المـعـركـة، وكـانـت حـالتهم من أدق وأخطر الساعات التي تمر بها الجيوش، ولكن جند الاسـلام تـلقوا ذلك برباطة جأش، وايمان ثابت ولم ينسوا ــ وصية رسول الله (ص) في أن يختاروا من بعد الثلاثة من يرضونه، فرشحوا خالداً لذلك.

سادساً : **القيادة**

لا يـشـك أحد في تأثير القيادة على مجريات المعركة ونتائجها، كلما كانت القيادة، متـمـعـنـة بـالـصـفـات المثالية للقائد الممتاز تحققت أحسن النتائج. ولذلك رأينا تغيير اتجاه المعركة بعد تسلم خالد القيادة لما يتمتع به من عبقرية حربية ومهارة عسكرية.

---

٨٢. الرسول القائد ٢٣٦

سابعاً : الحرب خدعة

من المعروف أن رسول الله (ص) حين جاءه نعيم بن مسعود الغطفاني في غزوة الخندق معلناً اسلامه، وأخبره أنه أسلم ولا يعلم قومه باسلامه، وهو مستعد لتنفيذ ما يطلب منه، قال له الرسول : إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنا إن استطعت، فإنّ الحرب خدعة.

لقد أفاد المسلمون من الحديث النبوي، وطبقوا اسلوب الخدعة عندما غير خالد في مواقع المقاتلين، فخُدعوا وكان ما كان.

ثامناً : الانتصار السوقي

قد لا يكون المسلمون انتصروا تعبوياً انتصاراً واضحاً في ساحة المعركة كما ذهب بعض المؤرخين، إلاّ أن هذه المعركة كانت انتصاراً سوقياً لا يمكن إنكاره، انتصاراً مهد للمسلمين كل الانتصارات التي حققوها على الروم فيما بعد.

يقول الخبراء العسكريون : وكانت مؤتة نصراً سوقياً جعلت الروم، جيران المسلمين في الشمال، يلمسون عملياً بأن العرب بالاسلام أصبحوا خلقاً جديداً فأصبحت حربهم ليست حرباً عابرة، بل حرب لها ما بعدها، كأية حرب نظامية تتميز بارادة القتال، وبالنظام والتنظيم والاستمرارية، وقد أثرت في معنويات الروم تأثيراً عظيماً.

والهزيمة التعبوية لا تُعد شيئاً بالنسبة للانتصار السوقي كما هو معلوم (٨٣). فلو سلمنا بأن المسلمين لم يربحوا في مؤتة، فقد خسروا معركة ولكنهم ربحوا حرباً، فكانت بعدها ذات السلاسل التي طارد المسلمون فيها كل القبائل الموالية للروم وتوغلوا الى داخل أراضيهم في بلاد الشام. فتبعثرت تلك القبائل وعادت هيبة المسلمين، واستقرت نفوسهم.

ثم جاء دور الروم في اليرموك عندما قاتلهم خالد بأساليبهم التعبوية التي كانوا يقاتلون بها أعداءهم.

ولولا مؤتة لما عرف المسلمون أساليب الروم وطبيعة أراضيهم وأنظمة حربهم، واستعدادهم ونوع أسلحتهم، فكان الانتصار العظيم على دولة الروم..

---

٨٣. مجلة المجمع العلمي العراقي ـــ مقالة اللواء الركن محمود شيت خطاب ٢/ ١٢٢ م٣٠

تجربة مؤتة بين التاريخ والشعر

يحيى الجبوري
كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ــ جامعة قطر

كان المسلمون في المدينة مهددين بأعداء ثلاثة، تمثلهم قريش في جنوب المدينة، وقبائل غطفان وأحلافها شرقي المدينة، و يهود خيبر في شمال شرقي المدينة.

وقد استطاع المسلمون أن يكسروا شوكة أعدائهم بعد معركة الخندق في السنة الرابعة من الهجرة، وجاء صلح الحديبية ليدعم مركز المسلمين، فاستطاعوا التخلص من الخطر اليهودي المتمثل بيهود خيبر في أوائل السنة السادسة، ثم التوجه بالدعوة الى خارج الجزيرة العربية، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك وأمراء الجزيرة، وخارج الجزيرة من فرس وروم وأحباش، يدعوهم الى الإسلام.

وسبقت معركة مؤتة أحداث كانت سبباً مباشراً أو غير مباشر لهذه المعركة، منها مقتل أربعة عشر مسلماً في ذات أطلاح، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل كعب بن عمير في أربعة عشر رجلاً من أصحابه الى ذات أطلاح من أرض الشام، ولا بد أن هذا العدد القليل كان في مهمة تبليغ الدعوة لعرب الشام من الغساسنة أو في مهمة استطلاعية لم يذكرها المؤرخون، ولقي المسلمون هناك جمعاً من الغساسنة المتنصرين، فأطبقوا على المسلمين وقتلوهم جميعاً، فلم ينج منهم إلا جريح نجا بنفسه، فسار تحت جنح الظلام فأتى المدينة وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فشق الأمر عليه وحزن على مقتل أصحابه[1]، وكان الحارث الغساني حين قتل المسلمين هدد بالمسير الى المدينة لمقاتلتهم. يضاف الى ذلك أن الغساسنة قتلوا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم صبراً، وذلك حين أرسل النبي الى ملوك وأمراء الجزيرة والدول المجاورة يدعوهم الى الإسلام، وأرسل الى الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم بصرى والجولان الموالي للروم رسولاً هو الحارث بن عمير الأزدي بكتاب يدعوه فيه الى الاسلام، وحين بلغ

١. مغازي الواقدي ٢/٧٥٢، طبقات ابن سعد ٢/١٢٧ ــ ١٢٨.

الحارث أرض الشام وعند قرية (مؤتة) بالبلقاء عرض له أحد عمال الحارث الغساني وهو شرحبيل بن عمرو الغساني، فلما تعرف عليه وأنه رسول رسول الله، أمر به فأوثق رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه صبراً، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر فاشتد عليه(٢). لهذه الأسباب ولغيرها مما لا نعلم، جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة آلاف مقاتل من خيرة المسلمين وأمرهم أن يعسكروا بالجرف(٣)، وهناك عرفهم بالمهمة المنوطة بهم وهي أن يطأوا أرض الشام و يقاتلوا أعداء الإسلام الذين غدروا بأصحابه(٤).

وكان هذا أول جيش يجرده النبي صلى الله عليه وسلم و يسمي له ثلاثة قواد، يتولون القيادة واحداً بعد الآخر، إن استشهد الأول يليه صاحبه، وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينظر الغيب ويستشرف مستقبل المعركة، وكان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي بأن يكون: «زيد بن حارثة أمير الناس، فان قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فان قتل جعفر فعبد الله بن رواحة، فان قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم»(٥)، وقد أجمع المؤرخون على أن عدد الجيش المتوجه الى أرض الشام ثلاثة آلاف مقاتل، وكان مسيره يوم الجمعة من شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في وداع الجند المقاتل في سبيل الله، وقد أوصاهم بوصية صارت سنة متبعة للخلفاء والقادة بعده في عصور الإسلام، يوم كان للإسلام دولة، قال: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً»، ثم توجه الى زيد بن حارثة أمير الجيش قائلاً: «وان لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى ثلاث، فأيتهن ما أجابوك اليها فاقبل منهم واكفف عنهم»، الدخول في الاسلام أو إعطاء الجزية أو القتال، وأوصاهم بالعابدين من النصارى في صوامعهم خيراً، وأوصاهم بالرفق بالضعاف» ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً

---

٢. تاريخ الطبري ٣/٣٦، مغازي الواقدي ٢/٧٥٥، الإصابة ١/٢٩٩، وانظر: حياة محمد ــ هيكل ص ٤٠٥.

٣. مغازي الواقدي ٢/٧٥٦، والجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام. (ياقوت: الجرف)

٤. تاريخ الطبري ٣/٣٦، مغازي الواقدي ٢/٧٥٦.

٥. سيرة ابن هشام ق٢/٣٧٣، مغازي الواقدي ٢/٧٥٦، البداية والنهاية ٤/٢٤١، تاريخ ابن الأثير ٢/٢٣٤.

مرضعاً ولا كبيراً فانياً، ومنعهم الفساد في الأرض «ولا تغرقن نخلاً ولا تقطعنّ شجراً ولا تهدموا بيتاً»(٦). وعقد النبي لهم اللواء وكان أبيض، ووقف المسلمون يودعون الجند و يدعون لهم قائلين: «دفع الله عنكم وردكم صالحين»، وتوجه أكبر جيش للمسلمين الى أرض الشام.

و يبدو أن أخبار الجيش الاسلامي قد سبقته الى العدو، فبلغ الخبر شرحبيل بن عمرو والغساني عامل الروم على مناطق الشام الجنوبية، فسارع في حشد جيش كثيف من القبائل الموالية، وأبلغ الروم بتحركات الجيش الإسلامي، وكان شرحبيل قد أرسل أخاه سدوس بن عمرو في خمسين رجلاً ليستطلع خبر الجيش الإسلامي، فقاتل المسلمون هؤلاء وظفروا بسدوس ومن معه، ولما علموا بأن سدوساً هذا هو أخو شرحبيل بن عمرو ــ الذي قتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قتلوه، وفزع شرحبيل حين علم بمقتل أخيه فتحصن وطلب النجدة من هرقل امبراطور الروم وكان في بيت المقدس، فسارع هذا بنجدته بجيش كثيف، واستعد الروم ومن معهم من الغساسنة والقبائل العربية الموالية، و يقول الواقدي إن الرومان حشدوا لملاقاة المسلمين مائة ألف مقاتل من الغساسنة والقبائل الموالية (من بلي و بهراء ووائل و بكر ولخم وجذام) واجتمعوا في قرية (مآب)(٧) وعليهم رجل من بلي اسمه مالك(٨)، وحشدوا أيضاً من الجند الروماني بقيادة هرقل نفسه(٩) مائة ألف، وعسكروا في بلدة مآب أيضاً.

أما الجيش الإسلامي فقد تحرك من المدينة الى وادي القرى مجتازاً حدود الجزيرة عند تبوك، ووطأ أرض الشام و بلغ مدينة معان من اقليم البلقاء في الأردن، وتشاور المسلمون في أمر الحرب وفي كثافة جيش العدو نسبة الى قلة جيش المسلمين، ومهما كان رأينا في حقيقة العدد الذي ورد عن جيش الروم، ومهما كان يظن فيه من مبالغة (٢٠٠) ألف جندي نسبة الى ثلاثة آلاف أي أن كل جندي مسلم يقابل سبعين جندياً

---

٦. مغازي الواقدي ٢/٧٥٧ ــ ٧٥٨.

٧. مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء. (ياقوت: مآب)

٨. مغازي الواقدي ٢/٧٦٠، الطبري ٣/٣٧، ابن الأثير ٢/٢٣٥.

٩. وقيل: بقيادة أخيه تيودور.

من المشركين، فان هذه النسبة تبقى عالية وجيش العدو يبقى كبيراً وكبيراً جداً، بالإضافة الى أن تجهيز جيش الروم وعدته وآلته معروفة منذ القدم، وأن جيش المسلمين يقاتل في غير أرضه و بينه و بين المدينة قرابة ستمائة ميل، وأمام هذا الموقف المحرج وغير المتوقع، كان لا بد للمسلمين من التشاور وتغيير الخطط وتدبر الموقف الجديد، فنزلوا في معان وهم أمام احتمالات: فاما أن يعلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثافة جيش العدو وانتظار المدد، أو الاذن بالعودة لأن مقاتلة هذه الجموع الهائلة عملية انتحارية بالغة الخسائر، وإما أن يخوضوا حرباً طلباً للشهادة أو النصر. ودام التشاور في معان يومين، ورجح لدى القوم الرأي القائل بالمضي في القتال ومباداة العدو دون تحسب للنتائج، وكان هذا الرأي قد أوجزه عبد الله بن رواحه في قوله: «يا قوم، والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به»(١٠)، ودعم رأيه عن قلة المسلمين وكثرة عدوهم بأمثلة من بدر وأحد فقال: «والله رأيتنا يوم بدر ما معنا الا فرسان، و يوم أحد فرس واحد، فانطلقوا بنا، فانما هي احدى الحسنيين، اما ظهور عليهم فذلك الذي وعدنا نبينا، وليس لوعده خلف، واما الشهادة، فنلحق بالاخوان نرافقهم في الجنان(١١).

ولا شك أن هذا الرأي الذي صدر عن عاطفة اسلامية غامرة، ليس فيه من الحنكة الحربية شيء، ولم يحسب حساب العواقب، وغالباً ما يكون الرأي الآخر في مثل هذه المواقف خافتاً خوف الاتهام بالجبن أو التردد أو قلة الايمان، وما دام صوت المعركة قد علا، فأول ما ينبغي لأمير الجيش أن يعبئه التعبئة التي تفوت على العدو محاولة التطويق والإطباق على هذا الجيش الصغير القليل العدة والعدد. فانحاز المسلمون الى قرية مؤتة وتحصنوا بها، ثم جعل أمير الجيش زيد بن حارثة قطبة بن قتادة العذري على الميمنة، وعبادة بن مالك الأنصاري على الميسرة(١٢)، أما القلب فكان عليه زيد بن حارثة ومعه الأمراء من بعده جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة.

---

١٠. سيرة ابن هشام ٢/٣٧٥، ابن الأثير ٢/٢٣٥.

١١. مغازي الواقدي ٢/٧٦٠، الطبري ٣/٣٧.

١٢. ويقال: عباية بن مالك.

وأما جيش المشركين الذي يضم الروم فقائدهم هرقل، وكان قائد القبائل العربية الموالية للروم مالك بن زافلة من قبيلة بلي (١٣)، وتدفق هذا الجيش اللجب للقاء المسلمين، وقد قدره المؤرخون بمائتي ألف، وفيه من الكراع والسلاح ما يزيغ البصر ويرعب القلب، وقد عبر عن هذا الموقف الحرج المفزع أبو هريرة وكان قد حضر مؤتة، قال المقريزي: «فرأوا (يعني المسلمين) المشركين ومعهم ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب، قال أبو هريرة: وقد شهدت ذلك فبرق بصري، فقال ثابت بن أقرم: يا أبا هريرة مالك، كأنك ترى جموعاً كثيرة، قلت: نعم، قال: لم تشهدنا ببدر، اننا لم ننصر بالكثرة» (١٤).

وبدأ الصدام، وكانت المعركة هائلة رهيبة، أبلى فيها المسلمون على قلتهم خير بلاء، وقاتلوا أصدق قتال طيلة سبعة أيام متواصلة، وصبرت القلة المؤمنة بوجه أمواج من جحافل الروم وصنائعهم من القبائل التي كانت على النصرانية أو على الشرك، وقد خاضت القلة المؤمنة المتمثلة في ثلاثة آلاف مقاتل حرباً شديدة عاصفة أمام مائتي ألف مقاتل طيلة الخمسة أيام الأولى، ولم تستطع كثرة العدو أن تحقق أي نصر يذكر، وفي اليوم السادس أنهك المسلمون ونزلت بهم الفجائع باستشهاد قادتهم الثلاثة واحداً تلو الآخر، وتصور المصادر مصرع القادة وفجيعة المسلمين، قال الطبري: «ثم التقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شاط (١٥) في رماح القوم» (١٦)، وقال ابن سعد: «فمضى المسلمون الى مؤتة ووافاهم المشركون، فجاء منهم ما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب، فالتقى المسلمون والمشركون، فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى قتل طعناً بالرماح رحمه الله» (١٧)، وتسلم الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل فيها ومن ورائه جموع المسلمين فأبلى بلاء شديداً، ثم أحاط به الروم فنزل عن فرسه وعقرها وقاتل حتى قطعت يده، فحمل اللواء باليد الأخرى

---

١٣. سيرة ابن هشام ٤/١٧.

١٤. مغازي الواقدي ٢/٧٦٠، امتاع الأسماع ١/٣٤٧، برق: دهش فلم يبصر من فزع وحيرة.

١٥. أي سال دمه فمات.

١٦. سيرة ابن هشام ٢/٣٧٨، الطبري ٣/٣٩.

١٧. طبقات ابن سعد ٢/١٢٩.

فقطعت يده الثانية، فاحتضن اللواء بعضديه، ثم اعتورته سيوف الرومان وهو يحتضن اللواء حتى أثخنته الجراح وفيه اثنتان وسبعون ضربة بسيف أو طعنة برمح(١٨)، و يصور ابن هشام هذا المشهد البطولي المعجز قال: «حدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء، ويقال إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه بنصفين»(١٩)، وقال عبد الله بن عمر: «كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه. في القتلى ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من ضربة ورمية»(٢٠)، ووجدوا جميع هذه الطعنات التي أصيب بها ليس منها شيء في دبره، تلقاها كلها وهو مقبل(٢١). وبعد مصرع جعفر تسلم الراية عبد الله بن رواحة، وقاتل بها حتى استشهد، وتروي الأخبار- وكذلك يصف شعره- أن ابن رواحة تردد بعض التردد، ثم تقدم فقاتل حتى قتل(٢٢).

وكما قتل من المسلمين قادتهم، فقد قتل قائد العرب الموالين للروم مالك بن زافلة، قتله قطبة بن قتادة العذري الذي كان على ميمنة المسلمين(٢٣).

وبعد مصرع قادة المسلمين الثلاثة أصاب الوهن جيش المسلمين فتشتتوا، وأوقع الرومان بهم خسائر فادحة، وكادت تصيبهم هزيمة منكرة، خاصة وأن الجيش قد أنهكه القتال المتواصل غير المتكافىء طيلة ستة أيام، وقد وصف أبو عامر وكان أحد من شهد المعركة يقول: «ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى لم أر اثنين جميعاً»(٢٤)، وتدارك الموقف أحد فرسان الأنصار وهو ثابت ابن أقرم الأنصارى، الذي أخذ الراية ونادى في الناس: يا قوم، يقتل المرء مقبلاً خير من أن يقتل مدبراً، فثاب

١٨. مغازي الواقدي ٢/٧٦١، قيل: ثلاثون، وقيل ستون، واثنتان وستون.

١٩. سيرة ابن هشام ٢/٣٧٨.

٢٠. طبقات ابن سعد ٢/١٢٩، البداية والنهاية ٤/٢٤٥.

٢١. البداية والنهاية ٢/٢٤٦.

٢٢. سيرة ابن هشام ٢/٣٧٩.

٢٣. مغازي الواقدي ٢/٧٦٣، سيرة ابن هشام ٤/٢٣، البداية والنهاية ٤/٢٥٠.

٢٤. طبقات ابن سعد ٢/١٣٠.

اليه الناس، ثم قال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فارتضوه قائداً، فسلم اللواء الى خالد بن الوليد، فأبى خالد قائلاً: لا آخذه أنت أحق به، أنت رجل لك سن، فقال ثابت: خذه أيها الرجل فوالله ما أخذته الا لك، أنت أعلم مني بالقتال(٢٥). واجتمع المسلمون على قيادة خالد رغم حداثة اسلامه، وكان عليه أن ينقذ المسلمين من موقف صعب وهلاك محقق.

كان هم خالد انقاذ الجيش الاسلامي وتأمين انسحابه بأقل خسائر ممكنة، لأن عملية انسحاب فئة قليلة منهكة أمام جيش ضخم كثيف ــ تتاح له دائماً فرصة الراحة والتناوب ــ أمر صعب، لأنه من المتوقع أن يتعقب الجيش الروماني جيش المسلمين و يوقع به خسائر باهظة، لا سيما وأن جيش المسلمين يقاتل بعيداً عن أرضه بما يقرب من ألف كيلو، وطريقه محفوف بأعداء المسلمين من القبائل المشركة المعادية للمسلمين أو الموالية للروم، ولذلك فان جيش المسلمين كان عرضة لأن يتخطفه أعداؤه اذا ما تفرقت صفوفه وتشتت شمله، ولذلك كله فان الموقف كان بالغ الصعوبة، وان ما فعله خالد من الانسحاب المنظم والتخلص من مطاردة الرومان يعد في الحسابات العسكرية نصراً كبيراً وكشفاً للغمة التي حاقت بالمسلمين، وليس أدل على ذلك من إشادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ببطولة خالد واكرامه بلقب (سيف الله) وقال: «اللهم انه سيف من سيوفك انت تنصره»(٢٦)، ولما علم النبي بأخذ خالد الراية قال: «الآن حمي الوطيس»(٢٧) كناية عن اشتداد القتال وتوحيد صفوف المقاتلين بعد تفرق، فما الذي فعله خالد، وكيف استطاع أن يوقف هجمات الرومان، و يؤمن للمسلمين انسحاباً منظماً، ويحفظهم من القتل والهلاك.

رأى خالد ببصيرته الحربية أن جيش المسلمين لا يمكن أن يصمد لجيش الروم ومن معهم من القبائل العربية، وأن الأيام الستة التي مضت في قتال الروم قد أنهكت الجيش وفرقته حتى (لم أر اثنين جميعاً) كما يقول أبو عامر(٢٨)، وكانت خطة خالد في

٢٥. السيرة ٢/٢٧٩ــ ٢٨٠، مغازي الواقدي ٢/٧٦٣، ابن الأثير ٢/٢٣٨.

٢٦. طبقات ابن سعد ٧/٣٩٥، البداية والنهاية ٤/٢٤٦.

٢٧. مغازي الواقدي ٢/٧٦٤، البداية والنهاية ٤/٢٤٧، طبقات ابن سعد ٢/١٢٩.

٢٨. ابن سعد ٢/١٣٠.

الانسحاب قد قامت على مراحل: ١ ــ اعادة تنظيم صفوف المسلمين وتعبئتهم ٢ ــ تضليل العدو بأن قوات جديدة جاءت مدداً للمسلمين ٣ ــ صدم العدو بهجمات جريئة ناجحة ٤ ــ الانسحاب المنظم دون خسائر.

وقد أمر خالد بعض الفصائل أن تنسحب في الليل وتكمن بعيداً خلف الجيش الاسلامي، ثم تظهر عند الصباح من كل جانب مثيرة الغبار ليظن أن مدداً كبيراً قد جاءهم، وصبّح جيش الرومان وهم يرون تعبئة جديدة، بأن جعل ميمنة الجيش ميسرة، وميسرته ميمنة، وقدم وأخر في القلب، فرأى الجيش الروماني وجوهاً لم يروها قبل، فأوقع الرعب في نفوسهم بأن جيشاً جديداً قد جاء مدداً للمسلمين وبهذه الخدعة الحربية هز معنويات العدو وأوقع الرعب في قلوبهم. ثم هجم خالد بجيشه فأوقع بالعدو خسائر كبيرة، ويصف الواقدي خطة خالد ونتائجها قال: «لما قتل ابن رواحة مساء، بات خالد بن الوليد، فلما أصبح غداً وقد جعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئاتهم، وقالوا قد جاءهم مدد، فرعبوا فانكشفوا منهزمين فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم» (٢٩)، ويصف ابن سعد انتصار المسلمين بقوله: «ثم أخذ خالد اللواء، ثم حمل على القوم فهزمهم أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا» (٣٠)، وكان بلاء خالد شديداً، ولا أدل على شدة المعركة وحسن البلاء من أن تسعة سيوف تتكسر في يد خالد، وروى عن خالد قوله: «اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وما ثبت في يدي الا صفيحة يمانية» (٣١). ثم بدأت عملية الانسحاب المنتظمة، واستطاع خالد بدهائه العسكري أن يؤمن للجيش انسحاباً آمناً، دون أن يلحق بالجيش خسائر كما هو المعتاد في حالات الانسحاب، والذي يلفت النظر أن الجيش الروماني على الرغم من قوته وكثرته ووفرة فرسانه، لم يتعقب جيش المسلمين، وهناك احتمالات: منها أن الرومان ربما فكروا أن وراء هذا الانسحاب كميناً أو خدعة حربية للايقاع بهم، أو أن الرومان ظنوا أن جيش

٢٩. الواقدي، ٢/٧٦٤.

٣٠. ابن سعد ٢/١٣٠.

٣١. ابن سعد ٧/ ٣٩٥، البداية والنهاية ٤/٢٤٦، الإصابة ٢/٩٩.

المسلمين جاءهم مدد فما أرادوا التورط في استمرار حرب لم يستطيعوا تحقيق نصر حاسم قبل مجيء المدد، فكيف بعد وصوله، كما يظنون(٣٣).

وكانت أخبار الجيش المقاتل ومقتل القادة وتسلم خالد قيادة الجيش قد بلغت المسلمين في المدينة، فظنوا أن المسلمين قد فروا وانهزموا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صعد المنبر وأخبر المسلمين خبر الجيش الاسلامي، واستشهاد القادة الثلاثة واحداً بعد الآخر، فاستغفر لهم، وأثنى على خالد بن الوليد قائلاً: «اللهم انه سيف من سيوفك أنت تنصره» فسمي خالد من ذلك اليوم (سيف الله)(٣٣). ولكن بعض المسلمين في المدينة ظنوا بالجيش الجبن والفرار، فخرجوا لاستقبال الجيش العائد الى ضواحي المدينة بالجرف، فكان فريق منهم يحثون في وجوه المقاتلين التراب و يقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد عليهم بقوله: «ليسوا بفرار ولكنهم كرّار ان شاء الله»(٣٤). وما فتىء بعض المسلمين يلوم و يقرع الجيش العائد، حتى اضطر بعض المقاتلين أن يلزموا بيتهم فلا يخرجوا منه خوفاً من تقريع الناس، ففي خبر سلمة بن هشام بن المغيرة أحد جنود مؤتة، أن امرأته دخلت على أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت أم سلمة: «ما لي لا أرى سلمة بن هشام، آشتكى شيئاً، قالت امرأته: لا والله، ولكنه لا يستطيع الخروج، اذا خرج صاحوا به و بأصحابه: يا فرار، أفررتم في سبيل الله، حتى قعد في البيت، فذكرت ذلك أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بل هم الكرار في سبيل الله فليخرج، فخرج»(٣٥).

ولا شك أن المسلمين قد حزنوا حزناً شديداً لمقتل من قتل من المسلمين، وبخاصة أمراء الجيش الثلاثة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب جعفر بن أبي طالب حباً شديداً، وكان جعفر أقرب الناس الى أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وشبهاً به، وكان يقول له في عمرة القضاء: «أشبهت خلقي وخلقي»(٣٦)، وفرح به عند

٣٣. البداية والنهاية ٤/٢٤٦.

٣٤. ابن الأثير ٢/٢٣٨، الطبري ٢/٣٢٣، الواقدي ٢/٧٦٥، السيرة ٢/٣٨٢.

٣٥. الواقدي ١/٧٦٥، السيرة ٢/٣٨٣.

٣٦. البداية والنهاية ٤/٢٥٦.

عودته بالمهاجرين من الحبشة، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قام اليه وقبّل بين عينيه، وحجل فرحاً بقدومه (٣٧)، وقد بكى النبي صلى الله عليه وسلم حزناً على جعفر وواسى زوجته وأولاده، وكان حين يسمع صوت البواكي يقول: «على مثل جعفر فلتبك الباكية» (٣٨).

صورة مؤتة في الشعر:

الشعر في كثير من أحواله وثيقة تاريخية وأدبية ولغوية ونفسية، والشعر في مؤتة يصور الأحوال، ويحكي الأحداث، و يسجل دقائق قد تغيب عن ذهن المؤرخين و يلقى ضوءاً على بعض التفصيلات التي لا بد منها لفهم أبعاد المعركة وجوانبها ونتائجها، و يلقي ظلالاً نفسية تعين على فهم واقع الحال وما كان يختلج في نفوس الشعراء من عواطف الرهبة والخوف والحذر، والنصر والفجيعة أيضاً. وكان الشعر يصاحب المعركة و يصورها خطوة خطوة، على قدر ما أتيح للشاعر من إلمام بالمعركة ورؤية لها.

وكان شعر عبد الله بن رواحة أهم الأشعار التي جاءت عن المعركة وصورتها وصورت نفسية قائلها، لأنه شعر شاعر شهد المعركة وخاضها وكان أحد قوادها، وعبد الله بن رواحة أحد شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلاثة في المدينة: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله رجل شديد الايمان مرهف الحس، وشعره سهل سلس مثل الحياة الإسلامية وأحداثها منذ الهجرة المباركة حتى مقتله شهيداً.

وأول ما يلاحظ في شعر ابن رواحة أنه كان رقيق القلب سريع البكاء خشية الموت أو خشية النار، وقيل إنه حين تجهز الجيش وودعهم المسلمون، بكى، فقالوا: «ما يبكيك يا ابن رواحة، فقال: والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار (وإنْ منكم الا وارِدُها كان على ربِّك حتماً مقضياً)، فلست أدرى كيف لي بالصدر بعد الورود» (٣٩)، ثم ان القوم تهيئوا للخروج فأتى عبد الله يودع رسول الله صلى الله عليه

٣٧. السابق والصفحة.

٣٨. الواقدي ٢/٧٦٦.

٣٩. السيرة ٢/٣٧٣، والآية ٧١ من سورة مريم.

وسلم ويمدحه و يذكر فضله ونبوته :(٤٠)

فـثَبَّـت اللهُ مـا آتـاكَ مـن حَسَنٍ	تَثْبيتَ موسى ونَصْراً كالذي نُصروا
إنـي تـفـرَّسْـتُ فيكَ الخيرَ نافلةً	اللهُ يـعـلـم أنـي ثـابـتُ الـبَـصَـر
أنـتَ الـرسـولُ فمَنْ يُحْرَمْ نوافِلَهُ	والـوجْـهَ منه فقد أزرى به القَدَرُ

وحين تهيأ المسلمون للتوجه ناحية المعركة ووداع أهليهم، كان عبد الله يذكر المصير وما قد يصيبه من قتل و يتمنى الشهادة في سبيل الله :(٤١)

لـكـنَّـنـي أسـألُ الـرحمنَ مغفرةً	وضـربـةً ذاتَ فَـرْغٍ تـقـذفُ الزَّبَدا
أو طـعـنـةً بـيـدَيْ حَـرَّان مُجْهِزةً	بـحرْبةٍ تُخْفِذُ الأحشاء والكَبِدا
حـتـى يُـقـالَ إذا مَرُّوا على جَدثي	أرشَـدَهُ اللهُ مـن غـازٍ وقـد رَشَـدا

وحين بلغ المسلمون معان ورأوا كثرة جيش العدو وعدته، وتشاور الناس في الأمر كان رأي ابن رواحة أن يغامروا في قتال المشركين طلباً لإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة فقال هذه الأبيات من قصيدة يتمثل فيها الاعتزاز بقوة المسلمين وصلابة ايمانهم ووثوقهم بالنصر :(٤٢).

جـلَبْـنـا الخيـلَ مـن أجأٍ وفَـرْعٍ	تُـغَـرُّ مـن الـحَشيشِ لها العُكُومُ
حـذَونـاهـا مـن الـصَّوَّان سِبْتـاً	أزلَّ كـأنَّ صـفـحَـتـه أديـمُ
أقـامـتْ لـيـلـتَـيْـنِ على مَعَـان	فـأعْـقَـبَ بـعـد فـتـرتِـهـا جُمُومُ
فَـرُحْـنـا والجـيـادُ مـسـوَّمـاتٌ	تـنـفَّـسُ في مـنـاخِـرهـا السَّمُومُ
فـلا وأبـي مآبَ لَـنـأتِـيَـنْـهـا	وإنْ كـانـت بـهـا عَـرَبٌ ورومُ
فـعـبَّـأْنـا أعِـنَّـتَـهـا فـجـاءتْ	عَـوابِـسَ والـغُـبـارُ لها بَـريـمُ

وفي هذا الشعر اشارات مفيدة لم تذكرها المصادر وهي القبائل التي تكون الجيش الاسلامي من البادية حيث ذكر مواضعها في جبل ياقوت (الفرع)، وذكر أماكن تجمع المسلمين في معان، وأماكن تجمع المشركين من عرب وروم في مآب.

---

٤٠. السيرة ٢/٣٧٤.

٤١. السيرة ٢/٣٧٤، ابن الأثير ٢/٢٣٥.

٤٢. السيرة ٢/٣٧٥.

وكانت شاعرية عبد الله بن رواحة تتدفق بالشعر وهو في المعركة أو في طريقه اليها، يسجل خواطره وخواجله النفسية، روى زيد بن أرقم، وكان معه في طريقه الى مؤتة قال: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج في سفره ذلك مردفي على حقيبة رحله، فوالله أنه ليسير ليلتئذ سمعته يقول: (٤٣).

إذا أدّيتني وحملت رَحْلي ... مسيرةَ أربعٍ بعدَ الحِساءِ
فشأنُك أنعُمٌ وخلاكِ ذَمٌّ ... ولا أرجعْ الى أهلي ورائي
وجاء المسلمونَ وغادروني ... بأرضِ الشامِ مُشْتَهيَ الثَّواءِ
وردَّكِ كلُّ ذي نسبٍ قريبٍ ... الى الرحمن مُنْقطعَ الإخاءِ
هنالكَ لا أُبالي طلْعَ بَعْلٍ ... ولا نَخْلٍ أسافِلُها رِوَاءِ

قال: فلما سمعتهن منه بكيت، فخفقني بالدِرّة وقال: ما عليك يا لُكَع، أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شعبتي الرحل.

وحين يكون الصدام و يشتد وقع القتال، و يستشهد زيد و يستشهد جعفر، يكون ابن رواحة هو القائد المسؤول عن أهوال القتال وادارة دفته، فهو أمام الموت وجهاً لوجه، فيرى جلال الموت ورهبته فيتخوف و يتردد، و يتصارع في نفسه حب البقاء وسمو الشهادة، فيتمالك ويحرض نفسه على الصبر، ويحاور نفسه و يزين لها الشهادة في قوله متأسياً بصاحبيه: (٤٤)

يا نفسُ إنْ لم تُقْتَلي تموتي ... هذا حِمامُ الموتِ قد صَلِيَتِ
وما تمنَّيتِ فقد أُعْطيتِ ... إنْ تفعلي فِعْلَهما هُديتِ

و يبدو أن نفسه لم تطاوعه وكانت تتشبث بالحياة، فكان يعاتبها على التردد ويحثها على الإقدام و يكرهها على النزال و يقسم عليها أن تطاوعه، وحديث النفس هذا هو أصدق ما صوره الشعراء وأروعه (٤٥):

٤٣. الواقدي ٢/٧٥٩، ابن الأثير ٢/٢٣٥ — ٢٣٦.
٤٤. السيرة ٢/٣٧٩، ابن الأثير ٢/٢٣٧.
٤٥. السيرة ٢/٣٧٩، ابن الأثير ٢/٢٣٦ — ٢٣٧.

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّهْ طائعةً أو لا لتُكرَهِنَّهْ
إنْ أجلَبَ الناسُ وشدوا الرنَّهْ ما لي أراكِ تكرهينَ الجنَّهْ
قد طالَ ما قد كنتِ مُطْمئنَّهْ هل أنتِ إلاَّ نطفةٌ في شَنَّهْ

ثم نزل عن فرسه، وأتاه ابن عم له بعرْق من لحم، فقال له: شد بهذا صلبك فقد لقيت ما لقيت، فأخذه فانتهش منه نهشة، ثم سمع الحَطْمَة في ناحية العسكر فقال في نفسه: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه وأخذ سيفه وتقدم فقاتل حتى قتل ولحق بصاحبيه شهيداً (٤٦).

ومما جاء من شعر المعركة مصوراً نفسية قائله وثقته بنفسه ودينه وقوته وتصميمه على الشهادة، شعر جعفر بن أبي طالب، ولم يكن جعفر شاعراً، ولكن المعركة فتقت لسانه، وكان جعفر بن أبي طالب ثاني القادة الشهداء، قد أبلى بلاء عظيماً يبلغ حد الأسطورة، فقد قاد الجند ورمى بنفسه وسط المعركة، فلما أحاط به القوم، نزل عن فرسه ثم عقرها وقاتل أشد قتال وهو يستبسل و ينظر الى الجنة دون تردد و ينشد(٤٧):

يا حبَّذا الجنَّةُ واقترابُها طَيِّبَةٌ وبارداً شرابُها
والرومُ رومٌ قد دَنا عذابُها كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها
عليَّ إذْ لاقيتُها ضِرابُها

وتتعالى في جنبات الجيش الاسلامي صيحات الشعراء حين يتحقق نصر أو ينكأون العدو، ومن هذه الصيحات صوت قطبة بن قتادة العذري أحد فرسان المسلمين وكان على ميمنة الجيش، وقد حمل على مالك بن زافلة(٤٨) أحد قادة المشركين المحالفين للروم فقتله، فقال قطبة يصور هذا المشهد وما تبع ذلك من سبي نساء المشركين في موضع بعينه: (٤٩)

---

٤٦. السيرة ٢/٣٧٩، ابن الأثير ٢/٢٣٧.
٤٧. السيرة ٢/٣٧٨، ابن الأثير ٢/٢٣٦.
٤٨. و يروي (زافلة) بالزاي المعجمة.
٤٩. السيرة ٢/٣٨١.

طـعـنـتُ ابـنَ زافـلـةَ بـن الإرا ... ش بـرُمـحٍ مضَى فيه ثم انْحَطَمْ
ضـربْـتُ على جـيـدِهِ ضَـرْبَـةً ... فـمـالَ كـمـا مالَ غصنُ السَّلَمْ
وسُـقْـنـا نـسـاءَ بـنـي عَمِّـهِ ... غـداةَ رقُـوقَـيْـنِ سَوْقَ النَّعَمْ

ويكشف شعر قيس بن المُسَحَّر عن اختلاف القوم بعد مقتل ابن رواحة، فقد نزلت الهزيمة وتشتت الناس، ونظروا فيمن يقودهم حتى اتفقوا على خالد بن الوليد الذي أنقذ الجيش من هلاك محقق، وفي هذا الشعر صورة لنفسية المقاتل الذي رأى الهزيمة محيقة بهم فساورته الشكوك، وغمرته الحيرة، حتى ثاب الى رشده ووثق بحنكة خالد وصواب رأيه وسداد خطته، يقول قيس لائماً نفسه على ما بدر منه من سوء الظن :(٥٠)

فـوالله لا تَـنْـفَـكُّ نـفسي تـلُـومُـني ... على مَـوْقِـفـي والخـيلُ قـابعـةٌ قُـبْـلُ
وَقَـفْـتُ بهـا لا مُـسْتجيراً فـنافذاً ... ولا مـانِـعاً مَـنْ كـان حـمَّ له الـقَـتْلُ
على أنـنـي آسـيْـتُ نـفسي بـخالـدٍ ... ألا خـالـدٌ في الـقـوم لـيس لـه مِـثْـلُ
وجـاشَـتْ إلـيَّ الـنفسُ من نحو جَعْفرٍ ... بـمُـؤْتَـةِ إذْ لا يـنـفـعُ الـنـابلَ الـنَّـبْـلُ
وضَـمَّ إلَـيْـنـا حَـجْـزتَـيـهـمْ كـلَـيـهـما ... مـهـاجـرة لا مُـشـركـون ولا عُـزلُ

وحين عاد الجيش الى المدينة وعلم الناس بتفصيلات الأحداث حزنوا على مقتل القادة وبقية الشهداء، فبكوهم وناحوا عليهم، وكان أبرز الشعراء الذين رثوا قتلى مؤتة حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وتعد قصيدة حسان الرائية التي أولها :

تـأوَّبـنـي لـيـلٌ بـيَـثْـرِبَ أعْـسَـرُ ... وهَـمٌّ إذا مـا نَـوَّمَ الـنـاسُ مُـسْـهِـرُ

من خيرة المراثي الاسلامية وأشدها حزناً ووقعاً في نفوس المسلمين، فهو يعدد مآثر القتلى ومصاب المسلمين بهم، ويسمي الشهداء القادة ويخص جعفراً بأجود الرثاء ويسميه بذي الجناحين، وهي تسمية سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبر أن جعفراً جعلت له جناحان مكان يديه المقطوعتين، ويحكي شجاعة جعفر وعظيم بلائه في الحرب وكيف تكاثرت عليه الرماح حتى استشهد، ويثني بذكر أهل مؤتة وقادتهم في مثل قوله :(٥١)

٥٠. السيرة ٢/٣٨٣.

٥١. السيرة ٢/٣٨٤ـ ٣٨٥، ديوان حسان بن ثابت ص٩٩ـ ١٠٠.

فـلا يُـبْـعِـدَنَّ اللهُ قـتلى تـتـابَـعـوا ... بمُؤْتَةَ منهـم ذو الجناحين جعـفـرُ
وزيـدٌ وعـبـدُ اللهِ حيـنَ تـتـابَـعُوا ... جميـعـاً وأسبـابُ المـنيَّـةِ تَـخْـطِرُ
غـداةَ مـضَـوا بـالمؤمنيـنَ يقـودُهم ... الى المـوتِ مـيـمـونُ النَّقيبةِ أزْهَـرُ
أغـرُّ كـضـوءِ البدرِ من آلِ هـاشمٍ ... أبـيٌّ إذا سيْـمَ الظُّـلامَـةَ مِجْسَرُ
فـطـاعـنَ حـتـى مـالَ غيرَ مُوَسَّدٍ ... لـمُـعـتـركٍ فـيـه قَـنـاً مُـتَـكَسِّرُ
فـصـار مـع المُسْتَشْهَدينَ ثَوابُهُ ... جِـنـانٌ ومُـلـتـفُّ الحَدائقِ أخْـضَـرُ

وقد استوعب حسان أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وثناءه على جعفر إذ كان يقول له : «أشبهت خَلْقي وخُلُقي»(٥٢)، فحسان يحكي هذه الصفة ويمدح جعفراً وآل هاشم، و يذكر مكانتهم في الاسلام وجهادهم فيه و يعدد رجالهم و يذكر فضلهم فهم (أولياء الله) وفيهم (الكتاب المطهر)، يقول حسان :

وكُـنّـا نـرى في جـعـفـرٍ من محمدٍ ... وفـاءً وأمْـراً حـازمـاً حين يـأمُـرُ
فـمـا زالَ في الاسلام من آلِ هـاشمٍ ... دعـائـمُ عـزٍّ لا يَـزُلْـنَ ومَـفْـخَـرُ
هُمُ جبلُ الإسلامِ والناسُ حولَهم ... رِضـامٌ الى طَـوْدٍ يـروق و يَـقْـهَـرُ
بَـهـالـيـلُ منـهـم جَعْفرٌ وابنُ أمِّهِ ... عَـلـيٌّ ومـنـهـمْ أحمدُ المتخَـيَّـرُ
وحـمـزةُ والـعـبـاسُ منـهـمْ ومنهُمُ ... عـقـيلٌ وماءُ العُودِ من حيثُ يُعْصَرُ
بـهـم تُـفْـرَجُ الّلأواءُ في كـل مـأزقٍ ... عَـمَاسٍ اذا ما ضاق بـالـنـاسِ مصدَرُ
هُـمُ أولـيـاءُ اللهِ أنـزَلَ حُـكْـمَـهُ ... عليهم وفيهم ذا الكتابُ المُطَهَّرُ

ولحسان قصيدتان أخريان في شهداء مؤتة، أفرد واحدة منهما في رثاء جعفر بن أبي طالب و بيان خصاله وشجاعته وكرمه وفضله ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي التي أولها : (٥٣)

ولـقـد بـكيـتُ وعزَّ مَهْلِكُ جعفرٍ ... حِبِّ الـنـبـيِّ على البريَّة كُلِّها

وأفرد الثانية لرثاء زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، و يلاحظ في هذه القصيدة أن

٥٢. البداية والنهاية ٤/٢٥٦.

٥٣. السيرة ٢/٣٨٦ ـ ٣٨٧، ديوان حسان ص١٩٧.

حسان يحكي ما وطن في نفوس الناس من أن المسلمين فروا يوم مؤتة (يوم راحوا في وقعة التغوير)، ويعزز هذا المعنى بيت آخر يبين أن المسلمين فروا وغادروا هنالك زيداً صريعاً (حين راحوا وغادروا ثم زيداً)(٥٤) وفي رواية الديوان(٥٥) (حين ولوا وغادروا ثم زيداً)، وفي كلمة (ولوا) دلالة على التوبيخ بالهزيمة، وما كان حسان قد حضر مؤتة، وما عرف حالها وبلاء المسلمين فيها، ولكنه يحكي رأي الناس الذين استقبلوا الجيش ساخطين وموبخين (يا فرار فررتم في سبيل الله)، وفي الأبيات بيان لمنزلة زيد بن حارثة من نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حبه، ثم يثني برثاء عبد الله بن رواحة السيد الخزرجي الكريم، يقول حسان:(٥٦)

عينِ جودي بدَمْعِكِ المَنْزورِ	وأذكُري في الرَّخاءِ أهلَ القُبورِ
واذكري مُؤْتَةً وما كان فيها	يومَ راحوا في وَقْعةِ التَّغْويرِ
حين راحوا وغادروا ثَمَّ زيداً	نِعْمَ مأوى الضَّريكِ والمَأْسُورِ
حِبَّ خَيْرِ الأنامِ طُرّاً جميعاً	سَيِّدَ الناسِ حُبُّهُ في الصُّدورِ

الى آخرأبيات حسان الحزينة.

وكما بكى حسان بن ثابت قتلى مؤتة، بكاهم كعب بن مالك بقصيدة تحفل بالمعاني الإسلامية، صور كعب حزنه على الشهداء الثلاثة من قادة المسلمين، وصور صبرهم وعظيم بلائهم في الحرب، وحرصهم على النصر، ووقف عند استشهاد جعفر بن أبي طالب وكيف كانت شهادته قدوة للمسلمين في الصبر وحسن البلاء والاقدام، ثم عرج على بني هاشم، يثني عليهم ويذكر فضلهم وشرفهم في العرب ومكانتهم في الإسلام، وموضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، وتبدأ قصيدة كعب بصورة نفسية دقيقة معبرة يتحدث فيها عن حزنه وسهاده وتقلبه على جوانبه أرقاً يرعى النجوم كأن في

---

٥٤. السيرة ٢/٣٧٨.
٥٥. الديوان ص ١٠٢
٥٦. السيرة ٢/٣٨٧ـ ٣٨٨، ديوان حسان ص ١٠٢.

أحشائه لهيب نار، والقصيدة في سبعة عشر بيتاً وهي نفيسة في بابها نقتطف منها هذه الأبيات :(٥٧)

نامَ العُيونُ ودَمْعُ عينكَ يَهْمُلُ	سَحًّا كما وَكَفَ الطِّبابُ المُخْضَلُ
في ليلةٍ وَرَدَتْ عليَّ هُمومُها	طَوْراً أَحِنُّ وتارةً أَتَمَلْمَلُ
واعْتادني حُزْنٌ فَبِتُّ كأَنَّني	بِبَناتِ نَعْشٍ والسِّماكِ مُوَكَّلُ
وكأنَّما بينَ الجَوانحِ والحَشَى	مِمَّا تأَوَّبَني شِهابٌ مُدْخَلُ
وَجْداً على النَّفَرِ الذينَ تتابعوا	يوماً بِمُؤتةَ أُسْنِدوا لم يُنْقَلوا
صَلّى الإلهُ عليهمُ من فِتْيَةٍ	وسَقى عِظامَهُمُ الغَمامُ المُسْبِلُ
صَبَروا بمؤتةَ للإلهِ نفوسَهُمْ	حَذَرَ الرَّدَى ومخافةً أنْ يَنْكُلُوا

الى آخر أبيات كعب التي تفيض بالحزن والمعاني الاسلامية.

وهناك أبيات ثلاثة قالها شاعر من المسلمين ممن حضر مؤتة، ورجع أسفاً حزيناً يبكي القادة الشهداء الذين فارقهم ولم ينل ما نالوه من فضل الشهادة وفي البيت الأخير إشارة الى شدة الحرب وكراهة الموت :(٥٨)

كفى حَزَناً أنّي رجَعْتُ وجَعْفرٌ	وزيدٌ وعبدُ اللهِ في رَمْسِ أَقْبُرِ
قَضَوْا نَحْبَهم لما مضَوْا لسبيلِهمْ	وخُلِّفْتُ للبَلْوى مع المتغَبِّرِ
ثلاثةُ رَهْطٍ قُدِّموا فتقَدَّموا	الى وِرْدِ مَكْروهٍ من الموتِ أحمرِ

والملاحظ في شعر مؤتة أنه يكاد يخلو من ذكر أسماء من قتل من المسلمين غير القادة الشهداء الثلاثة، وليس فيه بيان لعدد من قتل من المسلمين أو المشركين، ولعل ذلك راجع الى أن مصاب المسلمين بالقادة كان كبيراً، وكان هذا الشعر قد قاله شعراء المدينة، فهم يبكون رؤوس القوم وأعيان المسلمين، وليس بين أيدينا شيء من الشعر الذي قالته القبائل المسلمة التي شاركت في القتال، ولذلك جاء صدى مؤتة مقتصراً على شعراء المدينة والقادة المسلمين دون سواهم.

---

٥٧. السيرة ٢/٣٨٥ــ ٣٨٦.

٥٨. السيرة ٢/٣٨٨.

وبعد فالشعر في مؤتة يصور المعركة ويحكي أحداثها، ويبكي قتلاها، ويقف وقفة متأنية عند مقتل قادة المسلمين الشهداء الثلاثة، فيبكيهم ويذكر صفاتهم وحسن بلائهم، ويقف وقفة خاصة عند مقتل جعفر بن أبي طالب هذا المقتل الأسطوري والمشهد البطولي الذي عز مثيله، فيبكيه الشعر أحر بكاء، ويتغنى ببطولته وصبره، ويتمدح بنسبه وبشبهه برسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحكي الشعر كذلك ما وطن في أذهان الناس من أن الجيش الاسلامي قد فر، وذلك أنهم قد استعظموا أن يقتل قادة المسلمين الثلاثة واحداً إثر الآخر، فظنوا أن المسلمين هزموا أمام جيش العدو.

تأملات في تجربة مؤتة :

تكاد المصادر تجمع على أن جيش المسلمين كان ثلاثة آلاف مقاتل، وأن جيش الروم وأحلافهم من العرب الموالية كانوا مائتي ألف مقاتل، لكل فريق مائة ألف، ومعنى هذا أن كل مسلم يقابل سبعين مقاتلاً من جيش العدو تقريباً، ثم ان المصادر تذكر أيضاً(٥٩) أن المسلمين انهزموا أسوأ هزيمة، حتى لم ير اثنان جميعاً قط، حتى تسلم خالد اللواء فأنقذ الموقف، وقد دامت هذه المعركة الرهيبة سبعة أيام وتكسرت في يد خالد تسعة أسياف، وهزم بعدها الروم «فقتلوا منهم مقتلة لم يقتلها قوم»(٦٠)، والنتيجة المنطقية أن تكون هناك مقتلة عظيمة بين الفريقين، وبخاصة في صفوف المسلمين القلة أمام الكثرة الكاثرة، ولا بد أن تبلغ تلك المقتلة المئات إن لم تكن الألوف، بينما تذكر المصادر من قتلى الرومان وحلفائهم رجلين فقط هما مالك بن رافلة (أو زافلة) وفارس روماني قتله أحد اليمانيين، أما قتلى المسلمين فهم في رواية الواقدي(٦١) ثمانية، أربعة من المهاجرين وأربعة من الأنصار، وفي رواية ابن هشام(٦٢) اثنا عشر شهيداً، أربعة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وشهداء المهاجرين هم :ـ ١ ـ جعفر بن أبي طالب، ٢ ـ زيد بن حارثة، ٣ـ مسعود بن الأسود بن حارثة العدوي، ٤ ـ وهب بن سعد بن أبي سرح العامري. أما شهداء الأنصار فهم : ١ ـ عبد الله بن رواحة، ٢ ـ عباد بن قيس، ٣ـ سراقة بن عمرو بن عقبة، ٤ ـ أبو كليب بن عمرو، ٥ ـ جابر بن عمرو

٥٩. ابن سعد ٢/١٣٠.
٦٠. امتاع الاسماع ص ٣٤٩.
٦١. الواقدي ٢/٧٦٩.
٦٢. السيرة ٢/٣٨٨.

ابن زيد، ٦ ــ عمرو بن سعد، ٧ ــ عامر بن سعد، ٨ ــ الحارث بن النعمان بن أساف، والثلاثة الأول من الخزرج، والخمسة الباقية من الأوس.

فهل يعقل أن يتناسب عدد القتلى مع معركة رهيبة دامت سبعة أيام، ونحن هنا أمام جملة احتمالات: أولها أن تكون أعداد المشركين مبالغاً فيها، وكذلك أعداد المسلمين، وثانيهما أن عدم معرفة قتلى الرومان واغفال المصادر لها، أمر له ما يبرره، وهو عدم معرفة المسلمين بأشخاص القتلى، ولكن قتلى القبائل العربية المشركة لا يمكن تجاهلهم، أما قتلى المسلمين فينبغي أن يكون كبيراً جداً، والاحتمال الوارد هو أن المصادر اكتفت بذكر أعلام المهاجرين والأنصار وسكتت عن قتلى القبائل العربية المسلمة، لأنهم من الأعراب الحديثي عهد بالاسلام، ولم يستقص المؤرخون أسماءهم ولا أعدادهم.

وقد سبق لابن كثير(٦٣) أن وقف متعجباً من هول المعركة وقلة عدد القتلى من الفريقين، فقال معلقاً بعد أن ذكر أسماء القتلى الاثنى عشر: «وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين الا اثنا عشر رجلاً، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقت في يدي يومئذ تسعة أسياف وما صبرت في يدي الا صفحة يمانية، فماذا ترى قد قتل خالد بهذه الأسياف كلها، دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن»، ويعلل ابن كثير ذلك بقوله: «وهذا مما يدخل في قوله تعالى (قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا فِئةٌ تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرةٌ يرونَهُمْ مثْليهمْ رأيَ العينِ واللهُ يُؤيِّدُ بنصره من يشاءُ إنّ في ذلك لَعِبرةً لأُولي الأبصار)(٦٤).

واذا استأنسنا بالفئتين المؤمنة والمشركة يوم بدر نجد عدد المسلمين كان (٣١٤) ثلاث مائة وأربعة عشر مقاتلاً منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين ومائة وسبعون من

---

٦٤. سورة آل عمران آية ١٣، البداية والنهاية ٤/٢٥٩.

٦٣. البداية والنهاية ٤/٢٢٩.

الأنصار، وقد قتل منهم أربعة عشر شهيداً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار(٦٥)، أما المشركون فقد بلغ قتلاهم سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً(٦٦)، وهي نسبة صحيحة معقولة، إذ حرص المؤرخون على تسجيل جرائد بأسمائهم، أما في أحد فقد كان شهداء المسلمين سبعين، أما قتلى المشركين فكانوا اثنين وعشرين رجلاً(٦٧) وبمقارنة هذه الأعداد من القتلى نسبة لعدد من شهد المعارك تتضح المبالغة في أعداد من شهد وقعة مؤتة من الجانبين، نسبة لقلة من قتل من الجانبين أيضاً.

وبعد فما أثر مؤتة وما نتائجها، مهما كانت وجهات النظر في أمر هذه الغزوة من أنها محنة نزلت بالمسلمين، أو أنها مفاجأة لقيها الجيش الاسلامي من كثرة ما حشد لهم العدو، وسواء أكان المسلمون قد انتصروا، أم أنهم قد انكشفوا، فانه كان لهذه الغزوة نتائج محمودة منها:

١. أنها أعطت الروم درساً لم ينسوه، فبعد أن كانوا ينظرون الى المسلمين على أنهم قبائل غازية غايتها السلب والنهب، فانهم صاروا يحسبون للمسلمين حساباً، فعلى الرغم من قلة عدد المسلمين فقد استطاعوا أن يقاتلوا جيشاً كبيراً منظماً و يوقعوا به خسائر جسيمة، ولم يستطع جيش الروم القضاء على هذا الجيش الذي وطأ أرضهم وأذل كبرياءهم.

٢. أن المسلمين بعد هذه المعركة صاروا يتطلعون لفتح الشام، وأن هذه المعركة كانت بداية المسيرة لفتح الشام، ففي السنة التالية، وهي السنة التاسعة من الهجرة قاد النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه جيشاً من المسلمين وتوجه الى تبوك ووطأ أرض الشام وأوقع الرعب في قلب العدو ثم عاد الى المدينة، وفي السنة الحادية عشرة جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيش أسامة بن زيد وهيأه للتوجه الى الشام ومحاربة الروم، الا أن وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجأت تحرك الجيش، فأتم أبو بكر تسيير جيش أسامة، وهكذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم لخلفائه خطة واضحة المعالم لفتح الشام(٦٨).

---

٦٥. السيرة ١/٧٠٦ — ٧٠٨

٦٦. السيرة ١/٧١٤.

٦٧. السيرة ٢/١٢٩.

٦٨. قادة فتح الشام ومصر ص ٢٦ — ٢٧.

٣. أما القبائل العربية الموالية للروم، فقد نظرت الى جيش المسلمين نظرة اعجاب، وكان من نتيجة ذلك أن بدأ الاسلام يتسرب الى هذه القبائل، وكان أحد زعمائهم وقادتهم وهو فروة بن عمرو الجذامي قد أعلن اسلامه، فقبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة، وحاول هرقل أن يرده الى النصرانية فلم يفلح، فأقدم على قتله، وكان من ذلك أيضاً أن الاسلام ازداد انتشاراً بين القبائل النجدية المتاخمة للعراق والشام(٦٩)، ودخل في الإسلام في هذه الفترة أعداد كبيرة من بني سليم وعلى رأسهم العباس بن مرداس، ومن أشجع وغطفان الذين كانوا حلفاء اليهود حتى نكب اليهود في خيبر، وكذلك دخلت أفواج من عبس وذبيان وفزارة، وكانت معركة مؤتة سبباً في استتباب الأمر للمسلمين في شمالي المدينة، وفي ازدياد الاسلام عزة ومنعة(٧٠).

---

٦٩. حياة محمد ص ٤١١ ــ ٤١٢.

٧٠. حياة محمد ص ٤١٢.

معركة اليرموك : دراسة تأريخية نقدية

جاسر أبو صفية
كلية الآداب ـ الجامعة الأردنية

تعد معركة اليرموك من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام؛ لما ترتّب عليها من سقوط الشّام في أيدي المسلمين، وبدء انهيار امبراطورية الرّوم.

ولما كانت دراسة المعركة عسكرياً تحوجُ إلى معرفةٍ دقيقة بطبيعة الأرض التي جرت عليها، وهو أمر غير مُتيسّر للباحثين اليوم، رأيت ألاّ أعرض لليرموك من وجهة النّظر العسكرية، وآثرت أن أسلك سبيلاً آخر في دراستها، هو دراسة الرّوايات التي أرّخت للمعركة دراسة نقدية، لبيان أثر الاختلاف في التأريخ على بعض الأحداث، وما رافق ذلك من رسائل وخطب؛ لما يترتّب على هذا الاختلاف من إعادة النّظر في هذه الرسائل والخطب، وإسقاط جزء منها. ومما حفزني على سلوك هذا السبيل أنّ الدّراسات الحديثة عن اليرموك لم تَعرض لهذا الجانب من المعركة؛ وهذا ما جعلني أُحسّ بأنني أسير في طريق وعرة، تبعاً لتناقض الروايات وتعدّدها وإغفال بعض المؤرخين تأريخ الأحداث؛ مما يجعل ترجيح رواية على أخرى أمراً ليس سهلاً. فإن أصبتُ فبتوفيق من الله، وإن عثرت فأرجو أن تُقال عثرتي، ولعلّ الله يُهيّيء لهذا الطريقَ مَنْ يمهّده.

ويرتبط باليرموك حدث تناقله الرّواة قديماً وحديثاً وخَلّطوا فيه تخليطاً كثيراً وهو عزلُ خالد عن قيادة الجيوش الإسلامية، وسأعرض لهذا الحَدَث بما يمسّ الموضوع دون الدّخول في تفصيلات غير لازمة.

وأما الرّوايات التي سَتُعْتَمد في هذه الدّراسة فهي :

أ) رواية سيف بن عمر من خلال تاريخ «الرّسل والملوك» لمحمّد بن جرير الطبري.
ب) رواية ابن إسحق من خلال تاريخ الطبري وتاريخ ابن عساكر.
جـ) رواية الأزدي في كتابه «فتوح الشّام».
د) روايات الشّاميين من خلال تاريخ ابن عساكر.

ورأيت أن أُعْرِضَ عن رواية الواقدي المذكورة في كتاب «فتوح الشام» لعدم ثُبوت نسبة الكتاب إلى الواقدي، وأبتعاد رواياته عن النّهج التأريخي، وأهتمامها بالحكايات والأساطير. وسأكتفي بالإشارة إلى رواية الواقدي من خلال تاريخ الطبري وأبن عساكر إذا أقتضى الأمر ذلك.

أولاً: تأريخ المعركة

ينقسم الرّواة في تأريخ معركة اليرموك إلى فريقين: فريق يقول إنّها حدثت سنة ١٣ هـ في عهد أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه. ويمثل هذا الفريق الطبري أعتماداً على رواية سيف بن عمر(١). وفريق يذهب إلى أنّها حدثت سنة ١٥ هـ في عهد عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، ويمثّله جمهور المؤرخين مثل أبن إسحق والواقدي وخليفة بن خياط والبلاذري وأبن عساكر(٢). روى أبن عساكر عن يزيد بن عبيدة قال: «كانت واقعة اليرموك سنة خمس عشرة. قاله أبو زرعة. وقالوا: كانت في رجب، وقاله اللّيث بن سعد وزاد: والخليفة يومئذ عمرُبن الخطاب . ثمّ علّق أبن عساكر قائلاً: وهذه الأقوال هي المحفوظة في تأريخ اليرموك. وقد ذكر سيف أنّها كانت سنة ١٣ هـ قبل فتح دمشق، ولم يتابعه أحد على ما قاله»(٣).

وفيما يلي محاولة لدراسة روايات الفريقين لمعرفة التاريخ الصحيح الذي حدثت فيه المعركة.

رواية سيف بن عمر:

ذكر سيف أنّ أبا بكر الصدّيق كتب إلى خالد وهو في العراق: «أن سِرْ حتى تأتي جموعَ المسلمين باليرموك، فإنّهم قد شَجُوا وأَشْجَوْا. وإيّاك أن تعودَ لمثل ما فعلت، فإنّه لم يُشْجِ الجموعَ من الناس بعونِ الله شَجَاك، ولمّ ينزِع الشَّجى من النّاس نزعُك. فَلْيَهْنِئْكَ أبا سليمان النيّة والحظوة. فأَتْمِمْ يُتْمِمِ الله لك. ولا يَدْخُلَنّك عُجْبٌ فتخسرَ وتُخذَل. وإيّاك أن تُدِلَّ بعمل، فإنّ الله عز وجلّ له المنّ، وهو وليّ الجزاء»(٤).

---

١. طبري ٣/١٣٩٤، ٤٤١

٢. أبن عساكر ١/ ١٦٠؛ البلاذري، فتوح البلدان ص١٨٦؛ تاريخ خليفة بن خياط ١/١١٨.

٣. ابن عساكر ١/ ١٦٠؛ طبري ٣/٤٤١

٤. طبري ٣/٤٠٧

١. هل يتفق تحديدُ المكان الذي سيصل إليه خالد، وهو اليرموك، مع تأريخ إرسال الجيوش إلى الشّام وقدوم خالد من العراق؟. يذكر سيف أنّ أبا بكر جَهّز الجيوش إلى الشّام في بداية سنة ١٣هـ، وأنّ أول لواء عقده هو لواء خالد بن سعيد بن العاصي(٥) الذي ظلّ يقاتل الرّوم حتى جاءته الإمدادات(٦). ويُحدّثنا سيف أيضاً أنّ الجيوش الإسلامية توغّلت حتى دمشق وحمص(٧)، إلى أن قرّر هرقل تسيير الجيوش لهم فاتّعدوا اليرموك(٨). وأكد سيف التقاء جُيوش المسلمين في اليرموك بكتاب من أبي بكر الصدّيق يقول فيه: «آجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً، وآلقَوْا زحوفَ المشركين بزحف المسلمين... وآجتمعوا باليرموك مُتساندين»(٩). ثمّ نراه بعد ذلك يقول: «ولما نزل المسلمون اليرموك، وآستمدوا أبا بكر قال: خالدٌ لها. فبعث إليه وهو بالعراق وعزم عليه وآستحثّه في السّير، فنفذ خالد لذلك(١٠).

ويُفهمَ من خلال هذه الأخبار أنّ الجيوش الإسلامية توغلت في الشّام حتى وصلت إلى حمص، وحدثت عدة وقائع بين المسلمين والرّوم إلى أن جمع هرقل جموعاً كثيرة ليفاجىء كلّ قائد من قواد المسلمين على حِدَة، فتنبّه المسلمون لخطة هرقل وقرّروا الانسحاب إلى اليرموك. فهل تتمّ كلّ هذه الأحداث في غضون أشهر قليلة لا تزيد على أربعة أشهر؟

ثمّ نجد بعد ذلك رواية أخرى من روايات سيف تذكر أن الجيوش الإسلاميّة لمّا شارفت الشّام دهم كلّ أميرٍ منهم قومٌ كثير، فأجمعوا رأيَهُم أنْ يَجتمعوا بمكان واحد، وأن يلْقَوا جَمْع المشركين بجمع المسلمين(١١). وتفيد هذه الرّواية أنّ المسلمين لم يتوغّلوا في الشّام، وقرّروا البقاء في اليرموك ريثما يأتيهم أمر الخليفة الذي كتب إلى خالد يأمره

٥. المصدر نفسه ٣/٣٨٧
٦. نفسه ٣/٣٨٩
٧. نفسه ٣/٣٩٢
٨. نفسه ٣/٣٩٢
٩. نفسه ٣/٣٩٢ـ ٣٩٣
١٠. نفسه ٣/٣٩٣
١١. نفسه ٣/٣٩٤

بالسير إلى جموع المسلمين في اليرموك، فوصلهم في شهر ربيع الآخر سنة ١٣ هـ(١٢)، أي بعد تشكيل الجيوش بحوالي أربعة أشهر؛ لأننا نجد في إحدى روايات سيف أنّ المسلمين أقاموا إزاء الرّوم وعلى طريقهم، ومَخْرجُهم صَفَر من سنة ثلاث عشرة وشَهْرَي ربيع، لا يقدرون من الرّوم على شيء ولا يَخْلَصون إليهم(١٣). ويذكر سيف في رواية أخرى أنّ القتال بدأ وتتابعت هزيمة الرّوم بمجرّد قدوم خالد(١٤)، أي منذ شهر ربيع الآخر. وبمتابعة هذه الرّواية نجد أنّ أبا بكر الصدّيق توفي قبل فتح اليرموك بعشرة أيام أي للنّصف من جمادى الآخرة حسب رواية سيف(١٥). ويُفهَمَ من هذا أن المعركة آستمرت شهرين كاملين، وهو أمر لا تؤيّده الوقائع التاريخية العسكريّة، ولا سيّما أن سيف بن عمر نفسه يذكر أنّ المعركة كانت في جمادى الآخرة(١٦). ومن جهة أخرى لا يُعقل أن تظلّ الجيوش الإسلامية عاطلة عن الحركة طوال هذه المدّة؛ لأنّ هذا السّكون يتنافى مع طبيعة الجهاد الإسلامي الذي تميّز بسرعة التحرّك.

ونخلص إلى القول بأنّ تحديد المكان لخالد في رسالة أبي بكر لا يتّفق وتحرّكَ الجيش الإسلامي في الشّام ولا مع وجوده في اليرموك سنة ١٣ هـ.

٢. قول أبي بكر في الرّسالة: «فإنّهم قد شَجُوا وأَشْجَوْا» يُشعرُ بأنّ الجيش الإسلامي آشتبك مع الرّوم في معارك ضارية، وهو ما يتناقض مع رواية سيف التي تقول بأنّ جيوش الرّوم داهمت جيوش المسلمين لمّا شارفت الشّام مما آضطرهم إلى المرابطة في اليرموك مدّة ثلاثة أشهر في آنتظار قدوم خالد بنجدة قليلة لا تزيد على ٨٠٠ شخص كما ذكر الطبري في إحدى رواياته(١٧).

٣. قوله: «وإيّاك أن تعودَ لمثل ما فَعَلْتَ» عبارة لا يترشّح منها معنى إذا قُرِنَت بعيداً عن الرّواية التي تزعم أن خالداً ترك الجهاد في العراق، وتوجه إلى مكة لأداء فريضة الحجّ

١٢. نفسه ٣/٤٠٦
١٣. نفسه ٣/٣٩٣
١٤. نفسه ٣/٣٩٤
١٥. نفسه ٣/٣٩٤
١٦. نفسه ٣/٣٩٥
١٧. نفسه ٣/٤٠٦

دون إذن من أبي بكر، وهو أمر يتوقّف المرءُ في قبوله. ولمّا علم أبو بكر بذلك أنذر خالداً ألاّ يعود لمثلها، وعاقبه بإرساله إلى الشّام(١٨).

٤. ومن العبارات التي لا يترشّح منها معنى أيضاً، ولا تمّت إلى طبيعة مهمّة خالد بصِلَة، بل هي أشبه بعبارات الصّوفية، قوله: «فَلْيهنئك أبا سليمان النيّة والحظوة» و«فأتْمِمْ يُتْمِمِ الله لكَ» و«ولا يدخُلنّك عُجْبٌ فتخسر وتخذل...».

ويُطلعنا الطبري على رواية أخرى من روايات سيف تتضمّن جزءاً من رسالة أبي بكر إلى خالد يأمره فيها أن يستخلف المثنى بن حارثة على العراق في نصف النّاس، فإذا فَتَحَ الله على المسلمين الشام، فارجع إلى عملك بالعراق [هكذا](١٩). وفي رواية أخرى قال: «فوجّه أبو بكر خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشّام، ضَمّهم إليه»(٢٠)، وهي رواية تناقض ما جاء في الخطبة المنسوبة إلى خالد بعد أن قدم الشّام ورأى المسلمين يقاتلون متفرّقين فقال لهم: إنّ أبا بكر لم يبعثنا إلاّ وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون لقد جمعكم... فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضُنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمّر كلكم، ودعوني إليكم اليوم»(٢١).

هذا مجمل رواية سيف بن عمر عن اليرموك، فلو قبلنا روايته على أنها صحيحة، وأنّ المعركة حدثت سنة ١٣ هـ، نكون قد وضعنا أنفسنا في مأزق تأريخيّ يصعب الخروج منه؛ لأنّ رواية سيف التي اعتمدها الطبري هي التي اشتُهرت عندنا تبعاً لشيوع تاريخ الطبري. وبالتّالي فسنُضطر لإسقاط كلّ الخُطب والرّسائل التي ورد فيها اسم عمر بن الخطّاب أو لقبه «أمير المؤمنين». وهذا يعني إهمال جزء كبير من التراث الأدبي، وهو أمر لا يُستهان به.

وفي المقابل إذا أخذنا برواية جمهور المؤرخين التي تقول إنّ المعركة حدثت سنة ١٥ هـ، فإنّنا سنُضطر لإسقاط الرّسالة السّابقة وخطبة خالد التي ورد فيها اسم أبي بكر

---

١٨. نفسه ٣/٣٨٤

١٩. نفسه ٣/٤٠٨

٢٠. نفسه ٣/٤٠٦

٢١. نفسه ٣/٣٩٥ـ ٣٩٦

الصديق. فكيف الخلاص من هذا المأزق؟ ومتى حدثت معركة اليرموك على وجه التحديد؟

رواية جمهور المؤرّخين :

فيما يلي محاولة لتتبّع حركة الجيوش الإسلامية في الشّام من خلال رواية جمهور المؤرّخين لمعرفة التاريخ الذي تجمّعَتْ فيه هذه الجيوش في اليرموك لملاقاة جموع الرّوم.

روى الأزدي كتابَ أبي بكر إلى خالد بن الوليد على الوجه التالي : «أمّا بعد، فإذا جاءك كتابي هذا فَدَعِ العراق، وخَلّف فيه أهله الذين قدمتَ عليهم وهم فيه. وآمض مُتخَفّياً في أهل القُوّة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشّام، فتلقى أبا عبيدةَ بن الجراح ومَنْ معه من المسلمين. فإذا ٱلتقيتم فأنتَ أميرُ الجماعة، والسّلام عليك» (٢٢).

وعلى الرّغم من تحفّظي في قَبول هذه الرّسالة، فهي تختلف ٱختلافاً بيناً عن الرّسالة التي رواها سيف؛ إذ نجد هنا أوامرَ مُحَدّدة لخالد تُبيّن نوعية الجنود الذين سَيَصْحبون خالداً، وفيها تأميرُ خالدٍ على الجيوش الإسلامية في الشّام، ولم تُحَدّدِ المكان؛ لأن الجيوش لا تستقرّ في مكان واحد مدّة طويلة.

وبمتابعة رواية الأزدي نعرف أنّ خالداً ٱلتقى بجيوش المسلمين في بُصرى حيث صولح أهلها على الجزية (٢٣). وبعد الانتهاء من بُصرى ٱجتمع أبو عبيدة وخالد في الغُوطة (٢٤). وهناك جاءتهم الأخبار بتجمع الرّوم في أجنادين من أرض فلسطين، فاتّفق خالد وأبو عبيدة على ٱستدعاء شُرَحْبيل وعمروَ بنَ العاص لموافاتهم في أجنادين للتّصدي لجموع الرّوم (٢٥). وحدثت وقعة أجنادين، التي عدّها الأزدي أوّل وقعة عظيمة كانت بالشّام، سنة ١٣هـ في جمادى الأولى لِلَيْلَتَيْن بقيتا منه، وصادف ذلك نصف النّهار من يوم السّبت قبل وفاة أبي بكر بأربع وعشرين ليلة (٢٦).

٢٢. الأزدي، فتوح الشّام ص٦٨؛ ٱبن عساكر ١/١٣٩

٢٣. فتوح الشام ص ٨١

٢٤. نفسه ص ٨٤

٢٥. نفسه ص ٨٤

٢٦. نفسه ص ٩٣، ٱبن عساكر ١/١٤٤ ـــ ١٤٥

وبعد أجنادين كانت وقعة فِحْل من أرض الأردن في شهر ذي القَعْدة من سنة ١٣ هـ، كما ذكر ابن عساكر من رواية ابن شهاب الزهري(٢٧). ثم كانت وقعتا دمشق وحمص في سنة ١٤ هـ(٢٨).

ولـمّا أن تمّ للمسلمين فتح أجنادين وفِحْل ودمشق وحِمْص، اغتاظ الرّوم لذلك، فسار هرقل إلى أنطاكيا، وبدأ أكبر عملية لتجميع الجيوش للانتقام من المسلمين. ونزّلَ معه أنطاكية قبائل عربية متنصّرة من لخم وجذام وبلّي وعاملة وغسّان، وجمع كبير من أرمينية حتى وصل العدد إلى أزيدَ من مئتي ألف مقاتل(٢٩).

وما أن علم المسلمون بذلك حتى قرّروا التراجع إلى الجنوب وإخلاء المدن التي فتحوها، وكانت نقطة التجمّع دمشق(٣٠)، ثم اتّفقوا على نزول اليرموك حيث تمّ اللّقاء الفاصل بين الرّوم والمسلمين في شهر رجب من سنة ١٥ للهجرة(٣١).

ويتضح لنا من خلال هذه الرّوايات أنّ الجيش الإسلامي كان يسير وَفْقَ حركةٍ منتظمة تتفق وواقع الأحداث التّاريخية؛ فكانت في البداية أجنادين وفِحْل سنة ١٣ هـ، ثم دمشق وحمص سنة ١٤ هـ ثم تجيء اليرموك سنة ١٥ هـ لتكون معركة فاصلة في محاولة يائسة من الرّوم للدّفاع عن الشّام واسترداد ما فتحه المسلمون؛ ولهذا حشدوا لها كلّ إمكاناتهم العسكرية والبشرية. ولا يتأتّى لهم ذلك إذا رجّحنا رواية سيف من أنها كانت سنة ١٣ هـ؛ لأن المعركة لن تكون فاصلة، ولن يفكّر الرّوم بحشد كلّ قواتِهم لمواجهة الجيش الإسلامي قبل أن يُحِسّوا بخطره الذي لا يتّضح إلاّ بعد عدة معارك بين الطّرفين، وهو ما حدث بالفعل. ومما يجعلنا نميل إلى تبنّي هذه الفكرة أنّ في روايات سيف ما يشير إلى توغل الجيش الإسلامي حتى حمص، كما أشرت سابقاً.

وخَلاصُ القول في هذه القضيّة أن الباحث يجدُ نفسه أميل إلى قبول رواية جمهور المؤرخين حول تأريخ المعركة، وأنّها حدثت سنة ١٥ هـ في شهر رجب. ويترتب على هذا

٢٧. ابن عساكر ١٤٥/١
٢٨. المصدر السابق ١٥٣/١
٢٩. نفسه ١٦١/١
٣٠. نفسه ١٦١/١
٣١. أنظر المصادر في الحاشية رقم ٢

الترجيح إسقاط ما رافق رواية سيف من رسائل أو خطب أو شخصيات لا علاقة لها باليرموك كأبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه.

ثانياً: حكاية عزل خالـد

أورد الطبري حكاية عزل خالد بن الوليد من رواية سيف في أثناء حديثه عن اليرموك(٣٢) وأوردها عن ابن إسحق في أثناء حديثه عن فتح دمشق(٣٣). وذكرها ابن عساكر من عِدّة طرق، مُسنَدة وغير مسندة، وفي الطرق التي رواها مُسْنَدة رواة ضِعاف ومجاهيل ومَنْ لا يُعْتَدُّ بهم. وأشهر رواته سيفُ بنُ عمر وابنُ إسحق. وقد أجمع هؤلاء الرُّواة، باستثناء سيف، على أنّ العَزْل تمّ في أثناء حصار دمشق، أي سنة ١٤ هـ(٣٤). أما الأزدي فقد روى حكاية العزل غيرَ مسندة على غير عادته في رواية الأحداث(٣٥).

ومسألة عزل قائد أو والٍ كان أمراً طبيعياً في تلك الفترة ورَهْناً بمصلحةِ الأمّة. فلماذا أصبحت حكاية عزل خالد أسطورةً يتناقلها الرّواة والخطباء كلما تحدّثوا عن اليرموك؟ هل عيَّن أبو بكر خالداً قائداً عامّاً على جيوش المسلمين في الشّام، ثمّ لمّا جاء عمرُ عَزَلَه؟ هل لدينا نصٌّ ثابت النّسبة لعمرَ بنِ الخطّاب يدلّ على هذا العزل؟

من يتتبّع سيرَ أحداثِ المعارك في أجنادين وفِحْل ودمشق وحمص واليرموك، لا يحسّ بوجود قائدٍ واحدٍ ينفردُ برأيه دون الآخرين، بل يحسّ بوجود مجموعةٍ من القادة يُخطّطون مُجْتمعين لهدفٍ واحد هو نشر الإسلام في الشّام؛ لأنّ طبيعة التكوين الجغرافي للشام تقتضي هذا التعدّد في القيادات العسكرية، وإلاّ فلا حاجة لأن يُكوِّن أبو بكر عِدّة جيوش. وأما القائد العام ــ كما حاولت الرّوايات أن تُظهره ــ فكانت مُهمّتُه إدارية، لتنظيم حركة الجيوش، ومراسلة الخليفة بالإضافة إلى قيادته لمجموعة من الجيش. وفي خضمّ المعارك التي دارت في الشّام بين المسلمين والرّوم يُحِسّ الباحث بوجود شخصيّة

٣٢. الطبري ٣/٣٩٨
٣٣. المصدر نفسه ٣/٤٣٥
٣٤. ابن عساكر ١/١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩
٣٥. فتوح الشام ص٦٨.

خالد قائداً وجُندياً في آن واحد، فعبقريته العسكرية لا يُمكن الاستغناء عنها لسبب تافه كما صوّرته الرّوايات. وليس بين أيدينا نصّ رسميٌّ واحد يُثبت عزلَ خالدٍ وتوليةَ أبي عبيدة إلاّ ما جاء في الرّسالة التي رواها الأزدي وزعم أنّ عمرَ بن الخطاب كتبها إلى أبي عبيدة يقول فيها: —

«بسم الله الرحمن الرّحيم. من عبد الله عمرَ بن الخَطّاب، أمير المؤمنين، إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح. سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلاّ هو وأصلي على نبيّه محمد، صلى الله عليه وسلم، وبعد، فقد وَلّيتُك أمورَ المسلمين... وأمّا آختصامُك أنت وخالد في الصّلح أوالقتال فأنتَ الوَليّ وصاحبُ الأمر...»(٣٦).

ومما يلفت النّظر في هذه الرّسالة ثلاثة أشياء:

أ) قوله: «فإني أحمدُ اللهَ الذي لا إله إلاّ هو». وهي صيغة لا يُكتَبُ بها إلى المسلمين، بل إلى غير المسلمين؛ إذ كان يكتب إلى المسلمين: «فإنّي أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلاّ هو»(٣٧).

ب) قوله: «وأصلّي على نَبيّه محمد، صلّى الله عليه وسلم»، وهي صيغة لم تكن مستعملة في رسائل العهد النّبوي ولا الراشدي ولا الأموي، ولا في الصّدر الأول من العصر العبّاسي. وأوّل من أدخلها في المكاتبات هرون الرشيد حتى عدّها الصّولي أفضل مناقب الرّشيد(٣٨).

جـ) حكاية آختصام أبي عبيدة وخالد في الصّلح أو القتال لم ترد في أيّ رسالة من الرّسائل المتبادلة بين أبي عبيدة وعمر بن الخطاب. وبالتالي كان الخلاف بينهما في هذه المسألة بعد فتح دمشق؛ لأنّها فتحت من جهة خالد عُنوة، ومن جهة أبي عبيدة صُلحاً، ثم أجمع رأيُهم على أنْ جعَلوها صُلْحاً(٣٩). فكيف علِمَ عمرُ بهذا الخلاف، الذي لم يَدُم، والرّسالة وصلت قبل فتح دمشق؟.

---

٣٦. المصدر نفسه ص ١٠٢ — ١٠٣

٣٧. انظر: Grohmann, Arabic Papyri, vol. III, pp. 3-32

٣٨. الصّولي، أدب الكُتّاب ص ٤٠

٣٩. آبن عساكر ١/١٤٨ — ١٤٩

وبهذا لا نستطيع ٱعتماد الأزدي في حكاية العزل. أما سيف بن عمر فقد روى لنا روايتين، تذكر إحداهما أنّ العزل تمّ بعد اليرموك، وذلك قوله : «لما جاء عمرَ الخبرُ بفتح اليرموك. أقرّ الأمراءَ على ما كان ٱستعملهم عليه أبو بكر إلاّ ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، فإنّه ضمّ خالداً إلى أبي عبيدة...»(٤٠). وتذكر الرواية الأخرى أنّ البريد جاء بتأمير أبي عبيدة وعزل خالد في أثناء القتال في اليرموك. فكتم خالد الخبر حتى ٱنتهت المعركة. ثم وقف موقفاً مسرحياً وقال : «الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت، وكان أحبَّ إليّ من عمر. والحمد لله الذي ولّى عمرَ وكان أبغضَ إليّ من أبي بكر ثمّ ألزمني حُبَّه.»(٤١).

وهذا التناقض ليس غريباً على سيف بن عمر؛ فقد رأيناه عنده في أثناء الحديث عن تأريخ اليرموك. ويبدو أنّ الأمر يتجاوز حدَّ التناقض إلى الطعن في الصّحابة؛ إذ لا يخفى على الباحث المُحَقّق ومن له ٱطّلاع على العربية وأساليبها أنّ العبارة التي نسبها سيف لخالد بن الوليد تتضمّن الطعن على أبي بكر وعمر وخالد، وذلك قوله : «وكان أبغضَ إليّ من أبي بكر»، فاستعمال أفعل التفضيل «أبغض» يفيد أنّ خالداً كان يبغض أبا بكر، ولكنّ بغضه لعمر كان أكثر. وهذا الأسلوب الخفيّ في الطعن، الذي يحمل عبارات متناقضة المعنى وغامضة أحياناً، ٱستعمله أعداء الإسلام من الرُّواة لإظهار شخصيات الصّحابة بمظهر الأعداء الذين لم يستطع الإسلام أن يُؤلّف بين قلوبهم أو أن يُؤدّبهم بأدبه.

ويَبْرُز هذا الأسلوب بشكل أوضح، وأكثر جرأة على الصّحابة في رواية ٱبن اسحق لحكاية العزل وسببه. يقول ٱبن اسحق : إنّما نَزَع عمرُ خالداً في كلام كان خالد تكلّم به فيما يزعمون. ولم يزل عمر عليه ساخطاً، ولأمره كارهاً في زمان أبي بكر كلّه لوقعته بابن نويرة وما كان يعمل به في حربه. فلما ٱستُخْلِفَ عمرُ كان أوّل ما تكلّم به عزلُه فقال : لا يَلي لي عملا أبداً. فكتب إلى أبي عبيدة : إنْ خالدٌ أكذَبَ نفسه فهو أميرٌ على ما هو عليه. وإنْ هو لم يُكْذب نفسَه فأنتَ الأمير على ما هو عليه. ثمّ ٱنزع عمامته عن رأسه وقاسِمْهُ مالَه قِسمَيْن. فلما ذكر أبو عبيدة ذلك لخالد قال : أَنْظِرْني أستشر

٤٠. طبري ٣/٤٣٦؛ ٱبن عساكر ١/١٥٣ ــ ١٥٤

أختي في أمري. ففعل أبو عبيدة. فدخل خالد على أخته فاطمة بنت الوليد ــ وكانت عند الحارث بن هشام ــ فذكر لها ذلك. فقالت: والله لا يُحِبّك عمر أبداً ولا يريد إلاّ أن تُكْذِبَ نفسَك ثمّ ينزعك. فقبّل رأسها وقال: صدقت والله. فتمّ على أمره وأبى أن يُكْذِب نفسه. فقام بلال، مولى أبي بكر، إلى أبي عبيدة فقال: ما أُمِرْتَ به في خالد؟ قال: أمرتُ أن أنْزِعَ عمامته وأقاسمه ماله. فقاسمه ماله حتى بقيت نعلاه. فقال أبو عبيدة: إنّ هذا لا يصلح إلاّ بهذا. فقال خالد: أجل، ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين، فاصنع ما بدا لك، فأخذ نعلاً وأعطاه نعلاً. تم قدم خالد على عمر المدينة حين عزله. (٤٢).

والملاحظات التالية تكشف حقيقة هذه الرّواية: ــ

١. ذَكَر أنّ سبب العزل كلامٌ قاله خالد في حقّ عمر. ثمّ عاد فقال بأنّ عمر سخط على خالد وكرهه لأنّه قتل مالك بن نويرة المرتدّ. وكنّا نتمنّى أن نعرف هذا الكلام الذي تكلّم به خالد في حق عمر لنحكم من خلاله إن كان يستحق كلّ هذا العداء أم لا. أمّا فيما يتعلق بسَخَط عمر على خالد لقتله مالكَ بنَ نويرة فلا أدري كيف يسخط عمر على مسلم يقتل مرتداً؟. ولو سلّمنا جَدَلاً أنّ خالداً ارتكب خطأ ما بقتل مالك، فهل يستحق من عمر كلّ هذا الكره؟ وهل هذه أخلاق شخصيات قيادية حملت الإسلام الى العالم؟

٢. تتضمّن الرّسالة المزعومة التي كتبها عمر إلى أبي عبيدة أشياء لا تصدر عن رجل عاديّ فكيف بأمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب؟ فماذا يقصد بقوله: «إنْ خالدٌ أكْذَبَ نفسه؟ وفي أيّ شيء يُكْذِبُ نفسه؟ عبارة غامضة ليس لها معنى. ومِنْ ثمّ فهل مكافأة القائد الذي يُكْذِبُ نفسَه أن يظلّ أميراً على الجيش؟

أمّا إذا رفض خالد أن يُكْذِبَ نفسَه فعقوبته العزل، وأن تُنْزع عمامته من باب التّعزير ويُصادر نصفُ أمواله. أيُفْعلُ به كلُّ هذا لأنّه رفض أن يشهد على نفسه بالكذب؟ أمر يبعث على العجب. ومما يزيد في هذا العجب أنّ إجراء المقاسمة كان

٤١. طبري ٣/٤٠٢

٤٢. طبري ٣/٤٣٦

يتّبعه الخلفاءُ لمحاسبة العمّال والولاة الذين يجمعون ثروة تزيد على مجموع رواتبهم طوال مدة ولا يتهم[43]. ولم يكن خالد واحداً من هؤلاء الولاة ليخضع لمثل هذا الإجراء. وموطن السخرية في هذا المقاسمة أن يُقَاسَم خالدٌ نعلَه.

٣. قول أخت خالد له : «والله لا يُحبّك عمر أبداً، ولا يريد إلاّ أن تُكذِبَ نفسك ثمّ ينزعك» يُظهر عمر بن الخطاب بمظهر الإنسان المخادع الذي لا يُؤمَنُ جانبُه، فهو يريد أن يتحايل على خالد ليعزله، وهو يعلم أنّ خالداً لن يُكذِبَ نفسَه. وهي إشارة لا يخفى هدفها ومصدرها.

٤. آستشارة خالد لأخته في إكذاب نفسه أو عدم إكذابها لا تؤهله لأن يكون قائد جيش؛ لأنّ القائد الذي لا يستطيع أن يقرّر بنفسه فيما إذا كان كاذباً أو صادقاً لا يستطيع أن يتّخذ قراراً حاسماً في المعركة، وحقيقة خالد عكس ذلك.

٥. ذكرت الرّواية أنّ خالداً قدم المدينة بعد العزل، وهذا ينفيه ورود آسم خالد في كلّ المعارك التي خاضها المسلمون في الشّام. وقبره ما زال شاهداً على ذلك في حمص. قال آبن كثير عن خالد: «ثم عزله وولّى أبا عبيدة وأبقاه مستشاراً في الحرب، ولم يزل بالشام حتى مات على فراشه... وأوصى إلى عمر بن الخطّاب»[44].

ولم يكتف آبن إسحق بإظهار الصّحابة بمظهر الحاقدين المخادعين، بل جعلهم من الفحّاشين فهو يروي لنا أنّ عمرَ كان كلّما مرّ بخالد في المَدينة قال: «يا خالد، أخرج مالَ الله من تحت إستك»[45]. فأيّ كلام هذا الذي يُخاطِبُ به عمرُ بن الخطّاب صحابيّاً وصفه الرّسول، صلّى الله عليه وسلم، بأنّه سيف من سيوف الله ؟ ![46] كيف يصدر عنه مثلُ هذا الكلام وهو يعرف أنّ رسولَ الله، صلّى الله عليه وسلم، نهى عن الفُحْشِ والتّفحّش وبذاءةِ اللّسان ؟ ![47].

---

٤٣. أنظر حول إجراء المُقاسَمة : حسن إبراهيم حسن، النّظم الإسلامية ص ٢٨٧ — ٢٨٨.

٤٤. البداية والنهاية ٧/١١٤ — ١١٥؛ أسد الغابة ٢/١١١.

٤٥. طبري ٣/٤٣٧

٤٦. بخاري ٥/٣٤، ١٨٢؛ مسند أحمد ١/٨، ٢٠٤

٤٧. مسلم ١٤/١٤٧؛ مسند أحمد ٦/٢٢٩، صحيح الترمذي ٨/١٤٨ — ١٤٩؛ بخاري ٨/١٥ — ١٦.

وإذا سلّمنا جدلاً بأنّ حكاية عزل خالد صحيحة فلا بدّ أنْ يكون لدى عمر سببٌ مقنع ليفعل ذلك، كأن يكون خوفه على النّاس من الفتنة بانتصارات خالد فيظنّون أنه سبب النّصر. ومن عجب أن نجد سيف بن عمر يذكر ذلك في إحدى رواياته؛ إذ يقول إنّ عمر قال حين عزل خالداً عن الشام والمثنى بن حارثة عن العراق: «إنّما عزلتهما ليعلمَ النّاسُ أنّ الله نصرَ الدّين لا بنصرهما، وأنّ القوة لله جميعاً»(48).

ونخلص إلى القول إنّ حكاية عزل خالد لا تمتّ إلى معركة اليرموك بصِلَة، وأنّها كما رواها سيف وجمهور المؤرخين لا تجعل المرء يطمئن إلى صحتها والله أعلم.

48. البداية والنهاية ٧/١١٥.

أسرار النصر العربي في فتوح الشام : معركة اليرموك

عرفان شهيد
جامعة جورجتــاون

كـانـت فتوح الشام التي ابتدأت في زمن الرسول وانتهت في زمن الراشدين المرحلة الأولى الحاسـمـة في نـشوء الامبراطورية العربية الاسلامية لا سيما في نصفها الغربي ــ في البحر الأبيض المتوسط وحوضه. ومع ذلك فالغموض يكتنف العمليات الحربية الكبيرة التي قام بها العرب في بلاد الشام(١) وهذا الغموض يشمل أيضاً اليرموك ــ معركة الاسلام الكبرى في فتوح الشام التي لولاها لأصابت الفتوح نكسة كبيرة أودت بكثير من مكاسب الإسلام ومغانمه الحربية في الشام والعراق.

و يرافق هذا الغموض في المصادر كثير من البلبلة الفكرية عند المؤلفين في الغرب عن فتوح الشام لا سيما معركة اليرموك. فبينما من المسلّم به عند المؤرخين العرب والمسلمين الذين درسوا تواريخ الفتوح الصعبة أن اليرموك هي معركة الاسلام الكبرى في فتوح الشام وأن خالد بن الوليد، قائدها، هو جندي الاسلام الأول(٢)، نرى زملاءنا في هذا الميدان أو بعضهم لاهين عن هاتين الحقيقتين الكبيرتين فكاتبة المقال في الموسوعة الاسلامية الجديدة عن خالد غافلة عن معركة خالد الكبرى غفلة أنستها حتى ذكر اليرموك في ذلك المقال(٣).

١. خير الكتب وأحدثها في الفتوح الأولى هو كتاب ف. م. دونر، الموسوم **الفتوح الاسلامية الأولى** الذي نشرته جامعة برنستون على مطبعتها سنة ١٩٨١، وبه ثبت بالمراجع والمصادر والدراسات التي تختص بالفتوح فليراجع هناك.

٢. أنظر ما كتبه العسكريون من العرب والمسلمين أمثال محمود شيت خطاب في الجزء الأول من **قادة الفتح الإسلامي** (دار القلم، القاهرة) والجنرال أ. أكرم **سيف الله، خالد بن الوليد**، ترجمة صبحي الجابي (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩) ولكن العاطفة تتغلّب أحياناً على التحليل العلمي الموضوعي، والموازنة مع غيره في قافلة الفاتحين في السياق العالمي معدومة أو تكاد.

٣. انظر المقال عن «خالد بن الوليد» في **الموسوعة الإسلامية**، المجلد الرابع، (١٩٧٨) ص٩٢٨.

والذين كتبوا عن المعارك الفاصلة في تاريخ العالم هم أيضاً لاهون عن اليرموك وخالد، و يستبدلون بها و به بلاط الشهداء وعبد الرحمن الغافقي. وهي هزيمة للعرب والاسلام ولا تقاس عسكرياً ولا تاريخياً باليرموك(٤).

كل هذا دعاني الى اختيار اليرموك موضوع كلمتي في هذا المؤتمر للتدليل على أسرار النصر العربي الإسلامي في هذه المعركة الحاسمة. وهذا بدوره يقود الى أنصاف القائد الكبير، خالد، لا سيما وأن خريف حياته كان مأساة بعد عزله عن القيادة العامة. لقد أسهم هذا القرار العشوائي الذي أصدره عمر في زيادة البلبلة التي تحيط بفهم الناس لعبقرية خالد العسكرية. فقد منعه هذا القرار من العودة الى ميدانه الأصلي في العراق، الذي ندب منه الى الاسراع الى نجدة المسلمين في بلاد الشام. ولو تيسّر له الرجوع الى العراق لكان أيضاً قاهر الفرس في «القادسية»(٥) كما كان قاهر الروم في اليرموك، وكان قد بلى حربهم وأساليبهم في القتال بعد حروب الردّة وتمّت له الغلبة عليهم في كثير من المعارك. لا أشك في أنه لو رجع الى العراق لكانت «القادسية» هي ذروة عبقريته الحربية بعد خوضه معركة اليرموك ولأكمل حرب الفرس وحمل الراية العربية الاسلامية الى وسط آسيا في سلسلة طويلة من الغزوات اللامعة في حرب خاطفة فيكون بذلك قد سار في أعقاب الاسكندر الكبير وتميّز عنه في اطاحته بامبراطوريتين ــ الروم والفرس ــ بدل واحدة كما فعل الاسكندر.

هذا أمر ذو بال في تقويم انجاز العرب والاسلام، فمؤرخو فن الحرب لا يعرفون الكثير عن جندي العرب الأول، خالد بن الوليد، ولكنّهم يعرفون الكثير عن هنيبال ــ ذلك القائد الكبير الذي أنجبه الجنس السامي الذي أدهش العالم القديم بمواهبه الحربية والسبب هو أن مؤرخي الرومان قيّدوا انجازاته بالتفصيل ولم يكن خالد بعيداً عن ابن عمه

---

٤. انظر على سبيل المثال كتاب أ. س. كريسي الموسوم **المعارك الحاسمة : من مراثون الى واترلو** (نيو يرك)، وكذلك كتاب تشارلز ادمان **فن الحرب في القرون الوسطى** الذي نقّح وطبع طبعة جديدة في سنة ١٩٥٣ فهو يمر مرّاً عابراً بخالد، وهذا هو الحال في الدراسات التي راجعناها عن تاريخ فن الحرب في اللغات الغربيّة. أما ما كتبه المستشرقون أمثال ل. كايتاني في حقليّات الاسلام (ميلان ١٩٠٥ ــ ١٩٢٦) فيبدو أنه لم يتسرب الى مؤلفات العسكريين المتخصصة في فن الحرب وهو على كل قد أصبح كتاباً قديماً.

٥. نستعمل «القادسية» كرمز للمعركة الكبرى ضد الفرس التي كانت تنتظر خالداً لو قدّر له الرجوع الى الميدان العراقي.

السامي القرطاجي، هنيبال، في المواهب العسكرية والانجاز ولكن الغرب لا يعرف الكثير عنه، وهو على كل حال لم يخسر معركة واحدة كان قائدها ومات مظفراً عكس هنيبال الذي مات مهزوماً وشهد انهيار دولته بعد تقلّص ظلّها.

وخالد له مكانة خاصة في قافلة الفاتحين لا سيما بين هذين الجنديين الكبيرين، هنيبال والاسكندر(٦)، فنصره الكبير في اليرموك لم يكن نصراً عسكرياً فحسب يهمّ مؤرخي فن الحرب ولكن كان نصراً له بعد تاريخي عميق لأنه بدأ سيادة وحضارة عالمية جديدة في الهلال الخصيب وحوض المتوسط، فهو من جهة حقّق حلم هنيبال الذي حاول تحطيم قوة الرومان ولم يفلح، ومن جهة أخرى حلّ ما عقده الاسكندر عندما احتل بلاد الشام بعد معركة (أسّوس) وافتتح عهداً طويلاً دام ألف سنة كانت الغلبة فيه للغرب الأوروبي — يوناني وروماني وبيزنطي — على هذه المنطقة، حتى جاء الاسلام وكان نصر خالد في اليرموك، ذلك النصر الذي أرجع الهلال الخصيب الى سيادة الساميين.

اذن أنا أكتب عن خالد واليرموك من هذه الزاوية وهذا المقال مقدّمة لكتابي(٧) في الانجليزية عن هذا الموضوع بعنوان «**الطريق الى اليرموك**».

— أ —

يجنح المؤرخون في تحليل معركة اليرموك وفتوح الشام عامة الى القول أن هذا راجع الى ضعف الروم وتضعضع قوتهم بسبب الحرب الفارسية التي خاضوا غمارها ما يقرب من

---

٦. أشرنا الى خالد في هذا السياق — سياق الجوار مع الاسكندر وهنيبال — في محاضرتنا «محمد والاسكندر»، مطبعة جامعة جورجتاون، واشنطن، ١٩٧٩.

٧. ونرجو أن ينصف هذا الكتاب معركة الاسلام الكبرى والمدرسة العسكرية الإسلامية التي لا وجود لها في تواريخ فن الحرب المؤلفة في الغرب. ولما كانت معطيات حياة خالد العسكرية ومعركة اليرموك معروفة ومتيسّرة في المصادر العربية فقد قلّلت من الهوامش ونفيت الكثير منها وقصرت همّي في هذا المقال القصير على ترتيب هذه المعطيات وابرازها لتوضيح مفهومي التكامل والنمو في قيادة خالد، وعلى التركيز على العناصر ذات الخطر للكشف عن أسرار النصر العربي الإسلامي في اليرموك. وستكون لنا عودة الى كل المصادر والدراسات القديمة منها والحديثة عن اليرموك في كتابنا **الطريق الى اليرموك**.

لقد حان الوقت لإعادة النظر في كتب الفتوح ودراستها دراسة مستفيضة بعد نشر المصادر الجديدة. وسيسهم هذا في تعبيد الطريق الى أنصاف المدرسة العسكرية الإسلامية، فلعل الدكتور عبد العزيز الدوري — وهو أخبر المؤرخين بهذه المصادر ومشاكلها — يقوم بهذا العمل الجليل.

عشرين سنة(٨). وهذا قول به شيء من الصحة ولكنه مبالغ فيه مبالغة لا تنصف العرب وقائدهم لا سيما وأن هذا العامل كان ــ بعيداً وغير فعّال عند ملتقى الجمعين في اليرموك، الأمر الذي يدعو الى البدء بالاشارة الى عناصر الضعف عند الروم قبل الخوض في موضوع الكلمة الرئيس وهو عناصر القوة عند الجانب العربي.

ولا أريد أن أردد ما قاله المؤرخون عن عناصر الضعف هذه فهي عندي ليست قائمة وهي وليدة آراء مسطحة نجمت عن نظرات سريعة الى خلفية عصر الفتوح والسبب في هذا يرجع الى أن القرون الثلاثة للعلاقات العربية ــ الرومية التي سبقت ظهور الاسلام لم تدرس دراسة علمية تفصيلية. والقيام بدراسة هذه القرون الثلاثة يمكّن الباحث من استبدال عنصرين مهمّين في تفسير ضعف المعسكر الرومي بالعناصر البعيدة التأثير والضعيفة التي أكّدها المؤرخون هؤلاء(٩).

وأول هذه العناصر هو عنصر المفاجأة، فقد أفلح الروم في حلّ المشكلة العربية حلاً جذرياً نهائياً بنظام الأحلاف أي الفئات العربية التي حرست لهم مشارف الشام ضد الجزيرة العربية حراسة كافية الى حد أن الروم نسوا العرب ــ عرب الجزيرة ــ وأنهم في يوم من الأيام قد يشكّلون خطراً على الشام الرومي، وهذا معكوس بطريقة جلية في كتابهم العسكري الجليل الموسوم **ستريتجكون**(١٠) الذي يرجع تأليفه الى الفترة التي سبقت ظهور الاسلام بقليل. فقد ذكر مؤلفه الشعوب المختلفة المحيطة بالامبراطورية الروميّة التي كانت تشكّل خطراً على الامبراطورية ودلّل على كيفية مقاومة هذا الخطر ومجابهته، معتمداً على دراسة عميقة لنفسية هذه الشعوب وأساليب حربها. ومع ذلك أهمل ذكر العرب اهمالاً تاماً، الأمر الذي يوحي بقوّة أن العرب ــ عرب الجزيرة ــ لم يشكّلوا في تفكير الروم العسكري ــ خطراً على الامبراطورية و بلاد الشام. و بالتالي لم تكن هناك حاجة إلى إفراد فصل في الكتاب لهم.

---

٨. راجع ما كتبه فاسيليف واستروغورسكي وغيرهم من مؤرخي الدولة البيزنطية في كتبهم المعروفة وكذلك ك. كاين في **الموسوعة الاسلامية**، المجلد الثاني، ص ٥٠٤.

٩. ونحن نقوم بسد هذا الفراغ بتأليف سلسلة من الكتب ظهر أولها سنة ١٩٨٤ بعنوان **الروم والغرب في القرن الرابع**.

١٠. **انظر كتاب ستريتجكون** المنسوب الى الامبراطور (موريس) والمنشور بعناية ج. دنس و أ. جاملشج، فينا، ١٩٨١.

وثاني هذه العناصر أهمية هو أن الروم بعد الغزو الفارسي لبلاد الشام قلبوا نظام البلاد الاداري رأساً على عقب وأنشأوا نظام الأجناد الأربعة التي قسّموا اليها الشام حالاً بعد نصرهم على الفرس في معركة نينوى سنة ٦٢٨ ميلادية و بعد استنقاذهم البلاد من قبضة الفرس المحتلين(١١). وكان هذا النظام ــ كما نعرفه من استمراره الى العهد العربي في بلاد الشام ــ مبنيّاً على مبدأ الدفاع عن الشام ضد العدو الفارسي المهاجم من الشمال عبر الفرات. وعلى هذا الأساس نظّم الروم الدفاع عن الشام. ولا يخفى أن هذا التنظيم الجديد كان جذرياً وشاملاً وكان في حاجة الى وقت طويل لينضج و يؤتي ثماره. ولكن الفتح العربي لم يمهله كثيراً، فوصلت سرايا العرب والإسلام الى الشام بعد وقت جد قصير، والروم في فترة انتقال عسكري واداري الأمر الذي يفسّر الكثير من البلبلة التي اتسمت بها عملياتهم الحربية الدفاعية ضد العرب لا سيما وأن هؤلاء هاجموا الشام ليس من الشمال حيث توقّع الروم الهجوم من أعدائهم الفرس، ولكن من الجنوب في قطاع أهمله الروم نسبيّاً لأنه كان بعيداً عن الخطر الفارسي. فتم بذلك عنصر المفاجأة الذي كان قائماً للسبب الأول ضعف الروم الذي أشرنا اليه ــ وهو نسيان الروم لخطر العرب.

هذان في نظري هما العنصران الأساسيان في ضعف المعسكر الرومي اللذان يشكّلان الخلفية الصحيحة لدراسة فتوح الشام. ولكن كما قدّمنا ــ لم يكوّنا عاملين فعّالين في معركة اليرموك عندما التقى الجمعان بعد مناورات ومناوشات طويلة كان الروم فيها باجماع المؤرخين شرقاً وغرباً، قديماً وحديثاً، متفوّقين على العرب عدداً، وعدّة، وخبرة حربيّة، وكانوا أيضاً في بلاد يعرفون جغرافيتها حق المعرفة عكس العرب.

لعل هذا العرض لعناصر الضعف عند الروم قد مهّد السبيل الى الخوض في موضوع هذه الكلمة الرئيس ــ وهو استكشاف أسرار النصر العربي في اليرموك.

ــ ب ــ

فهم المؤرخون أن نصر اليرموك كان معركة خالد بن الوليد وكذلك كان. ولكن غاب عن البعض أن مهندسي هذا النصر كانوا في الحقيقة ثلاثة: أولهم ذلك الذي اكتشف

١١. أنظر مقالنا عن «نظام الأجناد في بلاد الشام» في أعمال المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام الذي نظّمته جامعتا الأردن واليرموك في عمان سنة ١٩٨٣.

خالد واستمـاله الى الإسلام وفتح أمامه الفرص وسمّاه سيف الله وجنّده في خدمة الأمة الجديدة الاسلامية، ألا وهو الرسول نفسه. وثانيهما الذي سيّره من العراق الى الشام في تلك الفترة الحرجة في تاريخ الفتوح، أي الخليفة الأول. وهذا هو تصوّرنا لأبعاد نصر اليرموك ومهندسيه الثلاثة: الرسول والخليفة والقائد، وسنبدأ التفصيل بثالث الثلاثة.

خالـد

المصادر عن خالد كثيرة وقد كتب عنه الكثيرون ولذلك فسوف أقصر حديثي على تناوله من زاوية واحدة، زاوية اليرموك على أنها ذروة انجازه وتفكيره العسكري، ومعركة اسلامية كبرى لها مكانتها في تاريخ فن الحرب وسأتناول أطوار ماضيه العسكري لإظهار عنصرين فعّالين في تكوينه وهما: **التكامل** في مواهبه العسكرية **والنموّ** في تفكيره العسكري، فكأنّ كل طور كان أعداداً للذي يليه وتطويراً لفهمه العسكري، وكان كلّ طور أوسع وأعمق من سابقه. فلما حارب خالد في اليرموك كان في أوجه العسكري فقد كان شهد أربعة وأربعين مشهداً حربياً واكتسب خبرة لم تتهيّأ لأحد غيره من القادة الذين أنجبهم الاسلام والمدرسة الحربية الإسلامية[١٢]:

١) بدأ خالد حياته كجندي، ومواهبه كجندي تتلخص في الأمور التالية: فقد برع في استعمال السيف والرمح والقوس لا سيما الأولين فكان فارس الطعان وراجل النزال، وكانت قوته الجسمية معروفة وكذلك شجاعته. كل هذه أمور ذات بال في حروب العالم القديم عندما كان القائد جندياً أيضاً يشترك في المعركة مع جنوده كما فعل الاسكندر و يوليوس قيصر، ولا يراقبها من بعيد بمنظاره كما كان يفعل نابليون. هذه الصفات حبّبت خالداً الى جنوده وأرهبت عدوه فكانت له هيبة وسمعة في الجزيرة تصل الى العدو قبل وصوله اليه وتفعل فعلها، ولكن فعلها الأهم كان في جنوده الذين كانوا يؤمنون به و بجنديّته و يتيمّنون بها كما قال أحدهم:

اذا قال سيف الله كرّوا عليهم   كررت بقلب رابط الجأش صارم

وفعل هذه الهيبة والسمعة العسكرية في اليرموك معروف لاسيما بعد الهزائم التي مني فيها العرب والمسلمون في الشام أثناء غياب خالد عنها وقبل وصوله من العراق، فقد

١٢. أنظر الحاشية رقم (٧).

فرح جند الشام بمقدمه لمّا علموا بوصوله.

٢) أما عبقريته كقائد فتتلخص في خبرته التامة بكل أساليب القتال وسيطرته عليها على تنوّعها واختلافها : فقد فهم أهمية الاستطلاع واستعمال الكمائن وحسن حرب الكرّ والفرّ كما في معركة أحد، وحرب الصفوف كما في الخندق، وقيادة التشكيل الخماسي للجيش كما في حروب الردة، وحرب الكراديس كما في اليرموك.

كما أنه حارب في عمليات حربية مختلفة متنوعة زادته خبرة على خبرة، فقد اشترك في السرايا والمغازي في عهد الرسول. وفي حروب الردّة، وفي الفتوح في الميدان العراقي أولا وفي الشامي ثانياً، وكانت طبيعة العدو تختلف في كل من هذه الحروب وكذلك أساليب القتال.

وكذلك حارب في كل أرجاء الجزيرة العربية والهلال الخصيب، فقد حارب أولا في الحجاز ثم في اليمن ثم في نجد ثم في العراق وأخيراً في الشام. فيكون قد بلى وخبر الحرب في كل هذه المناطق الجغرافية التي تختلف الواحدة فيها عن الأخرى. وكانت هذه معينة له على التعرّف إلى الرقعة الجغرافية بكاملها وساعده هذا في زحفه التاريخي الخاطف من الحيرة الى دومة الجندل إلى وادي السرحان عندما أسرع من العراق لنجدة المسلمين في الشام.

٣) ولا يقلّ عن جنديته وقياديته، تطوّر اسلاميته، فخالد كان أعزّ فتى في بطن قرشي عزيز وهو مخزوم. وكانت به حميّة الجاهلية. وبقيت فيه منها آثار حتى بعد إسلامه كما في إيقاعه ببني جذيمة وزواجه بليلى امرأة مالك بن النويرة. ولكن يلمح في الوقت ذاته تطور الروح الاسلامية ونموّها. وهذا معكوس في حواره مع فئات الأعداء المختلفة التي واجهها وفي عهوده ومواثيقه والتي لا شك أن ذروتها كانت في اليرموك عندما قال قولته المأثورة «أنا لا أحارب من أجل عمر» والتي أعاد الشاعر المعاصر صياغتها عندما قال :

إنا نحارب كي يرضى الجهاد بنا   ولا نحارب كي يرضى بنا عمر

فتغلّب الروح الإسلامية على الجاهلية في معركة اليرموك أمّن للعرب والاسلام خدمات القائد الكبير في تلك اللحظة الحرجة التي جمع فيها خالد بين الدين والمروءة

فجنّد المروءة في خدمة الدين ومثّل خير تمثيل قول الرسول «لا دين بلا مروءة».

هذه هي الذروة التي رقي اليها خالد في قطاعاتها الثلاثة : القيادية ، الجنديّة ، الاسلامية ، عندما وصل الى الشام ليخوض أكبر معارك الإسلام الأولى و يربحها ، معركة منظمة دامت أياماً ضد الجيش الامبراطوري الرومي في أكبر حشوده ، وفي عقر داره وفي ظروف كانت كلّها مواتية للروم. ومع أن الغموض يحيط بكثير من تطور المعركة في المصادر إلا أن إنجاز خالد وعبقريته تظهر من خلالها واضحة وتتلخص في الأمور التالية :

١. توحيد القيادة أمام العدو الموحّد.
٢. تعبئة الجيش الإسلامي على نظام الكراديس.
٣. فصل المشاة عن الخيل خيل العدو، وفتح المجال بالخروج من الميدان.

وقد دامت المعركة أياماً ظهرت فيها خير ظهور تلك الموهبة العسكرية التي لحظها عمرو بن العاص في خالد، عندماقال «له أناة القطاة ووثوب الأسد» فكان طور المعركة الأول طور الأناة والأخير طور الوثوب.

ولم يهمل خالد الناحية المعنوية ــ الجاهلية منها والإسلامية ــ في نظام المعركة وترتيبها. فأدارها على هذين الرّحوين. وشهدت المعركة من الجاهلية رجزها ــ وهو موسيقى العرب الحربية ــ رجز النساء ورجز الرجال أمثال عكرمة والقعقاع ــ وقصصها ــ وكان القاص أبو سفيان. وشهدت من الإسلام التكبير والتذكير بالجهاد والشهادة. وكان القارىء المقداد بن عمر والقاضي أبو الدرداء.

هكذا كانت قيادة خالد في اليرموك تعبئة عسكرية ــ روحية ــ معنوية كاملة متكاملة، تعاون فيها الذراع العسكري العربي مع الذراع الروحي الاسلامي، فتداعى أمام هذا التعاون جيش الروم وتقوّضت أركانه.

لعل في هذا التحليل الموجز بعض الغناء في التدليل على عبقرية خالد في اليرموك وهو ثالث الثلاثة في مهندسي هذا النصر كما قلنا في مطلع هذه الكلمة وهذا يقودنا إلى الكلام عن ثانيهما وهو أبو بكر.

أبو بكـــر

لقد طغت شخصية عمر على باقي الخلفاء الراشدين الأمر الذي أدّى الى الإجحاف بحق الخليفة الأول، أبي بكر. وقد أن الأوان لإنصاف هذا الرجل الفذّ وسنقصر الانصاف على علاقته بخالد واسهامه في نصر اليرموك.

وأول اسهام له وأهمّه هو الفكر الستراتيجي العالي الذي دعاه الى أمر خالد بترك الميدان العراقي والإسراع الى الشام. وهذا الأمر يعكس فهم أبي بكر الصحيح للأهمية النسبية للميادين المختلفة التي كانت تحارب فيها الجيوش الاسلامية. فبعد أن وصلت الأنباء أن معارك الشام لم تدر في صالح المسلمين وصل الى قرارين أولهما أن ميدان الشام ــ وهو قريب من العاصمة الإسلامية المتدينة، ومن عهد الإسلام ــ أهم من ميدان العراق، وأن هذا الميدان الخطر في حاجة الى مواهب جندي الإسلام الأول، خالد، فكان القرار الثاني هو أمر خالد بالإسراع الى الميدان الشامي. فلولا هذا القرار الحازم لما استقام أمر العرب والإسلام في الشام ولتغير مجرى تاريخ الشرق الأدنى. وهذا الأمر يظهر أبا بكر على وجهه الصحيح كالقائد العام لكل القوات المسلحة الإسلامية في جميع الميادين من مركزه بالمدينة. بحيث كان يوجه الأوامر الى رؤساء الأجناد. فوجود خالد في اليرموك راجع كلّه الى ستراتيجية أبي بكر العاليةفي استنفار خالد وهو عنصر يجب أن يحسب له حساب في تقويم عوامل النصر وعناصره.

ولأبي بكر اسهام آخر يتعلق بخالد وهو سابق لإسهام الاستنفار والتسيير هذا، ألا وهو استبقاء خالد في خدمة الإسلام بعد وفاة الرسول. فمن المعروف أن عمر أنكر على خالد أشياء في حروب الردّة منها زواجه بليلى امرأة مالك بن النويرة وكلّم أبا بكر في هذا الأمر ولكن هذا لم يلتفت اليه وكان في ذلك متّبعاً لسنة الرسول وفهمه لأقدار الرجال واحلالهم محالّهم وانزالهم منازلهم. وقال في خالد كلمته المشهورة «لا أشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين» كما قال في استنفاره الى الميدان الشامي «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد».

وأخيراً لأبي بكر اسهام ثالث لا يتعلق بخالد ولكن يتعلق بالجيوش التي سيّرها الى الشام بعد وفاة الرسول. لقد فهم أبو بكر ــ مستمداً هذا الفهم من الرسول ــ ان الشام

أهم من العراق لمستقبل الاسلام والأمّة الإسلامية الناشئة لا سيما بعد نكسة مؤتة . ولذلك فقد اختار جيوش الشام من خيرة المقاتلة بين المسلمين وكان هذا معكوساً في رفضه أن تشترك العرب المرتدّة في فتوح الشام كأنه لم يثق بولائهم للدين الجديد «ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» . وهذا يقودنا الى القول أن خالد وجد تحت تصرّفه في اليرموك جيشاً يمكن الاعتماد عليه ، وهو في هذا مدين للخليفة الأول ، أبي بكر ، المهندس الثاني لنصر اليرموك . فالجيش الذي حارب وانتصر في اليرموك تحت امرته كان من اختيار أبي بكر ويحق في الجيش والقائد قول الشاعر :

وعادة النصل أن يزهى بجوهره   وليس يعمل الاّ في يدي بطل

الرســول

والفراغ من دور أبي بكر يعود بنا إلى إبراز اسهام الرسول في النصر العربي الاسلامي في بلاد الشام وهذا الاسهام ظاهر في أمرين :

الأمر الأول يتعلّق بخالد. لقد عرف الرسول مواهب خالد العسكرية وأن الإسلام كان في حاجة إلى مواهب قائد الأعنة في قريش في الجاهلية وكان قد عجم عوده في أحد والخندق والحديبية حيث إلتقت العبقريتان. فاختاره وخاطبه قائلا «لقد كنت أرى لك عقلا رجوت ألاّ يسلمك إلاّ إلى خير» وكان أن أسلم خالد وقال الرسول في ذلك «يخاطب المسلمين الأولين في المدينة محيّيا إسلام خالد «لقد ألقت اليكم مكة أفلاذ أكبادها» وقدّمه الرسول كما وعد وأسند اليه قيادة السرايا وفضّله ــ عسكريا ــ على العالمين ــ ودعاه «سيف الله المسلول» .

وكما رفض أبو بكر الاستماع الى عمر بشأن خالد بعد اليمامة ، كذلك رفض الرسول بعد غزوة بني جذيمة واكتفى بالدّعاء «اللهم اني أبرأ اليك مما فعل خالد» . وكان هذا منه إيذاناً باستبقاء سيف الاسلام مسلولا في خدمة الإسلام بعد وفاته . اذن لقد كان الرسول هو الذي اكتشف مواهب خالد ووظّفها في خدمة الإسلام واستبقاها حتى بعد جاهلية بدت من المسلم الجديد، فصار هذا كلّه سنّة بعد وفاته مكّنت أبا بكر من استنفاره لقمع ثورة المرتدّين في نجد وتأمين النصر في الفتوح وكانت ذروة هذا كله

اليرموك.

والأمر الثاني ــ ولعله في التحليل الآخر هو أهم مفتاح من مفاتيح النصر في اليرموك ــ يتّصل بظهور الصورة العربيّة الجديدة في شكلها الإسلامي في هذا العصر وما يمكن أن يدعى بالهوية الذاتية الجديدة للجيش العربي الذي تجمع على اليرموك ممثّلاً للمفهوم الجديد الذي خلقه الرسول، وهو الأمة، الأمّة الاسلامية التي حلّت محل القبلية والعصبية القديمة الجاهلية. وانجاز الرسول في هذا الميدان معروف ولكن ما يعنينا الآن في هذا الموطن هو اتّصال هذا بتفسر نصر اليرموك.

لقد حيّرت هذه المعركة من درسها، والتمس المؤرخون أسرار النصر العربي الكاسح في معركة كان الروم فيها متفوقين على العرب عدداً وعدّة وخبرة وهم الذين هزموا العرب طوال هذه القرن الثلاثة التي انصرمت من سقوط تدمر الى ظهور الإسلام، الأمر الذي يقود الى القول أن العامل الفعّال في النصر كان هذا بالذات، فكانت المعركة نصراً روحياً وأدبياً ومعنوياً للفئة القليلة التي حاربت لأول مرّة في تاريخ العرب ممثّلة ليس بقبيلة أو حلف قبلي(١٣) ولكن للأمة الجديدة، المشبعة بمفاهيم جديدة وظّفت كلّها في معركة اليرموك، وهي الجهاد والشهادة والآخرة. الأمر الذي يعطي المعركة بعداً روحيّاً عميقاً، ويبعد المعركة عن تاريخ فن الحرب العسكري البحت ويدنيها من معارك الجهاد النفسي والروحي. فهي في صفحات الذين أرّخوا لها، معركة قرّاء ومجاهدين وشهداء.

كل هذا ــ هذه الهوية الجديدة والصور الجديدة ــ هي من صنع الرسول، المحرّك الأول للتاريخ الإسلامي والمهندس الأول لنصر العرب في فتوح الشام. ومعركة الإسلام الكبرى ــ اليرموك، حيث اجتمع الجيش المختار والقائد العبقري والقضية الكبرى والتعبئة الكاملة والمتكاملة روحياً ومعنوياً ومادياً ــ في ميدان التقت فيه المروءة بالدين.

---

١٣. كان آخر هجوم كبير قام به العرب ضد الروم تحت الرّاية القبلية والحلف القبلي حوالي سنة ٥٠٠ ميلادية عندما تحالفت كندة مع غسّان ضد الروم، ومع ذلك فقد أفلح الروم في هزيمتهم وفعلوا ذلك بأرصاد القوة العسكرية لولاية واحدة فقط من ولايات المشرق الرومي، وهي فلسطين تحت امرة القائد رومانس. ونحن مدينون بهذه المعلومات للمؤرخ البيزنطي ثيوفانس. أنظر التفصيل في مقالنا «غسان والروم» المنشور في دوريّة «در اسلام» سنة ١٩٥٨.

موقف سكان بلاد الشام من الفتح

نبيه عاقل
وكيل جامعة دمشق

أود أن أعترف في مطلع هذا البحث أن ما أقدمه مبني على مجموعة الأخبار والروايات التي وقعت عليها، بعد استقصاء لا أدعي له الكمال المطلق أو الدقة المتناهية، لما في المصادر والمظان من معلومات حول هذا الموضوع. وقد أدت بي ندرة المعلومات من جهة، وعدم تعرض الإخباريين للموضوع تعرضاً مباشراً، من جهة أخرى، إلى تقديم استنتاجات ومؤشرات، إن صدقت فهي حسبي ومبتغاي، وإن جانبها الصواب فحسبي أني حاولت، وإن لم تبلغ المحاولة الهدف المنشود. لقد كان هم الإخباريين، كما يعرف السادة المؤتمرون، أن ينقلوا لنا أحداث الفتح والمنجزات العسكرية الهامة للفاتحين، ولم يعيروا موضوع سكان البلاد المفتوحة وموقفهم من الفتح اهتماماً خاصاً، اللهم إلا من خلال معاهدات الصلح التي أبرموها مع الفاتحين، أو مواقفهم من جيوش الفتح التي واجهوها فوق أرضهم.

وقد رأيت أن أجعل مدخلي للبحث سؤال طرحته في أحد كتبي[١] : كيف ابتدأت عملية الفتوح، وماذا كان الهدف منها ؟ ! وعندي أن في الإجابة على هذا التساؤل ما يعين على فهم موقف سكان البلاد المفتوحة من عملية الفتح بعامة، وموقف سكان بلاد الشام من العملية التي انتهت بوقوع بلادهم تحت حكم الدولة الإسلامية بخاصة. ففي الطبري[٢] روايات ثلاث يفهم منها أن أبا بكر، ما كاد يفرغ من أمر الردة حتى أمر خالداً بالتوجه الى العراق لفتحه، وكأن الأمر كان بالنسبة له جزء من مخطط معدٍ سلفاً، جاءت الردة فأخرت تنفيذه، وما كادت الأمور تستقر حتى أهرع الخليفة الأول ليمضي قدماً فيما كان قد خطط له من قبل. أما أبو مخنف فيقدم لنا صورة مغايرة للصورة السالفة التي اعتمد فيها الطبري

---

١. أنظر، نبيه عاقل، تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ط. دمشق ١٩٧٥/١٩٧٦، ص ٢٢٨ — ٢٣٣.

٢. الطبري، ط، أبو الفضل إبراهيم، ج ٣، ص ٢٤٣

على روايات نقلها عن الشعبي والواقدي، إذ يذكر أن المبادرة جاءت من المثنى بن حارثة الشيباني، القائد الذي لعب دوراً مشرفاً أثناء حروب الردة، و يقول إن المثنى جاء الى أبي بكر في المدينة، وقال له : أمّرني على من قبلي من قومي، أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتي. فقبل الخليفة الأول الفكرة وأجاز له ما اقترح(٣) . وفي هذين الموقفين اللذين يتخذهما الرواة من قضية بدء الفتوح منطلق لتساؤل هام لا بد أن يجلى قبل المضي قدماً في أي حديث يتعلق بالفتح : أحداثة، أم موقف السكان المحليين منه . وهذا التساؤل في رأينا، لا بد أن ينصبّ على إيضاح الأمر التالي : هل كان بدء الفتوح جزءاً من خطة أبي بكر السياسية كخليفة ورأس للجماعة الإسلامية، أم هل كان أمراً عفوياً بدأ بمبادرة من المثنى، ووافق عليها أبو بكر، وسارت أول الأمر في درب غير مرسومة، ثم ما لبثت بعد نجاحها أن غدت جزءاً من الخطة السياسية لحكومة الراشدين ومن تلاها ؟ !

وفي الإجابة على هذا التساؤل لا بد لنا من أن نأخذ بعين الإعتبار أن رواية أبي مخنف التي تجعل المثنى صاحب زمام المبادرة في بدء عملية الفتح تفترض أن الخليفة وضع أمام أمر واقع لا يد له فيه. ولا يعقل أن تكون عملية الفتح التي أدت إلى تقويض صرح دولتين كبيرتين كدولة الروم والفرس نتيجة صدفة، ومبادرة فرد غير مسؤول. وإذا أضفنا الى ذلك أن الجهاد لنشر الإسلام شريعة من شرائع الإسلام، وأن الرسول قبل أن يتوفى سار في هذا الطريق داخل الجزيرة وخارجها، وقام هو بالذات بإرسال البعوث إلى تخوم الشام، لوجدنا أن النية والتخطيط للفتح كانا موجودين قبل أبي بكر، وأن ما فعله أبو بكر لم يكن إلا استمراراً لخطة بدأها الرسول بالذات. هذا فضلاً عن أن فكرة الفتح ونشر الإسلام خارج حدود الجزيرة، فكرة تتناسب مع مبدأ عمومية الدعوة التي تنزلت على قلب الرسول الأمين ؛ وعمومية الدعوة تقتضي ألا يقتصر نشر الاسلام بين عرب الجزيرة فحسب، بل بين العرب القاطنين خارج الجزيرة، و بين أمم الأرض جميعاً.

وإلى جانب هذين الموقفين من قضية بدء عملية الفتوح، هناك موقف ثالث، يطرحه بعض الباحثين المحدثين(٤)، يجعل من عملية الفتوح استمراراً للأعمال العسكرية ضد

---

٣. المصدر السابق، نفس الصفحة.

٤. Shaban ,M.A., Islamic History, C.U.P 1971, pp. 24 - 25.

المرتدين و يبرز المبادرة الفردية لخالد بن الوليد في هذا الأمر، كما يؤكد على العامل الاقتصادي لدرجة القول إن من تبع خالداً من رجال كان يدفعهم دونما شك حب الحصول على الغنائم، وإن هذا ليس بجديد في تاريخ العلاقات العربية الفارسية، فمنذ الفترة السابقة للإسلام كان العرب يغيرون على الأرض الفارسية بقصد كسب الغنائم، وأن هذه العادة استمرت رغم قيام الإسلام(٥). وغير خاف أن مثل هذه الآراء، على ما فيها من تجنٍ على الحقيقة التاريخية التي تثبت المصادر المعتمدة خطأها بوقائع وأحداث لا مجال للدخول في تفاصيلها للرد على مثلٍ هذه المزاعم(٦)، تحرم حركة الفتح العربي من مضامينها الحضارية السامية وأهدافها العقائدية والتحريرية النبيلة، وتجعلها عملية غزو واعتداء بقصد سلب الآخرين خيراتهم. ولست أشك في أن ألد أعداء العروبة والإسلام، أو أشدهم سذاجة وغفلة، لا يبيح لنفسه أن يجعل السبب في توجه الجيوش العربية لفتح العراق هو توقف التجارة العربية بسبب حروب الردة، وأن هذا التوقف جعل هذه الغزوات ضرورة اقتصادية بالنسبة للمسلمين تعوضهم عما فقدوه من ريع تجارتهم.

وهكذا، فالفتوح في رأينا، وبعد كل ما قدمناه، جزء متمم وتنفيذي لفريضة الجهاد في سبيل نشر الإسلام المنبثق عن مبدأ عالمية الدعوة. وإذا كان ذلك كذلك فإن موقف سكان البلاد المفتوحة من الفتح والفاتحين لا بد وأن يتحدد من خلال أمور أساسية أهمها: مصالحهم، ومعتقداتهم الدينية، وما قد يكون بين هذين الأمرين من تلازم أو تعارض، أو رجحان أحد الأمرين على الآخر. هذا فضلاً عن الهوية العرقية للعناصر السكانية في البلاد المفتوحة، وما لهذه الهوية من دور في تحديد المواقف(٧).

ولعل أول ما يسترعي الانتباه في هذا المجال ما ينقله لنا ابن أعثم الكوفي عن أبي بكر إذ يقول لأبي عبيدة وهو يتوجه للمشاركة في فتح بلاد الشام: «.... قَبِّثْ خيلك في

٥. Ibid, p. 24.

٦. أنظر، عاقل، تاريخ عصر الرسول، ص ٢٣٠ ــ ٢٣١.

٧. ينقل لنا الطبري حواراً جرى بين خالد بن الوليد وبعض زعماء العراق من العرب أثناء عمليات الفتح سنة ١٢ هـ. يقول الطبري: «فخلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين، وبدأ بأصحاب عدي وقال: ويحكم! ما أنتم! أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟! أو عجم؟! فما تنقمون من الإنصاف والعدل!! فقال له عدي: بل عرب عاربة وأخرى متعربة. فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا، فقال له عدي: ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان إلا بالعربية. فقال: صدقت». الطبري، ج ٣، ص ٣٦١.

القرى وفي السواد، ولا تحاصرون مدينة من مدنهم حتى يأتيك أمري» (٨). وكان أبو عبيدة أحد القادة الأربعة الذين وجههم أبو بكر وأمرهم أن يكون خط سيرهم عبر تبوك الى البلقاء (٩). إن في هذا الأمر يصدره أبو بكر لقائده، وفي إلحاحه على تجنب دخول المدن في هذه المرحلة المبكرة من الفتح إلا بأمره، والالتزام بالقرى والسواد فحسب، ما يجعل المرء يتساءل عن السبب في ذلك. وعندنا أن الإجابة على هذا التساؤل تقتضي معرفة التركيب السكاني للقرى والسواد من جهة، وللمدن من جهة أخرى، لأن أبا بكر على ما نعتقد، كان يود أن يجنب قواده صداماً كبيراً مع العدو في المرحلة الأولى من الفتح. كما أن سير عملية الفتح يظهر لنا بما لا يقبل الشك أن مدن بلاد الشام الرئيسية كدمشق والقدس وغزة وبصرى وعمان وجرش ومدن الساحل وسواها، لم تطأها خيول الفاتحين الأوائل، لا بل جاء فتحها في المرحلتين الثانية والأخيرة. وكل ذلك يؤشر باتجاه أن سكان المدن كانوا في الغالبية من الأعداء، وأن سكان القرى والسواد كانوا أقل عداوة، أو أقرب الى الصداقة. يضاف الى ذلك أننا لا نجد في المصادر غير العربية (اليونانية والسريانية مثلاً) إشارة الى العمليات التي جرت في المرحلة المبكرة من الفتح، وذلك لأن هذه العمليات لم تطل المدن التي كانت مستقر القوة البيزنطية والعناصر السكانية الصديقة لبيزنطة، وبالتالي فهي لم تشكل في نظرهم خطراً حقيقياً بعد.

ويقودنا ذلك لأن نستنتج أن الخليفة في المدينة كان يهمه أن يمد سلطانه على القبائل العربية التي كان بعضها يعيش في مناطق التخوم السورية أو في بعض القرى الواقعة بين الحجاز والشام. وفي هذا انسجام تام مع الهدف الأساسي من الفتح، ألا وهو نشر الإسلام بين العرب أولاً، وسواهم من الأمم بعد ذلك، الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا اليه آنفاً من أن هدف الفتح لم يكن استعماراً لأرض جديدة أو تنشيطاً لتجارة بارت بسبب حروب الردة، وإنما تحقيق لفريضة الجهاد في سبيل نشر الدين. وقد يكون من المفيد في هذا المجال أن نذكر أن سكان بلاد الشام في المرحلة الأولى من الفتوح كانوا على نوعين: عرباً وغير عرب. أما العرب فهم بدو القبائل الرحل، وأنصاف الرحل، وبعض القبائل التي استقرت

---

٨. ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، ط. محمد عبد المعيد خان، حيدر أباد ١٩٦٨ — ١٩٧٥، ج ١، ص ١٢٤.

٩. الطبري، ج ٣، ص ٣٨٧.

في قرى في منطقة التخوم، وهؤلاء هم الذين قصدهم أبوبكر حين قال لأ بي عبيدة: «.... فبث خيلك في القرى وفي السواد....». وأما غير العرب، فقد قصدنا بهم سكان المدن الذين كانوا يتكلمون خليطاً من اللغات: فالفلاحون الذين كانوا يسكنون المناطق القريبة من الساحل والمناطق الجبلية كانوا يتكلمون لهجات آرامية، أما سكان تخوم البادية وجنوب فلسطين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالقبائل العربية الرحل، وكذلك الفلاحون الذين كانوا يسكنون بعض القرى في تلك المنطقة، فكانوا يتكلمون العربية لما قام بينهم وبين القبائل العربية من صلات زواج ودم. وهكذا فقد كان الصدام الأول بين الفاتحين القادمين من الجزيرة العربية وبين سكان بلاد الشام صداماً بين فريقين تربطهم رابطة الدم واللغة، غير أن سكان القرى في بلاد الشام كانوا يعيشون حياة استقرار لا حياة بداوة وترحل (١٠).

ويقودنا ذلك إلى ضرورة الحديث عن التواجد القبلي العربي في بلاد الشام قبل الإسلام، وعلاقة دولة الإسلام بهذه القبائل، وذلك بالقدر الذي يقتضيه هذا البحث عن الفتح والقبائل العربية التي واجهها الفاتحون العرب الأوائل.

فمن بين هذه القبائل **بنو عُذْرة وبنو سعد هُذَيْم** الذين كانوا يعيشون في الطريق الذي يمتد من شمال الحجاز إلى بلاد الشام، والذين كانت بعض أفخاذهم وبطونهم تتجول بين وادي القرى وبين تيماء في الشمال (١١). وقد اتصل بهم الرسول (ص) أثناء الفترة الأخيرة من حياته، ولكنا لا نعرف الكثير عن ماهية هذه الاتصالات، اللهم إلا ما جاء في المصادر عن بعض الغزوات والوفود التي زارته في عام الوفود. إذ يفهم مما نقرؤه عند الواقدي عن غزوة تبوك أن بعضاً من بني عُذْرة بني سعد هُذَيم اعتنق الإسلام قبل هذه الغزوة، وأن بعضهم أسلم بعدها (١٢). كما يفهم مما جاء عند ابن هشام أن أحد قادة المسلمين في مؤتة

---

١٠. See, Donner, F., The Early Islamic Conquest, Princeton University Press, 1981, p. 117.

١١. ابن الكلبي (هشام بن محمد)، جمهرة الأنساب، تحقيق كاسكل وستريتزيوك، ط. بريل، ليدن ١٩٦٦، جزأين، مادة «عذرة بن سعد هذيم».

١٢. انظر، الواقدي، كتاب المغازي، ت. مارسدن جونس، مطبعة اكسفورد، ج ٣، ص ١٠١٧ وما بعدها.

عندما تعبأوا للقاء الروم كان رجلاً من بني عذرة يقال له قُطبة بن قُتادة(١٣). و يبدو أن قطبة لم يكن وحده، بل كان على رأس جماعة من بني قومه يقاتلون في صف المسلمين. أما ابن سعد فيحدثنا عن وفد عذرة الذي قدم على الرسول في صفر سنة تسع للهجرة وأسلموا بعد أن حدثهم الرسول بحديث الإسلام(١٤)، وكذلك وفد سعد هذيم الذي أسلم وأجازه الرسول بأواقٍ من فضة(١٥). و يبدو أن الرسول (ص) قد ولّى على من أسلم من سعد هذيم شخصاً يسمى معاو ية الوائلي، ولكن معاو ية هذا ما لبث أن ارتد بعد وفاة الرسول، فأرسل إليه أبوبكر، وإلى سواه من المرتدين في الشام، أسامة بن زيد، فهرب معاو ية مع من هرب من المرتدين والتجأ الى دُومة، ولكن أسامة أصابهم وحازهم و «انكفأ سالماً غانماً» (١٦). وكان بنوعذرة وسعد هذيم زمن الرسول ممن يدفعون الصدقات، وكان على عمالة صدقاتهم عمرو بن العاص(١٧). و يوصلنا كل ذلك إلى القول إن هاتين القبيلتين كانت لهما علاقات وطيدة مع حكومة المدينة منذ زمن الرسول، وأن دورهم زمن الردة كان ضعيفاً، وأنهم حين قامت خلافة الراشدين وقمعت حركة الردة وتوجهت إلى الفتح لم يقفوا موقفاً معادياً منها.

أما قبيلة بلي، فما نعرفه عن صلاتها بالرسول صلوات الله عليه صلّى يمدنا بعون أكبر. فقد سكن جزء من هذه القبيلة بعضاً من أرض الحجاز وتهامة قرب شاطىء البحر الأحمر، وفي غرب وادى القُرى والحِجر. أما بنوإراشة، وهم فرع من بلي فقد سكنوا شمالاً في منطقة البلقاء في بلاد الشام، و بذا كانوا على مقربة من السلطة البيزنطية التي كانت تحكم هذه البلاد. وقد وقفت فروع هذه القبيلة التي تقطن في الشمال موقفاً معادياً من الرسول منذ أوائل دعوته. و يعود سبب ذلك إلى أنهم كانوا مع فئات قبلية أخرى تسكن على تخوم الشام في حلف مع السلطة البيزنطية الحاكمة. وساهموا في قتال جيش المسلمين في مؤتة في العام ٨ هـ، وأوقعوا بهذا الجيش ما نعرفه من هزيمة. حتى أن قائد التحالف القبلي البيزنطي الذي قاتل المسلمين في هذه الغزوة كان رجلاً من بني إراشة من بلي يقال له مالك

١٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ت. السقا ورفاقه، ط ٢، القاهرة ١٩٥٥، القسم الثاني، ص ٣٧٧.

١٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ط. دار صادر، بيروت ١٩٦٠، ج ١، ص ٣٣١.

١٥. المصدر السابق، ص ٣٢٩ ـــ ٣٣٠

١٦. أنظر الطبري، ج ٣، ص ٢٤٣.

١٧. المصدر السابق، ص ٣٨٩.

بن زافلة (١٨). وقد استمر هذا العداء بين بلي والرسول بعد مؤتة، إذ «بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعاً من بلي وقضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في سراة المهاجرين والأنصار، في ثلاثمائة،.... وأمره أن يستعين بمن مر به من العرب، وهي بلاد بلي وعذرة وبَلْقَيْن، وذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم بهم، كانت أم العاص بن وائل بَلَوية، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتألفهم بعمرو» (١٩). وهذه هي الغزوة التي تعرف باسم غزوة ذات السلاسل. وقد وصل عمرو بلاد بلي وقهرها وأجبر أهلها على الهرب والتفرق (٢٠). و يبدو أن الرسول أراد أن يمحو آثار مؤتة من جهة، وأن ذات السلاسل ومؤتة من قبلها إنما هدفتا دعوة القبائل العربية النازلة هناك للدخول في الإسلام وترك الانحياز للبيزنطيين وتذكيرهم بما لهم من رحم مع المسلمين، من جهة أخرى.

وإذا كانت فروع بلي النازلة في الشمال قد ناصبت محمداً العداء، فإن فروعها التي كانت تنزل الحجاز أقامت معه صلات أكثر وداً. فقد كان بين العديد من رجالات بلي و بين أهل المدينة تحالفات قبل اعتناق المدينيين للإسلام، وحين أسلموا ظلت هذه التحالفات قائمة. كما يبدو أن بعض البلويين كانوا يقيمون في المدينة حين هاجر إليها الرسول كحلفاء لبعض بطون الأنصار، فلما أسلم هؤلاء أسلموا وكانوا من أوائل الصحابة وقاتلوا معه في بدر (٢١). وحين أرسل محمد عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل، كان يتوقع أن يكون البلويون الشماليون عوناً له في حربه ضد الروم ومن حالفهم من العرب، لما كان بينه و بين بني قومهم القاطنين في الحجاز من صلات ود وتآزر. حتى أن جيش عمرو كان يضم بعض البلويين الشماليين، وأن محمداً أوصاه بأن يستعين بمن «مر به من العرب،

---

١٨. ابن هشام، القسم الثاني، ص ٣٧٥.

١٩. الواقدي، مغازي، ج ٢، ص ٧٧٠.

٢٠. المصدر السابق، ص ٧٧١.

٢١. كان بين من بايع الرسول بيعة العقبة الأولى رجل من بلي (ابن هشام القسم الأول، ص ٤٣٢). كما شهد العقبة الأخيرة رجال من بلي (ابن هشام، القسم الثاني، ص ٤٦٣، ٤٦٥). وكان بين من شهد بدراً من بلي ثلاثة نفر (ابن هشام، القسم الثاني، ٦٨٧) وأشخاص آخرون (انظر، ابن هشام، القسم الثاني، ص ٦٨٨).

وهي بلاد بلي وعذرة و بَلْقَيْن» كما أسلفنا. وقد حقق عمرو بعض النجاح في هذا المجال إذ انضم إليه ما يقارب المئتي رجل، واستغل في سبيل ذلك ما كان بينه و بينهم من رحم. ولم تمض أشهر قليلة على نصر ذات السلاسل التي وقعت في العام التاسع للهجرة، حتى كان وفد من بلي يزور الرسول في عام الوفود و يقدم له فروض الطاعة والولاء و يعلن إسلامه، فيكرمه الرسول و يأمر له بالجوائز(٢٢). على أنا لا نستطيع الجزم فيما إذا كان ولاء بلي للإسلام قد استمر بعد وفاة الرسول، لأن في المصادر ما يشير إلى أن عمرو بن العاص، أثناء خلافة أبي بكر و بعد ردة بعض القبائل، وأغار على بلي و بعض القبائل الأخرى، الأمر الذي قد يفهم منه أن بلياً كانت ممن ارتد عن الإسلام(٢٣).

ومن القبائل التي يمكن الحديث عنها في هذا المجال **قبيلتا جُذام ولخم**. فقد سكنت جذام في المنطقة الممتدة من تبوك. الى شرق وادي عربة والبحر الميت حتى منطقة البلقاء حول عمان. كما ساكنها في هذه المنطقة فروع من لخم، القبيلة ذات الصلات القديمة ببلاد الشام. وكانت لخم تسكن أيضاً في فلسطين، وذلك في المنطقة الواقعة غرب البحر الميت ونهر الأردن(٢٤). وكان بين هاتين القبيلتين و بين الرسول صلات، ولا سيما في الفترة الأخيرة من حياته، كما كانتا ضمن التحالف القبلي الخاضع لبيزنطة والذي حارب المسلمين في مؤتة في العام ٨ للهجرة. وجاءت غزوة تبوك رداً على ما كان يصل الرسول من أخبار الشام من أن الروم قد «جمعت جوعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجْلبتْ معه لخم وجذام وغسان وعاملة. وزحفوا وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها»(٢٥). و يوضح ذلك أن بطوناً من لخم وجذام كانت حتى وفاة الرسول تقف في الصف البيزنطي وتعارض قيام دولة عربية إسلامية. كما أنا لا نجد في مصادرنا ما يشير الى اسلام عدد كبير من رجالات هاتين القبيلتين في المرحلة المبكرة من قيام دولة

---

٢٢. ابن سعد، ج ١، ص ٣٣٠.

٢٣. الطبري، ج ٣، ص ٣٠٥.

٢٤. انظر مادة «لخم» في ابن الكلبي، جهرة الأنساب، ج ٢، ص ٣٧٥ — ٣٧٦. ومادة «جذام» المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣ وما بعدها.

٢٥. الواقدي، مغازي، ج ٣، ص ٩٩٠.

الإسلام(٢٦)، وأن من أسلم منهم إنما جاء إسلامه في الفترة السابقة لوفاة الرسول مباشرة، إذ يذكر الطبري أنه في العام ٩ للهجرة قدم على الرسول وفد من الداريين من لخم عدده عشرة أشخاص(٢٧)، وأن الرسول أكرمهم وأقطع أحد زعمائهم أرضاً(٢٨). كما يذكر ابن هشام أن قبيلة من لخم يقال لها حدس قد اعتزلت قومها في مؤتة ولم تقاتل المسلمين(٢٩). ولكن هذين الخبرين لا يقدمان دليلاً كافياً على علاقات طيبة قامت بين دولة الإسلام و بين لخم. أما بالنسبة لجذام، فيبدو أن تعاظم قوة الرسول بعد فتحه مكة ونصره على قريش، قد أغرى بعض الجذاميين لإقامة علاقات ود معه. ومن زعماء جذام الذين أقاموا مثل هذه العلاقة فروة بن عمرو الجذامي، الذي كان يحكم باسم الروم القبائل النازلة حول عمان ومعان واعتنق الإسلام وأهدى للرسول بغلة بيضاء، فلما بلغ الروم إسلامه، طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم، ثم ضربوا عنقه وصلبوه(٣٠). ومن هذا القبيل أيضاً ما نقرؤه عند ابن هشام عن غزوة زيد بن حارثة الى جذام التي وقف فيها بنو الضُبَيْب، وهم رهط من جذام «ممن كان أسلم وأجاب» إلى جانب زيد بن حارثة الذي جاء على رأس جماعة من المسلمين ليقتص من الجذاميين الذين اعتدوا على دحية بن خليفة الكلبي رسول محمد إلى قيصر صاحب الروم وهو في طريق عودته إلى المدينة. وقد ساهم سائر بني الضُبيب الجذاميون في حملة زيد وساعدوه على الاقتصاص من المعتدين(٣١). و يبدو أن عدد من أسلم

---

٢٦. يذكر ابن هشام اسم شخص واحد فقط من لخم بين البدريين (القسم الأول، ص ٦٨٦ ــ ٧٠٦) ولا يذكر اسم أي من جذام.

٢٧. الطبري، ج ٣، ص ٩٦.

٢٨. ابن سعد، ج ١، ص ٣٤٤، وانظر أيضاً، ابن هشام، القسم الثاني، ص ٣٥٣.

٢٩. ابن هشام، القسم الثاني، ص ٣٨٢.

٣٠. المصدر السابق، ص ٥٩١ ــ ٥٩٢. و يعتقد دونر أن هذه الرواية هي من الأساطير الدينية، وأن فروة الذي كان على النصرانية، إنما أسلم حين اجتاحت فارس بلاد الشام واحتلتها لأنه وجد أن المسلمين أكثر تعاطفاً و وداً تجاه المسيحيين. وحين استردت بيزنطة سيطرتها على بلاد الشام عاقبته على تغيير ولائه بأن قتلته وصلبته. ولكن دونر لا يعطي أي برهان على صدق نظريته هذه، كما أن أحداث الصراع الفارسي البيزنطي عى بلاد الشام واسترداد بيزنطة لسيادتها على بلاد الشام لا يتفقان وتاريخ إسلام فروة ولا حتى تاريخ إرسال الرسول للبعوث والسرايا إلى تلك البلاد.

أنظر: Donner, Op. cit, pp. 105, and 304, Note 53

٣١. انظر التفاصيل في، ابن هشام، القسم الثاني، ص ٦١٢ ــ ٦١٣.

من جذام زمن الرسول كان كبيراً، حتى أن الرسول أرسل عمرو بن العاص ليجمع الصدقات المترتبة عليهم وعلى لخم، هذا فضلاً عن صدقات بني عذرة وسعد هذيم (٣٢). وحين قامت حركة الردة كان بنو الضُبيب بين المرتدين، فسار إليهم أسامة بن زيد مغيراً وأصابهم، كما أصاب من ارتد من بني لخم، وذلك زمن خلافة أبي بكر(٣٣).

أما قبيلة **القَيْن (أوْبَلْقَيْن)** فكانت تعيش في المنطقة الواقعة شرق ديار لخم وجذام، أي المنطقة الممتدة من وادي ثجْر، شمال تيماء، بمحاذاة وادي السرْحان، و باتجاه الشمال إلى تخوم حوران(٣٤)، وقد ورد ذكرهم في غزوة ذات السلاسل في نص يفهم منه أن بلادهم كانت تجاور بلاد بلي وعذرة(٣٥). و يبدو مما تذكره بعض المصادر أنهم كانوا ضمن التحالف القبلي الموالي للبيزنطيين في غزوة مؤتة(٣٦)، كما أنه ليس لدينا ما يؤكد أنه كان منهم من أسلم مبكراً، أو كان بين صحابة الرسول، ويمكن لنا أن نستنتج مما يذكره الطبري في أحداث سنة ١١/ للهجرة أن بعضهم أسلم قبل وفاة الرسول، وأنه ولى عليهم عمرو بن الحكم، ولكن بعضاً منهم ارتد، وكان زُمَيلْ بن قُطبة زعيم الفئة القينية المرتدة، ولكن عمرو بن الحكم بقي على إسلامه، وساهم مع أسامة بن زيد في قمع فتنة المرتدين من قومه (٣٧). و يوصلنا كل ذلك الى القول أن الرسول استطاع في أخريات حياته أن يضم بعضهم إلى الإسلام، ولكن غالبيته القين كانوا إما في تحالف مع السلطة البيزنطية الحاكمة في بلاد الشام، أو وقفوا موقفاً محايداً من القوتين: الإسلامية والبيزنطية.

أما إذا تابعنا المسيرة شرقاً، أي إلى المنطقة الممتدة من دومة الجندل باتجاه الجنوب نحو صحراء النفوذ في نجد، وشمالاً إلى قلب البادية السورية، فإنا نجد ديار **بني كلب**(٣٨). وبهذا تكون ديار كلب شرق ديار بني القين. وكانت بين القبيلتين منافسات

---

٣٢. انظر، الطبري، ج ٣، ص ٣٨٩.
٣٣. المصدر السابق، ص ٢٤٣
٣٤. انظر، ابن الكلبي، جهرة الأنساب، ج ٢، ص ٤٨ وما بعدها، مادة: «القين بن غَسْر».
٣٥. انظر، الواقدي، مغازي، ج ٢، ص ٧٧٠
٣٦. انظر مثلاً، ابن هشام، القسم الثاني، ص ٣٧٥.
٣٧. انظر، الطبري، ج ٣، ص ٢٤٣.
٣٨. ابن الكلبي، جهرة الأنساب، ج ٢، ص ٧٦ وما بعدها، ٣٦٩، مادة: «كلب بن وبرة»

وخصومات، ولا سيما خلال العقد الذي سبق قيام الإسلام. وليس في مصادرنا ما يشير إلى إسلام العديد منهم زمن الرسول إسلاماً طوعياً. فكل ما نجده حول هذا الأمر، هو ما يذكره ابن سعد عن قدوم رجلين من كلب الى الرسول ودعوته لهم بدعوى الإسلام ودخولهم في الدين الجديد (٣٩). على أن الرسول وهو يسعى الى نشر الإسلام بين قبائل العرب قام بنفسه بغزو دومة الجندل وذلك على رأس تسعة وأربعين شهراً من مهاجره، ولكن أهلها هربوا وخلفوا وراءهم مواشيهم ورعايتهم، فنزل رسول الله بساحة دُومة الجندل ولم يلق إلا شخصاً واحداً عرض عليه الإسلام فأسلم، ثم عاد إلى المدينة (٤٠). وفي سنة ست للهجرة أرسل سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف إلى كلب بدومة الجندل. «فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم الى الإسلام، فأسلم الأَصْبَغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً وكان رأسهم وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية» (٤١). و يوضح الواقدي هدف الرسول من غزو دومة الجندل بقوله: «أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدنو إلى أدنى الشام، وقيل له إنها طرف من أفواه الشام، فلو دنوت لها كان ذلك مما يُفزع قيصر» (٤٢). وفي هذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه آنفاً من أن الفتوح جزء من سياسة الجهاد لنشر الإسلام، هذه السياسة التي اختطها الرسول منذ المراحل الأولى لحكمه في المدينة، والتي تابعها خلفاؤه الراشدون بعده. و يبدو أن ولاء من أسلم من كلب زمن الرسول إستمر ما دام الرسول حياً، حتى أنه ولّى أمور من أسلم منهم عاملاً هو امرؤ القيس بن الأصبغ الكلبي (٤٣). على أن بعضهم ارتد حين قامت حركة الردة، واستطاع أبو بكر أن يقضي على ردتهم (٤٤). أما غالبية بني كلب فيمكن القول إنها ظلت توالي الروم زمن الرسول، وأن اسلامها جاء بعد الفتح.

أما عن **الغساسنة**، ففي مصادرنا بعض الروايات القليلة حول ما قام بينهم و بين دولة الإسلام الأولى من صلات. وعلى الرغم من الحروب التي قامت في هذه الفترة بين

---

٣٩. ابن سعد، ج ١، ص ٣٣٤.
٤٠. انظر التفاصيل في، ابن سعد، ج ٢، ص ٦٢ — ٦٣
٤١. المصدر السابق، ص ٨٩
٤٢. الواقدي، مغازي، ج ١، ص ٤٠٣
٤٣. الطبري، ج ٣، ص ٢٤٣
٤٤. المصدر السابق، نفس الصفحة.

الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية، واحتلال فارس لبلاد الشام وما أدى إليه هذا الاحتلال من زوال دولة الغساسنة ومكانتهم كحكام لمقاطعة الشام من قبل بيزنطة، فإن غالبية بني غسان أبقوا على صلات الولاء لبيزنطة على الرغم من زوال دولتهم التي كان أمراؤها يتمتعون بلقب فيلارك من قبل الإمبراطور البيزنطي(٤٥). وكانت غالبية الغساسنة تنزل منطقة حوران والمنطقة الواقعة قرب دمشق(٤٦). وفي صدد الحديث عن علاقة الرسول بقبيلة غسان، يذكر الواقدي أنه وصلت للرسول أخبار من بلاد الشام مفادها أن «الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزّق أصحابه لسنة»، وكانت هذه الجموع تتألف من رجال من قبائل لخم وجذام وعاقلة، فضلاً عن قبيلة غسان. وهذا التجمع القبلي الذي كانت غسان عماده هو الذي خاض الرسول ضده غزوة تبوك المشهورة(٤٧). كما أنه كان بين رسله الى الملوك والأمراء رسول الى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه إلى الإسلام، ولكن الحارث رفض دعوة محمد، واستمر في حلفه مع البيزنطيين(٤٨). ولم يكتف بذلك، بل كان يحرض من تخلف من أصحاب محمد عن الخروج معه الى تبوك على ترك الإسلام والإلتحاق به، واعداً إياهم بالمجد والعطاء(٤٩)، الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا إليه من موقف الغساسنة المؤيد لبيزنطة والمعادي للمسلمين. كما يمكننا أن نستخلص من هذه الأخبار أن الغساسنة، ومن ورائهم بيزنطة، كانوا يدركون أن قوة محمد العسكرية كانت تتعاظم على الدوام، وأنهم لم يكتفوا بالوقوف في وجهه عسكرياً، بل أرادوا أن يتسربوا الى جبهته الداخلية، وأن يفككوا وحدتها وتلاحمها من الداخل. حتى أن هرقل، أرسل رجلاً من غسان الى المدينة ليتعرف على النبي وصفته وليتسقط أخباره وسيرته. وقد مكث هذا الرجل وقتاً في المدينة ثم عاد ليحدث هرقل بما رأى وسمع عن الرسول(٥٠). و يشير كل ذلك إلى أن فروع غسان التي كانت تنزل الشام، كانت على حلف وطيد بالبيزنطيين، وتظهر العداوة

٤٥. لتفاصيل أوفى حول هذا الموضوع، انظر كتابنا: الامبراطورية البيزنطية، ط. دمشق ١٩٧٠، ص ٨٩ ـــ ٩٢.

٤٦. انظر، ابن الكلبي، جمهرة الأنساب، ج ٢، ص ٣٥ وما بعدها، ص ٢٧٣، مادة «غسان».

٤٧. الواقدي، مغازي، ج ٣، ص ٩٩٠ وما بعدها.

٤٨. ابن سعد، ج ١، ص ٢٦١

٤٩. انظر مثلاً ما يذكره الواقدي عن رسالة الحارث بن أبي شمر إلى كعب بن مالك، الذي كان قد تخلف عن الرسول حين خرج لغزوة تبوك، المغازي، ج ٣، ص ١٠٥١ ـــ ١٠٥٢.

٥٠. الواقدي، مغازي، ج ٣، ص ١٠١٨ ـــ ١٠١٩

الصريحة للدولة الجديدة الناشئة على حدودهم الجنوبية والتي كانوا يخشون خطر توسعها شمالاً. أما فروع غسان التي كانت تسكن في الجنوب كتيماء أو المدينة مثلاً (٥١)، فلم تكن على هذا القدر من العداء لمحمد، ولربما كان الوفد الغساني الذي قدم على الرسول مبايعاً في العام العاشر للهجرة، وهو من هذا الفرع الجنوبي من الغساسنة (٥٢)، لأنهم بحكم سكنهم لم يقعوا في ظل النفوذ البيزنطي.

ولم تكن قبائل عذرة وسعد هذيم وبلي وجذام ولخم والقين وكلب وغسان، هي القبائل العربية الوحيدة التي كانت تنزل أرض الشام. فقد كانت هناك قبائل عربية أخرى تنزل شمال الشام وشرقها، وبالتالي لم تكن على قدر من القوة والأهمية حتى تعيرها المصادر اهتمامها. **فبنو تنوخ** مثلاً، عاشوا كأنصاف رحل أو كقبائل غير مستقرة في أواسط سورية وشمالها على تخوم البادية السورية الممتدة شمالاً حتى قنسرين وحلب (٥٣). وهناك ما قد يفهم منه أنها وقفت إلى جانب الروم في غزوة مؤتة، ولكن المصادر المعتمدة لا تؤكد أنه كان للرسول أية علاقة بها. أما **قبيلة سليح**، ومنها **بنو ضَجْعَم**، الذين كان البيزنطيون قد منحوا رؤساءهم لقب «فيلارك» قبل بزوغ نجم الغساسنة، فكانت تنزل أرض حوران (٥٤)، ولا تذكر المصادر شيئاً كثيراً عن علاقات قامت بينها وبين الرسول، وكانت **قبيلة بهراء** من القبائل السورية الكبرى، وكانت تنزل المنطقة الواقعة في أواسط وشرق البادية السورية، وتمتد ديارها حتى نهر الفرات (٥٥). ولا تذكر أنه قامت بينها وبين الرسول أية علاقات، وإنما كانت صلاتها بعد ذلك بدولة الراشدين. وما نقرؤه في المصادر عن وفد بهراء الذي جاء لزيارة الرسول في عام الوفود، هو من الفرع اليمني لهذه القبيلة وليس ممن كان ينزل أرض الشام (٥٦). والأرجح أن بهراء كانت خلال حياة الرسول من الموالين لبيزنطة، وأن بعضاً من رجالها كانوا ضمن التحالف القبلي الذي قاتل إلى جانب البيزنطيين في مؤتة (٥٧).

---

٥١. ابن الكلبي، جمهرة الأنساب، ج ٢، ص ٣٥ وما بعدها، ص ٢٧٣.

٥٢. الطبري، ج ٣، ص ١٣٠.

٥٣. ابن الكلبي، جمهرة الأنساب، ج ٢ ص ٤٧٠، مادة «قضاعة بن مالك»

٥٤. المصدر السابق، ص ٨٦، ٥٠٧، مادة «سليح بن حُلْوان»

٥٥. المصدر السابق، ص ٤٧٠، مادة «قضاعة بن مالك» ص ٢٢٠، مادة «بهراء بن عمرو»

٥٦. انظر، الطبري، ج ٣، ص ١٢٢

٥٧. ابن هشام، القسم الثاني، ص ٣٧٥

والى جانب هذه القبائل التي كانت تسكن غالبيتها بلاد الشام، كانت هناك جماعات قبلية تقيم على أرض الشام، ولكن انتماءها كان إلى قبائل تنزل دياراً أخرى غير ديار الشام.

بعد هذا العرض السريع للقبائل العربية التي كانت تنزل بلاد الشام وعلاقاتها بالرسول صلوات الله عليه، يمكننا القول إن الرسول حاول بعد أن وطد نفوذه في الحجاز، والى حدٍ ما في أغلب أصقاع الجزيرة العربية، أن يمد سلطان دولته على الجماعات القبلية المقيمة في شمال الحجاز وجنوب سورية، وأنه في سبيل ذلك قام ببعض الغزوات وأرسل بعض السرايا. وعلى الرغم من أن غزوة ذات الأطلاح ومؤتة لم تحقق له نصراً، فإن غزوة ذات السلاسل مكنته من أن يمد نفوذه على منطقة وادي القُرى وشمال الحجاز. كما مكنته غزوة تبوك من أن يخضع عدداً من المدن أو المراكز الحضرية في شمال الحجاز وجنوب سورية الى سيادة دولة المدينة. وكان العنصر البشري الذي أخضع هو في الغالب من القبائل العربية المتبدية أو نصف المرتحلة. وقد اختلفت طبيعة العلاقة التي نجمت عن هذا الخضوع من جماعة إلى أخرى. فبعض القبائل خضعت للرسول بشروط تحفظ لها سيادتها، على أن تقوم بينها وبينه ما يمكن تسميته في وقتنا الحاضر بمعاهدة عدم اعتداء. في حين أن قبائل أخرى اعتنقت الإسلام وعاشت حياة استقرار في المواقع التي كانت تنزل فيها، وغدت كسواها من القبائل المسلمة. هذا فضلاً عن نوع ثالث من القبائل كانت تدفع الصدقة وعليها أمير مسلم يجبي صدقاتها (٥٨).

ولم تكن سيطرة المدينة على هذه القبائل واحدة، بل اختلفت من قبيلة إلى أخرى، كما هو واضح من سياق عرضنا السابق. إلا أننا نستطيع القول إن نفوذ الرسول في أخريات حياته قد انتشر بين الجماعات القبلية شمالاً ليشمل حتى القبائل النازلة في منطقة خليج العقبة ووادي رُمّ. فقبائل: سعد هذيم، وعذرة، والبطون الجنوبية من بلي، وفرع ضبيب من جذام، وبنو الدار وبنو حَدَس من لخم، وبعض من بني القين، وبعض من كلب، وبعض من غسان ولا سيما من كان منهم يعيش في الحجاز، غدوا جميعاً حلفاء للرسول لبعض الوقت، هذا فضلاً عن أن المدن الرئيسية في هذه المنطقة كتيماء وتبوك ومستوطنات

٥٨. من أجل تفصيلات أوفى حول هذا الموضوع، انظر، غزوات الرسول وسراياه، في، ابن هشام، الواقدي، الطبري، وسواها.

وادي القرى، كانت هدفاً لغزوات ناجحة من قبل جيش المدينة. و يبدو أن الرسول استطاع أن يمد سلطانه على الجماعات القبلية النازلة في هذه المنطقة قبل أن يطال نفوذه المدن والمستوطنات. إذ يذكر الواقدي ما نصه: «وكانت دُومة، وأيلة، وتيماء، قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد أسلمت» (٥٩). وهكذا فإن إسلام هذه القبائل كان السبب الذي دعا حاكم أيلة من قبل بيزنطة، يوحنا بن رؤبة لأن يتصل بالرسول حين كان في تبوك وأن يطلب منه الصلح على الشروط التي صالح عليها دومة الجندل. كما فعل الشيء ذاته أهل جرباء وأذرح ومَقْنا، وكلها مدن قرب أيلة، فكتب لهم الرسول كتباً وصالحهم على دفع الجزية، وأعطاهم الأمان واعتبرهم ذمة الله ورسوله (٦٠). أما فروة بن عمرو الجذامي، عامل معان وحاكمها من قبل البيزنطيين، فقد سار شوطاً أبعد، إذ بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً يعلمه بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء (٦١). و يبدو أنه وضح لسكان المدن في الشام أنه لا يمكن لهم الاستمرار في عداء الإسلام بعد أن أسلم الأعراب النازلون حولهم. وكان هذا الأمر من أهم الأسباب التي أجبرت الطائف من قبل على الاستسلام للرسول، لأن جميع من حولها من قبائل أسلم، ولم يعد أحد سواها يناصب الرسول العداء، فما كان منها إلا أن سلمت بما سلم به سواها.

أما القبائل التي كانت تنزل المواقع الأبعد شمالاً فلم تذعن للرسول في حياته: فقبيلة بهراء، وغالبية جذام، وغالبية لخم، وغالبية القين، وغالبية كلب، وتنوخ، وسليم، وعاملة، و بطون غسان وبلي التي كانت تنزل الأرض السورية، فقد كانوا على عداء مع الرسول، أو كانوا بعيدين عنه بحيث لم تقم بينهم و بينه أية اتصالات. و يقودنا ذلك، بالإضافة الى ما نعرفه عن الردة التي قامت بعد وفاة الرسول والتي شملت العديد ممن أظهر له الطاعة والولاء في حياته، إلى القول بأن إسلام غالبية من أسلم، والصلح الذي قبل به من قبل، كان نتيجة لمظاهر القوة التي أظهرتها دولة الرسول في أخريات أيام حياة صاحب الرسالة. وحين انتقل الرسول إلى جوار ربه وقامت حركة الردة و بدا أن خلافة أبي بكر في أيامها الأولى كانت تعاني من أزمة داخلية خطيرة، وجد عرب جنوب سورية الفرصة

٥٩. الواقدي، مغازي، ج٣، ص ١٠٣١

٦٠. المصدر السابق، ص ١٠٣١ — ١٠٣٢

٦١. ابن هشام، القسم الثاني، ص ٥٩١

سانحة للعودة إلى ما كانوا عليه من ولاء لبيزنطة، التي كانت ما تزال القوة السياسية والعسكرية في الشام. هذا فضلاً عن تمسك بعضهم بالنصرانية التي كانت دينهم. ولكن المهم في هذا المجال هو أن عرب شمال الحجاز هؤلاء، لم يكونوا عنيفين في ردتهم، كما كانت الحال بالنسبة لبعض المرتدين، ولم يشغلوا بال أبي بكر، فأجل أمرهم الى زمن لاحق، وأولى اهتمامه الى من شكلوا خطراً على دولة الإسلام من عرب قلب الجزيرة. وعلى الرغم من انشغال الخليفة الأول بأمر المرتدين، فإنه حرص على نفاذ أمر الرسول بإرسال بعث أسامة بن زيد على النحو الذي كان الرسول قد خطط له قبل وفاته. وسار أسامة فيما ندب له، وأقبلت عليه وفود قضاعة، فرفض التحدث اليها وطلب منها أن تتوجه للقاء أبي بكر(٦٢). و يبدو أن الوفد القضاعي جاء ليطلب الصلح دون أن يتورط في قتال مع المسلمين. وفي مصادرنا ما يشير إلى أن قضاعة خضعت لأبي بكر وعين عليها عمرو بن العاص والوليد بن عقبة لجباية صدقاتها، بما في ذلك صدقات بني سعد الله من بلي(٦٣)، وسواهم من بطون بلي وكلب. وهكذا فإن عمليات عسكرية صغيرة أمنت لأبي بكر استعادة السيادة على شمال حدود دولته، هذه الحدود التي تقطنها قبائل عربية سبق لبعضها أن دخل في ذمة الإسلام، أو في حلف معه.

ومع بداية عصر الفتوح وتوجه الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام، يلاحظ الباحث أنه في المرحلة الأولى من مراحل فتح هذه البلاد، توجهت جيوش المدينة أول ما توجهت إلى المنطقة التي كانت تسكنها القبائل العربية النازلة في جنوب سورية. فهل كان ذلك محض مصادفة، أم هل كان أمراً مقصوداً ؟ ! يحدثنا الطبري أن أبا بكر كان قد وجه خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام في نفس الوقت الذي وجه فيه خالد بن الوليد الى العراق، وأوصاه بمثل الذي أوصى به ابن الوليد(٦٤). وفي الحديث عن فتح العراق نقرأ في مصادرنا ما يفيد أن خالد بن الوليد كان حريصاً على أن يبدأ بفتح المناطق التي تنزلها قبائل عربية، سواء ما كان منها مدناً تسكنها غالبية قبلية عربية، أم مواقع تنزلها القبائل العربية(٦٥).

---

٦٢. انظر، الطبري، ج ٣، ص ٢٥٨

٦٣. المصدر السابق، ص ٣٩٠

٦٤. المصدر السابق، ص ٤٠٨

٦٥. انظر الحديث عن فتح العراق ومسيرة خالد بن الوليد إليه في، الطبري، البلاذري، (فتوح)، ابن الأعثم الكوفي (فتوح)، وسواها.

فهل كان ذلك أيضاً مصادفة محضة، أم أمراً مقصوداً؟! وفي الجواب على هذا التساؤل لا بد لنا من أن نستذكر أموراً أهمها: أولاً، إن مسألة عالمية الدعوة مرت زمن الرسول بمراحل ثلاثة كان أولها (عشيرتك الأقربين)، ثم بقية عرب الحجاز والجزيرة، ثم عرب الأطراف. وكان عرب الأطراف الأول الذين اتصل بهم الرسول هم العرب النازلون في شمال الجزيرة العربية على الحدود بينها وبين الشام. وثاني هذه الأمور هو أن الاسلام جاء للناس كافة، وطبيعي أن يكون العرب الذين تنزل الإسلام على قلب رجل منهم، هم أول من يسعى هذا الدين الجديد لكسبهم إلى صفه، فمجتمعهم هو المجتمع الأول الذي خاطبه الإسلام، واللغة التي خاطبهم بها هي لغتهم، فهم بهذا أقرب الناس إلى فهمه وتقبله. وثالثها هو أن الأرض التي توجهت إليها جيوش الفتح أول ما توجهت، أرض عربية يتربع على سدة الحكم منها قوم أجانب كالفرس في العراق، والبيزنطيين في الشام، وعملية فتحها لا تحقق الهدف الديني فحسب، أي إدخالها في الإسلام، وإنما تحريرها من ربقة مستعمر دخيل لا تربطه بها رابطة من عرق أو دم. وإذا صح أنه كان بين القبائل العربية في الشام من اعتنق النصرانية، فإن هذه الديانة لا يجوز أن تربط ببيزنطة، لأن بلاد الشام هي مهد النصرانية وعلى أرضها عاش وبشر السيد المسيح، فنصارى الشام من العرب، لم يعرفوا النصرانية عن طريق الحكام البيزنطيين، بل لأن النصرانية دين عاش على الأرض التي كانوا يسكنون ويقودنا كل ذلك إلى إقرار أمر نراه أكيداً، ألا وهو الرابطة الوثيقة بين خط سير الفتح في مراحله الأولى ومناطق سكنى القبائل العربية في الشام والعراق، هذه القبائل التي أراد الخليفة الأول أن يدخلها في الإسلام، استمراراً لسياسة الرسول في هذا المجال، والتي بدأها بعد أن اطمأن إلى إسلام عرب الجزيرة، ولا سيما بعد فتح مكة وتوافد رجالات القبائل عليه، فيما تعارف المؤرخون على تسميته بعام الوفود. ففي سورية، كما في العراق، صمم أبو بكر على أن يكون ولاء القبائل، من كان منها ما يزال على الترحل، أو من استقر وسكن المدن، للدولة الإسلامية الوليدة. وهكذا يمكننا أن نعتبر أن المرحلة الأولى من مراحل الفتح في سورية كانت تهدف إلى توسيع وتمتين سيادة الدولة المسلمة، هذه السياسة التي اختطها الرسول الأمين، وتابعها أبو بكر حين تصدى لأزمة الردة. وبعد أن اطمأن أبو بكر إلى ولاء القبائل العربية النازلة على التخوم الشمالية لدولته، انتقل في المرحلة الثانية من الفتح لأن يوجه ضرباته إلى المراكز المدنية الأكبر والتي تضم عرباً وغير عرب بقصد إخضاع سورية البيزنطية آنذاك لحكم دولة المدينة، التي رفعت شعار الجهاد في سبيل نشر

الإسلام.

وعند البلاذري أن أول صدام جرى بين المسلمين وعدوهم في بلاد الشام كان بقرية من قرى غزة يقال لها داثن. وقد قاد الجيش المعادي للمسلمين بطريق غزة، وكان النصر للمسلمين. وكان ذلك قبل قدوم خالد بن الوليد إلى الشام. و يبدو أن البطريق استطاع الفرار، فلاحقه يزيد بن أبي سفيان، وكانت الموقعة الثانية في منطقة العربة حيث تجمعت القوى الرومية، واستطاع المسلمون كسب المعركة وقتل القائد البيزنطي (٦٦). ولكن البلاذري لا يذكر التركيب السكاني لغزة، ولا يتحدث عن موقف أهلها من الجيش المسلم. كما أنه لا يتحدث عن هوية الذين كانوا يقاتلون في صف الروم. ولكنه يذكر أنه كان على رأس جيشهم ستة قواد من الروم (٦٧). وقد يكون من الممكن أن نستنتج من هذه الإشارة أن المقاتلين كانوا من السكان المحليين أو من رجالات القبائل التي كانت ترتبط بحلف مع بيزنطة مع بعض من جند الجيش البيزنطي النظامي، أما القادة فكانوا من الروم.

وعلى الرغم من أنه لا يدخل في نطاق هذا البحث الحديث عن سير عملية الفتح وأحداثها، إلا أننا لا نملك إلا استقصاء ما في المصادر من معلومات حول هذا الموضوع لنفيد منه في الوصول إلى بعض ما يمكن أن يدلنا على مواقف السكان المحليين من هذه العملية. ففي الحديث مثلاً عن مسيرة خالد بن الوليد من العراق إلى الشام، نجد في مصادرنا ما يشير إلى القتال الذي وقع بين خالد وقبائل كندة وإياد التي كانت تنزل صَنْدَوْداء (قرب عين التمر) وانتصار خالد عليهم وعلى من كان فيها من عجم (٦٨). وكذلك قابل جمعاً لبني تغلب بن وائل في موقع يقال له المُصَيَّخ والحُصَيْد، وقد ارتدوا، فهزمهم وسبى وغنم، وأرسل بالسبي إلى أبي بكر (٦٩)، الأمر الذي يدل على أنهم كانوا قد أسلموا في حياة الرسول، وارتدوا مع من ارتد من العرب زمن أبي بكر. وكذلك كان حاله مع بني كلب الذين كانوا ينزلون ماء يقال له قراقر، وقوم من بهراء كانوا ينزلون مع بني كلب في سُوى (٧٠). وحين وصل إلى قرقيسيا «خرج إليه صاحبها في خلق، فتركه وانحاز إلى البر

٦٦. البلاذري، فتوح، ص ١٥١
٦٧. المصدر السابق. ص ١٥١ ـــ ١٥٢
٦٨. المصدر السابق، ص ١٥٢
٦٩. المصدر السابق، نفس الصفحة.
٧٠. المصدر السابق، ص ١٥٣

ومضى لوجهه»، وتابع مسيرته فوصل أركة فأغار على أهلها وحاصرهم وفتحها صلحاً على شيء أخذه منهم للمسلمين، وأتى دومة الجندل ففتحها ثم اتى قُصَم» فصالحه أهلها من قضاعة وكتب لهم أماناً، «ثم أتى تدمر فامتنع أهلها وتحصنوا، ثم طلبوا الأمان، فأمنهم على أن يكونوا ذمة، وعلى أن قروا المسلمين ورضخوا لهم، ثم أتى القريتين فقاتله أهلها، فظفر وغنم، ثم إلى حوارين.. فأغار على مواشي أهلها، فقاتلوه، وقد جاءهم مدد أهل بعلبك، وأهل بصرى، وهي مدينة حوران، فظفر بهم فسبى وقتل. ثم أتى مرج راهط فأغار على غسان في يوم فصحهم، وهم نصارى فسبى وقتل، ووجه خالد بشر بن أبي أرطأة العامري من قريش وحبيب بن مسلمة الفهري إلى غوطة دمشق فأغارا على قرى من قراها...» (٧١). وهكذا فقد صادف خالد في طريقه من العراق الى الشام نوعين من السكان: بدواً، وحضراً، وقد اضطر لقتالهم جميعاً، ولم تصمد أمامه أية جماعة تصدت للوقوف في وجهه. ولكن الذي يظل غير واضح هو أسباب وقوفهم في وجهه. هل لأنهم كانوا على النصرانية وجاء هو ليفرض عليهم الإسلام؟! أم هل لأنهم اعتبروه غازياً دخيلاً يريد احتلال أرضهم، فآثروا حربه وعدم الخضوع له!! وفي محاولة الإجابة على هذا التساؤل يبدو لنا أن أي جواب لا بد وأن يعتمد على شيء كثير من التخمين والظن، لأن مسألة اعتناق جميع هذه القبائل للنصرانية مسألة مشكوك فيها إذ ليس هناك من إشارة صريحة لذلك سوى ما جاء عن احتفال بني غسان بفصحهم، وما قد يفهم من الجملة التي تقول: «فأمنهم على أن يكونوا ذمة»، وذلك عند حديثه عن موقف أهل تدمر. أما الآخرون فلا نجد في النص ما يشير إلى اعتناقهم النصرانية. وقد يكون من المقبول أن نفترض أن القبائل غير النصرانية في هذه المرحلة المبكرة من الفتح، اعتبرت العمليات العسكرية التي يقوم بها المسلمون، غزوا غريباً بقصد احتلال أرضهم وامتلاك خيراتهم، فوقفوا منه موقفاً معادياً، بدليل أن مواقف العديد منهم ستتغير بعد أن تتضح لهم صورة الفتح وأهدافه، وسينقلب هذا البعض من العداء الى التحالف والمشاركة في العمليات العسكرية الى جانب المسلمين كما سنرى.

وإذا تابعنا سير عمليات الفتح زمن أبي بكر لوجدنا أن أول مدينة سورية يفتحها المسلمون هي مدينة بصرى، وأن الذي فتحها هو خالد بن الوليد بعد أن شارف في مسيرته

٧١. المصدر السابق، ص ١٥٤

من العراق على أبواب دمشق فخرج اليه أسقفها وقدم له الضيافة، ثم تابع مسيرته حتى وصل بصرى. و يبدو أنه كان على رأس بصرى بطريق خرج ليلقى خالداً وجيش المسلمين الذي تجمع حوله، خارج حدودها. ولكن البطريق وصحبه من المقاتلة تراجعوا حتى دخلوا مدينتهم وطلبوا الصلح من خالد، فصالحهم «على أن يؤدوا الجزية. وذكر بعض الرواة أن أهل بصرى صالحوا على أن يؤدوا عن كل حالم ديناراً وجريب حنطة. وافتتح المسلمون جميع أرض كورة حوران وغلبوا عليها» (٧٢). و يفهم من هذه الرواية أن بصرى كانت على النصرانية، وأن أهلها بقوا على دينهم ففرضت عليهم الجزية. وليس هنالك ما يشير الى التركيب السكاني لبصرى.

وبعد فتح بصرى الذي تم لخمس بقين من شهر ربيع الأول عام ١٣ هـ، سار خالد و بقية القادة المسلمين باتجاه فلسطين والتقوا عمرو بن العاص الذي كان يواجه تجمعاً كبيراً للجيوش البيزنطية يقدره البعض بمائة ألف (٧٣). وقد جرت هناك المعركة المعروفة باسم «يوم أجنادَيْن»، وهي موقع بين الرملة و بيت جبرين. وتذكر المصادر العربية أنه كان على الروم تذارق، أخو هرقل لأبيه وأمه على حد زعم ابن اسحق، أو القُبْقَلار (٧٤)، على حد زعم عروة بن الزبير «وكان هرقل استخلفه على أمراء الشام حين سار الى القسطنطينية، وإليه انصرف تذارق بمن معه من الروم». وقد استخدم القبقلار رجلاً عربياً من قضاعة، ولعله كان على النصرانية، يتجسس على الجيش الاسلامي. وعاد هذا الجاسوس ليخبر الروم بقوة العرب وحماسهم. وأياً كان الصحيح في أمر هذا الخبر، فقد جرت المعركة، وانتصر فيها العرب المسلمون نصراً مؤزراً وقتلوا القائد الرومي، وآلافاً من رجاله (٧٥). ويمكن أن نعتبر التركيب البشري للجيش الذي قاتل الى جانب الروم في أجنادين مثالاً على تركيب بقية الجيوش التي قاتلت إلى جانبهم في أغلب معارك الفتح في بلاد الشام. فقد كان جيش الروم يتألف من جند «روم» أي غير عرب، أو ما يمكن اعتباره فرقاً من الجيش البيزنطي النظامي، و بعض من رجالات القبائل العربية التي كان

---

٧٢. المصدر السابق، ص ١٥٥، والطبري، ج ٣ ص ٤١٨

٧٣. البلاذري، فتوح، ص ١٥٦

٧٤. القبقلار، هي Cubiculorius، وتعني: الحاجب

٧٥. انظر التفاصيل في، الطبري، ج ٣، ص ٤١٧ — ٤١٨.

بعضها على النصرانية، وبعضها الآخر في حلف مع الروم. يقول البلاذري في حديثه عن وقعة أجنادين: «.... وشهدها الروم زهاء مائة ألف، سرَّب هرقل أكثرهم وتجمع باقوهم من النواحي...» (٧٦). وواضح أن كلمة «سرّب هرقل أكثرهم» تعني أن هرقل أرسل غالبيتهم، وأما الباقون فكانوا جنداً روماً موجودين في نواحٍ مختلفة من بلاد الشام، تجمعوا وانضموا الى بقية رفاقهم. وكأنه بذلك ينفي وجود أية فرق محلية في هذا الجيش. و يبدو أيضاً أن قيادات هذه الجيوش المختلطة، كانت دوماً لقواد روم، ولا نسمع باسم قائد عربي تولى قيادة معركة ضد العرب الذين قدموا فاتحين. وكمثل أجنادين كانت الياقوصة أو الواقوصة (٧٧).

وإذا استعرضنا بقية معارك الفتح بعد أجنادين والياقوصة والتي جرت كلها زمن الخليفة عمر بن الخطاب لوجدنا أن الجيوش التي وقفت في وجه الفاتحين العرب المسلمين كانت كلها كمثل الجيش الذي قاتل في أجنادين: جند روم وعرب، وقادة روم، يقاتلون فيهزمون، وتتجمع فلول الروم في مكان يظنون أنه أكثر أمناً لهم. ففي الحديث عن يوم فِحْل من الأردن يقول البلاذري: «وكان سبب هذه الوقعة أن هرقل لما صار الى أنطاكية، **استنفر الروم وأهل الجزيرة** وبعث عليهم رجلاً من **خاصته وثقاته** ... **وقُتل بطريقهم** وزهاء عشرة آلاف معه وتفرق الباقون في مدن الشام، **ولحق بعضهم بهرقل** ....» (٧٨). وكذا كانت الحال في مرج الصُفَّر (٧٩)، وفي الأخبار التي نجدها في المصادر عن فتح جميع مدن الأردن (٨٠)، ما عدا طبرية إذ أن أهلها كانوا قد صالحوا المسلمين على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وذلك في أخريات أيام أبي بكر، ثم ما لبثوا أن نقضوا الصلح بعد أن آل الأمر لابن الخطاب، إذ جاءهم مدد من الروم فأمر أبوعبيدة بن الجراح عمرو بن العاص بغزوهم مرة ثانية، فسار إليهم عمرو، فصالحوه على مثل الصلح السابق (٨١). الأمر الذي يوضح أن

٧٦. البلاذري، فتوح، ص ١٥٦

٧٧. المصدر السابق، ص ١٥٧، والطبري، ج ٣، ص ٤١٩

٧٨. البلاذري، فتوح، ص ١٥٨، والطبري، ج ٣، ص ٤٣٤ — ٤٣٥

٧٩. مرج الصُفَّر: موقع قرب دمشق (منطقة الكسوة وخان دنّون الحالية). من أجل أخبار الموقعة، أنظر البلاذري، فتوح، ص ١٦٢، والطبري، ج ٣، ص ٤٣٦

٨٠. البلاذري، فتوح، ص ١٦٠

٨١. المصدر السابق، نفس الصفحة.

أهل طبرية كانوا على النصرانية، وطبيعي الا يرحبوا بمقدم فاتحين يخالفونهم في الدين.

وسارت عمليات الفتح بعد ذلك على النحو المعروف فشملت بعد أجنادين وفحل، دمشق وبعلبك وحمص. وتوضح لنا الأخبار الواردة في المصادر أن هرقل الذي كان يراقب هذه المعارك من معقله في أنطاكية جمع جيشاً قوامه ما يزيد على المئة ألف مقاتل، وأن هذا الجيش كان يضم:

١. وحدات نظامية بيزنطية، وطبيعي أنها تتألف من مقاتلين غير عرب.

٢. فرقاً من أنطاكية وقنسرين وحلب وحمص، وأغلب الظن أنهم من السكان المحليين غير العرب والذين كانوا على النصرانية.

٣. اثني عشر ألف مقاتل أرمني يقودهم قائد تذكر المصادر العربية أن اسمه جرجه (أي جورج).

٤. اثني عشر ألف مقاتل من رجالات القبائل العربية المقيمة في الشام وعلى رأسهم الأمير الغساني جبلة بن الأيهم (وكان على النصرانية كما هو معروف)، وبينهم رجالات من قبائل: لخم وجذام والقين وبلي وعاملة وغسان وقبائل أخرى من قضاعة.

وكان يقود هذا الجيش المختلط قائدان: أحدهما خصي تدعوه المصادر العربية الصَقَّلاّر(٨٢)، والآخر باهان، وهو فارسي كان يدين بالنصرانية وانخرط في الجيش البيزنطي(٨٣). وواضح من كل ما سبق أن الرابطة التي كانت تؤلف بين أفراد الجيش البيزنطي هذا هي:

١. الهوية البيزنطية كهوية سياسية

٢. النصرانية كانتماء ديني، بما في ذلك القبائل العربية التي قاتلت إلى جانب بيزنطة في هذه المعارك وضمن الإطار العريض لهذا الجيش الذي حارب تحت لواء الامبراطورية البيزنطية، وكان قادته من ثقات الامبراطور والمقربين منه(٨٤).

---

٨٢. الصقلار، هي الصيغة العربية لكلمة Sacellarius، ومعناها: الخازن.

٨٣. Donner, Op. cit., P. 132. وانظر أيضاً، اليعقوبي، تاريخ، ط. دار صادر، بيروت ١٩٦٠، ج ٢، ص ١٤١

٨٤. انظر أسماء بعض هؤلاء القادة في، الطبري، ج ٣، ص ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٣، ٥٩٨، ٦٠١ وسواها.

وإذا ما توقفنا عند موقف سكان بعض المدن من الفتح والفاتحين، فإنا نجد، على الرغم من شح المعلومات المباشرة المتوفرة في المصادر حول هذا الموضوع، أن أغلب المدن لم تستسلم للفاتحين بسهولة. فمدينة دمشق مثلاً خضعت لحصار دام سبعين يوماً وليلة. وكان الحصار شديداً وجرت أثناءه مناوشات وترامي بالمجانيق(٨٥). وكان أهل دمشق ينتظرون المدد من هرقل. وحين أيقنوا أن لا أمل لهم بوصول مدد يساعدهم على فك الحصار المضروب عليهم وهنت عزيمتهم، فقبلوا بالصلح بعد أن هاجم خالد بن الوليد وصحبه أسوار المدينة وتسلقوها وفتحوا ثغرة فيها، ودخل الجيش المسلم المدينة التي كانت في حال من الذعر والهلع الشديدين(٨٦). «وكان صلح دمشق على المقاسمة، الدينار والعقار، ودينار عن كل رأس، فاقتسموا الأسلاب... وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب(٨٧)، من كل جريب أرض، ووقف ما كان للملوك ومن صوّب معهم فيئاً(٨٨)».

وكما امتنعت دمشق على الفاتحين فاضطروا لحصارها، كذلك كان حالهم مع حمص التي ظلت مغلقة أبوابها في وجه الجيش الإسلامي طيلة فصل الشتاء، آملة أن يجبر البرد وقساوة الطقس هذا الجيش على التراجع. و يبدو أن أهل حمص انقسموا إلى فئتين: فئة ترى أن قوة المسلمين لا تدفع وأن الاستسلام والصلح أفضل لهم، وفئة ترى استمرار المقاومة والصمود. و يبدو أن الحصار طال بهم وساءت حالتهم ووقع زلزال في المدينة أدى إلى خراب بعض البيوت، والمنشآت، الأمر الذي اضطرهم إلى طلب الصلح، «فصالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام، على كل جريب أبداً أيسروا أو أعسروا، وبعضهم على قدر طاقته، إن زاد ماله زيد عليه، وإن نقص نقص، وكذلك كان صلح دمشق والأردن، بعضهم على شيء إن أيسروا وإن أعسروا، و بعضهم على قدر طاقته، وولّوا معاملة ما جلا ملوكهم عنه»(٨٩). ولم تختلف الحال مع بيسان ومدن فلسطين الداخلية

---

٨٥. الطبري، ج ٣، ص ٤٣٨

٨٦. المصدر السابق، ص ٤٣٩ — ٤٤٠

٨٧. الجريب: مقدار من الأرض. ونقل عن قدامة: إن ثلاثة آلاف وستمائة ذراع.

٨٨. الطبري، ج ٣، ص ٤٤٠.

٨٩. المصدر السابق، ص ٦٠٠.

الأخرى، فكلها خضعت لحصار المسلمين أولاً واضطرت بعد ذلك للاستسلام والصلح. أما مدن أواسط سورية وشمالها كحلب وقنسرين ومنبج وإنطاكية، فقد كانت مقاومتها أشد، كما كانت تنتقض على القادة الذين وجهوا لفتحها كلما آنسوا ضعفاً من جانب الفاتحين أو جاءهم مدد جديد من بيزنطة، الأمر الذي يوضح أن سكان هذه المدن، ولا سيما مدن قنسرين وأنطاكية والجزيرة، كانوا أكثر ولاء لبيزنطة من سكان مدن جنوب سورية والأردن وفلسطين. وهذا أمر طبيعي فرضه الواقع الجغرافي والبشري. فلجنوب بلاد الشام حدود مشتركة مع الحجاز من جهة، ونزلت به قبائل عربية منذ القديم وقبل الفتح من جهة أخرى. هذا فضلاً عما كان له مع عرب الجزيرة من علاقات تجارية منذ الجاهلية. وقد لاقى أبو عبيدة وقادته عنتاً في توطيد سلطان الخلافة في تلك المناطق الشمالية التي نقضت الصلح معه أكثر من مرة(٩٠).

ولعل ما تفردت به مدينة القدس عن بقية المدن الشامية هو أنها رغم الحصار الطويل الذي خضعت له، رفضت أن تصالح إلا إذا كان متولي عقد الصلح هو عمر بن الخطاب نفسه(٩١). وعندنا أن السبب في هذا، ما كان لمدينة القدس من مكانة متميزة لمركزها الديني الهام، الأمر الذي جعل أهلها يحرصون على ضمانة بعقد يتولاه الخليفة بالذات. وقد كان صلح القدس على مثل شروط أهل مدن دمشق. ولعل ما يلفت النظر أن السامرة بالأردن وفلسطين عوملوا معاملة خاصة، إذ أن أبا عبيدة صالحهم على جزية رؤوسهم فقط، وأطعمهم أرضهم، وذلك على حد زعم البلاذري لأنهم «كانوا عيوناً وأدلاء للمسلمين»(٩٢). وفي هذا انسجام تام مع موقف الجالية اليهودية في مدينة حمص، إذ تذكر المصادر أن المسلمين همّوا بترك حمص إبان معركة اليرموك، ليجمعوا جمعهم للوقوف في وجه الجيش البيزنطي الكبير الذي تجمع في اليرموك، كما عرضوا إعادة ما كانوا أخذوه من أهل حمص من خراج لأنهم شغلوا عن نصرهم والدفع عنهم، فما كان من يهود حمص إلاّ أن نهضوا وقالوا: «والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلاّ أن نُغلب ونُجهد، فأغلقوا

٩٠. For a detailed account of the Conquest of the Cities of Northern Syria and the Jazira, see, Donner, Op. cit., p. 150.

٩١. الطبري، ج ٣، ص ٦٠٨

٩٢. البلاذري، فتوح، ص ٢١٥ ــ ٢١٦

الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود...» (٩٣). وقد يكون لهذا الموقف من الأقليات اليهودية التي كانت تعيش في مدن غالبية سكانها من النصارى معناه الخاص. و يبدو أن اليهود وجدوا في الفتح الإسلامي للمدن الشامية التي كانوا يعيشون فيها كأقليات متنفساً لهم. فأيدوا الفتح ليتخلصوا من اضطهاد الغالبية النصرانية، التي كانت تؤيدها وتعتمدها السلطة البيزنطية الحاكمة. وقد وضح عداء النصارى للأقليات اليهودية التي كانت تعيش بينهم في شروط الصلح الذي عقده عمر بن الخطاب مع أهل إيلياء. إذ طلب أهل إيلياء النصارى من عمر ألا يسكن مدينتهم أحد من اليهود، وقد وافق عمر على ذلك، ونص في معاهدة الصلح معهم من جملة ما نص على «ألا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود» (٩٤).

وكان آخر ما فتح من بلاد الشام المنطقة الساحلية الممتدة من شمال سورية حتى شواطىء لبنان وما يلاصقها من مناطق جبلية. وليس في المصادر ذكر لأية معركة جرت في المناطق الجبلية هذه، وذلك على ما يبدو لطبيعتها الوعرة من جهة، ولما كانت تتمتع به مناطقها المختلفة من سيادة ذاتية. ويمكن القول إنه في مراحل الفتح الأولى ظلت الحياة في هذه المناطق الجبلية تسير سيرها العادي، ولم يصلها الفاتحون أو يطالها نفوذهم.

أما المدن الواقعة على الساحل السوري، فقد تعرضت لغزو الفاتحين، ولكنها لم تخضع لهم خضوعاً تاماً إلاّ في المرحلة المتأخرة من الفتح. ولعل السبب في ذلك أن البيزنطيين كانوا يمدون هذه المدن بالإمدادات والقوات عن طريق البحر، الأمر الذي ساعد أهلها على مقاومة الفاتحين، أو الانقضاض عليهم كلما آنسوا منهم ضعفاً. وقد أدى ذلك إلى قيام المسلمين باقامة قواعد لهم على سواحل سورية ومصر مهمتها التصدي للحملات البيزنطية البحرية التي كانت تشن على مدن الساحل التي كانت تخضع لهم قبل الفتح (٩٥). وظلت هذه المدن ولفترة غير قصيرة تتذبذب في ولائها، فمرة تخضع لسلطان الدولة الإسلاميّة ومرة ترفع راية العصيان عليها.

ولعله من المهم أن نلاحظ في ختام هذا الاستعراض المجمل لموقف سكان بلاد

٩٣. المصدر السابق، ص ١٨٧

٩٤. الطبري، ج ٣، ص ٦٠٩

٩٥. الطبري، ج ٤، ص ١١١ — ١١٢

الشام من الفتح الإسلامي، أن عدداً من المدن في بلاد الشام ظلت تحتفظ بولائها للسلطة البيزنطية حتى بعد الفتح، كما حاولت أكثر من مرة أن تنقض على السلطة الجديدة، ولكنها، وبعد أن ضرب الفاتحون المسلمون القوة العسكرية البيزنطية ضربة قاصمة، وجدت نفسها وحيدة، وأنها إذا ما قررت العصيان فعليها أن تعتمد على قوتها الذاتية دون أن تتوقع عوناً من الامبراطور البيزنطي، أو مساعدة من أية جهة خارجية أخرى. فآثرت القبول بما آل إليه أمرها والخضوع لحكامها الجدد.

وإذا أردنا تأكيداً لبعض الحقائق التي حاولنا تفصيلها في الصفحات السابقة، فيمكننا الإشارة الى ما يلي:

١. كان الفتح العربي لبلاد الشام جزءاً من مخطط بدأ تنفيذه منذ حياة الرسول والأساس في هذا المخطط، هو مبدأ عالمية الدعوة، متدرجاً من الأقربين، الى عرب الجزيرة، الى العرب خارج الجزيرة، الى شعوب العالم كافة.

٢. كانت مواقف القبائل العربية النازلة في المنطقة الحدودية بين الحجاز والشام والتي وقفت موقفاً معادياً من العمليات الأولى للفتح، مواقف تأثرت بعاملين: عامل الاستقلال القبلي ورفض التدخل من أية قوة خارجة عن إطار القبيلة، إلاّ ما كان في إطار التحالفات والمصالح الخاصة للقبيلة، ومن هذا القبيل كان تحالف غالبية هذه القبائل مع السلطة البيزنطية الحاكمة. وعامل الدين، إذ كان بعضها يدين بالنصرانية.

٣. سير العمليات الأولى للفتح يوضح خطة حكومة المدينة في أن يكون اللقاء الأول للفاتحين مع القبائل العربية المجاورة التي تعرفت على الإسلام قبل أن يغزو ديارها، وتربطها بالعرب المسلمين روابط القربى واللغة. كما أنها تأتي في ثالث سلم الأولويات بالنسبة لمبدأ عالمية الدعوة.

٤. فتح المدن جاء في مرحلة تالية وذلك بسبب التركيب السكاني لهذه المدن الذي كانت غالبيته غير عربية، ولأن هؤلاء السكان كانوا على النصرانية وبينهم أقلية يهودية. وهذا بطبيعة الحال يجعلهم في المرتبة الرابعة في سلم الأولويات الذي أشرنا إليه آنفاً. يضاف الى ذلك تمركز القوة البيزنطية العسكرية في هذه المدن، واستبسال هذه القوة في محاولتهم صد الفاتحين.

٥. في مجال فتح المدن يلاحظ أن العمليات العسكرية الأولى للفاتحين استهدفت المدن الواقعة في جنوب بلاد الشام، وأن سكان هذه المدن لم يستسلموا بسهولة، وكلها خضعت لحصار طويل من قبل العرب. ومن ثم انتقل الفاتحون الى مدن أواسط سورية وشمالها، وأخيراً مدن الساحل وما يلاصقها من منطقة جبلية، الأمر الذي قد يفهم منه تدرج هذه المدن في ولائها للسلطة البيزنطية من جهة، وصلاتها السابقة بعرب الجزيرة.

٦. التناقض في التركيب السكاني وتعدد الديانات، كانا من جملة العوامل التي سهلت مهمة الفاتحين العرب: [أمثلة: دمشق، حمص، إيلياء وسواها، حيث وجدت أقليات يهودية].

٧. لم نجد في مصادرنا ما يؤكد المقولة التي سادت في كتابات بعض الباحثين القدماء من أن سوء الإدارة البيزنطية من جهة، والخلاف المذهبي بين مسيحي سورية وبطريركية القسطنطينية من جهة أخرى، سهلت مهمة الفاتحين العرب، وبصورة خاصة فتح دمشق والقدس. لا بل إن هناك ما يؤكد أن العرب لاقوا مقاومة ضارية من سكان هذه المدن، وأنهم لم يستسلموا إلا بعد أن وجدوا أن لا قبل لهم بالاستمرار في المقاومة.

٨. في مصادرنا ما يشير إلى أن بعضاً من رجالات بعض القبائل العربية أصروا على رفض الإسلام، وحاولوا اللحاق بهرقل. وقد استطاع بعضهم تحقيق ذلك، على الرغم من ملاحقة الفاتحين لهم وقتل عدد عظيم منهم (٩٦).

هذا ولا بد من التنويه في خاتمة هذا البحث، بأننا لم نستطع أن نفيد في دراستنا هذه من المصادر غير العربية، كالمصادر اليونانية البيزنطية أو السريانية، ولعل أفضل هذه المصادر هو حولية ثيوفانس. ولكن ما عند ثيوفانس لا يخرج كثيراً عما نجده في المصادر العربية، ولا سيما ما جمعه الطبري من روايات حول هذا الموضوع. ولذا جاء بحثنا وقد اعتمد كلياً على معلومات قليلة وغير مباشرة، قدمنا من خلالها هذه الصورة التي اعترفنا سلفاً بأنها قد تكون غير دقيقة أو تنقصها التفاصيل الضرورية لاستكمالها. وعذرنا أن ما بين أيدينا من مصادر لم يسعفنا في فهم الحقيقة كاملة، كما كنا نشتهي

٩٦. انظر مثلاً، البلاذري، فتوح، ص ٢٢٤.

موقف الروم العرب من الاسلام

عبد المنعم ماجد
كلية الآداب ـــ جامعة عين شمس

قبل فتح العرب للشام، كانت لفظة : الروم(١)؛ تتردد في حوليات المسلمين؛ لتطلق سواء على البيزنطيين، الذين حلّوا مكان الرومان في الشام، أو على العرب الذين سكنوا بين الشام والحجاز، وقد أتى هذا التداخل(٢)؛ من أن هؤلاء، كانوا حلفاء للروم، وأن تميّزوا عنهم باسم : الروم العرب(٣)؛ وهي التسمية التي تلاشت تدريجياً بعد فتح الشام؛ أما الروم أنفسهم فقد عرفوا للعرب : ببني الأصفر(٤)؛ لكثرة الشّقر فيهم. كذلك عرف الروم العرب باسم آخر هو: العرب المتنصرة(٥)؛ لاعتناقهم النصرانية، وان كانوا على مذهب مخالف لمذهب بيزنطة؛ وهو المذهب اليعقوبي(٦)، الذي انتشر في الشام ومصر. ومع أنه؛ في بعض الأحايين؛ قد أطلق على سكان شمال الحجاز: الأعراب أو العربان(٧)؛ لوجود غالبية من البدو الرعاة في بيئتهم؛ فان لفظة : المستعربة(٨)، التي أطلقت عليهم أيضاً قد تعني اليهود، الذين سكنوا هذه المنطقة،

---

١. بتفصيل أيضاً : معجم البلدان، ط الخانجي، ٤ ص ٣٢٦ وما بعدها؛ انظر
Ency. de l'Islam (art Rum), 1 èd, t 3, p. 1255.
تعني جيلاً من الناس، أو أنها كلمة فارسية أو تركية.

٢. ملاحظة Cheira: La Lutte antre Arabes et Byzantins, Alexandria, 1943, p. 18 - 19.

٣. الطبري (Annales) ١ : ٢٠١٢، ٢٠١٦، ٢٠٢٣؛ انظر Cheira, Op. cit., p. 19.

٤. الطبري، ط. الحسينية، ٣ ص ٨٧ س ١٧؛ معجم البلدان، ٤ ص ٣٢٧ (آخر سطر).

٥. ابن الأثير، الكامل، ط Layde، ٢ ص ١٧٩ س ١١ ـــ ١٢، ٢١١؛ المسعودي، التنبيه، ط. القاهرة، ص ٢١٤، ٢٣٠.

٦. نسب هذا المذهب الى البطريق يعقوب البراذعي «Jacobus Baradaeus» الذي قال بالطبيعة الواحدة للمسيح، وليس بالطبيعتين كما في بيزنطة؛ وهذا ما يعبر عنه بالارثوذكسية. أنظر سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع، بيروت، ص ١٤٦.

٧. الطبري، ٣ ص ٨٤ س ٨؛ اليعقوبي، تاريخ، ط Lug-Bat ١ ص ٢٩٨ س ١٩.

٨. الطبري، ٣ ص ٧، ١ س ٢٥، ص ١١٠ س ٥. أطلقت على بني ثعلبة، بطن من حدس، التي تتكون من عرب الحجاز.

بمدلول أنهم ليسوا عرباً أصلاً، أو قد تعني من سكنها من أهل الحجاز، وهم العرب المستعربة، في رأي المؤرخين المسلمين الأوائل.

ولقد وجد كيان لروم العرب خاص بهم، فهم سكنوا المنطقة الواقعة في شمال الحجاز، على حدود الشام، حيث عرفت بلادهم باسم: برية الشام(٩)، أو بادية الشام(١٠)، أو ناحية الشام(١١)، وليست الشام ذاتها. و يؤيد ذلك، أن الطبري(١٢)، قد ذكر أن كل ما وراء الدرب(١٣)، فهو الشام(١٤) حيث سحرته أرض سورية، وهي أرض فلسطين، والأردن، ودمشق، وحمص، وما دون الدرب، فكانت برية الشام؛ من حيث تضاريسها؛ تتكون في أغلبها من صحراء ذات صخور بركانية، وسهول فيها أشجار، مثل: سهل البلقاء(١٥)، وهي قرى كبيرة، وسهل تبوك(١٦)، ووديان، مثل: وادي القرى(١٧) ووادي سرحان(١٨)؛ ومن شعب وثنيات؛ تتجمع فيها المياه، تحدد مواطن القبائل؛ قد يطلق عليها الخبط(١٩) أو الغائط(٢٠)؛ لتعني الأرض المنخفضة والفسيحة،

---

٩. معجم البلدان، ٦ ص٢١٧ س٣.

١٠. نفسه، ٣ ص٢٧٦ س٨. يقال لها البادية أيضاً.

١١. الطبري، ٣ ص١٠٣ س٨.

١٢. نفسه، ٣ ص٨٨ س ٢٠ وما بعدها. يقول النص: وكانت أرض سورية أرض فلسطين، والأردن، ودمشق، وما دون الدرب من أرض سورية، وكان ما وراء الدرب عندهم ــ الروم والشام... أرض سورية، وقد عرفت أنها سرة الشام.

١٣. جمعها الدروب، وهي الطريق التي تسلك في جبل اللكام، على حدود الروم: حيث تتصل بأنطاكية، معجم البلدان، ٧٨ ص٣٢٠، ٣٣٦، ٣٣٧ (وأيضاً نفسه، ٣ ص١٧ س ١، ٤ ص٤٨).

١٤. اسم الشام غلب عليه اسم سورية في الأول: ويمتد من الفرات الى رفح والعريش، وتدخل فيه البلقاء. معجم البلدان، ٥ ص٢١٨ وما بعدها.

١٥. نفسه، ٢ ص٢٧٦ ــ ٢٧٧؛ انظر Ency. de l'Islam (art al-Balka) 1 éd, t I, p. 635.

١٦. معجم البلدان، ٢ ص٣٦٥.

١٧. نفسه، ٧ ص٣٣ ــ ٧٤؛ أنظر Ency. de l'Islam (art Wadi al- Kura), 1 éd, t 4 p. 1135-6.

١٨. نفسه، ٥ ص٦٤؛ انظر Ibid, (art Sirhan), 1 ed, t 4, pp. 469 - 470.

١٩. قد تعني القمر. الطبري، ٣ ص١٠٥. وتعني الأرض أيضاً.

المصباح المنير، ١ ص٢٥١ ــ ٢٥٢.

٢٠. لها معنى الأرض المبلولة. أنظر Dazy: Suppl. 2, p. 216. و بعده

التي تتجمع فيها المياه، وتنبت فيها بعض الزروع مثل: النخيل.

فكانت التجمعات السكانية لروم العرب؛ لا تقتصر على تجمعات للبدو فقط، وانما على تجمعات حواضر أيضاً، التي كلما اقتربت من الشام صارت مدناً. فقد اعتبرت وادي القرى وتبوك ومؤتة وذات السلاسل وذات أطلاح ودومة الجندل خارج الحجاز(٢١)، وتيماء (تيمة) وفدك وخيبر- خيابر- خارج الشام(٢٢)؛ بينما معان ومآب وأيلة وعمان(٢٣)؛ وهذه الأخيرة تقع في طرف الشام، وهي قصبة أرض البلقاء، فقد اعتبرت من مدن الشام.

فكان الروم العرب في مجموعهم يتكونون من عصبيات؛ لا توجد لهم وحدات سياسية ظاهرة؛ وانما كانوا متفرقين في قبائل متعددة؛ معظمها من بطون قضاعة، التي لعلها من أصل يمني، من قبائل الجنوب. فكانت قبيلة كلب(٢٤) هي أهمها، التي انتشرت في الشام وشمال الحجاز(٢٥)؛ وان لم تتعد في الجاهلية أطراف الشام؛ فكانت غالبيتها من البدو الرعاة(٢٦). فكانت كلب مثل الغساسنة(٢٧) في الشام وهؤلاء ورثوا الضجاعمة- لها نفوذ قوي في برية الشام. كذلك جذام، وبلي، وعذرة، وجهينة، ولخم، وبهراء، وعاملة، ومعظمها من قضاعة أيضاً(٢٨)

ويبدو أن حروب الفرس الأخيرة في الشام؛ وتغلب هرقل «Heracliuse»،

---

٢١. الطبري ١: ١٦٠١، ١٦٠٤، ١٦٤٣، ١٦٩٢.
أوردها شعيرة. انظر Cheira: Op. cit., p. 20, n. 1d.

٢٢. المسعودي، التنبيه، ص ٢١٥: انظر

٢٣. معجم البلدان، ٦ ص ٢١٦- ٢١٧.

٢٤. بتفصيل: ابن عبد ربه، العقد، القاهرة، ١ ص ١٥١؛ انظر. كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، دمشق، ٣ ص ١٩٢؛ Ency of Isl (art Kalb) 2 ed, t4, p. 492 Sqq؛ ماجد، التاريخ السياسي ٣ ط ٦، ٢ ص ٩٢- ٩٣

٢٥. صبح الأعشى، ١ ص ٣١٦ امتدت بعد ذلك الى العراق، وعرفت مواطنها في هذه الأخيرة بسموات العراق. الأغاني، بولاق، ١ ص ٤٥؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٥ ص ٣٠٨ س ١٩.

٢٦. الأغاني، بولاق، ١ ص ١٠٩.

٢٧. معجم البلدان، ٣ ص ٣٧٨ س ٨- ٩، ٦ ص ٢٩١- ٢٩٣.

٢٨. انظر Cheira: Op. cit., p. 20.

الامبراطور البيزنطي، عليهم في ٦٢٢م؛ جعل للروم الاشراف الكلي على الشام وأطرافها؛ فكان لصراعهما صدى في القرآن الكريم، في سورة الروم(٢٩). فبعد أن كان الغساسنة، الذين سكنوا وادي عربة؛ المجاور لسهل القدس؛ يحكمون الشام للروم، وعرفوا للعرب بملوك الشام(٣٠)؛ فان الروم بعد انتصارهم على الفرس؛ قسّموا الشام أقساماً حربية؛ بثوا فيها حامياتهم، عرفت باسم Thema جمعها Themae (٣١) — وهو النظام الذي طبقه العرب في الشام، فيما عرف عندهم بالجند(٣٢).

وعلى عكس ما حدث في الشام؛ فان الروم لم يبثوا حامياتهم في برية الشام؛ ومع ذلك، وجدت لهم بعض مراكز نفوذ غير ثابتة، مثل: أذرح(٣٣) في كورة البلقاء(٣٤)، التي امتدت من البحر الميت حتى أطراف الشام الجنوبية، واعتبرت من أعمال دمشق؛ كما أن دومة الجندل، وهي في خارج أرض الحجاز؛ فقد اعتبرت من أملاك البيزنطيين(٣٥) أيضاً.

ولا شك أن الاسلام بلفظ القرآن الكريم كان يهدف الى تكوين أمة(٣٦) ذات كيان خاص من المسلمين؛ مادتها الأساسية من العرب. يظهر ذلك جلياً من دستور

٢٩. توجد سورة باسم الروم، برقم ٣٠، وهي سورة مكية، الا آية ١٧ فمدنية.

٣٠. ابن اسحق، فتوح مصر، القاهرة، ص٤٣، انظر ماجد، الدولة العربية ط. (٦)، ١ ص٨٨.

٣١. انظر. أرمان، الامبراطورية البيزنطية، تعريب طه بدر، ص ١٣١ — ١٣٣،

Le Monde Oriental de 395 a 1051, 2 éd,: Diehl et Marcais L'Origine ou regine des themas: Diehl; p. 223; 224; 288 dans l'empire byzantins (Etudes Byzantines) 1905, pp.276-292.

٣٢. التجند، هو التجمع، انظر. معجم البلدان، ١ ص١٢٥ — ١٢٦. والجند هو كل ناحية لها جند، البلاذري، فتوح، ص١٣٢.

٣٣. معجم البلدان، ١ ص١٦١ — ١٦٢.

٣٤. نفسه، ٢ ص٢٧٦ — ٢٧٧.

٣٥. المسعودي، التنبيه، ص ٢١٥؛ ابن سعد، الطبقات، Leyde، ٢/١ ص٤٤؛ انظر Cheira: Op. Cit; p. 21. عن الدوحة بعده.

٣٦. القرآن ١٠: ٤٧. هذه الكلمة معناها غير محدود؛ فقد تعني في الغالب طائفة دينية. أنظر

Wellhausen: The Arab Kingdom, transl. M. Wein. Calcutta, 1947, p. 7; Ency. de l'Islam (art Umma) I ed, t 4, pp. 1069 - 1070.

الجماعة الاسلامية الأول، الذي كتبه النبي بين أهل يثرب، الذين أصبحوا يعرفون بالأنصار، والمسلمين من قريش وهم المهاجرون؛ وهو ما عرف بالصحيفة(٣٧)؛ اذ نص فيها على أن المسلمين «امة»؛ تسودها الوحدة من دون الناس «واحدة»، أو جماعة(٣٨) دينية قائمة بذاتها.

ومن المؤكد أن النبي حينما تطلع إلى مشارف الشام، على أساس أنها أرض عربية مثل الحجاز؛ كان قصده اشعار عرب هذه النواحي بالاسلام؛ ونشر الدعوة الاسلامية بين الوثنيين من سكانها؛ فكان يسمي هؤلاء بالمشركين(٣٩)؛ مثلما سمى الوثنيين في الحجاز، واعتبرهم من الأعداء(٤٠) أيضاً. وليس أدل على ذلك من نزول سورة براءة(٤١)، التي يتبرأ فيها الله ورسوله من أن يحج الى مكة الا المسلمون، واستجاز قتل من يدخلها منهم. فدخول عرب هذه النواحي في الاسلام؛ من شأنه أن يجعل مبدأ الأمة الواحدة؛ يتسع نطاقها من الحجاز الى شمالها في برية الشام. أما بالنسبة للنصارى واليهود، وهم كثيرون في هذه النواحي ــ وقد أصبح النبي يعرف لهم باسم: محمد(٤٢) فانهم لم يكونوا يقفون من الاسلام موقفاً عدائياً؛ لأن دعوة الاسلام؛ تعترف باليهودية والنصرانية، ولا تعاديهما.

و يؤيد ذلك ما كان يقوم به النبي نفسه والقادة المسلمون من محاولة لنشر الاسلام في هذه النواحي؛ بما يصح تطبيقه على أهل الجزيرة العربية أجمعين؛ فكان القائد المسلم؛ بألفاظ المؤرخ الطبري(٤٣)؛ ينهي الناس عن الدعاء الى القبائل والعشائر، وليكن

---

٣٧. سيرة ابن هشام، ط Gottingen. ١ ص٣٤١ ــ ٣٤٤؛ انظر. حيد الله، مجموعة الوثائق، ص١ ــ ٧.

٣٨. انظر الريس، النظريات السياسية والإسلامية، القاهرة، ص ١٠ هامش ٤.

٣٩. الطبري، ٣ ص ٦٠ س٢٣.

٤٠. نفسه، س ص ٦١ س ٢٤.

٤١. القرآن سورة ٩، وتسمى سورة التوبة أيضاً.

٤٢. انظر. بعده.

٤٣. الطبري، ٣ ص١٥٧ ــ ١٥٨. وأيضاً انظر. عبد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة ١٩٤٧، برقم ١٩١ ص١٦٨، ورقم ١٩٢ ص ١٦٩. منها حض على اقامة الصلاة لوقتها، وايتاء الزكاة، وهما كتابان من رسول الله لأهل دومة الجندل ولقبيلة كلب.

دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له؛ فمن لم يدع الى الله ودعا الى القبائل والعشائر؛ فليقطعوا بالسيف. كذلك كان يعلمهم القرآن، وألا يمسه الواحد إلا وهو طاهر، ويفقههم في الدين، ويعلمهم الوضوء بقواعده، والصلاة، والسعي إلى الجمعة اذا نودي لها، ويعلّمهم معالم الحج الأكبر، والحج الأصغر، وهو العمرة، ويأمرهم بالمعروف، وينهى عن المنكر، وينهى الناس عن الظلم؛ لأن الله عزّ وجل يكره الظلم، أما من أسلم من يهودي أو نصراني اسلاماً خالصاً من نفسه، ودان بدين الاسلام؛ فانه من المؤمنين، له مثل ما لهم؛ وعليه مثل ما عليهم، ومن أبقى على نصرانيته أو يهوديته؛ فانه لا يفتن عنها.

يضاف الى ذلك أن هذه النواحي؛ كانت تعتبر منافذ هامة للتجارة بين الشام وأنحاء الجزيرة العربية؛ مما كان سبباً في اندلاع الصراع بين مكة والمدينة، وما ترتب على ذلك من حروب ووقائع؛ وكان النبي نفسه قد ذهب في تجارة الى الشام؛ قبل اعلان دعوته، وأن أبا سفيان عدوه، كان قد أتى في تجارة منها. ومن ناحية أخرى، فقد يكون تأديب عرب هذه النواحي، الذين يعتدون على عرب الحجاز؛ السبب في مباشرة تحركات النبي فيها.

ومن المؤكد أن النبي قد زاد من تحركاته المكثفة في هذه النواحي؛ بعد عقد هدنة الحديبية(٤٤) مع المكيين، في السنة السادسة من الهجرة (٦٢٢م)، التي اعتبرها القرآن الكريم فتحاً مبيناً للنبي(٤٥)؛ لأنه بمقتضى هذا الصلح استطاع أن يأخذ أول اعتراف من مكة؛ بزعامته السياسية بين العرب؛ وأنه قام من قبل بحملاته فيها؛ مما يؤكد مقاصده المبكرة نحوها؛ فكان يقوم بها بنفسه(٤٦) مع أنه لم يفعل ذلك في أي

---

٤٤. ابن هشام، سيرة، ٢ ص٧٤٧؛ انظر مجموعة الوثائق، ص ٣ وما بعدها (١١). والحديبية هي مكان أسفل مكة. السيرة، ٢ ص٧٤٧. وقد الى بئر. الخشني، شرح السيرة. القاهرة، ٢ ص٣٣٩؛ انظر.

Ency de l'Islam (art al-Hudayiba), 2 ed, t 3, pp. 557-8.

٤٥. القرآن ٤٨ : ١

٤٦. مثل غزوة بني الحيان في جادى الأولى في سنة ست من الهجرة (٦٢٧)، وأظهر أنه يريد الشام. الطبري، ٣ ص٥٩ — ٦٠. وغزوة بني المصطلق، نفسه، ٣ ص ٦٠ وما بعدها وهي التي ظهر بسببها حديث. نفسه، ٣ ص٦٧ وما بعدها.

مكان آخر، كما كان يرسل إليها أفراداً من أسرته مثل: ابني عمه: علي بن أبي طالب(٤٧)، وجعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة ابنه بالتبني وبعض كبار صحابته، مثل: «أبي بكر(٤٨) وعمر بن الخطاب(٤٩) ومع ذلك، فان تحركه في برية الشام، كان دائماً بمقدار، فسميت: غزوات أو سرايا(٥٠)؛ حملت شعارات الإسلام، وهي رايات محمد(٥١)، دون أن تسمى: فتوحات؛ على أساس أنها علاقة عربية صرفة؛ موجهة من عرب الى عرب، ولا تتعداهم الى الروم.

وعلى العكس؛ فان الروم من ناحيتهم؛ بدأوا يستشعرون الخطر من تحركات النبي الى مشارف الشام؛ بحيث أصبح هرقل، امبراطورهم؛ دائم السؤال عن الزعيم الجديد، الذي ظهر في الحجاز، وقد أصبح يعرف له باسم: أحمد(٥٢) فسأل عنه أبا سفيان ابن حرب عدوه، لمّا كان بالشام، فوصفه(٥٣) له: على أن له أتباعاً من الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان، وحتى من النساء. وقد زاد اهتمام هرقل بالنبي؛ لما جاءه رسول منه، وهو: دحية بن خليفة الكلبي(٥٤)؛ من عرب هذه النواحي، فيذكر النص: أن هرقل دعا كبار رجال قومه للتشاور في شأن أحمد، بحيث أصبح يقيم في الشام، أكثر من ذي قبل.

ولقد أتت حملات النبي وقواده في برية الشام ثمرتها السريعة، مثملة في تواجد أنصار للإسلام بين قبائلها وتجمعاتها المختلفة، تقبل الجباه للأتاوة، أو توفد الوفود، و يأتي زعماؤها الى المدينة لعقد الاتفاقيات. ولا يعني هذا أن الولاء للمدينة كان هشاً

---

٤٧. أرسل بسرية الى فدك، نفسه، نفسه، ٣ ص ٨٣ س ٢٠.

٤٨. الطبري، ٣ ص ٨٤ س ١١.

٤٩. نفسه، ٣ ص ٩٩ س ٨.

٥٠. مفردها غزوة. نفسه، ٣ ص ٦٠ وما بعدها. مفردها سرية نفسه ٣ ص ١٠٣ س ٥.

٥١. نفسه، ٣ ص ١٤٩ س ٦.

٥٢. نفسه، ٣ ص ٨٨ س ٨.

٥٣. نفسه، ٣ ص ٨٦.

٥٤. نفسه، ٣ ص ٨٧ — ٨٨.

أو اسمياً ؛ وانما وجدت اتفاقيات(٥٥) ؛ تنص على قبول الاسلام، ولدينا صيغة بعضها. ولكن وان كان البعض قد قبل التقارب مع المدينة، فإن البعض الآخر قد رفضه تماماً.

ولدينا أسماء الغزوات والسرايا الاسلامية؛ يوردها المؤرخون المسلمون في حولياتهم بتفصيل وتكرار، ليس من السهل تتبعها، أو حتى ترتيبها، لتداخلها، وانتشارها في أماكن متعددة. ولكن وان كان بعضها قد بدأ صغيراً؛ لا يتعدى خمسة عشر فرداً(٥٦)؛ إلا أنها ما لبثت أن أخذت في النمو؛ وفقاً لنمو نفوذ المدينة؛ فبلغت أعدادها الآلاف.

وابتداء نذكر ما قام به النبي وقواده نحو احدى الحواضر الهامة في برية الشام، وهي دومة الجندل(٥٧)، التي تقع بالجوف في شمال الحجاز، أو فيما عرف بالخبط أو الغائط(٥٨)؛ أي المكان الذي تتجمع فيه المياه؛ مما يدل على أنها كانت واحة، تتوفر لها وسائل الماء. ولعل اسم دومة ــ كما يذكر المؤرخون المسلمون الأوائل ــ هو اسم لأحد أبناء اسماعيل؛ حيث كانت مهداً للعرب المضرية، قبل أن تسكنها قبيلة كلب اليمنية، أما الجندل فهو الحضر. كذلك كانت دومة الجندل بمثابة الطريق التي تربط مدن الحجاز بالشام، فكانت تربط وادي سرحان بسهل تبوك. وقد كان أهل الدومة في أول أمرهم، مثل عرب الحجاز وثنيين، يعبدون صنماً اسمه: ود(٥٩)؛ ولكن معظمهم تحوّل الى المسيحية، واعترفوا بسلطة الروم عليهم، وفي حياة النبي ظهرمنهم زعماء، وهم: الأصبغ بن عمرو، وأكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن، وامرؤ القيس بن الأصبغ.

وقد كانت أولى غزوات النبي لدومة الجندل، في السنة الخامسة(٦٠) للهجرة

---

٥٥. مثلاً اتفاقية مع أكيد وأهل دومة الجندل. الوثائق، ص١٦٦ وما بعدها (١٩٠)، وبعده.

٥٦. الطبري، ٣ ص٨٣ س٨. قام بها زيد بن حارثة في السنة السادسة (٦٢٧م)

٥٧. عنها بعده: وبتفصيل: معجم البلدان، ٤ ص١٠٦ وما بعدها.
Ency. of Isl. (art Dumat al-Jandal), 2 ed, t 2, p. 624 sqq.

٥٨. انظر. قبله. تقع في غائط من الأرض. معجم البلدان، ٤ ص١٠٦ــ ١٠٧.

٥٩. الكلبي، كتاب الأصنام، القاهرة، ص١٠ س٣؛ ابن هشام، السيرة، ٥٢ و٩٠٣؛ انظر. جواد علي، تاريخ العرب، ٢ ص٣١٥.

٦٠. الطبري، ٣ ص٤٣ س١٧ وما بعدها؛ انظر Caetani Ann, an 5 no. 4; Chson. an 5 no. 2.

(٦٢٦م)، وصفت بأنها ضد الروم(٦١)؛ وكانت بهدف الاستطلاع، وابراز العضلات. أما الغزوة الثانية؛ فكانت في نطاق تحرك واسع، من حملات متعددة له ولقواده(٦٢)؛ ففي السنة السادسة للهجرة (٦٢٧م)؛ أظهر أنه يريد الشام(٦٣)، وقد أدت هذه الغزوة إلى تحول زعيمها الأصبغ بن عمرو الى الشام، وتزويج ابنته لعبد الرحمن بن عوف(٦٤)؛ أحد قواد الحملة. وفي العام ذاته أرسل النبي رسالة مع شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني(٦٥)، الذي هو صاحب دمشق. يؤمنه فيها على ملكه. وفي السنة التالية، وهي السابعة من الهجرة (٦٢٨م)، لم نسمع شيئاً عن دومة الجندل، مما يدل على بقاء ولائها للمدينة، وانما سعى النبي الى القضاء على الخطر اليهودي في خيبر وفدك ووادي القرى، وهي مجموعة من الواحات في أقصى الحجاز(٦٦)؛ اعتبرت من قرى الحجاز وريفها(٦٧)؛ بسبب أنهم كانوا يؤلبون القبائل العربية في هذه النواحي، بعد أن أخرج النبي اليهود من المدينة، وقد عرف لهم بملك الحجاز محمد(٦٨). فقام بغزوهم، فصالح من رضي المصالحة، وحارب من امتنع عليه منهم، ففتح خيبر(٦٩)؛ حصناً حصناً «خيابر»(٧٠) مثل: حصني: الوطيح والسلالم(٧١)؛ وان ترك أراضيهم في أيديهم، وأقام بينهم عماله(٧٢) واستولى على جزء من محصولهم(٧٣)، ومن قبل، أرسل النبي علياً، في سرية الى

٦١. المسعودي، التنبيه، ص ٢١٥؛ انظر Cheira: Op. cit., p. 22.

٦٢. الطبري، ٣ ص ٥٩ وما بعدها.

٦٣. نفسه، ٣ ص ٥٩ س ٢٥.

٦٤. نفسه، ٣ ص ٨٣ س ١٦ وما بعدها.

٦٥. نفسه، ٣ ص ٨٤، ٨٨،

٦٦. البلاذري، فتوح، ص ١٥.

٦٧. الطبري، ٣ ص ٩٦ (آخر سطر).

٦٨. نفسه، ٣ ص ٩٤ (آخر الصفحة).

٦٩. البلاذري، فتوح، ص ١٥ خيبر تعني الحصن: معجم البلدان، ٤ ص ٤٩٥ وما بعدها.

٧٠. جمع خيبر لأنها جمعت بما حولها. نفسه، ٤ ص ٤٩٤ ــ ٥.

٧١. الطبري، ٣ ص ٩٥ س ٩.

٧٢. أبو شام، السيرة، ٢ ص ٧٥٧.

٧٣. أبو يوسف، الخراج، القاهرة، ص ٥٩ ــ ٦٠.

فدك(٧٤)؛ من هذه النواحي، لأنهم كانوا يمدون يهود خيبر، الذين كانوا في عداء للمدينة. أما الغزوة الثالثة لدومة الجندل؛ فكانت في أثناء غزوة النبي لتبوك، في السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠م)، وصل بعدها زعيمها أكيدر الى المدينة، وكان(٧٥) نصرانياً فدخل في الإسلام، وعقد مع النبي اتفاقاً لدينا(٧٦) نصه كما وصل وفد من الدومة ليؤكد تحالفها(٧٧).

كذلك أرسلت حملات أخرى نحو اقليم حسمى(٧٨)، الذي يقع في شرقي الدومة، ويقال له: سهل «شروري» ويشرف على طريق الشام، وقد سكنته قبيلة جذام وبطونها. ففي السنة السادسة من الهجرة (٦٢٧م)، جاء زعيم جذام الى المدينة؛ وقدم هدية للنبي، هو عبد، وعقد اتفاقاً معه(٧٩) ومع أن بعض بطون جذام، مثل: سعد هذيم، وبني الضبيب أو (الضباب)(٨٠)، قد وافقتا على الحلف، إلا أن بطوناً أخرى لم تقبله، مثل: بني الضليع(٨١) ولكن حدث أن تشاجر أحد تجار المدينة، وقتل في هذه النواحي، فأرسل النبي حملة تأديبية اليها؛ تضمر الانتقام. ففي السنة السابعة من الهجرة (٦٢٧م)؛ أرسل اليها زيد بن حارثة(٨٢)؛ وهو عربي من هذه النواحي، اعتبر أبنا بالتبني للنبي، وكان أول من خرج في سرية في الاسلام، عرفت بغزوة القردة(٨٣)؛ وهي

---

٧٤. الطبري، ٣ ص٨٣ س٢٠ ــ ٢١.

٧٥. معجم البلدان، ٤ ص١٠٧ س١٢ ــ ١٣.

٧٦. البلاذري، فتوح، ص٦١؛ ابن سعد ٢/١٢ ص٣٦؛ انظر. حميد الله، مجموعة الوثائق، برقم ١٩٠ ص١٦٦ ــ ١٦٧.

٧٧. انظر Caetani. Chera an 9; n. 25 انظر Cheira: Op. cit., p. 25.

٧٨. عنه معجم البلدان، ٣ ص٢٧٦ ــ ٢٧٧. انظر الطبري، ٣ ص٨٣، ١٧١.

٧٩. السيرة، ص٩٦٢؛ انظر Cheira : Op. Cit, p. 23.

٨٠. الطبري، ٣ ص١٦٤.

٨١. نفسه، ٣ ص١٦٣.

٨٢. انظر الطبري ١: ١٥٥ ــ ٦؛ انظر Cheira: Op. cit, p. 23 ومقالة Ency. de ll'Islam (art Zaid b. Haritha), I ed, t 4, p. 1261

٨٣. الطبري، ٣ ص٥ ــ ٦.

مـاء مـن مـياه نـجـد، فـأصـابت عيراً لأ بي سفيان، وهو في طريق العودة من الشام الى مـكـة، فـقـتـلت واحداً، وأسرت اثنين. فهاجم زيد في اقليم حسمى(٨٤) بقسوة، ووصل الى وادي الـقـرى، في أطـراف الشام، واعتبر القوة الباطشة للمدينة، حتى أنه قتل امرأة اسـمـها أم قرفة(٨٥) ـــ وهي عجوزـ قتلاً شنيعاً، اذ شقها نصفين، وكان يفادي أسارى المـسلمين، ويختبر اسلام القوم بقراءة سور القرآن(٨٦)؛ مما جعل زعيم(٨٧) جذام يصل الى المـديـنـة، و يـوقـف العداء. وقد بقيت جذام مسالمة للمدينة، كما أرسلت سعد هذيم(٨٨) من بطونها ـــ وفداً للنبي، الذي أرسل من يأخذ صدقتها، والخمس من غنائمها.

و بـعد ذلك أرسل النبي غزوة مؤتة(٨٩) المشهورة، نسبة الى قرية في سهل البلقاء، في جمـادى الأ ولى سـنـة ٨ هـ (أغـسـطـس ٦٢٩م)، بـسـبـب ذبح أفراد سرية من عرب الحجاز؛ عددهم خمسة عشر رجلاً في مكان اسمه: ذات أطلاح(٩٠)؛ على يد خمسين رجلاً مـن جـذام؛ بـقـيـادة رجل اسمه سدوس؛ فقد دأب النبي من قبل على ارسال سرايا الى سـهـول الـبـلـقـاء، بقصد تقو ية أنصار المدينة فيها، وربما بسبب قتل أحد رسل النبي الى هـرقل(٩١)، وهو الحارث ابن عمير(٩٢)، على يد أمير من أمراء الغساسنة، هو شرحبيل ابن عمرو.

وقـد اعـتـبـرت غزوة مؤتة أكبر حملة أرسلت الى برية الشام؛ بلغت ثلاثة آلاف،

---

٨٤. نفسه، ٣ ص٨٣.

٨٥. نفسه، ٣ ص٨٣ ـــ ٨٤.

٨٦. نفسه، ٣ ص١٦٤ س١٧.

٨٧. الطبري ١ : ١٧٤٠، ١٧٤٥؛ انظر Cheira: Op. cit., p. 23.

٨٨. انظر مجموعة الوثائق، برقم ١٧٧ ص١٥٧.

٨٩. الطبري، ٣ ص١٠٧ وما بعدها؛ ; Caetani: Chron an 8 - 13; Cheira:Op. Cit, p. 25-26. Ency. de l'Islam (art Mu'ta), 1 éd, t 3, p. 826.

٩٠. الطبري، ٣ ص١٠٣ س ٥ وما بعدها، هي من ناحية الشام.

٩١. أيضاً أنظر ابن قتيبة، المعارف، ط Gottingen ٢ ص٨١؛ ابن هشام، السيرة، ٢ ص٧٩١، ٧٩٤؛ ابن سعد، ١/٣ ص٢٦ ـــ ٣١؛ انظر رضا، محمد، القاهرة، ص٣٦٢ ـــ ٣٦٣؛ ماجد، الدول العربية، ١ ص١٢١.

٩٢. الطبري، ٣ ص١٠٨.

ولـم تـسـم : سرية. وحينما وصلت الحملة الى معان؛ في سهول البلقاء، فان قبائل لخم وبلقين و بهراء و بلى وعذرة، و بني ثعلبة من حدس، وكلها من قضاعة؛ تجمعت في مكان اسمه مشارف(٩٣)، في أعداد بلغت مائة ألف، بقيادة رجل اسمه مالك بن رافلة. كذلك هرقل نفسه، وجد آنذاك في مآب؛ نسبة لقرية أو مخيم ـ فسطاط ـ مكان بجوار نبع ماء، أو أثر روماني قديم؛ يقع في صحراء البلقاء، في مائة ألف، مما يدل على تأييده لموقف الروم العرب.

ولما دارت المعركة، فقد المسلمون ثلاثة من كبار قوادهم، هم زيد بن حارثة، ابن النبي بالتبني، الذي عرف بغزواته السابقة في برية الشام، وجعفر بن أبي طالب(٩٤) ابن عم النبي، (الذي لما أخذ اللواء بيمينه، فانها قطعت، فأخذه بشماله، فقطعت أيضاً، فاحتضنه حتى قتل، والشاعر الحافظ للقرآن الكريم، عبد الله بن رواحة(٩٥) الذي حمل الراية حتى قتل، بحيث اضطر المسلمون أن يقاتلوا وهم يتراجعون، بقيادة خالد بن الوليد الذي كان قد تحول إلى الإسلام في هذه السنة، وكان معهم في هذه الحملة، فتمكّن من أن يسحبهم من السهل إلى الصحراء، بسبب عدم تكافؤ قوة المسلمين مع قوة أعدائهم، وسماه النبي منذ يومئذ: سيف الله(٩٦)

ومع ذلك، فان النبي أرسل اليهم عمرو بن العاص، الذي كان قد أسلم مثل خالد بن الوليد في السنة الثامنة للهجرة (٦٢٩م)، وكان عمرو بن العاص قد تزوج من امرأة من بلى، من بطون قضاعة في هذه النواحي، وهي الغزوة التي سميت بذات السلاسل(٩٧)؛ نسبة الى ماء يقال له السلاسل؛ واستطاع عمرو استمالة بلى، التي اشتركت مع قبائل أخرى في هزيمة المسلمين في مؤتة، بحيث كثر المسلمون الجدد في هذه

٩٣. أبو الفرج الأصفهاني، كتاب مقاتل الطالبين، النجف. ١٣٥٣ هـ، ص٧.

٩٤. الأغاني، ١١ ص٨٠؛ انظر

Ency. de l'Islam (art 'Abd Allah b. Rawaha), 1I éd, t I, p. 30.

٩٥. الطبري، ٣ ص١٠٩ (آخر سطر).

٩٦. نفسه، ٣ ص١٠٤ عن اسلامه: ابن هشام، السيرة، ٢ ص٧١٦ اختلف في تاريخ اسلامه، الذي قد يكون في نفس وقت اسلام خالد، أو بعد الحديبية.

٩٧. ابن هشام، السيرة، ٢ ص٨٢٢؛ البلاذري، فتوح، ص٤٢.

النواحي .

وقد ظهرت انعكاسات لحملة مؤتة؛ فقد انتهزت قريش في مكة، هذه الهزيمة للمسلمين، لتنقض هدنة الحديبية، التي عقدت مع النبي، مما جعله يسرع الى مكة و يفتحها(٩٨). بل أن النبي لما فتح مكة، كان معه عرب من برية الشام؛ من بني سليم سبعمائة، ومن جهينة ألف وأربعمائة رجل(٩٩). وقد أرسلت بعض قبائل برية الشام تأكيدات جديدة لتحالفها مع النبي، فأرسلت بلى، وعذرة، وفدين للمصالحة، كل على حدة(١٠٠)؛ كما ارسلت قبائل أخرى وفودها الى المدينة مثل: لخم و بهراء وغسان، في السنة التاسعة(١٠١) الهجرية (٦٣٠م).

ثم آخر ما قام به النبي من غزوات في هذه النواحي، يبيّن استمرارية خطته في ضمها وليس الاكتفاء باكتساب أتباع له منها؛ وخصوصاً بعد أن أصبح مسيطراً في الحجاز، فقام بغزوة تبوك(١٠٢) في رجب من السنة التاسعة من الهجرة (اكتوبر ١٦٣٠م)، على اسم عين ماء(١٠٣) في هذه النواحي، وتعتبر تبوك من بادية الشام، سكنتها قبائل عربية مسيحية، و يهودية(١٠٤) في الغالب، ولم تكن هذه الغزوة في حجم الحملة التي فتحت مكة، وانما بالأولى في حجم غزوة مؤتة. فقد أظهر النبي أنه يريد الروم، وكان قصده روم العرب، حيث توجد قبائل عاملة ولخم وجذام(١٠٥) من بطون قضاعة. فجاءه أمير ايلة؛ ــ وهو يهودي ــ على بحر القلزم ــ البحر الأحمر ــ وصالحه،

٩٨. الطبري، ٣ ص ١٢٢ (في آخر الصفحة).

٩٩. الطبري ١ : ١٦٨٧؛ Caetani: Chron. 9: 12, 13
انظر Cheira: Op. cit., p. 26, no. 3.

١٠٠. الطبري، ٣ ص ١٣٩ وما بعدها.

١٠١. الطبري، ٣ ص ١٤٣ وما بعدها.

١٠٢. معجم البلدان، ٢ ص ٣٦٥ ص ١١ ــ ١٢.

١٠٣. البلاذري، فتوح، ص ٣٣ ــ ٣٤؛ ابن سعد، ٢/١ ص ٣٨

١٠٤. معجم البلدان، ٢ ص ٣٦٥ س ٩.

١٠٥. ابن سعد، ٢/١ ص ٣٧؛ ١ سطر. مجموعة الوثائق، ص ٣٢ ــ ٣٤ (٣٠، ٣١) وتعرف بالعقبة أيضاً. عنها: معجم البلدان، ١ ص ٣٩١ ــ ٣٩٢.

وقبل دفع الجزية، ولدينا نص معاهدة النبي معه(١٠٦)، كما جاءته وفود من جرباء وأذرح(١٠٧)، ومقنا(١٠٨)، وحتى من دومة الجندل(١٠٩)؛ فعقد معهم اتفاقيات تنظيم العلاقات مع المدينة؛ أمنهم فيها على ديانتهم وأملاكهم، لقاء دفع الجزية(١١٠)، وكان بعض ممن أسلم من جذام؛ قد ابتنى مسجداً(١١١)؛ فطلبوا من النبي أن يصلي فيه؛ مما يبين انتشار الإسلام في هذه النواحي. كذلك جاءته مكاتبات باسلام زعماء في هذه النواحي، وحتى من الشام ذاتها، مثلما جاءت من فروة بن عمرو من معان(١١٢)، ومن مالك بن الجذامي(١١٣)، ومن جبلة بن الأيهم الغساني(١١٤). ولا شك أن النبي بهذه الغزوة قد رسم الحدود الشمالية لدولة الحجاز، وكأنه أصبح يقوم بدور الحامي لهم، بدلاً من الروم.

ولتأكيد خطته في هذه النواحي، أعد النبي في السنة الحادية عشرة بعث أسامة ابن زيد بن حارثة(١١٥)، حيث قتل أبوه زيد بن حارثة في حملة مؤتة وقد كان أسامة عبداً أسود اللون، من أم حبشية، أعتقها النبي فلحق به في وقعة أحد، الا أنه رده لصغر سنه، ولما فتحت مكة، دخل معه الكعبة، فكان أسامة من أحب الناس الى النبي، حتى عرف: بحب، ابن حب رسول الله. وعلى الرغم، من أنه كان قد طعن في تأمير النبي

١٠٦. مجموعة الوثائق، ص٣٥ (٣٢).

١٠٧. نفسه، ص٣٦ــ ٣٨ (٣٣، ٣٤).

١٠٨. فتوح، ص٣٣ــ ٣٤ أو قبله.

١٠٩. ابن سعد، ١/ ٢ ص٢٨ــ ٢٩؛ ومجموعة الوثائق؛ انظر.

١١٠. الطبري، ٣ ص١٤٧.

١١١. مجموعة الوثائق، ص٣٩ــ ٤٠ (٣٥ــ ٣٦).

١١٢. نفسه، ص ١٥٥ (٧٤)، ص ١٥٦ (١٧٥)، ص ١٥٦ (١٧٦).

١١٣. نفسه، ٢ ص ٤١ــ ٤٢ (٣٨ــ ٣٩).

١١٤. الطبري، ٣ ص١٨٨، انظر:

.Ency. de l'Islam (art Usama b. Zaid), 1I éd, t 4, pp. 1105-6.

ماجدة، مادة: ابل الزيت، الموسوعة الفلسطينية.

١١٥. الطبري، ٣ ص١٨٩.

لأسامة على هذا البعث، لصغر سنه، اذ لم يكن قد تجاوز ثماني عشرة سنة، ولأن النبي كـان أصحبـه، وتحت امرته عدداً كبيراً من كبار الصحابة، مثل: أبي بكر وعمر بن الخطاب. فخرج النبي في وجعه الأخير، وقد عصب رأسه، حيث قال لهم ثلاث مرات(١١٦): أنفذوا بعث أسامة، وأشار لهم بأنه خليق بالامارة، ولا سيما أن النبي كان قد أرسله من قبل الى هذه النواحي(١١٧)، في السنة الثامنة الهجرية (٦٢٩م)، فقتل مرداس، زعيم جهينة، فجهزه النبي بثلاثة آلاف، منهم سبعمائة من المهاجرين والأنصار، وعقد له بيده اللواء، ودعا له، فعسكر أسامة في شمالي المدينة بالجرف(١١٨)، الا أن وفاة النبي جعلته يعود الى المدينة، حيث عزز لواءه عند بيت رسول الله.

حقاً، وان كان الإسلام قد أصبح له أنصار عن عقيدة في هذه النواحي، الا أنه بسبب وفاة النبي، فانه قد حدث ارتداد بين قبائلها، مثلما حدث في أنحاء الجزيرة العربية، بقصد محاولة الفكاك من سلطة المدينة وليس برفض الإسلام، حتى أن أغلب بطون قضاعة وجذام وكلب قد أبقت على اسلامها، وان لم يشاركوا في جيوش أبي بكر في فتوح الشام. ومع ذلك، فان حركة الردة في برية الشام، لم تظهر بالعنف الذي ظهرت به في أماكن أخرى، لوجود عدد كبير من أهل الكتاب النصارى واليهود.

وقد اتخذ أبو بكر خليفة النبي سلسلة من الإجراءات، لوقف حركة الردة في هذه النواحي، بارساله كتاباً(١١٩) الى المرتدين، يدعوهم فيه الى العودة الى الاسلام. كذلك أسرع بانفاذ بعث أسامة بن زيد الذي كان قد توقف عن الذهاب لوفاة النبي، تنفيذاً لرغبة النبي السابقة، فأعيد اللواء الى بيت أسامة، ليمضي أسامة لوجهته، وودعه أبو بكر بنفسه، وكان يمشي وهو راكب على فرس أبيه سبحه، وقد أوصاه أبو بكر ووعظه، وحدد له مهمته في أن يتفادى الاشتباك مع الروم، وأن يبسط نفوذ المدينة في شمال الحجاز، على بطون قضاعة، وبعض اليهود.

---

١١٦. نفسه، ٣ ص ٩٩.

١١٧. موضع نحو مشارف الشام. معجم البلدان، ٣ ص ٨٧.

١١٨. الطبري، ٣ ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧؛ أنظر مجموعة الوثائق، ص ٢٠٧ وما بعدها (٢٨٢).

١١٩. الطبري، ٣ ص ٢٢١؛ Caetani: Chron. XI, no. I

Cheira: Op. cit., p. 28.

وان كنا لا نعرف كثيراً عن تفاصيل تحركات هذا البعث، الا أننا نعرف أن أسامة هاجم في البلقاء بشدة، حيث كانت موقعة مؤتة، عابراً جبالها مدة أربعين (١٢٠) أو سبعين يوماً ــ فهاجم جذام ولخم، وأصاب بني الضبيب (١٢١) (الضباب) من جذام، وتوسط بلاد قضاعة، ووصل الى ابل الزيت، وهي عدة مواضع، وان كان أهمها يقع في فلسطين، من مشارف الشام، فكان لانتصاره في هذه النواحي، صدى فرح كبير في المدينة.

حقاً، ان النبي كان قد نجح في آخر أيامه في أن يقيم له عمالاً (١٢٢) على بعض بطون قضاعة، فكان عامله على كلب في دومة الجندل امرؤ القيس بن الأصبغ الكلبي، الذي بقي على اسلامه وان حدثت الردة فيها على يد رجل اسمه وديعة الكلبي، وعامله على سعد هذيم من جذام معاوية ابن فلان، الذي ارتد، وعامله على بني ألقين عمرو بن الحكم، الذي أبقى على دينه، بينما ارتد زميل بن قطبة القين. فكلف أبو بكر كلا من امرىء القيس، وعمرو بن العاص، الذي كانت معه جماعة من قضاعة بالسير على وديعة (١٢٣)، كما هاجم عمرو بن العاص سعد هذيم (١٢٤)؛ ليوقع الرعب فيها. ومع ذلك، فان المسلمين على ما يبدو لم يستطيعوا شيئاً، الى أن جاءهم أسامة، وأن يبدو أن نجاحه لم يكن حاسماً، لبقاء كثير من المرتدين، وبمن فيهم وديعة الكلبي.

كذلك أبو عبيدة بن الجراح، الذي كانت له غزوة في هذه النواحي ضد جهينة (١٢٥) في السنة الثامنة للهجرة (٦٢٩م)، عبر البلقاء، فتصدت له العرب المتنصرة في مآب (١٢٦) وقاتلوه، ثم سألوه الصلح، فأمنهم على دمائهم وأموالهم وأولادهم، على أن

١٢٠. الطبري، ٣ ص ٢٢٢.

١٢١. الطبري، ٣ ص ٢٢٢.

١٢٢. نفسه، ٣ ص ٢٢٥، ص ٢٣.

١٢٣. الطبري، ١ : ١٩٦٣؛ انظر .Cheira: Op. cit., p. 28

١٢٤. الطبري، ٣ ص ١٠٤.

١٢٥. ماجد، مادة : صلح مآب، في الموسوعة الفلسطينية؛ .Caetani: Ann. an 12, np 1316
عنها : معجم البلدان، ٧ ص ٣٤٩ــ ٣٥٠.

١٢٦. الطبري، ٤ ص ٤٥ (آخر الصفحة).

يـؤدوا الجـزيـة، وهـو المال الذي فرضه المسلمون على رؤوس الذين يبقون على ملتهم، من أهل الكتاب، دلالة على عزة الاسلام، فكانت الجزية ديناراً، وجريب حنطة ــ دقيق ــ لـكـل رأس في كـل عـام، وان ذكـر المؤرخـون صلحاً آخر سبق صلح مآب، وهو صلح بصرى، قـريـة مجـاورة بالبلقاء(١٢٧)، تعتبر أول مدينة فتحت في الشام، وفي الوقت ذاته أرسـل أبـو بـكـر قـواداً آخـريـن، لا نعرف كثيراً عن تحركاتهم، قبل أن يوجهوا الى فتح الـشام. فقد أرسل شرحبيل بن حسنة، الذي اشترك في القضاء على حركة الردة في بلاد قـضـاعـة أيـضـاً، و يـزيـد بـن(١٢٨) أبي سفيان مع عمرو بن الحكم الى مآب في مشارف الـشام، وخـالـد بن سعيد بن العاص(١٢٩)، الذي وصل الى الحمقتين من مشارف الشام أيـضـاً، أمـا خـالـد بن الوليد(١٣٠)، الذي كان قد انتهى من فتح العراق، فانه أرسل الى دومة الجندل، التي أصبحت(١٣١) ملاذاً للمرتدين، فاستطاع أن يحصرهم في الحصن، بمن فيهم وديعة الكلبي، و يقضي عليهم أو يأسرهم على الرغم من تجمع كلب و بهراء وتنوخ والـضـجـاعـم، وحـتـى غـسان التي كان على رأسها ابن الأيهم، ومد النصارى في هذه النواحي لأهل الدومة بالامداد.

وهـكـذا تمكن أبو بكر من القضاء على حركة الإرتداد في هذه النواحي، مما مهّد لـفـتـح الـشام. ومع ذلك، فان المستشرق Caetani (١٣٢) لا يرى خطة عربية لغزو الشام، وانما يـرى أن الـروم العرب انضموا لعرب الحجاز في غزو الشام، لأن الروم منعوا الأتاوة عـنهم، معتمداً في ذلك على ما ذكره المؤرخ الأرمني المعاصر Sabeos (١٣٣) (حوالي القرن السابع الميلادي). وعلى العكس، فإن المؤرخ المصري شعيرة، يرى أن نواحي برية الشام

١٢٧. الطبري، ٣ ص ٢٢٥.

١٢٨. نفسه، ٤ ص ٤٥.

١٢٩. نفسه، ٣ ص ٢٢٥، عن: الحمقتان. معجم البلدان، ٣ ص ٣٤٣.

١٣٠. نفسه، ٣ ص ٢٣٢.

١٣١. نفسه، ٤ ص ٢٢ ــ ٢٣ يذكر الطبري أن أكيدر زعيم مؤتة ارتد هو الآخر.

١٣٢. انظر: Caetani: Ann. an 12, no. 309.
Cheira: Op. cit., p. 34.

١٣٣. انظر Cheira : La Lutte Loc. Ci, p. 30, 34-6، ماجد، الدولة العربية، ١ ص ١٢٦

كانت في عداء لعرب الحجاز، وانها ارتدت في بعضها، مما ينفي هذا الاتفاق؛ وأن عرب الشام قاطعوا[١٣٤] حملات أبي بكر مع الروم، على الشام.

ولا شك أن وقوف الروم من تحركات النبي في برية الشام، ومن بعده، من تحركات أبي بكر فيها، موقف المتفرج، كان سبباً في أن جعل استراتيجية النبي، ومن بعده، استراتيجية أبي بكر، محسوبة وناجحة، فانتشر الإسلام في ربوع برية الشام، وكثر الأتباع فيها، فكانت برية الشام هي طريق الإمداد، لفتح الشام ذاته.

١٣٤. الواقدي، فتوح الشام، ط Calcutta، ٢ ص ١٢١

الامبراطور هرقل ومقاومة الفتح الاسلامي لبلاد الشام

سعيد عاشــور
كلية الآداب ــ جامعة الكويت

لم استهدف من هذا البحث التعرض لحوادث الفتح الاسلامي لبلاد الشام بالتفصيل، فهذه الحوادث معروفة في كتب التاريخ، أوردها القدامى من مؤرخي المسلمين ــ مثل البلاذري والواقدي والطبري ــ كما ذكرها بعض مؤرخي الروم المعاصرين مثل ثيوفانيس Theophanes (١)، ومن الأرمن المؤرخ سبيوس Sebeos (٢). هذا وان كانت روايات المعاصرين اتصف معظمها بتداخل الحوادث، وعدم وضوح رؤية التسلسل التاريخي للأحداث، مما يجعلها في حاجة الى قدر من الترتيب والتمحيص. واذا كنا في ختام بحثنا قد تعرضنا بايجاز لحوادث الفتوح الاسلامية، لبلاد الشام، فإن هدفنا من ذلك هو القاء مزيد من الضوء على جهود الامبراطور هرقل في مقاومة هذه الفتوح من ناحية، ومحاولة ترتيب المراحل والخطوات التي تمت بها تلك الفتوح من ناحية أخرى، وذلك عن طريق مقارنة الروايات التي وردت في المصادر العربية، بتلك التي جاءت في المصادر غير العربية.

ولكن قبل ذلك ــ أعني قبل التطرق إلى حوادث الفتوح الاسلامية لبلاد الشام ــ تواجه الباحث عدة تساؤلات، ما زالت تفتقر إلى إجابات واضحة وحاسمة من المشتغلين بتاريخ تلك الحقبة الزمنية، نظراً لما يترتب عليها من فهم واع للمناخ الذي ساد بلاد الشام طوال المعركة التي دارت بين المسلمين والروم على مسرح تلك البلاد، وما ترتب على ذلك من تغييرات سياسية وحضارية شاملة ألمت بتاريخ المنطقة. والواقع أن هذه التساؤلات ومحاولة الاجابة عنها، هي المحور الأساسي، والهدف الرئيسي، من هذا البحث.

لماذا بدأ المسلمون في حركتهم التوسعية خارج شبه الجزيرة العربية بفتح بلاد الشام بالذات؟ وماذا كانت نظرة العرب ــ عرب شبه الجزيرة ــ إلى بلاد الشام عندئذ؟ وما

١. Theophanes, Chronographia, ed. de Boor (2 vols.) Leipsic 1883 - 1885.

٢. Histoire d'Héraclius, part Levêque Sebéos, Traduit par F. Macler, (Paris, 1904).

السر في الحاحهم على فتح تلك البلاد بأكملها حتى حدودها الطبيعية في أقصى الشمال ؟ ؟

ومن ناحية أخرى ماذا كانت نظرة الروم في أوائل القرن السابع للميلاد إلى شبه الجزيرة العربية وأهلها ؟ وكيف تطور موقفهم من هجمات المسلمين على بلاد الشام ابتداء من غزوة مؤتة حتى استسلام بيت المقدس وسقوط قيسارية في أيديهم ؟ وما السر في استماتة هرقل امبراطور الروم في الدفاع عن بلاد الشام ضد الغزو الاسلامي ؟ ولماذا فشل في صد المسلمين، وهو الامبراطور الذي نجح في زعزعة عرش فارس واسقاط كسرى بعد أن غزاه في عقر داره ؟ وماذا ترتب على سقوط بلاد الشام في أيدي المسلمين من نتائج بالنسبة لدولتي الاسلام والروم جيعاً ؟

أما عن الجانب الاسلامي، فان بلاد الشام لم تكن غريبة عن عرب شبه الجزيرة، اذ عرفوها منذ عصور قديمة قبل الاسلام، وخرجت إليها رحلة الصيف من قريش، ودأبت القوافل تنتقل منها إلى اليمن ــ و بالعكس ــ في العصر الروماني. ومهما يقال من أن العرب كان لهم نشاط بحري قبل الإسلام، فإن هذا النشاط كان محدود الأفق، محصوراً في مناطق معينة من جنوب شبه الجزيرة وشرقها. وانما كان نشاط العرب في تنقلاتهم عبر الفيافي والرمال، لا عبر البحار. وكانت سفنهم هي الجمال، يجوبون بها الصحارى، و ينتقلون عليها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً. فاذا أرادوا الانتقال ــ للتجارة أو غير ذلك ــ الى خارج شبه الجزيرة، فإن التوجيه الجغرافي لبلادهم اتجه بهم غالباً جهة الشمال. وفيما عدا بوابتين بحريتين صغيرتين إحداهما عبر المندب، والأخرى عبر الخليج، ظلت البوابة الكبرى الرئيسية هي البوابة البرية في الشمال، منها خرجت عبر عصور التاريخ الهجرات السامية المعروفة ــ واحدة بعد أخرى ــ، وعن طريقها وفدت على شبه الجزيرة التيارات الاقتصادية والاجتماعية والدينية، بمقادير متفاوتة.

وقبيل الاسلام، ازدادت الروابط بين شمال شبه الجزيرة العربية و بلاد الشام، فتسرّب الى شمال شبه الجزيرة تيار مسيحي واضح، ظهر في اعتناق بعض العرب الديانة المسيحية، فضلاً عن ظهور أسلوب الرهبان في الحياة، عزلة وزهداً وعبادة. وقد وجدت المسيحية أنصاراً لها في قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال، كما وجد عدد من الأديرة والصوامع في شمال شبه الجزيرة وجنوب بادية الشام. أما اليهود فيرجح أنهم نزحوا الى شمال شبه جزيرة العرب من الشمال، وكانت لهم مستوطنات في يثرب وتيماء، وفدك،

وخيبر، وغيرها. يضاف الى هذا كله أن بعض الألفاظ ذات الأصل اليوناني انسابت الى لغة الشمال في شبه الجزيرة العربية. فعربها العرب. وكيفوها وفق ذوقهم وحسّهم، وجعلوا منها ألفاظاً عربية، حتى جاء ذكرها في القرآن الكريم خير دليل على تلك الصلات الحضارية بين عرب شبه الجزيرة وجيرانهم قبل الإسلام.

ولا شك في أن المجتمع العربي قبيل الاسلام نظر الى حضارة الروم نظرة إكبار واعجاب، وأنه لولا طبيعة الصحراء من ناحية، والمجتمع القبلي المتناثر بين دروب هذه الصحراء من ناحية أخرى، لكانت العلاقات بين عرب شبه الجزيرة وأهل الشام أكثر نشاطاً وأوسع أفقاً. ولكن حسب العرب قبيل الاسلام أن قامت لهم ومنهم امارات على تخوم بلاد الشام، أشهرها القضاعمة ثم الغساسنة. وقد ظل الغساسنة حتى حركة الفتوح العربية الاسلامية في القرن السابع للميلاد يمثلون ظاهرة تاريخية جمعت بين عروبة الأصل من ناحية، وحضارة الروم من ناحية أخرى.

ومهما يقال عن العلاقات بين العرب والفرس قبل الإسلام، فان ثقل الفرس الحضاري والسياسي كان دائماً في جنوب شبه الجزيرة العربية وشرقها، وليس في شمالها. ونعني بالشمال هنا اقليم الحجاز، قلب الاسلام ومصدر انطلاقته. وفي المرحلة التي صار من الضروري نشر رسالة الإسلام وابلاغها إلى شتى أمم الأرض، كان من الطبيعي أن تكون البوابة البرية الشمالية هي معبر انطلاق الدعوة والجيوش والمجاهدين. وهذه البوابة هي التي عرفها تمام المعرفة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث، وعبرها مراراً ــ ذهاباً وجيئة ــ وهو يتاجر في مال السيدة خديجة، رضي الله عنها.

هذا عن الجانب العربي الاسلامي، واتجاهه في حركته التوسعية صوب بلاد الشام. أما عن الجانب الآخر ــ ممثلاً في دولة الروم أو الدولة البيزنطية أو الامبراطورية الرومانية الشرقية ــ وعاصمتها القسطنطينية، فكانت بلاد الشام بالنسبة لها أكثر من ولاية وأهم من مجرد عضو من أعضائها. لقد كانت بلاد الشام في نظر المسيحية عامة ــ والروم خاصة ــ أرض المسيح بكل ما يدل عليه هذا المصطلح من أبعاد تاريخية ومعنوية؛ في وقت تزعمت القسطنطينية الكيان المسيحي في الشرق. هذا إلى أن بلاد الشام كانت تمثل الشريان الرئيسي الذي ربط دولة الروم برياً بمصر، درة دولة الروم وذات الأهمية البالغة بالنسبة لها اقتصادياً.

ومن المعروف جغرافياً أن منطقة ثغور الشام الواقعة على الأطراف الشمالية لتلك البلاد والمؤدية إلى الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى ــ المعروف باسم اقليم قيليقية ــ كانت دائماً منفذاً له خطورته بين بلاد الشام من ناحية وهضبة آسيا الصغرى من ناحية أخرى. ذلك أن الممرات التي احتوتها هذه المنطقة عبر جبال طوروس كانت عبر عصور التاريخ ــ منذ القدم ــ معبر الهجرات والجيوش من آسيا الصغرى إلى بلاد الشام، وبالعكس. ولذا حرصت القوى السياسية على جانبي تلك الممرات على السيطرة عليها. ومن يتتبع مشكلة اسكندرونة في العصور الحديثة يجدها امتداداً لتلك النظرية. وهكذا ازداد الحرص على بلاد الشام في نظر دولة الروم ــ بعد قيامها في القرن الرابع للميلاد ــ لأسباب أمنية واقتصادية ودينية.

فمن الناحية الأمنية جاء قيام دولة الروم أو الدولة البيزنطية نذيراً باشتداد حدّة الصراع بين الدولتين الفارسية والرومانية. والواقع أن هذا الصراع قديم الجذور، يعتبر من الناحية التاريخية امتداداً للصراع بين الفرس واليونان؛ و يفسره كثيرون بأنه مظهر من مظاهر التناقض الحضاري بين الشرق والغرب. ولكن انتقال عاصمة الدولة الرومانية الى روما الجديدة ــ أي القسطنطينية على ضفاف البسفور ــ جعل مركز الثقل الروماني منذ القرن الرابع للميلاد أقرب إلى الشرق؛ و بالتالي جعل الفرس أكثر إحساساً بالخطر الوافد من الغرب.

وكان لا يمكن أن تستقيم الأمور طويلاً بين قوتين طموحتين متجاورتين، تحاول كل منهما أن تكون لها الزعامة والسيطرة على منطقة الشرق الأوسط. لذلك اشتد الصراع منذ وقت مبكر بين أباطرة القسطنطينية وأكاسرة فارس، وهو الصراع الذي كان الامبراطور جوليان أحد ضحاياه في ساحة الحرب سنة ٣٦٣م.

وفي ذلك الصراع والتنافس بين الدولتين الفارسية والرومانية، كانت بلاد الشام مسرحاً رئيسياً للتقاتل، بحكم موقعها الوسط بين القوتين الكبريين. و يكفي أن نجد بلاد الشام في فجر الإسلام وقد احتلها الفرس، ومنها تطرقوا الى مصر، مما ترك دولة الروم مقصوصة الجناح. لقد أحس أباطرة القسطنطينية دائماً أنه اذا اخذت منهم دمشق، ضاعت نيقوميديا على البسفور.

ومن الناحية الاقتصادية، كانت بلاد الشام تمثل الطريق البري الوحيد الذي يربط القسطنطينية بمصر، في عصر اعتبر الروم مصر المخزن الرئيسي الذي يمد دولتهم بالقمح والغلال. وفي تلك العصور كانت التجارة العالمية بين الشرق والغرب تمر عبر الطريق البري الكبير الممتد من الصين، والذي كان يتفرع بعد سمرقند الى عدة طرق فرعية، بعضها في اتجاه البلاد الواقعة شمال البحر الأسود، والبعض يعبر أرمينية الى الأناضول، وطريق له أهميته يعبر إقليم الجزيرة الى موانىء الشام. وقد فضل التجار الطريق الأخير نظراً لسهولة أرضه وأمنه ووفرة الماء به، فاذا وصلت المتاجر الى موانىء الشام، حملت منها بحراً الى القسطنطينية والغرب.

يضاف الى ذلك أن بلاد الشام كانت مركزاً رئيسياً على طريق القوافل القديم بين الدولة الرومانية من جهة، واليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى.

فاذا تذكرنا أن بلاد الشام ظلت تمثل قلعة صناعية عتيدة في دولة الروم، أدركنا الأهمية الخطيرة لتلك البلاد بالنسبة للامبراطورية. ففي بلاد الشام وموانيها نشطت صناعة السفن الحربية والتجارية، حتى أن خيرة القطع الحربية في الأسطول البيزنطي كانت تصنع في دور صناعة السفن في موانىء الشام ومصر. وفي مدن الشام ازدهرت صناعة الزجاج والأقمشة وغيرها من الصناعات التي كانت تصدر الى بقية أجزاء دولة الروم، فضلاً عن العالم الخارجي.

أما من الناحية الدينية، فقد كان دائماً لبلاد الشام وضع متميز، ليس في دولة الروم فحسب، بل في العالم المسيحي أجمع. وحسب هذه البلاد أنها تحتوي الأماكن المقدسة المسيحية، وبين جنباتها توجد مدينة القدس التي عرفوها باسم مدينة المسيح، وبها كنيسة القيامة التي تعتبر الكنيسة الأم بالنسبة لكافة الكنائس، واليها يحج المسيحيون من مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف مذاهبهم والكنائس التي ينتمون اليها. أما بيت لحم ــ على مقربة من القدس ــ فهي مسقط رأس المسيح عليه السلام، وترتبط بها ذكريات عزيزة على قلب كل مسيحي.

ومنذ بداية التنظيم الكنسي عقب الاعتراف بالمسيحية ثم اتخاذها ديانة رسمية للدولة الرومانية في القرن الرابع، اشتد التنافس حول زعامة العالم المسيحي ــ على الأقل في

الشرق ــ بين كنيستي القسطنطينية و بيت المقدس. واذا كانت كنيسة القسطنطينية قد فازت في هذا السباق، فإن فوزها كان سياسياً، بحكم وجود بطرقها على مقربة من الامبراطور في العاصمة. أما كنيسة بيت المقدس، فقد ظلت تتمتع بالزعامة الروحية ــ ليس في العالم الأرثوذكسي فحسب ــ بل في العالم المسيحي أجمع. وقد وجد في بلاد الشام ــ قبل الفتح الإسلامي ــ كرسيان بطرقيان، يتبعهما عدد من الكراسي الأسقفية. وكان لبطارقة بلاد الشام وأساقفتها صوت مسموع له وزنه في المجامع الدينية التي عقدتها الكنيسة الشرقية لتنظيم أمورها، وحل مشاكلها وخلافاتها، الداخلية والخارجية. أما الكرسيان البطرقيان في بلاد الشام، فكان أحدهما في بيت المقدس والآخر في أنطاكية. وكان يتبع كلاً منهما عدد من رؤساء الأساقفة، فعدد من الأساقفة في المراكز والمدن الكبرى.

وهكذا، فإن الكنيسة في الشام كان لها قدم راسخ، ومكانة روحية ضخمة، ونفوذ واسع، وكلمة مسموعة، داخل البلاد وخارجها. وعندما نتكلم عن نفوذ الكنيسة في العصور الوسطى، و بخاصة في الشطر الأول منها، فعلينا أن نذكر أن تلك العصور عرفت في المصطلح التاريخي باسم عصور الايمان، لتغلب النزعة الدينية على شتى مناحي الحياة، ولسيطرة الدين ورجاله على مشاعر الناس وأحاسيسهم وتصرفاتهم. ومن هذا المنطلق برزت بلاد الشام بين أقاليم دولة الروم في مكانة مرموقة بارزة، تطلبت من حكومة هذه الدولة الإعتزاز بها، والحرص عليها، والدفاع عنها. ولئن كان قلب دولة الروم في القسطنطينية، فان روحها كانت في الشام.

وأخيراً، فان بلاد الشام غدت في العصر البيزنطي ــ بين القرنين الرابع والسابع للميلاد ــ مركزاً بارزاً من مراكز الحضارة البيزنطية. ومن المعروف في حقل الدراسات التاريخية أن دولة الروم أو الدولة البيزنطية كانت يونانية الحضارة واللغة، حتى أنها عرفت في تاريخ العصور الوسطى باسم «الامبراطورية اليونانية Empire Greek». وفي بلاد الشام قامت مدرسة من أكبر مدارس الفكر اليوناني هي مدرسة أنطاكية. والى بلاد الشام اتجه كثيرون من علماء اليونان عندما تعرضوا للاضطهادات الدينية والمذهبية، ونخص بالذكر علماء مدرسة أثينا الوثنية، عندما أغلق الامبراطور جستنيان هذه المدرسة سنة ٥٢٧م. وأدى ذلك إلى أن غدت بلاد الشام ــ بالاضافة إلى شمال اقليم الجزيرة من ناحية

ومدينة الاسكندرية من ناحية أخرى ــ بمثابة البوتقة التي تبلور فيها كثير من مظاهر الحضارة البيزنطية، كما نبغ من أهلها عديد من رجال الفكر والعلم الذين أسهموا بأفكارهم وكتاباتهم ومخترعاتهم في بناء صرح الحضارة البيزنطية في ذلك الدور. وحسبنا مثلاً أن نشير إلى أن النار الاغريقية التي استخدمها الروم ضد المسلمين في حروبهم البحرية، والتي شكّلت سلاحاً خطيراً كان له أثره في كسر أساطيل المسلمين وانقاذ القسطنطينية أكثر من مرة من خطر الحصار البحري الذي فرضه المسلمون عليها؛ هذا السلاح كان من اختراع مهندس من أهل الشام ــ ومن مدينة بعلبك بالذات ــ يدعى كالينيقوس Callinicus (٣).

ولعلنا لسنا بحاجة الى أن نشير الى أن جذور هذه الحضارة اليونانية التي ازدهرت في بلاد الشام في العصر البيزنطي لم تمت بعد فتح المسلمين لتلك البلاد، بل حرص المسلمون ــ بما عرف عنهم من تسامح وسعة أفق ــ على الافادة مما وجدوه في بلاد الشام ــ عقب فتحها ــ من أصول حضارية نافعة؛ سواء بترجمة الكتب العلمية اليونانية، أو الاستعانة بالمهندسين والفنانين الروم في بناء مؤسساتهم الدينية وقصورهم، أو باستخدام أساليب الروم في النظم والإدارة وترتيب الدواوين، أو باستخدام النقود البيزنطية في المعاملات حتى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان... أو غير هذا وذاك؛ مما يشهد لبلاد الشام بأنها كانت عند فتح المسلمين لها قلعة من قلاع الحضارة البيزنطية في كافة الميادين.

واذا كانت لبلاد الشام هذه المكانة السياسية والحضارية والاقتصادية والدينية في كيان الدولة البيزنطية ــ أو دولة الروم ــ فانه كان طبيعياً أن تحرص هذه الدولة على سلامة تلك البلاد والدفاع عنها ضد أي خطر يهددها. لقد كانت بلاد الشام ــ كما سبق أن أشرنا ــ أكثر من مجرد عضو في جسم دولة الروم. أنها مصدر الإلهام الروحي، ومركز النشاط الفكري والحضاري ومصدر الإنعاش الاقتصادي؛ فضلاً عن كونها حصناً أمامياً للدفاع عن آسيا الصغرى، بل القسطنطينية نفسها.

وقبل حركة الفتوح الإسلامية، كان الخطر الرئيسي الذي هدد دولة الروم بوجه عام و بلاد الشام بوجه خاص، هو خطر الفرس. ومهما يقال من أن العداء بين الروم والفرس عداء طبيعي بوصفه مظهراً للتنافس الحضاري بين الشرق والغرب، ومن أن

٣. Cam. Med. Hist., Vol. 4, Part 2; pp. 49-51 (1967).

الرومان حلّوا محل اليونان في عدائهم للفرس، وأن الدولة البيزنطية ورثت بحكم موقعها على تخوم دولة الأكاسرة ذلك العداء... فان الذي يعنينا هنا هو أن دولة الروم كان عليها منذ قيامها أن تواجه حروباً مريرة مع جارتها فارس، وهي حروب قد تتوقف حيناً لتثور أحياناً.

و يعنينا من أخبار هذه الحروب بين الفرس والروم ما حدث في أوائل القرن السابع للميلاد ـ وهي مرحلة مولد الاسلام ـ من توغل الفرس في آسيا الصغرى حتى وصلوا الى خلقدونيا على البسفور. وكان ذلك في الوقت الذي اشتد ضغط الآفار والسلاف على أراضي الامبراطورية في البلقان. وفي تلك المحنة، فقد الامبراطور البيزنطي فوقاس (٦٠٢ ـ ٦١٠م) صوابه، وأخذ يتشكك فيمن حوله من الأعوان، حتى أن أحداً من أشد المقربين إليه لم يعد يأمن على نفسه عاقبة غدر الامبراطور و بطشه. وكان أن اتصل بعضهم سراً بهرقل الكبير حاكم ولاية افريقية، ودبروا معه مؤامرة انتهت بأن أرسل ذلك الحاكم ابنه ـ المسمى هرقل أيضاً ـ على رأس أسطول إلى القسطنطينية، نجح في عزل فوقاس، وقام هرقل الابن امبراطوراً سنة ٦١٠م.

والواقع أن هرقل اعتلى عرش الامبراطورية في ظروف صعبة، لا يحسد عليها حاكم، بسبب ضياع معظم أراضي الدولة ـ في الشرق والغرب ـ في أيدي الأعداء، وما صحب ذلك من فوضى داخلية، وافلاس حلّ بالخزانة. وزاد الموقف حرجاً عندما تقدم الآفار جنوباً داخل أراضي الامبراطورية حتى اقتربوا من القسطنطينية، في حين اجتاح الفرس بلاد الشام سنة ٦١٤، واستولوا على بيت المقدس ومصر بعد ذلك بعامين.

وعلى الرغم من أن خطر الآفار على الجناح الغربي للدولة كان يهدد قلب الامبراطورية ممثلاً في عاصمتها القسطنطينية، الا أن هرقل أحسّ ـ وأحسّ معه أعوانه وشعبه ـ أن خطر الفرس أفدح وأشد عمقاً، لأن معنى ضياع الشام ومصر حرمان الامبراطورية من ركائزها الروحية والإقتصادية والحضارية التي أسلفنا الكلام عنها. لقد كان للامبراطورية جناحان، أحدهما غربي في البلقان ـ وربما امتد الى صقلية وجنوب ايطاليا ـ والآخر شرقي يشمل أجزاء من غرب آسيا وشمال افريقية. ومهما يقال عن أهمية الجناح الأوروبي الغربي. فإن حياة الامبراطورية البيزنطية و بقاءها كانا أكثر ارتباطاً بجناحها الشرقي. حتى القسطنطينية ـ وهي عاصمة الامبراطورية العتيدة ـ قامت على أرض أوروبية، ولكنها في التاريخ أعطت وجهها دائماً وجهة الشرق.

لذلك لم يكن غريباً أن يبادر هرقل بشراء مسالمة الآفار مقابل مبلغ كبير من المال. وقضى هرقل نحواً من عشر سنوات في الاستعداد لمواجهة الفرس، ولم تضن عليه كنيسة القسطنطينية بالمساعدة والمال، حتى أنها قدّمت له ما لديها من أوان ونذور معدنية نفيسة ليصهرها ويحوّل معادنها الى نقود يستأجر بها جنداً مرتزقة و يسلّح بها جيشه. وكانت الكنيسة تحس عندئذ بمحنة حقيقية عندما استولى الفرس على بيت المقدس، وخاصة بعد أن جاءت الأخبار بأنهم أخذوا صليب الصلبوت ــ أو الصليب الأعظم أو الحقيقي.

وتبدو مهارة هرقل الحربية في أنه أدرك أن محاربة الفرس في غرب آسيا الصغرى لاسترداد الأرض منهم شبراً شبراً، ودفعهم أمامه الى الشرق، سيحمّله من الجهد أكثر مما يحتمل جيشه، بسبب قسوة الطبيعة وصعوبة الأرض وطول المسافة. فاذا فرض وأنه نجح بعد هذا الجهد الكبير في استرداد آسيا الصغرى، فانه لن يتبقى لديه عندئذ فائض من الطاقة والجهد والمال لاسترداد الشام ومصر، وهما في نظره ــ ونظر الكنيسة والشعب ــ لا تقلان أهمية عن آسيا الصغرى. لذلك بنى هرقل استراتيجيته على أساس ترك الفرس منتشرين في آسيا الصغرى، على أن يبحر على رأس جيشه وأسطوله الى خليج افسوس في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى، و بذلك يضرب عصفورين بحجر واحد؛ اذ يقطع الطريق على جموع الفرس المنتشرين في آسيا الصغرى من جهة، و يكون على مشارف الشام مما يمكنه من استردادها ــ ومن بعدها مصر ــ من جهة أخرى.

وفعلاً نجحت خطة هرقل، إذ وصل على رأس اسطوله وجيشه إلى خليج افسوس في ربيع سنة ٦٢٢م، ونجح في فرض سيطرته على الأقاليم الشرقية من آسيا الصغرى، فضلاً عن أرمينية، مما أفزع الفرس المنتشرين غرباً، وجعلهم يسارعون بالانسحاب قبل أن يتعذر عليهم الرجوع الى بلادهم بسبب انقطاع خطوط مواصلاتهم. ولم تمض ثلاث سنوات حتى كان هرقل قد أجبر الفرس على الانسحاب من مصر والشام أيضاً. وساعد هرقل على تحقيق هذه الانتصارات السريعة حرصه على عدم تبديد طاقته الحربية في مغامرات غير مدروسة. هذا فضلاً عن الحماسة الدينية التي سيطرت على جيوش الروم عندئذ، إذ اتخذت حربهم ضد الفرس طابعاً صليبياً واضحاً من أجل استرداد الأماكن المقدسة وصليب الصلبوت من أيدي الفرس(٤).

٤. Levéque Sebéos, Hist. dHeraclius, p. 90. (Traduite de LArménien par F. Macler).

على أن هرقل لم يكتف بذلك، وانما تقدّم سنة ٦٢٦م عبر سهول دجلة والفرات نحو قلب دولة الفرس، حيث أنزل بكسرى الثاني هزيمة ساحقة في أواخر سنة ٦٢٧ قرب نينوى. وعندما فرّ كسرى بعد الهزيمة التي لحقت بجيشه، تبعه هرقل الى المدائن عاصمة دولة الفرس، حتى انتهى الأمر بقيام ثورة عصفت بكسرى سنة ٦٢٩م، وتمّ عقد صلح بين الطرفين المتحاربين، وافق الفرس بمقتضاه على الجلاء عن جميع الأراضي التي ما زالت بأيديهم من ممتلكات دولة الروم، وعلى رد صليب الصلبوت، واطلاق سراح الأسرى.

ولا شك في أن هذه الحرب بين الروم والفرس انهكت الدولتين واستنفدت طاقتهما، دون أن تحقق لاحداهما ما كانت تتوق اليه من زعامة في الشرق الأوسط. وفي الوقت الذي احتدمت الحرب ــ في أوائل القرن السابع للميلاد ــ بين الروم والفرس، كانت الأحداث تتلاحق بسرعة في ركن شبه مغمور من العالم المعاصر، ليس ببعيد عن دولتي الفرس والروم جميعاً، دون أن تتوقع إحدى القوتين المتصارعتين أي خطر قريب يهددها ينبعث من ذلك الركن. ومن عجيب المصادفات التاريخية أنه عندما خرج الامبراطور هرقل من القسطنطينية على رأس جيشه وأسطوله سنة ٦٢٢م قاصداً خليج افسوس لمحاربة الفرس، كان النبي محمد عليه الصلاة والسلام قد أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين في نفس الوقت والسنة من مكة، فاتجه مهاجراً الى المدينة ليضع أساس دولة الإسلام.

وسرعان ما أثبتت الحوادث أن القبائل الموالية للروم في جنوب صحراء الشام ــ وعلى تخوم شبه الجزيرة العربية ــ أخذت تحس بما كان يحدث على مقربة منهم من قيام حكومة قوية في يثرب، دانت لها بالطاعة معظم القبائل العربية. ولا شك في أن المجتمعات المسيحية في جنوب بادية الشام وجدت في تلك التطورات تهديداً لكيانها، فاجتمعت بعض القبائل سنة ٦٢٩م (٨هـ) لقتال المسلمين. وكان هرقل عندئذ قد كسر شوكة الفرس، وأخذ يعطي شيئاً من الاهتمام للأخبار التي ترامت إلى مسامعه عما كان يجري على مقربة من الحدود الجنوبية لدولته، أعني على تخوم شبه الجزيرة العربية. هذا الى أن رسالتي الرسول (ص) الى هرقل والى الحرث بن أبي شمّر الغسّاني ــ لدعوتهما للدخول في الإسلام، كانتا قد وصلتهما، وتركت صدى في دوائرهما، الأمر الذي أسهب في شرحه المؤرخون المسلمون المعاصرون، وربما امتزجت في رواياتهم الحقيقة بالخيال.

ولما سمع الرسول بتحركات الروم وحلفائهم من القبائل العربية الضاربة في بادية الشام وعلى حدودها الجنوبية، أعدّ حملة من ثلاثة آلاف رجل، استعمل عليها زيد بن حارثة ومعه جعفر بن أبي طالب، وعدد آخر من الصحابة، رضي الله عنهم. واتجه جيش المسلمين شمالاً حتى نزلوا معان ــ أرض الشام. وهناك بلغهم أن جيشاً كبيراً قوامه مائة ألف من الروم، ومثلهم من المستعربة من لخم وجذام وبلقين، في طريقهم اليهم. وكان أن أدرك المسلمون أنهم لا قبل لهم بمواجهة تلك القوة الضخمة، وفكروا في الكتابة الى الرسول يسألونه عما يفعلون. ولكن تلاحق الأحداث تمّ بصورة أسرع، فدارت المعركة سنة ٦٢٩م (جمادى الأولى سنة ٨ هـ) بين المسلمين والروم عند قرية مؤتة ــ شرقي البحر الميت ــ حيث دارت الدوائر على جيش المسلمين، واستشهد في المعركة زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وعدد غيرهم من الصحابة، عليهم رضوان الله. وعلى الرغم من عدم التكافؤ بين قوتي المسلمين والروم، الا أن المؤرخين يعتبرون موقعة مؤتة أول احتكاك حرب مباشر بين الطرفين.

و يبدو أن هذا الانتصار الذي حققه الروم في مؤتة شجّع هرقل على الوقوف من عرب شبه الجزيرة موقفاً صلباً حازماً. وكان أن جاءت الأخبار الى النبي (ص) بأن «هرقل ملك الروم ومن عنده من متنصرة العرب قد عزموا على قصده»؛ فقرر الخروج اليهم لدفع شرهم، وحتى لا يعطيهم فرصة للنفاذ الى قلب دولة الاسلام.

وقد عرفت هذه الغزوة سنة ٦٣٠م (٩ هـ) باسم غزوة تبوك، حيث أن الرسول وصل الى تبوك ولكنه لم يجد أي أثر لجيش أو تجمع رومي، فأقام فيها بضعة أيام صالحه خلالها أهل تبوك، وجاءت اليه الوفود من أيله وغيرها وصالحوه على دفع الجزية. كذلك أرسل الرسول (ص) خالد بن الوليد ببعض فرق من الجيش الى دومة الجندل، فأسر صاحبها واستولى عليها. وهكذا، فانه لا يمكن اعتبار غزوة تبوك مجابهة حقيقية بين المسلمين والروم، وانما كل ما أسفرت عنه هو اذعان بعض التجمعات المسيحية، واليهودية في شمال شبه الجزيرة للقوة الجديدة التي دانت لها بلاد العرب.(٥). هذا الى أن اتجاه الرسول (ص) في آخر غزواته جنوب حدود الشام، كان مؤشراً وارهاصاً بالاتجاه الذي ستسلكه الجيوش الاسلامية في حركتها التوسعية الكبرى فيما بعد.

٥. Cam. Med. Hist., Vol. 2, p. 326 (1976).

و يقوى هذا الظن ، أن الرسول (ص) أخذ يستعد عقب عودته الى المدينة لارسال حملة أخرى الى منطقة التخوم الشمالية لشبه الجزيرة العربية ؛ وأعدّ لذلك قوة من ثلثمائة مقاتل تحت امرة أسامة بن زيد بن حارثة . ومهما يكن الباعث الى التفكير في ارسال هذه الحملة ، فانه من الواضح أنها لم تستهدف فتح بلاد الشام ، أو منازلة الروم على نطاق واسع ، وانما قصد بها أن تكون أشبه بمناورة حربية لاشعار حلفاء دولة الروم من القبائل العربية الضاربة على حدود الدولة ، باستعداد المسلمين للمواجهة .

ولكن شاءت الظروف أن يحل قضاء الله ، وأن ينتقل الرسول (ص) الى رحمة ربه قبل انفاذ الحملة ، فلما تمت البيعة لأبي بكر الصديق ، كان أول قرار اتخذه هو تسيير حملة أسامة ، ليشعر الجميع ــ و بخاصة المرتدين ــ بقوة الدولة واستمرارية سياستها ، «فان العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة ، لما أرسلوا هذا الجيش ، فعكفوا عن كثير ممن كانوا يريدون أن يفعلون»(٦) .

وكان أن خرج الخليفة أبو بكر بنفسه لتشييع الغزاة . وقد وصّاهم بقوله «لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة . ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكلة ؛ وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له....» ولعل هذه الوصية توضح أسلوب المسلمين ، وسلوكهم في فتوحاتهم ــ و بخاصة فيما نحن بصدده من فتوح الشام ــ الأمر الذي ترتب عليه اطمئنان أهل البلاد المفتوحة لهم ، و وقوفهم منهم في كثير من الحالات موقفاً غير عدائي ، مما سهّل مهمة الفاتحين ؛ كما سنوضح فيما بعد .

ومهما يكن من أمر حملة أسامة ، فإنها كما سبق أن أشرنا كانت حملة استطلاعية صغيرة . أما فتوح الشام ، فقد بدأت بصفة جدّية هادفة سنة ٦٣٤م (١٣ هـ) ؛ وذلك في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (٦٣٢ ــ ٦٣٤م = ١١ ــ ١٣ هـ) ؛ وقاد جيوش الفتح الصحابي المعروف أبو عبيدة بن الجراح ، ومعه ثلاثة من أمراء الجند ، هم عمرو بن العاص ، و يزيد ابن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة .

٦ـ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، ص٢٨ ، الواقدي : فتوح الشام ج ١ ص ٩ ــ ١٠ .

ليس هناك من شك في أن المسلمين عندما قصدوا لغزو الروم في عقر دارهم، كانوا يعرفون تماماً أنهم أمام عدو يفوقهم عدداً وعدّة، وأن هذا العدو يمتلك من الخبرة القتالية ومن أساليب التنظيم الحربي ما لا يمتلكه العرب. وقد أدرك الخليفة أبوبكر الصديق هذه الجوانب ادراكاً عميقاً، الأمر الذي جعله يحرص على تقديم نصائحه لبعض أمراء جيوش المسلمين قائلاً «... اياك أن تكون وانياً عما ندبتك اليه، واياك والوهن... واحذر من عدوك، وأمر أصحابك بالحرس... وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك... واذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر...» ولكن يبدو أن المسلمين لم يشعروا مطلقاً بمركب الضعف أو عقدة النقص أمام عدوهم. لقد أمدهم الايمان بطاقة كبرى لا ينفد معينها.

ونستطيع أن نقرر أن هرقل لم يعط الخطر الإسلامي في أول الأمر قدره من الاعتبار. حقيقة أن تحركات المسلمين على أطراف بلاد الشام ــ بين مؤتة وتبوك ــ كانت كفيلة بأن تدق ناقوس الخطر على مسمع من الامبراطور البيزنطي، ولكن يبدو أن هذه التحركات لم تبد في نظر هرقل أكثر من هجمات محلية، من ذلك النوع الذي اعتاد بدو الصحراء أن يشنوه بين فينة وأخرى على أطراف الدولة، ولا تلبث أن تتوقف تلقائياً عندما يتصدى لها حراس الحدود من فرق الجيش الامبراطوري، أو من القبائل الموالية للامبراطورية، والتي عاشت على تخوم الشام لتتصدى لمثل هذه الهجمات. هذا الى أن الروم اعتبروا مؤتة اختباراً حقيقياً لقوة المسلمين، وما داموا قد انتصروا في تلك الموقعة انتصاراً كاسحاً، فان ذلك جعلهم يتمادون في الغرور ــ و بخاصة غداة انتصارهم على دولة الفرس ــ و يستصغرون شأن أولئك العرب الذين برزوا من شبه الجزيرة.

وكان آخر ما يتوقعه هرقل هو أن تخرج من شبه الجزيرة العربية جيوش صلبة العزيمة، موحدة الهدف، مؤمنة بقصدها، تقوى على الصمود أمام الجيش الامبراطوري العتيد، من الممكن أن ينتهي بها الأمر الى ايقاع الهزيمة بجيوش الامبراطورية مرة بعد أخرى واكتساح أراضيها وانتزاع أثمن أجزائها في آسيا وافريقية. وربما جاء توقيت الفتوح الاسلامية لبلاد الشام ــ ولما تمر أشهر معدودة على الانتصار الكبير الذي أحرزه هرقل على الفرس ــ داعياً لاعتداد هرقل بنفسه وجيشه واحساسه بأنه لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تنزل الهزيمة بجيوشه. فما بالنا اذا كانت هذه القوة من عرب شبه الجزيرة الذين نظر اليهم الرومان دائماً ــ منذ قديم الزمان ــ على أنهم مجرد أقوام من البدو الرحل المتخلفين،

والـذين لا يختلفون كثيراً عن غيرهم من شعوب البرابرة التي أحاطت بالعالم الروماني من جهـات عـديدة . فهل كان يجرؤ هؤلاء العرب على الصمود أمام هرقل وجيوشه ، وهو الذي قـهـر أكبر دولة في الشرق عرفها العالم في ذلك الوقت ، وغزاها في عقر دارها وزلزل عرشها ، وأجبرها على الرضوخ ؟ ؟

فـاذا أردنـا أن نقارن بين قوة هرقل وقوة الغزاة المسلمين على مسرح بلاد الشام ، فان مـثـل هـذه المقـارنـة لها أبعادها المادية والمعنوية والبشرية ، أما عن الناحية المادية ، فانه من المعروف عن حروب العصور الوسطى ــ محلية كانت أو دولية ــ أنها اتصفت بتقارب مستوى التسليح بين الفرقاء المتحاربين . فالروم يحاربون بالحراب والسهام والسيوف ، والغزاة المسلمون لا يملكون أيضاً إلا الحراب والسهام والسيوف . وجيش الروم يضم الخيالة والرجالة ، وكذلك جيش المسلمين بعضهم فرسان والبعض مشاة . واذا وجد فارق بين الجانبين ، فان هـذا الفـارق لا يـبدو في اختلاف نوعية السلاح بقدر ما يبدو في أن أسلحة الروم كانت أتقن صنعة من أسلحة العرب .

يـضـاف الى ذلك أن العرب في تلك المرحلة لم تكن لهم خبرة أو دراية بأساليب التكتيك الحربي وفن تنظيم الجيوش ومباشرة المعارك الكبرى ، وهي جوانب تعلّموها بعد ذلك من ممارساتهم الحربية ضد الدول والأمم ذات الباع الطويل في هذا المضمار ، وبخاصة الروم والفرس . أما الروم فكانت لهم أساليبهم الحربية المستقاة من تراث اليونان والرومان جميعاً ، والتي تقوم على أسس وقواعد مدروسة . وقد ارتقى فن التكتيك الحربي عند الروم ، ووضعت عدة مؤلفات في فنون القتال والحرب ؛ يرجع بعضها إلى ما قبل ظهور الاسلام ، أي الى أيام الامبراطور جستنيان في النصف الأول من القرن السادس للميلاد ، والبعض الآخر الى عهد الامبراطور موريس في أواخر ذلك القرن . بل أن أحد أباطرة الروم ، وهو الامبراطور ليو الحكيم (٨٨٦ ــ ٩١٢) ، ألّف فيما بعد ــ في القرن التاسع للميلاد ــ كتاباً في فن التكتيك الحربي Tacticon ، عالج فيه أساليب الهجوم والدفاع والتسليح والتحصين (٧) . هذا الى أن جيوش الروم عرفت منذ القرن السادس للميلاد تكوين فرق من الخيالة الثقيلة المدرعة Cataphracti ، وفيها كان الفارس وفرسه يرتدي كل منهما كساء

٧. Cam. Med. Hist., Vol. 4, Part 2; p. 303 (1967).

من الصلب لا تبرز منه الا عيناه، و يزود الفارس بحربة طويلة فضلاً عن بلطة ثقيلة، و ينسابون وسط صفوف الأعداء فيخترقونها ويمزقونها تمزيقاً، أشبه بالمدرعات في العصور الحديثة (٨). ولا شك في أن مثل هذه الأساليب الراقية في التنظيم والتسليح وفن القتال، لم يكن للعرب الذين نهضوا بمهمة فتح الشام دراية بها.

فإذا انتقلنا إلى الناحية المعنوية ــ وهي حجر الأساس في المعارك والحروب ــ فإن كفة جيوش الاسلام كانت راجحة. ذلك أن هذه الجيوش تألفت من جند آمنوا بالله، وتشبعوا بعقيدة الجهاد في سبيله، وتطلعوا الى الاستشهاد في معركة الجهاد بوصفه أقصر طريق يوصلهم إلى الجنة. وليس حقيقياً ما تعمده بعض المستشرقين في كتاباتهم عن الفتوح الإسلامية، بأن الواقع الحقيقي وراءها كان السلب والنهب. ان الحصول على الغنائم مظهر من مظاهر الحروب في كل زمان ومكان. وقد وضعت الشريعة الإسلامية قواعد لتنظيم الغنائم، سواء من ناحية الحصول عليها أو توزيعها؛ ولكن القول بأن غزاة المسلمين خرجوا من بلادهم مستهدفين جمع الغنائم، مع تعمد اغفال العامل الروحي وأثره في دفع المسلمين الى الجهاد لإعلاء كلمة الله وإبلاغ رسالته الى شعوب الأرض؛ قول لا يتفق وواقع التاريخ.

ومهما أوتيت الجيوش البيزنطية من عدد وعدّة وأساليب متطورة في فن القتال، فان ارادة المجاهدين المسلمين كانت كفيلة بأن تخترق دروع الصلب، وتتفوق على جيوش تفوقها خبرة وعدداً، ولكنها تفتقر إلى البواعث التي تجعل المقاتل يؤمن بهدف يستحق الموت في سبيله. قد يقال أن الروم لا بد وأن جعلوا من حربهم ضد المسلمين حرباً صليبية، دفاعاً عن أرض المسيح ومقدسات المسيحية، مثلما فعلوا في حربهم ضد الفرس. ولكن علينا أن ندرك أن الفرس كانوا ــ وقت أن حاربهم هرقل وهزمهم ــ وثنيين؛ وأية ديانة وثنية مهما أوتيت من قوة لا تستطيع أن تصل الى ما تصل اليه ديانة سماوية ــ كالمسيحية، من سمو وتأثير عميق في النفوس. وهكذا كان الروم أكثر تفوقاً على الفرس في الجانب الروحي المعنوي. أما العرب الذين واجهوا الروم بعد ذلك، فقد خرجوا من بلادهم تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، يستظلهم كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

٨. Idem; p. ii.

وكانت جيوش المسلمين التي خرجت للفتح تضم عدداً من صحابة الرسول (ص) الذين تشبعوا بتعاليمه وفكره وروحه، وربما شاركوه في بعض غزواته. واذا كانت المعركة بين أتباع ديانتين سماويتين كريمتين، فان أحدثهما ــ التي أتى بها خاتم النبيين ــ كانت بحكم حداثتها أكثر استثثاراً بشعور أصحابها، وتغلغلاً في قلوبهم، وامتلاكاً لأفئدتهم. أما المسيحية، التي كان قد مضى على مولدها أكثر من ستة قرون. فكانت قد هدأت حدّة الحماسة لها في قلوب كثيرين من أتباعها.

يضاف الى ذلك أن المسلمين الذين خرجوا للجهاد في تلك المرحلة المبكرة، كانوا جميعاً عقيدة واحدة، وقلباً واحداً، وفكراً واحداً، لا انقسام، ولا مذهبية، ولا طائفية. بعكس خصومهم من المسيحيين الذين تعددت كنائسهم، ودبّت الخلافات المذهبية في صفوفهم، وتحوّلت هذه الخلافات إلى عداوات ضارية، ربما فاقت في عنفها وقسوتها ما نجم من الخلافات الدينية بين المسيحين وغير المسيحيين.

وشاءت الظروف أن مرحلة فتوح الشام واكبها تمزق خطير في الكنيسة، بسبب الخلاف حول طبيعة المسيح عليه السلام، وهل له طبيعة واحدة تجمع بين صفاته الالهية والبشرية، أم له طبيعتان منفصلتان، احداهما تعبر عن صفاته الالهية، في حين تعبر الأخرى عن صفاته البشرية. وقد أطلق اسم المذهب المونوفيزتي ــ أي الطبيعة الواحدة ــ على أنصار المذهب الأول، في حين أطلق اسم المذهب الملكاني على أنصار مذهب الطبيعتين. وعلى الرغم مما حاوله مجمع خلقدونيا الكنسي سنة ٤٥١ من محاولة حل هذا الاشكال، الا أنه فشل في رأب الصدع، فانتشر المذهب المونوفيزتي في مصر والشام، في حين أخذت كنيسة القسطنطينية وأباطرتها بالمذهب الملكاني. وكان أن تعرّض أهل مصر والشام لموجة شديدة من الاضطهاد المذهبي على أيدي حكام الروم، بلغت ذروتها في مرحلة الفتوح الاسلامية. وبعبارة أخرى فان الجيوش الاسلامية وصلت الى بلاد الشام لتجد شرخاً واسعاً بين أهل الشام وحكامهم، مما جعل كثيرين من أهل البلاد لا يتحمسون للوقوف الى جانب حكومتهم ضد الغزاة الفاتحين. وربما زاد من اتساع الشرخ استياء أهل الشام مما لحق ببلادهم من خراب بعد أن غدت سنوات طويلة مسرحاً لحروب لا شأن لهم بها، بين الفرس والروم. هذا فضلاً عن حنق أهل الشام على حكومة الروم بسبب قسوة الضرائب

التي فرضت عليهم للوفاء بالتزامات تلك الحروب(٩). وكان كلّما تقدّم العرب المسلمون في أرض الشـام، لمس أهـل الشام مزيداً من التسامح والعدالة في الغزاة الجدد؛ مما جعل عامة الناس، بل رجال الكنيسة في الشام لا يتحمسون كثيراً لنصرة جيش الروم.

وأمـا عـن الجـانـب البشري، فإن كفة الفاتحين العرب كانت أرجح بكثير من كفة المـدافعين الـروم. فـالجيـش الاسـلامـي الـذي فتح بلاد الشام كان يتألف كلّه من جنس واحـد، وعنصر واحد، هما الجنس العربي والعنصر العربي. ولم تكن دائرة الاسلام في تلك المـرحلـة قـد اتـسـعـت لـتـستـوعب شعوباً وأجناساً أخرى ربطتها بالعرب روابط الايمان، وخـرجـت تحـت راية الاسلام لتشارك في عملية الجهاد، وتحظى بشرف الاستشهاد في سبيل الله، مثلما حدث في مرحلة لاحقة. وهذا التجانس في الجيش الاسلامي الذي نهض بمهمة فتح بلاد الشام، لم يكن له نظير في جيوش هرقل.

ذلـك أن دولـة الـروم لجـأت منذ وقت مبكر يرجع إلى عهد دقلديانوس ــ في أواخر الـقـرن الـثـالـث وأوائـل الـرابع للميلاد ــ الى فتح الباب للانخراط في جيشها أمام الشعوب والـقبائل الموالية من البرابرة ــ جرمان وغير جرمان ــ الذين عاشوا على تخومها. وكان المبدأ الـذي اعـتـمدته الامبراطورية منذ ذلك الوقت هو أنه كلما قلّ نصيب الجندي من الحضارة، كـلّـمـا ازدادت الـفـرصـة أمـامه ليصل الى أرقى المناصب في الجيش. ولم يأت هذا الاتجاه اعـتـبـاطـاً، وانمـا نتيجة لما حل بالروم أنفسهم من انحلال جعلهم لا يقوون على تحمّل أعباء الـقـتـال والحـرب. وقـد سـبـق أن أشـرنـا إلى أن هـرقـل بالذات عندما أخذ يستعد لمحاربة الـفـرس، فإنه لجأ الى تجنيد أعداد كبيرة من الجند المرتزقة المختلفة الأصول والجذور. وشتّان بين جـيـش هـذا شأنه، وجيش من المسلمين يتألف بأكمله من جنس واحد، و يتكلّم لغة واحدة هي لغة القرآن الكريم، وتؤلف بين قلوب أفراده عقيدة واحدة لا انقسام فيها.

حـقـيقة أن جيش الروم من الناحية البشرية تمتع بميزة واضحة هي الكثرة العددية، ولـكـن لا نـنـسى أن هـذا الـتـفـوق الـعددي على جيوش العرب قلل من شأنه عامل الإنهاك الـشـديـد، بعد أن قضت دولة الروم سنين طويلة في محاربة الفرس، دون أن تعطى الجيوش مـهـلـة قـصـيـرة لاسـتجماع قواها بين حربي الفرس والعرب. وهكذا، لئن كان الامبراطور

٩. Cam. Med. Hist., Vol. 4, Part 1, p. 30.

هرقل قد استعان في مقاومة العرب الفاتحين لبلاد الشام بجيوش أوفر عدداً، الا أن هذه الجيوش كانت منهكة تنقصها وحدة الجنس، مفتقرة الى الايمان بهدف تحارب من أجله.

وفي حوادث الغزو الاسلامي لبلاد الشام، ظل الغساسنة على ولائهم للروم. ولكن يبدو أن بعض القبائل الضاربة الى الجنوب من البحر الميت ــ مثل جذام وقضاعة وغيرهما من القبائل العربية التي سيطرت عندئذ على الطريق بين المدينة وغزة ــ أيدت جيوش الفتح الاسلامي. وكانت هذه القبائل من قبل مواليه للروم. فضلاً عن اعتناقهم المسيحية، كما كانوا يتقاضون معونات ثابتة من خزانة القسطنطينية. ولذا وقفوا الى جانب الروم في مؤتة. ولكن حدث بعد مؤتة مباشرة. أن أوقف الامبراطور هرقل المعونة التي كانت دولته تقدمها لتلك القبائل، نظراً لحاجته الشديدة الى المال لسداد ديونه المستحقة للكنيسة بسبب حرب الفرس. و يقول المؤرخ الرومي المعاصر ثيوفانس Theophanes أن وقف المعونة لتلك القبائل جعلها تساند المسلمين وتغير موقفها.

ومهما يكن من أمر، فان يزيد بن أبي سفيان كان أول من التحم مع الروم، فباغت جيشاً الى الجنوب من البحر الميت بقيادة سرجيوس بطرق قيسارية، فحلّت الهزيمة بالروم، وحاولوا التراجع تجاه غزة، ولكن المسلمين لاحقوهم وأفنوهم، وكان من جملة القتلى سرجيوس نفسه.

ولم يلبث أن وصل عمرو بن العاص على رأس قواته، فاجتاح الأجزاء الجنوبية من فلسطين حتى غزة، بل لقد تقدّم في اتجاه قيسارية.

وقد فزع هرقل ــ الذي كان مقيماً بحمص ــ لتلك الأخبار، فجمع جيشاً كبيراً وأرسله الى جنوبي دمشق لحمايتها، ووضع ذلك الجيش تحت قيادة أخيه تيودور. ومع ذلك فإن الخطر المحدق ببلاد الشام كان جسيماً، بعد أن انقطعت خطوط المواصلات بين بيت المقدس والساحل، وأحدقت الأخطار بغزة وقيسارية.

وفي تلك المرحلة أتى خالد بن الوليد من العراق، وظهر على مقربة من دمشق في ابريل سنة ٦٣٤م. وقد أدرك خالد ما يمكن أن تتعرض له جيوش المسلمين من خطر نتيجة لزحف تيودور في جنوب الشام. لذلك اختار خالد أن يتخذ طريق شرق الأردن ليلتقي بعمرو و يزيد في وادي عربة، بعد أن أخذا في التراجع أمام جيوش تيودور. على أن تيودور

لم يلبث أن اكتفى بالزحف جنوباً، واتخذ لقواته مكاناً حصيناً عند أجنادين، بين بيت المقدس وغزة. وهناك دارت معركة كبرى بين جيوش الروم وجيوش المسلمين في أواخر شهر يوليو سنة ٦٣٤م (١٣هـ) وقد انتهت هذه المعركة بتدمير الجيش البيزنطي، مما أوقع فلسطين بأكملها ــ و بخاصة الأراضي المكشوفة، أي باستثناء المدن المحصنة ــ تحت رحمة العرب الفاتحين. وفي تلك المرحلة تردد أن غزة سقطت في أيديهم.

وفي الاحتفال الذي أقيم بمناسبة عيد الميلاد في كنيسة القيامة ببيت المقدس في أواخر سنة ٦٣٤هـ، عبّر البطرق صوفرنيوس عن خطورة الوضع الذي أمست فيه بلاد الشام نتيجة للغزو العربي الاسلامي.

وعلى الرغم من أن الأخبار جاءت عقب موقعة أجنادين مباشرة ووفاة أبي بكر الصديق وقيام عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنهما ــ في الخلافة، الا أن الجيوش العربية في بلاد الشام لم تتوقف نتيجة لسماع تلك الأخبار، وانما واصلت زحفها شمالاً، حتى أن بعض المصادر السريانية المعاصرة تؤكد أن طلائع الجيوش العربية ظهرت على مقربة من حمص في أوائل سنة ٦٣٥م.

وقد أدرك قادة حملة الشام ــ و بخاصة خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ــ أنه من غير المناسب أن تظل العمليات الحربية التي قام بها المجاهدون المسلمون حتى ذلك الوقت شبه عشوائية، لا تسير وفق خطة موضوعة وأهداف مرسومة. لذلك يرجح أنهم وضعوا حوالي ذلك الوقت خطة منظمة للفتح واحتلال البلاد، التزموا بها بعد ذلك. و يقال أن القائد العام للجيوش الاسلامية ــ أي أمير الأمراء ــ أبا عبيدة بن الجراح أرسل عندئذ الى الخليفة عمر يستشيره في الخطوة التالية، فأجابه عمر قائلاً «ابدءوا بدمشق فانها حصن الشام».

أما عن الروم، فقد انسحبت فلول جيوشهم بعد أجنادين الى دمشق، في حين عاد تيودور ــ أخو الامبراطور هرقل ــ الى القسطنطينية بعد الهزيمة التي نزلت به. وكانت الخطوة التالية أمام الروم هي محاولة انقاذ دمشق، فجمعوا قواتهم عند فحل ــ على الطريق بين الأردن ودمشق ــ وقطعوا سدود الماء ليحولوا دون تقدم العرب في اتجاه دمشق، ولكن المسلمين اجتاحوا مواقع الروم عند فحل، ثم سقطت بيسان في أيديهم (يناير ٦٣٥)، و بعد ذلك زحفوا مباشرة على دمشق. وعندما تصدى لهم الروم ــ في محاولة أخيرة لانقاذ

دمشق ــ عند مرج الصفر، انتصر عليهم المسلمون، مما أوصلهم بعد أيام الى أبواب دمشق. والواقع أنه لم يكن باستطاعة العرب حصار مدينة كبيرة مثل دمشق لجهلهم عندئذ بأساليب حصار المدن الكبرى، وما يستخدم في مثل هذا الحصار من آلات حربية ونحوها. لذلك آثروا فرض نوع من العزلة على المدينة وقطع الامدادات عنها، حتى يجبروا حاميتها وأهلها على الاستسلام. وقد بذل هرقل جهوداً متكررة لإنقاذ دمشق، دون جدوى، حتى سقطت في خريف ٦٣٥م. وفي أواخر هذا العام، كان خالد بن الوليد قد استولى على حمص.، في حين فر هرقل غرباً الى أنطاكية.

وهكذا اتسع الخرق على هرقل، فاستسلم عدد من المدن الصغرى ــ في جهات متفرقة من بلاد الشام ــ للفاتحين المسلمين؛ هذا وان كانت بعض المدن الكبرى المحصنة ــ وبخاصة بيت المقدس وقيسارية ــ قد استمرت في المقاومة أملاً في مساعدة قريبة تصلها من الامبراطور لإنقاذها.

أما هرقل الذي انتقل الى أنطاكية، فقد بذل جهوداً محمومة في تلك المرحلة لإنقاذ ما يمكن انقاذه. ومن الواضح أنه واجه صعوبات متعددة في جمع فلول جيوشه، وتجنيد أعداد من المرتزقة والأرمن وبعض نصارى العرب، في الوقت الذي كان يعاني من نفاد المال من جهة ومن الإرهاق الشديد بعد الجهد الشديد الذي بذله بصورة متواصلة طوال أربعة عشر عاماً منذ خروجه سنة ٦٢٢ من القسطنطينية، على رأس جيشه وأسطوله لمواجهة الفرس، من جهة أخرى.

وبعد جهد سريع استطاع هرقل أن يجمع جيشاً من خمسين ألف رجل، بعضهم تنقصه الخبرة القتالية والحماسة للمبدأ، والبعض الآخر أصابه الانهاك بعد أن استنفد القتال الطويل جهده وطاقته. وبهذا الجيش فكّر هرقل في القيام بهجوم مضاد ينزل به ضربة بالغزاة العرب ويطردهم من بلاد الشام. ولمواجهة هذا الخطر، اضطر المسلمون الى تجميع قواهم، فسحبوا جيوشهم من دمشق وحمص وغيرهما من المواقع التي كانوا قد احتلوها في شمال الشام وجنوبه، واختاروا وادي اليرموك ــ شرقي الأردن مركزاً لتجميع قواهم. ومن الواضح أن اختيار ذلك الموقع لم يتم اعتباطاً، وانما جاء لتخوف العرب في ذلك الدور من عملية انزال بحري يقوم بها الروم، الأمر الذي جعلهم يحرصون على الاحتماء بداخل البلاد. هذا فضلاً عن أنه يمكنهم من مركزهم شرقي الأردن الانسحاب في حالة الضرورة

الى داخل الصحراء في شبه الجزيرة العربية.

وهناك عند اليرموك وقفت سنة ٦٣٦م جيوش العرب والروم في مواجهة مصيرية. و يبدو أن العرب كانوا في انتظار وصول بعض الامدادات، في حين عانى الروم كثيراً بسبب الانقسامات والشقاق بين قادتهم، حتى أن الجند نادوا بأحد القادة ــ وهو بانيس Bannes امبراطوراً عليهم. وجاء ذلك في الوقت الذي تخلّي نصارى العرب من أتباع الامبراطورية عن مناصرة الروم الذين فقدوا بذلك سنداً قو ياً.

وفي وادي اليرموك دارت سلسلة من المعارك بين العرب والروم، انتقل فيها العرب من نصر الى آخر، حتى توجوا انتصاراتهم بضر بة قاصمة وجهوها الى الروم في يوم الواقوصة (٢٠ أغسطس ٦٣٦).

ولا شك في أن موقعة اليرموك حددت مصير بلاد الشام ومستقبلها؛ و وضعت حداً لآمال هرقل في انقاذ تلك البلاد، بعد أن قضى العرب المسلمون على آخر ما تبقى لديه من جيوش وقوات جمعها بصعوبة بالغة، وأنفق عليها كل ما استدانه من الكنيسة وغيرها.

أما المسلمون، فلم يضيعوا الوقت، واتبعوا انتصارهم في اليرموك بالزحف على دمشق مباشرة، فأحكموا سيطرتهم عليها من جديد، للمرة الثانية والأخيرة. وعلى الرغم من أن الخليفة عمر بن الخطاب جعل امرة جيوش المسلمين في الشام لأ بي عبيدة بن الجراح، إلا أن أبا عبيدة ترك مهمة التخطيط والتكتيك الحربي لخالد بن الوليد الذي قام فعلاً بتوجيه الجند وتحركاتهم في معركة اليرموك. و بعد اليرموك لم يكتف المسلمون بالسيطرة على دمشق، وانما زحفت جيوشهم شمالاً، فاستولوا على بعلبك وحمص وحلب وانطاكية؛ كما دانت لهم بالطاعة القبائل العربية المنتشرة في بادية الشام. ولم يصادف المسلمون في تلك المرحلة مقاومة جدّية الا من قلة من المدن، مثل قنسرين.

وفي تلك الأثناء ــ أعني في غضون سنتي ٦٣٦، ٦٣٧م ــ كان شرحبيل و يزيد يعملان للسيطرة على بقية الأنحاء الداخلية من بلاد الشام، فضلاً عن المدن والموانىء الساحلية. وكان قسطنطين بن هرقل في قيسارية ــ على ساحل فلسطين ــ يقاوم المسلمين في صلابة وعناد. ولكن قسطنطين، عندما علم بسقوط طبرية في الداخل، وهرب والده من حمص الى أنطاكية، خشي على نفسه أن يقع في قبضة أعدائه بعد أن انقطعت طرق الا تصال

البرية بينه وبين الداخل من ناحية، وبينه وبين شمال الشام من ناحية أخرى. لذلك قرر قسطنطين الفرار في الوقت المناسب، وأقلع هو وأسرته الى القسطنطينية.

وهكذا لم يبق أمام المسلمين في المعاقل الكبرى في بلاد الشام سوى بيت المقدس في الداخل وقيسارية على ساحل فلسطين، وهما المدينتان اللتان صمدتا وكانتا آخر معقلين استسلما للمسلمين. ولتفسير أسباب المقاومة العنيدة التي أبدتها هاتان المدينتان، يقول بعض الباحثين الغربيين(١٠) أن الفتح العربي لبلاد الشام لم يصادف مقاومة جادة من جانب أهالي البلاد الذين يرجعون الى العنصر السامي، والذين كرهوا سيطرة الروم عليهم وحكمهم لهم، بعد أن أثبتوا عدم قدرتهم على حمايتهم، مما جعل بلادهم نهباً للفرس وغير الفرس من القوى المجاورة. هذا الى أن أهل الشام شكوا من الضرائب القاسية التي اضطرت ادارة الامبراطور هرقل الى فرضها على الأهالي للحصول على الأموال اللازمة لمواصلة الحروب ضد أعداء الدولة. فاذا أضفنا الى ذلك أن نسبة كبيرة من أهل الشام اعتنقوا المذهب المونوفيزتي ــ أو مذهب الطبيعة الواحدة ــ مما عرضهم لموجة قاسية من الاضطهاد على أيدي الأباطرة الملكانيين، أدركنا السر في عدم معارضة أهل الشام لمقدم أقربائهم العرب الساميين. ودعم هذا الموقف من جانب أهل الشام أن الفاتحين ــ من العرب المسلمين ــ أشاعوا منذ المراحل الأولى للفتح جواً من التسامح الديني، لأنهم لم يعبئوا بأن يكون أهل البلاد من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين، وانما كان كل ما يعنيهم هو ايصال صوت الاسلام ودعوته الى آذانهم «فان أسلموا فقد اهتدوا، وان تولوا فانما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد». وفي ظل الحرية الدينية التي كفلها الاسلام لأهل الكتاب، كان لأهل الشام أن يتمتعوا بكافة حقوقهم كاملة، بشرط أن يؤدوا ما عليهم من واجبات.

ومن هذه الواجبات كانت الجزية التي جمعها المسلمون من أهل الكتاب ــ نصارى ويهود ــ وهي مبالغ تافهة لا يمكن مقارنتها بما فرضه الروم من ضرائب باهظة أثقلت ظهور أهل الشام. وهنا نشير الى اليهود لأنهم في بلاد الشام تحت حكم الروم لم يكونوا أوفر حظاً من المسيحيين أتباع مذهب الطبيعة الواحدة. ولا شك في أن موقف نسبة

---

١٠. Cam. Med. Hist., Vol. 2; p. 345 (1976).

كبيرة من أهل الشام من حكم الروم، كان له أثره في تسهيل مهمة العرب الفاتحين، اذ جعل المقاومة الرئيسية التي واجهها هؤلاء الفاتحون صادرة عن الجهاز الحاكم وليست عن الأهالي والشعب.

أما بالنسبة لبيت المقدس وقيسارية، فكان الوضع مختلفاً، لأن هاتين المدينتين كانتا عند الفتح العربي الاسلامي روميتي الطابع والحضارة، معظم سكانهما من الروم، يدينون بالمذهب الملكاني أو مذهب الطبيعتين؛ وبالتالي فانهم لم يتعرضوا لما تعرضت له الغالبية من أهل الشام من اضطهادات وأعباء. ولذا لم يكن غريباً أن تتركز المقاومة في المرحلة الأخيرة من مراحل الفتح العربي الاسلامي لبلاد الشام في مدينتي بيت المقدس وقيسارية، رغم معرفة الناس في هاتين المدينتين بانهيار قوة هرقل انهياراً تاماً وتدمير جيوشه، وجلاء الامبراطور نفسه عن البلاد.

ومع ذلك، فان بيت المقدس وقيسارية لم تستطيعا الصمود طويلاً، بعد أن غدت كل منهما تشبه بجزيرة معزولة وسط محيط واسع من الغزاة الفاتحين. وكان أن استسلمت بيت المقدس سنة ٦٣٨ بعهد من الخليفة عمر بن الخطاب الذي حضر بنفسه لتأمين أهلها واستلام المدينة. أما قيسارية فقد سقطت في اكتوبر سنة ٦٤٠م، وبذلك كانت آخر معقل رومي استولى عليه المسلمون في بلاد الشام.

أما هرقل، فتروي المصادر أنه عقب خروجه من أنطاكية اتجه الى داخل البلاد في اتجاه الفرات، ومن هناك سلك الطريق البري الى القسطنطينية. وربما كان اختيار الطريق البري ــ وليس البحري ــ محاولة منه لتأمين الأطراف الشرقية لآسيا الصغرى، حتى لا ينفذ المسلمون الى عقر داره. يدل على ذلك ما رددته بعض المصادر من أنه «أخذ أهل الحصون التي بين اسكندرونه وطرسوس معه، لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين انطاكية وبلاد الروم». أي أنه هدم الحصون في تلك المنطقة، حتى لا يتحصن فيها أعداء الامبراطورية الجدد من العرب.

ولا شك في أن هذه التصرفات من جانب الامبراطور هرقل تدل على أنه يئس تماماً من أمر الشام، وأدرك أنه لن يستطيع أن يفعل مع العرب مثلما فعل مع الفرس من قبل. وبعبارة أخرى، فإنه عندما انسحب هذه المرة عائداً الى القسطنطينية، فانه لم ينسحب

ليستعد و يتأهب للقيام بجولة جديدة يسترد بها الشام ومصر؛ وانما عاد الى عاصمته ليستسلم لحكم القدر الذي اختار أن تفقد الامبراطورية ما فقدته هذه المرة ليبقى في أيدي العرب الى الأ بد.

وقد تردد في المصادر العربية أن هرقل عند مروره بإقليم الفرات اختار أن يقف على مرتفع، و يلتفت نحو بلاد الشام قائلاً:

«السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود اليك رومي أبداً الا خائفاً حتى يولد المولود المشئوم، وليته لا يولد» (١١).

١١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٤ ص ١٦١، ابن الأثير: الكامل ج ٢ ص ٣٤٤، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٩٧.

مدينة حمص عند الفتح الاسلامي[١]

سهيلة الرماوي
كلية الآداب ــ الجامعة الأردنية

لمحة عامة : ــ

موقع المدينة وأهميته :

أقيمت مدينة حمص (٢) في منطقة جغرافية مميزة بالنسبة للمدن السورية، في السهل الواسع، أو كما يسميه البعض ــ الوادي العريض ــ الذي يقع بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية، وكذلك جبال العلويين، ويرتبط بالساحل عن طريق المنحدرات والفجوات التي تصل هذا السهل بساحل البحر الأبيض من جهة طرابلس أو بانياس، كما يرتبط بالصحراء حيث الطريق التي تصل حمص بتدمر، هذا بالاضافة الى أهمية المدينة بالنسبة للشمال والجنوب، حيث تتوسط المسافة بين أكبر مدينتين في المنطقة هما مدينة حلب ومدينة دمشق، وترتفع حمص عن سطح البحر حوالي ٥٠٠م. (٣).

هذا الوضع الجغرافي المميز جعل المدينة ذات موقع استراتيجي متعدد الجوانب والأبعاد: ويأتي في المقدمة البعد العسكري الحصين، سواء كان ذلك من ناحية التحصين الطبيعي ــ الجبلي للمدينة، أو كان من ناحية التحصين السكاني، حيث أن مدينة حمص بسكانها تكون سداً بشرياً عسكرياً منيعاً في مواجهة الطامعين في الوصول الى الساحل، أو الى الصحراء أو الى الداخل بشماله وجنوبه، كما كانت المدينة محمية ومحصنة أيضاً بمدينتين جانبيتين: الأولى هي مدينة قطنة Quatna وتعرف الآن باسم

---

١ . تلفظ حمص بضم الحاء أو كسرها، راجع : ياقوت الحموي معجم البلدان وغيره، كما عرفت بعدة أسماء قديمة منها : اميزا Emesa أو اميسا Emessa وأول من ذكرها بهذه الأسماء المؤرخ الروماني «بلين القد Pline L' Ancien» في كتابه التاريخ الطبيعي، راجع : مجلة الحوليات الأثرية السورية، ص ٥، م ١٠ سنة ١٩٦٠ حمص وآثارها.

٢ . هناك عدة روايات تدور حول اقامة مدينة حمص، فيذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان م ٢، ص ٣٠٢ اسم شخصين هما «حمص بن المهر بن جان بن مكنف»، و «حمص بن مكنف العمليقي» ويذكر البكري في معجم ما استعجم ... تحقيق مصطفى السقا جـ٢، ص ٤٦٨ : اسم أعجمي لا يجوز الصرف فيه سميت برجل من العماليق ويقال رجل من عاملة وهو أول من نزلها. وراجع حول اسم المدينة وبنائها دائرة المعارف للبستاني، طبعة بيروت، ١٨٨٣.

٣ . لقد كتب كثير من القدماء حول المدينة : ابن جبير، وابن بطوطة، وياقوت الحموي بالاضافة الى امهات الكتب حول الفتوح، وكذلك الموسوعات المتعددة والكتب الحديثة.

المشرفة وتقع على بعد ثمانية عشر (١٨ كم) الى الشمال الشرقي من مدينة حمص(٤). والمدينة الثانية هي: قادش Quadesh وتعرف باسم تل النبي مند، أو «مندو» الآن وهي على بعد خمسة عشر (١٥ كم) الى الجنوب الشرقي من مدينة حمص(٥).

وهناك البعد الاقتصادي ــ الزراعي حيث أن سهل حمص يمتاز بخصوبته وتنوع المزروعات التي تنبت في أرضه ويرويها نهر العاصي أو الأرنط Orontes وبحيرة حمص المعروفة باسم بحيرة قطينة، أو بحيرة قادش(٦) وهذه الخصوبة تحقق بعداً اقتصادياً آخر هو البعد التجاري للمدينة، اذ أنها تصدر الكثير من المزروعات الى الساحل والداخل عبر الممرات والطرق التي تصلها بالجهات الأربع، خاصة أنها تصل الصحراء بالبحر(٧).

هذه الأبعاد أيضاً أدت الى تحقيق بعد سياسي مميز للمدينة، بمعنى أنه من يسيطر على حمص يسيطر على الشرق الأدنى وآسيا الصغرى، وقد عرف رمسيس الثاني هذه الحقيقة بعد معركة قادش التي قامت بين المصريين وبين الحثيين، وأن البلاد قسمت بينه وبين الحثيّين على طول خط وهمي ــ اعتباري ــ يمر جنوب المدينة(٨).

كما جاء ذكر مدينة حمص وميزات شعبها في مراسلات تل العمارنة، وتطرىء هذه الآثار جلد الحمصيين وثباتهم وبسالتهم في الحروب وذلك في القرن الخامس عشر قبل الميلاد(٤). وقد عرف أهمية المدينة الامبراطور هرقل، فكان يقيم فيها عند الفتح الاسلامي كما سيمر معنا.

---

٤. راجع حول هذا الموضوع: Conte du Mesnil du Buisson: Le site archeologique de Mishrife-Quatna, Paris, 1935.

٥. راجع حول هذا الموضوع: Maurice Pegard: Quadesh, Mission Archeologique a'telle Nebi Mend, 1921- 22, Paris, 1934.

٦. يرجح أن البحيرة بنيت في عهد السلوقيين، وهي بحيرة اصطناعية بنيت عن طريق تشييد «سد» الغاية منه حصر مياه العاصي وتجميعها ..راجع مجلة الحوليات الأثرية السورية، م ١٠، ص ١٤، سليم عادل عبد الحق، مدينة حمص وآثارها.

٧. حول الموقع الجغرافي لمدينة حمص وميزاته انظر:
Yolques Weuleresse: L'Oronte, Etude de Fleuve Tours 1940.

٨. راجع د. سهيلة الرعاوي، من وحي السيد العالي، طبعة ١٩٦٤ حول معركة قادش وتسجيلها في وادي الملوك في الأقصر. «حيث نجا رمسيس بمعونة أبيه الاله أمون رع».

٩. الأب بولس جوون اليسوعي، آثار حمص القديمة، مجلة المشرق، العدد ١٧ سنة ١٨٩٨، مأخوذ عن: Conder: Tell Anamol Talblets. P. 18

وقد شدّت بلاد الشام أنظار المسلمين اليها، وخاصة مدينة حمص، حيث كتب أحدهم للخليفة قائلاً: «وأعلم يا أمير المؤمنين أن بلاد الشام هي أرض السحب والتلال والرياح والخصب، فهي تنعش الجسد وتنقي البشرة خاصة أرض حمص التي تجمل الجسم وتنمي المدارك وماؤها نقي يرهف الحواس، أن بلاد الشام يا أمير المؤمنين هي أرض الخضرة البهيجة والغابات الكبيرة، وأنهارها تجري في مجراها الصحيح، ونوقها تدر اللبن الوفير(١٠)».

الإطار الخارجي لمدينة حمص عند الفتح الإسلامي :ـ

١ ـ مدينة حمص وأبوابها وأبراجها : أنظر شكل (١)*

كانت مدينة حمص عند الفتح الإسلامي تحاط بسورها المشهور من جهاتها الأربع ، والسور على شكل مستطيل مدور الزوايا، وهو عبارة عن حائط يبلغ عرضه أربعة أمتار، وارتفاعه ما يقارب عشرة أمتار، وأما الحجر الذي استعمل في البناء فهو «الحجر الأسود المشذّب» مثل أكثر الحجر المستعمل في بناء المدينة حتى عرفت باسم «حمص أم الحجار السود» و يشير البعض الى أن بناء السور قد تم في عهد الحثيين أو الآراميين، وأن الرومان قاموا بعملية تحصينية مرة أخرى، والأرجح أن بناء السور قد تم في زمن السلالة الوطنية وهي سلالة سمسيغرام Sampsigeramus (شمس جرم) العربية الحمصية الأصل(١١) أو في عهد الأباطرة السوريين(١٢)، حيث وسع هؤلاء مدينة حمص

---

١٠ . من منشورات الجمعية التاريخية في حمص : تحت الطبع : بحث للأستاذ منذر حموري بعنوان «تحرير حمص من السيطرة البيزنطية.

* (انظر الأشكال في نهاية البحث).

١١ . انتزعت اسرة شمسيغرام التي كانت تتولى سدانة معبد الشمس في حمص، السلطة من السلوقيين حوالي سنة ٩٦ ق.م. ووصل الينا اسماء ثمانية ملوك من هذه الأسرة هم : دابل ملكا، شمسيغرام، جيمبليك، الاسكندر، جمبليك الثاني، شمسيغرام الثاني، عزيزو، وسهيم، واتخذوا من الرستن (أريتوسا Arethusa عاصمة لهم وامتد حكمهم حتى الربع الأول من القرن الثاني الميلادي. راجع سليم عادل عبد الحق، مدينة حمص وآثارها، ص ٥ ـ ٣٦، مجلة الحوليات الأثرية السورية، م ١٠، سنة ١٩٦٠. وراجع د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جـ٢، ص ٦٢٢.

١٢ . الأباطرة السوريون : يبدا عهدهم بزواج القائد الروماني سبتم سيفير (سبتيموس سيفروس Septimius Severus من ابنة كاهن حمص جوليا دومنه، وقد توصل الى الكرسي الامبراطوري سنة ١٩٧م ثم خلفه ابنة كلاكللا سنة ٢١١م وبدأ عهد الأباطرة السوريين من سنة ١٩٣ ـ ٢٤٩ نهاية عهد فيليب العربي. راجع :

Andre Piganid : Histoire de Rome, pp. 390-410.

القديمة وخرجت عن إطار سورها المستدير المحيط بتل حمص «وهو سور دائري لا يتجاوز قطره الأربعمائة متر» وخرجت الى مدينة «لها شكل المستطيل ۱٤۰۰ × ۱۹۰۰ م» (۱۳) وكان يحيط بالسور خندق يملأ بالماء ليصد هجمات العدو.

أما أبراج المدينة فانها تقوم في المواقع الرئيسية بالنسبة للسور وهي بارزة عن مستوى جدار السور، وفيها فتحات ضيقة خصصت للحرس ورماة الأسهم والنبال (١٤) وما زالت بعض الأبراج قائمة حتى اليوم خاصة البرج الشمالي وقد بدأت مديرية الآثار بترميمه وكشفت جزءاً من السور يحيط بالبرج كما كشفت تحته باباً ــ مدخلاً ــ كان يؤدي الى القلعة (١٥). كما أن أبراج باب هود ما زالت قائمة، أما البرج المربع عند باب المسدود فهو غير موجود الآن (١٦). وأما برج حي الأربعين فقد أقام سكان الحي فوقه مئذنة باسم مئذنة برج حي الأربعين. (انظر شكل ٢):

أما أبواب المدينة فيمكن أن نستدل على أسمائها ووجودها أيام الفتح الإسلامي من أمهات الكتب التي أرخت للفتوح فيقول الواقدي:

«قسم الأمير أبو عبيدة عسكر المسلمين أربع فرق، فبعث فرقة مع المسيب بن نجيه الفزاري (١٧) فنزل بهم على باب الجبل فيما يلي الباب الصغير، وبعث فرقة أخرى مع المرقال هشام بن عتبة بن أبي وقاص فنزل بهم على باب الرستن، وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن أبي سفيان فنزل بهم الى باب الشام، ونزل الأمير أبو عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهما على باب الصغير والعرب قادمون هنا من بعلبك بعد فتحها (١٨).

---

١٣. راجع محمد ماجد الموصلي، الموجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص ٢٧، ولم يهجر تل حمص أو حمص القديمة بل أصبح التل «أكروبول المدينة».

١٤. راجع كتاب ساطع محلي، حمص أم الحجار السود.

١٥. راجع مجلة البحث التاريخي، ص ١٢٧ بحث للاستاذين محمد الشاطر ومنذر حوري، العدد الثاني ١٩٧٩. بحث ميداني بعنوان حمص وآثارها وقلعتها.

١٦. The Encyclopaedia of Islam, V.III, p. 401.

١٧. ورد اسمه في تاريخ الطبري وغيره من الكتب، المسيب بن نجبه (بالباء).

١٨. الواقدي: محمد بن واقد السهمي، فتوح الشام، ص ٩٧.

ونستدل من كلام الواقدي وغيره من المؤرخين أن لحمص أربعة أبواب، ولكن بعض المصادر تذكر أبواباً أخرى وكذلك سكان حمص حتى الآن مثل: باب تدمر، باب الدريب، باب السباع، باب التركمان، باب المسدود، باب السوق، باب هود، وقد جرى ترميم باب المسدود خلال العصور الوسطى، وهذه الأبواب توجد آثارها حتى الآن وتعرف الأحياء المقامة حولها بأسماء الأبواب أيضاً، أما بالنسبة لباب السوق فهو غير موجود(١٩). ومما يجلب النظر حتى الآن قرب باب تدمر، ثغرة كبيرة في سور المدينة يقال لها طاقة أبي جرس، تعرف بأنها الثغرة التي دخل منها القادة المسلمون عندما فتحوا مدينة حمص، وهي موجودة حتى الآن، ومن هذه الطاقة يمكن رؤية جرس كنيسة (ماركيان) الحمصي وقد كان ضريحه قائماً وموجوداً أيام الفتح الاسلامي غير أن الكنيسة حديثة البنيان(٢٠).

وفي دراسة ميدانية مقارنة لما ورد من أسماء الأبواب في مختلف المصادر الدراسات الحديثة وما هو متعارف عليه عند سكان المدينة، نرجح أن الأبواب التي كانت قائمة عند الفتح الاسلامي وتقابل الأبواب المعروفة اليوم، هي على الشكل التالي: أن ما يعرف اليوم باسم باب السباع هو بقايا الباب الجنوبي القديم لمدينة حمص أي باب الجبل، وفي الجهة الجنوبية الشرقية للمدينة ــ مقابل الجهة الغربية نجد بقايا أحجار مشابهة لتلك الأحجار الموجودة عند باب السباع، وهي بقايا الباب الثاني للمدينة و يعرف اليوم باسم باب الدريب انما هو باب الشام. ونلاحظ من الجهة الغربية للمدينة أحجاراً قائمة ملقاة على الأرض هي بقايا الباب الثالث المعروف اليوم باسم باب تدمر (وهو باب الرستن القديم) وعنده طاقة أبي جرس التي أشرنا اليها، أما الباب الرابع وهو الذي أشار اليه الواقدي باسم الباب الصغير والذي يعرف باسم باب السوق فلا أثر له. وبمقارنة الأبواب وجهاتها مع بعضها البعض يصبح شكل البلدة المسورة عبارة عن مستطيل ذي أربعة أبواب متقابلة ومتناظرة تماماً، ونصل الى الحقيقة التالية وهي: أن الأبواب الأخرى التي ورد ذكرها في بعض الكتب مثل: باب التركمان و باب المسدود، و باب هود، فهي من الأبواب التي ألحقت بسور المدينة في العصر الأيوبي (أنظر شكل (١)): وكذلك البرج القائم حتى الآن

١٩. The Encyclopaedia of Islam, V. III., p. 401.

٢٠. مقابلة شخصية مع المطران الكسي عبد الكريم مطران الروم الأرثوذكسي، حمص ك ٢ ١٩٨٥. والضريح عبارة عن قطعة واحدة من الرخام، وتعيد له الطائفة في ٦ أيار من كل عام.

في حي الأربعين (وقد أقام عليه سكان الحي مئذنة واضحة المعالم حتى الآن) و يصبح الوضع العام أو الإطار الخارجي لمدينة حمص عند الفتح كما هو في الشكل رقم (٣) :

قلعة حمص : ـ

ومن أهم معالم مدينة حمص التي كانت موجودة عند الفتح الإسلامي القلعة وتعرف بـ : تل حمص ، وتقع القلعة الآن ضمن الحي المعروف بباب السباع . وهي على صورة مخروط قطع رأسه ، ومحيط القلعة نحو (٩٠٠ متر) وتعلو عن المدينة نحو ثلاثين متراً ، وواجهتها الجانبية المتجهة نحو المدينة عطفة سريعة ، أما الواجهة الأخرى فهي مصفحة بالحجر البركاني(٢١) و يرجح أن القسم الأدنى من القلعة هو تل طبيعي معروف باسم «تل حمص» ، أما القسم الأعلى فهو اصطناعي(٢٢) و يظن أن الأعمدة الموجودة في الجهة الشرقية للقلعة نقلت اليها من معبد الشمس القديم الذي كان قائماً أيام ازدهار حمص «الوثنية»(٢٣) . حيث اتخذت أسرة سمسيغرام الحمصية : ـ التي مر ذكرها سابقاً ـ اتخذت القلعة كقصر ملكي ، وأدخلت عليها بعد ذلك بعض التعديلات والإصلاحات ، أول من بنى القلعة الحثيون أو الآراميون على الأرجح ، وهي لا تختلف كثيراً عن القلاع في حماة وحلب وغيرها وأدخل عليها الملك المجاهد «شيركوه» الكثير من التعديلات ، و بنى عليها الأبراج والآثار الموجودة حتى الآن(٢٤) أنظر الشكل رقم (٤ ، ٥) .

صومعة حمص : ـ

وقد بقيت احدى الأوابد التي كانت قائمة في حمص حتى الفتح الاسلامي ،

---

* أوجه شكري لأعضاء الجمعية التاريخية في مدينة حمص حيث قدموا لي مشكورين ـ الدراسات الميدانية التي قام بها أعضاء الجمعية ، فأطلعت عليها ، هذا بالاضافة الى الرسوم الموجودة في البحث كما اطلعت على عدد من البحوث التي لم تنشر بعد . حمص ، ك ٢ ١٩٨٥ .

٢١. مجلة المشرق ، السنة الأولى ، العدد ١٧ ، أيلول ١٨٩٨ ، نبذة للأب بولس جوون اليسوعي ، آثار حمص القديمة .

٢٢. راجع مجلة البحث التاريخي ، العدد الثاني تشرين أول سنة ١٩٧٩ ، محمد الشاطر ومنذر جودي حمص قلعتها ، أسوارها .

٢٣. اشتهرت حمص بوجود معبد اله الشمس ، والحجر الأسود فيها ، وقد أقام المسيحيون فوق المعبد كنيسة «يوحنا» ثم أقام المسلمون الجامع النوري الكبير .

٢٤. يذكر قلعة حمص أحمد وصفي زكريا في كتابه جولة أثرية ، و يعتمد في معلوماته على ما جاء في كتاب الرحالة التركي (أوليا حلبي) و يشير الى أن الملك المجاهد شيركوه أشاد أبراجها الجديدة وهناك كتابة تدل على ذلك .

وهدمت سنة ١٩١١، وهي صومعة حمص الرائعة والتي تقع غربي المدينة وقد بنيت الصومعة لتكون مدفناً لملك حمص العربي الملك سمسيغرام (٢٥) وكان هذا المدفن برجاً يبلغ ارتفاعه (١٥م) وضلع قاعدته (١٢٫٥م) وكان له طابقان يعلوهما هرم مدرج مقطوع يصعد المرء الى الأول منهما ببرج عدد درجاته ست ويتراجع الطابق الثاني قليلاً الى الوراء عن هذا الطابق الأول وأمامه أيضاً ثلاث درجات وكانت جدران الطابقين مزدانة بدعائم مخددة فوقها جبهات مثلثة، أما داخل البرج فقد كان يحتوي في كل طابق على قاعدة مستديرة تتوزع حولها ثمانية محاريب نصف دائرية (٢٦) أما الأحجار التي بنيت منها جدران الصومعة فهي أحجار متناوبة في اللون ـ أحجار بازلتية سوداء وأحجار كلسية بيضاء (٢٧) ولعل الصومعة هي القصر الذي يذكره ياقوت الحموي على أنه قصر خالد بن يزيد في حمص ويحدد موقعه بقوله «وآثار هذا القصر باقية في غربي الطريق» وهو الموقع الذي حددته مديرية الآثار لموقع الصومعة (٢٨). وكان يطلق عليه سكان حمص اسم قبرقيصر، وشكل رقم (٦). ونختم كلامنا حول الإطار الخارجي لمدينة حمص بما قاله ابن جبلي في وصف سور المدينة وأبوابها :

«أسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم، أبوابها حديدية، سامية الأعراف هائلة المنظر، رائعة الأطلال والأناقة، تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة ؟؟؟» وهذا الوصف لمدينة حمص بعد الفتح الاسلامي، يدلنا على أن السور والأبواب والأبراج كانت قائمة وبحالة جيدة عند الفتح.

---

٢٥. Louis Falabert, Rene Manterde et Ceaude Mondeseest: Inscriptions greques et Latines de la Syrie, Foure V. Emersue, Paris, 1959.

٢٦. لقد قدمت لنا هذا الوصف الصومعة بمجلة الحوليات الأثرية السورية م : ١، سنة : ١٩٦ و يشير: سليم عادل عبد الحق الى أن أول من صور لنا الصومعة هو الرحالة كاساس، راجع كتاب :

Cassas, Voyage pittorossque de 1, Egypte et de us syries, Pairs 1985.

٢٧. قدم الأستاذ محمد ماجد الموصلي بحثاً حول صومعة حمص في مجلة البحث التاريخي العدد الثالث سنة ١٩٨٤، ص٦٧ وما بعدها، كما قدم مفصلاً للصومعة في كتابه الذي صدر مؤخراً بعنوان الموجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها.

٢٨. راجع ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص٣، ٣.

الإطار الداخلي لمدينة حمص عند الفتح الإسلامي

البعد الاجتماعي السكاني للمدينة:

لقد كانت مدينة حمص قبل الفتح الاسلامي مباشرة مدينة عربية التكوين السكاني لوجود القبائل العربية حولها وفي منطقتها، وكان فيها من القبائل قضاعة، وكندة، وطيي، وتنوخ، وحمير وكلب، واقلية من اياد وقيس(٢٩). وفي فترة الفتح جاءت قبائل عديدة من الجنوب للاستقرار في المنطقة فأصبحت حمص عندها مركزاً لليمنيين وأصبحت جزءاً من منطقة بني كلب(٣٠) وعلى العموم فان أهل الشام ــ وحمص منها ــ كانوا خليطاً من الآراميين والسريان والأنباط واليهود وغيرهم(٣١) وكانوا يتمتعون بوضع اقتصادي جيد، ويعملون بالزراعة والتجارة خاصة مع الجهة الشرقية حيث تعد مدينة حمص سوق البادية كما أنها مركز مهم للمنطقة الزراعية التي تزرع الحبوب والخضار بأنواعها، وكذلك فهي مركز منطقة الأشجار المثمرة التي تحيط بها وتمتد حتى بلدة الرستن وتسمى «بساتين حمص» هذا بالإضافة الى عقليتهم التجارية التي كان لها أكبر الأثر في فتح المدينة بشكل سلمي كما سيمر معنا.

البعد الديني لمدينة حمص:

أما من الناحية الدينية فقد كانت مدينة حمص عند الفتح الاسلامي مدينة نصرانية وساهمت الى حد كبير في نشر الديانة المسيحية في أرجاء سوريا، وقد زاد عدد من تنصّر من سكانها منذ القرن الثاني، بالرغم من تأصل تقاليد العبادة الوثنية في المدينة والشهرة التي اتخذها معبدها الوثني المعروف بمعبد الشمس في العالم القديم، أو معبد اله الشمس «إيلاغاً بآل»(٣٢) وأول من تنصر الآراميون وأصبحوا يعرفون باسم السريان تمييزاً

---

٢٩. راجع د. عبد العزيز الدوري، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، مؤتمر بلاد الشام الأول، ص ٢٥. وراجع نقولا زيادة، جغرافية الشام: سكان الشام، مؤتمر بلاد الشام الأول ص ١٦٧.

٣٠. و يؤكد كرد علي عروبة مدينة حمص في كتابه خطط الشام، جـ١، ص ٦٥.

٣١. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، جـ١، ص ٦٢.

٣٢. راجع مجلة الحوليات الأثرية السورية، م ١٠، ص ١٧، بحث الدكتور سليم عادل عبد الحق، مدينة حمص وآثارها.

لهم عن الآراميين الوثنيين(٣٣).

وقبل الغزو الفارسي لسوريا، كانت المنازعات الدينية قد ظهرت واستقرت بين السريان والروم، مما أطمع الفرس بهذه المنطقة، وحدد عهد الامبراطور فوكاس (فوقا ٦٠٢ــ ٦١٠) الإطار الخارجي الذي جرى في نطاقه التفكك البطيء في النواحي السياسية والاجتماعية والعسكرية والدينية في أواخر العصور الرومانية، وهذا مهد لهرقل أن يستولي على الحكم في الامبراطورية بتاريخ ٥ أكتوبر سنة ٦١٠م(٣٤) أي في بداية القرن السابع الميلادي وهو قرن الفتوحات الإسلامية.

الذي يهمنا هنا أن هرقل استطاع أن ينتصر على الفرس وقد ساهمت الكنيسة البيزنطية في ما أحرزته الامبراطورية من الانتصار، اذ قدمت للامبراطور الذهب والحلي الموجودة في الكنائس وكان انتصاره في سنة الهجرة النبوية سنة ٦٢٢ وأصبح هرقل قبل الفتح الاسلامي سيد الموقف من الناحية السياسية والعسكرية(٣٥) وأراد أن يكون سيد الموقف من الناحية الدينية أيضاً بمساعدة الكنيسة، وكانت تثار في الامبراطورية الأمور المذهبية المتعلقة بالطبيعة والطبيعتين، والمشيئة والمشيئتين للسيد المسيح، و يطلق على قضية الطبيعة الواحدة، عقيدة الإرادة الواحدة أو (المونوثلستية «Monotheletism»)(٣٦) من منطلق أن للسيد المسيح طبيعتين «الهية و بشرية تتسمان بارادة واحدة» وقد ظهرت هذه العقيدة في الأقاليم الشرقية التابعة للامبراطورية وأحب البطريرك سرجيوس(٣٧) بطريرك

---

٣٣. مقابلة خاصة في حمص مع المطران برنابا مطران السريان، كانون الثاني سنة ١٩٨٥، وقد عم التسامح في المدينة بعد مرسوم ميلان المشهور سنة ٣١٢ و بنيت فيها الكثير من الكنائس واشتهرت بينها كنيسة القديسة هيلانة وهي والدة الامبراطور قسطنطين، «أشار المسعودي أنها من عجائب الدنيا».

٣٤. كان هراكليوس: هرقل «والي افريقيا قد استنجده أهل القسطنطينية فأرسل ابنه واسمه هرقل أيضاً فقتل فوقاس وتربع مكانه على العرش واكتسب شعبية بانتصاره على الفرس.

٣٥. لقد أرسل ملك الهند تهنئة للامبراطور وأرفقها بهدية قيمة، كما أن ملك الفرنجة، أرسل يطلب الصلح الدائم مع بيزنطة، وكذلك أرسلت بوران ملكة الفرس مبعوثاً خاصاً الى بيزنطة ليبرم معاهدة مع هرقل.

٣٦. راجع سيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٢٩.

٣٧. سرجيوس هو من مدينة سرمين في سوريا وهو من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة فصار أرثوذكسياً وانتزع المنصب، وأحب أن يخدم هرقل في عقد صلح ديني.

القسطنطينية أن يقدم خدمة لهرقل، من منطلق أن يوفق بين المذهبين و يقضي على الإنقسام الديني الذي كان من الأسباب المباشرة لانتصار الفرس فيما مضى على الروم(٣٨) وقد أخذ البطريرك سرجيوس يتفاوض مع رؤساء الكنائس الشرقية وكانت حمص احداها، وانتصر هرقل لرأي سرجيوس، واجتمع الامبراطور مع بطريرك السريان وأساقفته في منبج وأحرز نجاحاً نسبياً معهم(٣٩) ولكن المعارضة الشديدة للمذهب الجديد جاءت من قبل صفرونيوس الذي صار بطريركاً لبيت المقدس سنة ٦٣٤(٤٠) مما شجع عدداً كبيراً من النصارى رفض المذهب الجديد ومن هؤلاء سكان مدينة حمص، فرفضوا استقبال هرقل عندما زار مدينتهم في طريقه الى بيت المقدس لاعادة خشبة المسيح التي استردها من الفرس، وأغلقوا أبواب حمص دونه، مما اضطره الى التوجه نحو دير «مارماروان» بين مدينتي حماه وشيزر فاستقبله رهبانها وأغدق عليهم العطاء(٤١) و بدأ المعارضون للحركة الجديدة، يعرفونها كما عرفها صفرونيوس بقوله: ان المذهب الجديد صوره ممسوخة من المنوفيزنية، وصوره فاسدة من أرثوذكسية المذهب الخلقيدوني ولذلك فهو مذهب غير سليم وسيجر الاضطرابات الكثيرة والمشاكل المعقدة للكنيسة، وهكذا بدأ رجال الدين يحاربون بعضهم البعض وانقسمت البلاد بين مؤيد ومعارض، كما يقول الشماس أسبيروجيور.

و بينما المسلمون يتوجهون نحو بلاد الشام و يكتسحون سوريا وفلسطين و يهددون مصر في سنة ٦٣٨م كان هرقل يصدر في نفس العام ٦٣٨ قراراً بتحريم

---

٣٨. بدأت هذه القضية منذ سنة ٦١٦ وخطت خطوتها سنة ٦٢٣، أي بدأت منذ انتصار الفرس، اما التطبيق الفعلي فكان بعد انتصار الروم.

٣٩. مقابلة خاصة مع الشماس اسبيروجبور، وهو من الروم الأرثوذكس، حمص كانون ثاني سنة ١٩٨٥.

٤٠. كان صفرونيوس بطريرك الاسكندرية قبل ذلك، اما الموافقة ل للمذهب الجديد فقد جاءت من قبل بطريرك أنطاكية و بطريرك الاسكندرية الجديد كيرس، سنة ٦٣١، كما أقر البابا هونورس سياسة سيرجيوس وكيرس، وكذلك بطريرك منبج أثناسيوس و بعده جرجي زيدان هو الذي اتصل بالامبراطور هرقل التمدن الاسلامي، ج ١ ص ٣٨، ط ٤.

٤١. يعد الشماس اسبيروجبور أن هرقل كان أكثر خطراً على النصرانية من الوثنيين وأنه هو «أبو المذهب الماروني و يقول ان دير مارماروان المذكور لم يعد له أي أثر الآن، وقد لخص الشماس الخلاف الديني بقوله: الأرثوذكس يقولون بأن يسوع شخص (أي أقنوم) واحد في طبيعتين الهية و بشرية، وخصومهم يقولون بشخص واحد في طبيعة واحدة، وسرجيوس قال بشخص واحد وطبيعتين وفعل واحد ثم زيد ومشيئة واحدة.... مقابلة خاصة، حمص، كانون ثاني سنة ١٩٨٥.

الإشارة الى أن شخصية المسيح تنطوي على قوى واحدة أو قوتين، ذلك أنه ما تنطوي عليه شخصية المسيح من طبيعتين اتحدتا معاً واندمجتا فيما هو معروف بالإرادة الواحدة(٤٢). وكان برأيه أن يقرب بين الفرقاء ووجهات النظر، ولكن زادت المشاكل الدينية والسياسية والاجتماعية اضطراباً، لأن أكثرية الفرقاء النصارى قد رفضوا ما جاء به هرقل.

ولكن لا بد لنا من التساؤل عن موقف اليهود في هذه الفترة من الصراع الديني في مدينة حمص قبل الفتح الاسلامي:

يقول الشماس اسبيروجبور: أن اليهود كانوا أسياد الساحة أثناء الفتح الفارسي للمنطقة فاتفق اليهود والأرمن والنساطرة والقائلين بالطبيعة الواحدة في العراق وسوريا ومصر وأرمينيا على التعاون مع الفرس (عباد النار الوثنيين) على تسليم المنطقة الى الفرس وحققوا هذا الأمر(٤٣) ولذلك كان اليهود والروم يكنون التباغض لبعضهم في هذه الفترة، وفي عهد هرقل بلغ هذا التباغض حده الأقصى(٤٤) فثار اليهود في عدة أماكن منها أنطاكية حيث قتلوا بطريركها ومثلوا بجثته تمثيلاً قبيحاً، وبالمقابل انتقم هرقل منهم وقتل جمعاً غفيراً، وكذلك ثار اليهود في مدينة صور وقتلوا واليها، وتآمر يهود عدة مناطق (صور وفنيقيا وفلسطين) على أن يتجمعوا و يقتلوا نصارى صور، ولكن اكتشف أمرهم، وأرسل الامبراطور أخاه ثاودووس الى قيسارية فقتل من فيها من اليهود وكان لذلك أثره عند الفتح الإسلامي لهذه المدينة(٤٥) و يبين زيدان موقف اليهود بقوله وكانت حكومات النصارى اذا سنت قانوناً خصصت بنوداً منه بشأن اليهود لمعاملتهم بالاحتقار(٤٦) وهذا

٤٢. راجع Oxford Dictionary of the Christian Church

٤٣. مقابلة خاصة مع الشماس اسبيروجبور، حمص، ك ٢ ص سنة ١٩٨٥.

٤٤. جرجي زيدان، التمدن الاسلامي، جـ١ ص ٣٨، يؤيده سبيروجبور ونلمح من كلام جرجي زيدان وغيره، أن جوهر ما يريد أن يتوصل اليه هو أن المسلمين فتحوا المنطقة عن طريق هؤلاء اليهود وارشادهم للمسلمين و يضرب مثلاً على فتح قيسارية التي حاصرها المسلمون سبع سنوات ولم يتمكنوا من فتحها الا عندما أرشدهم اليهودي يوسف لذلك، وليس هناك أي شيء جديد عند زيدان بالنسبة لحمص.

٤٥. راجع حول هذا الموضوع جرجي زيدان في كتابه التمدن الاسلامي جـ١ ص ٣٩ ومن المعروف أن قيسارية (قيصرية) قد فتحت بمساعدة أحد اليهود.

٤٦. زيدان المصدر السابق.

يقودنا الى بعد آخر هو البعد الاجتماعي في سوريا ومنها حمص، ويدلنا على أنه بالرغم من الانقسام الديني الذي كان عليه النصارى فقد صمم الجميع على اضطهاد اليهود فتجمع اليهود في شرقي الأردن ودخلوا الحجاز وانضموا الى الجيش الإسلامي بدهاء رهيب كخبراء وأدلاّء ومرشدين.... فلعبوا أبرز الأدوار وانتقموا من اضطهاد هرقل بفن ودهاء(٤٧) مما كان له أكبر الأثر في فتح المسلمين للمنطقة ومدينة حمص منها(٤٨).

وهكذا كان التصدّع والخلل في الامبراطورية البيزنطية يشمل الأبعاد السياسية والإدارية والأحوال الاجتماعية والدينية للامبراطورية قبل الفتح الإسلامي ولم يكن مجتمع حمص بغريب عن مجتمع الامبراطورية ككل قبل الفتح.

أما بالنسبة للبعد العسكري ــ أي الجيش، فقد كان الجيش البيزنطي في هذه الفترة يعاني من النظام السيء أيضاً، اذ قسم الى خمسة أقسام تولى قيادة كل قسم دوق «أمير» ولم يكن بين الدوقات أي نوع من الوفاق، هذا بالاضافة الى استخفافهم بمشاكل الأقاليم التي تتشكل منها الامبراطورية، حتى أن الامبراطور هرقل، استهزأ بهجوم العرب على سوريا وهو المنتصر على الفرس، والذي تمكن من أن يسترد أملاكه منهم، ولم يكن وضع الجند العام من الجيش البيزنطي بأفضل من وضع امرائهم ووضع الامبراطور، وقد اتخذ هرقل من مدينة حمص ــ مدينة اللهو آنذاك ــ مركزاً له ولحاشيته بعد انتصاره على الفرس، وبقي الأمر كذلك حتى الفتح كما سيمر معنا(٤٩).

غير أن سكان مدينة حمص قدروا أهمية التدفق الإسلامي نحو المنطقة فعقدوا صلحاً مع العرب في نهاية السنة الثالثة للهجرة النبوية وتعهدوا فيه بأن يدفعوا قدراً من المال تأميناً لتجارتهم، واستطاعوا أن يصدوا غارة عربية قبل الفتح النهائي للمدينة

٤٧. ابن البطريق، جـ٢، ص ٥، ٦ و يؤيد قوله اسبيروجبور.

٤٨. لا بد لنا من الإشارة أن كلام زيدان وكلام الشماس اسبيروجبور حول اليهود كان كلاماً شاملاً للمنطقة بأثرها، وعلى الأغلب أن اليهود لم يكن لهم هذا التأثير الكبير في مدينة حمص بالذات و يضرب المثل حتى الآن من أن اليهود لم يتمكنوا من دخول مدينتي حمص وحماة، وقد أكد استاذنا الدكتور عبد العزيز الدوري، بحديث شفهي أنه لم يكن لليهود في حمص دور يذكر بعد الفتح.

٤٩. راجع المطران يوسف الدبس، تاريخ سوريا، م ٤، جـ٢، ص ٥٤٤.

وذلك في السنة الرابعة عشرة للهجرة كما سيمر معنا(٥٠).

الفتح الإسلامي لمدينة حمص :ــ

كانت مدينة حمص في النصف الأول للقرن السابع الميلادي ــ أي عند الفتح ــ مركزاً ادارياً هاماً، تلحق به معظم أراضي محافظتي حمص وحماه الحاليتين(٥١). وكانت حمص أيضاً في هذه الفترة مركز الامبراطور هرقل، و يقال أنه أرسل جيشاً نحو الجنوب بقيادة أخيه ثيودورس «تذارق» لمحاربة المسلمين ثم ترك حمص متجهاً نحو انطاكية(٥٢) كما أنه من سمات مدينة حمص عند الفتح، المنازعات الدينية بين السريان والروم كما شرحت سابقاً(٥٣) هذا بالاضافة الى سخط القبائل العربية التي تسكن حمص وما حولها على الامبراطورية البيزنطية.

ولعل مدينة حمص، هي المدينة الأولى في بلاد الشام التي قامت بعقد صلح منفرد مع العرب المسلمين بعد معركة أجنادين وانتصار المسلمين فيها بتاريخ ١٨ جمادى الأولى سنة ١٣ هــ ــ ٣٠ تموز سنة ٦٣٤م، ذلك أن الفرقة الحمصية ــ وهي من أهم فرق جيش الروم ــ التي شهدت معركة أجنادين تقربت من جيش المسلمين، وعمد أفرادها الى نيل عهد سلمي من أمراء الجيش العربي: «فنالوه واستوثقوا منه بمعاهدة سرية عقدت في شهر ذي القعدة سنة ١٣ هـ كانون ثاني سنة ٦٣٥م، وبها اطمأن زعماء حمص على موقفهم ازاء الفتوحات القادمة والحروب الناشبة بين العرب والروم»(٥٤).

و يذكر أهالي حمص ــ وخاصة النصارى ــ هذه الواقعة مؤكدين أن الكتابات القديمة تذكر ذلك، و يقول الشماس أسبيرو جبور أن بعض المؤرخين الأجانب قد اطلعوا

---

٥٠. ساطع علي، حمص أم الحجاز السود، ص ٣٣ عن دائرة المعارف الإسلامية.

٥١. مجلة السريان الأرثوذكسي ص ٤١٥، راجع بحث الأستاذ منذر حودي ــ من بحوث الجمعية التاريخية في حمص، وكتاب الواقدي، فتوح الشام، ص ٩.

٥٢. يشير بعض المؤرخين الى أن هرقل بقي في حمص حتى موقعة أجنادين (البلاذري) و يشير البعض أنه هرب منذ البداية الى أنطاكية، بينما يقول ابن الأثير أن هرقل كان في القدس وعرض التسليم على الأهالي فلم يقبلوا فذهب الى حمص وأرسل جيشاً بقيادة أخيه.

٥٣. تعبير الروم يعني البيزنطيين ولا يعني سكان سوريا، راجع الواقدي فتوح الشام، ص ٤٤، ٥٦.

٥٤. الخوري عيسى أسعد، تاريخ حمص، جـ٢، ص ٣٢، نشرته مطرانية الأرثوذكسية في حمص سنة ١٩٨٤.

على أصول هـذه الكتابات القديمة مثل : المستعرب الهولندي ميخائيل دي غويي Goeje Jan De . وبيكر(٥٥)، وبهذا التصرف يكون أهل حمص قد تخطوا الطائفية منذ زمن طويل، وأن العاطفة القومية كانت أقوى من العاطفة الدينية عند أهل حمص، وضمنوا بذلك لأنفسهم «النجاة من العبودية» كما يقول الخوري عيسى أسعد(٥٦).

وأما الجيش العربي الإسلامي، فلم يصل الى حمص الا في أواخر سنة ١٤ هـ، فقد اتجه أبو عبيدة الى دمشق بعد معركة أجنادين، وسار خالد بن الوليد الى الشمال ليمنع المدد عن حمص ـ حيث كان هرقل يقيم فيها ـ وعندما استنجده أهل دمشق، أرسل نجدة عسكرية من أهالي حمص ـ ثم ترك المدينة متجهاً الى أنطاكية(٥٧).

أما كيفية حصار حمص، وفتحها في المرة الأولى، ثم في المرة الثانية، وكيف تم فتحها بطريق التفاهم والصلح، أو بطريق الحرب، فهذا تختلف فيه الروايات من كتاب لآخر وبعد المقارنة والدراسة والتحليل توصلنا الى النقاط التالية : ـ

١ ـ أنه في أثناء حصار المسلمين لمدينة حمص، حدث حادث هام في تاريخ المدينة أدى الى اضطرابها، ذلك أن بطريق حمص ـ وهو القائد العسكري بنفس الوقت ـ قد توفي، وكان ذلك يوم الجمعة من شهر شوال سنة ١٤ هـ، وعندها عقد أهل حمص اجتماعاً في كنيسة حمص الكبرى(٥٨) واستقر الرأي على طلب الهدنة من المسلمين، من منطلق كسب الوقت، وحتى يتمكنوا من مكاتبة الامبراطور هرقل المتواجد في انطاكية، وهكذا كتب أهل حمص لأبي عبيدة بهذا المعنى، فأجابهم الى طلبهم وهادنهم سنة كاملة : (ومن شهر ذي القعدة سنة ١٤ هـ الى شهر شوال سنة ١٥ هـ، وكان من نصوص هذا الميثاق ـ أو الهدنة ـ أن يرحل المسلمون عن مدينة حمص، مقابل أن تقدم المدينة للجيش الإسلامي المؤن، والخيل والدواب المعلوفات، بالاضافة الى عشرة آلاف دينار، ومائة ثوب من الديباج، أي البروكار ـ وبالمقابل تعهد أعيان حمص بعدم قبول نجدات

٥٥. راجع مذكرة دي غويي، ص ٧٤، أما المقابلة مع الشماس جبور فقد تمت في شهر كانون ثاني سنة ١٩٨٥.

٥٦. راجع كتاب الخوري أسعد، جـ ٢، ص ٣٢.

٥٧. دائرة المعارف لبطرس البستاني، ص ٢١٧.

٥٨. لعلها كنيسة يوحنا المعمدان «أو كنيسة» أم الزنار» لوجود الكنيستين أثناء الفتح الاسلامي.

بيزنطية(٥٩).

لقد تغيرت أوضاع ــ الحصار في مدينة حمص، أثر إعلان الهدنة، وخرج أهلها للبيع والشراء فكسبوا أموالاً طائلة، ويعد البعض أن هذا الوضع كان قد اتفق عليه ريثما يصل البطريق الجديد، والبعض الآخر يعده تهوراً من أهالي حمص، وأنه نتيجة من نتائج عقليتهم التجارية وحبهم للمال، وفي فترة الهدنة وصل مبعوث الامبراطور هرقل، وهو البطريق الجديد هربيس ــ الى مدينة حمص، وكان أول عمل قام به هو تحصين سور المدينة، واصلاح موقع الخلل فيه، كما تحصنت القوة البيزنطية وراء أسوار حمص المنيعة.

كان أبو عبيدة بن الجراح في هذه الأثناء يحاصر مدينة بعلبك (هليوبوليس) فوصلت اليه أنباء تحصين مدينة حمص من قبل البطريق الجديد، وتداول الأمر مع خالد ابن الوليد فعهد اليه بمراقبة المدينة ومنع الامدادات اليها ريثما يتم له فتح بعلبك، وعندما تم له ذلك أقام في بعلبك رافع بن عبد الله واتجه بجيشه نحو حمص، حيث كان في مقدمة الجيش ــ أي الفرقة الأولى ــ ميسرة بن جرزوق العبسي، أما الفرقة الثانية فكانت بقيادة ضرار بن الأزور والفرقة الثالثة بقيادة عمرو بن معدي كرب الزبيدي، وباقي الجيش كان بقيادة أبي عبيدة، أما عدد الجيش فقد اختلف الرواة حوله...

وعسكر الجيش الاسلامي في مشارق حمص، ثم كتب أبو عبيدة الى حاكم حمص هربيس يعرض عليه اختيار واحد من ثلاثة شروط: اعتناق الإسلام وفتح المدينة، أو فتح المدينة مع دفع الجزية، أو الحرب، ولم يستجب هربيس لشروط المسلمين، فبدأ الحصار للمدينة بعد أن قام أبو عبيدة بتوزيع جيشه على أبواب حمص: باب الجبل، باب الرستن، باب الدريب وباب الصغير، كما ذكرت سابقاً(٦٠).

لقد كانت معركة حمص، من الناحية السياسية والعسكرية ــ هي المعركة

٥٩. بحث من بحوث الجمعية التاريخية في حمص، الأستاذ منذر حودي، لم يطبع بعد. يؤيده المطران برنابا مطران السريان الأرثوذكسي.

٦٠. راجع الواقدي، فتوح الشام ص ٩٧.

الفيصل بين الروم والمسلمين(٦١). وكانت تمتاز بأسلوب عسكري ــ سياسي جديد، اتبعه خالد بن الوليد في محاصرة المدينة، يمكن أن نسميه أسلوب «الكر والفر»، اذ كان أهل حمص يخرجون من مدينتهم أفواجاً، و يعتدون على المسلمين، ثم يلجئون الى الأديرة المنتشرة حول حمص(٦٢). أو يدخلون مدينتهم و يغلقون الأ بواب دون المسلمين، أما مجموع المسلمين فقد نزلوا باب الرستن (وعلى الأ رجح هو باب تدمر الحالي) و يشير الخوري عيسى أنه بباب السوق(٦٣)، لقد اضطر هربيس الى طلب الصلح، ورحب العرب بهذا الطلب كي يتمكنوا من فتح منطقة الشمال، وهكذا اتفق الطرفان على الصلح وخرج وفد حمص للتفاوض من باب الرستن ــ أي باب تدمر الآن ــ ومكان تجمع الكتيبة يعرف الآن (بمقبرة الكتيب قرب باب تدمر) وتوصل الطرفان الى الصلح، بعد أن أمنهم جيش المسلمين على أموالهم وأنفسهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأملاكهم، ولكن استثنى كنيسة يوحنا المعمدان، على أن يأخذ المسلمون ربعها لاقامة مسجد بجوارها(٦٤). واشترط الخراج على من أقام منهم.

و يعد فتح حمص للمرة الأولى فتحاً سلمياً، ودفع مائة ألف دينار وسبعين ألف دينار(٦٥) من أهم الفتوحات التي حققها المسلمون في بلاد الشام، وكتب أبو عبيدة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بهذا المعنى... «أما بعد فالحمد لله الذي أفاء علينا وعليك يا أمير المؤمنين أفضل كورة في الشام، أهلاً وقلاعاً، وأكثرهم عدداً وجمعاً وخراجاً وأكبتهم للمشركين كبتاً، وأيسرهم على المسلمين فتحاً(٦٦).

---

٦١. رواية محمد عبد الله الأزدي، فتوح الشام، ص١٥٨ تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر.

٦٢. راجع لقاء شرحبيل بن حير وفوارس حمص ودخوله دير مسحل وراءهم فرماه أهل الدير بالحجارة حتى قتل: الأزدي المصدر السابق. ص ١٤٥.

٦٣. راجع الخوري عيسى أسعد، تاريخ حمص، جـ٢، ص ٣٦. ز يذكر الأزدي ص١٤٥ أن المسلمين نزلوا قرب باب الرستن دون تحديد موقعه، وكذلك يفعل عدد من المؤرخين منهم الواقدي ص ٩٧.

٦٤. البعض يظنها الكنيسة التي أقيم بقربها الجامع الكبير، وأما دراسات الجمعية التاريخية في حمص فترجح أنها كنيسة أم الزنار الحالية التي يقام بجوارها مسجد محمد بن مسلمة وعلى مساحة تعادل ربعها.

٦٥. الأزدي، فتوح الشام، ص ١٤٦.

٦٦. بعض الكتب تذكرة ميسرة بن مسروقة والبعض مرزوق، والبعض الآخر مسرور.

ولعل هذا الوصف من أبي عبيدة يقدم لنا صورة واضحة للمدينة من الناحية السكانية والعسكرية والاقتصادية و يتابع أبو عبيدة كلامه قائلاً : .... أخبرك يا أمير المؤمنين ـ أصلحك الله ـ انا قدمنا بلاد حمص و بها من المشركين عدد كبير، ثم يصف كيف طلبوا الصلح من المسلمين «وأذعنوا بأداء الجزية» ، و يتابع أبو عبيدة بقوله : «فقبلنا منهم وكففنا عنهم، وفتحوا لنا الحصون، واكتتبوا منا الأمان» .

كما أخبر أبو عبيدة أمير المؤمنين، أن الجيش الإسلامي سيتوجه نحو شمال سوريا حيث الامبراطور هرقل... وتقول الروايات أن أمير المؤمنين طلب من أبي عبيدة وجيشه عدم مغادرة حمص حتى نهاية الحول، فاستدعى أبو عبيدة ميسرة بن مسروق(٦٧) وكان قد توجه نحو حلب، فعاد حسب رغبة أمير المؤمنين(٦٨) بعد أن انتشرت أخبار استسلام حمص في المدن الشمالية مما سهل فتحها أمام المسلمين فيما بعد.

وكانت الأخبار تصل بسرعة الى الطرفين المتقاتلين لوجود العيون والجواسيس لكل منهما في صفوف الآخر، كما تشير كتب الفتوح، فقد تكاثر الروم في معسكر العرب حتى بلغوا الأربعين رجلاً يأخذون لهم الأخبار(٦٩)، وكان للعرب أيضاً عيونهم وجواسيسهم بحيث كانت أخبار الشام تصل الى أهل المدينة كل يوم(٧٠).

وقد نقلت عيون الروم الى هرقل أنباء صلح حمص واستسلامها وهو في انطاكية، فجمع الجموع من أهل أرمينية والجزيرة وكتب الى عماله أن يحشروا اليه «كل من كان أدرك الحلم من أهل مملكته فما فوق ذلك الى الشيخ العاني(٧١).

كما نقلت عيون المسلمين وجواسيسهم الى أبي عبيدة أخبار هذا الحشد الذي يعده هرقل، ورأى أن يلجأ الى الشورى و يعرض الأمر على المسلمين، و بعد المداولة

---

٦٧. الأزدي، فتوح الشام، ص ١٥٢.

٦٨. راجع كتاب أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، ص ١٥٩.
والواقدي، فتوح الشام، ص ٩٨، وكذلك كرد على خطط الشام، ص ١٠٩.

٦٩. راجع الواقدي، المغازي، ص ٩٨٩.

٧٠. الأزدي، فتوح الشام، ص ١٥٢.

٧١. المصدر السابق.

وطرح الآراء استقر الرأي على ترك مدينة حمص وشأنها على أن يكتب أبو عبيدة بذلك الى أمير المؤمنين وقد عمل أبو عبيدة بهذا الرأي بالرغم من أنه كان مخالفاً لرأيه(٧٢).

ولم يقبل أبو عبيدة أن يترك المسلمون مدينة حمص قبل أن يردوا لأهلها ما أخذ منهم حسب الصلح الذي أشرنا اليه سابقاً كما أكد لهم أبو عبيدة عزم المسلمين على العهد وعلى الصلح بقوله : «نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح لا نرجع فيه الا أن ترجعوا عنه» و يروي الأزدي أن أهل حمص أجابوا المسلمين : «ردكم الله الينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا علينا، بل غصبونا وأخذوا معهم ما قدروا عليه من أموالنا» .(٧٣) و يضيف الخوري عيسى في كتابه تاريخ حمص قوله : «ونهض اليهود فقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا بعد أن نجهد ونغلب وأغلق الأهلون الأبواب وحرسوها» (٧٤)وأرجح ضعف رواية الخوري أسعد ذلك أنه لو اكتفى بهذا القول ووثقه (أي دلنا على المصدر الذي استقى منه معلوماته) لأخذنا بها، ولكن عمم مباشرة هذا الموقف من اليهود في حمص الى اليهود في جميع البلاد المفتوحة حين قال متابعاً : «وفعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود قائلين أن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه، وإلاّ فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدو» .

وأظن أنه استقى هذه المعلومات من كتاب الخوري الماروني يوسف الدبس تاريخ سوريا، لأنه يتكلم عن اليهود ومساعدتهم للمسلمين في فتح بلاد الشام، دون أن يشير الى يهود حمص بشكل خاص .(٧٥)

لقد حمل رسول المسلمين كتاب أبي عبيدة الى الخليفة عمر، و يقدم لنا الأزدي صورة لهذا اللقاء حيث سأل عمر عن أحوال المسلمين في بلاد الشام فقدم الرسول له

---

٧٢. الأزدي، المصدر السابق، ص ١٥٦، و يؤكد هذه الرواية البلاذري، وزيدان في كتابه التمدن الاسلامي، جـ١ ص٥٨ وكرد علي في خطط الشام جـ١ ص١٢٧.

٧٣. الخوري عيسى أسعد، تاريخ حمص، جـ٢ ص٣٦.

٧٤. راجع الخوري يوسف الدبس، تاريخ سوريا، جـ٢ م ٤ ص ٥٥٥ وغيرها.

٧٥. الأزدي، فتوح الشام، ص ١٥٧.

الكتاب وعندها قال عمر ويحل ما فعل المسلمون؟ وأخبره أنه تركهم ليلاً في حمص وقالوا نصليّ الغداة ثم نرحل الى دمشق وقد أجمع رأيهم على ذلك..(٧٦) ولم يرض عمر عن تصرف المسلمين ولكنه وعد بارسال المدد اليهم، وأرسل رسالة موجهة الى أبي عبيدة أهم ما جاء فيها النقطتان التاليتان: الأولى حول ارسال المدد فقل «لقد سألني رسولكم المدد لكم وأنا ممدكم قبل أن يقرأ عليكم كتابي هذا(٧٧). والثانية: حول استنكاره ترك المسلمين لمدينة حمص، حيث قال الخليفة: «فانه بلغني توجهكم من من أرض حمص الى أرض دمشق، وترككم بلاداً قد فتحها الله عليكم، وخليتموها لعدوكم، وخرجتم منها طائعين، فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم...(٧٨) ثم عاد الخليفة وطمأنهم لأن الرأي كان رأي الأكثرية، وقال: «ان رأي الجماعة هو: التوفيق والصواب عادة، ولربما نصر الله العصابة القليل عددها على الكثيرعددها من أعداء الله» وطلب أن يتوجهوا ثانية الى مدينة حمص.

ولم يكن احتجاج الخليفة عمر على ترك مواقع المسلمين في حمص، هو الاحتجاج الوحيد الذي وصل الى أبي عبيدة، بل كان لترك المسلمين مواقعهم في مدينة حمص، صداه في أنحاء بلاد الشام أيضاً مما جرأ أهالي البلاد المفتوحة على نقض العهد، ودليلنا على ذلك، الرسالة التي حملها عبد الله بن عمرو بن العاص لأبي عبيدة وفيها: «ان أهل الأردن قد نقضوا العهد فيما بينهم وبين المسلمين، وذكروا أن الروم قد أقبلت الى الشام بقضها وقضيضها، وأنكم قد خليتم لهم الأرض وخرجتم منها وأقبلتم منصرفين عنها، وقد جرأهم ذلك علي وعلى من قبلي من المسلمين وقد تراسلوا وتواثقوا» وقد برر أبو عبيدة في كتابه لعمرو ابن العاص أن ذلك لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم ولا وهن من عدوهم ولكنه كان رأياً من جماعتهم(٧٩) وعلى كل حال فقد اتجه جيش المسلمين نحو حمص وأعاد حصارها مرة أخرى، وخرج اليهم فرسان الروم من أبواب السور فرجعت العرب القهقرى

---

٧٦. الأزدي، فتوح الشام، ص ١٥٩.

٧٧. راجع تفصيل الكتب المرسلة في الأزدي، فتوح الشام، ص ١٦٠ ــ ١٦٣.

٧٨. الواقدي، فتوح الشام، جـ١، ص ٩١ ــ ٩٤.

٧٩. يروي الخوري عيسى أن أحد العرب الغساسنة قدم للعرب هذه النصيحة «أي خطة التراجع» وذلك نقلاً عن الخوري الماروني يوسف الدبس تاريخ سوريا، جـ٤، ص ٥٥٥.

غير أنهم تمكنوا من دحر الروم الى مدينة حمص واستمر القتال من على الأسوار، حتى أقبل الليل ففرض على الطرفين وقف القتال حتى الصباح، وفي صباح اليوم التالي حث أبو عبيدة جنده على القتال قائلاً : يا معاشر المسلمين ما بالكم هزمتم وجزعتم منهم مع أن الله ألبسكم عافية مجلة وسلامة سابقة وأظفركم على بطارقة الروم وفتح لكم الحصون والقلاع فما هذا التقصير... »(٨٠).

وقد لعبت ديناميكية المعركة دوراً مهماً في الاستيلاء على حمص، وذلك أنه أثناء استعداد العرب للهجوم، فتحت حمص أبوابها وخرج الروم فجأة من أبواب المدينة وكان لا بد للعرب من تدارك الموقف فتراجعوا متظاهرين بالضعف، وطلبوا من الروم وقف القتال، وهكذا لحق بهم الروم نحو الجنوب، ونجحت خطة العرب في استدراج الروم(٨١) نحو الجنوب وتركهم المدينة، وعندها انقض أبو عبيدة وخالد بن الوليد على جيش الروم في حركة التفاف مدروسة ومحكمة، وبعدها بدأ الهجوم على الروم كردوساً واحداً، وقد أدرك الروم خطة المسلمين، ولكن بعد فوات الوقت، و يصف لنا سراقة بن عامر هذا المشهد بقوله : «انهزمنا أمام القوم كأننا نقصد الزراعة وجيوشه(٨٢) وأخذت تدركنا بطارقة الروم وقد مال بعضهم الى السواد طمعاً في الزاد والطعام».

ومن خلال هذه الصورة يمكننا أن نتتبع سير الجيش الاسلامي، فقد لحق بعض المسلمين بهذه الفئة من الروم الطامعة في السواد، واتجه البعض الآخر نحو أبواب حمص، ليمنعوا الروم الفارين من دخول المدينة والتحصن بأسوارها المنيعة كما حصل في السابق، وبقي أبو عبيدة وخالد بن الوليد في ميدان المعركة وتمكن المسلمون من ابادة جيش الروم من فرسان ومشاة، ثم بدأت مرحلة المبارزات الفردية بين قادة الفريقين، وأصبح جيش الروم أمام أمر واقع هو طلب الصلح وتسليم المدينة لجيش المسلمين حسب شروطهم، وقد استسلمت حمص بعد أن قتل هربيس وقضي على جيشه البالغ عدده (٥٠٠٠) فارس، ولم

٨٠. قريتان من قرى مدينة حمص الى الجنوب قرب قرية القصير الحالية.

٨١. البلاذري، ويذكر هنا أن قادة الجيش الاسلامي اعطوا أماناً لأهل حمص على أموالهم وكنائسهم ص ١٣٧.

كما أن الواقدي يروي قصة «الجعيد» أو (أبو الجعيد) الذي أرشد العرب ودلهم على هذه الطريقة ص ١٦٥ ـ ١٦٦. وهو جد الأسرة الحمصية العريقة» آل البندقجي كما يقول الخوري عيسى.

٨٢. الواقدي، فتوح الشام، ص ٩٦.

يسلم منهم الا مائة فارس فقط(٨٣).

وقد أتبع جيش المسلمين بعد فتح حمص خطتين رئيسيتين في المدنية ومعاملة أهلها الأولى : بعد الفتح مباشرة وقبل الاستيطان.
والثانية : بعد الاستيطان بمدينة حمص.

أما الخطة الأولى، فتتلخص بما قام به المسلمون من جمع الأسلاب والدروع والأسلحة الأخرى الموجودة في حمص، وتقديمها للقائد العام أبي عبيدة، فأخرج منها الخمس لبيت مال المسلمين ووزع الباقي على المقاتلين(٨٤). وكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يبشره بفتح حمص، كما أرسل الخمس الى بيت المال مع عبد الله بن مسعود(٨٥)، ثم جرت عملية الصلح على أن يترك المسلمون للروم دورهم وأموالهم و بنيانهم، فصالح بعضهم على صلح دمشق أي على دينار وطعام، وصالح بعضهم على قدر طاقته... وعندما أراد أهل حمص تكريم جيش المسلمين، رفض أبو عبيدة ولم يسمح لأحد من المسلمين دخول المدينة وصانها عن التخريب خاصة بعد أن تأكد المسملون من أن الروم قد اعتمدوا في حربهم مع المسلمين على سكان العواصم(٨٦). وليس على سكان حمص الأصليين من العرب.

أما الخطة الثانية : فقد اتخذت بعد أن قرر المسلمون الاستقرار والاستيطان في مدينة حمص، فقد أنزل أبو عبيدة السمط بن الأسود الكندي الى المدينة، حيث قسمها خططاً ــ مقاسم ــ بين المسلمين، فأسكنهم في كل مرفوض ــ غير عامر ــ جلا أهله عنه أو ساحة متروكة(٨٧).

لقد دخل المسلمون مدينة حمص سنة ١٦ هـ، وتركوا لأهلها من النصارى بيوتهم

٨٣. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ٦٠١.

٨٤. تاريخ الرهاوي المجهول، مخطوط قديم، حفظ عند مطران السريان الأرثوذكسي سيادة المطران برنابا، لم أتمكن من الاطلاع على النسخة الأصلية لضيق الوقت. من تحقيقات الجمعية التاريخية في حمص.

٨٥. المصدر السابق، كما ترويه أكثر كتب الفتوح.

٨٦. لقد شاهدت الزنار عندما قمت بزيارة الكنيسة في شهر كانون ثاني سنة ١٩٨٥، كما نشرت هذه المعلومات مجلة الحوليات السورية، ١٠٣، سنة ١٩٦٠.

٨٧. مقابلة شخصية مع المطران برنابا حمص، كانون ثاني، ١٩٨٥.

وكنائسهم وأديرتهم، ومنها كنيسة ماراليان وضريحه الرخامي، وكذلك كنيسة السريان الأرثوذكس المعروفة باسم كنيسة السيدة، أو كنيسة أم الزنار، و يقوم مبنى الكنيسة العادي فوق الكنيسة البيزنطية القديمة، وقد اكتشف في الكنيسة زنار السيدة العذراء حديثاً في سنة ١٩٥٣، وقامت لجنة من مديرية الآثار بالاشراف على هذا الكشف الأثري الديني الهام، انظر الشكل (٧) و يبلغ طول الزنار (٧٤ سم) وعرضه (٥ سم) وسمكه (٢ ملم) ولونه أبيض سكري ومصنوع من الصوف، ومطرز بالذهب(٨٨) وتؤكد المطرانية أن الزنار هو الذي أعطي للقديس ثوما (مارثوما) عندما لحق جنازة العذراء وأمسك بها، ورفض العودة الى رفاقه حتى يأخذ اشارة تثبت صدق كلامه، فانحل الزنار من فوق الجنازة وأخذه القديس ثوما(٨٩)، و بقي في كنيسة ام الزنار في حمص وعندما جدد بناء الكنيسة القديمة أودع في جرن حجري منذ سنة ١٨٥٢، وغطي بقطعة حجرية كبيرة كتب عليها باللغة السريانية هذه المعلومات عن الزنار، ولكن لم يتم العثور عليه واكتشافه الا في سنة ١٩٥٣(٩٠) أما الكنيسة الكبرى أو كنيسة يوحنا المعمدان فقد أخذ المسلمون ربعها ليقيموا عليه الجامع الكبير، و بعض الكتب تقول نصفها.

كما حافظ المسلمون على الأديرة التي كانت قائمة في أنحاء حمص و يهمنا دير مارجرجوس المقام في وادي النصارى قرب حمص وهو للروم الأرثوذكس. شكل (٨)، و بقي الدير يحافظ على أيقوناته وتراثه وأضاف الى هذا التراث عهدة من النبي صلى الله عليه وسلم ورد فيها تحديد العلاقات التي تربط المسيحيين بالمسلمين، وهي مخطوطة بخط معاوية وقد حفظها الدير في خزانة زجاجية، ويمكن لزوار الدير رؤيتها، والمخطوطة قسمان: قسم

٨٨. راجع د. سليم عادل عبد الحق المدير العام للآثار والمتاحف من سوريا، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد العاشر، ص١٩ ــ ٢٠.

* دير مارجرجس بناء قديم شيد في المنطقة المعروفة بوادي النصارى (قرب قلعة الحصن الآن) وقد شيد الدير على أنقاض هيكل وثني للاله (هوميرا) في القرن السادس الميلادي وهذا الدير القديم في الطابق الأرضي الآن حيث بني فوقه الدير الحالي، و بعد الفتح الاسلامي سمي الدير «مقام سيدنا الخضر أبو العباس» لدى الطوائف غير المسيحية. لقاء مع الأب نديم وسوف والأب فيليبوس اليازجي، وأندراوس ديب وغيرهم، دير مارجرجس كانون ثاني سنة ١٩٨٥.

٨٩. أكد لي المسؤولون في دير مارجرجس أن العهدة قديمة وأن كتبهم تشير الى صحتها وصحة الكف الموجودة عليها.

٩٠. مقابلة شخصية مع مطران الروم الأرثوذكس الكسي عبد الكريم، ومطران السريان الأرثوذكسي المطران برنابا، حمص كانون ثاني ١٩٨٥.

أثري، قديم وهو عبارة عن رق غزال، عليه مجموعة أختام دائرية مختلفة الحجم بالحبر الأسود ويمكن قراءة كلماتها المكتوبة بالخط الكوفي، وقد أملاها الرسول الكريم على معاوية بن أبي سفيان، كما ذكرت وجاء في العهد «كتبهخ محمد رسول الله الى الناس كافة بشيراً ونذيراً»

وتظهر في زاوية المخطوط كف النبي (ص) وقد تساءلت عن ختم النبي، فقيل لي أن وجود الكف هو بمثابة وجود الختم(٩١). وفي نهاية العهد تواقيع أكثرية الصحابة الأجلاء في مقدمتهم «الخلفاء الراشدون» والتاريخ يوم الاثنين لأربعة أشهر من السنة الرابعة للهجرة، بالمدينة، .. وأما القسم الثاني من المخطوطة فقد كتب على ورق ملصق على قماس، والكتابة تسهل قراءتها، وهي نفس الكتابة الموجودة على الرق بالخط الكوفي ولكن بخط عادي ويمكن أن نلخص البنود الرئيسية في المخطوطة على الشكل التالي: ـ

أ) توطيد العلاقة بين المسلمين والمسيحيين.
ب) اعفاء الأديرة من الضرائب الحكومية.
جـ) توصية بالمحافظة على الأوقاف في الأديرة وعدم التعدي عليها.

وقال الأب نديم وسوف أنه يوجد ثلاث نسخ من هذه العهدة، واحدة في دير القديس سابا في فلسطين (أريحا) والثانية في دير مارجرجوس في سوريا، والثالثة في دير القديسة كاترينا في صحراء سيناء، وهي الأصل».

أما حول كيفية وصول العهدة الى الدير، فقد قال أحد الآباء: أنه وجد مثلها في الكنائس اليونانية، وعلم هناك أن الدولة العثمانية، قد وزعتها على الأديرة، عندما فتح العثمانيون بلاد اليونان، وأن السلطان سليم الأول قد أتى بهذه العهدة من دير القديسة كاترين عندما فتح مصر، وأنه أمر بنقل الكتابة الكوفية التي تصعب قراءتها الى الكتابة العربية الدارجة، وألصق القسمين معاً ووزعهما على الأديرة ليطمئن النصارى وأصحاب الأديرة... كما أكد المسؤولون في الدير أن ما يطبق على المساجد يطبق على دير مارجرجوس أي (لا ضرائب ولا كهرباء... مثل المساجد). أنظر شكل (٩).

٩١. مقابلة شخصية في مطرانية الروم الأرثوذكس بحمص مع الشماس الأرثوذكسي أسبيروجبور.

غير أن بعض الآباء في الدير أكدوا لي أن العهدة أعطيت في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه للدير باليد، وكان لهذه العهدة الفضل الكبير في العهد العثماني من ناحية صيانة الأديرة والكنائس ومعاملة النصارى عموماً.

وعندما توجهت بالسؤال لسيادة مطران الروم الأرثوذكس أكد لي صحة هذه العهدة، كما أكده لي سيادة مطران السريان الأرثوذكس(٩٢)، غير أن الشماس أسبيروجبور (روم أرثوذكس) أكد لي أن «الوثيقة غير صحيحة»، وعندما تساءلت هل هناك شك؟ قال بل أكثر من الشك، أنني أرفض تصديقها، ووعدته أن أذكر ذلك(٩٣) كما أشار الشماس جبور الى أن جورجي زيدان يذكر العهدة و يرفضها أيضاً، ولكن في حقيقة الأمر، يذكر جورجي زيدان عهوداً ومواثيق أخرى، نصوصها تختلف عن هذا النص، غير أن جوهرها واحد(٩٤).

وعلى العموم فان هذه العهدة، سواء كانت صحيحة أو كانت غير ذلك، فهي لا تخرج عن مفهوم النصائح التي كان يقدمها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أو الخلفاء الراشدون الى جيوش المسلمين، لتطبيق بنودها مع أهالي البلاد المفتوحة، وهي تنبع من التعاليم الاسلامية الحنيفة والقيم الاسلامية والمحافظة على انسانية الإنسان، وهي أكبر دليل على تخطي الطائفية عند المسلمين وعلى تسامحهم الديني، في معاملتهم لأهل البلاد التي قاموا بفتحها والحفاظ على مقدسات البلاد من الناحية الدينية وعلى أشجارها وثمارها من الناحية الاقتصادية.

وقد عين أبو عبيدة على خراج حمص أحد أبناء المنطقة، في نطاق الخطة التي اتبعها منذ البداية وهي سياسة التقارب بين سكان حمص الأصليين، و بين العرب المسلمين، فاشترك الجميع في ادارة مجتمع المدينة برئاسة عبادة بن الصامت ــ النوفلي ــ عامل مدينة حمص(٩٥).

---

٩٢. أنظر جورجي زيدان، التمدن الإسلامي، جـ٤، ص ٩٣ وما بعدها.

٩٣. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ٦٠١ وما بعدها.

٩٤. راجع المطران الماروني يوسف الدبس، تاريخ سورية جـ٢، م ٤، ص ٥٥٥ وغيره كثير من كتب الفتوح.

٩٥. راجع كتب الفتح، الواقدي والبلاذري، وابن الأثير وغيرهم.

و يظهر أن هرقل قد استعد لجولة أخرى ضد المسلمين ، الغاية منها استرداد حمص من يد المسلمين ، وجند جنده من أنحاء الجزيرة السورية والأرمن وغيرها ، وتوجه بجند كثيف نحو حمص ، غير أن هذه الجولة قد انتهت بالفشل ، ذلك أن الإمدادات التي طلبها أبو عبيدة قد تمكنت من عرقلة جيش الروم نحو حمص ، وخاصة جيش سعد بن أبي وقاص الذي كان في العراق ، فسار نحو جيش الروم وأشغلهم عن مدينة حمص ، وأبلى القعقاع بلاء حسناً في الجزيرة السورية ، وكذلك فعل جيش خالد بن الوليد حول حمص ، غير أن خروج الخليفة عمر رضي الله عنه الى الجابية كان له الأثر الفعال في نفوس الروم ، فعادوا أدراجهم قبل وصولهم الى حمص ، وتأكد هرقل أن لا أمل له في الوصول الى سوريا فوقف مودعاً بقوله « وداعاً يا سوريا ، وداعاً لا لقاء بعده »(١٦) وكان ذلك سنة ١٦ هـ ، والبعض يشير الى قول هرقل هذا بعد سماعه بفتح مدينة دمشق مباشرة .

لقد أقام كثير من الصحابة في مدينة حمص بعد فتحها ، وذلك لجودة هوائها وعروبة سكانها : وقد تولى المسؤولية في حمص عدد من كبار الشخصيات الإسلامية وكان عامل حمص عند وفاة أبي عبيدة بطاعون عمواس الصحابي سعيد بن عامر بن جيزيم ، ولما توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٢٣ هجرية كانت حمص مركزاً للإمارة التاسعة وأميرها عمير بن سعيد، أما الإمارات الأخرى فهي : « في الحجاز مكة والطائف وصنعاء ونجد والبحرين ، وفي العراق الكوفة والبصرة ، وفي افريقية مصر ــ الفسطاط ــ وفي الشام دمشق وحمص » .

ولما قسّم المسلمون الشام الى مناطق عسكرية ــ أي أجناد ــ جعلوا من مدينة حمص مقراً لأحد هذه الأجنادولذلك دلالة قاطعة على عظم شأنها ومكانتها ، وتضم مناطق شمالي سوريا حتى قنسرين ، وقد بلغ خراج جند حمص الى بيت المال (٨٠٠٠٠٠ دينار) ، وبقيت كذلك حتى كان عهد يزيد بن معاوية ، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جنداً مستقلاً ، . .

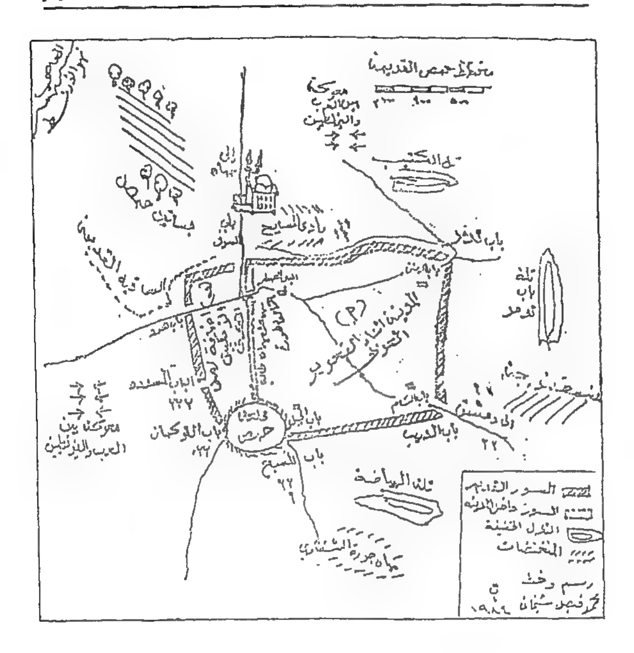
ولا بد لنا من الاشارة الى أن أهل حمص ، كانوا من أشد الناس على الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وذلك في معركة صفين ، كما كانوا أشدهم تحريضاً عليه (١٧)

---

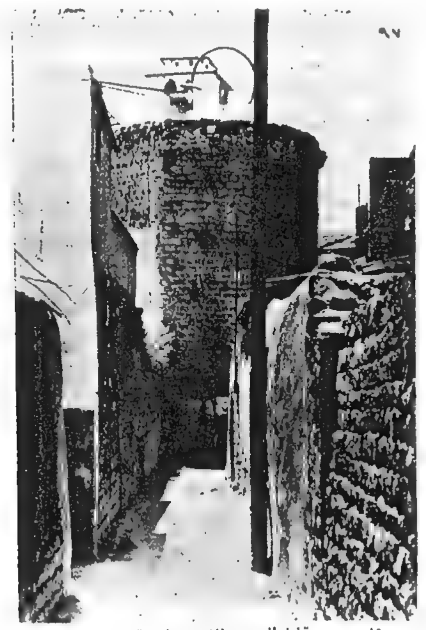
٩٦. راجع حول المزارات ياقوت الحموي ، في معجم البلدان م ٢ ، ص ٣٠٣ و يرجح أكثر المؤرخين وفاة خالد بن الوليد في حمص ، بينما يرجح البعض الآخر أن الضريح الموجود في حمص لخالد بن يزيد .

انظر شكل (٩).

أما بالنسبة لقبور الصحابة والمقامات الموجودة في حمص، فهي كثيرة، بعضها صحيح والبعض الآخر يشك في صحته، وذلك لأن كتب الفتوح تذكر وفاة الصحابة في أكثر من مكان، وعلى العموم فان مقام أبناء جعفر بن أبي طالب، وكعب الأحبار، وأبو عبيدة بن الجراح، ووحشي توبان، تزار حتى الآن وفيها مشهد لأ بي الدرداء، وأبي ذر الغفارى، ومشهد لعلي بن أبي طالب، و بها دار خالد بن الوليد وقبره وقبر زوجته وابنه عبد الرحمن... وغيرهم كثير... كما عرفت حمص منذ الفتح الاسلامي وحتى الآن باسم مدينة خالد بن الوليد(١٨). انظر شكل (١٠).

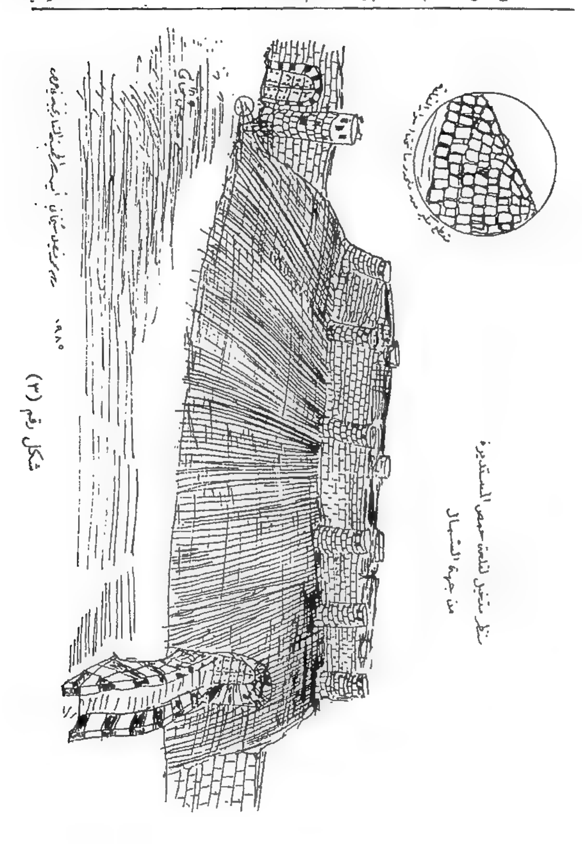

مخطط حمص القديمة
٥٠٠ ١٠٠٠ ٢٠٠٠
معركة بين العرب والبيزنطيين
تل الكثيب
باب تدمر
تلة باب تدمر
باب السوق
باب الرستن
قلعة حمص
باب الدريب
باب السباع
باب التركمان
باب الجبل
باب الشام
باب السدود
تلة الرياضة
بساتين حمص
الساقية
معركة بين العرب والبيزنطيين
الى دمشق
مياه جورة الشياح
السور القديم
السور داخل المدينة
التلال الخفيفة
المخفضات
رسم وخط
محمد فيصل شيخاني
١٩٨٤

شكل رقم (١)

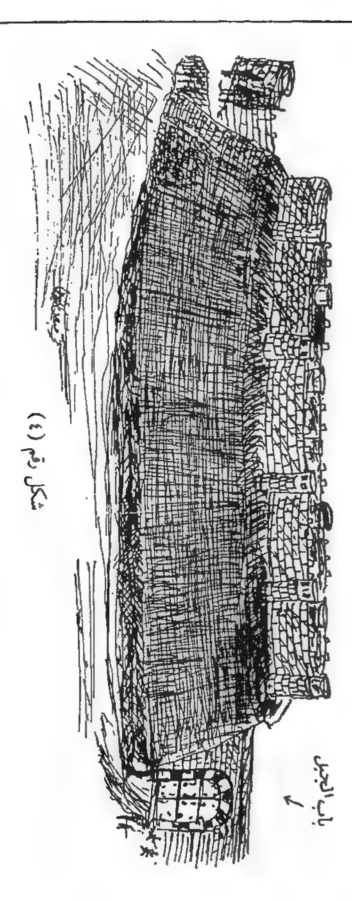


برج مستدير من بقايا السور الغربي لمدينة حمص القديمة اقــام عليه سكان حي الاربعين مئذنة جامعهم (جامع الاربعين) .

شكل رقم (٢)

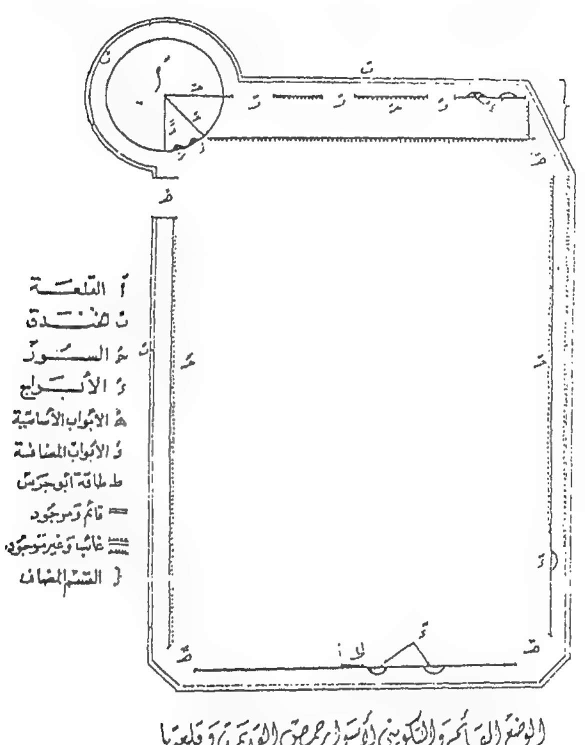


شكل رقم (٣)

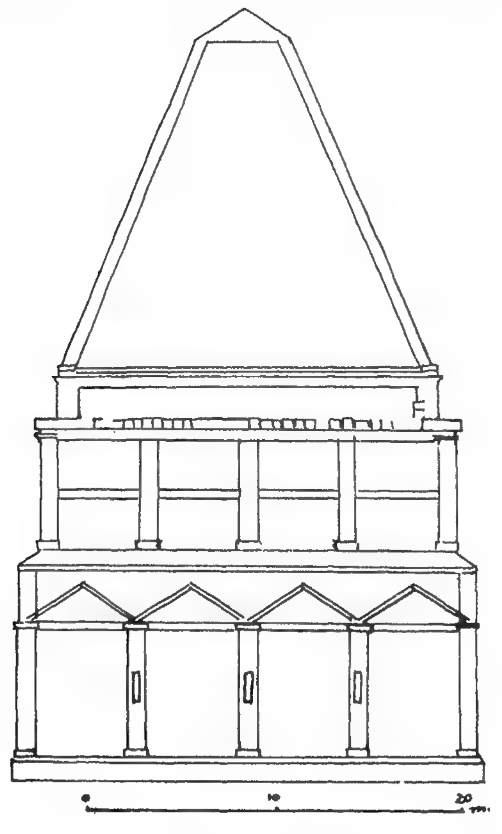


صورة متخيلة لقلعة حمص المشيدة
المنظر من جهة الجنوب

شكل رقم (٤)


أ القلعة
ب الخندق
ج السور
د الأبراج
هـ الأبواب الأساسية
و الأبواب المضافة
ط طاقة أبو جرس
قائم وموجود
غائب وغير موجود
القسم المضاف
الوضع القائم والتكويني لأسوار حمص القديمة وقلعتها

شكل رقم (٥)

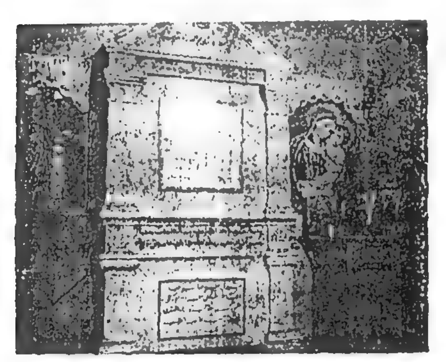


شكل رقم (٦) ((مقطع لصومعة حمص عن كاساس))

٦-٤٦

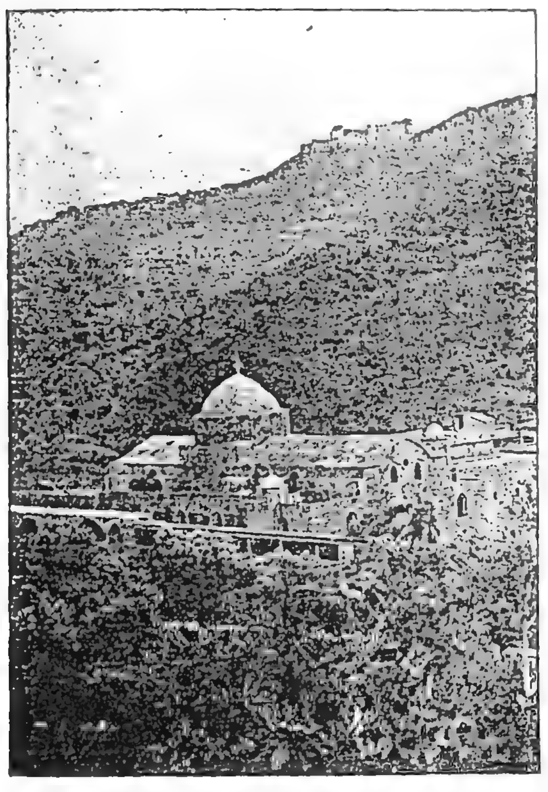


كنيسة ام الزنار كما تبدو بعد تجديدها . يرجع تاريخها الى عام ٥٩ م اذ كانت تبوا تحت الارض لتم العبادة فيها بالسر .



نصب مجاور لموضع الجرن الذي اكتشف فيه زنار العذراء الصوفي الابيض المطرز بالذهب والذي اتى به مار توما . (داخل كنيسة ام الزنار بحمص) .

شكل رقم (٧)



دير مارجرجس (الحميراء)

شكل رقم (٨)



شكل رقم (٩)



جامع خالد بن الوليد كنموذج لطراز الهندسة المعمارية البيزنطية - العثمانية ، بعد هدم حديقته التي كانت مقفرة حتى عام ١٩٦٠ . وعلى يسار الصورة اسد حجري يخرج الماء من فمه . اكتشف في المنطقة ذاتها مع العديد من التوابيت والاعمدة الحجرية وغيرها ..
شكل رقم (١٠)

العلاقات الاسلامية البيزنطية في الشام وتخومه في صدر الاسلام في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى

جوزيف نسيم
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

تتناول هذه الدراسة ثلاث نقاط رئيسية: الأولى الغزوات والسرايا والبعوث التي اتجهت الى مشارف الشام في العهد النبوي، والثانية الاحتكاك العسكري المباشر بين المسلمين والبيزنطيين في بلاد الشام حتى وقعة اليرموك وفتح بيت المقدس. أما النقطة الثالثة فهي تحديد مكان الصراع الإسلامي البيزنطي في الشام وتخومه في هذا الوقت المبكر في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى. وقد استعرضنا في العنصرين الأول والثاني المصادمات والاحتكاكات بين المسلمين من ناحية، والبيزنطيين ومحالفيهم من متنصرة العرب من ناحية أخرى، بالقدر الذي يخدم موضع البحث. وبالنسبة للعنصر الثالث حرصنا على إبراز الخطوط العريضة الرئيسية التي تتعلق بتوازن القوى بين العالمين الاسلامي والمسيحي في العصر الوسيط، دون الدخول في تفصيلات قد تقودنا إلى متاهات تبعدنا عن المطلوب.

مقدمــة

الدولة البيزنطية وشبه جزيرة العرب قبيل ظهور الإسلام:

اذا ألقينا نظرة على الدولة البيزنطية في القرن السادس الميلادي سوف نجد أن المحاولات اليائسة التي بذلها الامبراطور جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥م) في سبيل اعادة مجد الامبراطورية الرومانية القديمة، والتي جند لها كل الامكانيات العسكرية والمادية والبشرية في دولته، لم تؤت ثمارها. وكان هذا واضحاً للعيان بعد موته، وفي عز أيامه بصفة خاصة. اذ سرعان ما انهارت الامبراطورية التي كونها بعد موته بفترة وجيزة. وقد اقترنت السنوات الأخيرة من حكمه

وحتى نهاية أسرته بالفقر والضعف والمجاعة. وناءت الامبراطورية تحت عبء هذه التركة المثقلة بالمشاكل في الداخل والخارج[1].

وهكذا، بانتهاء أسرة جستنيان عام ٦١٠م كانت الكوارث تحيط بالدولة من كل جانب. ففي الشرق كان الخطر الفارسي لا يزال قائماً. وفي الشمال كان الآفار يضغطون على حدود نهر الدانوب، تدفعهم من ورائهم قبائل السلاف الأشد بربرية منهم. وفي الغرب نزل اللمبارديون في إيطاليا المفككة، بينما سقطت اسبانيا في أيدي القوط الغربيين.

وعندما اعتلى هرقل العرش عام ٦١٠م ليصبح أول امبراطور للأسرة التي تحمل اسمه، كانت الدولة قد أفلست، بينما تخلخلت السلطة المركزية، وغدت هذه التركة الخربة التي خلفها جستنيان وأفراد اسرته بادية للعيان، وبدا كما لو أن أيام بيزنطة قد أصبحت معدودة حسبما يقول المؤرخان ن. هـ بينز N.H. Baynes وهـ. ب. موس H.B. Moss[2]؛ ووقف الأباطرة مكتوفي الأيدي أمام هذا الانهيار. ويزيد الفريد بتلر A. Butler[3] الأمر وضوحاً، اذ يقول أنه الى جانب الاضطراب السياسي والخلل المالي، كانت الامبراطورية تعاني من فساد خلقي، فضلاً عن انتشار الأوبئة والأمراض فيها، وحدوث الزلازل والمجاعات. يضاف إلى ذلك تبرم الشعب في مدينة القسطنطينية وسخطه على أباطرته.

أما بلاد الشام، وكانت اذ ذاك تابعة لبيزنطة، فقد عانت خلال هذه الفترة من الزمن. اذ قامت فيها الفتن والثورات الدينية، وازداد العداء والصراع بين الملكانيين أصحاب الطبيعتين واليعاقبة أصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح. وذاق يعاقبة الشام الأمرين على يد عمال بيزنطة عليها، وكان شغلهم الشاغل هو فرض المزيد من الضرائب

١. Runciman, S., Byzantine Civilisation, London, 1984, p. 38; Baynes, N.H., The Byzantine Empire, London, 1939, pp. 44-45.

٢. Baynes, N.H. and Moss, H.St. B. (eds.), Byzantium: An Introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1953, pp. 9-10.

٣. بتلر (الفردج.): فتح العرب لمصر، عربه محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٣٥١ هـ/١٩٣٣م، ص ١ — ٢.

على الأهالي، وجمع المال بشتى الطرق لإرساله الى خزائن الامبراطورية في القسطنطينية. وباختصار، كانت بلاد الشام نهباً للفوضى والفتن التي لا نهاية لها ولا آخر. ولم تكن حالة بيزنطة تسمح لها بتدارك هذا الوضع المتردي.

كانت التركة التي تسلمها هرقل مثقلة بالمشاكل التي تنتظر منه حلولاً سريعة حاسمة. لقد تسلم امبراطورية في حالة شديدة من الفوضى والاضطراب، وكان اصلاح الأمور يبدو مستحيلاً. وفي هذا يقول جورج استروجورسكي Ostrogorsky G.(٤)«كانت الامبراطورية حطاماً عندما تسلم هرقل مقاليد الحكم فيها.... كانت منهكة اقتصادياً ومالياً. ولم يعد الجهاز الاداري العتيق يؤدي وظيفته. كذلك لم يعد النظام الحربي القائم على الجند المرتزقة يقوم بمهمته، نظراً لعدم وجود المال اللازم. فضلاً عن أن المصادر القديمة للقوى البشرية لم يعد من السهل الحصول عليها أو الإفادة منها. لقد اكتسح الأعداء المقاطعات الحيوية الرئيسية من الامبراطورية. إذ أقام السلاف والآفار في البلقان، بينما حصن الفرس أنفسهم في قلب آسيا الصغرى، ولم يكن ثمة ما ينقذ الامبراطورية من هذا التردي سوى بعث الحياة فيها من جديد».

وكان هرقل يأمل أن يقضي السنوات الأولى من حكمه في القسطنطينية محاولاً اعادة تنظيم الدولة من جديد. ولكن المشاكل التي واجهته منذ البداية لم تتح له الفرصة كي يتنفس الصعداء. وكانت أولاها المشكلة الفارسية التي ترجع جذورها الى التاريخ القديم منذ أيام الاسكندر المقدوني، وتجددت في العهدين الروماني المتأخر والبيزنطي المبكر. فخلال خمس سنوات (٦١١ــ ٦١٥م) كان الفرس قد استولوا على بلاد الشام، وتوغلوا في أراضي الدولة البيزنطية حتى بلغوا مدينة خلقيدونية الواقعة على شاطىء بحر مرمرة سنة ٦١٥م. وقد رحب أهالي الشام بالفرس لأنهم وجدوا فيهم مخلصين لهم من نير الحكم البيزنطي الذي كان عبئاً ثقيلاً على نفوسهم. ولكن هرقل في حروبه المضادة ضد الفرس، تمكن من استعادة بلاد الشام الى حظيرة الامبراطورية سنة ٦٢٨م، ليمارس عماله الضغط عليها من جديد بعد فترة من الهدوء النسبي الذي عاشت في ظله خلال الحكم الفارسي لها، لتعود الى سابق عهدها من الفوضى والاضطراب. ومما

٤. Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, pp. 83-84.

زاد الطين بلة، أنه في محاولة منه لحل مشكلة انقسام المسيحية وتعدد مذاهبها التي أخفق اسلافه في حلها، سعى الى كسب صداقة المونوفيسيين بالتوفيق اللاهوتي في المبادىء الدينية، فخرج بمذهب جديد عرف بمذهب التوفيق أو التوحيد. وهدفه من ذلك هو التوحيد والتوفيق بين مختلف المذاهب المسيحية. ولكن هذه المحاولة لم تؤد الى أي وحدة دينية، بل أدت ــ على العكس من ذلك ــ الى نزاع ديني شديد. فقد رفض يعاقبة الشام هذا المذهب. لقد أبقتهم متاعبهم السياسية القائمة، وحقدهم الدفين على تعاليم مجمع خلقيدونية المسكوني غير قانعين. وكان قد فات الأوان، وأفلت الزمام من قبضة بيزنطة(٥). اذ كانت هناك قوة جديدة في طريقها الى الظهور، وموطنها الأصلي شبه الجزيرة العربية، لتؤدي دورها على مسرح الأحداث، ولتواجه الدولة البيزنطية في مرحلة ضعفها وانحلالها، ونعني بها الاسلام.

كانت شبه جزيرة العرب قبيل ظهور الإسلام تمثل صورة غير متناسقة. وكان غالبية سكانها من العرب الرحل، قد انتظموا في قبائل متصارعة فيما بينها، وقد تمسكت كل قبيلة بعاداتها وآلهتها واستقلالها. وكانت الحياة بسيطة يسودها الفقر بحكم طبيعة الصحراء الجافة القاسية، اذا ما قورنت بما تتمتع به جارتها الدولة البيزنطية التي كانت تغمرها مختلف ألوان الترف، على الرغم مما انتابها من ضعف وقتذاك. ولم يكن ثمة سبيل للتغلب على روح الفرقة والشقاق التي سادت بين تلك القبائل. ومع ذلك لم تكن حياة أولئك القوم كقوم رحل هي الطابع المميز الوحيد لمعيشتهم في شبه الجزيرة التي كانت أطرافها واقعة تحت المؤثرات السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية لجارتها بيزنطة.

وكانت مكة هي الملتقى الرئيسي لسكان الصحراء بالعالم الخارجي، كما كانت مركزاً تجارياً هاماً يمر به التجار تاركين منتجاتهم وأفكارهم في نفس الوقت. وترتب على ذلك نمو التجارة فيها، وتأثرها بالعادات والتقاليد الأجنبية الوافدة من وراء الحدود. فتحول أسلوب الحياة لدى عرب مكة بشكل تدريجي عن أسلوب العرب الرحل. وهكذا أصبحت أحد المراكز الدينية الكبرى، الى جانب كونها مركزاً تجارياً هاماً.

٥. Runciman, Op. cit., p. 40.

ففيها توجد الكعبة والآلهة الأخرى، واليها تحج كثير من القبائل العربية الأخرى، كما تشدهم اليها بضائع التجار الذين يمرون بها أو يقيمون فيها. وهكذا، أصبحت مكة مركزاً للحياة في شبه الجزيرة العربية، الى جانب اتجاهها السياسي لفرض زعامتها على اولئك العرب الرحل. وساعد تفاعل هذه القوى فيما بينها على انطلاقة العرب التي مكنتهم من التغلب على قسوة الصحراء، والقيام بدور بارز على مسرح الأحداث في حوض البحر المتوسط (٦).

الغزوات والسرايا الموجهة الى تخوم الشام في العهد النبوي

مقدمات سبقت الاحتكاك العسكري المباشر بين المسلمين والبيزنطيين في الشام

هكذا كانت الدولة البيزنطية تعاني من مشاكلها العديدة في الداخل والخارج. لقد خرجت من الحرب الفارسية وقد أنهكها طول القتال، وحل فيها الخراب والدمار، وجف معينها من الرجال والمال، وأصبحت في أشد حالات التعب والأعياء. وكانت في أمس الحاجة الى فترة ممتدة من السلام والهدوء، حتى تسترد أنفاسها المتقطعة، وتستعيد قواها الخائرة. وفي ذلك الحين وقعت في شبه الجزيرة العربية أحداث جسام كان لها أهميتها العالمية وآثارها البعيدة المدى في تطور التاريخ البشري. اذ ظهر الإسلام يدعو الناس جميعاً الى وحدانية الله، والعرب الى الاتحاد والتآلف ونبذ الفرقة والخصام وترك عبادة الأصنام. ولم تمض بضع سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت، ودانت لها كافة القبائل العربية التي أصبحت ترى فيها رمز وحدتها، وشعار مجدها، وأمل مستقبلها.

وفي سبيل نشر الرسالة وتأمينها من جيران يتاخمونها الحدود و يناصبونها العداء،

---

٦. Sullivan, R.E., Heirs of the Roman Empire, New York, 1960, pp.22-23.

للمزيد من المعلومات عن العرب قبل الاسلام، انظر أحمد عبد الحميد الشامي (دكتور): في تاريخ العرب والإسلام: حضارة العرب قبل الإسلام ـ حياة محمد وظهور الإسلام، ط. ثانية، القاهرة ١٩٨٢، وخاصة القسم الأول بفصوله الخمسة، ص٧ ـ ١٤٧؛ السيد عبد العزيز سالم (دكتور): تاريخ الدولة العربية، الاسكندرية ١٩٨٤، ص٣ ـ ٣٢.

وقعت أول اشتباكات حربية بين العرب المسلمين وجيرانهم من قبائل العرب المتنصرة أو المستعربة في مشارف الشام والمحالفة لبيزنطة، مما أدى فيما بعد الى المواجهة العسكرية المباشرة بين المسلمين والبيزنطيين في بلاد الشام.

وجدير بالتنويه ــ قبل استعراض هذا الصراع ــ ان المؤرخين البيزنطيين المعاصرين لتلك الفترة من الزمن، لم يحفظوا لنا تفاصيل الاشتباكات والمعارك التي وقعت بين المسلمين والبيزنطيين في صدر الإسلام. ولعلهم ــ على حد قول أحد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو شارل أومان Ch. Oman (٧) ــ كانوا يكرهون فكرة سرد هذه الأحداث بسبب الهزائم المريرة التي لحقت بهم. وأقرب المصادر البيزنطية للفترة الزمنية موضوع الدراسة، كتاب كل من ثيوفانيس Theophanes ومعاصرة البطريارك نقفور Nicephorus. لقد عاشا في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري)، وتوقف أولهما في سرد أحداثه عند سنة ٨١٣م (١٩٨هـ)، بينما توقف الثاني عند سنة ٧٦٩م (١٥٢هـ). وتناولا الظروف التي واجهت بيزنطة اثر الهجوم العربي على ممتلكاتها الاقليمية. وهناك تشابه كبير بين ما سجله كل منهما بهذا الخصوص، وان كانت رواية ثيوفانيس أكثر وضوحاً واستيفاء. و يعتبر الكتابان من المصادر الأصلية في التاريخ

---

٧. أومان (ش.) : الامبراطورية البيزنطية، تعريف د. مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٢٧. جدير بالذكر أن جورج موناخوس المعروف بجورج هرتولوس لم يذكر شيئاً في مؤلفه عن تلك الفترة سوى اشارة ورد فيها اسم الرسول (ص) باعتباره زعيماً للعرب المسلمين. و بنص قوله : "... Mahometus, Saracenorum princeps".

انظر:

Georgius Monachus (Hamartolus), ed. Migne, Patrologia Graeca, t. CX, Paris, 1863, p. 835.

أما المعلومات الواردة في كتاب ثيوفانيس عن الفترة موضوع الدراسة فهي مركزة للغاية، ومبعثرة، ومشوشه، الى حد بعيد، مع وقوع أخطاء عديدة في تواريخ الوقائع والأحداث. ولعل ذلك يرجع الى بعده الزمني عنها، فضلاً عن عدم وجود مؤرخ بيزنطي معاصر قام بتسجيلها.

أنظر:

Theophanis, S.P.N., Chronographia, ed. Migne, Patrologia Graeca, t. CVIII, Paris, 1863, pp. 681, 691, 695, 699.

وفيما يتعلق بمعاصرة نقفور جريجوراس فقد مر على أحداث السنوات الأولى من فتوحات الشام مر الكرام. انظر:

Nicephorus, S., Breviarium Historicum de Rebus Gestis post Imperium Mauricii, ed. Migne, Patrologia Graeca, t.C., Paris (N.D.), pp. 911-912.

البيزنطي، وفي تاريخ العلاقات البيزنطية الإسلامية، وبصفة خاصة فيما يتعلق بأحداث القرن الثامن الميلادي (القرن الثاني الهجري). أما ما أورداه عن أحداث القرن السابع الميلادي (القرن الأول الهجري)، فهو شديد التركيز والايجاز وليس فيه جديد.

ومن حسن الحظ أنه يوجد اثنان من المؤرخين الأرمن: أولهما يدعى سبيوس Sebeos صاحب «تاريخ هرقل»، وقد عاش في القرن السابع الميلادي (القرن الأول الهجري)، وثانيهما يسمى جيفوند Ghevond صاحب كتاب «تاريخ حروب وفتوحات العرب في أرمينية» وقد عاش في القرن الثامن الميلادي (القرن الثاني الهجري). ويتضمن الكتابان اشارات قيمة تتعلق بأحداث الحملات العربية الأولى على الشام. وتعتبر رواية سبيوس رواية مؤرخ عاصر الأحداث التي كتب عنها، أما فيما يتعلق بتلك التي لم يعاصرها، أو التي لم يكن شاهد عيان لها، فقد اعتمد في روايتها على من عايشوها. ولذلك يعتبر كتابه من المصادر الأساسية فيما نحن بصدده. اذ زودنا بمعلومات هامة ودقيقة عن بعض أحداث القرن السابع الميلادي، والتي كان مسرحها بلاد الشام. ونقل عنه من جاء بعده من المؤرخين الأرمن(٨).

وأما جيفوند فهو عالم لاهوتي يحتل كتابه مكانة خاصة بين مصادر التاريخ الأرميني في العصر الوسيط. اذ انفرد بإلقاء الضوء على تاريخ الشرق الأدنى خلال القرنين السابع والثامن للميلاد (القرنان الأول والثاني الهجريان). وكتابه يبدأ بذكر وفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام)، ولكنه يمر مروراً سريعاً على الأحداث التي تعرضت لها بلاد الشام زمن الخلفاء الراشدين. وقد توقف في مؤلفه عند أحداث سنة ٧٨٨م (١٧٢ هـ). وهو وأن لم يذكر المصادر التي استقى منها معلوماته، خاصة في الفترة التي لم يكن معاصراً لها، الا أن المدقق في كتابه يجد أنه اعتمد كثيراً على

---

٨. معلوماتنا قليلة للغاية عن سبيوس وحياته الخاصة، وكل ما نعرفه عنه أنه كان من رجال الدين. انظر:

و يرجح أنه كتب مؤلفه خلال الربع الأخير من القرن السابع الميلادي. انظر:

و يلاحظ أن سبيوس ــ شأنه شأن غيره ممن كتب في تلك الفترة السحيقة من الزمن ــ لم يستخدم وسائل النقد والتحليل في كتاباته. والمعروف أن معظم مؤرخي العصر الوسيط قد اعتادوا على هذا النمط من الكتابة.

Hubschmann, H., Armenishce Grammatik, I, Leipzig, 1897, P.I.

Sébêos, Histoire d'Héraclius. Trad. F. Macler, Paris, 1904, p. VIII.

سبيوس فيما يتعلق بأحداث فتح العرب للشام(٩).

هذا عن المصادر البيزنطية والأرمينية، أما العرب فلم يكونوا من ناحيتهم قد بدأوا الكتابة بعد. ولذلك أحيطت سنوات الفتح بسياج من الروايات المتعددة المتناقضة. ومن مؤرخي وجغرافيي القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) يجب أن نذكر على التوالي الواقدي، وابن هشام، وابن سعد، وابن خياط، والبلاذري، واليعقوبي، وتعتبر مؤلفاتهم هي أقدم ما وصلنا عن الفترة الزمنية موضوع الدراسة. ومن مؤرخي القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي)، الطبري، والمسعودي، وابن عبد البر، ومن أتى بعدهم في القرون التالية. لقد تضمنت هذه المنابع العديد من الروايات المختلفة المتعارضة المتعلقة بالحدث الواحد. كما أن المصدر الواحد تضمن، أحياناً، أكثر من رواية حول الواقعة الواحدة. كذلك تضاربت الروايات حول تأريخ أهم الوقائع والأحداث، كما اختلفت فيما يتعلق ببعض فتوح مدن الشام، الى جانب حدوث تقديم وتأخير في سرد بعض الأحداث، الأمر الذي يجعل المهمة صعبة أمام الباحثين والدارسين. والواقع أن أي مؤرخ، مهما أوتي من القدرة، لا يستطيع أن يسرد تاريخ الغزوات والسرايا والسنوات الأولى للفتح سرداً منتظماً مسلسلاً واضحاً دقيقاً ليس فيه أي اضطراب، وكل سرد لهذا التاريخ على أساس الانتظام التام يكون غير طبيعي، لأن العصر ذاته كان مضطرباً، فضلاً عن ندرة أصوله المعاصرة. كل هذا يتطلب تتبع الأحداث ومراعاة تسلسلها الزمني بشيء من الدقة والحذر قدر الاستطاعة، لتصبح نسيجاً واحداً متصلاً متجانساً، بدءاً بالغزوات والسرايا والبعوث في العهد النبوي، وانتهاء بفتوح الشام زمن الخلفاء الراشدين.

---

٩. غير معروف تاريخ مولده أو وفاته. و يرجح أنه عاش في القرن الثامن الميلادي (القرن الثاني الهجري). ونظراً لتفقهه في علم اللاهوت وثقافته الدينية، فقد طغى الأسلوب الديني على مؤلفه. اذ كان ينسب الأحداث التي سجلها في كتابه الى تدخل المشيئة الالهية. وقد أدى هذا الى ابتعاده عن المنهج التحليلي السليم.
انظر:

'Thopdschian, H., Die inneren Zustände von Arménien unter Ašot I, Berlin, 1904, p.4.

غزوة دومة الجندل (٢٥ ربيع الأول ٥ هـ/٢٤ أغسطس ٦٢٦م):

لم يكن الامبراطور البيزنطي هرقل قد فرغ بعد من حروبه المضادة ضد الفرس حتى بدأت أولى غزوات الرسول (ص). ذكر المسعودي(١٠) أن دومة الجندل(١١) هي أولى غزواته ضد البيزنطيين، وصاحبها وقتذاك يدعى أكيدر بن عبد الملك الكندي، وكان يعتنق المسيحية، و يدين بالطاعة للدولة البيزنطية(١٢). وتتفق الروايات على أن الغزوة جرت في ربيع الأول سنة ٥ هـ (أغسطس ٦٢٦م). وكان كل من ابن سعد(١٣) والنويري(١٤) أكثر تحديداً، عندما ذكرا أن رسول الله (ص) خرج من المدينة قاصداً دومة الجندل في ٢٥ ربيع الأول ٥ هـ (الأحد ٢٤ أغسطس ٦٢٦م)، بعد أن استخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري الكناني(١٥).

---

١٠. المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م): أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: كتاب التنبيه والاشراف، نشر دي غو يه، ليدن (مطبعة بريل) ١٨٩٣، ص ٢٤٨.

١١. دومة الجندل بضم الدال، وهي غير دومة بالفتح. هي طرف من أفواه الشام، بينها و بين دمشق خمس ليال، و بينها و بين المدينة خمس عشرة ليلة. انظر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م): زاد المعاد في هدى خير العباد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين وامام المرسلين، ٤ جـ، نسخة مصورة عن طبعة المطبعة المصرية بالقاهرة ١٣٧٩هـ، مكة (بدون تاريخ)، ص ١١٢؛ ابن سعد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤ـ ٨٤٥م): كتاب الطبقات الكبرى، ٨ جـ، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج ٢ ق ١، ص ٤٤؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٤٨. وسميت بدوم بن اسماعيل بن ابراهيم لأنه كان نزلها. كما سميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل، وهي حصن وقرى بين الشام والمدينة. انظر ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، ٥ جـ، بيروت ١٩٧٧، جـ٢، ص ٤٨٧؛ النويري (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ١٧، ص ١٦٢.

١٢. المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٤٨.

١٣. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢ ق ١، ص ٤٤.

١٤. النويري: نهاية الأرب، ج ١٧، ص ١٦٣.

١٥. ابن هشام (ت ٢١٨ هـ/٨٣٤م): سيرة النبي، ٤ مجلدات، القاهرة، ١٣٨٣هـ، مج ٣، ص ١٦٨؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ق ١، ص ٤٤؛ الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، ١٠ جـ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط ٤، القاهرة (بدون تاريخ)، ج ٢، ص ٥٦٤؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٧، ص ١٦٣؛ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج ٢، ص ١١٢؛ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م): البداية والنهاية، ١٤ جـ، ط ٣، بيروت ١٩٨٠، ج ٤، ص ٩٢. أما البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): أنساب الأشراف، ج ١، تحقيق د. محمد حميد الله، القاهرة ١٩٥٩، ص ٣٤١، فيقول أنه سباع بن عرفطة الكناني. و يقول المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٤٩، أن الرسول (ص) استخلف على المدينة ابن ام مكتوم.

تعددت الروايات حول أسباب الغزوة. يقول ابن سعد[١٦] أن دومة الجندل كانت عامرة بالناس الذين كانوا يظلمون من يمر بهم من الضافطة[١٧]، و يريدون الاقتراب من المدينة. و يزيد البلاذري[١٨] الأمر وضوحاً، فيقول «ان جمعاً من قضاعة ومن غسان تجمعوا وهموا بغزو الحجاز». أما المسعودي[١٩] فيضع النقاط فوق الحروف، مبيناً أن أكيدر صاحب الدومة كان يعترض سفر الناس والتجار الى المدينة. لذا «أراد رسول الله (ص) أن يدنوا الى أداني الشام، وقيل له أن ذلك مما يفزع قيصر[٢٠]»، أي هرقل.

على أية حال، خرج الرسول (ص) من المدينة في ألف من المسلمين قاصداً الدومة. وكان يواصل السير ليلاً و يكمن نهاراً، وربما يكون ذلك حتى لا ينتبه اليه العدو، أو لشدة الحرارة في مثل هذا الوقت من العام. واصطحب معه دليلاً من بني عذرة يقال له مذكور يدله على الطريق[٢١]. فلما اقترب من الدومة تفرق أهلها. فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعاتهم، فأصابوا من أصابوا، وهرب من هرب منهم في كل اتجاه. وكان صاحبها أكيدر من بين من لاذوا بالفرار. وعندما نزل الرسول (ص) لم يجد أحداً، فأقام بها عدة أيام. وتروي بعض المصادر أنه أخذ منهم رجل واحد فقط، فبسأله الرسول (ص) عنهم، فقال انهم هربوا حيث سمعوا أنه أخذت منهم نعمهم. وقد عرض عليه الرسول الاسلام فأسلم. ثم قفل النبي بعد ذلك عائداً الى المدينة[٢٢]،

---

١٦. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢ ق ١، ص ٤٤. انظر أيضاً الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٥٦٤؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٧، ص ١٦٣؛ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج ٢، ص ١١٢.

١٧. أي: الابل الحمولة، ومثلها الضافطة، كما في: الفيروزابادي، والقاموس المحيط، مادة (ض ف ط).

١٨. البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص ٣٤١.

١٩. المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٤٨.

٢٠. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٩٢.

٢١. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢ ق ١، ص ٤٤. راجع أيضاً البلاذري: أنساب الاشراف، ج ١، ص ٣٤١؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٧، ص ١٦٣؛ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج ٢، ص ١١٢. و يضيف ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٩٢، ان الدليل يقال له مذكور هاد خريت. والخريت هو الدليل الحاذق، كما في الفيروزابادي، والقاموس المحيط مادة (خ ر ت).

٢٢. أنظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢ ق ١، ص ٤٤؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٤٨ـ ٢٤٩؛

وكان ذلك في ١٩ ربيع الآخر سنة ٥ هـ (الأربعاء ١٨ سبتمبر ٦٢٦م)(٢٣). ويمكن القول أن هذه الغزوة المبكرة التي قادها الرسول (ص) بنفسه قد حققت أغراضها المرجوة منها.

سرية زيد بن حارثة الى حسمى (جمادى الآخرة ٦ هـ/اكتوبر_ نوفمبر ٦٢٧م):

تتابعت الغزوات والسرايا ضد محالفي بيزنطة عند تخوم الشام. ففي جمادى الآخرة سنة ٦ هـ (اكتوبر_ ٦٢٧م)، أي بعد حوالي أربعة عشر شهراً من غزوة دومة الجندل، بعث الرسول (ص) سرية بقيادة زيد بن حارثة الى قبيلتي لخم وجذام بحسمى التي تقع وراء وادي القرى مما يلي فلسطين من أرض الشام(٢٤). وسببها أن أهلها تعرضوا لدحية بن خليفة الكلبي مبعوث رسول الله الى الامبراطور البيزنطي. وقد أعمل فيهم زيد القتل والأسر، ثم قفل عائداً الى المدينة(٢٥). وواضح أن هذه السرية كانت عملية تأديبية ناجحة.

= النويري: نهاية الأرب، ج١٧، ص١٦٣؛ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٢، ص١١٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج٤، ص٩٢. أما ابن هشام فيقول في سيرته (مج٣، ص١٦٨) أن الرسول (ص) رجع الى المدينة قبل أن يصل الى دومة الجندل، الأمر الذي لا يتفق مع ما ورد في المصادر الأخرى. انظر أيضاً ابن عبد البر (ت٤٦٣ هـ/١٠٧٠_ ١٠٧١م): الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق د. شوقي ضيف، ط. ثانية (القاهرة ١٩٨٣)، ص١٦٨.

٢٣. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢ ق١، ص٤٥؛ النويري: نهاية الأرب، ج١٧، ص١٦٣.

٢٤. الواقدي (ت٢٠٧هـ/٨٢٢_ ٨٢٣): مغازي رسول الله، ط. أولى، القاهرة ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨م، ص٤٦؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢ ق١، ص٦٣_ ٦٤؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص٢٥٣. راجع أيضاً: الطبري: تاريخه، ج٢، ص٦٤١_ ٦٤٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج١٧، ص٢٠٧_ ٢٠٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص١٧٨_ ١٧٩. أما حسمى فهي أرض ببادية الشام، بينها وبين وادي القرى ليلتان. وهي أرض غليظة، وماؤها لذلك لا خير فيه، تنزلها قبيلة جذام. ومن جبال حسمى جبل يعرف بإرم وهو شديد الإرتفاع. أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٢٥٨_ ٢٥٩.

٢٥. البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٣٧٧. وجاء في آخر نص البلاذري «ويقال أن هذه السرية كانت في سنة سبع». وهذا يرجع، بلا شك، الى الاختلاف الواقع أساساً في تأريخ مكاتبة الرسول (ص) الى الملوك. فالبعض يؤرخه بأواخر سنة ٦هـ، والبعض سنة ٧هـ.

سرية عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل (شعبان ٦ هـ/ديسمبر ٦٢٧ــ يناير ٦٢٨م):

وفي شعبان ٦ هـ (ديسمبر ٦٢٧ــ يناير ٦٢٨م):

وفي شعبان ٦ هـ (ديسمبر ٦٢٧ــ يناير ٦٢٨م)، ارسل النبي (ص) سرية أخرى بقيادة عبد الرحمن بن عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب الى دومة الجندل، وكان بها قوم من كلب فأسلموا(٢٦). هذا، ولم تزودنا المصادر بأية تفاصيل عن هذه السرية، أو النتائج التي حققتها. ولكن يتضح من نص أورده المسعودي(٢٧) عن الهزيمة التي لحقت بالبيزنطيين على يد الفرس، ثم الحرب المضادة التي شنها هرقل ضدهم، أن ظروفهم آنذاك لم تكن تسمح لهم بمد يد المساعدة الى قبيلة جذام أو الى أهل دومة الجندل، مما يجعلنا نرجح أن السرية نجحت في تحقيق أحد أهدافها، وهو دخول جماعة من كلب في الإسلام.

رسل النبي الى هرقل وغيره من الملوك (ربيع الأول ٧ هـ/يوليو ــ أغسطس ٦٢٨م):

وبينما تخوم الشام تتعرض لسيل من الغزوات والسرايا، أوفد النبي (ص) الرسل الى الامبراطور هرقل وغيره من الملوك. وقد اختلفت الروايات حول تاريخ ارسال هذه السفارات. فقد ذكر المسعودي(٢٨) تاريخين أحدهما سنة ٦ هـ (فيما بين مايو ٦٢٧

---

٢٦. الواقدي: مغازي رسول الله، ص٦؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص٢٥٣. وجاء في البلاذري: أنساب الاشراف، ج١، ص٣٧٨، ان الرسول (ص) عمم عبد الرحمن بن عوف بيده حين بعثه على السرية، وقال له: «ان أطاعوك، فتزوج ابنة ملكهم». فلما أسلم القوم تزوج تماضر بنت الاصبغ. راجع أيضاً: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢ق ١، ص٦٤ــ ٦٥؛ الطبري: تاريخه، ج٢، ص٦٤٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص١٧٩. ويضيف ابن هشام: سيرة النبي، مج ٤، ص٢٣٩ــ ٢٤١، ان الرسول (ص) أمر بلالاً أن يسلمه اللواء، ثم قال: «خذه يا ابن عوف فاغزوا جيماً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله...» ويلاحظ ان ابن هشام لم يذكر هذه السرية من قبل، وأوردها هنا استرسالاً عند ذكر السرايا والبعوث مجتمعة، كما أنه لم يحدد لها تاريخاً.

٢٧. المسعودي: التنبيه والاشراف، ص٥٦. وكانت سورة الروم قد نزلت في هذا من قبل (آيات ١ــ ٣)، وتحقق ما نزلت فيه. انظر أيضاً: النويري: نهاية الأرب، ج١٧، ص٢٠٩.

٢٨. المسعودي: التنبيه والاشراف، ص٢٥٩ و٢٦١.

وابريل ٦٢٨م) قبل فتح الرسول (ص) خيبر. والثاني شهر ربيع الأول سنة ٧ هـ (يوليو ــ أغسطس ٦٢٨م). بينما حدد النويري(٢٩) تاريخ مكاتبة رسول الله (ص) للملوك في المحرم سنة ٧ هـ (مايو يونيو ٦٢٨م). أما البلاذري(٣٠)، فأوضح أن التاريخ هو سنة ٧ هـ، وذكر أنه أثبت من سنة ٦ هـ. وأما ابن هشام(٣١) فلم يحدد تاريخاً، ولكن حديثه عن مبعوثي الرسول (ص) الى الملوك يجيء استرسالاً لما سبقه. ويدل النص على أن ذلك تم بعد الحديبية، أي سنة ٦ هـ.

ومهما يكن الاختلاف حول التاريخ، فقد حددت المصادر اسماء الرسل الذين أوفدهم النبي (ص) الى الملوك. اذ بعث دحية بن خليفة الكبي الى هرقل، وشجاع بن وهب الأسدي الى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني(٣٢) عامل هرقل على دمشق وأعمالها، ورسولاً ثالثاً الى جبلة بن الأيهم ملك غسان، كما بعث خالد بن الوليد الى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل. وزود الرسل بكتب يدعو فيها اولئك الملوك الى الإسلام(٣٣).

وجدير بالاشارة هنا الى تلك المقابلة التي تمت بين أبي سفيان والامبراطور هرقل، والحديث الذي دار بينهما بشأن النبي (ص). وكان أبو سفيان في بيزنطة في تجارة له، وقد بلغه أن بني أمية من كنانة يقاتلون حلفاء رسول الله من خزاعة، وأنهم أوجعوهم قتلاً. وعندما التقى بامبراطور الروم، أخذ هرقل يستفسر منه عن النبي (ص)

---

٢٩. النويري: نهاية الأرب، ج١٨، ص١٥٦ ــ ١٥٧. ومصادره في هذا الدمياطي، وابن اسحق، وابن هشام.

٣٠. البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٥٣١.

٣١. ابن هشام: سيرة النبي، ج٤، ص٢١٦.

٣٢. يطلق عليه ابن هشام: سيرة النبي، ج٤، ص٢١٧ لقب «ملك تخوم الشام».

٣٣. ابن هشام: سيرة النبي، ج٤، ص٢١٦ ــ ٢١٧؛ الطبري: تاريخه، ج٢، ص٦٤٤ وما يليها؛ ابن عبد البر: الدرر، ص٢٤١ ــ ٢٤٢؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص٢٦٠ ــ ٢٦١؛ النويري: نهاية الأرب، ج١٨، ص١٥٨ وما يليها؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٢٦٢ وما يليها. وللمزيد من التفاصيل عن مبعوثي الرسول (ص) الى هرقل وغيره من الملوك، وكتبه اليهم، وموقف هرقل من دعوة النبي اليه للدخول في الإسلام، انظر السيد عبد العزيز سالم (دكتور): «أول اشتباك حربي بين العرب والروم على مشارف الشام قبيل الشروع في حركة الفتوحات الاسلامية»، بحث تحت الطبع في المجلد الخاص بالندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بالرياض، السعودية، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م.

وعما يأمرهم به و ينهاهم عنه. ودار بينهما حوار طويل أنهاه هرقل بقوله بأن الرسول (ص) رجل صالح، وطلب من أبي سفيان أن يتبعه هو وقومه والاّ يقاتلوه، وألا ينهجوا نهج اليهود الذين قاتلو أنبياءهم. وانتهى الأمر بعودة أبي سفيان الى مكة (٣٤). هذا، ولم تحدد الروايات تاريخ هذه المقابلة. ولكن يبدو من نص الطبري (٣٥) أنها تمت بعد تسلم هرقل كتاب النبي، و يعزز ذلك تسلسل الأحداث. فبعد أن تسلم هرقل رسالة النبي وقابل مبعوثه، أراد أن يستشف الأخبار عنه من هنا وهناك. فكان طبيعياً عند التقائه بأبي سفيان أن يعرف منه أخبار الرسول (ص).

لعلنا نخلص مما سبق أن هرقل، وقد خرج متهالكاً من حروبه الطويلة مع الفرس، وبعد سماعه بأخبار الرسول (ص)، سعى الى تجميع المعلومات عنه، وأن رسول النبي وكتابه اليه يدلان ــ بما لا يدع مجالاً للشك ــ أن الهدف هو نشر الإسلام في البلاد المجاورة، وفي مقدمتها بطبيعة الحال الدولة البيزنطية وجيرانها ومحالفيها من متنصرة العرب في أعالي الشام، وأن الغزوات التي قادها الرسول (ص) والسرايا التي بعث بها الى تخوم الشام مبكراً اعتباراً من القرن الخامس الهجري (٦٢٦م)، ما هي الا تمهيدات هدفها الاستطلاع وجس النبض قبل الاحتكاك العسكري المباشر بين المسلمين والبيزنطيين، والذي كانت بلاد الشام أول مسرح له. ثم أن المقابلة التي تمت بين هرقل وأبي سفيان، تكشف بطريق غير مباشر عن تخوف الامبراطور البيزنطي من المتغيرات التي استجدت على مسرح الأحداث.

سرية كعب بن عمير الغفاري الى ذات أطلاح (ربيع الأول ٨هـ/يوليو ـ أغسطس ٦٢٩م):

كانت السرية (٣٦) التالية لسرية دومة الجندل هي تلك التي أرسلها رسول الله

---

٣٤. الواقدي: مغازي رسول الله، ص٣٢٣ ــ ٣٢٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج١٨، ص١٥٨ وما يليها. ومصدر النويري في هذا هو البخاري. وفي آخر نص النويري (ص ١٦٢) اشارة الى هرقل وتحقق نبوءته عن النبي. انظر أيضاً النويري: نهاية الأرب، ج ١٦، ص ١٥٠ ــ ١٥٣.

٣٥. الطبري: تاريخه، ج ٢، ص ٦٤٩ ــ ٦٥١.

٣٦. أسماها الواقدي: مغازي رسول الله، ص ٧ «غزوة»، بينما وردت في المصادر الأخرى تحت لفظة «سرية»، وهذا الأصح لأنها لم تكن بقيادة الرسول (ص).

(ص) بقيادة كعب بن عمير الغفاري الى ذات أطلاح(٣٧)، ويقال لها أيضاً ذات أباطح(٣٨). وهي من وراء وادي القرى بين تبوك وأذرعات من بلاد دمشق من أرض الشام(٣٩). وكان أهلها من قضاعة، وزعيمهم رجل يقال له سدوس(٤٠). وذكرت الروايات أن السرية كانت في شهر ربيع الأول سنة ٨ هـ (يوليو- أغسطس ٦٢٩م)(٤١). وبلغ عدد أفرادها خمسة عشر رجلاً. وعندما بلغوا ذات أطلاح وجدوا جمعاً من أهلها، فدعوهم الى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، ورشقوا رجال السرية بالنبال. واشتد القتال بين الطرفين حتى قتل رجال السرية كلهم فيما عدا واحداً أفلت بعد أن أصيب بجراح. وتحامل على نفسه ليلاً حتى بلغ المدينة، وأخبر رسول الله (ص) بما حل بالسرية(٤٢)، فتأثر لذلك. «وهم بالبعث اليهم، فبلغه أنهم قد ساروا الى موضع آخر، فتركهم»(٤٣). وواضح أن هذه السرية منيت بالهزيمة.

---

٣٧. انظر الواقدي: مغازي رسول الله، ص٧؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢ ق ١، ص ٩٢؛ البلاذري: أنساب الاشراف، ج ١، ص ٣٨٠؛ الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٢٩؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٦٥. ويلاحظ ان الاسم ورد عند الطبري، عن الواقدي، «عمرو بن كعب الغفاري». ولكنه جاء عن الواقدي والمصادر الأخرى التالية عليه أنه «كعب بن عمير الغفاري».

٣٨. البلاذري: أنساب الاشراف، ج ١، ص ٣٨٠؛ اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧م): تاريخه، جزءان، بيروت (بدون تاريخ)، ج ٢، ص ٧٥.

٣٩. الواقدي: مغازي رسول الله، ص٧؛ ابن سعد: نفس المصدر والصفحة؛ الطبري: نفس المصدر والصفحة؛ المسعودي: نفس المصدر والصفحة؛ النويري: نهاية الأرب، ج١٧، ص٢٧٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٤١.

٤٠. الطبري: تاريخه، ج٣، ص ٢٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٤١.

٤١. الواقدي: نفس المصدر والصفحة؛ ابن سعد: نفس المصدر والصفحة؛ البلاذري: نفس المصدر والصفحة؛ المسعودي: نفس المصدر والصفحة؛ النويري: نفس المصدر والصفحة. ويلاحظ أن كلا من اليعقوبي وابن كثير لم يحدد تاريخاً لها. انظر تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٧٥؛ البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٤١. بينما لم يحدد الطبري في تاريخه، ج٣، ص ٢٩، الشهر واكتفى بذكر السنة (٨ هـ).

٤٢. ابن سعد: نفس المصدر والصفحة؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٦٥. ويتضح من رواية كل من البلاذري: أنساب الاشراف، ج ١، ص ٣٨٠؛ والطبري: تاريخه، ج٣، ص ٢٩؛ والمسعودي: نفس المصدر والصفحة، أن الذي نجا من المعركة هو قائد السرية كعب بن عمير، بينما ذكر اليعقوبي؛ تاريخه، ج ٢، ص ٧٥، ان الجميع استشهدوا ولم يرجع من السرية أحد. وذكر ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٤١، أنه «أرتث منهم رجل جريح في القتلى «دون أن يحدد اسمه. وقد جاء في الفيروزابادي، والقاموس المحيط، مادة (رث ث) شرح الكلمة فيما يلي «.... ارتث- على المجهول- حل من المعركة رثيثاً: أي جريحاً وبه رمق.

٤٣. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢ ق ١، ص ٩٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج١٧، ص ٢٧٧.

سرية مؤتة (جمادى الأول ٨ هـ/أغسطس ـ سبتمبر ٦٢٩م):

تتابعت بعد ذلك الغزوات والسرايا، وكانت السرية التالية هي سرية مؤتة. وقد ذكرها فريـــق مـن المـؤرخين المسلمين القدامى تحت اسم «غزوة» ربما لكثرة عدد من اشترك فيها، بينما أشار اليها البعض تحت اسم «سرية»، وفريق ثالث تحت اسم «يوم مؤتة» و«قصة مؤتة»(٤٤). ولم يشترك رسول الله (ص) بشخصه فيها، اذ كان في المدينة وقتها(٤٥). وقد أمر عليها زيد بن حارثة الكلبي. وكانت وجهتها مؤتة، وهي من ناحية البلقاء من أعمال دمشق من الشام،(٤٦)، وأهلها يومئذ من الروم ومتنصرة العرب من الغساسنة الموالين لهم(٤٧). ولا خلاف حول تاريخها، فقد اتفقت الروايات على أنها كانت في جمادى الأول سنة ٨ هـ (أغسطس ـ سبتمبر ٦٢٩م)(٤٨). ولا تلقى المصادر ضوءاً كافياً على الأسباب التي دعت الرسول (ص) الى بعث هذه السرية، وان كان المسعودي(٤٩) قد ذكر أنها كانت تستهدف غزو البيزنطيين. ووضع النقاط فوق الحروف قائلاً أن أقدام شرحبيل بن عمرو الغساني على قتل رسول الله الحارث بن عمير الأزدي الى صاحب بصرى كان سببها. وهذا يدل بطريق غير مباشر أن تلك السرية، وما سبقها من غزوات وسرايا وجهت الى تخوم الشام، كانت مقدمات هدفها الاستطلاع وجس النبض، أو ممهدات لحملات أكبر وأعم هدفها الدولة البيزنطية نفسها؛ بالاضافة إلى

٤٤. أشار الى وقعة مؤتة تحت اسم «غزوة» الواقدي: مغازي رسول الله، ص ٧، وان كان قد ذكرها في صفحة ٣٢٢ تحت اسم «سرية» و«قصة مؤتة». كما ذكرها تحت اسم «سرية»، المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٦٥. أما ابن هشام: سيرة النبي (ص)، ج ٣، ص ٣٢٤ و ٣٣١، فقد أوردها تحت لفظ «يوم مؤتة».

٤٥. كان النبي (ص) بعد أداء عمرة القضاء في شهر ذي القعدة ٧هـ (مارس ٦٢٩م)، رجع الى المدينة في ذي الحجة من السنة نفسها (ابريل ٦٢٩م)، وأقام فيها بقية ذي الحجة سنة ٧هـ ثم المحرم وصفر وشهري ربيع أول وثان سنة ٨هـ (يوليو ـ أغسطس ٦٢٩م). ثم بعث بسرية زيد بن حارثة في جمادى الأول سنة ٨ هـ. انظر سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٣١٩ وما بعدها؛ الواقدي: مغازي رسول الله، ص ٣٢٠.

٤٦. المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ٢٦٥.

٤٧. الواقدي: مغازي رسول الله، ص ٣٢٢.

٤٨. سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣٢٢؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٦٥. و يلاحظ أن الواقدي: مغازي رسول الله، ص ٣٢٢، لم يحدد تاريخاً. وابن عبد البر هو الوحيد الذي ذكر أنها كانت في جمادى الآخرة سنة ٨ هـ. انظر الدرر، ص ٢٠٩.

٤٩. المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢١٥.

الهدف الأسمى وهو نشر الإسلام في تلك الجهات. وقد بلغ عدد رجال هذه السرية حوالي ثلاثة آلاف رجل، بينما أنفذ الامبراطور هرقل، وكان وقتئذ مقيماً في أنطاكية بعد انتصاره على الفرس، مائة ألف مقاتل للقائهم. وقد يكون في هذا العدد بعض المبالغة، الا أنه يدل على ضخامة القوات البيزنطية. وأما متنصرة العرب من غسان وقضاعة وغيرهم، فكان عليهم شرحبيل بن عمرو الغساني(٥٠). وأما المسلمون فقد جعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة يدعى قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يسمى عباية بن مالك، وفي رواية أخرى عبادة بن مالك.

وبدأ القتال بين الفريقين، وقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله (ص) حتى هلك، فأخذها جعفر بن أبي طالب، وعندما اشتد القتال ترجل عن جواده، وواصل القتال وهو يحمل اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فأحتضنه بعضديه حتى قتل عن ثلاثة وثلاثين عاماً. ويقال أن أحد الجنود البيزنطيين ضربه بسيفه فقطعه نصفين. ويقال أيضاً أنه وجد به اثنان وسبعون جراحة، ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح.

على أية حال، حمل الراية بعد جعفر، عبد الله بن رواحة الأنصاري وكان ممتطياً جواده. وقاتل بعض الوقت، ثم ترجل وواصل القتال حتى استشهد. حينئذ اتفق المسلمون على خالد بن الوليد بن المغيرة الذي أخذ الراية وتصدى لجموع البيزنطيين دون جدوى.

ويمكن القول أن هذه السرية لم تحقق هدفها. إذ وقع عدد كبير من المسلمين بين قتيل وجريح، وان كان خالد قد قفل عائد الى المدينة بمن تبقى من قواته ليخبر رسول الله (ص) بما حل بهم، فغمره الحزن على ما حدث(٥١). وأوضح كل من الواقدي

٥٠. المسعودي: نفس المصدر والصفحة، وان كان عدد أفراد الجيش البيزنطي مبالغاً فيه، وليس تحت أيدينا تحديد دقيق للقوات البيزنطية.

٥١. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ق ١، ص ٩٢ — ٩٤؛ ابن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) خليفة بن خياط العصفري البصري: تاريخ خليفة بن خياط، رواية بقي بن مخلد، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٦٨، ق ١، ص ٥٦؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٨٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٤١ وما يليها. وتمتاز المعلومات التي أوردها ابن كثير بأنها وفيرة، ومسهبة، وان كانت الصفحات الأخيرة فيها بعض الاستطرادات، ولكنها تتصل بالموقعة على كل حال.

وابن هشام أن النصر لم يكن حليف المسلمين في هذه الموقعة. وأخذ رسول الله (ص) ينعى شهداء مؤتة وهو في المدينة رجلاً رجلاً (٥٢). وعدد ابن هشام اسماء بعض شهداء مؤتة من قريش، وبني هاشم، وبنى عدي بن كعب، وبني مالك بن نهشل، ومن الأنصار، وبني الحرث بن الخزرج، وبنى غنم بن ملك بن النجار، وبني مازن بن النجار، وبني مالك بن أفصى، وكتب الشعراء يصفون الوقعة و يرثون شهداءها، نذكر منهم ــ على سبيل المثال ــ قيس بن المسحر، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك (٥٣).

سرية عمرو بن العاص الى ذات السلاسل (جمادي الآخرة ٨هـ/سبتمبر ــ اكتوبر ٦٢٩م):

استهدفت هذه السرية ذات السلاسل من أرض بني عذرة وراء وادي القرى (٥٤). واتفقت الروايات على أنها وقعت في جمادى الآخرة سنة ٨ هـ (سبتمبر ــ أكتوبر ٦٢٩م) (٥٥). وأميرها هو عمرو بن العاص (٥٦)، وكانت رايته سوداء اللون، «وبعثه (النبي) يستنفر العرب الى الشام» (٥٧). و يبدو أنه ووجه بمقاومة شديدة،

٥٢. الواقدي: مغازي رسول الله، ص ٣٢٢؛ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣٢٦ ــ ٣٢٩. و يذكر المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٦٥ أن عدد الجرحى بلغ نيفاً وتسعين.

٥٣. سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣٣١ ــ ٣٣٧؛ ابن عبد البر: الدرر، ص ٢١٠. للمزيد من التفاصيل عن سرية مؤتة، انظر النويري: نهاية الأرب، ج ١٧، ص ٢٧٧ ــ ٢٨٣. وأشار ابن هشام في سيرته، ج ٤، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤، الى سرية قادها زيد بن حارثة الى مدين، وبعث الرسول (ص) معه ضميرة مولى علي بن أبي طالب وأخاً له. وقد أصاب سبياً من أهل السواحل، وكانت عامرة بالناس، وقد بيعوا جميعاً. و يلاحظ أن ابن هشام لم يذكر هذه السرية من قبل، ولكنها وردت هنا استرسالاً عند ذكر الغزوات والبعوث. كما أنه لم يحدد لها تاريخاً. ولما كان زيد بن حارثة قد استشهد في مؤتة في جمادى الأولى عام ٨ هـ (أغسطس ٦٢٩م) فربما تكون على هذا الأساس قد حدثت في تلك السنة أو قبلها. وهذه السرية تحتاج الى مزيد من التحقيق.

٥٤. سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٣٢؛ البلاذري: أنساب الاشراف، ج ١، ص ٣٨٠؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٦٥.

٥٥. وفقاً لرواية كل من الواقدي، والبلاذري، والمسعودي، والنويري، وابن كثير. أما الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٣١، فقد ذكر السنة ولم يحدد الشهر. وأما ابن هشام: سيرة النبي، ج ٤، ص ٢٣٢، فلم يحدد لها تاريخاً.

٥٦. ذكر البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٨٠ ــ ٣٨١، ان عمرو بن العاص كان قد «قدم من عند النجاشي مسلماً، فلقى في طريقه عثمان بن طلحة وخالد بن الوليد يريدان النبي (ص) فأسلموا في صفر سنة ثمان». وهذا التاريخ يقابل شهر يونيو سنة ٦٢٩م.

٥٧. سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٣٢.

فأرسل يطلب المدد من رسول الله (ص). فوجه اليه أبا بكر، وعمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح، وسروات المهاجرين والأنصار. أما العدو فكان يتألف من جموع الروم ومتنصرة العرب(٥٨)، من قضاعة، وعاملة، ولخم، وجذام(٥٩). وتقاتل الفريقان، وألحق المسلمون الهزيمة بأعدائهم، وتمكنوا من تشتيتهم، وقتلوا من رجالهم عدداً كبيراً، بينما أصيب كثير منهم بجراح(٦٠).

غزوة تبوك (رجب سنة ٩ هـ/اكتوبر ــ نوفمبر ٦٣٠م):

قال الواقدي(٦١) أن هذه الغزوة استهدفت بلاد الشام. أما ابن هشام(٦٢) فكان أكثر وضوحاً عندما أكد أن هدفها هو التهيؤ لغزو الروم. ووضع البلاذري(٦٣) النقاط فوق الحروف عندما قال «ان هرقل ومن اجتمع اليه من لخم، وجذام، وعاملة، وغيرهم، أظهروا أنهم يريدون غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم». وقد اختيرت قرية تبوك(٦٤) مما يلي دمشق من أرض الشام مسرحاً لها، وبين تبوك والمدينة تسعون فرسخاً، وكان النبي (ص) مقيماً في المدينة وقتها (ذو الحجة ــ رجب ٩ هـ/مارس ٦٢٩ ــ نوفمبر ٦٣٠م) بعد رجوعه اليها من غزوة الطائف(٦٥). وقد عرف جيش هذه الغزوة

---

٥٨. المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٦٥.

٥٩. البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٨١. وفي سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٣٢، أنه عندما كان عمرو على ماء بأرض جذام يقال له السلسل، اشتقت المعركة تسميتها منه فعرفت بذات السلاسل.

٦٠. البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٨٠. وللمزيد من المعلومات عن تلك السرية، انظر: سيرة ابن هشام، نفس الجزء والصفحة؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢ ق ١، ص ٩٤ ــ ٩٥؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٦٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٧، ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٧٣ وما يليها.

٦١. الواقدي: مغازي رسول الله، ص ٣٤٠، وان كان قد أشار في صفحة ٣٤١ أنه يعني بلاد الروم عندما قال لرجاله مشجعاً اياهم: «فسارعوا معي الى الشام لعلكم أن تصيبوا شباب الأصفر».

٦٢. ابن هشام: سيرة النبي، ج ٤، ص ١٢٨ و ١٢٩. انظر أيضاً ابن عبد البر: الدرر، ص ٢٣٨.

٦٣. البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٦٨. والمقصود بذلك شباب الروم.

٦٤. تبوك موضع بين وادي القرى والشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب الى النبي (ص). وموقع تبوك بين جبل حسمى وجبل شرورى، وحسمى غربيها، وشروري شرقيها. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤.

٦٥. سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٢٨.

باسم «جيش العسرة»، بسبب قسوة الحر، وشدّة الجدب الذي أصاب شبه الجزيرة وقتها، فضلاً عن بعد المسافة، وكثرة رجال العدو. ولذلك أعلن الرسول (ص) عن وجهته حتى يتهيأ الجند للمعركة، خلافاً لعادته عندما كان يستعد لمعركة ضد العدو، فكان لا يكشف عن مقصده، ضماناً لنجاحها[٦٦].

وقد واجهت رسول الله (ص) بعض الصعاب وهو يعد لهذه المعركة. ففضلاً عما تقدم، أخذ البعض يتعللون بمختلف الحجج والأعذار للتنصل من الاشتراك في الغزوة، ومن بينها شكوى البعض من ضيق ذات اليد، الأمر الذي لا يسمح لهم باعداد لوازمهم. فأمر الرسول (ص) بأن يتكفل الأغنياء بتجهيز الفقراء[٦٧] بالانفاق عليهم والحملان في سبيل الله[٦٨]. وتكشف المصادر العربية عن الادعاءات الصادرة عن المنافقين والمتخوفين والبكائين والمتخلفين وغيرهم. والذين نزلت فيهم آيات عديدة[٦٩] وهي تكشف عما لاقاه النبي (ص) من متاعب أثناء إعداده لهذه الغزوة.

على أية حال، كانت الغزوة في رجب سنة ٩ هـ (أكتوبر ــ نوفمبر ٦٣٠م)[٧٠]. وبلغ عدد أفرادها ثلاثين ألفاً، والخيل عشرة آلاف، والابل اثني عشر الف بعير. واختلفت الروايات فيمن استخلفه الرسول (ص) بالمدينة. فمن قائل أنه علي ابن أبي طالب، ومن يقول أنه ابن ام مكتوم، ومن يقول أنه محمد بن سلمة الأنصاري، ويقال أيضاً سباع بن عرفطة[٧١]. ولا نعرف على وجه التحديد من فيهم أنابه الرسول (ص) على المدينة أثناء غيبته.

---

٦٦. نفس المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٩.

٦٧. الواقدي: مغازي رسول الله، ص ٣٤٠. وذكر البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٦٨، أن الرسول (ص) جهز عدداً كبيراً بلغ ثلث القوات وربما أكثر وانفق عليهم بسخاء. أما أبو بكر فقد أعطاهم جميع ما بقي من ماله.

٦٨. المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٧١. وجاء في الفيروزابادي، وقاموس المحيط، مادة (ح م ل): «والحملان ــ بالضم ــ ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة».

٦٩. سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٢٩ ــ ١٣١. راجع أيضاً النويري: نهاية الأرب، ج ١٧، ص ٣٦١ ــ ٣٦٨.

٧٠. والروايات متفقة في ذلك. ولكن يلاحظ أن المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٧٠، لم يعنون الحوادث قبل غزوة تبوك وأحداثها بعنوانه التقليدي (ذكر سنة كذا...)، واكتفى بقوله «.... ثم غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب»، والغزوة تقع في سنة ٩ هـ على كل حال، ويدل عليها عند المسعودي التواريخ قبلها.

٧١. المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٧٠ ــ ٢٧١؛ البلاذري: أنساب الاشراف، ج ١، ص ٣٦٨.

وبعد أن تمت الاستعدادات، خرج الجيش من المدينة متوجهاً الى تبوك. وقد أقام الرسول (ص) بها مدة شهرين حيث نزل عليه القرآن الكريم يعيب من تخلف باعتبارهم من المنافقين. كما وفد عليه أثناء اقامته بتبوك أسقف أيلة (٧٢) وصاحبها ويدعى يحنه ابن رؤبة. فصالحه على أن يؤدي كل بالغ فيها ديناراً في السنة. كذلك قدم عليه أهل أذرح (٧٣)، فسألوه الصلح مقابل دفع الجزية، فوافق وكتب لهم كتاباً بذلك (٧٤).

قفل الرسول (ص) بعد ذلك عائداً الى المدينة (٧٥). وواضح أنه لم يحدث أي احتكاك عسكري بين المسلمين والعدو في تبوك، فقد صمتت المصادر العربية عن ذلك (٧٦). وكانت تلك الغزوة هي آخر غزوات النبي (ص).

سرية خالد بن الوليد الى دومة الجندل (رجب ٩ هـ/اكتوبر- نوفمبر ٦٣٠م):

وأثناء اقامة الرسول (ص) بتبوك، بعث في رجب ٩ هـ (اكتوبر- نوفمبر ٦٣٠م) سرية على رأسها خالد بن الوليد المخزومي الى أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل. وكانت قد تعرضت قبل ذلك لهجومين: أولهما الغزوة التي قادها النبي (ص) بنفسه في ٢٥ ربيع الأول ٥ هـ (٢٤ أغسطس ٦٢٦م)، وثانيهما السرية

---

٧٢. أيلة مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام حتى آخر الحجاز وأول الشام. وهي مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير. وقد سميت بأيلة بنت مدين بن ابراهيم. وقيل هي مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطىء بحر القلزم تعد في بلاد الشام. أنظر ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٩٢.

٧٣. أذرح اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة، ثم من نواحي البلقاء. وجاء في معجم البلدان أن أهلها، بعد فتح الرسول (ص) لها سنة ٩ هـ، صولحوا على مائة دينار جزية. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٩ - ١٣٠.

٧٤. سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٣٨؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٧٢. انظر نص «كتاب الرسول (ص) الى صاحب أيلة في سيرة ابن هشام.

٧٥. سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٤٠. وقد ذكر أن الرسول أقام بتبوك «بضع عشرة ليلة لم يجاوزها»، بينما ذكر الواقدي: مغازي رسول الله، ص ٣٤١، أنه أقام بها شهرين. وحدد المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٧١، أنه أقام بها بضع عشرة ليلة وقيل عشرين. للمزيد من المعلومات انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢ ق ١، ص ١١٨ وما يليها؛ الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٣٥٢ وما يليها؛ ابن خياط: تاريخه، ق ١، ص ٦٤.

٧٦. جاء في البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٦٨، أنه عندما سار الرسول (ص) الى الأعداء «هابوا محاربته، فلم يلق كيدا»، وأن رسل هرقل اتته وهو بتبوك «فكساهم وردهم». راجع أيضاً ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٥، ص ١٥، وما بعدها.

التي قادها عبد الرحمن بن عوف في شعبان ٦ هـ (ديسمبر ٦٢٧ـــ يناير ٦٢٨م). وتوجه خالد الى الدومة، وحصل على غنائم، وأسر أخاً لأكيدر، ويقال أنه قتل أخاً آخر له يسمى مصاداً، وأخذ قباء ديباج كان عليه منسوجاً بذهب. وكتب الرسول (ص) لأكيدر ولأهل دومة الجندل كتاباً(٧٧).

سرية أسامة بن زيد الى يبنى وازدود (سنة ١٠ هـ/٦٣١م):

وبعث الرسول في سنة ١٠ هـ (٦٣١م)(٧٨) بسرية على رأسها أسامة بن زيد الى يبنى وازدود من أرض فلسطين من بلاد الشام(٧٩). وكانت هذه هي آخر سرية خرجت بالفعل في عهد الرسول (ص). وفي صفر ١١ هـ (مايو ٦٣٢م)، وكان الرسول (ص) بعد حجة الوداع قد عاد الى المدينة وأقام بها بقية ذي الحجة سنة ١٠ هـ (مارس ٦٣٢م) وشهري المحرم وصفر من سنة ١١هـ (ابريل ـــ مايو ٦٣٢م)،(٨٠)، ندب قبل انتقاله الى جوار ربه اسامة بن زيد الى بلاد البلقاء(٨١) وأذرعات(٨٢) والداروم(٨٣)

---

٧٧. البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٨٢. وذكر المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٧٢، ان الشخص الذي أسره خالد بن الوليد هو أكيدر نفسه، والصحيح أخاه للمزيد من المعلومات عن هذه السرية انظر الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ١٠٨ ـــ ١٠٩؛ ابن كثير. البداية والنهاية، ج ٥، ص ١٧ ـــ ١٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٧، ص ٣٥٦ ـــ ٣٥٨.

٧٨. اكتفى المسعودي بذكر السنة دون الشهر. وهي ـــ على كل حال ـــ أما في شهر ربيع الأول (يونيو ٦٣١م) أو قبله، لأن السرية التالية ـــ وكانت لخالد بن الوليد ـــ تؤرخ بشهر ربيع الأول سنة ١٠ هـ. انظر التنبيه والاشراف، ص ٢٧٣.

٧٩. جاء في ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٤ ق ١، ص ٤٦، في ترجمة أسامة بن زيد قوله: «أقر رسول الله (ص) أسامة بن زيد وأمره أن يغير على أبنى من ساحل البحر». وربما تكون نفس السرية المذكورة في التنبيه والاشراف.

٨٠. سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢١٦.

٨١. البلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة. وسميت البلقاء لأن بالق من بني عمان بن لوط عمرها. ورأى آخر أنها سميت ببلقاء بن سويده من بني عسل ابن لوط. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٨٩.

٨٢. أذرعات بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان، وقيل هي مدينة بالبلقاء خرج منها طائفة من أهل العلم المعروفين. أنظر ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٣٠ ـــ ١٣١.

٨٣. الداروم قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر، وقد خربها صلاح الدين لما ملك الساحل في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م). ويقال لها الدارون أيضاً. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٢٤.

ومؤتة من أرض دمشق من الشام، للثأر لأبيه زيد بن حارثة الذي استشهد في مؤتة سنة ٨ هـ (٦٢٩م)(٨٤). وكان معه عمر بن الخطاب، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح، واختلفت الأقوال بشأن أبي بكر ان كان في هذا البعث أم لا، وأخذوا يستعدون لملاقاة العدو، وكان رسول الله (ص) يحثهم في فترة مرضه بتجهيز جيش اسامة(٨٥).

وهذه السرية هي آخر ما أعده الرسول (ص) من سرايا في اتجاه الشام، ولم تخرج في حياته، وانما وجهت زمن الخليفة أبي بكر الصديق.

وفي ١٣ ربيع الأول ١١ هـ (٨ يونيو ٦٢٣م)، انتقل الرسول الى جوار ربه(٨٦). واذا القينا نظرة عابرة على الغزوات التي قادها بنفسه، والسرايا والبعوث التي أوفدها الى تخوم الشام، ابتداء بغزوة دومة الجندل في أعالي الشام في ربيع الأول ٥ هـ (أغسطس ٦٢٦م) وانتهاء بسرية أسامة بن زيد بن حارثة الى يبنى وازدود بفلسطين سنة ١٠ هـ (٦٣١م)، سوف نجد أنها لم تكن معارك حاسمة بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح. لقد كانت مجرد هجمات سريعة خاطفة تعود بعدها القوات الاسلامية محملة بالغنائم والأسرى وبمعلومات عن الأعداء. كما كانت مقدمات تستهدف جس النبض

٨٤. يرى د. أحمد الشامي أن الغرض من الحملة ـــ فضلاً عما تقدم ـــ هو تخويف الروم ومنعهم من التفكير في مهاجمة المسلمين، والثأر لما حل بالمسلمين في موقعة مؤتة، ورداً على المواقف العدائية التي وقفها أمراء العرب المتنصرة من المسلمين. هذا، بالاضافة الى اتاحة الفرصة لنشر الإسلام بين المدن العربية في شبه الجزيرة ثم في خارجها. انظر: الخلفاء الراشدون، ط. أولى، القاهرة ١٩٨٢، ص٣٩. ونتفق مع د. أحمد الشامي فيما أورده من عوامل، فيما عدا العامل الأول الخاص بمنع الروم من التفكير في مهاجمة المسلمين. فقد كانت دولة الروم وقتها في حالة لا تسمح لها بالمرة في التفكير في مهاجمة المسلمين.

٨٥. سيرة ابن هشام، ج٤، ص ٢٤٩؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٨٤؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ٢٧٧ ـــ ٢٧٨.

٨٦. استهل المؤرخ الأرميني جيفوند الفصل الأول من كتابه وعنوانه «حروب العرب الأولى وأوائل فتوحاتهم لأراضي الامبراطورية البيزنطية» بذكر وفاة الرسول (ص). ولكنه لم يشر الى ظهور الإسلام، وانتشاره، والانتصارات العسكرية التي حققها المسلمون في العهد النبوي. ووردت اشارات سريعة مركزة للغاية عن الفتوحات العربية في الشام في عهد كل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب. انظر:

Ghévond, Histoire des Guerres et des Conquêtes des Arabes en Arménie. Trad. G.R. Chahnazarian, Paris, 1856, pp. 1—2.

والاستطلاع لمعرفة مدى قوة الدولة البيزنطية الحليف القوي للمستعربة أو متنصرة العرب في تخوم الشام. و يعزز ذلك الرسالة التي وجهها الرسول (ص) الى هرقل وغيره من حكام الشام النصارى التابعين أو الموالين له. وكذلك اللقاء الذي تم بين هرقل وأبي سفيان والحديث الذي دار بينهما وما يكشف عنه. فضلاً عما ذكرته المصادر العربية من أن هذه الغزوات والسرايا كانت تستهدف، في المرتبة الأولى، غزو بيزنطة والاستعداد لذلك. وكانت الدولة البيزنطية ــ من ناحيتها ــ تحاول التعرف على الأهداف الحقيقية لهذه الغزوات والسرايا. لقد كانت على علم بظهور الدين الاسلامي في الجزيرة العربية، والهجمات التي تعرض لها أعالي الشام المتاخم لحدودها. و يذكر ابن هشام(٨٧) ــ نقلاً عن ابن اسحاق ــ ان فروة بن عمرو بن النافرة الجذامى بعث الى محمد (ص) رسولاً باسلامه، وكان عامل بيزنطة على معان وما حولها من أرض الشام، وأنه لما بلغ بيزنطة ذلك قبضوا عليه وسجنوه عندهم، ثم قتلوه. وان دل هذا على شيء، فانما يدل على أن المشاعر كانت معبأة من كلا الجانبين على طرفي الحدود. فكان طبيعياً أن يكون اقليم الشام التابع لبيزنطة، هو أول مسرح للقتال العنيف بين المسلمين والبيزنطيين في عهد الخلفاء الراشدين، فيما عرف بحركة الفتوحات الاسلامية الأولى.

و يبلور أحد المؤرخين الغربيين الحديثين، وهو ريتشارد ساليفان(٨٨)، ما سبق، بقوله أنه عندما توفي الرسول (ص) كان قد أصبح رسولاً وزعيماً لمجتمع من القبائل العربية القوية المتحالفة التي أرست وحدتها على أساس الولاء للرسول (ص) وتقبل دين واحد. وكان هذا نقطة البداية لمواجهة العالم الخارجي.

الاحتكاك بين المسلمين والبيزنطيين في الشام زمن الخلفاء الراشدين حتى وقعة اليرموك وفتح بيت المقدس

كان من نتائج الغزوات والسرايا التي تعرض لها أعالي الشام في العهد النبوي، ان ظهرت قوة جديدة على مسرح الأحداث يحسب لها ألف حساب، تتمثل في الدين الجديد وأتباعه. وكانت الغزوات والسرايا تستهدف نشر الاسلام وتأمينه، والتعرف في

٨٧. سيرة ابن هشام، ج٤، ص ٢٠١ ــ ٢٠٢. و يلاحظ ان ابن هشام لم يحدد تاريخ هذه الحادثة، ولكن سياق الأحداث يدل على أنها وقعت في سنة ١٠ هـ (٦٣١م).

٨٨. Sullivan, Heirs of the Roman Empire, p. 26.

ذات الوقت على قوة الدولة البيزنطية التي أصبح المسلمون على وشك الاحتكاك بها احتكاكاً مباشراً حسبما أسلفنا. وعلى هذا لا يمكن الفصل بين نشر الرسالة وتأمينها من جيران يتاخمونها ويعادونها، وبين الاحتكاك المباشر والمتوقع بين المسلمين والدولة البيزنطية. ومن الطبيعي أن تكون بلاد الشام، التي كانت تعتبر من أهم أقاليم هذه الدولة، هي أول مسرح للصراع بينهما.

ولم يكن اختيار وقت الفتح في صالح بيزنطة. ذلك أن هرقل سدد الدين الكبير الذي كان قد تعهد بدفعه الى الكنيسة البيزنطية أثناء حروبه المضادة ضد الفرس التي خرج منها منهوك القوى. كما أدى هذا الى استنزاف موارد الدولة وافقارها، حتى لقد اضطر الامبراطور الى فرض ضرائب جديدة على أهالي الولايات المستاءة من الحكم الروماني، وفي مقدمتهم أهالي الشام، والى تسريح عدد كبير من جنوده رغبة في الاقتصاد قدر الاستطاعة. ولا خلاف أن الشام التي قضت حوالي اثنى عشر عاماً تحت الحكم الفارسي، لم تعد الى حالتها الأولى بعد فتحها من جديد وعودتها الى حظيرة الامبراطورية البيزنطية. اذ كانت المنازعات الدينية المتفاقمة والمتأزمة، الى جانب الانقسامات المذهبية والمشاكل الاقتصادية، قد أدت الى تفككها وتمزيقها. فقد كثر في هذا الاقليم اتباع مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح، وهم اليعاقبة، وتنفسوا الصعداء بعض الشيء مدة الحكم الفارسي بسبب تخلصهم من الضغط البيزنطي. ولذلك قاوموا بكل شدة محاولات الامبراطور هرقل لفرض مذهب التوحيد أو التوفيق الذي نادى به، حتى اذا جاء الفتح العربي رفضوا باصرار مساعدة الجيش الامبراطوري، في الوقت الذي أمدوا فيه للعرب المسلمين يد المساعدة(٨٩).

وفي ضوء ما هو متاح تحت أيدينا من معلومات وردت في ثنايا المصادر(٩٠)، يمكن تتبع مراحل هذه الحروب بشيء من التركيز قدر الاستطاعة دون الدخول في متاهات تفاصيلها المعروفة، مكتفين بابراز ما يمكن استخلاصه منها مما يخدم موضوع البحث.

---

٨٩. أنظر جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ ــ ١٤٥٣)، ط. أولى، الاسكندرية ١٩٨٤، ص ١١٠ ــ ١١١.

٩٠. انظر ما سبق، صفحة ٥ ــ ٦ من هذا البحث.

حملة أسامة بن زيد الى البلقاء وأذرعات والداروم (آخر ربيع الأول ١١ هـ / الخميس ٢٠ يونيو ٦٣٢م) :

كنا قد ذكرنا أنه في صفر ١١ هـ (مايو ٦٣٢م) كان الرسول (ص) قبل انتقاله الى جوار ربه، قد جهز حملة بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة وجهتها البلقاء وأذرعات والداروم ومؤتة من أرض دمشق من الشام، لتخويف البيزنطيين من ناحية، وتأديب الغساسنة وهم العرب المتنصرة لمواقفهم العدائية من ناحية أخرى، وقتلهم عدداً من المسلمين من بينهم زيد والد أسامة من ناحية ثالثة. ولكن وفاة رسول الله (ص) حالت دون خروج الحملة.

وبعد اتمام البيعة لأبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين (١١ ـ ١٣ هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٣٤م)، أصر على انفاذ حملة أسامة، على الرغم من محاولات الصحابة المتكررة لتعطيلها أو ارجائها مطالبة تارة بتغيير أسامة من مركز القيادة لحداثة سنه، وتارة أخرى بظهور حركة الردة بين العرب مما قد يؤدي الى تفرق جماعة المسلمين عنه، وما يترتب على ذلك من آثار. ولكن أبا بكر رفض كل هذه الحجج، مصراً على ارسال الحملة بقيادة أسامة. وكان ذلك في آخر شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ (الخميس ٢٠ يونيو ٦٣٢م)(٩١).

وهكذا خرج أبو بكر يودع اسامة من الجرف حيث كان يعسكر هو وجنده، بعد أن أوصاهم بما يجب أن يكون عليه سلوك الجند أثناء الحرب. وخرج أسامة في ثلاثة آلاف من الجند متخذاً طريق ذي المروة والوادي حتى وصل الى قبائل قضاعة فأغار عليها وعلى بطون من جذام ولخم وبني آيل من قرى مؤتة. فأعمل السيف فيمن تعرض لجيشه، وحصل على بعض الغنائم. وعندما شاهد العرب المتنصرة جيش اسامة متجهاً الى أطراف الشام الجنوبية كفوا عما كانوا يستعدون له(٩٢).

وفي تلك الأثناء كانت حركة الردة قد تفاقمت، ولم يكن بوسع أبي بكر ارسال الجند للقضاء عليها في مهدها بسبب انشغال جيشه في الشام. فكان يحاول اقناع أهل الردة

---

٩١. ابن خياط: تاريخه، ص ٧٩؛ الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٦، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥؛ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/١٢٢٤م): الكامل في التاريخ، جـ ٢، بيروت ١٩٦٧، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

٩٢. الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٢٤٣، ٢٢٣، ٢٤٩، ٢٥٤، وما يليها؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٤٦ ـ ٤٩.

حوالي ثلاثة أشهر الى أن رجع جيش أسامة، فلم يتوان عن محاربتهم (٩٣).

وبعد أن استتب الأمر لأبي بكر، رأى توسيع عملية الفتح لتشمل حدود الامبراطورية البيزنطية. فعقد مجلساً من كبار رجال الصحابة وعلى رأسهم عمر وعثمان وعلي ليعرض عليهم موضوع غزو البيزنطيين بأرض الشام. وبعد التداول ومناقشة الأمر من كافة نواحيه، وافقوا على ذلك. وخرج أبوبكر الى عامة المسلمين داعياً اياهم الى «جهاد الروم بأرض الشام»، والاستعداد لذلك. ثم بعث بالكتب الى اليمن يستنفر أهلها لفتح الشام، فاستجابت القبائل اليمينة، وتتابعت مسرعة الى المدينة تلبية لنداء الجهاد (٩٤).

وقعة مرج الصفر (١٩ جمادى الأولى ١٣ هـ/ ٢١ يوليو ٦٣٤م):

وكان الخليفة أبوبكر قد جعل خالد بن سعيد بن العاص، قائداً على الجيش بدلاً من عمر بن الخطاب الذي قام بعزله. وأمره أن ينزل بتيماء، وهي بليدة في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، ودعوة من حوله للانضمام اليه. فلما حل بها انضمت اليه جموع كثيرة. ولما وصلت أخبارهم الى الدولة البيزنطية، استنفرت متنصرة العرب المقيمين على أطراف الشام الجنوبية. فتوافدت جموع من لخم وجذام وغسان وغيرهم، وعسكر الامبراطور البيزنطي في مكان غير بعيد من القوات الاسلامية. وكتب خالد بن سعيد الى أبي بكر بأخبار تجمعات البيزنطيين وحلفائهم من المستعربة، فأمره بالتقدم نحوهم مع توخي الحذر. وتقدم خالد بمن معه من المقاتلين، ونزلوا على معسكر متنصرة العرب الذين تفرقوا تاركين معسكرهم مكشوفاً. وواصل خالد وقواته تقدمهم حتى أصبحوا على مقربة من تجمعات البيزنطيين. ودارت معركة انهزم فيها البيزنطيون، ولاذ قائدهم بالفرار هو ومن تبقى من رجاله على قيد الحياة، ووصلوا مدينة دمشق.

ولكن هذا النصر الذي حققه خالد بن سعيد اعقبته هزيمة قاسية على يد

٩٣. البلاذري: فتوح البلدان، نشر وتعليق رضوان محمد رضوان، ط. أولى، القاهرة ١٣٥٠ هـ/ ١٩٣٢م، ص ١١٥؛ الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٢٤٣، و ٢٤٩ و ٢٥٤ وما يليها؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٢ وما يليها.

٩٤. الواقدي: فتوح الشام، جزءان في مجلد، القاهرة ١٣٤٨ هـ، ج ١، ص ٢ــ ٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٥.

البيزنطيين. فعندما أرسل الى أبي بكر يبشره بالنصر و يطلب منه ارسال المزيد من القوات، استجاب لطلبه و بعث اليه بالمدد. فاسرع خالد وجيشه بالهجوم على البيزنطيين؛ وشق طريقه الى مرج الصفر شرقي بحيرة طبرية، ولكن الجيش البيزنطي التف حوله، وقطع عليه هو ومن معه خط الرجعة، وأعمل فيهم السيف. فلاذ خالد بن سعيد بالفرار الى ذي المروة بالقرب من المدينة تاركاً جيشه تحت رحمة البيزنطيين وسيوفهم. ولكن الجيش الاسلامي تمكن من الانسحاب بعد كبير عناء، حيث عسكر على مقربة من الشام. وكانت هذه الوقعة يوم الخميس ١٩ جمادى الأولى ١٣ هـ (٢١ يوليو ٦٣٤م)(٩٥).

الجيوش الأربعة التي أعدها أبو بكر لفتح الشام:

وعندما علم أبو بكر بما حدث كتب اليه معنفاً لهروبه من المعركة. ثم عزله وعين محله يزيد بن أبي سفيان قائداً على الجيش الذي بلغ تعداده حوالي سبعة آلاف مقاتل. و بذلك كان قائد أول جيش اسلامي يتجه إلى الشام لفتحها. وخرج أبو بكر في صحبة يزيد وجنده لوداعهم، كما فعل من قبل مع أسامة وجيشه. وزودهم ــ كعادته ــ بنصائحه في كيفية التعامل مع العدو. كما أرشدهم الى الطريق الذي يسلكونه لتحقيق الهدف دون الوقوع في كمائن العدو. وكان الطريق الذي سلكوه هو تبوك ــ البلقاء ــ دمشق. ولحق معاو ية ومن معه بجيش أخيه يزيد، تنفيذاً لتعليمات الخليفة. و بعد ذلك، وجه أبو بكر شرحبيل بن حسنة بجيش بلغ تعداده سبعة آلاف مقاتل الى الأردن عبر طريق تبوك، وذلك بعد ثلاثة أيام من مسير يزيد بن أبي سفيان.

ثم أرسل أبو بكر جيشاً ثالثاً قوامه سبعة آلاف جندي بقيادة أبي عبيدة بن الجراح الى حمص، وحدد له طريق الجابية، وهو طريق الحج والتجارة الذي يربط المدينة بدمشق، أما الجيش الرابع فكان بقيادة عمرو بن العاص، وقوامه تسعة آلاف مقاتل، ووجهه الخليفة الى العربة بأرض فلسطين، وعين له طريق أيلة رأساً الى فلسطين(٩٦).

---

٩٥. ابن خياط: تاريخه، ص ١٠٤؛ المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ٢٨٦.

٩٦. الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٣٨٧ و ٤١١ و ٤٢٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٩٣ و ٩٤ و ٩٥. وذكر البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٦، أن عقد هذه الألوية كان يوم الخميس أول صفر ١٣ هـ (٥ مايو ٦٣٤م).

وزود قواته بنصائحه في الاغارة على العدو لاقلاقه، وعدم التوغل في أرضه حتى لا ينقض عليه العدو من الخلف. كما أمرهم بعدم قتل الأطفال والشيوخ والنساء. ويدل هذا على بعد نظر أبي بكر في وضع خطة الفتوحات وتكتيكاتها، وأسلوب مقاتلة العدو، مما يبين استيعابه الواضح للفنون العسكرية، فضلاً عن تحليه بالجانب الانساني(٩٧).

وفي تلك الأثناء استدعى أبو بكر قائده خالد بن الوليد من العراق، وأمره بالتوجه هو ونصف القوات التي تحت امرته وعددها حوالي تسعة آلاف، الى الشام، وجعل أمارة الجيوش كلها في الشام اليه، لحنكته وخبرته في فنون الحرب والقتال التي تكشفت أثناء انتصاراته على الفرس في العراق. وبدأ مسيرته في شهر ربيع الآخر ١٣هـ (يونيو ٦٣٤م). وكان عليه اختيار طريق وعرة مقفرة جدباء حتى ينزل خلف الجيش البيزنطي و يتمكن من نجدة الجيش الاسلامي، وحتى لا يقطع البيزنطيون الطريق بينه وبين بقية الجيوش الاسلامية(٩٨). وبمساعدة دليل يسمى رافع بن عميرة الطائي، تمكن خالد من اختراق تلك القفار ماراً بعدة مواقع الى أن بلغ بصرى ثغر الشام الشرقي. وكان جانب من جند المسلمين قد سبقه اليها، ومن بينهم شرحبيل وقواته. وبدأ المسلمون في ضرب الحصار حولها. وقد صمدت المدينة في البداية لقوة دفاعاتها وتحصيناتها، ولصمود البيزنطيين، ودفاع أهلها عنها. ولكنها اضطرت آخر الأمر الى طلب الصلح حقناً للدماء، فأجابهم خالد اليه مقابل دفع الجزية(٩٩).

حملة أسامة بن زيد الى البلقاء وأذرعات والداروم (آخر ربيع الأول ١١هـ/ الخميس ٢٠ يونيو ٦٣٢م):

كنا قد ذكرنا أنه في صفر ١١هـ (مايو ٦٣٢م) كان الرسول (ص) قبل انتقاله

= راجع أيضاً ابن بطريق (ت٣٢٨هـ/٩٣٩ـ ٩٤٠م): كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٩، ص٩.

٩٧. ابن بطريق: كتاب التاريخ المجموع، ص٩.

٩٨. فيما يتعلق بنشاط خالد بن الوليد في مشارف الشام بعد تركه العراق، انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٧ و١١٨ و١١٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج١٩، ص١١٦ و١١٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٣٥٠ـ ٣٥٢؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٧٩.

٩٩. الواقدي: فتوح الشام، ج١، ص١٩؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٠؛ ابن خياط؛ تاريخه، ص١٠٣.

الى جوار ربه، قد جهز حملة بقيادة اسامة بن زيد الى مشارف الشام بعد تركه العراق، انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٧ و ١١٨ و ١١٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١١٦ و ١١٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٦، ص ٣٥٠ـ ٣٥٢؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ٢٧٩.

.٩٩

الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص ١٩؛ البلاذري: فتوح

وقعة أجنادين (١٨ جمادى الأولى ١٣ هـ/ ٢٠ يوليو ٦٣٤م):

واصل خالد بن الوليد وجيوشه سيرهم من بصرى الى العربة بفلسطين، ومنها الى اجنادين، تلك البلدة الواقعة بين الرملة و بيت جبرين من أرض فلسطين. وكانت قوات ضخمة من الجيش البيزنطي قد نزلت عليها بلغ عددها مائة ألف مقاتل، وتحصنت بداخلها. هذا، بينما بلغت جيوش المسلمين حوالي عشرين ألفاً وقيل ثلاثين ألفاً. وقد يكون في اعداد الجيشين بعض المبالغة، الا أنها تدل على كثافة قوات الفريقين في المعركة.

على أي حال، قام خالد بتنظيم قواته، وأخذ يتنقل بينهم موجهاً اليهم النصح والمشورة، مطالباً اياهم بعدم التعجل في انهاء القتال، هادفاً انهاك قوى العدو، واطالة فترة القتال قدر الاستطاعة. وقد نجحت الخطة، وأثمرت بالحاق هزيمة شديدة بالجيش البيزنطي الذي ذهبت أعداد كبيرة منه بين قتيل وأسير وجريح. أما من تبقوا على قيد الحياة بعد المعركة، فقد ولوا هاربين الى القدس ودمشق وقيسارية للنجاة بأنفسهم. ووصلت أخبار الهزيمة الى الامبراطور البيزنطي، وكان وقتها مقيماً في القدس يتابع المعركة، فتركها الى حمص ليواصل منها القتال ضد المسلمين. وأرسل خالد بن الوليد بالبشرى الى الخليفة أبي بكر، وهو على فراش الموت. وقد استمرت موقعة أجنادين طوال يوم ١٨ جمادى الأولى ١٣ هـ (٢٠ يوليو ٦٣٤م) (١٠٠).

---

١٠٠. البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٠؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١٢٠ و ١٦٩ ــ ١٧٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٥٤ ــ ٥٥. وفيما يتعلق بالاختلاف حول تاريخ يوم أجنادين، أنظر البلاذري: نفس المصدر، ص ١٢١. وذكر ابن خياط أن الوقعة كانت يوم الجمعة ٢٧ جمادى الأولى ١٣ هـ (٢٩ يوليو ٦٣٤م) =

فتح فحل (٢٨ ذي القعدة ١٣هـ/٢٣ يناير ٦٣٥م) ومرج الصفر (المحرم ١٤هـ/ مارس ٦٣٥م):

تولى الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصديق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١٣ــ ٢٣هـ/٦٣٤ــ ٦٤٤م)، وكان قد عقد العزم على اتمام فتوح الشام. وكانت أول خطوة أقدم عليها هي عزل خالد بن الوليد عن امارة جيوش الشام، وأحل محله أبا عبيدة بن الجراح ليكون قائداً على الشام كله[١٠١]. وقد اختلفت آراء المؤرخين القدامى حول تحديد وقت عزل خالد، وعما اذا كان ذلك أثناء مسير الجيوش الاسلامية الى دمشق، أم أثناء حصارها لها، أم بعد فتحها. كذلك ثار الخلاف بين اولئك المؤرخين حول أسباب تنحية عمر له، وعما اذا كان ذلك لخشيته منه، أم لسعيه في تولي علي بن أبي طالب بعد وفاة الرسول (ص)، أم لغير هذا وذاك من الأسباب[١٠٢].

ومهما قيل في هذا الشأن، فقد سار أبو عبيدة وجنده حتى بلغوا مرج الصفر، وهو موضع بين دمشق والجولان، بينما تجمع الجيش البيزنطي في منطقة فحل بأرض الأردن، وهرقل آنذاك مقيم بحمص التي جعلها مركزاً حربياً لجيوشه، ومنها كان يبعث بالمدد الى أهل دمشق. وبعث أبو عبيدة الى الخليفة عمر يسأله بأيهما يبدأ: بدمشق أم بفحل. وكان رد أمير المؤمنين يدل على المام بالخدع والتكتيكات الحربية، اذ أشار على قائده بمناوئة العدو بقسم من الجيش ليشغله عنه، بينما يتجه هو الى جهة أخرى بمعظم الجيش لفتحها.

وتنفيذاً لتعليمات عمر بن الخطاب، بعث أبو عبيدة بعشرة من قواده مع كل قائد ألف جندي، والقائد الأعلى لهم شرحبيل بن حسنة، ووجههم الى فحل حيث تجمعت بها القوات البيزنطية. ودارت بين الجانبين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين ودخولهم فحل. هذا، بينما لحقت بالبيزنطيين هزيمة قاسية، وذهب الآلاف

= أنظر تاريخ ابن خياط، ص١٠٣. و يلاحظ أن ابن الأثير أورد وقعة أجنادين بعد وقعة اليرموك. انظر الكامل، جـ٢، ص ٢٨٦ــ ٢٨٧.

١٠١. الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص٥٨؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٣؛ الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٤٣٤ وما يليها و ٦٢٣ وج ٤، ص ٣٩ و ٦٦ وما يليها؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٦.

١٠٢. أحمد الشامي (دكتور): الخلفاء الراشدون، ط. أولى، القاهرة ١٩٨٢، ص٢٠٦ــ ٢٠٨.

منهم بين قتيل وجريح، واسرعت فلولهم الباقية بالهرب الى دمشق. وكان هذا النصر يوم الاثنين ٢٨ ذي القعدة ١٣ هـ (٢٣ يناير ٦٣٥م)، بعد حصار دام قرابة أربعة أشهر(١٠٣).

ومن فحل واصل المسلمون طريقهم الى مرج الصفر التي بلغوها في المحرم ١٤ هـ (مارس ٦٣٥م). وتمكنوا بعد قتال عنيف من فتحها، وبذلك أصبح الطريق ممهداً أمامهم لفتح دمشق(١٠٤).

فتح دمشق (١٥ رجل ١٤ هـ/ ٤ سبتمبر ٦٣٥م):

كانت خطة أبي عبيدة بن الجراح أن يبعث الى دمشق بجيوشه لحصارها وتطويقها من كل جانب. فأرسل فرقة ذي الكلاع الحميري نزلت دمشق من جهة حمص لمنع المدد الذي كان هرقل يرسله اليها، ولقطع الاتصال بينها وبين القيادة البيزنطية في حمص، وبذلك يسد عليها الطريق المؤدي الى فلسطين. كما بعث بفرقة ثانية بقيادة علقمة بن كليم لتطويق المدينة من الجهة الأخرى. أما الجيش الرئيسي بقيادة أبي عبيدة ومعه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، فقد نزل على دمشق من ثلاث جهات. وتم ضرب الحصار حولها، الذي اختلف المؤرخون القدامى في مدته. فمن قائل أنه سبعين يوماً، ويرى فريق آخر أنه امتد أربعة أشهر، بينما يرى فريق ثالث أنه استمر ستة أشهر. وبينما المدينة محاصرة، كان هرقل يتابع الموقف من حمص. واشتد القتال بين الطرفين الذي راح ضحيته الآلاف من الجانبين. وقد اختلفت الآراء حول فتحها، وعما اذا كان ذلك عنوة أم صلحاً. والسبب في ذلك أن خالد وبعض قواته اقتحموا باب الحصن عنوة، بينما تم فتح بقية الأبواب صلحاً. وبعد التداول بين القادة المسلمين،

١٠٣. البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١٥٩ — ١٦٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٥ — ٢٦. وذكر ابن خياط في تاريخه، ص ١١٢ — ١١٣، ان الوقعة كانت يوم السبت ٢١ ذي الحجة ١٤ هـ (٥ فبراير ٦٣٦م) مما لا يتفق وتسلسل الأحداث. والتناقض واضح في روايته، اذ ذكر في نهايتها أن حصارها دام أربعة أشهر هي رجب وشعبان ورمضان وشوال وان الصلح تم في ذي القعدة دون أن يحدد السنة.

١٠٤. البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٥ — ١٢٦. وذكر ابن خياط: تاريخه، ص ١٠٤، ان الوقعة كانت يوم الخميس ١٩ جمادى الأولى ١٣ هـ (٢٠ يوليو ٦٣٤م)، مما لا يتفق مع تسلسل الأحداث.

اتفق على اعتبار فتح دمشق صلحاً. وكان ذلك في ١٥ رجب ١٤هـ (٤ سبتمبر ٦٣٥م)(١٠٥).

فتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وتدمر وحوران وبيسان وطبرية:

بعد سقوط دمشق أدركت مدن الساحل الشامي والمدن الداخلية أنها واقعة لا محالة في قبضة المسلمين. فتمكن يزيد بن أبي سفيان ومعه جنده من فتح مدن الساحل وهي صيدا وعرقة وجبيل وبيروت. هذا، بينما تمكن دحية بن خليفة الكلبي من فتح تدمر. وفتح أبو الزهراء القشيري حوران وما جاورها. وكان الصلح بين هذه البلاد وبين المسلمين على نفس شروط صلح دمشق(١٠٦).

وواصلت الجيوش الاسلامية تقدمها وانتصاراتها. فوجه أبو عبيدة بن الجراح قسماً من الجيش بقيادة شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص الى بيسان. وبعد قتال شديد تمكنا من فتحها صلحاً على شروط دمشق، وذلك بناء على طلب أهلها. أما أبو الأعور فقد نزل بجنوده على طبرية، فطلب أهلها هم ايضاً الصلح على نفس شروط دمشق. وبعث عمرو بن العاص بالبشرى الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وبذلك تم صلح الأردن(١٠٧).

فتح حمص وقنسرين:

خلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان، وعلى الأردن شرحبيل بن حسنة، وعلى فلسطين عمرو بن العاص. ثم خرج بالجيوش قاصداً حمص. وعندما علم

---

١٠٥. البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٧ — ١٣١؛ الطبري: تاريخه، ج٣، ص٥٤٢ — ٥٤٣؛ ابن بطريق: كتاب التاريخ المجموع، ص١٤ — ١٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٩ — ٢٥؛ النويري: نهاية الأرب، ج١٩، ص١٥٥ — ١٥٦. ويلاحظ أن النويري لم يحدد تاريخ فتحها، ومصدره هو «الكامل في التاريخ» لابن الأثير. وفي صفحة ١٦٠ ذكر انها فتحت في رجب سنة ١٤ دون أن يحدد اليوم. وكان ابن خياط: تاريخه، ص١١٢، أكثر تحديداً عندما ذكر أن الصلح تم يوم الأحد ١٥ رجب ١٤هـ (٤ سبتمبر ٦٣٥م).

١٠٦. الواقدي: فتوح الشام، ج١، ص٢٠ و٤٨ — ٥٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٢ — ١٣٣.

١٠٧. البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٣؛ الطبري: تاريخه، ج٣، ص٦٠٥ وما يليها؛ النويري: نهاية الأرب، ج١٩، ص١٦١. ويلاحظ أنه لم يذكر تاريخ فتح كل منهما، ومصدره هو الكامل لابن الأثير.

هرقل بذلك، وجه حشوداً هائلة من الجند المرتزقة للدفاع عنها. ومحاولة منه لتشتيت جموع المسلمين، اتجه جانب من قواته لمهاجمة دمشق. فبادر أبو عبيدة بارسال جيش بقيادة خالد بن الوليد للتصدي للقوات البيزنطية. وتمكن يزيد من داخل دمشق وخالد من خارجها من الإطباق على القوات البيزنطية والقضاء عليها. وقفل خالد عائداً بقواته الى أبو عبيدة.

واصل أبو عبيدة وخالد بالجيوش الاسلامية الطريق الى حمص التي بلغوها سنة ١٥ هـ (٦٣٦ــ ٦٣٧م)، وضربوا الحصار حولها. وكان الوقت شتاء والبرودة شديدة، فتحمل المسلمون قسوة الشتاء. وبعد انتهاء فصل الشتاء، لجأ خالد بن الوليد الى حيلة ماكرة، وهي الانسحاب من أمام أسوار المدينة والتظاهر بالهزيمة، حتى يبتعد البيزنطيون عن الأسوار و ينزلوا من الحصن. حينئذ ينقض المسلمون عليهم و يلحقون بهم هزيمة شديدة. ووافق أبو عبيدة على الخطة، ودار قتال عنيف بين الفريقين انتهى بهزيمة شديدة للقوات البيزنطية. فاضطرت المدينة الى طلب الصلح على شروط دمشق مع دفع الجزية. وزاد أبو عبيدة شرطاً على أهلها هو عدم بناء كنائس جديدة لهم. وكتب أبو عبيدة الى الخليفة عمر بذلك، فوافقه عليه(١٠٨).

بعد ذلك أرسل أبو عبيدة خالد وجنوده الى قنسرين على مقربة من حلب. ولما صاروا بالقرب منها دار قتال شديد بينهم و بين القوات البيزنطية انتهى بالقضاء على معظمها وقتل قائدها. هذا، بينما تقدم خالد نحو قنسرين وأهلها متحصنون بداخلها. ولما أيقنوا أنهم هالكون، طلبوا الصلح على شروط حمص مع دفع الجزية. واشترط خالد عليهم تخريب حصنهم حتى لا يتحصنوا بداخله مرة أخرى ضد المسلمين، فقبلوا ذلك(١٠٩).

١٠٨. الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص ٦٨ــ ٦٩ و ٩١ وما يليها؛ ابن خياط: تاريخه، ص ١١٧، البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٦ــ ١٣٧؛ الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٥٩٩ــ ٦٠١؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧، ص ٥٢.

١٠٩. الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص ٧٠ــ ٧٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٠؛ الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٦٠١ــ ٦٠٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٥٢ــ ٥٣؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١٦٤ــ ١٦٥. و يلاحظ أن النويري لم يحدد تاريخاً لفتحها، ومصدره الكامل لابن الأثير.

فتح بعلبك وحماه وشيزر واللاذقية وجبلة وبانياس وأنطرطوس:

بعد هذه الانتصارات الساحقة المتلاحقة التي أحرزها الفاتحون المسلمون في الشام، تأكد هرقل من ضياع ملكه في هذا الاقليم الحيوي من الامبراطورية، وكان مقيماً في أنطاكية ومعه العرب المتنصرة. هذا، بينما انهارت تماماً قوى المقاتلين البيزنطيين، وانهارت معنوياتهم في بقية البلدان التي كانت لا تزال بأيديهم، وقد سقطت تباعاً في أيدي أبي عبيدة وخالد. وعلى هذا تم فتح بعلبك بعد أن طلب أهلها الصلح ووافقهم أبو عبيدة على ذلك، مع تعهدهم بدفع الجزية. بعدها استسلمت حماة صلحاً بعد تعهد أهلها بدفع الجزية والخراج. وهكذا فتحت شيزر من أعمال حمص، ومعرة حمص، واللاذقية من أعمال حلب، وجبلة وهي قلعة بساحل الشام من أعمال حلب أيضاً، وبانياس، وأنطرطوس. وتم ترتيب من يتولى أمر هذه المدن والمعاقل والحصون ومن يقوم بحراستها والدفاع عنها. ثم توجه أبو عبيدة بقواته المظفرة الى الجابية (١١٠).

موقعة اليرموك (٦ رجب ١٥هـ/١٤ أغسطس ٦٣٦م):

تأتي بعد ذلك آخر وأكبر المعارك أثناء حركة الفتوحات العربية الأولى، وهي معركة اليرموك. كان هرقل في أنطاكية آنذاك يراقب الموقف عن كثب، ويعمل على حشد الجند بكل الوسائل استعداداً للمعركة الفاصلة المرتقبة. وأرسل بحشود منها الى المدن التي لم تسقط بعد في قبضة المسلمين، وهي قيسارية وعكا وطبرية وبيت المقدس. كذلك انضم اليه جيش كبير من الأرمن بقيادة باهان الأرمني، وجعل قيادة الجيوش كلها اليه لكفاءته وخبرته القتالية. كما جعل في مقدمة الجيش بضعة آلاف من مستعربة الشام من الغساسنة ولخم وجذام، حتى يكون العرب المسلمون وجهاً لوجه أمام عرب الشام المستعربين.

وعندما علم أبو عبيدة بأنباء استعدادات هرقل، عقد مجلساً من كبار القادة

---

١١٠. الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص ٧٣ وما يليها؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٤ و ١٣٦ و ١٣٧ و ١٣٨ و ١٣٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١٦٢ وما يليها. وقد ذكر أنها فتحت سنة ١٥هـ، ومصدره هو الكامل لابن الأثير.

للتشاور في الأمر. ورأى خالد بن الوليد ترك الجابية القريبة من قيسارية، والتوجه الى اليرموك التي تمتاز بأرضها الفسيحة الواسعة، بحيث تسهل فوق ساحتها حرب الكر والفر التي يجيدها المسلمون، وحتى يمكن لأمير المؤمنين ارسال المدد اليهم تباعاً. وتمت الموافقة على هذا الرأي، واتخذت جيوش المسلمين طريقها الى اليرموك.

والحديث هنا يطول عن خطط الفريقين في القتال، وكيفية تنظيم الجيوش وترتيب مواقعها، والمعارك التي دارت بينهما التي ذهب ضحيتها الآلاف من كلا الطرفين، والتي أفاضت المصادر في ذكر تفاصيلها. ولكن الجديد في المعركة، ان النساء المسلمات شاركن فيها الى جانب الرجال مشاركة فعالة كان لها أثرها. ومما يذكر أن المعركة بدأت أول النهار في ٦ رجب ١٥ هـ (١٤ أغسطس ٦٣٦م)، وانتهت عندما أرخى الليل سدوله بهزيمة مروعة للبيزنطيين(١١١).

وجدير بالذكر أن المؤرخ الأرميني سبيوس، المعاصر لتلك الأحداث، زودنا برواية مفصلة لها دلالتها عن تلك المعركة الفاصلة التي قررت مصير الشام. يقول أن الجيش البيزنطي عبر نهر الأردن متسللاً الى بلاد العرب، تاركاً معسكره مكشوفاً على شاطىء النهر. وذهب أفراده للقاء العدو وهم مشاة. هذا، بينما تربص جانب من الجيش الاسلامي في كمائن متفرقة استعداداً للانقضاض على البيزنطيين. وقد أقام المسلمون خيامهم حول معسكرهم، ثم أحاطوا الخيام والمعسكر بالجمال بعد أن ربطوا أرجلها بالحبال. هذا، عن تحصينات وتكتيكات المسلمين. أما البيزنطيون، فقد كانت قواتهم منهوكة القوى بسبب سيرها لمسافات طويلة. وبالرغم من ذلك، فقد انقضت على المسلمين. حينئذ انطلق المسلمون من كمائنهم، وهاجموا القوات البيزنطية التي أصابها الهلع والاضطراب. وعندما أرادت الفرار للنجاة بنفسها، فشلت بسبب غزارة الرمال، لدرجة أن الجندي البيزنطي كان ينغرس فيها حتى ركبتيه، بينما المسلمون

---

١١١. الواقدي؛ فتوح الشام، ج ١، ص ١٠٢ وما يليها؛ ابن خياط : تاريخه ص ١١٨؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص ١٤٠ — ١٤٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٤ — ١٦؛ ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، ص ٢٨١ — ٢٨٤. هذا، والاختلاف كبير بين المؤرخين القدامى حول تاريخ هذه الموقعة. فمن قائل أنها حدثت سنة ١٣ هـ (٦٣٤ — ٦٣٥م)، ومن يرى أنها كانت سنة ١٥ هـ (٦٣٦م). انظر الطبري : تاريخه، ج ٣، ص ٥٧١ — ٥٧٢؛ ابن كثير: نفس المصدر والجزء، ص ١٦؛ النويري : نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١٢١ — ١٢٥ و ١٦٠.

يطاردون فلول الفارين. يضاف الى ذلك، أن البيزنطيين لم يتحملوا شمس الشرق المحرقة في مثل هذا الوقت من العام. وهكذا تساقطوا بين قتيل وجريح، ولم يفلت من المذبحة سوى عدد قليل(١١٢).

وتكشف رواية سبيوس أن المسلمين كانوا أمهر من البيزنطيين في اعداد الحيل والخدع والتكتيكات الحربية، وأنهم كانوا أعلم من أعدائهم بدروب المنطقة ومسالكها، وأكثر تحملاً لجوها الذي ألفوه.

فتح حلب واعزاز وانطاكية ونابلس وسبسطية واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون وعكا وعسقلان وقيسارية:

بعد هذه الضربة القاصمة التي تلقاها الجند البيزنطيون في اليرموك، واصل أبو عبيدة ورجاله تقدمهم حتى بلغوا حلب، وكانت من أعمال قنسرين. وقد قاومت في بداية الأمر، ولكن أهلها طلبوا من أبي عبيدة الصلح والأمان، فوافقهم على أن تكون شروط الصلح والجزية كشروط حمص. كما تمت الموافقة على تخريب حصن المدينة. ومن حلب اتجهت جيوش المسلمين الى أنطاكية مركز تجمع الجيوش البيزنطية، وحامية ظهر بيزنطة وعاصمتها في الشام. وفي الطريق اليها تم فتح اعزاز بدون قتال. وما أن بلغ المسلمون أنطاكية حتى ضربوا الحصار حولها. وانتهى أمرها بطلب الصلح، والإقرار بالجزية. ووافق أبو عبيدة على ذلك، ودخلها المسلمون الفاتحون(١١٣).

كانت السن تتقدم بهرقل، والعلل تتسرب الى جسده، والحسرة تملأ قلبه. وكان سقوط أنطاكية بمثابة ضربة قاضية بالنسبه له. وكان وقتها مقيماً في الرها، فتركها متوجهاً الى عاصمة ملكة القسطنطينية، وقد أدرك فعلاً ضياع ملكه في الشام. وربما يكون قد عاد بذاكرته الى الوراء، ليرى مظاهر التمزق الديني الذي عانت منه الشام الأمرين،

---

١١٢. Sébêos, Op. cit., p. 971; cf. Ghévond, Op. cit., p. 3.

١١٣. الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص ١٦٦ وما يليها؛ ابن خياط: تاريخه، ص ١٢٤، ويحدد ابن خياط التاريخ بسنة ١٦ هـ (٦٣٧م)؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٢ ـ ١٥٣؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١٦٥ ـ ١٦٧. ويلاحظ أنه لم يذكر تاريخ فتحها، وسياق الحديث عنده يدل على أن ذلك كان في سنة ١٥ هـ (٦٣٦ ـ ٦٣٧م)، ومصدره هو الكامل لابن الأثير.

وآثار حروبه مع الفرس التي أوصلت الدولة الى حالة الخراب والإفلاس المادي والبشري. وربما يكون قد أدرك، أيضاً، أن ما يحدث امام ناظريه كان أمراً متوقعاً، وأن المسألة مسألة وقت فحسب.

ومهما يكن، فقد رأى المسلمون ــ تأميناً للفتوحات الإسلامية في الشام من الجبهة الشمالية ــ أن يبدوا فتوحاتهم لتشمل مدن الجزيرة. فتم فتح الكوفة صلحاً في منتصف شعبان ١٨ هـ (٢٠ أغسطس ٦٣٩م)، ومن بعدها الرها وحران وسميساط وبقية المدن مثل منبج وآمد وماردين. وقد طلبوا جميعاً بشروط الرها، وتمت الموافقة على ذلك. وفي سنة ١٩ هـ (٦٤٠م) واصل المسلمون فتوحاتهم في بلاد ما بين النهرين. فتم فتح ميافارقين، وكفر توثا، ونصيبين، وأرزق، ورأس العين، ودارا، ودرب الروم، وبدليس، وخلاط. وتم فتحها جميعاً صلحاً[١١٤].

كان طبيعياً أن تصبح بيت المقدس مركزاً لتجمعات القوات البيزنطية بعد أن فقدت بيزنطة معظم مواقعها في الشام، وأن تصبح ملاذاً للذين خرجوا من مدنهم التي فتحها المسلمون. هذا، بينما كانت الجيوش الإسلامية، تواصل فتوحاتها. فتم لعمرو ابن العاص فتح مدن فلسطين في وقت قصير. إذ تم صلحاً فتح نابلس، وسبسطية، واللد، وعمواس، وبيت جبرين، ويافا، ومرج عيون، وعكا، وعسقلان. وأقرت جميعها بالجزية والخراج. وكان ذلك في سنة ١٦ هـ (٦٣٧م)[١١٥]. وذلك باستثناء كل من الرملة وغزة اللتين حاصرهما علقمة بن مجزر. أما بالنسبة لقيسارية، الواقعة بين عكا ويافا على ساحل البحر، فقد توجه اليها معاوية بن أبي سفيان وجنوده، وضربوا حولها الحصار، واشتعل قتال عنيف أحرز المسلمون فيه النصر على البيزنطيين، وتم لهم فتحها[١١٦].

١١٤. الطبري: تاريخه، ج ٤، ص ٥٣ وما يليها.

١١٥. البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٤؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١٦٩ــ ١٧٠. ويلاحظ أنه لم يحدد تواريخ الفتح، ومصدره هو الكامل لابن الأثير.

١١٦. البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٥ــ ١٤٧؛ الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٦٠٣ــ ٦٠٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٥٣ــ ٥٤؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١٦٨. وقد ثار الخلاف حول تاريخ فتح قيسارية أنظر البلاذري: نفس المصدر، ص ١٤٨؛ ابن خياط: تاريخه، ص ١٣٤.

فتح بيت المقدس (ربيع الآخر ٦ هـ/مايو ٦٣٧م):

لم يتبق بعد ذلك سوى مدينة بيت المقدس. اذ ضرب عمرو بن العاص ورجاله الحصار حولها الذي استمر أربعة شهور لم ينقطع خلالها القتال الذي استخدم فيه البيزنطيون النشاب والمنجنيقات. وقد مني المسلمون بخسائر فادحة، وزاد من متاعبهم شدة البرد، فقد كان الوقت شتاءً. وحاول القائد البيزنطي اطالة أمد القتال لانهاك المسلمين والحاق الهزيمة بهم، أو على أحسن الفروض لإجبارهم على فك الحصار عن المدينة. وعندما طلب عمرو بن العاص من الخليفة عمر المدد، أرسل الى أبي عبيدة بن الجراح ليكون مدداً له. فتوجه بجيشه من الجابية الى البيت المقدس. وبدأت الروح المعنوية لجيش المسلمين في الإرتفاع، بينما تسلل الخوف الى قلوب أهل بيت المقدس. ووجدوا أن الآسلم هو تسليم المدينة وطلب الصلح على نفس الشروط التي عقد بها على أهالي المدن الأخرى التي فتحها المسلمون. ولكنهم خافوا تسليم المدينة الى عمرو بن العاص خشية الانتقام منهم للأضرار الشديدة التي ألحقوها بالمسلمين. وطالبوا بتسليمها الى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، وأن يتولى هو عقد الصلح معهم. وبينما الاتصالات جارية وصل أبو عبيدة الى بيت المقدس سنة ١٦ هـ (٦٣٧م)، فطلبوا منه أن يصالحهم بشروط أهل دمشق، وأن يكون الخليفة هو الذي يتسلم المدينة ويعقد معهم الصلح. فكتب أبو عبيدة وعمرو بن العاص الى عمر بذلك.

كان عمر آنذاك بالمدينة، فاستخلف عليها علي بن أبي طالب، وخرج قاصداً الجابية إحدى قرى حوران. وطلب من أمراء الأجناد أن يوافوه في الجابية بعد أن يستخلفوا على أعمالهم من ينوبون عنهم في فترة تغيبهم. وفي الجابية بدأت مشاورات الخليفة مع أمراء جيوشه. وفي تلك الأثناء وصلته وفود أهل بيت المقدس طالبة الامان والصلح على يديه. فوافقهم وكتب لهم عهداً بذلك في ربيع الآخر ١٦ هـ (مايو ٥٣٧م)(١١٧). ووصل الخليفة عمر ومعه المسلمون مدينة بيت المقدس حيث أقام بها

---

١١٧. البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٤ــ ١٤٥؛ الطبري: تاريخه، ج ٣، ص ٦٠٧ــ ٦١٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٥٥ــ ٦٠. انظر نص كتاب عمر بن الخطاب الى أهل بيت المقدس في ابن بطريق: كتاب التاريخ المجموع، ص ١٧. وفيما يتعلق بالاختلاف حول تاريخ فتح بيت المقدس انظر النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١٧١ــ ١٧٣، ومصدره هو الكامل لابن الأثير؛ الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص ١٥٤ وما يليها. انظر أيضاً: Theophanes, Chronographia, I, p. 699.

بعض الوقت، ثم قفل عائداً الى الجابية لاستكمال مشاوراته مع أمراء الجيوش في مختلف شؤون المسلمين، وما يتعلق بنظم الدولة الإسلامية التي برزت على مسرح الأحداث، والتي اتسعت رقعتها اتساعاً هائلاً في عهده.

و يلخص جيفوند ذلك كله بقوله أنه بعد فتح بيت المقدس أصبح المسلمون سادة على فلسطين و بلاد الشام(١١٨). بينما يعلق أحد المؤرخين الغربيين على تلك الأحداث بقوله بأن الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية، وعلى رأسها الشام وفلسطين، استسلمت للفاتحين بسهولة تدعو الى السخرية(١١٩).

لا شك أن سقوط بيت المقدس يعتبر من الأحداث الفاصلة في الحرب بين المسلمين والبيزنطيين. وكان الامبراطور هرقل في ذلك الحين قد جاوز الستين من عمره، و بدأت صحته في التدهور، واشتد عليه المرض الذي اضطره الى الاقامة في عاصمته، بينما أوفد ابنه الأكبر قسطنطين الثالث (٦٤١م) إلى ميدان للقتال لاسترداده شمال الشام. لكنه لقي هزيمة شديدة سنة ٦٣٨م.

وتمثل موقعة اليرموك وفتح بيت المقدس أقصى اتساع للفتوحات الاسلامية المبكرة. اذ لاحقت المشاكل الداخلية الدولة الاسلامية الناشئة في عهد الخليفة عثمان ابن عفان (٢٣ــ ٣٥هـ/٦٤٤ــ ٦٥٦م)، وتفاقمت بعد مقتله بسبب الفتنة الكبرى التي أدت الى قيام حرب أهلية بين المسلمين زمن رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب (٣٥ــ ٤٠هـ/٦٥٦ــ ٦٦١م)، ونتج عن ذلك توقف وقتي للفتوح. وقد خرج من هذا الصراع منتصراً القائد السياسي المحنك معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية التي استعاد المجتمع الاسلامي في عهدها استقراره الداخلي، واستأنفت الجيوش الاسلامية في ظل هذا الاستقرار فتوحاتها المظفرة.

الخلاصة المستفادة من الصراع الاسلامي البيزنطي في الشام:

لعلنا نخلص من كل ما تقدم أن قوة جديدة ظهرت خلال العقود الأولى من القرن السابع الميلادي (السنوات الأولى من القرن الأول الهجري)، لتؤدي دورها على

١١٨. Ghévond, Op.cit., p. 4.

١١٩. Sullivan, Op. cit, p. 30.

مسرح الأحداث، هي الدولة العربية الاسلامية الفتية الناشئة، التي أحرزت انتصارات سريعة مذهلة في سنوات قلائل، على حساب جارتها الدولة البيزنطية التي كانت تعاني وقتها من عوامل الضعف والإنحلال، بينما كان الغرب الجرماني يعيش في عصر الظلام.

وما يستلفت النظر أن الدولة البيزنطية، بتراثها العتيد، وارثها الذي ورثته عن الامبراطورية الرومانية القديمة، وقفت عاجزة عن الدفاع عن اقليم الشام، وصد الجيوش الاسلامية المحاربة. لقد كانت القوات البيزنطية من الجند المرتزقة، على الرغم من كثرة عددها، ضعيفة منهوكة القوى، ليس هناك مبدأ أو هدف يجمع بينها. بينما قام المسلمون بفتوحاتهم قومة رجل واحد، نشراً للإسلام وتأميناً له. كما لمعت بين حكامهم وقادتهم اسماء لرجال شجعان محاربين على معرفة تامة بفنون الحرب وأساليب القتال. والنماذج عديدة نسوق بعضها على سبيل المثال. نضرب مثلاً لذلك بموقف الخليفة أبي بكر عندما أصر على انفاذ حملة اسامة عقب توليه الخلافة، وهي التي كانت قد توقفت بعد وفاة رسول الله (ص) وكان هدفه أن يعلن للبيزنطيين والمستعربة أن الفتوح لن تتوقف، والا يستهينوا بقوة الدولة الإسلامية الناشئة. وهذا دليل على ما كان يتمتع به أول الخلفاء الراشدين من اجادة لفن المناورة السياسية والحربية. ثم ان اصراره على مواصلة فتوحات الشام يدل على أن تلك الفتوحات ــ حسبما أسلفنا ــ لم تكن عفوية أو مصادفة، انما أعدت ونفذت وتمت نتيجة خطط مرسومة وتدابير محكمة. اذ كان أبو بكر، ومن بعده عمر بن الخطاب، يدعوان ــ كلما دعت الضرورة ــ الى عقد مجلس شورى من كبار رجال الصحابة والقادة للبحث والمناقشة في أمر «جهاد الروم بأرض الشام». وقد يدور النقاش حول خطة للاستيلاء على مدينة ما، أو الطريق الذي تسلكه الجيوش الاسلامية للوصول الى هدف مرسوم، أو عقد صلح، أو كيفية تنظيم القوات في معركة ما ضد العدو. ولذلك كانوا يصلون دائماً الى الرأي الأصوب والأفضل. و يعزز هذا سير مجرى الأحداث منذ العهد النبوي.

واذا أمعنا النظر في النصائح التي كان يوجهها أبو بكر الى أمرائه وجيوشه قبل ذهابهم لقتال البيزنطيين، سوف نجد أنها تتضمن العديد من التعليمات والتوجيهات

التي يمكن اعتبارها نواة أولى للنظم والقوانين التي استنت فيما بعد كي تتعامل بموجبها الجيوش المتحاربة. والى جانب ذلك امتاز ببعد نظره، وثاقب بصيرته، واجادته لفن التكتيك الحربي. مثال ذلك عندما أرسل أربعة جيوش لفتح الشام، خرجت من المدينة في طرق متباعدة حددها هو لهم، لتكون بمثابة رؤوس حراب تحيط بالعدو وتطوقه من كل جانب. وقد أثمرت هذه الخطة وحققت النتيجة المرجوه منها.

يضاف الى ما تقدم بروز قادة محنكين أثناء فتوحات الشام، منهم ــ على سبيل المثال ــ خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. ولهما مواقف عديدة تكشف عن عبقرية قتالية فذة. آية ذلك عندما طالب خالد بن الوليد قواته أثناء موقعة أجنادين باطالة مدة القتال مع البيزنطيين لإنهاك قواهم حتى يسهل الانقضاض عليهم والحاق الهزيمة بهم. كذلك أجاد المسلمون الأوائل فن التكتيك والاستراتيجية العسكرية. يكشف عن ذلك موقف للخليفة عمر بن الخطاب. ذلك أنه أثناء فتوح الشام بلغ أبو عبيدة بن الجراح وجيشه مرج الصفر، بينما كانت القوات البيزنطية وقتها متمركزة في فحل، والامبراطور هرقل مقيماً بحمص يتابع سير المعركة. وعندما طلب قائد الجيش الإسلامي رأي أمير المؤمنين، كان رده واضحاً وهو مناقشة العدو بجزء من الجيش لشغله عنه، بينما يتم الهجوم بمعظم الجيش على جهة أخرى. كذلك كان من استراتيجية عمر بن الخطاب شغل البيزنطيين في عدة جبهات في آن واحد، بتوجيه جيوشه الى بعض المدن التي كانت لا تزال في قبضتهم، وبذلك يحول بينهم وبين نجدة الهدف الذي يستعد المسلمون لفتحه. حدث هذا بعد فتح المسلمين لحلب واعزاز وانطاكية عندما طلب أمير المؤمنين توجيه بعض الجيوش الإسلامية الى الرملة وغزة وقيسارية وكانت لا تزال تحت الحكم البيزنطي، ليشغل بيزنطة عن نجدة مدينة بين المقدس التي كان يستعد لفتحها.

يضاف الى ما تقدم، اجادة المسلمين لحرب الكر والفر، واستخدام عنصر المفاجأة في الحرب، وخفة الحركة، الى جانب قوة الاحتمال. وهذه وغيرها أمور لا يمكن إغفالها عند تقييم الصراع الإسلامي البيزنطي في الشام في هذه الفترة المبكرة، في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصر الوسيط، وهو ما سنتناوله بالدراسة والتحليل في العنصر الثالث والأخير من هذا البحث.

الصراع الاسلامي البيزنطي في الشام وتخومها في صدر الاسلام في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى

بعد أن استعرضنا الغزوات والسرايا والبعوث الموجهة الى أعالي الشام في العهد النبوي وما تكشف عنها من دلالات، والاحتكاك العسكري المباشر بين المسلمين والبيزنطيين في الشام زمن الخلفاء الراشدين حتى موقعة اليرموك وفتح بيت المقدس وما تمخض عنه من نتائج ــ يأتي دور تحديد مكان هذا الاحتكاك في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى.

من المعروف ــ بداءة ــ أن التاريخ عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والأحداث المتراصة المترابطة المتماسكة، التي لا يمكن تفتيتها أو تجزئتها أو فصلها عن بعضها، وأن أي تقسيم لها يعتبر تفتيتاً لأحداث التاريخ. ومن المعروف، أيضاً، أن كل حلقة منها عبارة عن فترة تغير وانتقال من السابق الى اللاحق. ومن المعروف، كذلك، أنه في غمرة هذا الإنسياب لأحداث التاريخ، قام الصراع العنيف بين شقي العالم خلال عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث، بل وفي عصر ما قبل التاريخ. وهو، دائماً، صراع بين قوتين كبيرتين وحضارتين مختلفتين، كل منهما تحاول أن تفرض نفسها على الأخرى، فاذا تعادلت القوتان، سياسياً وحضارياً، كان هذا يعني اعتدال ميزان القوى في الصراع بينهما، بحيث لا يمكن لأي منهما أن تحرز تفوقاً أو نصراً حاسماً على الأخرى. بل تقفان وجهاً لوجه في فترة تربص واستطلاع وجس نبض. وهذا ما نسميه باعتدال كفتي الميزان في الصراع بينهما. و يستمر الوضع على هذا الحال الى أن يتغير توازن القوى، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتغير الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها لدى كل منهما. فاذا رجحت إحدى القوتين على الأخرى، بادرت ــ عادة ــ باتخاذ سياسة الهجوم وتوجيه الضربة الأولى، بينما تلتزم الأخرى بسياسة الدفاع عن نفسها وعن كيانها بوجه عام. وعادة ما يحرز الأقوى النصر على الأضعف. والعكس صحيح، إذ ما تفوقت القوة الثانية على الأولى، تبادر باتخاذ سياسة الهجوم، ويميل مركز الثقل إلى جانبها، بينما تلتزم الأخرى بسياسة الدفاع، و يرتبط هذا التغير في توازن القوى صعوداً وهبوطاً ــ إلى حد بعيد ــ بالأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية

السائدة في وقت ما كما ذكرنا. ثم أن موازين القوى ومراكز الثقل هذه ترتبط، هي الأخرى، ببعض المفاهيم الهامة، وفي مقدمتها الأفعال وردود الأفعال، والأسباب والمسببات، والنتائج والخواتيم. بمعنى أن لكل فعل رد فعل، ولكل نتيجة سبب. فاذا بدأ الأقوى بتوجيه الضربة الأولى التي يتقبلها الأضعف مستسلماً، فإن هذا الأخير ينتهز الفرصة المواتية التي تتيح له إعادة التوازن ورجحان كفته ليوجه الضربة المضادة إلى خصمه، وهكذا.

من هذا المفهوم، بدأ الصراع منذ أقدم العصور بحروب طروادة التي خلدها الشاعر هوميروس في أشعاره المعروفة باسم «الألياذة والأوديسية». ثم قامت الحروب الميدية بين الفرس والإغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد، التي انتهت بسيادة الاسكندر المقدوني على أكثر بقاع العالم وقتذاك، وما استتبع ذلك من فرض الحضارة الهيلينية عليها بعد قضائه على دولة الفرس التي أصبحت عاصمتهم المدائن إحدى الولايات الداخلة في نطاق الامبراطورية الجديدة. وأعقب ذلك ظهور الرومان على مسرح الأحداث، وتوسعهم في الشرق، وانتزاعهم السلطة من الإغريق بعد معارك عنيفة حملت روما بعدها لواء الكفاح في الغرب، وورثت الاغريق سلطانهم ونظمهم وحضارتهم. وتظل روما عاصمة لدولة شامخة حتى أخريات القرن الخامس الميلادي عندما نزل الجرمان البرابرة في جوفها، وقضوا عليها وعلى معالمها، بعد أن أنهكتها الأزمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وأقاموا على أنقاضها دولاً جديدة ذات أنظمة وحضارة جديدة مغايرة.

وهنا يطوي التاريخ احدى صفحاته، ليبدأ عصر جديد هو العصر الوسيط. ففي أوائل القرن الرابع الميلادي اعترف الامبراطور الروماني قسطنطين الكبير (٣٠٥ــ ٣٣٧م) بالديانة المسيحية التي أصبحت الدين الرسمي للدولة الرومانية، وبخاصة في القسم الشرقي منها الذي عرف باسم الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية أو دولة الروم كما كان يسميها المؤرخون العرب في مصادرهم، وعرف أهلها باسم الروم.

وأخذ الصراع منذ ذلك الحين يصطبغ بالصبغة الدينية. فقامت الحروب بين بلاد فارس والدولة البيزنطية، في وقت استعادت فيها الأولى قوتها وشهدت نهضة دينية كبيرة ارتبطت بالديانة الزرادشتية، بينما كانت الثانية تدين بالمسيحية. وكان من أثر ذلك استيلاء خسرو ملك الفرس على بيت المقدس والصليب الذي يعتقد المسيحيون أن المسيح

صلب عليه. وكان رد الفعل هو تلك الحروب المضادة التي قام بها الامبراطور البيزنطي هرقل سنة ٦٢٨م لاسترداد البيت المقدس وصليب الصلبوت من قبضة الفرس. وكانت نتيجة هذا الصراع الطويل المرير هي خروج المنتصر والمهزوم متهالكين[١٢٠].

وفي بدايات القرن السابع الميلادي، بينما كان الصراع بين البيزنطيين والفرس على أشده، ظهر الاسلام في شبه الجزيرة العربية، وبدأت الغزوات والسرايا عند تخوم الشام في عهد النبي (ص)، وأعقبتها حركة الفتوحات الاسلامية الكبرى في دورها الأول زمن الخلفاء الراشدين، والتي أسفرت عن فقدان الدولة البيزنطية لممتلكاتها في بلاد الشام، ودخول هذه الممتلكات في إطار الدولة العربية الفتية التي أخذت تتكون آنذاك.

ومنذ ذلك الحين، أي منذ ظهور الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي (القرن الأول الهجري)، وحتى نهاية العصور الوسطى في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري)، كان الصراع سجالاً بين المسلمين والمسيحيين. تسعمائة عام من الصراع الممتد المتصل، الدامي في معظم الأحيان والهادىء في بعض الأحايين، بين هاتين القوتين الكبيرتين، تبادلا فيها النصر والهزيمة، وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال في كلا العالمين الاسلامي والمسيحي[١٢١].

---

١٢٠. انظر الطبري: تاريخه، ج ٤، ص٢٦٧ وما يليها، و ٣٤٠ وما يليها و٤٢٧ وما يليها و٤٤٣ وما يليها وج ٥ ص ٥ وما يليها و ٩٤ وما يليها و١٣٣ وما يليها و ١٥٨ وما يليها؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص١١٦ وما يليها و ٢٢٣ وما يليها.

١٢١. أنظر عن ذلك:

Arnold, T. and Guillaume, A. (eds.), The Legacy of Islam, London, 1952, pp. 40-41; Atiya, A.S., Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962, pp. 19, 24 ff., 156 ff.; Grousset, R., The Sum of History, English Version by A. and H. Temple Patterson, Oxford, 1951, pp. 7-12.

راجع أيضاً توينبي (أ.): مختصر دراسة للتاريخ، ٢ جـ، ترجمة فؤاد محمد شبل، القاهرة ١٩٦٠ – ١٩٦١، ج ٢ (القاهرة ١٩٦١)، ص ٧٠ – ٧١؛ والحضارة في الميزان، ترجمة أمين محمود الشريف، القاهرة (بدون تاريخ) ص ١٩٢ – ١٩٥. كذلك استعرض رينية جروسيه في كتابه «امبراطورية شرقي البحر المتوسط: تاريخ المسألة الشرقية»، الصراع الطويل بين الشرق والغرب، مبيناً أن الحركة الصليبية لم تكن إلا دوراً من أدواره. وسرد وقائع هذه الصراع منذ حروب الاسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد حتى واقعة ليبانتو في أواخر القرن السادس عشر. ويخلص مما تقدم أن المسألة الشرقية ليست وليدة القرن السابع عشر، انما هي أبعد من ذلك بكثير.

و يعتبر الصراع الاسلامي البيزنطي في صدر الاسلام، والذي كان مسرحه بلاد الشام وتخومها، مرحلة هامة ودوراً أساسياً، من مراحل وأدوار الصراع الاسلامي المسيحي، وان بدا في كل مرحلة في ثوب مغاير، وان اتخذ شكلاً معيناً يتناسب والظروف الموضوعية القائمة وقتها. فهذا الصراع ـ باختصار ـ بمثابة حلقات متتابعة في سلسلة واحدة ممتدة عبر مئات من السنين، والأقوى فيه يوجه الضربة المؤثرة الى الأضعف، محاولاً احتواءه وفرض سيطرته وحضارته عليه.

واذا انتقلنا من التعميم الى التخصيص ووضعنا المفاهيم السابقة موضع التطبيق العملي، نقول أنه بظهور الإسلام و بداية حركة الفتوحات، ظهرت قوة جديدة على مسرح الأحداث ترتبط بالدين الجديد. وكانت توجد وقتذاك قوتان أخريان، الغرب الجرماني الذي قام على أنقاض الامبراطورية الرومانية القديمة في غرب أوروبا، والدولة البيزنطية أو دولة الروم التي قامت على أنقاضها في شرق أوروبا. هذا، بينما كانت دولة الفرس قد انتهى أمرها على أيدي المسلمين.

أما غرب أوروبا فكان يمر وقتذاك فيما عرف اصطلاحاً بفترة العصور المظلمة أو العصور الوسطى المبكرة. كان مسرحاً لغزوات الجرمان البرابرة الذين تمكنوا من القضاء على الدولة الرومانية، التي كانت قد أنهكتها الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية والعسكرية، وعلى نظمها وحضارتها ليقيموا على أنقاضها دولاً وممالك جديدة مغايرة. حدث هذا في وقت انتصرت فيه الديانة المسيحية على الوثنية وعبادة الأباطرة بعد صراع دام عنيف. وكان هذا يعني، بكلمة مختصرة، نهاية عصر بأنظمته وقوانينه وحضارته وتقاليده. لقد انهار ذلك الصرح الشامخ في السياسة والدين والاجتماع، والاقتصاد والفلسفة والقانون والفكر الذي كان سائداً عند الرومان القدماء، لتحل محله أمم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الأدبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها. وترتب على ذلك أن وجدت في الغرب حالة واضحة من الفوضى والاضطراب في شتى مناحي الحياة ومختلف أفرع المعرفة الانسانية خلال القرون الأولى

= انظر

Grousset, R., L'Empire du Levant: Histoire de la Question d'Orient, Paris, 1949, pp. 21 ff., 46 ff, 67 ff., 186 ff.

من العصر الوسيط، حتى ان كثيراً من المؤرخين الغربيين الحديثين المشتغلين في هذا الميدان نظروا إليها على أنها فترة جمود و برودة، ليس فيها أي خير للبشرية، وليس فيها من نور العلم والمعرفة شيء يذكر. وعاش الفرد في الغرب أسير هذه الظروف، داخل هذه الدائرة الضيقة المحدودة للأمور في نطاق المسيحية وفلسفتها وتعاليم الكنيسة اللاتينية وقيودها. وشغل حياته بالكفاح من أجل كسب القوت اليومي فحسب، وكفاه في ذلك الكفاف من العيش(١٢٢).

هكذا عاني الغرب وقت ظهور الإسلام وأثناء حركة الفتوحات من حالة الفوضى السياسية والقحط الحضاري، بحيث لم يكن بوسعه بالمرة مواجهة الاسلام أو حتى التصدي له. لقد وقف بلا حراك أمام هذه الأحداث الجسام التي كانت الجزيرة العربية مسرحاً لها، لا حول له ولا طول، ولا يحرك ساكناً. ولذلك لم يكن له أي دور في المواجهة الساخنة التي تمت بين المسلمين والبيزنطيين في الشام أثناء الدور الأول من حركة الفتوحات الاسلامية.

أما القوة الثانية التي قدر لها مواجهة حركة الفتوحات، فهي الدولة البيزنطية وريثة الدولة الرومانية القديمة ونظمها وحضارتها، وعاصمتها القسطنطينية عند التقاء البسفور ببحر مرمرة، التي اعتبرت بمثابة روما ثانية أو روما جديدة بعد انهيار روما الغرب تحت جحافل الجرمان. وقد أوضحنا في مستهل هذه الدراسة أنها كانت تمر خلال الحقبة الأخيرة من القرن السادس و بدايات القرن السابع الميلادي بحالة من الفوضى والاضطراب في كافة النواحي والمجالات، بحيث وقفت ـ هي الأخرى ـ عاجزة أو شبه عاجزة أمام تطور الأحداث.

ومع ذلك، لا خلاف أن هذه الدولة التي قدر لها أن تعمر ألف عام أو يزيد،

١٢٢. انظر مرثاة البابا الروماني جريجوري الأول التي تحدث فيها عما أصاب روما من خراب ودمار في أواخر القرن السادس الميلادي، في: Sullivan, Heris of the Roman Empire, pp. 1, 4-5, 10.

راجع أيضاً:

Painter, S., A History of the Middle Ages: 284-1100, London, 1966, pp. 10 ff., 26 ff.; Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris, 1965, p. 27 ff.; Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, New York, 1900, pp. 69, 71, 83.

والتي تميزت بدستورها المحكم، ونظامها الاداري المتين، مع وجود قواعد ثابتة للوراثة والوصاية في الكرسي الامبراطوري، والتي اشتهرت بقوة معظم أباطرتها ودهائهم وطموحهم، وبسياسة الاقتصاد النقدي التي سارت عليها والتي جعلت خزينة الامبراطور التي هي خزينة الدولة عامرة دائماً بالمال الذي كان ينفق منه على مختلف أجهزة الدولة مما هيأ لها الاستقرار ــ هذه الدولة بكل امكاناتها كان قد انتابها الإعياء والشلل قبيل ظهور الإسلام وعند ظهوره وانتشاره، ليس فقط بسبب حروبها الطويلة مع الفرس ومع العناصر المتبربرة شمال الدانوب وفي البلقان، منذ قيامها زمن قسطنطين الكبير وفي عهد كل من جستنيان وهرقل بوجه خاص، بل أيضاً بسبب ما ترتب على هذه الحروب من آثار مدمرة أصابتها في الصميم.

فاذا تناولنا الجانب العسكري، نجد أن الدولة البيزنطية استخدمت في جيشها عناصر مختلفة من الجند المرتزقة، من أجناس وميول مختلفة، ضماناً لعدم توحيد كلمة الجيش المتشعب في الأصل والاتجاه واللغة والجنس والعادات والتقاليد تحت امرة رجل واحد، فلا يمكن جمع كلمتهم وتوجيهها ضد الامبراطورية. وكان هذا الجيش يقوم بمهامه خير قيام أثناء قوة الدولة وعظمتها. ولكن بسبب حروب جستنيان ضد العناصر الجرمانية في الغرب والشمال الافريقي وضد الفرس في الشرق، واستمرار الحرب ضد الفرس زمن هرقل، وضد الآفار والسلاف في البلقان، قل عدد الجند بشكل ملموس وقت ظهور الإسلام، وانتشاره خارج شبه الجزيرة، ونضبت الجهات التي كانت تمون الدولة بأكفأ رجالها وقادتها. وفضلاً عن ذلك، فان هذا الجيش المتهالك المرتزق لم يعد يعنيه بحكم تكوينه وما آل اليه، الدفاع عن أملاك الدولة التي أخذت هي الأخرى تقتصد في نفقاته بسبب ظروفها المالية السيئة بعد حروبها في أكثر من جبهة (١٢٣). يضاف الى ما تقدم أنه

---

١٢٣. Sullivan, Op. cit., p. 17; Bury, J.B., History of the Later Roman Empire, Vol. II, New York, 1958, p. 358.

ويقول ساليفان (ص١٨ ــ ١٩) أنه نتيجة للمساوىء التي ترتبت على اعتماد الدولة على الجند المرتزقة الذين أثقلوا كاهلها بعبء مضاعف في سبيل الحصول على القوات القادرة وجمع الدخل الكافي للانفاق عليها، سعت الى صبغ المجتمع البيزنطي بصبغة عسكرية. فبعد حروبها المستمرة خلال القرن السابع الميلادي التي ترتب عليها فقدانها مقاطعاتها الغنية والدخل الوفير، حل محل الجند المرتزقة في مناطق الحدود نظام الثيمات أي ألوية الحدود أو ألوية الثغور، الذي امتاز في كفاءته عن النظام القديم، كما أدى الى توجيه كافة موارد الدولة لمواجهة =

وجدت عناصر عديدة معارضة داخل الجيش نفسه كانت تشجع الدسائس لمصالحها الخاصة على حساب السلطة الحاكمة، مما أسهم في إضعاف قدرة هذا الجيش أكثر وأكثر(١٢٤).

وفي أثناء الصراع الاسلامي البيزنطي في الشام، وقع البيزنطيون في أخطاء استراتيجية جسيمة. كما كان للعوامل الطبيعية والجغرافية والطبوغرافية أثرها في هزيمتهم أمام القوات الاسلامية. وفي هذا يقول جيفوند في معرض حديثه عن معركة اليرموك أن البيزنطيين ارتكبوا خطأ فاحشاً عندما تركوا خيولهم وامتعتهم داخل معسكرهم وابتعدوا عنه. ثم أنهم كانوا يقاتلون المسلمين وهم مشاة تحت وطأة أسلحتهم الثقيلة في أرض وعرة غزيرة الرمال، وفي جو شديد الحرارة. وكانت النتيجة أن دب الخلل والاضطراب في صفوفهم، ولقوا الهزائم المريرة على أيدي الجيوش الاسلامية(١٢٥). وهكذا تلقى الجيش البيزنطي الضربات تباعاً أثناء فتوحات الشام، ولم يكن باستطاعته الصمود أمام القوات الاسلامية التي كانت أقل عدداً ولكنها أكثر تنظيماً واعداداً، وتدافع عن عقيدة راسخة تؤمن بها. وتعزيزاً لذلك يقول ريتشارد ساليفان أن اولئك العرب نشأوا في أول الأمر كمحاربين غير نظاميين في الصحراء. ولكنهم سرعان ما تطوروا الى مجتمع قوي منظم يؤلف بين رجاله الدين الاسلامي بمبادئه الواضحة ومفاهيمه الأخلاقية(١٢٦). وترتب على ذلك اختلال في التوازن العسكري بين القوتين المتحاربتين. وكان هذا الوضع في صالح الجانب الإسلامي.

وقد واكب هذا الانهيار الذي حل بالعسكرية البيزنطية آنذاك على أيدي القوات الاسلامية، هزائم في الحروب التي خاضتها قبل احتكاكها المباشر بالمسلمين في الشام. وبدا كما لو أن نجم الامبراطورية قد أخذ في الأفول. واضطرت الدولة لمواجهة

= المتطلبات العسكرية. للمزيد من المعلومات، انظر هارڤان (ل. م) وباراكلاف (ج.): الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف، ط. رابعة، الاسكندرية ١٩٨٤، ص ٩٩ وح ٣ و١٠٠ و١٤٥. وأيضاً: Hussey, J.M., The Byzantine World, London, 1957, p.25.

١٢٤. Sullivan, Op. cit., p. 13.

١٢٥. Ghévond, Op. cit, p. 3.

١٢٦. Sullivan, Op. cit, p. 22.

مشاكلها المالية المتفاقمة إلى فرض المزيد من الضرائب على ولاياتها، وخصوصاً بلاد الشام، الأمر الذي أدى الى تصاعد استياء أهالي هذه البلاد، وانتهازهم أية فرصة سانحة للتخلص من نير الحكم البيزنطي، وقد واتتهم تلك الفرصة أثناء حركة الفتوح الاسلامية في الشام(١٢٧).

واذا أضفنا إلى ما تقدم الجانب الديني، سوف نجد أن ولاية الشام البيزنطية كانت ـ كما أسلفنا ـ تعاني الأمرين من الخلافات المذهبية بين الملكانيين أصحاب الطبيعتين واليعاقبة أو المونوفيزيين أصحاب الطبيعة الواحدة للمسيح. وقد أدت محاولة هرقل لتوحيد المذاهب المسيحية الى عكس ما أراد. اذ كانت ولاية الشام تغلي ضد بيزنطة. وحسمت الأمر تلك الحروب الاسلامية البيزنطية التي كانت الشام مسرحها، والتي انتهت بفقدان الامبراطورية لها الى غير رجعة(١٢٨). لقد رحب أهالي الشام بالفاتحين المسلمين الذين وجدوا فيهم مخلصين لهم من من هذا النير الديني الذي فرضته عليهم بيزنطة(١٢٩). يؤكد ذلك ما ذكره جيفوند من أن أهل الشام طلبوا من المسلمين الإسراع بمساعدتهم وتخليصهم من الاضطهاد الديني الذي مارسته بيزنطة قبلهم. وكان هذا من بين العوامل التي يسرت عملية الفتح(١٣٠). لقد كانت هذه نقطة ضعف أخرى عانت منها بيزنطة أثناء فتوحات الشام، ساعدت على رجحان الكفة الإسلامية في أول صراع بين الطرفين.

وثمة مسألة أخرى ترتبط بسابقتها، وهي اختلاف المسيحية الاولى عن الاسلام فيما يتعلق بنظرة كل من المسيحية إلى فكرة الحرب المقدسة والإسلام الى فكر الجهاد.

---

١٢٧. Sullivan, Op. cit., pp. 12-13; cf. also: Bury, Op. cit., II, p. 359.

١٢٨. Runciman, Byzantine Civilization, p. 40.

١٢٩. Sullivan, Op. cit., p. 13.

وذكر ساليفان (ص ١٤) أن العرب استولوا على هذا الاقليم الحيوي من الامبراطورية بسرعة مثيرة للدهشة، وأنهم أقاموا بفتوحاتهم المظفرة بداية لدولة جديدة بعد سقوط الشام وفلسطين في قبضتهم بالرغم من جهود هرقل العسكرية المستميتة واليائسة التي بذلها لحفظ هذا الاقليم. كذلك يرى أن المزية التي لحقت بالدولة البيزنطية تعزى ـ الى حد ما ـ الى سياسة الامبراطور الدينية الفاشلة، وأن مسيحيي الشام فضلوا حكم العرب عن سياسة القهر التي فرضتها عليهم القسطنطينية.

١٣٠. Ghévond, Op. cit., p. 2.

لقد كانت تعاليم الدين المسيحي تنادي بالسلام وعدم الاقتتال وازهاق الأرواح باعتبارها من الأمور التي يحرمها الله. وكان هذا رد فعل طبيعي للديانة الوثنية التي تميزت بالعنف والقسوة والوحشية. وظلت الكنيسة البيزنطية متمسكة بهذا المبدأ، وهو أن الحرب أمر يتنافى والتعاليم التي نادى بها المسيح، ولذلك لم تبارك حروب هرقل ضد المسلمين. أما بالنسبة للإسلام، فقد حث القرآن الكريم المسلمين على الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه. فالجهاد في الإسلام مبدأ وعقيدة، وضرورة سياسية وحربية استلزمتها الظروف التي صاحبت نشر الإسلام وتأمينه. ومن هنا كانت تلك الحماسة المنقطعة النظير التي تجلت أثناء حركة الفتوحات في الشام، والتي يقابلها تقاعس أهالي الشام المستاءين من الحكم البيزنطي، وعدم مساندتهم للجيش الامبراطوري، وسلبية الكنيسة البيزنطية (١٣١).

ومما يشد الانتباه أن سبيوس، وهو المؤرخ الأرميني المعاصر للفتوحات الاسلامية المبكرة، ركز في مؤلفه على أهمية الجهاد في الإسلام(١٣٢). بينما اعترف جيفوند الذي عاش في القرن الثامن الميلادي (القرن الثاني الهجري) بأن الحماسة الدينية التي بثها رسول الله (ص)، ومن بعده الصحابة، في نفوس الجيوش الاسلامية المقاتلة، وحثها على الجهاد في سبيل الله للفوز بفردوس النعيم، وما جاء في كتاب الله من أن الإسلام هو دين العالمين، وأن رسالته يجب أن تبلغ لكافة البشر، اعترف جيفوند أن الايمان بالله ورسوله دفع المقاتل المسلم للاستشهاد في سبيل نشر هذا الدين خارج الجزيرة العربية والدفاع عنه. ومن هنا كان الجندي المسلم أشد حماسة وايماناً في خوض غمار الحرب من

---

١٣١. ساليفان (ر.أ.): ورثة الامبراطورية الرومانية: الغرب الجرماني، العالم الاسلامي، الدولة البيزنطية، ترجمة وتقديم د. جوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية ١٩٨٥، ص ٩. راجع أيضاً: أومان: الامبراطورية البيزنطية ص ١٢٧. وغير صحيح ما ذكره موس من أن حركة الفتوحات التي أعقبت وفاة الرسول (ص) عام ٦٣٢م، قد غذتها الظروف الاقتصادية السيئة في شبه الجزيرة العربية، والتي ترتب عليها قيام جماعات صغيرة من المغيرين من راكبي الخيل بالإغارة في كل إتجاه بحثاً عن الطعام ورغبة في الغزو والتخريب انظر:

Banyes and Moss, Byzantium, p. 11.

١٣٢. Sébêos, Op. cit., pp. 95—96.

كما أورد في كتابه الآية القرآنية «ان ينصركم الله فلا غالب لكم». انظر نفس المصدر، ص ٩٦.

الجندي البيزنطي(١٣٣).

لقد حول الإسلام القبائل العربية الهائمة على وجهها والمتشاحنة فيما بينها في شبه جزيرة العرب، الى قوة عالمية هائلة تصدت لواحدة من أعظم امبراطوريات العالم وقتها، وهي الدولة البيزنطية، والحقت بها الهزيمة تلو الأخرى في واحدة من أهم وأخصب ولاياتها في الشرق وهي بلاد الشام. ولا شك أن الفاتحين الجدد كان يدفعهم الإسلام باعتباره قاعدة خلافة أدت الى مولد حضارة جديدة ديناميكية مبدعة، قدر لها أن تترك آثارها على تاريخ حوض البحر المتوسط بخاصة، وعلى العالم المعروف وقتها بصفة عامة(١٣٤).

وفي تقييم ساليفان لفتوح الشام وما تمخضت عنه يقول أنها تروي قصة النجاح الساحق المذهل الذي حققه شعب كان منذ فترة غير بعيدة ضعيفاً مفككاً، ولكنه تحول بسرعة بفضل الدين الجديد الى قوة جبارة. و يستطرد مبيناً أن العالم لم يشهد أبداً منذ أقدم العصور مثل هذه الدولة الشاسعة المترامية الأطراف التي أخذت تتكون مع بدايات القرن السابع الميلادي، وتحددت معالمها في أواسط القرن الثامن، حتى أنه لم يكن باستطاعة أحد أن يجادل في أمر ظهور قوة عالمية كبرى قادرة ليس فقط على ترك بصماتها على حوض البحر المتوسط، بل على تغيير مجرى التاريخ البشري(١٣٥).

كان طبيعياً، اذن، بعد أن ظهر الإسلام كقوة جديدة على مسرح الأحداث، وفي ضوء الاعتبارات سالفة الذكر، أن يميل مركز القوة إلى جانبه في أول صراع له ضد الدولة الرومانية الشرقية أثناء فتوح الشام. واستمرت كفة الإسلام هي الراجحة في صراعه ضد أوروبا المسيحية بشقيها الشرقي والغربي طوال القرون السابع والثامن والتاسع وبدايات القرن العاشر الميلادي (القرون الأول والثاني والثالث وبدايات القرن الرابع الهجري)، تكونت خلالها الدولة العربية الإسلامية فتية مترامية الأطراف من المحيط إلى الخليج، بينما كان العالم المسيحي يعاني من الفوضى والتدهور

---

١٣٣. Ghévond, Op. cit., p. 2.
١٣٤. Sullivan, Op. cit., pp. 9, 21, 29-30.
١٣٥. Sullivan, Op. cit., p. 32.

والاضطراب. كما أصبح البحر المتوسط بحيرة اسلامية بعد أن كان بحراً رومانياً حسبما يقول المؤرخ هنري بيرين[١٣٦]. وهكذا وقفت أوروبا مكتوفة الأيدي أمام العالم العربي الاسلامي. وقد صاحب القوة السياسية التي تمتع بها، ازدهار حضاري شمل مختلف النواحي والمجالات.

ولكن اعتباراً من أوائل القرن العاشر الميلادي (بدايات القرن الرابع الهجري)، حدث تغير في توازن القوى بين العالمين الاسلامي والمسيحي. ففي الجبهة الشرقية بدأت الدولة البيزنطية تسترد قوتها في عهد أسرة من أقوى الأسرات التي حكمت فيها، وهي الأسرة المقدونية (٨٦٧ــ ١٠٥٩)، وبخاصة في عهد كل من الأباطرة نقفور الثاني فوكاس (٩٦٣ــ ٩٦٩م)، ويوحنا الأول تزمسكيس (٩٦٩ــ ٩٧٦م)، وبازيل الثاني (٩٧٦ــ ١٠٢٥م). هذا، بينما أخذ التفكك والانقسام يدبان في أوصال العالم العربي الاسلامي، وكانت النتيجة ضربات قوية وجهتها بيزنطة الى المسلمين، وبخاصة في رقعة المشرق الاسلامي، وأحرزت فيها عدة انتصارات[١٣٧].

ومع بدايات القرن الحادي عشر الميلادي (بدايات القرن الخامس الهجري)، كان الغرب الأوروبي، هو الآخر، قد أفاق من كبوته بعد قرون طويلة من الظلام، وبدأ يسترد أنفاسه اللاهثة، ويستجمع قواه، ويشق طريقه نحو التقدم، بعد توقف غزوات البرابرة، واستقرار الأحوال فيه. وفي نفس هذا الوقت تصاعدت حدة الخلافات والانقسامات السياسية والمذهبية في العالم العربي الاسلامي، واتسعت هوته. وكان هذا يعني أن زمام المبادأة أصبح في قبضة الغرب الذي وجه اولى ضرباته ضد المسلمين بالاستيلاء على صقلية والجنوب الايطالي خلال القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري). هذا، بينما كانت الممالك المسيحية في شمال اسبانيا، وهي أراجون وليون وقشتالة ونافار، تساندها بقية دول الغرب، وفي مقدمتها فرنسا، تواصل صراعها

---

١٣٦. Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe, London, 1961, pp. 2-3; Idem, Medieval Cities; English Trans. by F. D. Halsey, Princeton, 1948, pp. 15-16.

١٣٧. Bloy, L., Constantinople et Byzance, Paris, 1917, pp. 11 ff; Bailly, A., Byzance, Paris, 1939, p. 240 ff.; Diehl, ch., Histoire de l'Empire Byzantine, Paris, 1920, pp. 97, 99 f.

ضد المسلمين لاخراجهم من شبه الجزيرة الأيبيرية. وتلتها الضربة الثانية المؤثرة فيما عرف اصطلاحاً باسم «الحروب الصليبية التي شغلت ثلاثة قرون من الزمان، هي القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية)، والتي تعتبر مرحلة هامة من مراحل الصراع الطويل بين العالمين الاسلامي والمسيحي في القرون الوسطى، ودوراً رئيسياً من أدواره.

والحديث عن الصراع الصليبي الاسلامي وتغير مراكز الثقل فيه بين المسلمين والصليبيين يطول، ولا يزال بحاجة الى مزيد من الدراسات المتأنية المتعمقة الدءوبة(١٣٨). ولكن يكفي القول هنا أن هذا الصراع مرـ بدورهـ بأكثر من مرحلة. أولاها عندما وقف الغرب على قدميه، وأمسك بزمام المبادأة، ووجه الضربة القوية ضد الشرق الأدنى الاسلامي في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر الميلادي (السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري)، وتمكن من تأسيس مملكة له في قلب فلسطين، بالاضافة الى ثلاث امارات هي: الرها وأنطاكية وطرابلس الشام. وقد تلتها مرحلة أفاقة اسلامية مع بدايات القرن الثاني عشر الميلادي (بدايات القرن السادس الهجري)، عندما استشعر المسلمون بالخطر المحدق بهم. وأدى ذلك الى توازن القوى، أي اعتدال كفتي الميزان في الصراع بين الطرفين، بحيث لم يكن بوسع أي منهما توجيه ضربه حاسمة الى خصمه. وكانت فترة ترقب وانتظار تلتها عملية التكتل الإسلامي، بحيث أصبح مركز الثقل يميل بشكل واضح لصالح المسلمين، بينما بدأ الضعف يدب في الكيان اللاتيني المتداعي في الأراضي المقدسة لأسباب عديدة متداخلة في بعضها، في الوقت الذي انشغلت فيه أوروبا عن نجدة اخوانها افرنج الشام بسبب مشاكلها الخاصة

---

١٣٨. للمزيد من المعلومات عن توازن القوى في الصراع بين المسلمين والصليبيين في عصر الحروب الصليبية، انظر: جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، ط. ثانية، بيروت ١٩٨١، وبخاصة صفحات ٢١ وما يليها و٢٧ وما يليها و٣٧ وما يليها و ٤٥ وما يليها. ويعبر أحسن تعبير عن هذه الفكرة كل من رينيه جروسيه وستيفن رانسيمان في كتابيهما الكبيرين عن الحركة الصليبية. أنظر:

Grousset, R., Histoire des Croisades, 3 Vols, Paris, 1948; Runcimans, S., A History of the Crusades, 3 Vols, Cambridge, 1954- 1955.

ويمثل كل جزء من هذه الأجزاء الثلاثة، في كلا الكتابين، مرحلة من مراحل الصراع بين القوتين الاسلامية والصليبية.

ومشاغلها الداخلية من جهة، وفتور الحماسة الدينية للفكرة الصليبية نفسها وتشكك الأوروبيين فيها وفي جدواها وفائدتها من جهة أخرى. وهكذا، أصبح زمام المبادأة في يد المسلمين الذين أخذوا يوجهون ضرباتهم القوية الى افرنج الشام، حتى انتهى الأمر باخراجهم منها في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي (أواخر القرن السابع الهجري)، وفشل جميع الحملات التي وجهتها أوروبا ضد العالم العربي الاسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري)، والتي عرفت اصطلاحاً باسم الحروب الصليبية المتأخرة(١٣٩). ثم أعقبت ذلك الضربات المضادة التي وجهها المسلمون ضد مراكز الفرنج أو محالفيهم في كل من أرمينية وقبرص وردوس اعتباراً من أواخر القرن الثامن وحتى بدايات القرن العاشر الهجري(١٤٠). وبها تطوى صفحة من التاريخ سجلت صراع تسعمائة عام أو يزيد بين المسلمين والمسيحيين، لتبدأ صفحة أخرى في العصر الحديث الذي يشهد مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب وقد اتخذت شكلاً يتناسب وأوضاع عالمنا المعاصر.

وان كان هذا البحث يدور حول ظهور قوة جديدة على المسرح العالمي، بظهور الاسلام والفتوحات المظفرة التي أحرزها في الشام على حساب الدولة البيزنطية ومحالفيها من مستعربة الشام فيما بين عامي ٦٢٦ و٦٣٧م (٥ــ ١٦هـ)، وما ترتب على ذلك من تغير في مراكز القوى باندلاع الصراع بين العالم الأوروبي المسيحي والعالم العربي الاسلامي طوال أكثر من تسعة قرون من الزمان، الا أنه لا يزال موضوعاً خصباً يفتح آفاقاً رحبة واسعة لمزيد من الدراسات الجديدة في هذا الميدان الحيوي الهام(١٤١).

---

١٣٩. يعتبر كتاب الدكتور عزيز سوريال عطية عن هذه الحروب أفضل ما ظهر حتى الآن. انظر

Atiya, A., The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.

١٤٠. انظر عن ذلك: جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية، ص ٤٠ ــ ٤٣.

١٤١. لا يفوتني أن أقدم للزميل الدكتور درويش محفوظ النخيلي مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية، والمعار حالياً لكلية الآداب بجامعة اليرموك بالأردن خالص شكري وامتناني على المعلومات القيمة التي زودني بها، والتي كانت خير عون لي في اعداد هذا البحث.

كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام في عصر الراشدين

محمود عمــران
كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية

وفد الى بلاد الشام عدد من الرحالة الأجانب قبل و بعد الفتح الاسلامي، وقد سجل هؤلاء الرحالة جانباً من مشاهداتهم عن هذه الأ راضي، ولما كان معظم هؤلاء الرحالة من رجال الدين فقد غلب على ما سجلوه الجانب الروحي ووصف الآثار والأماكن المسيحية والطرق المؤدية اليها، و يتضح من كتابات هؤلاء الرحالة أن الهدف منها إرشاد الحجاج المسيحيين لهذه الأماكن المقدسة. وإذا كان ما يعنينا في هذه الدراسة هو ما سجله الرحالة الأجانب عن بلاد الشام، فلقد وقع إختيار الباحث على أول رحالة غربي زار بلاد الشام عقب الفتح الاسلامي، وهذا الرحالة هو أركولف Arculfus الذي زار بلاد الشام حوالي ٦٧٠م / ٥٠ هـ.

واذا كانت المصادر العربية لم تسجل أحداث عصر الخلفاء الراشدين إلا بعد ما يزيد عن قرن ونصف من الزمان، فبذلك يكون ما سجله الرحالة أركولف في عام ٥٠ هـ على جانب كبير من الأهمية باعتباره أول من سجل في الغرب أو الشرق على السواء مشاهداته عن بلاد الشام في الفترة التي صمتت أو ضنت أو إختلط فيها الأمر في المصادر العربية التي سجلت الأحداث المتعلقة بعصر الخلفاء الراشدين في فترة زمنية متأخرة.

والحقيقة أن ما سجله الرحالة أركولف عن الآثار المسيحية وطرزها المعمارية كان عظيماً خاصة اذا علمنا أن الفرس عندما دخلوا مدينة بيت المقدس عام ٦١٤م أحرقوا الكنائس وألقوا القبض على بطريق المدينة زكريا (١)، وأن خليفته مودستوس Modestus أعاد بناء بعض الكنائس على أنقاض الكنائس القديمة، وأن هذه الكنائس قد تم بناؤها قبل فترة وجيزة من الفتح الاسلامي (٢). وكان أركولف أول من شاهدها وسجل عن هذه الآثار الجديدة. كما أن أركولف يعتبر أول من كتب في الشرق والغرب عن الآثار

١. William of Tyre, Deeds Done Beyond The Sea, New-York, 1943, I, p. 61.
٢. سعيد بن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ــ بيروت ــ ١٩٠٩ ــ ص ٥.

الاسلامية التي أقامها المسلمون عندما فتحوا مدينة بيت المقدس مثل جامع عمر بن الخطاب، وعندما فتحوا مدينة دمشق مثل جامع دمشق الذي يعرف باسم المسجد الأموي.

وقبل الدخول في صميم البحث علينا أن نلقي الضوء على الرحالة أركولف والظروف التي سجلت فيها مشاهداته. والحقيقة أن معلوماتنا عن أركولف نادرة للغاية، فقد وردت بعض معلومات عنه في ثنايا ما تركه لنا من مادة تاريخية، كما أن المؤرخ الانجليزي بيده Bede (٦٧٣ــ ٧٣٥م) ترك لنا نبذة عنه (٣)، وجملة هذه المعلومات تفيد أن أركولف كان فرنسي الأصل أي من المنطقة التي كانت تعرف في العصور الوسطى باسم غاله (Gall)، وأنه كان أحد رجال الدين فيها، وربما كان يحمل قس Priest أو أسقف Bishop (٤)، وأن تواجده بالشام بدأ من يناير حتى سبتمبر ٦٧٠م.

وقد رافق أركولف في جانب من رحلته بالشام أحد رجال الدين المقيمين بالمنطقة راهب يدعى بطرس البرجندي Peter the Burgundian، وكان بطرس هذا مرشداً لأركولف للأماكن التي رافقه فيها باعتباره أقام في بلاد الشام فترة طويلة لأنه أتى الى المنطقة وهو صغير السن، وسيكون لهذه المعلومة دلالتها في موضع لاحق من هذا البحث.

واذا كان أركولف قد قام بالرحلة ورافقه في جانب منها الراهب بطرس البرجندي، فان الذي دوّن الرحلة بخط يده هو القديس أدمنان St. Admanan رئيس دير إيونا Iona (٦٧٩ ــ ٧٠٤م) وهي الجزيرة التي تقع على الشاطيء الغربي لساحل اسكتلندا. ومرجع ذلك إلى أن أركولف بعد ما زار جزيرة صقلية إتخذ طريقه بحراً إلى غاله، ولكن عاصفة قوية ضربت السفينة التي استقلها و بعدما تعرض لمخاطر عديدة وجد نفسه في دير ايونا (٥).

وأدمنان هذا ايرلندي الأصل ولد عام ٦٢٨م وكانت وفاته عام ٧٠٤م، وانه ينحدر من سلالة القديس كولبا St. Columba (٥٢١ ــ ٥٩٧م) وانخرط في سلك الرهبنة حتى تولى رئاسة دير إيونا (٦). وعندما تقابل أركولف مع القديس أدمنان وعرف الأخير

٣. Bede, A History of English Church and People, England, 1975, p. 300.

٤. Arculfus, The Pilgrimage, Cf., Palestine Pilgrims Text Society, London, 1897, III, p. XI.

٥. Anderson, (ed), Adamnan's Life of Columbia, London, 1961, p. 92.

٦. Attwater, Dictionary of Saints, Penguin Book, 1965, pp. 30-1.

بأمره اهتم بتسجيل مشاهدات أركولف، وعندما بدأ الأخير في سرد مشاهداته بدأ القديس أومنان في تسجيلها على ألواح من الشمع (٧)، وهي أحد الطرق التي كانت تسجل بها الأحداث في هذه المرحلة التاريخية.

وهناك بعض النقاط الهامة أود الاشارة اليها، منها أن القديس أدمنان لم يسجل كل قاله أركولف بل حذف منها ما رآه معروفاً في عصره، و يتضح ذلك من بعض العبارات التي وردت بالرحلة وسجلها أدمنان على لسانه حين ذكر في حديثه عن بيت المقدس «وبالنسبة لموقع المدينة فانني سوف أسجل تفاصيل قليلة أملاها على أركولف وسوف أتغاضى عن بعض المعلومات التي وردت في الكتب الأخرى» (٨).

وهذه المعلومة هامة للغاية فهي تشير إلى الحذف والأمانة، وتشير أيضاً إلى المستوى الثقافي الذي تمتع به القديس أدمنان، كما أن هناك نقطة أخرى حرص عليها القديس أدمنان، فهويقول على لسانه سوف أسجل تفاصيل ما أملاه على أركولف، أو أن أركولف أبلغني ما سجلته، أو كما يقول أركولف. وفوق هذا كان القديس أدمنان يسأل أركولف عن بعض النقاط و يستفسر عنها، و يقارن بين ما سجله وما هو بصدد تسجيله (٩).

تقع رحلة أركولف في ثلاث وستين صفحة واشتملت على ثلاثة فصول، خصص الفصل الأول منها للحديث عن مدينة بيت المقدس، فتحدث عن موقع المدينة و بواباتها والسوق السنوي الذي يقام بها ومسجد عمر بن الخطاب، هذا بالاضافة الى العديد من الكنائس بطرزها المختلفة وغير ذلك من الأماكن المتعلقة بالسيد المسيح والسيدة مريم و بعض القديسين.

واحتوى الفصل الثاني على ثمانية وعشرين موضوعاً، و بدأه بالحديث عن مدينة بيت لحم مسقط رأس السيد المسيح، وتحدث فيه أيضاً عن نهر الأردن ومنابعه والبحر الميت و بحيرة طبريا والناصرة وجبل الطور Mount Tabor ودمشق ومسجدها ومدينة صور، وانتهى في هذا الفصل بالحديث عن مدينة الاسكندرية.

٧. Arculfus, Op. cit., p. 1

٨. Arculfus, Op. cit., p. 2

٩. Arculfus, Op. cit., pp. 2, 23, 26, 28, 30-1.

والفصل الثالث يتضمن ستة موضوعات بدأها بمشاهداته في مدينة القسطنطينية وكنيستها، و بعض معلومات عن القديس جورج المعترف St. Gorge the Confessor وتشير النصوص التي تحت أيدينا أن أركولف قضى المدة من عيد الفصح الى يوم عيد الميلاد لسنة ٦٧١م في القسطنطينية(١٠).

وخلاصة القول أن الرحالة أركولف قضى تقريباً المدة من يناير الى أواخر سبتمبر ٦٧٠ في بلاد الشام(١١)، ثم أبحر من ميناء يافا الى الاسكندرية حتى قضى بها عدة أيام من شهر اكتوبر من العام نفسه، ثم تجول في بعض أراضي مصر لبعض الوقت وأبحر بعد ذلك الى جزيرة كريت حيث قضى عدة أيام هناك، ولعله زار بعض الجزر وأماكن أخرى حتى ابريل ٦٧١م حيث اتجه إلى القسطنطينية التي ظل بها حتى أواخر عام ٦٧١م، و بذلك تكون الرحلة كلها استغرقت حوالي سنتين كاملتين من بداية ٦٧٠ حتى نهاية ٦٧١م.

بعد هذه المقدمة التي اشتملت على التعريف بالرحالة أركولف و بطرس البرجندي رفيق رحلته، والقديس أدمنان كاتب الرحلة، وعرضاً شاملاً للرحلة وفصولها وأهم ما ورد بها، نصل إلى كتابات الرحالة أركولف كمصدر لعصر الخلفاء الراشدين. والحقيقة أن أركولف لم يترك لنا مادة تاريخية تتعلق بالوضع السياسي في عصر الخلفاء الراشدين في بلاد الشام، ولكنه ترك لنا جانباً من المعلومات الحضارية حول هذه الحقبة الزمنية. وقد وردت هذه المعلومات بصورة عارضة ومبعثرة بين صفحات الرحلة، وسوف يصنف الباحث هذه المعلومات الى نوعيات متجانسة وهي أربع، الأولى منها خاصة بالجوانب الجغرافية، والثانية تتضمن المعلومات الاقتصادية، والثالثة عن الجوانب المعمارية، والرابعة عن النواحي الاجتماعية.

وفيما يتعلق بالجانب الجغرافي فسوف يشتمل البحث على نهر الأردن والبحر الميت وبحيرة طبرية و بعض الغابات وميناء يافا.

تحدث أركولف عن نهر الأردن عندما أراد زيارة المكان الذي قام فيه يوحنا المعمدان St. John Baptist بتعميد السيد المسيح، وورد في الرحلة أن في هذا المكان

١٠. Arculfus, Oop. cit., p. 63.

١١. Arculfus, Op. cit., pp. 1, 3, 52.

المقدس يوجد صليب خشبي بحجم كبير مثبت في قاع النهر في مكان قريب من الشاطىء بما يقارب وصول الماء إلى مستوى رقبة رجل طويل القامة، وفي حالة الجفاف فان الماء يصل إلى مستوى صدر الرجل، أما في حالة الفيضان فان الماء يغطي الصليب كله، وهناك كوبري محمول على عقود يصل بين الضفة وبين موضع الصليب وأن الانسان بوسعه أن يرمي حجراً بقلاع إلى الضفة الأخرى للنهر. ويقول أركولف أن مياه نهر الأردن بيضاء مثل اللبن ويمكن تمييز هذا اللون حتى بعد ما تدخل المياه لمسافة طويلة في البحر الميت. وسار أركولف شمالاً بمحاذاة النهر حتى وصل الى منابعه ماراً ببحيرة طبرية وبحيرة الحولة، وذكر أنه يوجد منبعان للنهر عند جنوب لبنان، أحدهما يسمى جور Jor والآخر يسمى دان Dan وأن اتحاد الاسمين معاً يكون إسم النهر وهو الأردن Jordan (١٢).

وحول المادة الجغرافية التي أوردها أركولف يمكن القول أن ما من شك أن مياه الأردن صافية وصالحة للشرب، أما عن منسوب النهر فقد أورد أركولف ثلاثة مناسيب، الأول في حالة الفيضان وهو عال، والثاني في الأحوال العادية ويصل إلى مستوى رقبة الانسان، والثالث أيام الجفاف ويصل الى مستوى الصدر، أي أن مستوى النهر في مرحلة الجفاف لا يقل كثيراً عن الأحوال العادية. أما عرض النهر في هذه المرحلة فلم يكن كبيراً وأن الانسان بوسعه أن يقذف اليه بحجر في مقلاع.

أما عن تسمية النهر باسم الأردن، فالواقع أن هناك ثلاثة منابع لنهر الأردن قبل أن يدخل الى بحيرة الحولة قديماً، وهذه المنابع هي نهر دان، ونهر بانياس، ونهر الحصباني، وربما كانت كلمة جور تطلق على نهر بانياس أو الحصباني ومن هنا ظهرت كلمة الأردن. وقد رجع الباحث الى الكتب القديمة للوصول الى أصول هذه الكلمة، فقد أشار المؤرخ يوسيفوس Josephus في أحداث عام ٦٦م الى منابع نهر الأردن ولكن اشارته غير قاطعة (١٣). وتتبعنا ما كتبه الرحالة الذين زاروا بلاد الشام في الفترة المبكرة مثل بوردو Bordeaux حوالي عام ٣٣٣م، والقديسة سيلفيا Silvia حوالي ٣٨٥م، ورحلة القديسة بولا Paula التي سجلها القديس جيروم Jerome في أواخر القرن الرابع الميلادي، ولاحظنا أنهم ذكروا كلمة الأردن دون الحديث عن نهري جور ونهر دان، وأول من ذكر نهري جور

١٢. Arculfus, Op. cit., pp. 39-40.

١٣. Josephus, The Jewish War, Penguin, 1974, p. 223.

ودان(١٤)، هو الرحالة يوخيريوس Eucherius الذي زار بلاد الشام حوالي عام ٤٤٠م، كما ذكر الرحالة ثيودوسيوس Theodosius الذي زار بلاد الشام حوالي عام ٥٣٠م ذكر أن نهر الأردن ينبع من نهر جور ونهر دان(١٥)، وذكر الرحالة أنطونيوس Antoninus الذي قام برحلته حوالي ٥٦٠م أنه وصل الى منابع نهر الأردن وهما نهر جو ونهر دان(١٦). واستمر هذا المفهوم حتى عصر الحروب الصليبية، فنجد المؤرخ فوشيه أف شارترFulcher of Chartres (ت ١١٢٧م) يقول أن نهر دان يقع في الأرض التي توجد بها مدينة بانياس و يفسر ذلك الاسم بان قبيلة دان بنت مدينة هناك ولهذا السبب فان أحد المنابع يسمى دان والآخر مجاور له يسمى جور(١٧).

وهناك من يفسر أن دان تطلق الآن على تل القاضي وأن جور هو بانياس(١٨)، وعلى ذلك يكون نهر الحصباني لم يكن في مفهوم هؤلاء الرحالة منبعاً من منابع النهر.

وحول البحر الميت قدم لنا أركولف مادة قليلة وذكر أن طول البحر يبلغ ٥٨٠ فورلنج وعرضه حوالي ١٥٠ فورلنج(١٩)، أي أن الطول حوالي ٧٢/٢١ ميل والعرض حوالي ١٩ ميل، وهذه الأطوال تجانب الصواب، والواقع أن طول البحر يصل الى ٤٦ ميل و يبلغ عرضه ما بين ٣ ـــ ٩ أميال.

وذكر أركولف أيضاً أنه في حالة العواصف ترفع المياه بأملاحها الى الشاطىء، وتغطي المنطقة كميات كبيرة من الملح(٢٠). وسوف نترك هذا الجانب لمناقشته عند الحديث عن الجانب الاقتصادي. وعلى أية حال فان الكتاب الذي سبقوا أركولف مثل يوسيفوس قدم لنا معلومات أخرى و يقول أن مياه البحر تقذف بقطع من القار الأسود(٢١). وهذه المعلومة تتفق مع المسعودي الذي ذكر ومن البحيرة المنتنة أي البحر الميت يخرج الغبار

---

١٤. Eucherius, The Epitome of St. Eucherius, p. 11.

١٥. Theodosius, On the Topography of the Holy Land, p. 8

١٦. Antoninus, of the Holy Places, p. 6.

١٧. Fulcher of Charters, A History of The Expedition to Jerusalem, Knoxville, 1969, pp. 133-4.

١٨. Antoninus, Op. cit., p. 6 n. 3.

١٩. Arculfus, Op. cit., p. 39.

٢٠. Arculfus, Op. cit., p. 38.

٢١. Josephus, Op. cit., p. 261.

المعروف بالحمرة (٢٢). و يضيف يوسيفوس أن الذي لا يعرف السباحة لا يغرق في هذا البحر(٢٣). و يذكر الرحالة بوردو أن مياه البحر مرة جداً ولا يوجد بها أي نوع من الأسماك وأن الانسان لا يغرق في هذا البحر(٢٤).

وتحدث أركولف عن بحيرة طبرية أو بحر الجليل، وذكر أن البحيرة محاطة بغابات كثيرة وأن تسميتها بالبحر يرجع الى كبر حجمها الذي قدره بحوالي ١٤٠ فورلنج طولاً، وحوالي ٤٠ فورلنج عرضاً (٢٥)، أي حوالي ١٧٫٥ ميلاً طولاً، ٥ أميال عرضاً، وهنا ابتعد أركولف عن الحقيقة لأن طول البحيرة يبلغ ١٣ ميلاً، وأن عرضها حوالي ٧ أميال، ولعل ياقوت الحموي كان أقرب الى الصواب عندما ذكر أن طول البحيرة ١٢ ميلاً، وأن عرضها ٦ أميال (٢٦). و يضيف أركولف أن مياه البحيرة عذبة وصالحة للشرب وذلك بسبب نظافة مجراها وأن شواطئها رملية. وبالنسبة لأسماكها فانه لا توجد أنواع ممتازة في المذاق أو الشكل في أي بحيرة أخرى مثلما يوجد في هذه البحيرة(٢٧).

وفي المجال الجغرافي حدثنا أركولف عن غابات الصنوبر، وذكر أنه يوجد على بعد ثلاثة أميال شمال مدينة حبرون غابة للصنوبر وهي تقع في سهل فسيح على تل يقع على يسار المسافر. ومن هذه الغابة تحمل الأخشاب الى بيت المقدس على ظهور الجمال لاستخدامها في الوقود وذكر أركولف أيضاً أنه في منطقة الغابة توجد عربات تجر باليد أو بالدواب (٢٨).

وتحدث أركولف عن نوع آخر من الأشجار عندما ذهب الى البرية في الموضع الذي عاش فيه القديس يوحنا حيث كان طعامه جراداً وعسلاً (٢٩). ورأى أركولف نوعاً صغيراً

---

٢٢. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ بيروت ــ ١٩٧٨ ــ جـ١ ص ٦٣.

٢٣. Josephus, Op. cit., p. 261.

٢٤. Bordeaux, Op. cit., p. 26.

٢٥. Arculfus, Op. cit., pp. 40-1.

٢٦. ياقوت الحموي: معجم البلدان. بيروت ١٩٥٥ جـ١ ص ١٤٧، ٣٥١

٢٧. Arculfus, Op. cit., p. 41.

٢٨. Arculfus, Op. cit., p. 34.

٢٩. متى: ٣: ٤.

من الجراد يعادل طول إصبع اليد ويمكن اصطياده بسهولة من الحشائش ، وأوضح أيضاً أن هذا الجراد يطهى في الزيت و يقدم طعاماً للفقراء. وأضاف يقول أنه رأى في الصحراء بعض الأشجار ذات أوراق مستديرة كبيرة ، وأن لونها مثل اللبن ومذاقها كالعسل ، وأن هذه الأوراق هشة وسهلة الكسر وأن من يريد أكلها فعليه أن يمسحها بيده و يأكلها (٣٠) .

وفي ختام هذا الجانب الجغرافي تحدث أركولف عن ميناء يافا وكان حديثه عنه عارضاً عندما أبحر منه الى مدينة الاسكندرية (٣١) . وفي محاولة لتتبع أخبار الموانىء تبين أن أركولف لم يذكر سوى ميناء يافا ، ولم يقدم أية معلومات عنه على امتداد رحلته . و يلاحظ أيضاً أن الرحالة الذين سبقوا أركولف لم يقدموا لنا أخباراًتذكر عن الموانىء ، لأن الرحالة بوردو أتى الى الشام ورحل منه عن طريق البحر ، وكذلك لم تحدثنا سيلفيا عن أية موانىء ، أما القديسة بولا فقد أشارت الى ميناء غزة الذي قدمت اليه من مصر (٣٢) ، وكذلك أنطونيوس الذي استخدم أيضاً ميناء غزة الذي قدم اليه من الاسكندرية (٣٣) . أما الرحالة و يليبالد فقد أتى من قبرص الى طرسوس بحراً ، ثم رحل عن طريق ميناء صور (٣٤) . وعلى ذلك يمكن القول أن الموانىء التي كانت تستخدم في هذه الفترة هي يافا وغزة وصور. وقد قدم لنا المؤرخ يوسيفوس بعض المعلومات عن ميناء يافا وذكر أن الميناء غير ملائم ، لأن هذا المكان يتكون من منحدر صخري عال وسلسلة من الصخور المتداخلة في البحر ، وأن الرياح الشمالية تجعل عملية الرسو محفوفة بالمخاطر ، كما أن السفن الراسية في الميناء عليها أن تحترس طوال الليل من العواصف الشديدة لأن بعض السفن تصطدم ببعضها من شدة الرياح ، أو ترتطم بالصخور ، و يغرق بعضها (٣٥) .

واذا كنا انتهينا من الجانب الجغرافي ننتقل الى الجانب الاقتصادي ، وقد ذكر أركولف في هذا الجانب أنه من أجل تشريف مدينة بيت المقدس ، فانه في يوم الخامس عشر من سبتمبر من كل عام تأتي أعداد لا تحصى من الأمم المختلفة في هيئة جماعات إلى المدينة

٣٠. Arculfus, Op. cit., p. 43.

٣١. Arculfus, Op. cit., p. 49.

٣٢. Jerome, The Pilgrimage of the Holy Paula, p. V.

٣٣. Antoninus, Op. cit., p. VIII.

٣٤. Willibald, The Hodaeporicon, pp. 27-8.

٣٥. Jesophus, Op. cit., pp. 213-4.

من أجل البيع والشراء. وأن هؤلاء التجار يظلون لبضعة أيام في هذه المدينة المضيافة، في الوقت الذي نرى فيه عدداً كبيراً من جمالهم وخيولهم وجحوشهم بالاضافة الى البغال والثيران التي تحمل بضائعهم، وأن هذه الدواب تملأ المدينة بروثها وتفوح رائحتها داخل المدينة. و يستطرد أركولف قائلاً أنه من العجيب في الليل التالي لرحيل هؤلاء التجار فان كمية كبيرة من المطر تسقط على المدينة وتغسل كل شوارع المدينة من القاذورات. ولما كانت المدينة تقع على مكان مرتفع فان الأمطار ترفع البقايا إلى الأ راضي المنخفضة للأسوار الشمالية والشرقية، و يكون اندفاعها مثل الأنهار، وكأن هذه الأنهار قد عمدت المدينة (٣٦).

و يلاحظ أنه يوم الرابع عشر من سبتمبر هو عيد الصليب عند المسيحيين وهو اليوم الذي عثرت فيه هيلينا Helena والده الامبراطور قسنطين Constantine (٣٠٦ــ ٣٣٧م) على الصليب، ولذلك يقام لمدة سبعة أيام في كنيسة القيامة قداسٌ و يعرض الصليب على الحاضرين في هذه الفترة، وقد عطل هذا القداس عندما استولى الفرس على الصليب عام ٦١٤م، وظل معطلاً أو نادراً ما أقاموه حتى استعاد الامبراطور هرقل Heraclius (٦١٠ــ ٦٤١م) الصليب في عام ٦٢٩م بعد انتصاره على الفرس (٣٧). و يبدو أن أركولف أراد تكريم المدينة وربط بين سقوط الأمطار والمناسبة الدينية، ولكن لا يمكن اتخاذ سقوط الأمطار في هذا الوقت قاعدة سنوية.

وهناك جانب آخر يتعلق بالجانب الاقتصادي، فقد روى أركولف أن أمواج البحر الميت تقذف بالملح إلى الشاطىء، ثم يترك ليجفف بفعل حرارة الشمس، و يزود هذا الملح المناطق المجاورة باحتياجاتها كما أنه يزود أيضاً البلاد البعيدة، و يؤكد الرحالة أركولف أنه رأى هذا الملح ولمسه وذاقه (٣٨).

وفي المجال الاقتصادي لم يحدثنا أركولف عن العملة وان كان قد تعرض لها وتحدث عن الصلدي Solidi أكثر من مرة أثناء تواجده في القسطنطينية، وذلك على العكس

---

٣٦. Arculfus, Op. cit., pp. 3-4.

٣٧. Theodosius, Op. cit., p. 18 and n. 1.

٣٨. Arculfus, Op. cit., pp. 38-9.

من الرحالة ثيودوسيوس الذي تحدث عن الصلدي أثناء تواجده في بلاد الشام ٥٣٠م (٣٩)، وهذا أمر طبيعي فلم يكن الاسلام قد ظهر بعد. أما الرحالة برنارد الحكيم the Wise Bernard الذي زار بلاد الشام حوالي ٨٧٠م/ ٢٥٥ هـ فقد تحدث عن الصلدي والدينار Denarii (٤٠)، وهذا أمر طبيعي لأنه زار الشام بعد الاسلام، و يتضح من ذلك أن العملة البيزنطية والعربية كانت تستخدم معاً حتى تلك المرحلة.

أما الجوانب المعمارية فقد ترك لنا أركولف جانباً عن أسوار مدينة بيت المقدس، ومسجدها، وكذلك عن أسوار مدينة دمشق وجامعها، و بعض المعلومات عن أسوار المدن والأماكن الأخرى. وفيما يتعلق بأسوار مدينة بيت المقدس (٤١)، فقد ورد بالرحلة أن المدينة محاطة بسور عظيم عليه أربعة وثمانون برجاً، و بالسور ست بوابات هي بوابة النبي داود التي تقع في الجانب الغربي لجبل صهيون، و بوابة القصار Fuller (٤٢) و بوابة القديس ستيفن Stephen (٤٣)، و بوابة بنيامين (٤٤) Benjamin و بوابة صغيرة تؤدي الى وادي يوسف أو يوشفات Josapat، والأخيرة هي بوابة تكيوتس Thacuitis (٤٥).

وفي محاولة للتعرف على مزيد من التفاصيل حول هذه الأ بواب بحثنا في كتب الرحالة الغربيين الذين زاروا المقدس منذ عام ٣٣٣م فلم يقدموا لنا شيئاً يذكر سوى الرحالة يوخيريوس (٤٤٠م) الذي ذكر أن للمدينة ثلاثة أبواب مألوفة، وهي الباب الغربي والشرقي والشمالي (٤٦).

---

٣٩. Theodosius, Op. cit., p. 15.

٤٠. Bernard, Op. cit., p. 5.

٤١. Arculfus, Op. cit., pp. 2-3.

٤٢. ورد في التوراة باسم حقل القصار ــ أنظر أشعياء : ٧ : ٣.

٤٣. الموضع الذي رجم عنده استيفانوس (ستيفن) انظر أعمال الرسل ٧ : ٥٨ ــ ٦٠.

٤٤. الوادي الذي يقع بين جبل صهيون وجبل الزيتون، ولعله سمي بهذا الاسم نسبة الى يوسف النجار خطيب السيدة مريم العذراء، انظر:
Bede, Concerning The Holy Places, p. 75.

٤٥. تقع في الجنوب الشرقي للسور، انظر: Jerome, Op. cit., pp 10-11.

٤٦. والتي عرفت باسم باب المغاربة، انظ Eucherius, Op. cit., p.8.

وذكر أنطونيوس أنه نزل من ضيعة جثسيماني عدة سلالم حتى وصل الى باب المدينة (٤٧). أما المؤرخ بيده فكرر ما ذكره أركولف (٤٨). ومن المؤرخين العرب ذكر المقدسي أن للمدينة ثمانية أبواب، باب صهيون وباب التيه، وباب البلاط، وباب جب أرميا، وباب سلوان وباب أريحا، وباب العمود، وباب محراب داود (٤٩). ولم ترد معلومات عن أسماء الأبواب في بعض المصادر الأخرى (٥٠). وعلى ذلك فان الصورة التي تركها لنا الرحالة قد تغيرت في مراحل لاحقة (٥١).

وفيما يتعلق بالمسجد، فقد ذكر أركولف في حديثه عن القدس أن العرب شيدوا مسجداً غير حسن البناء وأن هذا المسجد مقام على دعائم خشبية، وأن المسجد اقيم في بقايا خربه، وأن هذا البناء يتسع لثلاثة آلاف في وقت واحد (٥٢). ومن هذه المعلومة يمكن القول أن مساحة المسجد كانت من حوالي ١٥٠٠م٢ الى ١٨٠٠م٢، اذا أخذنا في الاعتبار أن الفرد يحتاج من حوالي ١/٢ متر مربع الى ٣/٥ م٢ للصلاة.

ويذكر المؤرخ بيده أنه في الجزء المنخفض من المدينة يوجد معبد مجاور للسور الشرقي، وفي هذا الموضع كوبري للعبور ويوجد أيضاً مبنى مربع الشكل وهويتسع لحوالي ثلاثة آلاف وأن العرب يترددون على هذا المبنى للصلاة، وهذا المبنى رديء ومرتفع على دعائم خشبية وعروق عظيمة ومقام في أحد الخرائب (٥٣). والمعروف أن المؤرخ بيده نقل عن أركولف فلذلك لم يقدم الجديد. وذكر الرحالة برنارد في عام ٨٧٠م/٢٥٥هـ، أنه في شمال كنيسة القديس بطرس يوجد معبد سليمان الذي يضم مسجد العرب (٥٤).

وللمزيد من البحث ننتقل الى المصادر العربية للتعرف على شكل المسجد أو مزيد

٤٧. Antonius, Op. cit., p. 14.

٤٨. Bede, Op. cit., pp. 67-68.

٤٩. المقدسي: أحسن التقاسيم ـ ليدن ـ ١٩٠٦، ص ١٦٧.

٥٠. الواقدي: فتوح الشام ـ جـ ٢، بيروت، (د. ت) ـ ص ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٠، البلاذري: فتوح البلدان، القاهرة، ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م، ص ١٤٤.

٥١. لي سترانج: فلسطين في العهد الاسلامي، ترجمة محمود عمايري، عمان، ١٩٧٠، ص ١٠٠.

٥٢. Arculfus, Op. cit., p. 5.

٥٣. Bede, Op. cit., p. 70.

٥٤. Bernard, Op. cit., p. 8.

من التفاصيل حوله في عصر الخلفاء الراشدين. وقد ذكر الواقدي أن عمر بن الخطاب خط محراباً بالمدينة من جهة الشرق وهو موضع مسجده(٥٥)، و يروى المقدسي أن المسجد الأقصى على قرنه البلد الشرقي نحو القبلة أساساً من عمل داود (عليه السلام) طول الحجر عشرة أذرع وأقل منقوشة مؤلفة صلبة(٥٦)، واكتفى الطبري بقوله ثم مضى عمر بن الخطاب حتى يدخل المسجد ثم مضى نحو محراب داود.. فدخله ثم قرأ سجدة داود (عليه السلام)(٥٧). و يقدم ابن حوقل بعض التفاصيل عن المسجد وذكر أن في بيت المقدس مسجداً ليس في الاسلام مسجد أكبر منه، وله بناء في قبلته سقف في زاو ية من غربي المسجد ويمتد هذا التسقيف على نصف عرض المسجد والباقي من المسجد خال لا بناء فيه الا موضع الصخرة، فان هناك مجراً مرتفعاً، كالدكه عظيم كبير غير مستوٍ ، وعلى الصخرة قبة عالية مستديرة الرأس قد غشيت بالرصاص الغليظ السميك(٥٨).

وعلى هذه الصورة يتعذر على الباحث الوصول الى شكل مسجد عمر بن الخطاب أو المسجد الأقصى في عصر الخلفاء الراشدين، ولكن الباحث يكتفي بعرض مقارنة بين مساحة المسجد عندما شاهده أركولف و بين المسجد النبوي في مراحله الأولى التي تزامن المراحل الأولى لبناء المسجد الأقصى. لقد كانت مساحة المسجد النبوي في مراحله الأولى هي ٦٠ × ٧٠ ذراع(٥٩)، ولما كان هناك أنواع عديدة للذراع، فليكن الذراع الهاشمي الذي يعادل ٢٧ر٦٦ سم معياراً مناسباً في هذه المرحلة(٦٠)، فبذلك تكون مساحة المسجد النبوي تعادل ١٨٤٠ متر مربع . وعلى ذلك يكون الحد الأقصى الذي افترضناه للمسجد الأقصى هو ١٨٠٠ متر مربعاً يعادل تقريباً مساحة المسجد النبوي، أي أنه يمكن القول أن المسجد الأقصى كان في عصر الخلفاء الراشدين على هيئة المسجد النبوي في مراحله الأولى.

---

٥٥. الواقدي : المصدر السابق، جـ١، ص ٢٤.

٥٦. المقدسي : المصدر السابق، ص ١٦٧.

٥٧. الطبري : تاريخ الرسل والملوك ـــ دار المعارف بمصر ـــ ١٩٦٢، ج ٣، ص ٤٣٩.

٥٨. ابن حوقل : صورة الأرض ـــ بيروت ـــ ١٩٧٩م. ص ١٥٨.

٥٩. أحمد فكري : المدخل الى مساجد القاهرة ومساجدها ـــ دار المعارف بمصر ـــ ١٩٦١ ـــ ص ١٨٨.

٦٠. فالتر هنتس : المكاييل والأوزان الاسلامية ـــ ترجمة الدكتور كامل العسلي ـــ منشورات الجامعة الأردنية ـــ عمان ـــ ١٩٧٠ ـــ ص ٨٣ ـــ ٩٣. ويمكن تقديرها بحوالي ٦٦٫٥ سم. المرجع نفسه ص ٩١.

أما فيما يتعلق بأسوار مدينة دمشق ومسجدها، فقد تحدث أركولف عن مدينة دمشق وذكر أنها المدينة الملكية العظيمة، وأن المدينة تقع في سهل واسع ومحاطة بالأسوار ومحصنة بالعديد من الأبراج (٦١). وكرر المؤرخ بيده ما ذكره أركولف وأضاف أن عند المدينة أربعة أنهار(٦٢). ولم يقدم لنا الرحالة الغربيون الذين تعرضنا لهم من قبل شيئاً عن أسوار مدينة دمشق.

ويلاحظ أن اطلاق أركولف اسم المدينة الملكية على مدينة دمشق مرجعه أن أركولف أطلق لقب ملك العرب على معاوية بن أبي سفيان(٦٣). أما برنارد الحكيم الذي زار الشام ٨٧٠م/٢٥٥ـ ٢٥٦هـ فقد تعرض لذكر لقب أمير المؤمنين الذي يحكم جميع المسلمين وأن مقره بغداد(٦٤).

ولنتبع ذكر أسوار مدينة دمشق عند المؤرخين العرب، وقد تحدث عنها الواقدي عند حصار المسلمين للمدينة، وقال نحن أي العرب قد زحفنا اليهم رمونا بالسهام والحجارة من أعلى الأسوار(٦٥). ويفيد ذلك أن القتال كان من أبراج اقيمت أعلى الأسوار، وفي موضع آخر أشار الواقدي الى كلمة السور بصيغة المفرد(٦٦). فهل كانت المدينة محاطة بأكثر من سور. ان سير الأحداث يدل أن المدينة كانت محاطة بسور واحد، والدليل على ذلك ما رواه الواقدي «أن أصحاب رسول الله قصدوا الباب وكسروا الأقفال وقطعوا السلاسل، ودخل خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ووضعوا السيف في الروم، وهم مختلفون بين يديه إلى أن وصل إلى كنيسة مريم، وخالد بن الوليد يأسر ويقتل(٦٧). ويستدل من ذلك أن المسلمين اجتازوا سوراً واحداً حتى وصلوا الى داخل المدينة ولو كان هناك عدة أسوار لاجتاز المسلمون أكثر من باب للوصول الى عمق المدينة. وتفيد هذه العبارة أن وجود الأقفال والسلاسل يعني وجود قنطرة تتحرك لأعلى ولأسفل. تكون بمثابة باب للتحكم في دخول

---

٦١. Arculfus, Op. cit., p.47.

٦٢. Bede, Op. cit., p. 84.

٦٣. Arculfus, Op. cit., p. 14.

٦٤.

٦٥. الواقدي: المصدر السابق جـ١ ص ٤٢.

٦٦. الواقدي: المصدر السابق جـ١، ص ٧٤.

٦٧. الواقدي: المصدر السابق جـ١، ص ٨٠.

المدينة، وكان تحت هذه القنطرة خندق يملأ بالماء لاعاقة المهاجمين. والدليل على ذلك أن الطبري ذكر في الحديث عن فتح دمشق ومهاجمة المسلمين للسور «أن المهاجمين رموا بالحبال الشُرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم... وكان المكان الذي اقتحموا منه، أحصن مكان يحيط بدمشق، أكثره ماء واشده مدخلاً...» (٦٨)

أما أبواب المدينة فلم يتحدث عنها أركولف، وقد ذكرها الواقدي في مواضع متفرقة عند الحديث عن أنباء فتح المدينة، وهي باب شرقي وباب توما، وباب السلامة، وباب الجابية، والباب الصغير، وباب قيان، وباب الفراديس (٦٩). وعلى ذلك كان للمدينة سبعة أبواب وهو العدد نفسه الذي ذكره الدمشقي مع اختلاف المسميات (٧٠).

والخلاصة أن مدينة دمشق كانت في عصر الخلفاء الراشدين محاطة بسور واحد عليه شرفات مزود بالأبراج، وحول هذا السور خندق يملأ بالماء، وبالسور سبعة أبواب على شكل قناطر تفتح لأسفل عندما ترخى السلاسل وتغلق عندما تشد السلاسل لأعلى.

وحدثنا الرحالة أركولف عن مسجد بمدينة دمشق، وروى أثناء زيارته للمدينة أن ملك العرب ويقصد به معاوية بن أبي سفيان يتولى أمر الحكومة ويحكم من هذه المدينة، وبالمدينة كنيسة كبيرة واسعة بنيت على شرف يوحنا المعمدان، وبالمدينة أيضاً بنيت كنيسة (أي مسجد) للمسلمين وهم يترددون عليه (٧١).

والواقع أن هذه المعلومة في غاية الأهمية ويحتاج تحقيقها الى وقفة طويلة، فهي تفيد وجود مبنيين أحدهما كنيسة يوحنا المعمدان والثاني هو مسجد دمشق المعروف حالياً بالمسجد الأموي. وسوف اتتبع من المصادر العربية أخبار المسجد، ثم انتقل الى الرحالة الأجانب للتعرف على أخبار كنيسة يوحنا المعمدان، ومن المصادر العربية روى الواقدي عن أبي هريرة أن أهل دمشق صالحوا أبا عبيدة، وقالوا انا نريد منكم ـــ أي العرب ـــ ان تتركوا كنائسنا ولا تنقصوا علينا منها كنيسة وهي الجامع الآن بدمشق، فقال لهم أبو عبيدة

٦٨. الطبري: المصدر السابق جـ٣ ص ٤٣٩.

٦٩. الواقدي: المصدر السابق، جـ١ ص ٧٠، ٧٦، ٨٤.

٧٠. الدمشقي: نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، ١٣٤١ هـ ـــ ص ٢٤ ـــ ٢٦.

٧١. Arculfus, Op. cit., p. 47.

جميع الكنائس لا يؤمر بهدمها، قال أي أبو هريرة، وكان في دمشق كنائس واحدة تسمى كنيسة مريم، وكنيسة حنا، وكنيسة سوق الليل، وكنيسة انذار. وقد عارض خالد بن الوليد هذا الصلح ولكن عمر بن الخطاب أقر صلح أبي عبيده (٧٢). ويفهم من هذا النص أن بالمدينة كانت توجد كنيسة باسم يوحنا، وان المسلمين لم يأخذوا أية كنيسة في بداية الأمر طبقاً لهذا الصلح، وأن جامع دمشق أقيم على أحد الكنائس في مرحلة لاحقة.

أما الأزدي فقد روى أن صاحب دمشق أرسل الى أبي عبيدة فصالحه وفتح له باب الجابية، وألح خالد على الباب الشرقي، ففتحه عنوة، فقال خالد لأبي عبيدة: أقتلهم وأسبهم، فاني فتحتها عنوة فقال أبو عبيدة: لا إني قد أمنتهم (٧٣).

وروى خليفة بن خياط وقال فحدثني الوليد بن هشام عن أبيه عن جده قال: «كان خالد على الناس، فصالحهم فلم يفرغ من الصلح حتى عزل وولي أبو عبيدة، فأمضى أبو عبيدة صلح خالد ولم يغير الكتاب. والكتاب عندهم باسم خالد. هذا غلط لأن عمر عزل خالد حين ولي». ثم أضاف «حدثنا عبد الله بن المغيرة عن أبيه قال: صالحهم أبو عبيدة على أنصاف كنائسهم ومنازلهم وعلى رؤوسهم على أن لا يمنعوا من أعيادهم ولا يهدم شيء من كنائسهم (٧٤).

وجاء عند البلاذري «وزعم الهيثم بن عدي أن أهل دمشق صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وقال محمد بن سعد قال أبو عبد الله الواقدي. قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس، وقد روى ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه (٧٥).

وتحدث اليعقوبي عن فتح دمشق وقال «فلما طال على صاحب دمشق الأمر أرسل الى أبي عبيدة فصالحه وفتح له باب الجابية، وألح خالد على الباب الشرقي لما بلغه أن أبا عبيدة عزم على أن يصالح القوم، وأن القوم وثقوا به للصلح، ففتحه عنوة، فقال خالد لأبي

---

٧٢. الواقدي: المصدر السابق، جـ١ ص ٧٩، ٩٦.

٧٣. الأزدي، تاريخ فتوح الشام ـ القاهرة، ١٩٧٠ ـ ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

٧٤. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط ـ دمشق ـ ١٩٦٨ ـ ق ١ ـ ص ١١٢.

٧٥. الأزدي: المصدر السابق، ص ١٢٩.

عبيدة أسبهم فاني دخلتها عنوة، فقال لا قد أمنتهم، ودخل المسلمون المدينة (٧٦).

وروى الطبري أن صلح مدينة دمشق كان على المقاسمة، الدينار والعقار ودينار على كل رأس، فاقتسموا الأسلاب (٧٧).

وأورد سعيد بن الطريق (ت ٣٢٦هـ) نص الأمان الوارد في كتاب خالد بن الوليد وذكر «هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل مدينة دمشق: اني قد أمنتكم على دمائكم ودياركم وأموالكم وكنائسكم ألا تهدم ولا تسكن عليكم»، وتحدث أيضاً عن المسجد الذي بناه الوليد وقال: عندما أراد الوليد أن يبني «المسجد بدمشق دعا النصارى وقال لهم: اننا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم هذه كنيسة ماريوحنا، وكانت كنيسة حسنة جداً لم يكن في أرض الشام مثلها ونحن نعطيكم مالاً تبنون فيه كنيسة حيث شئتم، وإن شئتم أعطيناكم ثمنها وبذل لهم أربعين ألف دينار. فأبوا وقالوا: لنا ذمة وجاءوا بكتاب خالد بن الوليد. فغضب الوليد من ذلك وقام فقطع خشبه بيده وطوبه بيده فهدم الناس معه فزاد من ناحية شرقي المسجد والمقصورة كلها من كنيستهم وبقيت على هذا (٧٨).

وروى ابن عساكر روايات متعددة عن فتح دمشق لم يرد بها ذكر اقتسام كنيسة يوحنا، ولكنه أورد رواية على عهد الوليد بن عبد الملك ٨٦ ــ ٩٦ هـ / ٧٠٥ ــ ٧١٥م، وقال أن الوليد وكل زيد بن واقد على العمال في بناء جامع دمشق فوجد عماله به مغارة فعرفنا الوليد فلما كان الليل وافا وبين يديه الشمع فنزل، فاذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع بثلاثة أذرع واذا فيها صندوق ففتح الصندوق فاذا فيه سفط وفي السفط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام مكتوب عليه هذا رأس يحيى فأمر به الوليد فرده الى مكانه وقال العمود الذي فوقه مغيراً من الأعمدة... وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغيرا (٧٩).

وروى الرحالة ابن جبير قائلاً «والوليد هذا هو الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه من أيدى النصاري وأدخلها فيه، لأنه كان قسمين: قسماً للمسلمين وهو الشرقي،

٧٦. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ــ النجف ــ ١٣٥٨هـ ــ جـ٢، ص١١٨.

٧٧. الطبري: المصدر السابق ــ جـ٣، ص ٤٤٠.

٧٨. سعيد بن البطريق: المصدر السابق، ص ٤٢.

٧٩. ابن عساكر: التاريخ الكبير ــ مطبعة روضة الشام ــ ١٣٢٩ هـ جـ١ ص ١٤٦.

وقسماً للنصارى وهو الغربي، لأن أبا عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، دخل البلد من الجهة الغربية فانتهى الى نصف الكنيسة. وقد وقع الصلح بينه و بين النصارى، ودخل خالد بن الوليد، رضي الله عنه، عنوة من الجانب الشرقي وانتهى الى النصف الثاني وهو الشرقي، فاجتازه المسلمون وصيروه مسجداً و بقي النصف المصالح عليه وهو الغربي كنيسة بأيدي النصارى، الى أن عوضهم منه الوليد(٨٠)».

واستكمالاً لهذه القضية علينا أن نتبع ما ذكرته المصادر الأجنبية في هذا الصدد، فقد ذكر الرحالة ثيودوسيوس أن رأس يوحنا المعمدان قطعت في مدينة سبسطية Sebast (٨١). وزار الرحال أنطونيوس دمشق ولم يقدم لنا عنها شيئاً يفيد البحث، ولكنه ذكر عندما زار مدينة حمص أنه يوجد بالمدينة رأس يوحنا المعمدان وهي موضوعة في وعاء زجاجي وأن أنطونيوس ورفاقه قد شاهدوها بأعينهم داخل الوعاء(٨٢). وقد ورد في احدى الحوليات السريانية (٥٦٩م) أن رأس يوحنا المعمدان مدفونة بمدينة حمص كما زار الرحالة وليبالد مدينة دمشق عام ٧٥٤م، ولم يحدثنا عن كنيسة يوحنا المعمدان، وقد زار أيضاً مدينة حمص وقال أن بالمدينة توجد كنيسة كبيرة بنتها القديسة هيلينا على شرف يوحنا المعمدان ورأسه الآن في سوريا منذ وقت طويل، ولكاتب مجهول صنف خط سير رحله وليبالد في القرن الثامن الميلادي ذكر أن رأس يوحنا كانت موجودة في مدينة حمص لكنها نقلت بعد ذلك الى بيت المقدس(٨٣).

وأمام هذه الروايات العربية والأجنبية يمكن القول أن المسلمين لم يناصفوا المسيحيين كنيسة يوحنا المعمدان عندما فتحوا دمشق، وأن المسجد والكنيسة كان كل منهما قائماً بذاته في عصر الخلفاء الراشدين. كما أن الباحث لا يميل كثيرا الى أن رأس يوحنا المعمدان كانت موجودة في دمشق، وأن المشهد القائم الآن بالجامع الأموي للنبي يحيى (يوحنا) أقيم للتكريم فقط ولا يضم الرأس أو الجسد بداخله. يضاف الى ذلك أن المسجد والكنيسة كانا قائمين في منطقة معبد دمشق القديم وأن الكنيسة كانت تشغل

٨٠. ابن جبير: الرحالة ــ بيروت ــ ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ــ ص ٢٣٦.

٨١. Theodosius, Op. cit., pp.7-8.

٨٢. Antoninus, Op. cit., p. 36.

٨٣. Anonymous, The Itinerary of St. Willibald, p. 42.

جانباً صغيراً فيه، ولم يكن الحال كما كان عليه في مسجد عكا الذي زاره الرحالة ابن جبير في رحلته عام ٥٨٠ هـ/١١٨٤م، وذكر أن بالمدينة مسجداً وضع الافرنج في شرقيه محراباً لهم. فالمسلم والمسيحي يجتمعان فيه يستقبل هذا مصلاة وهذا مصلاة، وهو بأيدي النصارى معظم محفوظ وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين(٨٤).

وعلى أية حال فان ما دخل من تطورات على مسجد دمشق فليس لنا أن نتابعه في هذا البحث، ولذلك فإن أحيل القارىء الكريم الى البحث المنشور تحت اسم «أصالة الجامع الأموي الكبير»، مع ملاحظة أنه ورد في البحث أن خالد بن الوليد أقام الصلاة في الزاوية الجنوبية الشرقية للتيمينوس Temenos فكان هذا أول مسجد في الشام، وفيه أقيم أول محراب ما زال يحمل اسم الصحابة أو محراب الحنابلة(٨٥)، والصواب ما زال يحمل اسم الصحابة أو محراب المالكية، ولعل ما أوردناه هو خطأ مطبعي.

أما الأسوار التي أوردها أركولف، فقد تحدث عن سور مدينة بيت لحم، وذكر أن المدينة لا تتمتع بموقع متميز يتناسب مع شهرتها العظيمة باعتبارها مسقط رأس السيد المسيح، وأن المدينة تقع على شقة ضيقة في الجبل، وهي محاطة بالوادي من كل جانب، وحول المدينة يوجد سور منخفض بدون أبراج. و يبدو أنه كان هناك خندق حول المدينة في وقت سابق، فقد ذكر الرحالة يوخيريوس أن إلى الجنوب من القدس توجد مدينة بيت لحم حيث يوجد خندق ضيق جداً حول المدينة كما أن أسوار المدينة منخفضة و بدون أبراج. والحقيقة أن سور المدينة الذي شاهده أركولف هو الذي أعاد بناءه الامبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ ــ ٥٦٥م)(٨٦)، ولعل عند بناء السور الجديد طمر خندق المدينة فلم تتضح معالمه عند زيارة أركولف للمدينة.

والمرحلة الأخيرة من هذا البحث تتعلق بالجوانب الاجتماعية، ورغم أن أركولف لم يترك لنا ما كنا نتمناه الا أن ما تركه له دلالته ومعناه، فقد تحدث أركولف عن مدينة الناصرة وذكر أن المدينة الواقعة على مرتفع ليست محاطة بالأسوار، وأن بها منازل واسعة

٨٤. ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٧٦ ــ ٢٧٧.

٨٥. عفيف بهنسي: أصالة الجامع الأموي الكبير ــ مجلة العربي ــ كانون الأول ــ ١٩٨٤ ص ١٠٤ ــ ١٠٥.

٨٦. Procopius, Building, Cambridge, 1971, p. 359.

بـنيت من الحجارة و بالمدينة كنيستان إحداهما تقع في وسط المدينة وفي وسطها نبع عذب وأن المياه ترتفع من هذا النبع عن طريق عجلات، وأن هذا النبع يزود المواطنين بالماء (٨٧). وهذه اشارة طيبة تدل على التعايش الأخوي بين الطوائف المختلفة وأن الكنيسة كانت في خدمة المجتمع.

وأشار أركولف أيضاً الى جبل الطور، وذكر أن المنطقة مكسوة بالحشائش والزهور، وعلى قمة الجبل يوجد سهل فسيح محاط بالأشجار الكبيرة. وفي وسط هذا السهل يوجد دير كبير للرهبان و به عدد كبير من القلايات، وعلى هذا السهل أيضاً يوجد ثلاث كنائس كبيرة و ينزل بها عدد كبير من رجال الدين وأن هذه الأديرة الثلاثة والكنائس الثلاث محاطة بالأسوار(٨٨). وهذا دليل لم يكن الباحث في حاجة اليه ليؤكد أن الحكام المسلمين تركوا الأمور على حالها عند فتح الشام وأن كل انسان له حرية العبادة. أما فيما يتعلق بالرهبان فكان الباحث يود أن يذكر لنا الرحالة الطائفة التي ينتمي اليها هؤلاء الرهبان مثلما فعل الرحالة ويليبالد عندما تحدث عن الرهبان البندكتين أثناء زيارة لمنطقة مونت كازينو Monte Casino والمناطق الأخرى التي زارها في الغرب (٨٩). وفيما يختص بالسور الذي كان مقاماً على الجبل، فتاريخ هذا السور يرجع الى حوالي عام ٦٧م، وأن الذي أقامه يوسفيوس وأن بناءه استغرق حوالي أربعين يوماً (٩٠).

كما أورد الرحالة معلومة وإن كانت أقرب الى الأسطورة من الحقيقة، ولكن هذه المعلومة لها معناها. فقد سجل أركولف رواية مطولة حول منديل السيد المسيح موجزها أن أحد اليهود استولى على هذا المنديل وأخفاه، ومع السنوات ظهر هذا المنديل وكان ذلك أثناء زيارة أركولف للشام ولكنه كان في ملكية رجل غير مسيحي. وعندما ذاع هذا الخبر انقسم الى فريقين أحدهما مسيحي والآخر غير مسيحي وطالب كل فريق بملكية المنديل. واحتكم الفريقان الى معاوية الذي أخذ المنديل وأشعل ناراً ليلقى به فيها، ولكن المنديل طار واتجه

---

٨٧. Arculfus, Op. cit., p. 45.

٨٨. Arculfus, Op. cit., p. 86.

٨٩. Willibald, Op. cit., pp. 31, 33, 49.

٩٠. Josephus, Op. cit., pp. 323, 327.

الى الفريق المسيحي(٩١). ولعل في ذلك صوره الى أن أهل الذمة كانوا يحتكمون الى المسلمين اذا اختلف عليهم الأمر.

وأخيراً لقد صاحب أركولف بطرس البرجندي، وهو راهب عاش منذ فترة طويلة في بلاد الشام(٩٢) أي أنه عاصر جانباً من عصر الخلفاء الراشدين. وتدل طول فترة بقائه الى طيب الاقامة له في بلاد الشام، ولو كان هناك ما يكدر حياته لرحل. كما أن عدد الرحالة الذين وفدوا إلى بلاد الشام في الفترات اللاحقة لدليل على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار. وعلى ذلك يمكن القول أن المجتمع في بلاد الشام في عصر الخلفاء الراشدين ضم المسلم والمسيحي واليهودي والجميع عاشوا آمنين في ظل سماحة الاسلام.

---

٩١. Arculfus, Op. cit., pp. 12-15.

٩٢. Arculfus, Op. cit., p. 47 and n. 2.

بلاد الشام ــ الأرضية والقاعدة في التطلع العربي الاسلامي لفتح مدينة القسطنطينية

دراسة عسكرية ــ حضارية

عواد مجيد الأعظمي
كلية الآداب ــ جامعة بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

((ألم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد. يومئذ[1] يفرح المؤمنون بنصر الله. ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم)). صدق الله العظيم

كانت هذه الآيات الكريمات الخالدات أصدق تعبير، وأوجز تاريخ لصراع طويل سجال بين الفرس والروم الذين كانوا يشكلون أكبر تحد للأمة العربية الاسلامية عند بزوغ فجر الاسلام... فكانت أرض العرب ــ شرقاً وغرباً ــ من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي نهبة وطعمة سائغة في أيدي فرس عتاة وروم طغاة...

وبعد أن استقر الرسول الكريم (ص) في المدينة المنورة، وكوّن فيها أول دولة عربية اسلامية، بدأ يتطلع الى نشر الاسلام والدعوة اليه، حيث جعل من الاسلام والسلام والصلح عقيدة وهدفاً قبل اللجوء والاحتكام الى السيف والحرب...

وعلى ضوء هذه العقيدة وهذا المبدأ وجّه الرسول الكريم (ص) دعواته ورسائله الى ملوك العالم وأمرائه آنذاك... فكان من جملة من وجهت الدعوة اليه (هرقل) ملك الروم... وبرسالة حملها الصحابي العربي المؤمن ((دحية بن خليفة الكلبي)) عام ٦ هـ/٦٢٨م... وقد دون في هذه الرسالة كلمات ملؤها التقدير والسلام والانسانية نذكر بعض ما جاء فيها: ((أما بعد: فاني أدعوك بدعاية الاسلام، اسلم تسلم، واسلم يؤتك الله

---

١. سورة الروم ــ آية، ١ ــ ٥

أجرك مرتين...)).[٢]

لم يستجب ملك الروم لدعوة الرسول الكريم (ص) الاسلامية، ورغم أن رده على رسالة الرسول (ص) كان أقل وقعاً وأخف أثراً من رد كسرى ملك الفرس الذي مزق رسالة محمد (ص)، ولكن كان في رد ((هرقل)) نوع من الكبرياء والغرور، ولم يدر في خلده، ولم يك مصدقاً أن نبياً ورسولاً قد ظهر في الجزيرة العربية يحمل راية الوحدة العربية والايمان والاسلام الجديد...

وبذلك بدأ هرقل وأتباعه يقاومون الرسول (ص) ودعوته، وقد تجلّى ذلك في قتل رسول كان الرسول (ص) قد بعثه الى أمير الغساسنة في مدينة بصرى التي كانت تحت سيطرة الروم[٣]... وقد كان هذا بمثابة أول تحدٍ بيزنطي رومي على الصعيد السياسي (الدبلوماسي) أقدم عليه الروم ضد الأمة العربية الاسلامية الفتية..

وفي عام ٨ هـ/ ٦٣٠م كان الرد العربي الاسلامي، عندما أمر الرسول الكريم (ص) بغزو الروم، فكانت واقعة مؤتة المتاخمة للبلقاء من طرف البحر الميت الجنوبي بجيش عربي اسلامي قوامه ثلاثة آلاف مقاتل... وقد خرج الرسول (ص) بنفسه مودعاً هذا الجيش، مستعملاً عليهم زيد بن حارثة، وقال (ص): ان أصيب زيد فجعفربن أبي طالب، فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحه.

ونزل ((هرقل)) ملك الروم مآب من أرض البلقاء في جيش قوامه مائتي ألف من الروم وأتباعهم كما تشير الى ذلك مصادرنا التاريخية[٤].

استشهد زيد، واستشهد جعفر، وقال عبد الله بن رواحة قبل استشهاده معبراً عن عمق ايمانه بعقيدته وعزمه على النصر أو الشهادة قائلاً: ـ

يا نفس ألا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... أن تفعلي فعلهما هديت[٥]

٢. محمد حميد الله أبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، ١٩٦٩، ص ٨١...

٣. ف. حتى، تاريخ العرب المطول، جـ١، بيروت، ١٩٦١، ص ١٩٩.

٤. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، الطبعة الحسينية، ص ١٠٧.

٥. نفسه، جـ٣، ص ١٠٩.

لم يخسر العرب المسلمون في معركة مؤتة أمام الحشد الرومي الكبير ـ كما يحلو للبعض أن يصورها ـ فعندما استلم خالد بن الوليد الراية، آثر الانسحاب المنظم، وعاد بالجيش سالماً واستقبله الرسول الكريم (ص)، وسماه ((بالجيش الكرار وليس بالفرار)) وأنعم على خالد بن الوليد لقب ((سيف الله المسلول))(٦).

تميزت معركة مؤتة بأنها كانت أول منازلة عربية عسكرية ضد قوات أجنبية وقعت على أرض عربية محتلة من أرض بلاد الشام، كما تميزت بكونها كانت الطلقة الأولى في حرب التصدي والتحرير ضد البيزنطيين الروم.

وبعد أن حرر الرسول الكريم (ص) مكة والطائف من الشرك من عام ٨ هـ/ ٦٣٠م أدرك الروم أن هذا صار يهدد مصالحهم التجارية، وذلك بفقدهم طبقة تجار قريش وغيرهم، وتوقف القوافل التجارية القادمة الى الشام ومنها الى الجزيرة العربية، خاصة هؤلاء الذين كانوا يتعاملون معهم قبل الاسلام اضافة الى تهديد طرقهم ومسالكهم التجارية الى الشرق عبر البحر الأحمر والجزيرة العربية والخليج العربي... فأخذوا يحشدون جيوشهم الكبيرة لغزو الجزيرة العربية، وتهديد كيان الدولة العربية الاسلامية الفتية بقيادة الرسول الكريم محمد (ص)...

وقد وردت الى الرسول (ص) أخبار تجمع الروم وتحشداتهم(٧)، لذا قرر الرسول الكريم أمام هذا التحدي البيزنطي الرومي التصدي لهم ((فأمر الناس بالتهيؤ للغزو))، وكان ذلك سنة ٩ هـ/ ٦٣١م رغم ما كان يحيط بالمسلمين من ظروف صعبة في المدينة وعلى حد رواية الطبري: وكان ذلك في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وتخاذل المنافقين، حتى قال قائل منهم ((لا تنافروا في الحر)) فأنزل الله تعالى فيهم:

((وقالوا لا تنفروا في الحر. قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون))(٩). قاد الرسول (ص) هذه الحملة بنفسه ونزل عند ((تبوك)) وقد تميزت هذه الحملة بكونها كانت

٦. نفسه، جـ٣، ص١٠٩.
٧. البلاذري، فتوح البلدان، مصر، ١٩٥٩، ص٧١.
٨. الطبري، المصدر السابق، جـ٣، ص ١٤٢.
٩. نفسه، جـ٣، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

((غزوة بيضاء)) لم ترق فيها دماء، وقد تجنبها الروم، و يبدو أن ذلك كان بسبب تصاعد الشعور القومي العربي بين القبائل العربية القاطنة في هذه المنطقة ــ والتي كانت تتعاون مع الروم قبل ذلك وأدركوا ضرورة الانتماء الى بني جلدتهم من العرب، لذا جاؤوا يتسارعون الى عقد الصلح والأمان مع الرسول الكريم وهو في تبوك... فقد أتاه صاحب أيلة وأهل جرباء وأذرح، ومقنا، كما جاء خالد بن الوليد بأكيدر صاحب دومة الجندل (١٠).

ان هذه الأماكن كانت تشكل مواقع الروم الأمامية في بلاد الشام من ناحية القسم الشمالي من الجزيرة العربية التي اتصل بها الاسلام في غضون حياة النبي الكريم (ص).

بقيت مسألة التحدي البيزنطي الرومي للدولة العربية الاسلامية تشغل بال الرسول (ص) ولا تفارقه حتى في أواخر حياته.

وفي المحرم من سنة احدى عشرة للهجرة / ٦٣٢م، أعد الرسول (ص) جيشاً من المسلمين بقيادة اسامة بن زيد بن حارثة، وأمره بالتوجه الى مشارف الشام، وأن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وضم جيش أسامة كبار الصحابة من المهاجرين الأولين فيهم أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب.. و بينما المسلمون يتأهبون للخروج ابتدأ المرض برسول الله (ص) فتوقف أسامة عن المسير وعسكر بظاهر المدينة المنورة (١١).

و بهذا كان الرسول الكريم (ص) قد أرسى لخلفائه من بعده المبادىء الأساسية والقواعد الراسخة في مجابهة التحدي البيزنطي الرومي للأمة العربية الاسلامية.. ولم يكتف الرسول (ص) بذلك، بل كان يوجه انظارهم نحو تحرير عاصمتهم القسطنطينية، وضرورة ضمها ضمن حضيرة العالم العربي الاسلامي بقوله المشهور:

((لتفتحن القسطنطينية، ونعم الأمير أميرها، ونعم الجيش جيشها)) (١٢) الذي

١٠. نفسه، جـ٣، ص ١٤٧.

١١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، بيروت، ١٩٦٦، ص ٣١٧.

١٢. روى الحديث الامام أحمد بن حنبل في مسندة، باسناد حسن و يرى الزائر لمسجد ((أيا صوفيا)) في استانبول اليوم هذا الحديث منقوشاً على القاشاني على واجهة هذا المسجد..
كليتي، برنادين، فتح القسطنطينية، ترجمة شكري محمود نديم، بغداد، ١٩٦٢، ص ٣٧..

أصبح مناراً يهتدي به كل خليفة وقائد كان يروم فتحها وتحريرها...

وفي خلافة أبي بكر الصديق ١١ هـ ــ ١٣ هـ/٦٣٢م ــ ٦٣٤م، لم يكتف البيزنطيون الروم وحدهم في تحديهم وعدائهم للامة العربية الاسلامية وانما أخذوا يضمون الفرس المجوس الى صفوف جيشهم الذين كانوا بالأمس القريب من ألد أعدائهم.. والى هذا يشير الطبري:

عندما وصل خالد بن الوليد الى الفراض ــ والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة ــ حميت الروم واغتاضت، واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس وكان ذلك في النصف من ذي القعدة سنة أثنتي عشرة للهجرة، ودخل خالد بن الوليد معهم في قتال شديد وشتت شملهم(١٣).

لقد أصبح واضحاً أمام الخليفة أبي بكر الصديق أن الروم وحلفاءهم من الفرس لن يتخلوا عن مواقفهم العدائية للأمة العربية خاصة وأن الروم متواجدون على أرض عربية هي أرض الشام... ولذلك نفذ أبوبكر وصية الرسول الكريم (ص) في بعث جيش أسامة ابن زيد الى بلاد الشام.

و بعد أن فرغ الخليفة أبوبكر الصديق من حروب الردة، وأعاد توحيد الجزيرة العربية قرر أن يرسل أربعة سرايا الى بلاد الشام على كل منها ثلاثة آلاف مقاتل تولى قيادتها كل من عمرو بن العاص و يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وأبوعبيدة بن الجراح، وقد أحرزت هذه السرايا انتصارات رائعة على الروم في مواقع عديدة في الجنوب والجنوب الشرقي من بلاد الشام.. ثم أردف الخليفة أبوبكر هذه السرايا بخالد بن الوليد الذي قطع بادية الشام قادماً من العراق... فتجمعت الجيوش العربية بجميع قوادها عند اليرموك، وأمر القادة العرب عليهم خالد بن الوليد بانتظار المعركة الحاسمة...

أما هرقل ملك الروم، فانه أسرع عائداً من الرها (أودسا)، فأعد جيشاً وافر العدد والعدة، قدر بأكثر من مائة ألف مقاتل وعقد أمارته لأخيه ثيودورس.

وفي عام ١٣ هـ/٦٣٤م كانت معركة اليرموك الحاسمة، وانتصر فيها العرب على

---

١٣. الطبري، جـ٤، ص ٢٦..

الروم، وخرثيودورس صريعاً في المعركة.. وعندما بلغ هرقل خبر اليرموك هرب من أنطاكية الى القسطنطينية، فلما جاوز الدرب قال مودعاً أرض الشام ــ أرض سورية العربية قائلاً: ((عليك السلام يا سوريا سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود اليك رومي أبداً الا خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم وليته لم يولد)) (١٤).

لكن سورية العربية لم ترد عليه السلام ــ بل أجابته بانضوائها وعودتها الى العروبة والاسلام.

وأخذ القادة العرب يحررون مدن الشام الواحدة بعد الأخرى بصرى، ودمشق، ونابلس، واللد، وعمواس، و يافا، ورفح، وقنسرين، وأنطاكيا.

أما بيت المقدس، فقد تم تحريرها على يد الخليفة عمر بن الخطاب عام ١٥ هـ/٦٣٦م بناء على طلب أهلها وأسقفها صفرينوس (١٥)... و بنى الخليفة عمر أثناء مكوثه في مدينة القدس جامعاً فيها لا يزال يحمل اسم جامع عمر...

ومن الجدير بالذكر هنا أن القوات العراقية قد أسهمت و بشكل فعال في حرب اليرموك وتحرير بلاد الشام، فبعد أن تم النصر على الروم عادت هذه القوات الى العراق بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي لتسهم مع سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية الخالدة ضد الفرس المجوس (١٦).

العرب بناة حضارة وحملة رسالة انسانية فبعد أن حرروا بلاد الشام، شرعوا بتطبيق سياسة العدل والمساواة على جميع سكان المدن الشامية، وليس أدل على ذلك الا ما قاله أهل حمص للمحررين العرب: ((لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم)) (١٧)... وكذلك كان موقف أهل الذمة من النصارى واليهود، حيث عبّروا عن فرحتهم وسعادتهم لتحرير العرب لهم من سيطرة الروم

---

١٤. نفسه، جـ٤، ص١٥٦...

١٥. انظر التفاصيل: البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٤ ــ ١٤٥، والواقدي، فتوح الشام، مصر، ١٩٣٤، ص١٥٦ وما بعدها.. والعماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي من الفتح المقدس، مصر، ص١١٧ وما بعدها.

١٦. الطبري، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٢٠.

١٧. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٣.

وظلمهم، كما عبروا عن مساندتهم للعرب ضدهم (١٨).

وعندما زار الخليفة عمر بن الخطاب بلاد الشام عام ١٧ هـ/٦٣٨م، أمر بتنفيذ العديد من الاصلاحات فيها، فقام بتقسيم الأرزاق فيها، وتسمية الشواتي والصوائف، وسد فروج الشام ومسالحها، وأخذ يدور بها وسمي ذلك في كل منطقة، واستعمل عبد الله أبن قيس على السواحل (١٩).

وبعد تحرير بلاد الشام أدرك العرب المسلمون أن الروم الجاثمين على أرض مصر العربية، انما يشكلون أيضاً جبهة التحدي والاندفاع نحو بلاد الشام والجزيرة العربية من جهة الغرب، وبذلك استطاع القائد العربي عمرو بن العاص من اقناع الخليفة عمر بن الخطاب بأهمية مصر وموقعها وضرورة تحريرها من هيمنة البيزنطيين الروم، فتم له ذلك في عام ٢٠ هـ/٦٤١م....

لقد تواردت الأخبار الى الخليفة عثمان بن عفان ٢٣ هـ ـ ٣٥ هـ/ ٦٤٤م ـ ٦٥٦، ان هرقل ملك الروم مستمر في تدبير الخطط وتحين الفرص للانقضاض على العرب المسلمين عبر الحدود السورية الشمالية كما أدرك في الوقت نفسه قوة الأسطول البحري البيزنطي الرومي في البحر الأبيض المتوسط، وسيطرته على جميع الجزر فيه من قبرص، ورودس، وأرواد... لذا يرى الخليفة عثمان ضرورة ضرب الروم في عقر عاصمتهم القسطنطينية عن طريق بلاد الأندلس، وعلى حد رواية الطبري المسندة عن محمد وطلحة أنهما قالا: أن عثمان كتب الى من انتدب من أهل الأندلس: أما بعد: فان القسطنطينية انما تفتح من قبل الأندلس، وانكم أن افتتحتموها كنتم شركاء من يفتحها في الأجر والسلام)) (٢٠).

ان الفكرة في هذا المشروع قد تبدو ضخمة لأول وهلة، وكأنها أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة (٢١).

---

١٨. نفسه، ص ١٤٣.
١٩. الطبري، جـ٤، ص ٢٠٣.
٢٠. نفسه، جـ٥، ص ٥٠
٢١. فتحي عثمان، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري القاهرة، بلا، ص ١٨٥.

والواقع : أن مثل هذا المشروع الجبار المبكر أن دل على شيء فانما يدل على مدى الثقة والايمان المطلق الراسخ في قوة العرب ، وتنامي قدراتهم العسكرية ، أمام استمرار التحديات البيزنطية الرومية ، بحيث أصبح من الممكن تحقيق ما يصبون اليه عاجلاً أم آجلاً أمراً سهل المنال ولا يقف أمام تقدمهم بعد المساومة ، ولا يمنعهم من ذلك مانع بري أو بحري من أجل الوصول الى هدفهم...

ان مشروع الخليفة عثمان بن عفان وان لم يتحقق في خلافته ، لكنه رسم الطريق أمام الأمة العربية الاسلامية في حاضرها ومستقبلها السياسي والعسكري آنذاك .. فقد تمكن العرب فعلاً وبعد سنوات معدودة من التقدم نحو القسطنطينية وفرض حصارات عديدة عليها من البر والبحر... فقد وصل معاوية بن أبي سفيان الى خليج القسطنطينية عام ٣٢هـ/ ٦٥٣م عندما كان والياً على بلاد الشام .. وعندما تولى مركز الخلافة بعث ابنه يزيد بحملة كبيرة الى القسطنطينية عام ٤٨ هـ/٦٦٨م ومعه أبناء كبار الصحابة أمثال عبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، والصحابي المعروف أبو أيوب الأنصاري الذي توفي ودفن قرب أسوار القسطنطينية ولا يزال قبره شاهداً الى الآن يروي قصة هذا الحصار.. وكذلك ما كان من الحصار الكبير الذي فرضه مسلمة ابن عبد الملك بن مروان على مدينة القسطنطينية في خلافة أخيه سلمان بن عبد الملك والذي دام عاماً كاملاً ما بين عام ٩٨ هـ ــ ٩٩هـ/ ٧١٦ ــ ٧١٧م... كما تمكن العرب المسلمون من تحرير شمال افريقيا من هيمنة البيزنطيين الروم ، كما حرروا بلاد الأندلس بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد في خلافة الوليد بن عبد الملك من سيطرة الفرنج منذ عام ٩٢هـ/ ٧١٠م.

قام معاوية بن أبي سفيان أثناء ولايته على بلاد الشام بجهود كبيرة في التصدي للبيزنطيين الروم وايقاف تحديهم للأمة العربية الاسلامية في البحر والبر منذ أن عين والياً عليها من قبل الخليفة عمر بن الخطاب عام ٧٠هـ/ ٦٤١م فقد أدرك معاوية منذ الوهلة الأولى لولايته أن انتصارات العرب على الروم والتصدي لهم في البر ليس كافياً وأنه لا بد لهم أن يتقدموا عليهم في البحر أيضاً..

وقد أظهر معاوية رغبته هذه منذ أن عين والياً على بلاد الشام واستأذن الخليفة عمر

بركوب البحر غير أنه لم يأذن بذلك(٢٢) ..... ولكن رغبته هذه قد تحققت بخلافة عثمان بن عفان بعد أن أذن له بذلك، و يروى ((أن أول من غزا في البحر كان معاو ية بن أبي سفيان في خلافة عثمان)) وكان ذلك في سنة ٢٨ و يقال سنة ٢٩ للهجرة في حملته الأولى على جزيرة قبرص، ومعه امرأته فاخته بنت قرضه، كما حمل عبادة بن الصامت معه امرأته أم حرام الأنصارية أيضاً(٢٣)... وهذا يدلل على أصالة المرأة العربية ومساهمتها في التصدي للعدو ليس في البر فقط، وانما في البحر أيضاً....

ركز معاو ية جهوده البحرية على ترميم الموانيء الساحلية وشحنها بالمال والرجال واقامة مؤسسات مدنية وعسكرية واسعة فيها، تمثل ذلك في انشاء الحصون، وتنظيم المقاتلة، واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها، واقطاع القطائع لكل من سكنها(٢٤)...

و بذلك أقام معاو ية خطاً ساحلياً دفاعياً متيناً على طول الموانيء المطلة على البحر الأبيض المتوسط من أنطاكيا، وجبيل، و بيروت، وصور، وصيدا، وعكا في مجابهة أي محاولة قد يقوم بها الروم في غزو بلاد الشام عن طريق البحر...

كما وجه معاو ية عنايته الفائقة في انشاء دور لصناعة السفن وقد اتخذ من عكا مكاناً لذلك، وأمر بجمع الصناع والنجارين، ورتبهم في السواحل و يروى أنه غزا جزيرة قبرص عام ٣٣ هـ/٦٥٣م في خمسمائة مركب(٢٥)....

و بهذا أصبح الأسطول البحري العربي من القوة بمكان أن يضاهي و يتفوق على الأسطول البحري البيزنطي الرومي في البحر الأبيض المتوسط وقد تجلى ذلك في تحرير جزر قبرص ورودس، وأرواد، كما اشتهر من أمراء البحر العرب عبد الله عن قيس الحارثي الذي غزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة في البحر دون أن يخسر فيها معركة واحدة(٢٦).....

---

٢٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٥٧.
٢٣. نفسه، ص١٥٧ ـــ ١٥٠، والطبري، جـ٥، ص٥٣.
٢٤. نفسه، ص١٥٨.
٢٥. نفسه، ص١٥٨.
٢٦. الطبري، جـ٥، ٥٣.

وقد ألحق الأسطول البحري العربي هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطي الذي كان بقيادة الامبراطور قسطان الثاني، وتوغلوا في بحر ايجه هدفهم القسطنطينية (٢٧).....

وقد أقام معاوية بن أبي سفيان علاقات حسنة وطيبة مع سكان الجزر التي تم تحريرها من الهيمنة البيزنطية الرومية، ففي جزيرة قبرص مثلاً أمر أهلها على اقامة طقوسهم وشعائرهم الدينية، وصيانة ممتلكاتهم وكنائسهم وأديرتهم.. وبنى فيها المساجد كما شيد مدينة فيها، وأسكن اثني عشر ألفاً من العرب فيها تطبيقاً لمبدأ التعايش السلمي مع سكانها.. (٢٨).

ان ما كان يتوقعه معاوية من استمرار تحدي البيزنطيين الروم للعرب في الجبهة البحرية قد وقع فعلاً... فقد تجمع الأسطول البحري البيزنطي بقيادة كونستانس الثاني ابن هرقل أمام السواحل المصرية في فينكس (فنكي اليوم)، مما دعا بمعاوية أن يسير الأسطول الشامي بقيادة بسر بن أبي أرطأة لمساعدة الأسطول المصري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فكانت معركة الصواري أو ذات الصواري التي انتهت بانتصار الأسطول البحري العربي انتصاراً رائعاً على الأسطول البيزنطي (٢٩)... حتى وصف بعض المؤرخين المحدثين هذه المعركة البحرية بأنها كانت، ((يرموكاً ثانياً على الروم)) (٣٠)...

وقد اختلف في سنة هذه المعركة البحرية، فيذكر الطبري، عن اسحاق بن عيسى: أن غزوة الصواري كانت في سنة ٣٤هـ/٦٥٥م، وفي رواية أخرى يذكرها الطبري أيضاً عن الواقدي: أنها كانت في سنة ٣١هـ/٦٥٢م (٣١)..

واني أفضل رواية الواقدي خاصة وأن معاوية بن أبي سفيان لم يعد يخشى أية قوة بحرية بيزنطية تعيقه من التقدم أو قد تباغته من الخلف أثناء حملته نحو مدينة القسطنطينية كما تم له ذلك، عندما دخل خليج القسطنطينية في عام ٣٢هـ/٦٥٣م (٣٢)...

٢٧. د. عبد القادر أحمد اليوسف، الامبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٦٦، ص ٩٦ ـ ٩٧.

٢٨. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٨.

٢٩. الطبري، جـ ٥، ص ٦٩ ـ ٧٠.

٣٠. ف. حتي، تاريخ العرب المطول، جـ ١، ص ٢٦٤، عن ثيوفانس، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٥.

٣١. الطبري، جـ ٥، ص ٦٨.

٣٢. اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، النجف، ١٩٣٩، ص ١٥٨.

أما على الجبهة البرية فقد أولى معاوية اهتماماً كبيراً بالثغور الشامية والثغور الجزرية . . .

والثغر يعني هنا خط الحصون الخارجي ما يلي أرض العدو من أرض العرب . . . .

والثغور الجزرية تقع شمال دجلة والفرات وهي خط المعاقل التي اتخذت للدفاع عن العراق نذكر منها :

شمتاط ، وملطية ، ومرعش ، والحدث ، وزبطره . . .

أما الثغور الشامية ، فهي الأماكن المحصنة التي تحمي الشام من تحدي الروم وعدوانهم ، نذكر منها : طرسوس ، واذنه (أضنه) والمصيصه(٣٣) . . .

ومن القواد العرب الذين اشتهروا في جبهة الثغور الشامية : ميسرة بن مسروق العبسي ، ومالك بن الأشتر النخعي(٣٤) . . .

أما من القواد العرب الذين برزوا في منطقة الثغور الجزرية ، فكان منهم حبيب بن مسلمة الفهري ، وصفوان بن المعطل السلمي(٣٥) . . . .

وبذلك أصبحت الثغور الجزرية والثغور الشامية خطوطاً دفاعية متينة في وجهه التحديات الرومية البيزنطية على الجبهة البرية .

وقد شكلت الصوائف والشواتي جزءاً لا يتجزأ من معارك الرد والتصدي في ضرب قواعد الروم العسكرية وحصونهم وقلاعهم في عمق أراضيهم . .

وكان الخليفة عمر بن الخطاب أول من سمى الشواتي والصوائف عندما زار الشام عام ١٧ هـ / ٦٣٨م(٣٦) .

ولكن معاوية بن أبي سفيان جعلها بشكل حركات عسكرية دائمة ومنظمة . . .

---

٣٣. البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٨ .

٣٤. نفسه ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .

٣٥. نفسه ص ١٦٩ .

٣٦. قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج ، ليدن ، ص ٢٥٩ .. و د. عواد مجيد الأعظمي الأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٢١٣ .

ويشير البلاذري الى ((أن بني أمية كانت تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية، وما يلي ثغور الشام والجزيرة، وتقيم المراكب، وترتب الحفظة في السواحل، يصاحبها التيقظ والحذر، وعدم الاغفال))(٣٧).

ان أهم ما كانت تتميز به الصوائف والشواتي اضافة الى كونها عمليات التصدي العسكري لكل تحديات الروم على الأرض العربية الشامية والعراقية، الا أنها كانت في الوقت نفسه بعثاً مستمراً لتناهي قدرات العرب، ورفع معنوياتهم العسكرية، كما كانت تبعث في نفوسهم الهمة والنشاط، والتكييف لظروف الطبيعة وقساوتها من حر، وبرد، وثلج، وريح عاتية.... وأخيراً ــ وليس آخراً.... فهذه صورة واحدة من بين العديد من الصور عبر تاريخنا العربي الاسلامي التي تمثل تحديات القوى الأجنبية ضد امتنا العربية وكيفية التصدي البطولي العربي لها....

واليوم تخوض قواتنا العربية العراقية حرباً مقدسة عادلة ضد أكبر تحد قادم من قم وطهران على أيد فرس مجوس كفره ــ طغاة عتاة، يريدون شراً بشعبنا وأرضنا....

ولكن هيهات أن يتحقق حلم هؤلاء التتر الجدد، وفي العراق شعب واحد موحد، وجيش باسل شجاع، يقوده بطل ملهم، وقائد فذ هو صدام حسين حفظه الله.

٣٧. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٧.

تاريخ مدينة دمشق : مصدر لم يدرس وأهميته في تاريخ صدر الاسلام

سكينة الشهابي
مجمع اللغة العربية ــ دمشق

تمهيـد :

أليس من أعاجيب القدر أن نجد شمس الحضارة العربية تميل نحو المغيب في بغداد في الوقت الذي كان فيه حافظ دمشق الكبير يلملم معطيات هذه الحضارة ليودعها في كتاب ضخم خوفاً عليها من الضياع والتلف.

لن أضع بين يدي بحثي تعريفاً بالحافظ الكبير علي بن الحسين بن هبة الله، ابن عساكر المتوفي سنة احدى وسبعين وخمسمائة، ولن أقدم دراسة لبيئته وعصره، كذلك لن أتحدث عن كل مؤلفاته لأن تعداد هذه المؤلفات مع تعريف كل منها بأسطر يحتاج الى بحث كامل. ولكنني سأخص بحديثي أضخم مؤلف للحافظ الكبير وهو تاريخ مدينة دمشق، وسأحاول مستخيرة الله أن أبين مدى أهمية هذا الكتاب الكبير في تأريخ عصر صدر الاسلام. ولن يكون حديثي عنه من خلال البحوث والدراسات والتآليف فقد سبقني الى ذلك كثيرون، وما زلنا حديثي العهد بمهرجان ابن عساكر الكبير الذي أقيم بدمشق عام تسعة وتسعين وثلاثمائة وألف، ولكن ما أقدمه في هذه الندوة عن تاريخ دمشق نابع من طبيعة عملي في تحقيق التاريخ، وتجاربي في هذا العمل، سوف أعرف بالتاريخ من خلال التاريخ، وأكشف عن كنوزه وجواهره مستمدة ذلك من نصوص قرأتها وكتب كشفت عنها كانت موارد للحافظ في تاريخه، وسأبدأ ذلك كله بتقديم هيكله الضخم ومنهج الحافظ في بنائه وتصوري للمراحل التي تم فيها بناؤه.

إن مدة اثني عشر عاماً أمضيتها بصحبة تاريخ مدينة دمشق جعلتني أدرك أن هذا التاريخ يضم خلاصة للحضارة العربية الإسلامية على مدى خمسة قرون من عمر الزمن، أليس من الأهمية بمكان أن نكشف عن معطيات هذه الحضارة، وأن نعرف بها ؟ ومن جهة ثانية فإن المنهج الذي سار عليه الحافظ في التاريخ، وهو الحرص على الرواية بالسند الكامل وضعت اليد على موارده في هذا التاريخ وكشفت عن مئات الكتب التي تنظّم الحافظ ما

فيها من مادة تنظيماً موضوعياً ، ثم وضع كل قطعة فيها في موضعها المناسب من تراجمه ، وبين يديها الدليل على هويتها وهو طريقه إلى الكتاب الذي أخذ منه ، ومن هنا جاءت أهمية الكتاب ، اننا لسنا في الحقيقة أمام تاريخ لدمشق ورجالها ولكن أمام أهم المصادر العربية التي ألفت منذ بداية عهد التأليف الى نهاية القرن الخامس الهجري وليس ذلك في موضوع واحد فهناك التاريخ الحديث والأدب والشعر والنقد والتفسير.. الى آخر الموضوعات التي امتلأت بها الخزانة العربية ، واهتم بها الفكر العربي الاسلامي ، حتى أننا لنجد نقول الحافظ من كتب فنعجب كيف فطن اليها ، واستطاع أن ينزلها منزلها المناسب . واذا تذكرنا أن قسماً كبيراً من أمهات الكتب العربية أتت عليها الأحداث والمحن ازدادت حفاوتنا بتاريخ مدينة دمشق وحرصنا عليه لأنه جمع لنا ما تشتت ، وصان ما عملت على ابادته همجية التتار والغزاة .

ولكن النكبات التي حلت بهذه الأمة لم يسلم منها تاريخ مدينة دمشق نفسه فجعلته قطعاً ممزقة في مكتبات العالم ، بل إن هذه النكبات امتدت الى جسم التاريخ فنهشت من لحمه ، وأبادت أجزاء كثيرة مما كتبه القاسم ابن المصنف بخط يده ، وأفنى في ذلك السنين الطويلة (١) ، فلم يصلنا من هذه المجلدات الا أصول متأخرة لا تخلو من خروم وسقط . ومن يصدق أن مدينة دمشق التي ولد التاريخ في أحضانها لم نعثر فيها على قطعة واحدة مما كتبه القاسم بن المصنف بخط يده ، وأن المجلدات التي قاومت ضربات الزمن من أصل المصنف المسموع عليه وجد أكثرها في مكتبة الأزهر ، ومن يصدق أن مجلده مما كتبه القاسم بيده عثر عليها في الولايات المتحدة الأمريكية (٢) فكيف يصل ما كتبه القاسم الى الولايات المتحدة ولا نعثر على ورقة واحدة منه في دمشق هذه المدينة التي شهدت تسويد التاريخ وتبييضه ؟ .

أما أصل التاريخ الذي ضمته خزانة المكتبة الظاهرية بدمشق فنسختان متأخرتان مليئتان بالخروم والسقط والتصحيف والتحريف يعود تاريخ نسخهما الى بداية القرن الثاني عشر الهجري .

---

١. كتب القاسم ابن المصنف التاريخ مرتين ، كتب نسخة الأصل وسمعها على والده في مدة ست سنوات وكتب نسخته المستجدة والتي قسمها الى ثمانين مجلدة وسمعها في مجالس عامة في مدة أحد عشر عاماً . وسيلي تفصيل ذلك .

٢. كانت في جامعة كولومبيا تحت رقم ١٥٣ .

ولن أتحدث عن العوامل الكثيرة التي تركت ندوباً بارزة في جسم التاريخ، فقوة بنائه وصلابة جسمه كفيلان برأب الصدع، وتضميد الجراح، ولذلك بحث آخر.

١ ـــ منهج الحافظ في تقسيم التاريخ وتنسيق التراجم:

تاريخ مدينة دمشق أضخم كتاب ألف في أحوال المدن وتراجم رجالها على الإطلاق، وسوف يتبادر الى الذهن أن كتاباً بهذه الضخامة لا بد أن يحتوي على كثير من الفوضى، ولكن الدارس له والمتغلغل في أعماقه سوف يجد فيه من الدقة والنظام ما يجعله ينحني إجلالاً أمام هذا الرجل الأعجوبة الذي استطاع أن يقرن سلامة المبنى بصحة المعنى، وأن يسير في كتابه كله على نسق متشابه، ووفاق منهج محدد.

يتألف الكتاب بموجب تجزئة الأصل من سبع وخمسين مجلدة، وتتألف المجلدة من عشرة أجزاء ويضم الجزء عشرين ورقة تنتهي بالسماعات والتعليقات، ومعنى هذا أن الكتاب كله يتألف من سبعين وخمسمائة جزء(٣).

وهذه التجزئة تقسيم هندسي محض لا علاقة له بمضمون الكتاب، قُدّر فيه الجزء بكراريس معينة متى تم العدد الذي خص به الجزء منها تم مجلس السماع، وسجل السامع الأول ـــ وهو القاسم بن المصنف ـــ اسمه، وتاريخ قراءته على والده، وسجل أيضاً اسم ابنه محمد الذي كان يحضر مجلس السماع على جده أبي القاسم(٤).

كذلك فإن هذه التجزئة لا علاقة لها بنهاية التراجم وبدايتها، فقد ينتهي الجزء من غير أن تتم الترجمة فترجأ الى بداية الجزء الجديد، ويشار في نهاية الجزء الى العبارة التي سوف يستهل بها الجزء التالي(٥).

---

٣. هناك تجزئة أخرى قسمت التاريخ الى ثمانين مجلدة أي (٨٠٠) جزء وهي أحدث من الأولى دلت التعليقات والملاحظات في آخر الأجزاء وفي هوامش الأصل أنها من صنع القاسم ابن المصنف.

٤. يلي هذا السماع سماع عام على المصنف، ثم تتوالى السماعات على ابنه القاسم، وعلى المشاهير الذين سمعوا التاريخ من الحافظ بحق سماعهم منه.

٥. مثال على ذلك ما نجده في الورقة ٦٤ من المجلدة (٢٩) حيث انتهى الجزء الثالث والثمانين بعد المائتين قبل أن تنتهي ترجمة عبد الله بن المبارك بمقدار ورقة.

وهذا التقسيم على جانب كبير من الأهمية في حفظ التاريخ سليماً نقياً من العبث والسقط والتحريف وكما يختم الجزء ختماً واضحاً يبدأ الذي بعده بدءاً واضحاً، فيسمى الجزء و يذكر اسم الله تلي ذلك عبارة القاسم المعروفة : «أخبرنا والدي علي بن الحسين بن هبة الله ...»، ومن ثم يبدأ بالرواية التي وعدنا بها في الجزء السابق(٦) .

وتفكير الحافظ المنظم يطالعنا منذ بداية التاريخ، فقد استطاع أن يضع بين يدي هذه الموسوعة الضخمة مقدمة موجزة مركزة بليغة بين فيها نهجه في الكتاب والباعث له على تأليفه، والمراحل التي رافقت هذا التأليف، ولم ينس أن يسمعنا أنات عميقة عبر فيها عن ثقل الشيخوخة، ورهبة المجهول، وآلام الدهر ومصائبه(٧) . ثم افتتح تاريخه الكبير بمجلدة كاملة تحدث فيها عن فضائل الشام وما جاء في ذلك من حديث وأخبار وآثار. و بعد أن أسهب وأطنب، ولم يترك في هذه الفضائل مقولة لقائل انتقل الى الحديث عن خطط هذه المدينة، وفي سبيل ذلك قام بمسح جغرافي عمراني لدمشق الشام في عصره تناول فيه جميع مرافق المدينة أسوارها وأنهارها، وأبنيتها وأقنيتها، وجوامعها، وكنائسها، وحماماتها. وقد قرن في حديثه عن ذلك كله الحاضر بالماضي؛ وكان يعتمد أسلوب الرواية تارة، والوصف الذاتي لما يرى و يعرف تارة أخرى، وأسمعنا صوته وقلما فعل ذلك في غير هذه المجلدة. وفي منتصف المجلدة الثانية تبدأ التراجم وأولها ترجمة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ترجم ابن عساكر في تاريخه لكل من سكن دمشق أو اجتازها من الوجهاء والعلماء والمشاهير ورتب أسماء مترجميه على حروف المعجم مراعياً في ذلك أسماء الآباء بعد أسماء المترجمين، واتسعت دائرته الزمنية فامتد بها منذ أقدم الأنبياء والمرسلين الى عصره، فتناول في التاريخ كثيراً من شيوخه، وعدداً من شيخاته ورجال السياسة والوجهاء الذين عاصروه.

---

٦. المجلدة ذاتها.

٧. يقول الحافظ : «اما بعد فاني كنت بدأت قديماً بالاعتزام، لسؤال من قابلت سؤاله بالامتثال والإلتزام، على جمع تاريخ لمدينة دمشق أم الشام، حمى الله ربوعها من الدثور والانقصام» ثم يقول : «فبدأت به عازماً على الإنجاز له والاتمام، فعاقت عن انجازه واتمامه عوائق الأيام، من شدة الخاطر، وكلال الناظر، وتعاقب الآلام، فصدت عن العمل فيه برهة من الأعوام، حتى كثر علي في اهماله وتركه لوم اللوام... وظهر ذكر شروعي فيه حتى خرج عن حد الاكتتام، وانتشر الحديث فيه بين الخواص والعوام، وتطلع إلى مطالعته أولو النهي وذوو الأحكام، ورقي خبر جمعي له الى حضرة الملك القمقام. الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام».

ولو تذكرنا تاريخ دمشق الحضاري، وذلك المركز الذي احتلته عبر العصور أيقنا أنه قلما نجد شخصية كبيرة لا تمر بدمشق، أو لا يأتي ذكرها في خبر من الأخبار أو أكثر، ومن هنا جاء تاريخ دمشق بهذه الضخامة، وزاد عدد التراجم فيه هذه الزيادة الهائلة.

ومنهجية ابن عساكر وتفكيره المنظم يقترن فيهما المبنى بالمعنى حين ننظر الى طول التراجم وقصرها.

وقولي هذا خاص بعظماء الرجال وأعني بذلك الأنبياء والخلفاء والقادة والمحدثين والأولياء ـ وسوف يدرك سامعي ما أعنيه حين يعلم أن أكثر من مجلدة من مجلدات التاريخ. كان خاصاً بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن أخبار أبي بكر استغرقت مجلدة كاملة، وأن ترجمة عمر زادت عن ثلاثة أرباع المجلدة ومثله في ذلك عثمان وعلي ثم لا نجد ترجمة بمثل هذه الضخمة أبداً. وهكذا فان طول الترجمة يتناسب طرداً مع مكان المترجم في الاسلام، ولهذا زادت التراجم الخاصة بالمحدثين في طولها على تراجم الملوك وعظماء التاريخ، بلغت ترجمة عبد الله بن المبارك أكثر من ٣٠ ورقة من أصل التاريخ، بينما لم تبلغ ترجمة عبد الملك بن مروان هذا المقدار، و بلغت ترجمة عمر بن عبد العزيز ثمانيا وأربعين ورقة بينما لم تصل ترجمة عبد الملك الى نصف هذا المقدار، وهو من هو في تأسيس الدولة الأموية، وتثبيت دعائمها.

وكلما علت مكانة الرجل في الإسلام، وازداد قرباً من الله استطاع أن يحتل مكاناً أوسع في تاريخ دمشق، بل أن فرص دخول المتصوفة والزهاد والعباد كبيرة جداً في تاريخ دمشق وما أكثر المتصوفة الذين بلغت تراجمهم أضعاف ترجمة نور الدين الشهيد هذا البطل المناضل الذي كان وراء اتمام التاريخ كله مشجعاً ودافعاً، لم يخصه الحافظ بأكثر من وريقات قليلة التزاماً بالمنهج الذي سار عليه من جهة، ومن جهة أخرى لكي لا يظن ظان أنه كان يجامل صاحب منصب أو نفوذ.

أما اذا تجاوزنا هذه الطبقة من مترجمي التاريخ، ونظرنا الى بقية المشاهير الذين سكنوا دمشق أو اجتازوا بها، أو كانوا من وارديها وأهلها فهناك اعتبارات أخرى تتحكم في طول الترجمة وقصرها، يأتي في مقدمتها تواتر الأخبار، والمكانة التي يحتلها المترجم في كتب الأدب والتاريخ، ولهذا نرى أن ترجمة عريب المأمونية أطول من ترجمة آمنة بنت يزيد

ابن السكن، وترجمة عائشة بنت طلحة أطول من ترجمة أميمة بنت رقيقة.

وهكذا نرى أن الحافظ قدر خطواته في تاريخه تقديراً دقيقاً، ورسم مواضع أقدامه رسماً واضحاً في كل خطوة يخطوها. وكأن صورة هذا البناء الضخم الذي شيده كانت ماثلة في ذهنه بكل أبعادها فلا يسهو، ولا يهم، وما أكثر ما يعيدنا الى ما تقدم في شيء ذكره حرصاً على عدم التكرار.

أسماء المترجين في التاريخ مسوقة على حروف المعجم، وأسماء آبائهم ضمن الحرف الواحد مسوقة على حروف المعجم، وهناك في المترجين من عرف بنسب أو شهرة، ولم يعرف اسم أبيه هؤلاء وضعهم في نهاية التراجم في كل حرف من الحروف فترجمة عاصم الرقاشي في آخر تراجم من يسمى عاصماً، وترجمة عامر جمل بعد عامر بن يحيى وفي آخر من يسمى عامراً(٨) وكذلك فإن ترجمة عبد الله الأسدي بعد ترجمة عبد الله بن يوسف وقبل عبد الله البطال وعبد الله الطويل بعد عبد الله البطال(٩).

كذلك هناك في مترجمي التاريخ من عرف بكنيته، ومن عرف بأبيه، هؤلاء وضعهم بعد أن تمت أسماء مترجيه مسوقة على حروف المعجم، وهؤلاء، أيضاً راعى في توالي تراجمهم الترتيب الهجائي الدقيق في الكنى أولاً ثم من عرف بأبيه ثانياً، ثم من عرف بلقب أو شهرة ثالثاً.

ولم يبق أمام الحافظ إلا مجموعة من المجاهيل، هؤلاء وردت الرواية عنهم من غير التصريح بأسمائهم، ولكن الأخبار التي رو يت عنهم هامة، من أجل ذلك ختم بهم تراجم الرجال. فقد يكون المجهول أعرابياً شاعراً من أهل نجد، وقد يكون شاعراً من أهل دمشق، وقد يكون رجلاً من أصحاب الحديث، وقد يكون رجلاً مستجاب الدعوة وقد يكون شيخاً حكى عنه رجل معروف. وفي هؤلاء يترك الحافظ الترتيب الهجائي فيما اصطلح أن يطلقه عليهم من تعريف، فيأتي «شيخ متعبد» بعد رجل من العباد، وصديق للقاسم بن عثمان قبل رجل متصوف، وشاب من الصالحين بعد شيخ كان يكون بكناكر(١٠). ولا شك أن الحافظ قد راعى في توالي أخبار هؤلاء المجاهيل أهميتها ما دامت هذه

---

٨. أنظر (عاصم ـ عايذ ص ٩٠، ٤٨٢).

٩. انظر م ٢٩ ل ١٨٨.

انظر أصل الظاهرية نسخة سليمان باشا م ١٩/١٨٦ ب، ١٨٦آ، ١٨٦آ، ١٨٣آ، ١٨٤آ، ١٨٥ آ.

الاصطلاحات التي عنون بها الأخبار لا يمكن أن تغني القارىء وتسهل له سبيل المراجعة لو راعى فيها الترتيب الهجائي.

والآن جاء دور النساء هؤلاء اللواتي ختم بهن التاريخ واختصهن بجناح خاص تزيد مساحته على مجلدة من أصل التاريخ.

يترجم ابن عساكر في تاريخه الشهيرات من الدمشقيات، ومن اللواتي وردن دمشق، أو اجتزن بنواحيها، وتمتد هذه النواحي حتى تشمل مساحة كبيرة حول مدينة دمشق، وقد تطول الترجمة أو تقصر.

ومفهوم الشهرة عند ابن عساكر في أخبار النساء لا يختلف عنه في أخبار الرجال، اللهم الا فيما يخص طبيعة كل من الجنسين. وأحب أن أقول أن ما يمتاز به ابن عساكر بين المصنفين أنه يتحلى بروح علمية بعيدة عن التعصب، ولذلك فانه يختار لتاريخه كل من أرادت له الحياة أن يبقى خالداً في قول أو فعل ولهذا فاننا نجد في تاريخه ترجمة لكل من له ذكر من الرجال والنساء، وكثير من النساء ذكرتهن كتب التاريخ والأدب لجمالهن، ولإعجاب الرجال بهذا الجمال، وهذا يكفي وحده سبباً في دخول المرأة تاريخ دمشق، وقد يبدو مثل هذه الأخبار تافهاً في أعين عدد كبير من الناس، ولكنه يأتي من الأهمية بمكان في تفسير كثير من الحقائق التاريخية (١١).

ولا تطول الترجمة و يستفيض الحديث الا اذا كانت المرأة صحابية معروفة في الرواية، وهنا يجول المصنف جولته في جمع الأحاديث التي روتها مستقصياً في ذلك الطرق، والا اذا كانت صحابية لها دورها في بدء الدعوة، وعندها لا يكثر في نقل ماروته عن النبي صلى الله عليه وسلم فقط بل يفيض في سرد أخبارها كلها على ما هو معروف عنده في نقل الأخبار، وأتم ترجمة في مجلدة النساء على الإطلاق ترجمة مريم بنت عمران، فقد كانت صديقة وكانت أم صديق، وسوف يتساءل المؤرخون الآن: وأين مريم من دمشق، والجواب على ذلك يأتي في التاريخ فقد نقل من طريق أبي حذيفة اسحاق بن بشر عن «سعيد بن

١. يحدثنا التاريخ أن عبد الملك بن مروان حدد المهور بأربعمائة درهم. والسبب في ذلك أنه خطب زينب بنت عبد الرحمن المخزومية، فجاء من أغرى والدها بزيادة في المهر قبل أن يصل هذا الوالد الى عبد الملك بن مروان الذي أرسل في طلبه ليخطب عليه ابنته. عندها قال عبد الملك ما معناه: ان فضليات النساء تذهب بهن كثرة المهور. انظر تراجم النساء (ت ٣٤).

أبـي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن في قوله تعالى ، «الى ربوة ذات قرار ومعين » . قال : الى أرض مستوية ذات أنهار وأشجار، يعني به أرض دمشق(١٢).

وكـمـا كان لابن عساكر منهج واضح في تنسيق أسماء من ترجمهم في التاريخ على الترتيب الهجائي كذلك فعل في تراجم النساء ، فقد ساقها «مرتبة على الترتيب المألوف من ذكـر أسمائهن على الحروف» وذكر من عرفت منهن بكنيتها بعد اللواتي عرفن بأسمائهن ، حتى اذا تمت له تراجم صاحبات الكنى ذكر من عرفت بزوجها أو ابنها أو أخيها أو حفيدها ، وجمع بينهن نظراً لضآلة عددهن وراعى في ترتيب أسمائهن التسلسل الهجائي مقدماً الزوجة على الابنة ، وصاحبة الكنية على الأخت والأخت على الجدة ، فامرأة أبي الأسود قبل «قبل بنت أبي عباية» وأم يزيد قبل «أخت عبد الله عن عامر» وأخت رابعة قبل «جدة عبد السلام بن مكلبة» وختم كتابه بالمجهولات اللواتي ورد ذكرهن في خبر أو حديث ، أو عرفن بالعبادة والزهد ، أو روي لهن شعر عذب .

ولعل قارىء أخبار هؤلاء المجهولات سيجد فيها من الطرافة والمتعة مالا يجده في أخبار غيرهن من النسوة ، وسيسمع من شعرهن أرق الشعر وأعذبه ، ومن أخبار زهدهن ما يكسر الحجب الدنيوية التي تغلف قلبه وضميره ، ويمتن صلته بتلك القوى الخفية التي تقربه من الله ، وتبعد عنه شرور نفسه(١٣) .

وختم الحافظ تاريخه بالقوة ذاتها التي بدأ بها ، فأسمعنا عبارات حلوة رشيقة لا يصدق من يسمعها أنها تنهي سبعة وخمسين مجلدة فيها خلاصة حضارة أمة وأخبار صفوتها من رجالها ونسائها ، ويخيل اليه أن ما بين جنبي هذا الرجل كان بحراً متدفقاً منعته أمواجه الصاخبة من أن يحسّ بغزارة ما أعطى .

«هذا آخر ما يسر الله جمعه من هذا الكتاب ، والله الموفق فيه للرشاد والصواب ، فرحم الله من ألفه وجمعه ، ونفع به من كتبه وقرأه وسمعه ، فهو المرجو لغفران الذنوب ، والفتاح لأقفال القلوب . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلاته على محمد وآله

---

١٢ . سورة المؤمنين ٢٣ آية ٥٠ ، وانظر تاريخ دمشق «تراجم النساء» ص ٣٤٣ .

١٣ . تراجم النساء ص ٥٧٠ ، ٥٧٥ ، ٥٨٣ ، ٥٨٩ .

وصحبه بالغاديات الرائحات، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وهو رب العرش الكريم» (١٤).

هذا هو الهيكل الفني لذلك البناء الضخم «تاريخ مدينة دمشق» فمتى شيده الحافظ، وما العوامل التي سبقت تشييده وأرهصت به وشجعت عليه، وما مراحل ذلك كله ؟.

٢ ــ المراحل التي تم فيها تأليف التاريخ :

كان تاريخ مدينة دمشق جزء من حياة ابن عساكر، وشغل تأليفه لهذا التاريخ جانباً هاماً من عمله في حياته المديدة، لم يؤلفه في مرحلة الصبا، ولم ينجزه في مرحلة الكهولة، ولكن عمله فيه شغل مراحل حياته الثلاث، ولم يكتمل تأليفه له وجمعه الا بعد أن كل بصره، وضعف جسمه واصطلحت عليه الأسقام.

وسأعرض تصوري للمراحل التي تم فيها جمع التاريخ وتأليفه مستمدة ذلك من مطالعاتي لأخبار حياته، وتجاربي من خلال عملي في التاريخ.

لا ندري متى استقرت في نفس الحافظ فكرة وضع تاريخ لدمشق، والذي نفهمه من مقدمة التاريخ أنه طلب اليه ذلك في مرحلة مبكرة من مراحل حياته ولكن لا ندري من الذي أوحى له بهذه الفكرة، وسأله أن يضع تاريخاً لدمشق يقول الحافظ : «فاني كنت بدأت قديماً بالاعتزام لسؤال من قابلت سؤاله بالامتثال والالتزام، على جمع تاريخ لمدينة دمشق أم الشام» (١٥).

ويخيل الينا أن تأليف تاريخ لدمشق لم يكن أكثر من فكرة في رأس الحافظ قبل مرحلة الرحلات أوحي له بها أناس أدركوا مقدار موهبته العظيمة، فأرادوا أن يكون لدمشق تاريخ يشبه تاريخ بغداد، وليس من المستبعد أن يكون التشجيع على وضع تاريخ لدمشق جاء من قبل الشيوخ الذين سمع منهم تاريخ بغداد، فقد كان شيخه أبو الحسن بن قبيس محباً له معظماً لمواهبه (١٦). وربما يكون من قبيل المبالغة أن نقول : أن الفكرة بدأت تأخذ

١٤. تاريخ مدينة دمشق ٥٩٠.

١٥. المجلدة الأولى ص ٣.

١٦. قال له شيخه أبو الحسن بن قبيس : «أني لأرجو أن يحيي بك الله هذا الشأن»، وكان ممن سمع منه الحافظ تاريخ بغداد.

أبعادها في رأسه منذ قرأ شيئاً من تاريخ بغداد على شيخه أبي القاسم النسيب، فيكون كما قال المنذري : «بدأ تأليفه في يوم عقل على نفسه».

ولا ريب في أن ابن عساكر أفاد من تاريخ بغداد أفادة كبيرة، أفاد منه بالمنهج والأسلوب في الترجمة الواحدة، وفي هيكل التاريخ بشكل عام من حيث المبدأ، وأفاد منه في تلك المادة الضخمة التي بثها في جوانب تاريخه بالاضافة الى أنه كون في نفسه الدافع القوي على العمل. وتبدو حفاوة المصنف به حين يذكر أنه قرأ قسماً كبيراً منه أكثر من مرة، وقليل جداً من أخبار تاريخ بغداد سمعه المصنف من شيخ واحد، ومن تتبع طرق ابن عساكر الى تاريخ بغداد نرى أنه أخذ هذا التاريخ عن ستة من شيوخه : ثلاثة منهم دمشقيون هم : أبو القاسم علي بن ابراهيم الواسطي النسيب(١٧)، وأبو الحسن بن قبيس علي بن أحمد بن منصور الغساني(١٨)، وأبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن سعيد العطار(١٩). وما أكثر ما يقول ابن عساكر في التاريخ : «أخبرنا أبو الحسن» يريد بذلك أبا الحسن بن قبيس، وأبا الحسن بن سعيد.

أما الثلاثة البغداديون فهم : محمد بن عبد الملك بن الحسن أبو منصور بن خيرون(٢٠)، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الواحد بن الحسن أبو منصور القزاز المعروف بابن

---

١٧. كان خطيب دمشق وشيخها. سمع أبا بكر الخطيب. حدث عنه ابن عساكر وأخوه الصائن، وقال ابن عساكر «كان ثقة». أكثر عنه، وحضر دفنه. ولد سنة ٤٢٤ هـ، وتوفي سنة ٥٠٨ هـ. تاريخ دمشق (متفرقات ٢٤٣ / أزهر ق ٦٩) وسير أعلام النبلاء ١٢/٨٤.

١٨. قال ابن عساكر: «كان ثقة متحرزاً منقطعاً عن الناس. سمع الخطيب. سمعت منه الكثير «ولد سنة ٤٤٢ هـ وتوفي سنة ٥٣٠هـ. تاريخ دمشق (متفرقات ٢٤٣/أزهر ق ٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٢/١٤٩.

١٩. قال ابن عساكر : «كان أبوه مقدم الشهود بدمشق، سمعه الحديث الكثير من أبوى القاسم السميساطي والحنائي. وأبي بكر الخطيب، وكان أبو مثرياً فاشترى له جارية مغنية، فتعلم منها الغناء. ثم افتقر وساءت حاله، فرغبناه في التوبة، فتاب، وترك الغناء مدة. سمعنا منه قطعة من تاريخ بغداد، توفي في صفر سنة ٤٥٢ هـ. تاريخ دمشق (٢٥ / أزهر ق ٢).

٢٠. قال الذهبي : «سمع من أبي بكر الخطيب اكثر تاريخه، وكان ينسخ التاريخ ببغداد و يبيعه وقال السمعاني : ماله شغل سوى التلاوة، توفي سنة ٥٣٩ هـ، ودفن بمقبرة باب حرب المنتظم ١٠/ ١١٥، وسير أعلام النبلاء (مصورة م ١٢ ل ١٦٧).

زريق (٢١)، وأبو النجم بدر بن عبد الله الشيحي (٢٢).

وفي اعتقادي أن تصوراً لعمل التاريخ مثل في خاطر ابن عساكر منذ سمع تاريخ بغداد على شيوخه الدمشقيين لأسباب كثيرة، حتى اذا كانت رحلته الأولى الى بغداد سمع التاريخ كله على شيوخه البغداديين وهكذا فإنه سمع قسماً من التاريخ مرتين أو ثلاثاً. وقلما نراه يذكر في روايته من تاريخ بغداد شيخاً واحداً، والمألوف في روايته من هذا التاريخ أن يذكر الشيخ الدمشقي، ثم يذكر الشيخ البغدادي، لأن سماعه من الشيخ الدمشقي سبق سماعه من الشيخ البغدادي، وقد يذكر شيخين دمشقيين ثم يعززهما بثالث بغدادي. هذا معنى قوله حين يروى من تاريخ بغداد: أخبرنا أبو الحسن بن قبيس نا ــ وأبو منصور بن خيرون نا ــ أبو بكر الخطيب (٢٣) يعني بذلك أن أبا الحسن بن قبيس الدمشقي أخبره فقال: حدثنا أبو بكر الخطيب وأبو منصور بن خيرون أخبره فقال: أخبرنا أبو بكر الخطيب. أو نجده يقول: أخبرنا أبو القاسم علي بن ابراهيم، وأبو الحسن علي بن أحمد قالا: نا ــ وأبو منصور بن خيرون: ابنا ــ أبو بكر الخطيب (٢٤).

أي أن أبا القاسم علي بن ابراهيم وأبا الحسن ــ وهو ابن قبيس ــ أخبراه فقالا: حدثنا، وأبو منصور بن خيرون أخبره فقال: أخبرنا الخطيب. والمتتبع لنقول ابن عساكر من تاريخ بغداد يلاحظ في أكثر الأحيان هذه الازدواجية في الرواية مما يدلنا على اهتمام الرجل بتاريخ بغداد اهتماماً كبيراً، وحرصه على سماع أخباره على أكثر من شيخ، وكيف لا وهو يريد أن يصنع تاريخاً لدمشق قدر أن يكون تاريخ بغداد رافداً من روافده الكثيرة.

وبعد الذي بسطته من القول أخلص الى ما يلي:

١. فكر ابن عساكر بوضع تاريخ لدمشق قبل أن يدخل الى العراق كان ذلك منذ اطلع على تاريخ بغداد، وبدأ بسماعه في دمشق من شيوخه الدمشقيين.

---

٢١. كان من أولاد المحدثين. توفي ببغداد سنة ٥٢٥ هـ ودفن بمقبرة باب حرب المنتظم ١٠/٩٠ وسير أعلام النبلاء ١٢/١٦١.

٢٢. قال الذهبي: «كان سماعه صحيحاً توفي في بغداد سنة ٥٣٢ هـ ودفن بمقبرة باب حرب. انظر سير أعلام النبلاء ١٢/١٥٦، والمنتظم ١٠/٧٤.

٢٣. انظر على سبيل المثال مجلد (عاصم ــ عايذ) ص ١٩٩.

٢٤. انظر على سبيل المثال مجلد (عاصم ــ عايذ) ص ٢٩٥.

٢. ازدادت الفكرة استقراراً في نفسه بعد أن رحل الى العراق وأتم سماع تاريخ بغداد، وسمع بعضه مرة ثانية على شيوخه البغداديين. وربما بدأ منذ ذلك الوقت يجمع أخباره، وتسويد بطاقات المترجمين، وربما رافق عمله هذا سماعه المصنفات التي سيبني عليها تاريخه، فكان يجمع أخبار الرجال مراعياً في ترتيب أسمائهم التسلسل الهجائي، و يضم الجذاذة الى الجذاذة في الترجمة الواحدة بموجب هذا التنظيم الذي سار عليه في التاريخه كله.

٣. وحين قام برحلته الثانية الى نيسابور كانت خطة العمل في التاريخ قد دخلت مرحلة التنفيذ الفعلي، يؤكد ذلك قول معاصره السمعاني الذي لقيه في نيسابور سنة ٥٢٩ : «سمعت معجمه والمجالسة للدينوري، كان قد شرع في التاريخ الكبير لدمشق(٢٥)» ولا ننسى أنه أمضى أربع سنوات في دمشق بعد أن عاد من بغداد قبل رحلته الثانية، فليس من المستبعد أن يكون قضى قسماً كبيراً من وقته في هذه الفترة في تأليف التاريخ، ساعده على ذلك هذه المجموعة الكبيرة من الكتب المسموعة التي عاد بها من بغداد.

وحين عاد الى دمشق سنة ٥٣٣ هـ وتصدر للتحديث نشط للعمل في التاريخ، ولكن عوامل كثيرة تدخلت مع الزمان لتصرف الرجل عن اتمام هذا البناء الضخم : «فعاقت عن انجازه واتمامه عوائق الأيام، من شدة الخاطر، وكلال الناظر، وتعاقب الآلام(٢٦)».

ومن حسن حظ هذا التاريخ أن يتناهى الى مسامع الملك العادل نور الدين زنكي نبأ تأليفه وجمعه، فيبارك العمل، و يشجعه، و يطلب من الحافظ الاسراع فيه ورقي خبر جمعي له الى حضرة الملك القمقام، و بلغني تشوقه الى الاستنجاز له والاستتمام، ليلم بمطالعة ما تيسر منه بعض الالمام(٢٧). فنشطت همة الحافظ في اتمام ما بدأه حيث تلاقت الدوافع النفسية القديمة بالعوامل السياسية، فأخذ يعمل جاهداً خشية أن تدركه المنية قبل اتمام التاريخ مبادراً ما يحول دون المراد من حلول الحمام، مع كون الكبر مظنة العجز ومطية الأسقام(٢٨).

٢٥. تذكرة الحفاظ ٤/١٣٣٠

٢٦. تاريخ دمشق المجلدة الأولى ص ٣.

٢٧. تاريخ دمشق المجلدة الأولى ص ٤.

٢٨. تاريخ دمشق المجلدة الأولى ص ٤.

بدأ ابن عساكر تأليف التاريخ في مرحلة الشباب، وعاقته عنه عوائق في مرحلة الكهولة، و بداية الشيخوخة، ثم استأنف العمل فيه وأنجزه في مرحلة الشيخوخة، هذا ما لا شك فيه، ولكننا لا نعلم بدقة متى أتمه.

يقول العماد الأصفهاني فلما وصلت الى الشام، وأقمت بدمشق ترددت اليه، ورأيته قد صنف تاريخ دمشق، وذكر أنه في سبعمائة كراسة كل كراسة عشرون ورقة (٢٩). وفي هذا العام كان التاريخ يسمع على الحافظ. وهناك ما يؤيد أنه كان قد أتمه قبل سنة ٥٦٢ هـ.

قلت: أن تاريخ دمشق يتألف من سبع وخمسين مجلدة بموجب تجزئة الأصل، وحين نستعرض بعض المجلدات التي وصلت الينا من هذا التاريخ بخط القاسم يتبين لنا ما يلي:
سمع القاسم المجلدة الأولى على أبيه سنة ٥٥٩ هـ. وسمع المجلدة الثالثة والعشرين والتاسعة والعشرين سنة ٥٦١ هـ، وسمع المجلدة الرابعة والثلاثين سنة ٥٦٢ ـ ٥٦٣ هـ، وسمع المجلدة الحادية والأربعين سنة ٥٦٣ هـ، وسمع المجلدة الثالثة والخمسين سنة ٥٦٥ هـ وهي آخر مجلدة وصلت الينا بخط القاسم وعليها سماعه. فاذا كان القاسم قد استطاع أن يسمع المجلدات الخمس الأخيرة في عام واحد (٣٠) يكون قد أتم سماع التاريخ كله في مدة ست سنوات وتكون سنة ٥٥٩ هـ هي السنة التي أتم فيها أبو القاسم تأليف التاريخ، وفيها بيض القاسم المجلدة الأولى وسمعها على أبيه. ولا يمكن أن يكون الإحساس بوطأة السن الذي عبر عنه أبو القاسم في مقدمته للتاريخ قبل هذه السنة بكثير وأي احساس بالهموم والشيخوخة لمن دون الستين.

يقول حفيد المصنف في ترجمة أبيه أبي محمد كاتب التاريخ: «ولولا تبييضه لكتاب التاريخ ونقله من المسودات لما قدر الشيخ الكبير ــ يعني والده ــ على اتقانه، ولا جوده: فإنه حين فرغ من تسويده عجز عن نقله وتجديده، وضبط ما فيه من الشكل وتجويده، فان نظره قد كل وبصره قد قل. فلم يزل والدي يكتب، و ينقله من الأوراق الصغار والظهور، و يهذب الى أن نجز منه مائة وخمسين جزءاً (٣١).

٢٩. انظر خريدة القصر ــ قسم شعراء الشام ١ / ٢٧٦ وقد دخل العماد دمشق سنة ٥٦٢ هـ. انظر الروضتين ١ / ١٤٤.

٣٠. بدأ القاسم بسماع المجلدة ٥٣ في نهاية صفر وأتمها في نهاية ربيع الأول، فيكون سماعه لها استغرق شهراً كاملاً في بداية سنة ٥٦٥ فليس من المستبعد أن يكون أتم سماع التاريخ كله في هذه السنة.

٣١. سير أعلام النبلاء ١٣ / ٩٤.

وقول حفيد المصنف هذا يعد على جانب كبير من الأهمية، فهو يؤيد ما جاء في مقدمة التاريخ عن ضعف أبي القاسم، ووهن جسمه، و يبين لنا أن القاسم ابن المصنف كان له شأن في اخراج التاريخ، واعطائه شكله النهائي. فإذا كان ابن عساكر قد أنجز العمل في التاريخ سنة ٥٥٩ هـ. فان التاريخ لم يأخذ شكله الكامل منقحاً ومرتباً ومبوباً إلاّ سنة ٥٦٥ هـ وهو العام الذي نفترض أن القاسم أنهى فيه نسخه، وأتم سماعه على أبيه، لأن أبا القاسم كان يستعرض التاريخ مع ابنه فيضيف أو يستدرك، ويحذف، و يصحح، و يقدم، و يؤخر حتى اذا لم يجد موضعاً لاستدراكه في هامش الورقة التي نسخها ابنه ألحق جذاذة أو أكثر بخطه وذلك لأن خبراً من الأخبار أمكنه الحصول عليه من طريق جديد، أو أن ابنه سها عنه أثناء النقل(٣٢)، أليس هذا كله جزءاً في اعطاء التاريخ شكله الكامل الصحيح ليسمعه عليه الناس بعد أن سمعه القاسم ؟

وهناك من يظن ان ابن عساكر مات وفي نفسه شيء من التاريخ، لأنه مات قبل أن تتاح له فرصة صقله، وتقويم ما يحتاج الى تقويم فيه. و يرد ذلك أمران أولهما : استدراكات أبي القاسم الكثيرة في هوامش التاريخ، واذا كانت المجلدة الأخيرة لم تصلنا بسماع القاسم، فهذه المجلدة ٥٣ وفيها يقترب التاريخ من نهايته، اننا نحس في هذه المجلدة بلمسات أبي القاسم مبثوثة متفرقة في هوامشها، وفي نهاية كل جزء من أجزائها نجد السماعات والسامعين أنفسهم، قد يزيد بعض رجال السماع وقد ينقصون، ولكن المجالس تظل ذاتها يتبع بعضها بعضاً بتواريخ منتظمة، متلاحقة. ألا يدل هذا كله على أن التاريخ قد انتهى تأليفاً وصقلاً وتجويدا. وكيف يسمع ابنه و يستدرك عليه، و يصلح ما يحتاج، وكيف يسمعه في مجالس عامة وهو لم ينته بعد ؟.

الشيء الثاني أن المجلدة الأخيرة التي ترجم فيها ابن عساكر النساء وصلت الينا بخط متأخر ومع ذلك فهناك ما يؤكد لنا أن تاريخ دمشق قد انتهى بانتهائها يقول ابن عساكر بعد أن أتم تراجم النساء(٣٣) هذا آخر ما يسر الله جمعه من هذا الكتاب، والله الموفق فيه للرشاد والصواب، فرحم الله من ألفه وجمعه، ونفع به من كتبه وسمعه، فهو المرجو

٣٢. انظر مثالاً على ذلك نسخة كولومبيا (رقم ٦٥٣ق ٣٨، ٧٩)

٣٣. انظر تراجم النساء ٥٩٠.

لغفران الذنوب، والفتاح لأقفال القلوب، والحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات، وصلواته على محمد وآله وصحبه».

بهذا اللفظ الرصين الجزل، وبهذه العبارة الثابتة المطمئنة أنهى المصنف تاريخ دمشق، أليس هذا القول دليلاً على أن الرجل أدى الأمانة، وأتم ما كان يرجو اتمامه؟.

لم تكن قصة التاريخ مع الحافظ قصة سنوات معدودات، ولكنها كانت قصة عمره كله، كان الباعث على تأليف التاريخ نفس جبارة قبل كل شيء، وطلب ممن لم يصرح لنا ابن عساكر باسمه، ثم ضعفت منته في كهولته، وكلت عزيمته في شيخوخته فجاء صوت نور الدين مجدداً الهمة، ومقوياً العزيمة. وكان هذا العمل الجبار الذي صب فيه ابن عساكر خلاصته عقول خمسة قرون من عمر الحضارة العربية.

توفي الحافظ ابن عساكر في الحادي عشر من رجب سنة احدى وسبعين وخمسمائة، وكان القاسم ابن عساكر بدأ بكتابة التاريخ مرة ثانية قبل وفاة والده بشهرين. هذا ما أكده التاريخ نفسه فقد جاء في الورقة الخامسة بعد المائة من المجلدة التاسعة والعشرين: «آخر النصف الأول من الكتاب، وانتهى القاسم من الفرع الى هنا في عاشر رمضان بدىء بنسخ الفرع مستهل جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة. كتب النصف الأول من الفرع في خمس سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام» ــ والمقصود بالفرع النسخة الجديدة التي كتبها القاسم، وتسمى في السماعات ونهاية الأجزاء النسخة المستجدة.

وفي ثاني شعبان سنة احدى وسبعين وخمسمائة بدأ القاسم بتسميع التاريخ، وهذا يعني أنه تصدر لتسميع التاريخ بعد وفاة والده بأقل من شهر، وبعد البدء بنسخ التاريخ للمرة الثانية بأقل من ثلاثة أشهر. واذا كان قد استطاع أن ينهي النصف الثاني من التاريخ بالمدة ذاتها التي أنهى بها النصف الأول يكون قد أتم نسخ التاريخ للمرة الثانية في مدة أحد عشر عاماً تقريباً، وهو ضعف المدة التي أنهى بها نسخ التاريخ للمرة الأولى، وكانت عملية التسميع ترافق عملية النسخ بفوارق زمنية بسيطة تؤكدها لنا تواريخ السماعات المثبتة في نهاية الأجزاء. ولكن هذه النسخة التي كتبها القاسم والتي قسم فيها التاريخ الى ثمانين مجلدة، وجاءت تجزئتها مثبتة على هوامش أوراق المجلدات التي وصلتنا من النسخة الأولى، وتقدم حديث القاسم عن المدة التي أمضاها في نسخ قسمها الأول،

هـذه الـنسـخـة الجديدة أو المستجدة أوالفرع لم يصلنا منها ورقة واحدة، ولا نعلم عنها شيئاً حتى الآن.

موارد الحافظ في التاريخ:

ان أهـم مـا يمتـاز بـه تاريخ مدينة دمشق غزارة موارده، وتنوعها، وقدمها ولا يمكن الحـديـث عـن هذه الموارد في الوقت الحاضر على سبيل الاحاطة والشمول لأن ذلك يحتاج الى قراءة الـتـاريـخ كـلـه، صحيح أن قسماً كبيراً من الموارد يتكرر في كل مجلدة من المجلدات ولـكـنـا لا يمـكـن أن نـقـرأ مجـلـدة مـن مجـلـدات التاريخ من غير أن نعثر على عشرات الموارد الجـديـدة، بينما يختفي غيرها لعدم الحاجة اليه، وهكذا نحن دائماً أمام الطريف والجديد، وأمام بحر زاخر من المعرفة تتدفق من بين جوانب الحافظ.

لا يـروي ابـن عـسـاكـر أخبار التاريخ من كتب التاريخ فقط، ولا يروي الأخبار الأدبـيـة من كتب الأدب فقط، إن له مقدرة عجيبة، على جمع الأخبار ذات الموضوع الواحد ولـلـمـتـهـا مـن أكـبـر قـدر ممـكن من المصادر المتنوعة، نقرأ هذه الأخبار فنعجب من حسن الاختيار والانتقاء، ودقة التنسيق، وسوف يدهش السامعون أن قلت لهم: انني أحصيت له في مجلدة واحدة أكثر من مائتي مورد.

وتـأتـي في مقدمة موارد الحافظ في التاريخ الموارد الأدبية والتاريخية وكتب التصوف والـشـعـر والمسانيد، وفي كل ذلك تطالعنا كتب معروفة وأخرى مخطوطة لم تصبح في متناول الأ يـدي بعد، وثالثة مفقودة. ومن هذه الكتب المفقودة تأتي المكانة الكبيرة لتاريخ دمشق، لأن نشر هـذا الـتـاريـخ ودراسته سوف يكشف عن جوانب من التراث العربي الاسلامي ما زالت مجهولة حتى الآن.

وما سجلته من طرق الحافظ الى هذه الكتب المفقودة يحتاج سرده الى بحث كامل، ولا يـغـنـي في هـذا الموضع لذا فانني سأعرف ببعض هذه الكتب وآتي بنماذج منها، على سبيل التمثيل لا الحصر لأ بين أهميتها في تأريخ عصر صدر الاسلام، وما دامت هذه الكتب في الـوقـت الحـاضر لـيـسـت موجودة فان وسيلتنا الى الإفادة منها هو التاريخ، ومن هنا يأتي دوره في تـاريـخ عصر صـدر الإسـلام لأنـه يقوم بالنيابة عن عشرات المصادر التي ضاعت في خضم الأحداث.

وقد اخترت في بحثي هذا أربعة من موارد الحافظ التاريخية، وواحداً من موارده الأدبية وحرصت كما قلت ألا تكون من الموارد المطبوعة أو المخطوطة ولكن من تلك التي لا نعرف عنها شيئاً حتى الآن.

من المصادر التاريخية الكبيرة، والتي ما زلنا لا نعلم عنها شيئاً حتى الآن كتب محمد بن عائذ الدمشقي «المغازي» و «الفتوح» و «الصوائف»، هذه الكتب الثلاثة من أهم موارد ابن عساكر في تاريخه الكبير، ولا تأتي أهميتها من طبيعة النصوص التي ينقلها منها الحافظ فقط، ولا من كثرتها فقط ولا من قدم مؤلفيها، بل إن الأهم من ذلك كله هذه المنزلة التي احتلها ابن عائذ في كتب التاريخ والرجال إذ لا نجد بين النقاد والمؤلفين من اتهمه أو طعن عليه. قال الحافظ ابن عساكر: «محمد بن عائذ بن عبد الرحمن بن عبيد الله.. صاحب المصنفات. ألف «المغازي» و «الفتوح» و «الصوائف» وغيرها وولى خراج الغوطة في أيام المأمون، ونقل بعد ذلك حديثاً من طريفه، وروى ما كتبته عنه كتب الرجال خاتماً أخباره بسنة وفاته. وفي كل ما نقله لا نجد تجريحاً بل تعديلاً وتوثيقاً.

وقال الحافظ الذهبي: «الإمام المؤرخ الصادق صاحب المغازي، أبو عبد الله القرشي الدمشقي الحافظ متولي ديوان الخراج بالشام زمن المأمون. ولد سنة خمسين ومائة، قاله أبو داود وقال: «قال أبو زرعة الدمشقي: سألت يحي بن معين عنه: تراه موضعاً للأخذ؟ قال: نعم. قالت: وهو يعمل على الخراج؟ قال: نعم وقال: «جمع كتاب المغازي، سمعت معظمه وكتاب الفتوح والصوائف».

ولملم ابن حجر في تهذيب التهذيب كل ما قالته القدماء، في هذا الرجل فأكد لنا أنه لا يوجد موضع للقول فيه. وقد ذكر هو وغيره أنه كان قدرياً وكأن هذه الصفة لم ينظر اليها في ميزان الحكم عليه حتى إن صاحب الرسالة المستطرفة قال: «الكاتب الثقة القدري».

ذكر ابن زبر وفاته في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين هجرية وجعل أبو زرعة الدمشقي وفاته سنة ٢٣٤ هـ، وهناك من قال أنه توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين (٣٤).

٣٤- يراجع تفصيل ما أوجزت من أخبار هذا الرجل في التاريخ الكبير ١/٢٠٧ وتاريخ أبي زرعة ١/٢٨٨، والجرح =

روى ابن عساكر من كتب محمد بن عائذ في كل ما نقل من أخبار المغازي والفتوح والصوائف، وكان له إلى كل كتاب من كتبه طريق واضح، فإذا نقل من كتاب الفتوح وضع بين يدي الخبر «أخبرنا أبو علي الحسين بن علي بن أشليها وابنه أبو الحسن قالا : أنا أبو الفضل أحمد بن علي بن الفرات، أنا أبو محمد بن أبي نصر أنا أبو القاسم بن أبي العقب علي بن يعقوب ابن ابراهيم» أنا أحمد بن ابراهيم، أنا محمد بن عائذ.

وإذا نقل من كتاب المغازي وضع بين يدي الخبر: «أخبرنا أبو الحسن علي بن المسلم لفظاً، وأبو القاسم الخضر بن الحسين بن عبدان قراءة قالا : أنا أبو القاسم بن أبي العلاء، أنا أبو محمد بن أبي نصر، أنا علي بن يعقوب بن إبراهيم، أنا أحمد بن ابراهيم بن بسر، أنا محمد بن عائذ.

واذا نقل من كتاب الصوائف وضع بين يدي خبره : «أنبأنا أبو القاسم علي بن ابراهيم وغيره أو: أخبرنا أبو تراب حيدرة بن أحمد وغيره قالوا : أنا عبد العزيز بن أحمد، أنا أبو محمد بن أبي نصر، أنا أبو القاسم بن أبي العقب، أنا أحمد بن ابراهيم، أنا ابن عائذ» .

و يتضح لنا أن الراوي عن ابن عائذ كان أحمد بن ابراهيم بن بسر وعنه ابن أبي العقب وعن ابن ابي العقب أبو محمد بن أبي نصر، ومن ثم يختلف رجلان في السند فيكون للحافظ في كل طريق من هذه الطرق شيخه وشيخ شيخه اللذين يصلانه بإسناد ابن عائذ إلى كل كتاب من الكتب الثلاثة.

ولعل من أهم ميزات الحافظ في تاريخه أنه لا يكاد يسمعنا صوته في كل ما ينقل من أخبار وكل قطعة يرويها من طريق لها لون يختلف عن لون القطعة الأخرى التي ينقلها من طريق آخر والموضوع واحد ولا تتجاوز تعقيباته الجملة أو الجملتين يصحح بهما اسماً أو لفظة. وهذا ما يجعله يختلف تمام الإختلاف عن غيره من المؤرخين، ويجعل نقوله من المصادر قطعاً سليمة من أصول موثقة لهذه الكتب سمعها الحافظ على شيوخه. ولا تأتي أهمية تاريخ دمشق من كونه مصدراً من مصادر القرن السادس الهجري ولكن لأنه يمثل مجموعة كبيرة من

= والتعديل ٧/٥٢، وتلخيص المتشابه (ت ٦٣٠) والأكمال ٦/١١ وتاريخ مدينة دمشق (م ١٨ ق ٢٠٩/أزهر) وميزان الاعتدال ٣/٥٨٩، وسير أعلام النبلاء ٨/٢٨، وتهذيب الكمال (١٥، ١)، وتهذيب التهذيب ٩/٢٤١، وتقريب التهذيب ٢/١٧٣، والخلاصة ٢/٤١٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٦٥ والوافي ٣/٥٨٩ والرسالة المستطرفة ١١٠ وتاريخ التراث العربي ٢/١١٤.

المصادر تمتد من الزمان من القرن الثاني الهجري الى آخر القرن الخامس ونتيجة لذلك فانه من السهل على أي باحث متمكن أن يلم أجزاء كتاب من الكتب المفقودة، و يقدمه للعالم، وهو واثق أنه يصدر عن أصل جيد.

ويحضرني وأنا أستعرض المجلدة الأولى من تاريخ دمشق. وأخبار فتح دمشق التي رواها الحافظ من طريق ابن عائذ ـ يحضرني تلك الروايات الملفقة المليئة بالأكاذيب التي روت لنا فتوح الشام، كيف تحفظ تلك الكتب و يضيع مصدر هام موثق من مصادر تاريخنا العربي، وكيف تضيع مغازي ابن عائذ و يبقى فتوح الشام المنسوب للواقدي ؟ ولعلنا نعثر على الكتاب تائهاً في مكتبة خاصة أو عامة أو نجده مشرداً لاجئاً في أقصى الشرق أو الغرب ينتظر من يعطيه تذكرة سفر، و يعيده الى أهله وذويه ممن يعرف قدره و يدرك أهميته ـ ولكن تبقى إشارة العجب كيف تحفظ الأساطير وتضيع الحقائق(٣٥) ؟ ألا نظن أن هناك أيدياً خفية تعبث بتراثنا ؟

روى الحافظ ابن عساكر في المجلدة الأولى تسعة أخبار من طريق الفتوح لمحمد ابن عائذ الدمشقي فيها على التوالي، خبر فتح أجنادين (ص ٤٨٣)، حصار دمشق وفتحها (٥٠١)، عهد خالد لأهل دمشق (ص ٥٠٢)، تاريخ وقعة اليرموك و بعض أخبارها (ص ٥٢٧، ٥٣٠)، فتح ايلياء (٥٥٤) نزول المسلمين الجابية وخبر الطاعون (٥٥٧)، ما صالح عليه خالد أهل دمشق (٥٦٩) قضاء عمر رضي الله عنه في أهل الذمة (٥٧٢).

ان موجز هذه الأخبار يدل دلالة واضحة على مبلغ أهميتها في تاريخ الفتوحات الاسلامية و يستثير الهمم لنشر تاريخ دمشق ليصبح في متناول كل قارىء، وأن يعمل بأسرع ما يمكن على ألا تبقى منه قطعة واحدة مخطوطة لتصبح من ماضينا بشكله القريب من واقعه عن كثب. وأهم ما يميز كتاب ابن عائذ الفتوح «عن غيره من الكتب الايجاز في

٣٥. وليست كتب ابن عائذ الا نماذج لكتب كثيرة لمؤلفين دمشقيين، قد نعثر عليها بعد كثير من البحث والتنقيب بعيدة البعد كله عن وطنها، ومن هذه الكتب كتاب «الوفيات على السنين» لأبي محمد بن زبر الدمشقي، هذا الكتاب عثرنا عليه في مكتبة اكسفورد بألمانيا، وكانت كل المعلومات المتوفرة عنه تشير الى أن عبد العزيز الكتاني صنع له ذيلاً، وأبا محمد بن الأكفاني صنع له ذيلاً والذيلان مفقودان وحين يسر الله لي الحصول على الكتابين تبين لي أن ما جاء تحت عنوان «تاريخ مولد العلماء ووفاتهم» يضم بالاضافة الى كتاب ابن زبر الذيل الذي صنعه الكتاني والذيل الذي صنعه شيخ ابن عساكر أبو محمد بن الأكفاني.

عرض الأخبار، وكثرة ما يحو يه من العهود والمواثيق وكتب الصلح، والتواريخ التي تم فيها الفتح وغيره من الأحداث الهامة التي رافقته.

و يبدو لنا الحرص على الايجاز الشديد مع البلاغة في عهد خالد لنصارى دمشق «هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق: إني آمنتهم على دمائهم وأموالهم، وكنائسهم ألا تسكن، ولا تهدم».

وكتاب خالد، واحد من الكتب التي يستطيع دارس الفتوحات الاسلامية أن يقف عندها وقفة طو يلة يحلل فيها الفكر والأسلوب، و يصدق عنده أول ما يصدّق من أنها أقرب النصوص التي وصلتنا الى واقع ذلك العصر.

كانت المجلدة الأولى من تاريخ مدينة دمشق حافلة بالنصوص التي رو يت من طريق ابن عائذ في كتاب الفتوح وذلك لطبيعة الموضوع الذي شغل قسماً كبيراً من هذه المجلدة، وقد لا نعثر في مجلدة كاملة على أكثر من خبر أو خبرين ولكننا مع ذلك نحس أن لهما طعماً خاصاً يختلف عن تلك الأخبار التي تنقل في الموضوع ذاته، فكم من الأخبار حدثتنا عن بلاغة عبد الله بن الزبير، ولكن واحداً منها لم يقر في نفوسنا القناعة التي أقرها خبر رواه ابن عائذ مفاده أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعث عبد الله بن الزبير بفتح افريقيا الى عثمان، فطلب منه عثمان أن يصعد المنبر فيحدث بهذا الخبر الناس «فقام عبد الله فتكلم، فأبلغ، وأصاب، فما فرغ حتى ملأهم عجباً (٣٦).

ان القارىء المتتبع الذي يحمل في يده طريق كتاب الفتوح لا يكاد يمضي كبير وقت حتى يحس أن بين يديه كتاباً واضح الملامح يلملم أخبار الفتوحات الاسلامية باسلوب مشرق، ومن طرق معروفة، و يلاحظ قارىء هذه الأخبار أنها موجزة مركزة فيها خلاصة الأحداث الهامة التي عاشتها الأمة العربية في القرن الهجري الأول، وأنه باطلاعه على هذا الكتاب سوف يلم الماماً كبيراً بكل الفتوحات الاسلامية، وأسبابها ونتائجها، وما أحاط بها من ملابسات.

أما كتاب المغازي فلو لم يكن للحافظ اليه طريق معينة لدلتنا طبيعة الأخبار على

٣٦. انظر تاريخ مدينة دمشق (عبد الله بن جابر ـ عبد الله بن زيد ٤١٩)

موضوع الكتاب، فقرأ منه في المجلدة الأولى (٣٧) خبر البعث الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الشام، وأمر عليهم زيد بن حارثة، ونقرأ في ذلك الخبر أنه صلى الله عليه وسلم خرج مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف ووقفوا حوله، فقال: اغزوا بسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين الناس، فلا تعرضوا لهم وستجدون آخرين للشياطين في رؤوسهم مفاحص (٣٨) فافلقوا هامهم بالسيوف ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً، ولا كبيراً فانياً، ولا تفرقن نخلاً، ولا تقطعن شجرة، ولا تهدموا بناء وقد اهتم ابن عائذ بأخبار هذه الغزوة اهتماماً كبيراً، و يشاركه في إهتمامه هذا الحافظ ابن عساكر فنقل الخبر ذاته عن أبن عائذ في مغازيه برواية أخرى، ثم عاد فروى جانباً من الخبر كل ذلك بأمانة ودقة. مقدماً طريق ابن عائذ الى كل خبر من هذه الأخبار اذا كانت متلاصقة وطريقهما معاً اذا كانت الأخبار متباعدة.

وكان عبد الله بن رواحة واحداً من الذين حلوا الراية يوم مؤتة منفذاً في ذلك وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يعود الحافظ الى أخبار معركة مؤتة، و يذكر لنا منها ما تحتاج اليه طبيعة أخبار ابن رواحة والحافظ حريص الحرص كله على ألا يكرر خبراً الا ما يجد فيه الضرورة الماسة مما لا يسد مسده شيء في موضعه، وقد عمد الى مثل هذا التكرار في خبر رواه في المجلدة الأولى، وأعاده في أخبار عبد الله بن رواحة، وها أنا ذي أسوقه مشاركة الحافظ اهتمامه به نا ابن عائذ، أخبرنا الوليد قال (٣٩).

«فسمعت أنهم ساروا، حتى اذا كانوا بناحية معان من أرض الشراة فأخبروا أن الروم قد نذروا، وجمعوا لهم جموعاً كثيرة من الروم، وقضاعة، وغيرهم من نصارى العرب، فاستشار زيد بن حارثة اصحابه فقالوا: قد وطئت البلاد، وأخفت أهلها فانصرف، فانه لا يعدل العافية شيء، وعبد الله بن رواحة ساكت، فسأله زيد عن رأيه، فقال: انا لم نسر

---

٣٧. انظر المجلدة الأولى ٣٩٠، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٧.

٣٨. قال ابن الأثير: «المفحص: مفعل من الفحص وجمعه مفاحص ومنه الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة: وستجدون للشيطان في رؤوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف. أي أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها» النهاية.

٣٩. انظر المجلدة الأولى من التاريخ ٣٩٦، وأخبار عبد الله بن رواحة (عبد الله بن جابر ــ عبد الله بن زيد) ص ٣٥١.

الى هذه البلاد ونحن نريد الغنائم ، ولكننا خرجنا نريد لقاءهم . ولسنا نقاتلهم بعدد ولا عدة ، فالرأي المسير اليهم ، فقبل زيد رأيه ، وسار اليهم» .

إنّ رأي عبد الله بن رواحة ، والذي قبله زيد بن حارثة كان له تأثير واضح في نتائج غزوة مؤتة ، وهذا الرأي مرتبط تمام الإرتباط بأهداف الغزوة وأسبابها ، وهو الذي يفرق بين ما كان يفهمه العربي من الغزو ، وما أدخله الاسلام في نفسه من قيم ومفاهيم جديدة قلبت هذا المفهوم رأساً على عقب ، وكأن عبد الله بن رواحة كان يفهم تمام الفهم الغاية المثلى التي سير من أجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البعث .

ولعل قارىء الأخبار بتمامها سيجد فيها الكثير مما هو بحاجة الى التأمل والدرس ، و يدرك سر اهتمام الحافظ بهذا الكتاب وتفضيله على غيره من كتب المغازي .

كان المؤرخون القدامى يهتمون اهتماماً كبيراً بمن شهد بدراً من الصحابة ، وكذلك كان ابن عائذ فهو يذكر أسماء من شهدوا بدراً و يروي عنه ذلك الحافظ ابن عساكر(٤٠) . كذلك سجل لنا أصحاب المغازي أسماء من استشهد في المعارك ، ونقل ابن عساكر كثيراً من أسمائهم عن ابن عائذ(٤١) و يستوقفني خبر هام رواه الحافظ من طريق المغازي أيضاً قال : «نا ابن عائذ ، قال : وأخبرني الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعي ، حدثني يحيى بن أبي كثير أنه : لما كان يوم بدر أسر المسلمون من المشركين سبعين رجلاً . فكان ممن أسر عباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فولي وثاقه عمر بن الخطاب ، فقال عباس : أما والله يا عمر ، ما يحملك على شدة وثاقي الا لطمتي اياك في رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : والله ما زادتك تلك علي إلا كرامة ، ولكن الله أمرنا بشد الوثاق(٤٢) . قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع أنين العباس فلا يأتيه النوم . فقالوا : يا رسول الله ، ما يمنعك من النوم ؟ فقال : كيف أنام وأنا أسمع أنين عمي ؟ قال : فزعموا أن الأنصار أطلقوه من وثاقه و باتت تحرسه(٤٣) . يدلنا هذا الخبر أن العباس أسلم بعد بدر وهناك من يقول أنه

---

٤٠ . انظر المطبوع من التاريخ (عاصم ـ عائذ) ص ١٢٧ ، ٢٦٤ ، و (عبادة ـ عبد الله) ص ٢٠ و (عبد الله بن جابر ـ عبد الله بن زيد) ص ٣٣٦ .

٤١ . انظر المطبوع (عبادة ـ عبد الله) ص ٢٦٥ ، و (عبد الله بن جابر ـ عبد الله بن زيد) ص ٥٥٨ .

٤٢ . يشير الى قوله تعالى : فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء «سورة محمد آية ٤٧ ، وتصح للرواية على قول من قال : ان سورة محمد مكية .

٤٣ . انظر التاريخ : (عبادة ـ عبد الله) ص ١٢٠ .

أسلم قبل أن يهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة، أو قبل بدر، ولكن الحافظ يرد تلك الرواية بقوله: «كذا ذكر ابن سعد، والصحيح أن العباس أسلم بعد بدر» ثم ينقل أخبار أسره في معركة بدر وفدائه من طرق إحداها طريق ابن عائذ السابق. ومعنى ما رواه ابن عائذ متواتر أخرجه ابن اسحاق والفسوي وغيرهما.

هذه نماذج قليلة من أخبار المغازي لم يكن قصدي منها الا الكشف عن هوية الكتاب، وبيان أهميته ومدى حفاوة الحافظ الكبير به. ولعل ما قدمته يكون بمثابة اعلان يفيدنا في العثور على أصل الكتاب.

أما كتاب «الصوائف» فتدلنا الأخبار التي يرويها الحافظ من طريقه أنه أكثر أهمية من الكتابين السابقين، من هذا الكتاب روى ابن عساكر أخبار الغازي العربي عبد الله البطال وسيأتي الحديث عن ذلك ــ ومنه أيضاً روى كل ما يتعلق بسياسة عثمان في الأمصار، والملابسات الخفية التي كانت وراء هياج المصريين، واستفحال ثورتهم، ولا أغالي إن قلت إنّ أطول أخبار فتنة الدار، وأكثرها دقة وتفصيلاً وقرباً من الواقع المعقول جاءت من طريق ابن عائذ، وكذلك فإننا نجد في كتابه مالا نجده عند غيره من التصريح بأسماء رجال من الصحابة ما كنا نظن أن لهم دوراً بارزاً في إدارة دفة الأحداث، والتخطيط لتفجير الثورة. كنا نعلم أن عثمان عزل عمرو بن العاص عن مصر وأن ذلك حز في نفسه ونفس عثمان معاً ولكن عزله كان بدافع من هيج العامة والمدبر لذلك كله ابن اليهودية عبد الله بن سبأ، وما كنا ندري أن عمراً سوف يصل به غضبه من أجل مصر الى درجة تجعله يخطط لتدمير الخلافة، أو أنه كان فعلاً يخطط لتدمير الخلافة، وأنه كان يظهر لعثمان بغير الوجه الذي يظهر به للثوار المصريين، وحين جاء من يعلم عثمان بذلك أبعد عمراً عن المدينة فخرج متوعداً ونزل السبع من فلسطين. لنستمع الى مقتطفات مما رواه ابن عائذ: (٤٤) «. ثم نزع عمرو بن العاص وأمّرَ عبدَ الله بن سعد. فقال: أناس: نزع عمراً وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره، وأمر ابن سعد! فكانت فتنة في أنفسهم.. ثم قدم راكب آخر بعثه صاحب ذي المروة فأخبر عثمان أن ركباً من أهل مصر نزلوا ذا المروة معهم السلاح والخيل، لقد احتقبوا الدروع، عليهم رجل يقال له: عبد الله بن بُديل. فلما بلغ ذلك عثمان استيقن أنما يراد نفسه، فأرسل الى عمرو بن العاص ــ وهو بالمدينة قد أنكحه

---

٤٤. تاريخ دمشق ترجمة عثمان ٤٢٥ ــ ٤٢٧.

عثمان أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، فقال له : يا أبا عبد الله ، ما بال ركب من أهل مصر نزلوا ذا المروة ؟ فهون عليه عمرو وقال : لعلهم عتبوا على ابن سعد في أنه وفد برجال وترك آخرين — و يقال : انما قدم الركب على ملأ من علي وعمرو لأنه نزعه عن مصر — فقال له عثمان : انطلق اليهم فارددهم بما أحبوا ، و بعث معه عثمان أربعمائة راكب . فسار بهم عمرو، فلما دنا منهم نزل ، ونزلوا، فلما جن الليل قال مسلمة بن مخلد — وكان في وفد عبد الله بن سعد — جاءني عين لي فقال لي : يا أبا سعيد ، قد والله جاء علي الآن مختفياً فانطلق هو وعمرو الى الركب سراً ، فرصدهم مسلمة ، فإذا الأمر كذلك ، ثم أمرنا عمرو بالانصراف ، وما ندري ما قال عمرو للقوم ، وما ردوا عليه . فذكر الركب الذين خرجوا من مصر أن عمرو بن العاص قال لهم : ما الذي قدمتم له ؟ قالوا : أردنا قتل عثمان قال : لستم في عدد كعدد من مع عثمان ، ولكن ارجعوا واقبلوا من الرجل ما أعطاكم حتى تستوفقوا ممن خلفكم وترجعوا اليه وأنتم في كثف ...

فلما قدم عمرو المدينة قام عثمان على المنبر، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد، يا أهل المدينة ، فقد بلغني أنكم أكثرتم في الركب واني بعثت اليهم عمرو ابن العاص فأخبرني بأمر هو دون ما تذكرون . فقال عمرو بن العاص رافعاً صوته : أتريد أن تجعلها بي يا عثمان ؟ كلا والله ، بل قدموا في أمر جسيم من أمور أهل الإسلام ، يا عثمان ، انك قد ركبت بأمتك نهابير وركبوها ، فتب ولتتب أمتك . فقال أهل المدينة عند ذلك : نشهد بالله ، ونشهد من حضر من المسلمين أنا وأهل مصر على أمر واحد ، فجالوا حتى حالوا بين عثمان والمنبر، فنزل فدخل عليه نفر من قومه فقالوا : يا أمير المؤمنين إن عمراً هو الذي أغرى بك . فأخرجه عثمان . فطلّق عمرو امرأته ونزل السبع من أرض فلسطين . فقال عمرو حين أخرج :

.. لنخضب لحيةٌ غدرت وخانت   بأحمر من دماء الجوف قاني

هذه بعض الحقائق التي رواها لنا ابن عائذ في خبر طويل ، ولم يرد لنا الحافظ بمعناها من طريق آخر، فقد روى لنا أحداث الدار وخبر جيش ذي المروة من طرق كثيرة ليس بينها من زج باسم الصحابيين الكبيرين في المعركة . هناك أخبار ذكرت خروج عمرو ابن العاص من المدينة الى عجلى في الأ ردن هرباً من الفتنة ، وأن لفيفاً من الصحابة فعل فعله ولكن ليس بين هذه الروايات من جعل خروج عمرو بأمر عثمان . أما علي كرم الله

وجهه فهناك علامة استفهام كبيرة أمام خروجه مستخفياً الى جيش ذي المروة، فقد رأيناه من طرق أخرى يذهب موفداً من قبل عثمان، وفي ذات مرة طلب اليه عثمان أن يكون رسوله الى جيش المصريين فأبى، ورأيناه يذهب مبتعداً عن الفتنة الى أحجار الزيت أما أن يذهب بصحبة عمرو بن العاص فلم نجد له نظيراً في موارد التاريخ الكبير. وقد يكون لذهاب علي الى جيش ذي المروة غير المعنى الذي يوحي به ظاهر الخبر، يؤيد ذلك كثرة الأخبار التي للمها الحافظ والتي تؤكد جميعها أن علياً كرم الله وجهه كان بمعزل عن الفتنة، وهناك أيد أثيمة أرادت اقحامه فيها من حيث لا يدري.

وفي كل الأحوال تظل أهمية ما نقله لنا ابن عائذ كبيرة لثقتنا به من جهة، ولأهمية ما رواه لنا من جهة ثانية.

واذا تذكرنا أن الدكتور فؤاد سيزكين لم يذكر من كتب ابن عائذ في تاريخه (٤٥) سوى كتاب «المغازي»، وذكر أنه أحد المصادر الرئيسية لكتاب عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس، وذكر أن في الاصابة نقولا كثيرة من الكتاب ولم يذكر أنه من مصادر الحافظ في التاريخ الكبير اذا تذكرنا هذا كله زادت قيمة الكتاب في نظرنا وأحسسنا بتقصير نحو تاريخ دمشق، هذا التاريخ الذي كثرت الدراسات حوله ولكنها لم تدخل في أعماقه، ولم تكشف عن كنوزه.

وما نخلص اليه أن هذه الكتب الثلاثة «الفتوح» و«المغازي» و«الصوائف» ذات أهمية كبيرة في تحقيق تاريخ عصر صدر الاسلام، وأكثر أهمية منها تاريخ مدينة دمشق الكبير الذي وضع بين أيدينا الطرق اليها، وعرفنا بها، وحفظها لنا.

إن موضع هذه الكتب — مع التاريخ الكبير — في صدر الخزانة العربية — وليس في الزوايا المظلمة من دور المخطوطات.

وكتاب: «الفتوح والردة» لسيف بن عمر التميمي (٤٦) مصدر هام آخر من مصادر ابن عساكر المفقودة. ومع أن قسماً كبيراً من أخبار الطبري في تاريخه رويت من

---

٤٥. انظر ٢/١١٤.

٤٦. مصادر ترجمته في تاريخ يحي بن معين ٢/٢٤٥، وتهذيب الكمال (٥٦٦)، وميزان الاعتدال ٢/٢٥٥، وتهذيب التهذيب ٤/٢٩٥، والجرح والتعديل ٤/٢٧٨، والفهرست ٩٤، و بركلمان ملحق ١/٢١٣، وتاريخ التراث العربي ٢/١٣٤.

طريق سيف بن عمر في هذا الكتاب الا أن الحافظ ابن عساكر لا يروي هذه الأخبار من طريق الطبري، ولا يجمع الطريقين كما عودنا أن يفعل في عدد كبير من مصادره، ولكنه ينقل مباشرة من طريق سيف، فيتحد هو والطبري في الرواية عنه، وكذلك فان المالكي في التمهيد والبيان(٤٧) يروي أخبار فتنة الدار من طريق سيف بن عمر في كتاب الفتوح مباشرة ولا يروي عن الحافظ في التاريخ الذي روى هذه الأخبار من طريق سيف هو الآخر.

يأتي هذا الكتاب في الدرجة الثانية من حيث الأهمية بعد كتاب محمد بن عائذ الدمشقي على الرغم من قدمه فقد توفي محمد بن عائذ سنة أربع وثلاثين ومائتين بينما توفي سيف بن عمر في آخر القرن الهجري الثاني للسببين التاليين :

أولاً : لأنّ النقول من هذا الكتاب كثيرة ومعروفة ، فهو أحد مصادر الطبري الأساسية ، وقد اقتبس منه ياقوت في معجم البلدان، وابن حجر في الاصابة، بالاضافة الى أن أكثر أخبار التمهيد والبيان رويت عنه.

ثانياً : لأن سيف بن عمر ليس على درجة كبيرة من الثقة فهو ساقط في الرواية متهم بوضع الحديث وبرواية المناكير، ولا نجد بين أئمة الحديث وجهابذته الا من شنع عليه وجرحه(٤٨)، فلا يمكن أن تقاس روايته برواية الرجل المحدث الثقة ابن عائذ الدمشقي.

وعلى كل حال فإنه مصدر من مصادر ابن عساكر في التاريخ الكبير، وقد أكثر الرواية عنه في ترجمة عثمان رضي الله عنه، وكان أحد موارده الأساسية في رواية أخبار فتنة الدار. أما طريقه اليه فهو التالي :

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي، أنا أبو الحسين بن النقور البزاز، أبنا أبو طاهر المخلص «محمد بن عبد الرحمن الذهبي» أبنا أبو بكر بن سيف، «أحمد بن عبد الله» أنا السرى بن يحي، أنا شعيب بن ابراهيم، أنا سيف بن عمر التميمي.

---

٤٧ . الكتاب مطبوع. انظر ترجمة عثمان ــ تاريخ دمشق / جريدة المراجع. توفي المالقي سنة ٧٤١هـ.

٤٨ . قال ابن معين : «ضعيف الحديث». وقال مرة : «فليس خير منه» وقال أبو حاتم : متروك «يشبه حديثه حديث الواقدي» وقال أبو داود : «ليس بشيء»، وقال النسائي والدارقطني : «ضعيف». وقال ابن عدي «بعض أحاديثه مشهورة وعامتها منكرة». انظر تهذيب التهذيب.

وبواسطة هذا الدليل الذي يضعه الحافظ بين يدي كل خبر ينقله من الكتاب، فليس من العسير على الباحث المنقب أن يعيد جمعه من التاريخ الكبير ليقدم للقراء أقدم كتاب ألف في موضوعه بالاضافة الى غزارة مادته وتنوعها وشمولها.

موارد أدبية: من أهم موارد الحافظ ابن عساكر الأدبية كتاب «المجالسة» لمحمد بن مروان السعيدي. لا تسعفنا المصادر بشيء عن مؤلف المجالسة، ولولا ما ذكره الخطيب في تاريخه (٤٩) لظلت معرفتنا به مقتصرة على تسمية الحافظ له في إسناده إلى كتاب «المجالسة»، ومع ذلك فان ما رواه الخطيب يظل مفتقراً الى الدليل الثابت الأكيد في نسبة الكتاب اليه، على الرغم من أن القرائن التي وردت في تاريخ بغداد كلها تؤيد أن يكون الرجل مؤلف كتاب المجالسة، قال الخطيب:

«محمد بن مروان بن عمرو بن مروان بن عنبسة بن سعيد بن العاص، أبو عمر الأموي، حدث عن أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني. روى عنه: محمد بن مخلد الدوري» ثم ينقل الخبر التالي من روايته: «أخبرني أحمد بن سليمان بن علي المقرىء، حدثنا محمد بن عبد الله بن أحمد بن القاسم الدهان، حدثنا محمد بن مخلد، حدثني أبو عمر محمد بن مروان بن عمرو من ولد سعيد بن العاص ـ حدثنا أبو حاتم السجستاني، حدثنا الأصمعي قال: كان لأبي عمرو بن العلاء وظيفة في كل يوم: ريحان بفلس، وكوز جديد بفلس» ثم ينقل لنا خبر وفاته: «قرأت في كتاب ابن مخلد بخطه: سنة أربع وتسعين ومائتين فيها مات أبو عمر محمد بن مروان الأموي يوم الأحد لاحدى عشر ليلة من المحرم».

يتضح لنا من هذه الترجمة القصيرة أن الرجل كان من أعلام القرن الثالث الهجري، وكان من رواة الأخبار الأدبية، وهو من أبناء سعيد بن العاص. ومؤلف كتاب المجالسة الذي يطالعنا اسمه في تاريخ دمشق من أعلام القرن الثالث، نعرف ذلك من موضعه في السند، وكتابه كتاب أدب وأخبار نعرف ذلك من النقول الكثيرة التي رواها الحافظ منه. وهو سعيدي، وقد ذكر الخطيب أنه من أبناء سعيد بن العاص، بالاضافة الى ما بين الرجل في سند ابن عساكر وبين مترجم الخطيب من توافق شبه كامل في التسمية.

---

٤٩. تاريخ بغداد ٣/٢٩٣.

فمن المسترجح أن يكون هذا الرجل الذي ذكره الخطيب هو مؤلف كتاب المجالسة الذي احتفى به ابن عساكر هذا الاحتفاء كله، ومن المستبعد أن يكون الأمر مجرد توافق في الاسم والنسب.

كان محمد بن مروان معاصراً لكبار علماء الحديث وأئمة الجرح والتعديل مثل البخاري ومسلم والحسن بن عرفة، وعباس الداري، وكبار الأدباء ورواة الشعر والأخبار أمثال الجاحظ وأبي حاتم السجستاني، وابن قتيبة الدينوري، وابن أبي الدنيا، وسيبويه أستاذ النحاة ولعل هذا ما جعله قليل الحظ من الشهرة، وربما كان كتابه «المجالسة» بين الكتب الكثيرة التي سود مدادها زرقة مياه دجلة على يد التتار.

ومهما يكن من أمر فان الكتاب ماثل أمامنا بهذه النقول التي قبسها الحافظ منه، وكان له اليه طريق واضح هو التالي :

«أخبرنا أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن كرتيلا، أنا أبو بكر محمد بن علي بن محمد الخياط، أنا أبو الحسين أحمد بن عبد الله بن الخضر السوسنجردي، أنا أبو جعفر أحمد بن أبي طالب علي بن محمد بن أحمد بن الجهم الكاتب، نا أبي علي بن محمد، أنا محمد بن مروان بن عمر السعيد، أبو عمرو(٥٠) القرشي(٥١).

لم يعودنا الحافظ ابن عساكر أن يصرح بأسماء الكتب التي ينقل منها، وما كان لي أن أعرف اسم الكتاب لولا ما ورد في البداية والنهاية(٥٢)، فقد روى ابن كثير خبراً من طريق هذا الكتاب صرح فيه باسم الكتاب واسم مؤلفه، وروى الخبر من الطريق ذاته الحافظ ابن عساكر في التاريخ(٥٣). أما موضوع الكتاب فتعرفنا به هذه النقول الكثيرة التي

---

٥٠. كذا في طريق ابن عساكر الثابت الى الكتاب : «جده عمر وكنيته أبو عمرو» فلعل ما جاء في تاريخ بغداد تصحيف.

٥١. يتكرر هذا السند بين يدي كل خبر يرويه الحافظ من الكتاب، وكما سكتت المصادر عن التعريف بصاحب كتاب المجالسة سكتت أيضاً عن الترجمة لشيخ الحافظ راوي الكتاب. وقد ذكر لنا في المشيخة ق ٢١٢ ب أنه قرأ عليه في جامع المنصور ببغداد.

٥٢. انظر ٨ / ٣٣٦.

٥٣. انظر (عبد الله بن جابر ـ عبد الله بن زيد) ٤٣٩.

بثها الحافظ في حنايا التاريخ، انه كتاب أدب، ونوادر وطرائف وأشعار، وهو فريد من نوعه لأن أخباره كلها خاصة بمعاوية ومجالسه وسياسته بالرعية.

وكأني بالحافظ الكبير لم يرو عن طريق شيخه ابن كرتيلا الا كتاب المجالسة، حتى إن الحديث الذي رواه عنه في المشيخة كان في فضائل معاوية ومن طريق المجالسة، قال محمد بن مروان: حدثنا أحمد بن سنان القطان قال: ثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن يونس بن سيف، عن الحارث بن زياد، عن أبي رهم عن العرباض ابن سارية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لمعاوية: «اللهم علمه الكتاب والحساب، وقه العذاب». وكذلك فان هذا الكتاب لم يكن ضخماً، ففي المجلدة الواحدة قد لا نعثر على أكثر من خبرين، وقد يزيد عدد هذه الأخبار حتى يصل الى خمسة، ولعل المجلدة التي ترجم فيها الحافظ لمعاوية قد جمع فيها أكثر ما يمكن جمعه فبلغ ما نقله في ترجمة معاوية أحد عشر خبراً تنوعت موضوعاتها بتنوع الأخبار التي أراد أن ينقلها الينا، نجد فيها ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم في بيان فضل معاوية والدعاء له. وتبشيره في الجنة، كذلك نجد فيها أقوال الصحابة وبعض التابعين في معاوية وما يمتاز به من دهاء وعلم وعقل وجود، ولا شك أن بعضها سيكون خاصاً بسياسة معاوية في الرعية وعلاقته بأشراف قريش، ووجهائها بشكل خاص، والصحابة بشكل عام. ويبدو لنا في هذه الأخبار كأن معاوية قد أحسن التقدير والتدبير، ووضع الأمور في مواضعها، وأعطى كل شأن نصيباً كافياً من حكمته وتدبيره، فدانت له البلاد، وأذعنت له العباد.

وقد يتبادر الى الذهن أن ما بثه ابن عساكر من أخبار معاوية في تاريخه نقلاً من «المجالسة» قد عاد فلمه في ترجمته، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث وربما نعثر على الموضوع الواحد ولكن من طريقين، وبروايتين نقلهما السعيدي وعنه ابن عساكر(٥٤)، وهذه من المزايا الهامة التي يتصف بها تاريخ دمشق فهو على ضخامته قلما يلجأ مؤلفه الى التكرار، وما أكثر ما يعيدنا في مكان من التاريخ الى مكان آخر قائلاً ذكرناه في موضع كذا فغنينا عن إعادته، وان دل ذلك على شيء، فانما يدل على أن التاريخ كله كان يعيش في ذاكرة

٥٤. مثل هذا نجده في خبر عبد الله بن جعفر ومعاوية، فقد نقل لنا خبراً طويلاً عن وفوده على معاوية في كل عام وما كان يخصه به. كان ذلك في ترجمة عبد الله بن جعفر. ونقل خبراً في الموضوع ذاته من طريق المجالسة في ترجمة معاوية.

الحافظ الكبير، و يلازم تفكيره، وهذا مالا نجده عند غيره من المؤلفين. وأقرب شاهد على ما أقول الخطيب البغدادي في تاريخه وفي غير التاريخ (٥٥).

كذلك قد يظن ظان أن مؤلف كتاب «المجالسة» أراد أن يرفع من شأن معاو ية، وأن يحيطه بهالة ضخمة من الأبهة والتقدير، ولكن من يمعن النظر في عدد من الأخبار يرى أن مؤلف الكتاب لم يكن يقصد الى شيء من ذلك، ولكنه حكى ببساطة أخبار معاو ية مع أهله، وأقاربه، ومع الأشراف ووجوه القبائل والشعراء الوافدين عليه، ومع النساء اللواتي استدعى بعضهن وجاءته الأخريات ساعيات من أجل مصلحة خاصة أو عامة. لقد كان الكتاب خاصاً بمعاو ية جمع فيه مؤلفه أخبار معاو ية الخليفة ولكنه جمع فيه كل ما لمعاو ية وما عليه بصدق وأمانة فأظهرت أخباره كل ما لمعاو ية من حكمة وحلم ورحمة وجود ومقدرة على مداراة الخصوم، ومعرفة بأساليب استمالتهم، وما عليه من مكر ودهاء، وتفضيل للمصلحة السياسية على كل شيء.

١ ــ كان معاو ية جواداً ممدحاً غزير العطاء من أجل ذلك قصدته وجوه قريش وغص بلاطه بالشعراء والوجهاء، وكان مجلسه لا يخلو من عظماء قريش وسادتها حتى إن عبد الله ابن الزبير كان يطمع في عطائه، وكذلك عبد الله بن جعفر وهما من هما من الشرف والوجاهة. وحفل كتاب المجالسة بأخبار هؤلاء الوفود فكانت صفحات أدبية مشرقة ووثائق تاريخية هامة فيها أكثر من معنى يفيد منه المؤرخ الباحث، والدارس لأحوال هؤلاء العظماء، وعلاقتهم بمعاو ية.

وفي خبر طو يل يرو يه الحافظ من طريق المجالسة نعلم أن عبد الله بن جعفر كانت له كل عام وفادة على معاو ية يعطيه ألف ألف درهم، و يقضي له مائة حاجة. ولنسمع جانباً من الحديث الذي دار بينهما في احدى هذه الوفادات. يقول عبد الله بن جعفر: (٥٦) «لا يمنعك من قضاء حاجاتنا وصلة أرحامنا حاجتنا اليك وغناك عنا، فإنه ليس كل حاجة تتم، ولا كل غنى يدوم، وقد عودتنا من نفسك عادة صارت لنا عليك فريضة أن تقف بنا

٥٥. على الرغم من أن كتاب تلخيص المتشابه للخطيب البغدادي قائم على نظام دقيق في عرض الأسماء المتشابهة والتفريق بينها فانه ذكر بعض تراجمه في غير موضع ولم ينبه على ذلك. تراجع (ت ١٢٧١، ١٤٣٦).

٥٦. تاريخ دمشق (عبد الله بن جابر ــ عبد الله بن زيد) ٣٣.

عندها رضينا ، وان زدتنا عليها حملنا زيادتها» ثم يقول له : «واعلم أنك لا تقضي لنا حاجة الا قضينا لك مثلها . ولا تقبض عنا يدك ، فوالله أنه لتجيء ، منك الفلتة من الحرمان فكأنما جاءت من غيرك ، يشك فيها الشاهد ، و يكذب بها الغائب ، و يطلب لها أهل الرأي المخرج لك منها حتى ييأسوا لك من العذر ما يجوز الحرمان ، وكذلك بحظك الغالب ، وقدرك الجالب» .

من حديث عبد الله بن جعفر هذا نلاحظ أنه استطاع أن يوفي معاو ية حقه ، ويحفظ له مكانته ، ولكن الحديث بينهما لم يكن حديث الرئيس والمرؤوس ، لم يكن هناك رعية تطلب حاجة ، وخليفة تطلب منه هذه الحاجة ، ولكنه خطاب الند للند ، ومصالح متبادلة بين أبناء العم السادة ، ولم يكن معاو ية يتوقع غير ذلك من عبد الله بن جعفر ، بل انه وجد في قوله ما أثلج صدره ، وأعطاه أكثر مما كان يتوقع من الثناء والتقدير ، الاّ ما كان من دالة عبد الله عليه باشارته الى الحاجات المتبادلة بينهما . وكأن منزلة عبد الله بن جعفر في نفسه لا يقلقها الا ذلك الود المتبادل بينه و بين علي رضي الله عنه . نلاحظ بعض هذا في قول معاو ية : «حسبك . فما يتسع بيت مالي لمكافأتك ، والله ما في قريش رجل أحب أن يكون ابن هند منك ، ولكني اذا ذكرت مكانك من علي ، ومكان علي منك انقبضت عنك . ثم اذكر أني لا أقيس بك رجلاً من قريش الا عظمت عنه ولا أزنك الا رجحت به ، فعطفت عليك ، فالغالب على ذلك الأوليان بك مني وسيلة لا أحب دالتها ، وأثرة لا أستكثر عطيتها . . . وأما أن تقضي من حقي ما أقضي من حقك فاني لا أكون على حال الا وفي يديك مني أكثر مما في يديّ منك»

ثم قضى حاجاته ، وسد ديونه . فغضبت قريش الشام ، وقالت : «نظن معاو ية هائباً لابن جعفر» فكان جواب معاو ية شعراً رائعاً من أرق الشعر وأعذبه . ولعلنا لا نبالغ حين نقول : انه من أحسن ما قيل في اللوم والعتاب :

تقول قريش حين خفت حلومها	نظن ابن هند هائباً لابن جعفر
فمن ثم يقضي ألف ألف ديونه	وحاجته مقضية لم تؤخر
فقلت : دعوالي ، لا أباً لأ بيكم	فما منكم فيضي له غير أعور
أليس فتى البطحاء ما تنكرونه	وأول من أثنى بتقواه خنصري

وكان أبوه جعفر ساد قومه ولم يك في الحرب العوان بحيدر
فما ألف ألف فاسكتوا لابن جعفر كثير، ولا أمثالها لي بمنكر

ومما يميز معاوية بين الخلفاء والقادة مقدرته على اخماد الفتن، وتهدئة النفوس باسلوب المداعبة والفكاهة. من ذلك ما رواه التاريخ من طريق السعيدي قال(٥٧)

«هجا عقيبة الأسدي أبا بردة بن أبي موسى، فقال :

وأنت امرؤ في الأشعرين مقابل وبالبيت والبطحاء أنت غريبُ
وما كنت زماراً لأمك بالضحى ولا بمزكيها بظهر مغيب
فان عاد عدنا لابن طمية مثلها وإن آب منها فاللئيم يؤوب

فخرج أبو بردة الى معاوية فشكا اليه عقيبة، وقال : هتك عرضي. فقال له معاوية : وما قال لك ؟ قال :

وأنت امرؤ في الأشعرين مقابل وبالبيت والبطحاء أنت غريب
وقد صدق. وقال لك :

وما كنت زواراً لأمك بالضحى ولا بمزكيها بظهر مغيب
ولم تكن زواراً لأمك. وقد قال لي ما هو أشد من هذا قال :

فهبها أمة هلكت ضياعاً يزيد أميرها وأبو يزيد
معاوي إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجرّدتموها فهل من قائم أو من حصيد

أرفع يديك ندع الله عليه. فرفع، ورفع أبو بردة فدعوا الله عليه.

وكما فطر الله العربي على الفصاحة والجرأة والشجاعة فطره أيضاً على حب الأدب وتذوق الشعر، وتمييز غثه من سمينه. وكذلك كان معاوية، فقد كانت له مجالس أدبية يحكم فيها ذوقه بما يسمعه من الشعر، ويحكم سامعيه، و يكافىء على ذلك مكافأة كبيرة.

٥٧. (عاصم ـ عائذ) ٣٧٥.

ولم ينس السعيدي أن ينقل لنا جانباً من هذه المجالس، منها هذه الندوة الأدبية التي مثل فيها معاوية بن أبي سفيان دور الحكم، وعبد الله بن الزبير دور الراوي، قال(٥٨): اذن معاوية للناس يوماً، فدخلوا عليه، فاحتفل المجلس وهو على سريره، فأجال بصره فيهم ثم قال: أنشدوني القدماء العرب ثلاثة أبيات جامعة من أجمع ما قالتها. ثم قال: يا أبا خُبيب: فقال: مهيم؟ قال: أنشدني ثلاثة أبيات لقدماء العرب جامعة من أجمع ما قالتها. قال: نعم يا أمير المؤمنين بثلاثمائة ألف. قال معاوية: ان سارت. قال أنت بالخيار، وأنت واف كاف قال: نعم. فأنشده للأفوه الأودي:

بلوت الناس قرناً بعد قرن   فلم أر غير ختال وقال

فقال: صدق

ولم أر في الخطوب أشد وقعاً   وكيداً من معاداة الرجال

قال: صدق

وذقت مرارة الأشياء طراً   فما شيء أمر من السؤال

فقال: صدق. هيه يا أبا خبيب، قال: الى هاهنا انتهى بي. قال: فدعا معاوية بثلاثين عبداً على عنق كل واحد منهم بدرة فمروا بين يدي ابن الزبير حتى انتهوا الى داره.

تعمق هذه الحكاية صفتين أساسيتين عرف بهما عبد الله بن الزبير في التاريخ وهما: الحرص على جمع المال، وحسن التمثل بالشعر، وكم رأيناه متمثلاً به، واضعاً كل بيت موضعه المناسب، وها هو في هذا الخبر يختار ثلاثة أبيات جامعة فيها خلاصة تجارب طويلة في الحياة. ودستور موجز مركز يحذر الانسان من الناس كما يحذره من الاطمئنان اليهم، ويحثه على الحرص خوفاً من الحاجة وذل السؤال.

في مثل هذه الأخبار الأدبية لا تهمنا صحة الرواية بقدر ما يهمنا المعنى الذي تنقله والأسلوب الذي تروى فيه ومدى مطابقة ذلك للواقع التاريخي. وسواء صحت الرواية أم لم تصح فاننا أمام صورة صادقة لمجالس معاوية وما كان يدور فيها وكما يهمنا في القصة الصدق الفني، كذلك يهمنا في هذه الأخبار أن تكون صورة العصر، يهمنا أن نقول: هكذا

٥٨. تاريخ دمشق (عبد الله بن جابر ـ عبد الله بن زيد) ص ٤٣٩.

كان يتكلم معاوية حقاً، وهكذا كان يتكلم عبد الله بن الزبير حقاً، وكما نحرص في القصة أن نجد تجربة فنية صادقة كذلك يهمنا أن نجد خبراً تاريخياً صادقاً يقبله العقل، ولا يرفضه منطق التاريخ في القرن الأول الهجري، ومع ذلك فإن التجارب علمتنا أن هناك تلازماً بين منطق التاريخ وصحة الرواية، وهو أيضاً ما أوصلتنا اليه معرفة أحوال الرجال ودراسة الأسانيد.

قلت فيما تقدم إن مؤلف كتاب المجالسة أموي سعيدي، وهذا ما يجعلنا نعتقد لأول وهلة أنه يحمل نزعة خاصة القصد منها الدفاع عن بني أمية بشكل عام، ومعاوية الخليفة بشكل خاص، ونظن أن السعيدي عمل على جمع الأخبار التي من شأنها اعلاء مكانة معاوية وابراز مزاياه الحميدة، وفعاله الصالحة، ولكننا ما نكاد نبدأ بقراءة الأخبار حتى نحسس بروح موضوعية تحكي ما لمعاوية وما عليه، و يصح أن نقول: أننا بعد أن نقرأ عدداً من الأخبار يخيل الينا أننا أصبحنا نعرف معاوية أكثر مما كنا نعرفه، ولكن ليس أفضل مما كنا نعرفه، هناك كثير من الأشياء كنا نجهلها مما يمكن أن يكون خيوطاً متينة في نسيج التاريخ الصحيح، منها علاقة معاوية بعبد الله بن الزبير ونوع الود الذي كان يربط بينهما، والأسلوب الذي كان يعامل به معاوية هذا الصحابي الخطير الذي كان يحمل في نفسه ونسبه وقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يحمله سواه بعد علي وابنيه.

روت لنا أخبار المجالسة أنه كان في مجلس معاوية أكثر من مرة، وروت لنا أيضاً أنه كان لا يترفع عن نيل عطائه، بل أنه ليطمع في هذا العطاء أشد الطمع، أما معاوية فانه كان يعطيه الكثير، يجود عليه جوداً يتناسب مع منزلته في قريش، ولعله لم يقصد بذلك أن يتألفه فقط، ولكنه أراد أن يشبع غريزة عرفها التاريخ في ابن الزبير، وعرفها معاوية حق المعرفة فيقطع لسانه، ومع هذا فلم يكن بين الرجلين ذلك الود الكبير الذي ترتاح اليه النفس، و يطمئن اليه القلب، كان في أعماقها الكثير مما تعبر عنه فلتات اللسان أحياناً ورب هزل أعظم من الجد في الكشف عن الضمائر، واظهار ما تنطوي عليه الدخائل ومثل هذا قد لا نسمعه في مجلس عام ولكن حيث تجمع الظروف الرجلين الكبيرين.

يروى الحافظ من طريق السعيدي في المجالسة (٥٩) أن معاوية قدم المدينة، فأقام

٥٩. تاريخ دمشق (عبد الله بن جابر ــ عبد الله بن زيد) ٤٤١.

بها، فأكثر الناس، وعرضوا له يسألونه، فقال يوماً لبعض غلمانه :أسرج لي بغلتي، اذا قامت صلاة العصر، فأسرج له البغلة، فلما صلى العصر جلس عليها، ثم توجه قبل الشام، وصيح في الأثقال والناس، وتبع معاوية من تبعه. ويدركه ابن الزبير في أول من أدركه، فسار الى جانبه ليلاً وهو نائم، ففزع له، فقال : من هذا ؟ فقال ابن الزبير: أما أني لو شئت أن أقتلك لقتلتك. قال : لست هناك لست من قتال الملوك، إنما يصيد كل طائر قدره. فقال ابن الزبير: أما والله لقد سرت تحت لواء أبي إلى ابن أبي طالب، وهو من تعلم، فقال : لا جرم والله، لقد قتلكم بشماله. فقال : أما ان ذلك في نصرة عثمان ثم لم نجز بها. قال : والله ما كان بك نصرة عثمان، ولولا بغض علي بن أبي طالب لجررت برجلي عثمان مع الضبع. قال : لقد فعلتها ! إنا قد أعطيناك عهداً فنحن وافون لك به ما عشت، فان مت فسيعلم من بعدك فقال : والله ما أخافك الا على نفسك، ولكأني بك قد خبطت في الحبالة واستحكمت عليك الأنشوطة، فذكرتني وأنت فيها فقلت : ليت أبا عبد الرحمن لها. ليتني والله لها، أما والله لحللتك رويداً، ولأطلقتك سريعاً، ولبئس الولي أنت تلك الساعة» .

إن قارىء هذا الخبر سوف يدرك بعد ما ينطوي عليه من تلخيص دقيق للصراع السياسي بين المسلمين، هذا الصراع الذي بدأ بمعركة الجمل، وانتهى بمقتل عبد الله بن الزبير، وذلك التحليل الدقيق لنفسية عبد الله بن الزبير والإرهاص بالأحداث التي ستؤدي إلى ما أدت إليه.

وسواء صحت الرواية أم لم تصح، وسيان كان معاوية هو من قدر هذا التقدير كله أم راوٍ أحكم نسج الخبر، وأدخل فيه ما أراد ادخاله من حسن تقدير معاوية ــ وهو ما يستبعد ــ فإنه وثيقة سياسية هامة لمؤرخ أحداث المائة الأولى للهجرة لأن فيه كل ما كان بين عبد الله ومعاوية من مودة ظاهرة تحمل في طياتها الكثير مما فسرته الأيام المقبلة، كان عبد الله بن الزبير يظهر لمعاوية طاعة تحتها حقد، وكان معاوية يظهر له حلماً تحته غضب، ولكن كلاً منهما عرف قدر خصمه تمام المعرفة ففضل المداراة والمجاملة على أي شيء آخر.

ليت مؤلف الكتاب سماه : داهية العرب معاوية بن أبي سفيان، ولكن مثل هذا العنوان سوف لا يشد القارىء ويرغبه كما فعلت كلمة «المجالسة»، وقد وفق المؤلف تمام التوفيق في اختيار أخبار لمعاوية مع رعيته فيها كثير من الطرافة، والرغبة في المداعبة، مثال

ذلك ما رواه عن خديج خادم معاوية أن معاوية قال له (٦٠) : «ادع لي عبد الله بن مسعدة الفزاري. فدعوته ــ وكان آدم شديد الأدمة ــ فقال : دونك هذه ــ يعني جارية ــ بيض بها ولدك».

والحقيقة أن كل خبر من الأخبار التي يرويها ابن عساكر من طريق المجالسة يزيد في توضيح معالم الصورة التي رسمها التاريخ لمعاوية بن أبي سفيان، ويزيدنا قناعة بضرورة لملمة أجزاء هذا الكتاب من التاريخ وبعثه من جديد، ليس من أجل معرفة أخبار معاوية. ودراسة سياسته في هذه المرحلة الهامة من مراحل التاريخ العربي ولكن من أجل الكشف عن جوانب هامة من هذا التاريخ لا يمكن أن تتضح على حقيقتها الا في نتف مبعثرة من الأخبار، قد تبدو قليلة الأهمية مطبوعة بطابع الامتاع والمؤانسة ولكنها تحمل في طياتها حياة أمة، وملامح جيل، فيها آماله وأحلامه، ومبادئه وأهدافه.

استطاع معاوية بن أبي سفيان بدهائه وحكمته أن يتربع على كرسي الخلافة ولكنه لم يستطع أن يقنع عامة العرب والمسلمين أنه ليس هناك من هو أحق منه بالخلافة، وان هناك عاطفة دينية من جهة، ونعرة قبلية من جهة أخرى اتحدتا جميعاً لتكونا مرجلاً تغلي به نفوس الناس يمنعها من الانفجار تلك المسارب الضيقة التي هيأها لها معاوية بحلمه ورحابة صدره. وكم من مرة أراد فيها أن يعبث بخصومه فإذا بعبثه هذا يتحول إلى حمم لاهبة يقذف بها خصومه في وجهه فلا يجد جواباً لها الا الصمت خوفاً من الفتنة.

روى الحافظ ابن عساكر من طريق المجالسة قال (٦١) :

«زعموا أن معاوية جلس ذات يوم بين يديه السماطان، فدخل الناس وأشراف العرب، ودخل فيمن دخل شريك بن الأعور الحارثي وافداً، فلما اطمأن به مجلسه نظر اليه معاوية فقال : ما اسمك قال : شريك. فقال معاوية : ما لله من شريك. وإنك لأعور، والصحيح خير من الأعور، وانك لدميم، والجميل خير من الدميم فيم سدت قومك ؟ فقال له شريك : والله لقد أحميت أنفي ولا بد من اجابتك، فوالله انك لمعاوية، وما معاوية الا كلبة عوت فاستعوت، وانك لابن صخر والسهل خير من الصخر، وانك لابن حرب، والسلم

٦٠. انظر تاريخ مدينة دمشق (م ٢٩ ل ٧٦. مصورة الأزهر).

٦١. تاريخ مدينة دمشق (متفرقات رقم ٢٣٤ ق ٢٩).

خير من الحرب، وانك لابن أمية، وما أمية الا أمة صغرت فاستصغرت، فيم سدت قومك ؟

فقال : يا غلام، أقمه، فقام شريك وأنشأ يقول :

أيشتمني معاوية بن صخر ... وسيفي صارم، ومعي لساني
وحولي من ذوي يمن ليوث ... ضراغمة تهش إلى الطعان
يعيرني الدمامة من سفاه ... وربات الحجال من الغواني
ذوات الدل في حبرات عصب ... يحبون الهجان من الحسان
فلا تبسط لسانك يا ابن حرب ... علينا اذ بلغت مدى الأماني
فان تك للشقاء لنا أميراً ... فانا لا نقر على الهوان
وان تك من أمية في ذراها ... فاني من بني عبد المدان

هذا الخبر الذي رواه ابن عساكر من طريق المجالسة عن شريك تناقلته كتب الأدب والتاريخ بروايات مختلفة أقربها الى الصدق، وأبعدها عن السخف والمبالغات ما نقله لنا ابن عساكر من طريق المجالسة ومن طريق آخر أيضاً.

ومهما يكن نصيب هذا الخبر من الصحة فاننا نجد في الأ بيات المتقدمة صورة تلك النقمة التي كانت تنطوي عليها نفوس كثير من العرب لا تكاد تجد لها متنفساً حتى تنطلق هادرة صاخبة.

وشبيه بخبر شريك الأعور مع معاوية خبر الأحنف بن قيس.

روى ابن عساكر من طريق السعيدي(٦٢) أن الأحنف بن قيس دخل على معاوية فقال : انت الشاهر علينا سيفك يوم صفين، والمخذل عن أم المؤمنين ؟ فقال : يا معاوية، لا ترد الأمور على أدبارها، فان السيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا، والقلوب التي أبغضناك بها بين جوانحنا، والله لا تمد الينا شبراً من غدر إلا مددنا اليك ذراعا من خَتْر(٦٣)، ولئن شئت لتستصفينّ كدر قلوبنا بصفوٍ من عفوك، قال : فإني أفعل.

٦٢. نسخة أحمد الثالث.

٦٣. الختر: أقبح أنواع الغدر.

إن كل من يقرأ هذه العبارات الموجزة البليغة سوف يدرك كيف أن الأحنف أورد معاوية وأصدره بجمل قليلة مؤثرة فيها اللين، وفيها الشدة، ولن يجد غرابة في ذلك فهو الأحنف بن قيس، هذا الرجل الذي ضرب العرب بحلمه ودهائه المثل. لم يمنعه مركز الخليفة معاوية من أن يذكره بأنه هو من هو في العرب، وأن غضبه سيجر ثورة لا يستطيع الخليفة إخمادها. وقد روي أن ابنة لمعاوية أو زوجة قالت له ما معناه ـ وكانت تسمع ما يدور بينه وبين جليسه من وراء الستار: من الذي يهدد أمير المؤمنين ؟ فقال : رجل اذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه لماذا غضب. وكذلك فان الغضب لم يمنع الأحنف من أن يؤكد لمعاوية أنه ما زال مستعداً أن يبدأ معه صفحة جديدة من الود والصفاء اذا عرف كيف يعفو ويصفح عما مضى.

وكم يتمنى معاوية أن يسمع كلمة مداراة من خصومه يشم فيها رائحة الثناء عليه، وذكر مزاياه وفضائله، ولكن هؤلاء الخصوم كانوا أعنف من أن يحنوا رأسهم أمام خليفة وصل الى الخلافة بالمكر والدهاء، وهم يعتقدون أن في الأمة من هو أحق منه في منصبه ذاك.

روى ابن عساكر من طريق السعيدي قال(٦٤) :

«قدم على معاوية قوم من أهل الكوفة فيهم صعصعة بن صوحان العبدي وعبد الله بن الكوا اليشكري فأنزلهم معاوية داراً من دور دمشق، وأمر ألا يخرجوا منها. وكان في الدار مسجد يخرجون اليه، و يتحدثون فيه. فبيناهم يتحدثون اذ أقبل معاوية حتى دخل اليهم فقال : هذا خير لكم من الفتنة. أنشدكم الله، أي رجل أنا ؟ فسكتوا. ثم نشدهم مرتين فقال له ابن الكوا : أما اذ نشدتنا الله فإنك واسع الدنيا ضيق الآخرة، قريب المرعى، بعيد الثرى، تجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات.

فقام ولم يقل شيئاً. فلما أصبح أمر لهم بجوائزهم وردهم الى الكوفة.

مما تقدم ومن بعض أخبار الوافدات على معاوية التي رواها الحافظ من طريق السعيدي(٦٥) يتبين لنا أن كتاب «المجالسة» يحكي لنا ذيول معركة حطين. ويحضر في

٦٤. انظر التاريخ (عبادة ـ عبد الله) ص ٣٩٠.

٦٥. انظر تاريخ دمشق تراجم النساء ص ١٩٠، ٤٧٨ وانظر الوافدات من أهل البصرة والكوفة على معاوية ٤٤، ٦٣.

أذهاننا صورة الرماد الكثيف المتبقي من المعركة، والذي كان يدفن تحته جمراً لاهباً لا يحس به الا من يحرك ذلك الرماد. وكان معاوية يحاول في كثير من الأحيان أن يكشف عن الجمر المتبقي لكي لا تخطيء معاييره السياسية في إدارة شؤون الأمة.

وهناك في كتاب المجالسة أخبار طريفة تخص معاوية وأقرباءه الأدنين بناته وأخواته وأبناءه، هذه الأخبار تبدو لنا على جانب كبير من الأهمية لأنها تعطينا صورة للأسلوب الذي كان يتألف به معاوية الناس وتبين بعض العلاقات السياسية والاجتماعية التي كانت تربط بين العرب، وكيف أن نخوة الجاهلية بدأت تتسرب الى النفوس (٦٦)، وما زال صوت رسولهم يرن في آذانهم «ان الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعاظمها بالآباء والأجداد».

وبعد، فلعل ما قدمته من أمثلة كان كافياً في الكشف عن هوية الكتاب وتحديد موضوعه وبيان أهميته، وما زال بين يدي الكثير من الأمثلة مما يضيق عن استعراضه الوقت، فأرجو أن يكون للقارىء العربي لقاء قريب مع «المجالسة» فقد تكشف المصادفة عن أصل مخطوط له في احدى المكتبات الخاصة أو العامة فيحقق وينشر، واذا لم يسعفنا الحظ في العثور عليه فانني أعد كل من تستهويه الطرفة الأدبية، والملحة التاريخية من القراء الكرام أنني سأعمد قريباً وباذن الله الى لملمة ما تناثر من أخبار هذا الكتاب الطريف في جوانب التاريخ الكبير، وأقدمه اليهم ليذكروا بها كتباً كثيرة من المؤلفات العربية المفقودة وليحسوا بأهمية تاريخ دمشق الكبير الذي حفظ لنا قسماً لا يستهان به من مصادرنا التاريخية التي نزل بها ما نزل بهذه الأمة من محن.

٣) منهجية ابن عساكر في التاريخ:

من الميزات الهامة التي عرف بها الحافظ ابن عساكر في تاريخه كثرة الاستقصاء والتقصي والتزام الموضوعية فيما ينقل من أخبار وأحاديث.

وعلى الرغم من اسهابه الشديد فانه لم يكن يروي كل شيء، فقد كان مؤرخاً وكان محدثاً، وكان صاحب منهج، فما كان من الأحاديث متفقاً مع منهجه جال فيه

٦٦. تراجع تراجم النساء ٩٥، ٤٦١.

وصال، وأسهب وأطنب، واستقصى الروايات حتى لا يترك زيادة لمستزيد، ولا مجالاً لقائل، وكان يراعي في عرضه للأحاديث ذات الموضوع الواحد صحة المتن وفساده، وقوة السند وضعفه، يبدأ بالصحيح القوي، و ينتهي بالضعيف المضطرب. ان المتتبع لأخبار التاريخ يجد من دقة العرض، وحسن الانتقاء مالا يجده في غيره من المصادر، كل شيء عند الحافظ يسير بمنهج محدد، ونظام معين، وان حرصه على الكثرة لا يتعارض مع المنهج التاريخي، وموضوعية المؤرخ الحذر الحريص على الصدق النسبي فيما يرو يه من أخبار.

وحين ننظر الى ابن عساكر المؤرخ نرى أنه لا يروي ما لا يقبله العقل، ولا يروي ما يتعارض مع منطق التاريخ العربي الا من قبيل الفكاهة، وهو جريء غاية الجرأة في رواية الأخبار التي تعمق مجرى الأحداث التاريخية وتلقي الضوء على كثير من جوانبها الغامضة. من هذا المنطلق مثلاً روى خبر آمنة بنت الشريد (٦٧) زوج عمرو بن الحمق (٦٨)، ولم يرد خبر أروى بنت الحارث بن عبد المطلب، وذلك لأن في خبر آمنة صورة المرأة الوفية لزوجها، الجريئة في وجه ظالمها (٦٩). أما أروى ففي خبرها مع معاو ية شتائم واهانات، وهتك للأعراض يقصد منه الهدم لا البناء، وهو اذ يسيء الى معاو ية لا يحمل من الحقائق التاريخية والاجتماعية ما يرفع من شأن خصومه. فجدير بالحافظ الكبير ألا يرو يه، ولكنه يروي كلمات صادقة مؤثرة صدرت عن امرأة مفجوعة بزوجها، يروي قول آمنة بنت الشريد لرسول معاو ية (٧٠)، «قل له: أيتم الله ولدك، وأوحش منك أهلك ولا غفر لك ذنبك».

ذكر التاريخ أن أصحاب معاو ية طاردوا عمرو بن الحمق بعد معركة صفين، وذكر أن رأسه كان أول رأس حمل في الإسلام، وذكر أيضاً أن عمرو بن الحمق كان من أكبر رؤوس الفتنة في زمن عثمان، فلا بأس أن يأتي ابن عساكر ليعمق هذا الحدث التاريخي فيجمع أخبار ابن الحمق من مصادرها الأولى، وأن يستقصي في هذا الجمع ليكون موضوعياً مع قارئه، مؤدياً حق تاريخه، ثم ينزل هذه الأخبار في منازلها المناسبة من الكتاب

٦٧. ترجمتها في تاريخ دمشق (تراجم النساء ص ٤٣).

٦٨. هو عمرو بن الحمق من كاهل الخزاعي. صحابي. كان أحد الرؤوس الذين اشتركوا في قتل عثمان رضي الله عنه. تراجم أخبار الوافدين من أهل البصرة والكوفة، ص ٢١.

٦٩. تراجم أخبار الوافدات ص ٤٧.

٧٠. تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٣).

فنرى منها الكثير في ترجمة عثمان رضي الله عنه، وبشكل خاص ذلك الشعر الذي ذكر فيه عمرو بن الحمق، ودوره في الفتنة، وكذلك ذكرت فيه اسماء الصحابة الذين اشتركوا في التأليف على عثمان، وغيرهم ممن كانت لهم مواقف مشرفة في الدفاع عن الخليفة. ذكر ابن عساكر في هذا الموضوع ما لم يذكر غيره، وجمع ما لم يجمع غيره، وكان ما جمعه على جانب كبير من الأهمية لأنه روي من طرق مصادرها مفقودة، أو بحكم المفقودة ما دمنا لا نعلم عنها شيئاً حتى الآن، ولكن هل نستطيع أن نقول أن الحافظ لم يترك شيئاً من أخبار عمرو ابن الحمق سواء كان ذلك في ترجمته أم في ترجمة عثمان، أم في غيرها من تراجم التاريخ؟ ونجد الجواب في كتاب «الوافدين من أهل الكوفة والبصرة على معاوية» (٧١)، فقد ذكر العباس بن بكار الضبي أن عمرو بن الحمق وفد على معاوية، وروى خبر وفوده، هذا الخبر لا يروى في تاريخ دمشق، ولا في المصادر الكبرى أو غير الكبرى التي ذكرت عمرو بن الحمق، ونرى فيما ذكرته المصادر أنه ظل مطارداً الى أن قتل.

ما الذي منع الحافظ ابن عساكر أن ينقل خبر وفوده على معاوية من طريق العباس ابن بكار ما دام حريصاً على الاستقصاء، وكتاب العباس بن بكار من موارده في التاريخ؟ ان طبيعة الخبر من جهة، ومنطق التاريخ من جهة ثانية جعلاه لا يدخله تاريخه الكبير، نقرأ الخبر فنرتاب في معناه ومبناه معاً، أما من حيث المبنى فيخيل الينا أن الخبر قطعاً ملفقة من أخبار شتى تنقصها جزالة اللفظ، ومتانة التركيب، أما من حيث المعنى فالخبر تنقصه الحجة القوية، سواء كانت هذه الحجة من معاوية، أو من عمرو بن الحمق، كذلك فإن قارىء الخبر لا يحس أنه أمام شخصية قوية متمردة تستحق أن توضع في الموضع الذي هيأته لها أحداث التاريخ، ولعلنا نرغب في الإعراض عنه كما أعرض عنه الحافظ حين نقرأ قول الراوي (٧٢): «فبكى عمرو بن الحمق حتى وقع على وجهه ثم أفاق». أما لماذا بكى ووقع على الأرض مغشياً عليه ثم أفاق فلأن معاوية تباهى بانتصاره على علي، وأظهر شماتة بمقتله، ولعل القارىء سيقول في دخيلة نفسه: كنا نصدق مثل هذا الموقف لو صدر عن آمنة بنت الشريد حين ألقي في حجرها رأس زوجها، وكان من المعقول أن تبكي وتجزع، بل كان من المعقول أن يشتد جزعها ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، فقد كانت المرأة أقوى من

---

٧١. الكتاب مطبوع بتحقيق كاتبة هذه الأسطر.

٧٢. أخبار الوافدين ص ٢٢.

أن تنهار، وأشد صلابة ــ فيما تعتقده حقاً ــ من أن تجزع ، وكان من قولها حين ألقي الرأس في حجرها [٧٣] : « واضيعتا في دار هوان نفيتموه طويلاً ، وأهديتموه الي قتيلا ، فأهلاً وسهلاً ، كنت له غير قالية ، وأنا له غير ناسية » .

فهل كانت المرأة تتمتع بقوة كان من الأحرى أن يتمتع بها الرجل في مثل هذا الموقف ؟ أم أن ما نقله لنا الضبي في أخبار عمرو بن الحمق كان رواية مشبوهة لفقها مروجو الاشاعات المغرضة للنيل من تاريخنا ، ورسم صورة مهزوزة للصحابة في عصر صدر الإسلام مهما كانت صفاتهم واتجاهاتهم .؟ هذه الرواية أعرضت عنها أمهات الكتب التي وصلت الينا ، وأعرض عنها للسبب ذاته الحافظ الكبير، فلم يدفعه حب الاستقصاء الى روايتها ، وهذا ما أعنيه بالموضوعية عند ابن عساكر، وبالصدق التاريخي .

روى العباس بن بكار الضبي أخبار الوافدات على معاوية كما روى أخبار الوافدين ، ومن طريقه روى الحافظ بعض أخبار الوافدات ولم يرو خبراً واحداً من أخبار الوافدين . ولو رجعنا الى أخبار الوافدين برواية الضبي وقارناها بما رواه الحافظ من طرق أخرى فاننا سنجد عند الأول مبالغة واسفافاً ، وضعفاً واضطراباً ، وسوف نجد عند الثاني فصاحة وجزالة ، ونصاعة بيان ، وقوة حجة وسنلمس في أقوال معاوية دهاء وحكمة وليناً وتواضعاً ، وفي أقوال الوافدين عليه بلاغة وجرأة وفصاحة وايجازاً ، نقرأ ما دار بين معاوية والوافدين عليه برواية الحافظ فنصدق ونقتنع ونستمع لأن ما يرويه قريب من الواقع ، بعيد عن الخيال والمبالغة . ونهتم به كثيراً لأننا سنجد فيه جديداً ونزداد به معرفة . إن كل ترجمة نقرؤها من تراجم التاريخ تزيدنا قناعة بصحة هذه المنهجية التي سار عليها في تاريخه كله .

وما أكثر الأبطال المسلمين الذين جاهدوا في سبيل الله ، وضحوا بأنفسهم لتكون كلمته هي العليا ، ولكن أخبارهم ظلت نتفاً مبعثرة في بطون الكتب ، لا تكاد تعطي صورة متكاملة لكل واحد منهم ، وكثيرون أولئك الذين نسجت لهم صور خيالية اقتربت بهم إلى جو الأساطير، وأبعدتهم عن منطق التاريخ وشرط الواقعية في أخباره .

مثل هؤلاء يتناول أخبارهم الحافظ ابن عساكر تناولاً موضوعياً ، و يستقصي في لملمة كل ما يتعلق بهم ليعطينا صورة واضحة المعالم ، بينة القسمات ، مبعداً قدر المستطاع

٧٣. تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٢).

الروايات الملفقة، والبعيدة عن الواقع الا اذا كانوا من المتصوفة، أو من عباد الله الصالحين وأوليائه فان هؤلاء يجوز لهم مالا يجوز لغيرهم في منطق الحافظ، ومتى وصلنا الى الكرامات، وما خص الله به عباده الصالحين من معرفة أسرار الكون وعجائبه أطلق لنفسه العنان، وحلق بنا في جوٍّ من الصوفية المدهشة ليدلنا على أن قدرة الله لا تنال وليس لها حد تضرب به الأمثال.

ومن تراجم تاريخ مدينة دمشق الذين يصدق فيهم ما قدمته ترجمة الغازي العربي عبد الله البطال (٧٤).

لا تكاد المصادر تذكر شيئاً عن نسب هذا الرجل، ولا تسمي أباه، ولا تحفل بكنيته، ولولا تواتر الروايات العربية الصادقة في نقل نتف من أخباره لظننا أنه رمز للبطولة والشجاعة تمثلت في جندي مجهول، فهو الحقيقة الكبرى في التضحية والفداء، ولكنه لا يحمل اسماً معنياً لأنه يلخص أسماء نقدم له أكاليل الزهور، ونقرأ على روحه الفاتحة لأن روحه هي أرواح آلاف المجاهدين الأ بطال، من أجل هذا اقتربت أخباره من الأساطير، ونسجت حولها الأسطورة الشعبية المحببة «الأميرة ذات الهمة».

استقصى الحافظ ابن عساكر كل ما قيل عن هذا البطل العربي ونسقه مبعداً عنه ما لم يصل اليه بطريق صحيحة من غير أن يعلق على تلك الأخبار الواهية أو يشير اليها. وهذا ما يهم القارىء العربي، لأن هذا القارىء يجب أن يرى الماضي بعينه لا من خلال عيون الباحثين، والنقاد والقصاصين. هذا هو التاريخ الصحيح، وما عداه قد يكون فلسفة للتاريخ، أو أي شيء آخر الا أن يكون التاريخ نفسه.

روى ابن عساكر أهم أخبار البطال من طريقه الى محمد بن عائذ الدمشقي في كتاب «الصوائف» وهذا الكتاب من أهم الكتب التي روت أحداث الفتوحات العربية، نعلم ذلك من النقول الكثيرة التي نجدها في تاريخ دمشق من طريق ابن عائذ أما

---

٧٤. راجع: تاريخ دمشق م ٢٩ ق ١٨٨، وتاريخ خليفة ٢/٥٠٧، ٥٢٤، ومكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ٣٩، وتاريخ الطبري ٧/٨٨، ٩٠، ١٩١، وتاريخ بغداد ٩/٣٣٨، ودول الاسلام ق ٢١، وسير اعلام النبلاء ٥/٢٦٨، وتاريخ الاسلام ٤/٢٢٧، والكامل في التاريخ ٥/٢٤٨، والبداية والنهاية ٩/٣٣١، والنجوم الزاهرة ١/٢٧٢، وعيون التاريخ ٥/٥ (خ ٤٥). وراجع أخبار الغازي العربي في مجلة التراث العربي (١٦٧ — ١٧٧). العددان ١٥، ١٦ سنة ١٩٨٤.

الكتاب فلا نعلم عنه شيئاً حتى الآن، وما أكثر النصوص والوثائق الهامة التي ينقلها ابن عساكر بتمامها من طريق ابن عائذ مما لا نعثر عليه كاملاً في أي مصدر آخر(٧٥).

ومع أن ابن كثير في البداية والنهاية(٧٦) وابن شاكر الكتبي في عيون التواريخ(٧٧) قد لخصا لنا ما رواه ابن عساكر في ترجمة هذا الرجل من طريق ابن عائذ الا أن الصورة السليمة التي رواها ابن عائذ لم تنتقل بأمانة الا في تاريخ دمشق لأن الحافظ لا يلخص ولا يختصر، ولكن ينقل النص بتمامه. كما يثبت طريقه اليه بتمامه.

عودنا الحافظ ابن عساكر أن يبدأ تراجمه بموجز لما سيرو يه في هذه التراجم من أخبار، أما في ترجمة البطال فكأن الجو شبه الخيالي الذي يحيط بهذا الرجل منعه من تسجيل حقائق ثابتة وترك لنا أن نستنتج كل ما يمكن أن يكون خلاصة لحياته من هذه الأخبار التي جمعها لنا عنه وأولها حين عقد عبد الملك بن مروان لابنه مسلمة على غزو بلاد الروم، وولى على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطال، وقال لابنه مسلمة: «صيّره على طلائعك، وأمره فليعس بالليل العسكر فإنه أمين، ثقة، مقدام، شجاع».

ثم تتوالى أمامنا سلسلة من الأحداث البطولية يرو يها الحافظ ابن عساكر من طريق ابن عائد يأتي في نهايتها خبر مقتل البطال. وهذا الخبر وحده، يؤلف ملحمة رائعة تضع اسم المجاهد العربي في سجل الخالدين، أولئك الذين حرصوا على الموت لتوهب لهم الحياة الأ بدية.

هناك ما يشبه الاجماع على أن البطال مات سنة ١٢٢. أما خليفة فقد ذكر وفاته سنة ١٢١. وذكر الذهبي وفاته سنة ١١٢. وقال: «وقيل سنة ثلاث عشرة ومائة».

وما يلفت الانتباه أن هناك رقمين متقاربين ١١٢، و١١٣، و١٢٢، و١٢٣(٧٨). فهل نقول إن الرقمين الأولين جاءا تصحيفاً للرقمين الأخيرين، وهو ما نسترجحه من

٧٥. يراجع كمثال على ذلك نص الأمان الذي كتبه أبو عبيدة بن الجراح لأهل بعلبك في تاريخ دمشق (عبد الله بن جابر ــ عبد الله بن زيد ص ٣٦٨)

٧٦. راجع البداية والنهاية ٩/٣٣١.

٧٧. راجع عيون التواريخ م ٥ ق ٥ (خ ظاهرية رقم ٤٥).

٧٨. راجع الطبري حوادث (١١٣ ــ ١٢٢)، وتاريخ دمشق (م ٢٩ ق ١٩٠)، وتاريخ خليفة ٢/٥٢٤ وسير أعلام النبلاء ٥/٢٦٩، وتاريخ دمشق، م ٧، ق ٣٢٥.

أحداث التاريخ وما توافق عند أكثر المؤرخين ؟ أم ننظر الى ما نقلته لنا المصادر نظرة محايدة كما فعل الحافظ ابن عساكر، فقد جمع كل ما قاله القدماء، ولم يفضل واحداً من هذه الأقوال على الآخر؟

وحين ننظر الى الأخبار التي رواها لنا الحافظ في ترجمة هذا المجاهد العربي فاننا لا نجد فيها ما يتجاوز حد المعقول، ولا ما يخرج عما تقبله عقولنا من سير الأبطال في التاريخ .

ونعود الى تلك الخوارق والأعاجيب التي نسبت الى البطال في القصة الشعبية : «الأميرة ذات الهمة» فنرى أن المؤرخين وقفوا منها موقف المفند. فقال الحافظ الذهبي : «ولكن كذب عليه أشياء مستحيلة في سيرته الموضوعة(٧٩). وقال ابن شاكر الكتبي : «وأما ما تذكره العامة من الأعاجيب في السيرة المنسوبة الى البطال ودلهمة والأمير عبد الوهاب والقاضي عقبة فكذب وافتراء، وجهل وكثرة تخبيط فاحش لا يروج إلا على غبي كما تروج عليهم سيرة عنترة العبسي المكذوبة(٨٠).

أما ابن عساكر فقد تقصى في أخباره ما لم يتقص غيره، ونقل من مصادر لا نعرف عنها إلى الآن سوى الاسم ولكنه لم يذكر شيئاً من الخوارق والأعاجيب، ولم يشر اليها أية اشارة ولو من قبيل التفنيد والدحض.

كان ابن عساكر محدثاً، وكان مؤرخاً موضوعياً، وقد تلازمت هاتان الصفتان فيما ينقله لنا من أخبار وما يرويه لنا من أحاديث، دفعه الحديث الى الاستقصاء ودفعه التاريخ الى التقصي والمنهجية والحرص على الحقيقة. ولعل أمثلة واضحة من هذه المنهجية تبدو لنا في ترجمة عثمان رضي الله عنه.

خص الحافظ ابن عساكر الخليفة الشهيد عثمان رضي الله عنه بأكثر من ثمانية أجزاء من أصل التاريخ أي أكثر من ثلاثة أرباع المجلدة من المجلدات السبع والخمسين التي يتألف منها التاريخ وسار في عرض أخباره بموجب ذلك المنهج الذي التزمه في التاريخ كله، وكنا نظن أنه لن يترك شيئاً مما قيل عن عثمان أو ورد في أخباره الا سيجمعه بدافع

٧٩. سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩.

٨٠. عيون التواريخ، م ٥، ق ٧، رقم ٤٥.

من الاستقصاء الذي عرف به ، ولكنه في الحقيقة ترك كثيراً من الأخبار والروايات المشبوهة ، أو من التي يمكن أن يفسرها انسان مغرض تفسيراً سيئاً (٨١) . وليس معنى ذلك أنه أسمعنا ما لعثمان فقط ، لقد حكى لنا كل ما له وما عليه بدافع من الحرص على الحقيقة ، والأمانة التاريخية فيما ينقل من أخبار وما نقوله عن عثمان يصح في كل ما نقله من أخبار الصحابة .

ان كل ما يمكن أن يقال عن استقصاء الحافظ نجده في حديثه عن صحبة عثمان للنبي وتعداد فضائله ، وقدم اسلامه ، وتحقيق نسبه و بيان قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت جدته لأمه البيضاء بنت عبد المطلب توأمة عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي إمرأة من شهيرات النساء عرف قولها لمنافسها :

« انني صناع فما أعلم ، حصان فما أكلم » ، لذا فان الحافظ سيجمع كل ما قيل عن جدّة عثمان هذه في كتب النسب والتاريخ ثم إن عثمان جهز جيش العسرة ، ورد ذلك في كتب الصحيح ، وفي الحديث عن هذا الجيش أسهب الحافظ أيما اسهاب ، واستقصى كل الروايات حتى كدنا نظن أن الحديث عن جيش العسرة سيستغرق ترجمة عثمان كلها ، وفي لملمة فضائل عثمان كان يتغلل الى أدق القضايا الاجتماعية ليظهر لنا حسن خلقه ، وتواضعه ورحمته ، من ذلك أنه كان : « سهلاً بائعاً ومبتاعاً شارياً ومشترياً » ، ومن ذلك أنه لم يكن يوقظ خادماً بليل ، وحين يسأل لماذا لا يطلب خادماً يساعده يقول :

« الليل لهم يستريحون فيه » . ولا تختلف صورة عثمان الخليفة عن صورة عثمان في بيته و بين أصحابه ، كان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه لم ير لنفسه فضلاً على أحد ، ولم يكن يمتاز على الرعية الا بضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقه نحو الرعية ، وما أكثر ما كان يشاهد في المسجد نائماً واضعاً رأسه على لبنة أو بعض لبنة ، وكم كانوا يرونه في زاو ية من زوايا المسجد وحوله المسلمون يفتيهم في قضاياهم .

والحقيقة أن مؤرخ دمشق العظيم أسهب إسهاباً عظيماً في التقاط جزئيات صغيرة من مختلف جوانب حياة عثمان العامة والخاصة ليرسم لنا صورة الرجل الكبير والشخصية

٨١. ان ترجمة عثمان على طولها لا نجد فيها مثل خبر رواه لنا الخطيب في تلخيص التشابه مفاده أن عثمان أصابه وسوسة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم (انظر ت ٢٨٨) .

العظيمة، فلم يترك شيئاً من علاقاته الاجتماعية الا نقله بأمانة ودقة ما بعدها دقة، وكان في عرضه للأخبار والأحاديث يضم الشكل الى شكله مراعياً في ذلك أهميتها وصحة أسانيدها من غير أن يشير الى ذلك أو ينبه عليه، وكم من مرة نجده يضع فوق خبر من الأخبار كلمة «يقدم»، وفوق آخر «يؤخر» وحين نمعن النظر نفتش عن السبب نجده نابعاً من موضوع الخبر أو سنده وهذا كله يدلنا على الدقة المتناهية التي بني بها كتابه ونسق بها أخباره.

ان أكثر مصادر الحافظ في تاريخه الكبير كان قريب عهد بالأحداث الكبرى لعصر صدر الإسلام، وهذا ما جعلنا نحس ونحن نقرأ هذه الأخبار أننا نعيش فعلاً هذه الأحداث. ويخيل الينا أننا نشاهد تحركات الصحابة ونسمع أحاديثهم، وأكثر ما يبدو ذلك في قضية الشورى، التي توالت أخبارها في التاريخ آخذ بعضها برقاب بعض لتؤكد لنا أن عثمان اختير خليفة باجماع الصحابة، وكانت أول يد امتدت اليه بالبيعة يد علي، وقد أرهص لذلك الحافظ حين روى لنا أن عثمان كان كاتب وصية أبي بكر رضي الله عنه. وأنه كتب: «عمر» قبل أن ينطق بها أبو بكر، وحين سأله: ماذا كتبت؟ قال: «عمر»، أجابه أبو بكر: «ولو كنت كتبت نفسك كنت لها أهلاً» (٨٢).

و يتتبع التاريخ بدقة تلك الشبهات التي حامت حول علي من خلال ما يرو يه من أخبار البيعة و يظل متتبعاً لها حتى قيام الفتنة وانتهائها بمقتل عثمان. فاذا بأيد أثيمة تعبث بمقدرات الأمة، فتكتب الى أهل الأمصار على لسان علي لتكسب تلك الفتنة صفة ثورة شرعية، ولم يكن أبو الحسن يعلم بشيء مما يدور في الخفاء، هذا ما تواترت به الأخبار، وتواترت أيضاً بتفصيل ذلك الخلاف في وجهات النظر بين الرجلين الكبيرين عثمان وعلي.

من ذلك ما رواه الحافظ من طريق المعافى بن زكريا الجريري عن قنبر مولى علي قال (٨٣):

دخلت مع علي على عثمان فأحبا الخلوة، فأومأ علي الي بالتنحي فتنحيت غير بعيد، فجعل عثمان يعاتب علياً وعلي مطرق، فأقبل عليه عثمان فقال: مالك لا تقول؟ قال: ان قلت لم أقل الا ما تكره، وليس لك عندي الا ما تحب.

٨٢. أخبار عثمان ص ١٧٦.

٨٣. أخبار عثمان ص ٣٦٧.

كان لعثمان رأيه واجتهاده، وكان لعلي رأيه واجتهاده، واستغل تشدد علي أيما استغلال فضللت به العامة وأثيرت الأمصار، ولم يكن أبو الحسن عن ذلك كله براض، لقد أراد الخير لعثمان وعمل على مساعدته في كل مجال، ولم يذكره بسوء قط حتى في تلك المواقف التي يدل ظاهرها على جفاء عثمان لعلي. روى ابن عساكر عن ابن الحنفية من طريقين جاء في أحدهما : «ما سمعت علياً ذاكراً عثمان بسوء قط ولو كان ذكره بسوء لذكره يوماً ... كان الناس أتوا علياً يشكون سعاة عثمان، فأرسلني أبي فقال : يا بني، خذ هذا الكتاب فان فيه عشر النبي والصدقة فاذهب به الى عثمان. قال : فأتيته فأخبرته به فقال : انطلق فلا حاجة لنا به. فأتيت أبي فأخبرته فقال : لا عليك ضعه حيث أخذته» (٨٤).

وجاء في تعقيب راوي الخبر «لم يجد علي بداً حين كان عنده علم أن ينهيه، ونرى أن عثمان انما رده أن عنده من ذلك علماً فاستغنى عنه(٨٥).

وهكذا دائماً ما نشاء من تفسيرات وتعقيبات أما صوته هو فلا نسمعه الا في تصحيح لفظة، أو التنبيه على خطأ في السند، وهذا ما يزيد في أهمية الكتاب كمصدر للنصوص القديمة الصحيحة النسبة ذات الموضوع الواحد.

و يستمر الحافظ في تعميق هذا الحدث التاريخي فيروي مزيداً من الأخبار التي تحكي ما كان بين عثمان وعدد من الصحابة، و يأتي في مقدمتهم علي، ولا يحكي لنا الأسباب الحقيقية لما كان بينهما من جفاء ولكننا نشعر من طبيعة الأخبار أن تصلب علي ولين عثمان في تطبيق الأحكام الشرعية خلقا نوعاً من التباعد في وجهات النظر بينهما، وكم من مرة أراد بعض الصحابة التوفيق بين الرجلين، ولكن جهودهم كانت تبوء بالفشل. قال علي مرة للعباس الذي كان يقوم بدور السفير بينه و بين عثمان ما معناه : «لو شاء عثمان أن أخرج من داري لفعلت، أما أن أداهن في دين الله فلا(٨٦)». أما عثمان فما كان يخالج نفسه شيء من الريب في سلامة السنة التي كان يسير عليها، وهذا معنى قوله

---

٨٤. أخبار عثمان ص ٢٦٤.

٨٥. أخبار عثمان ص ٢٦٤.

٨٦. تاريخ دمشق ٢٥٧ــ ٢٦٣ (ترجمة عثمان).

للعباس أيضاً: «لو شاء علي ما كان أحد دونه ولكنه أبى الا رأيه». المسألة مسألة خلاف في الاجتهاد وتأويل القرآن، وكأني بعلي لم يكن يدري ما يفعل، كان يحب عثمان ولا يريد مخالفته، ولكن شيئاً من سياسة عثمان لم يكن يرتاح اليه، كان في بعض أعمال عثمان مداهنة في دين الله، وهذا مالا يمكن أن يقبله من عثمان، ولا من غير عثمان، فهو لا يخالفه لأن الخلاف شر، ولا يؤيده لاعتقاده أن تأييده مداهنة في دين الله وتتواتر الطرق والأخبار لتؤكد لنا أن علياً كان غاضباً من عثمان ولعثمان، ونكاد نوقن أن علياً لم يدل بدلوه في تلك الدلاء التي أرادت الإطاحة بخلافة عثمان لولا ذلك الخبر الطويل الذي رواه ابن عائذ في كتابه الصوائف ونقله عنه الحافظ من طريقه المعروف ــ وابن عائذ هو من هو في الثقة والضبط ــ جاء في بعض هذا الخبر أن عمرو بن العاص ذهب الى جيش ذي المروة موفداً من قبل عثمان، وكان مع هذا الجيش على أمر لم يعرفه عثمان الا بأخرة، وأن علياً رضي الله عنه ذهب الى جيش ذي المروة مستخفياً بصحبة عمرو بن العاص، أما عمرو بن العاص فجاء من أعلم عثمان بحقيقة أمره مع جيش ذي المروة وكانت النتيجة أن أبعده عثمان الى فلسطين، وأما علي فلم يحك لنا الخبر ما دار بينه و بين القوم(٨٧).

وهكذا فان الحافظ لم ينقل لنا ما لعلي فقط وهو كثير وأكثر مما تقوم به الحجة، ولكنه نقل لنا ما عليه أيضاً، وهذا ما أعنيه بقولي ان ابن عساكر كان مؤرخاً موضوعياً، وكان صاحب منهج. وليس ما قدمته الا نماذج قليلة لفيض متدفق من الأخبار التي جمعها مؤلف التاريخ في هذا الموضوع ولعمري أنها مادة دسمة لكل باحث ودارس، إن كل قارىء لهذه الأخبار سيعيد النظر فيما كتبه وسيراوده الشك في كثير مما حفظه، سيوقن أن تاريخ عصر صدر الإسلام لن يأخذ شكله النهائي الا بعد قراءة تاريخ دمشق والكشف عن الموارد الكثيرة التي نقل منها الحافظ وأبادتها النوائب والمحن التي ألمت بهذه الأمة على مدى تاريخها الطويل.

ونعود الى التاريخ لنقرأ مزيداً من الأخبار ولنقبس بعض الأمثلة، ولنتتبع أخبار الصحابة وموقفهم من هذه الفتنة الكبرى التي عصفت بالخلافة. و يقيني أن قارىء أخبار التاريخ، والمتأمل لأسباب الفتنة ونتائجها سيجد أن تلك الملابسات التي اعترضت طريق عثمان ما كان من الممكن أن تؤدي الى ما أدت اليه لولا أيد أثيمة كانت تلعب بالخفاء

٨٧. ترجمة عثمان ص ٤٢٦ ــ ٤٢٧، وراجع ص ٣٢ من هذا البحث.

لتوسيع شقة الخلاف وتهييج الأمصار وإلباس الفتنة لبوس صراع بين الصحابة.

ومهما يكن من أمر فاننا نستطيع أن نقسم الصحابة في موقفهم من الفتنة إلى فئات ثلاث:

١. الناقمون على عثمان، وهم فئة قليلة وأشدهم جرأة واندفاعاً عمار بن ياسر، وعمرو بن العاص، وعمرو بن الحمق.

٢. الفئة التي تريد تهدئة الأحوال واصلاح ذات البين و يأتي في مقدمتهم سعد ابن أبي وقاص، والعباس بن عبد المطلب وعددهم قليل أيضاً.

٣. أما الفئة الثالثة وفيها العدد الأكبر من الصحابة وعامة المسلمين فقد التزمت الصمت. والحقيقة أن أكثر الصحابة كانوا ذاهلين، لا يصدقون ما ترى أعينهم، يخشون أن تراق قطرة دم واحدة من دماء المسلمين ولا يستطيعون تبرير سياسة عثمان وهم ما زالوا حديثي عهد برسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، وكانوا يرون أن الأمة تتمخض بفتنة ولكن لا يدرون إلام ذاك سيسلمها.

وفي موقف الصحابة من الفتنة جمع الحافظ ما لم يجمع غيره، واستقصى الطرق واضعاً بين أيدينا خبرة ما قاله المؤرخون العرب وأهمه منذ بدء عهد التأليف حتى نهاية القرن الثالث وقلما تجاوز نهاية هذا القرن ومعنى ذلك أنه جعلنا نقف عن كثب من كل ما قاله المؤرخون والعلماء والمحدثون، وغيرهم من أفراد المسلمين، ولم يترك من ذلك شيئاً يهم المؤرخ الباحث في القرن الهجري الأول. ولعل خبر سعد بن أبي وقاص مع عمار بن ياسر من أهم الأخبار التي تصور لنا جهود المصلحين من الصحابة وذلك قبل قتل عثمان بفترة قصيرة، وكذلك فانه يمثل لنا رأي سعد ــ رضي الله عنه ــ في ذلك النزاع الذي كان بين عمار بن ياسر وعثمان، وحرصه على قلع جذور الفتنة، واطفاء الثورة المشتعلة في نفس عمار، ومن ثم فان رأي سعد سوف يلقي الضوء على رأي غيره من الصحابة اولئك الذين كانوا ينظرون الى الأمور بحكمة وتبصر.

روى الحافظ من طريق سيف بن عمر عن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال(٨٨):

«قدم عمار من مصر وأبي شاك، فبلغه، فبعثني اليه أدعوه، فقام معي ليس عليه

٨٨. أخبار عثمان ص ٣٠١.

رداء، وعليه قلنسية من شعر معتم عليها بعمامة وسخة، وجبة فراء يمانية، فلما دخل على سعد وهو متكىء استلقى، ووضع يده على جبهته ثم قال: ويحك يا أبا اليقظان ـ كنية عمار ـ إن كنت فينا لمن أهل الخير، فما الذي بلغني من سعيك في فساد بين المسلمين، والتأليب على أمير المؤمنين، أمعك عقلك أم لا؟ فأهوى عمار الى عمامته ـ وغضب فنزعها وقال: خلعت عثمان كما خلعت عمامتي هذه. فقال سعد: انا لله وانا اليه راجعون، ويحك، حين كبر سنك، ورق عظمك ونفد عمرك، ولم يبق منك الا ظِمْءِ كظِمْءِ الحمار خلعت ربقة الاسلام عن عنقك، وخرجت من الدين عرياناً كما ولدتك أمك؟ فقام عمار مغضباً مولياً وهو يقول: أعوذ بربي من فتنة سعد. فقال سعد: ألا في الفتنة سقطوا، وان جهنم لمحيطة بالكافرين(٨٩). اللهم زد عثمان بعفوه وحلمه من عندك درجات. حتى خرج عمار من الباب، وأقبل على سعد يبكي له حتى أخضل لحيته، وقال: من يأمن الفتنة يا بني؟ لا يخرجن منك ما سمعت منه فانه من الامانة، واني أكره أن يتعلق به الناس عليه فينالونه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحق مع عمار ما لم تغلب عليه دلهة الكبر»، فقد دله وخرف.

وكان بعد يكثر أن يقول: ليت شعري كيف يصنع الله بعمار مع بلائه وقدمه في الإسلام، وحدثه الذي أحدث».

يتضح من هذا الخبر أن سعداً كان حريصاً على مصلحة الصحابيين معاً، رفيقاً بهما، تملأ قلبه الشفقة على عمار لأنه أحدث حدثاً يرجو من الله أن ينجيه منه. كان عمل سعد يمثل شعور كل مسلم مخلص لله ورسوله و يعطينا أروع الأمثلة لما كان يحس به المعتدلون من الصحابة في محنة عثمان، هذا الإحساس الذي جلاه لنا الحافظ، وأكثر من عرض الشواهد عليه.

و يعتبر النص المتقدم وثيقة سياسية هامة تصدر عن مؤلف عاش في القرن الثاني للهجرة، ولا شك أنه سيخلق الرغبة في نفس كل من يقرؤه لمعرفة أسباب هذه الثورة العارمة في نفس عمار، ولن يتبعه الحافظ فسيخبره أن عثمان ضربه الحد في قضية قذف بينه و بين ابن أبي لهب، وسيخبره أيضاً أن عثمان وطىء عماراً بقدمه. ومع أن عثمان أحس بندم شديد بعد ذلك وطلب الى عمار أن يقتص منه أو يأخذ أرشا، الا أن عماراً أبي قائلاً: «لا

٨٩. سورة التوبة ٩ آية ٥٠.

والله لا أقبل منهن واحدة حتى ألقى رسول الله فأشكوا اليه » ، واستمر مجاهراً بثورته قائلاً في أكثر من موضع : «خلعت عثمان كما أخلع كور عمامتي هذه» .

وتصرح لنا أخبار التاريخ بأن بني أمية كانوا وراء فتنة عمار، وأنهم هم الذين أغروا عثمان به وحملوه على ضربه . روى ابن عساكر خبراً طويلاً عن شيخه الحسين بن نصر بن محمد بن خميس جاء فيه من قول عثمان لبني أمية (٩٠) :

«ياذبان الطمع ، والله ما زلتم بي على هذا الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خشيت أن أكون قد أهلكته وهلكت» .

ولم يكن بنو أمية وراء فتنة عمار فقط بل كان لهم دور خطير في اشعال نيران الفتنة التي أدت الى مقتل عثمان ، لقد أدرك ذلك عثمان حين استحكمت الأنشوطة حول عنقه ، ولم يسرع معاوية الى إغاثته . وهذا ما أحس به المعتدلون من الصحابة حين وقفوا من خليفتهم موقف الناصح المشير، ولعل شيئاً من ذلك يبدو لنا فيما رواه الحافظ من طريق المعافى قال (٩١) : بعثه عثمان بن عفان الى ابن عباس وهو محصور فأتاه وعنده مروان بن الحكم ، فقال عثمان : يابن عباس أما ترى الى ابن عمك ؟ كان هذا الأمر في بني تميم وعدي فرضي وسلم ، حتى إذا صار الأمر الى ابن عمه بغاه الغوائل ؟ قال ابن عباس : فقلت له : ان ابن عمك ، والله ما زال عن الحق ، ولا يزول ، ولو أن حسناً وحسيناً بغيا في دين الله الغوائل لجاهدهما في الله حق جهاده «ثم يقول لمروان بن الحكم الذي اعترضه : « وهو والله كان عندك وعن أهل بيتك أشغل اذا أوردتموه ولم تصدروه» . ثم أقبل على عثمان فقال له :

جعلت شعار جلدك قوم سوء ... وقد يجزي المقارن بالقرين
فما نظروا لدنيا أنت فيها ... بإصلاح ولا نظروا لدين

قرّب عثمان بني أمية ، وأغدق عليهم العطاء ، وكان يصدر عن رأيهم ، وقال في أكثر من موضع : «لو أن مقاليد الجنة في يدي لأعطيتها بني أمية حتى يدخلوا عن آخرهم» ، أما هم فكانوا يجدون فيه وسيلة لمآربهم الخاصة ، وسبباً من أسباب دنياهم .

٩٠. تاريخ مدينة دمشق ص ٢٤٦ (اخبار عثمان)
٩١. تاريخ مدينة دمشق ص ٣٦٧ (أخبار عثمان).

وما أكثر الوثائق التي نقلها الحافظ مما يؤيد هذه الفكرة و يوضحها، و يبين لنا أن الصحابة كانوا يعلمون ذلك و يسكتون عنه دفعاً للبلاء ومداراة لمعاو ية، ومن ذلك ما جاء في حديث بين معاو ية والمسور بن مخرمة : يقول المسور: قال لي معاو ية : يا مسور، أنت ممن قتل عثمان، فقال المسور: أنا والله يا معاو ية نصحته واعتزلته، وأنت والله غششته وخزلته، فإن شئت أخبرت القوم خبرك وخبري حين قدمت عليك الشام. فقال معاو ية : لا يا أبا عبد الرحمن».

وكان الحافظ روى أن المسور قدم الشام على معاو ية طالباً النجدة لعثمان فأنزله في مشربة على رأسه، فما دخل عليه داخل حتى قتل عثمان».

هذه نماذج قليلة مما رواه التاريخ في هذا الموضوع، وليس أهميتها في أنها جديدة فقد نعرف بعضها وقد نعرف قسماً كبيراً منها، ولكن أهميتها تأتي من غزارة ما يرو يه الحافظ في الموضوع الواحد، وفي كثرة الموارد التي يعتمد عليها و يقبس منها في الموضوع الواحد، والأهم من ذلك كله قدم هذه الموارد وصحة الرواية عنها.

ان تواتر الروايات القديمة يكاد يكون دليلاً قاطعاً على صحة الخبر بالاضافة الى ما يمدنا به هذا التواتر من إشارات ولمحات قد تلقي الضوء على كثير من النقاط الغامضة في سياسة عصر صدر الاسلام والتي ما زلنا نبحث عن تفسيرها. و يعرف من ذلك المؤرخ مالا يعرفه غيره.

و بعد أن قتل عثمان، و بعد أن روى لنا ابن عساكر كل ما ذكرته كتب التاريخ مفصلاً في هذه الفتنة الكبيرة التي حلت بالأمة بقي عليه أن ينقل لنا صدى مقتل عثمان في نفوس الناس وآراءهم في قاتليه، وفي هذا الموضوع نجد مثالاً صادقاً لتتبع الحافظ واستقصائه، كما نجد حرصه على العرض المنظم الدقيق، يأخذ بيدنا ليسمعنا أقوال الصحابة في مقتل خليفتهم وأخيهم في الإسلام، فاذا علي يلعن قتلة عثمان في السهل والجبل، واذا سمرة يقول : «اللهم انهم ثلموا في الإسلام ثلمة بقتلهم عثمان»، وأبو بكرة يقول : «لأن أخرّ من السماء الى الأرض أحب الي من أن أشرك في دم عثمان»، وعبد الله ابن سلام يقول : «اليوم هلكت العرب»، وسعيد بن زيد يقول : «لوأرفض أحد فيما صنعتم يابن عفان كان حقيقياً»، و يقول أبو حميد أخو بني ساعدة وكان ممن شهد بدراً :

«اللهم لك علي ألا أفعل كذا، ولا أضحك حتى ألقاك»، سعد بن أبي وقاص يلعن من لعنه، وحذيفة يبرىء نفسه من قتل عثمان، وزيد بن ثابت يبكي على عثمان. ثم ينقلنا من الصحابة الى التابعين فيسمعنا من أقوالهم الكثير، منها قول يزيد بن أبي حبيب الذي رأى أن قتل عثمان من أعظم ما أتت هذه الأمة بعد نبيها، وطاوس يرى أن قاتل عثمان من أجرأ الناس على الله، وابن سيرين يقول: «لو حل القتال في أهل القبلة حل يوم قتل عثمان»، وسعيد بن المسيب يقول: «قتل مظلوماً، ومن قتله كان ظالماً، ومن خذله كان معذوراً».

ثم ينقلنا من وجهاء القوم وعليتهم الى العامة فلا يسمي، وانما يأتينا بروايات عامة المتحدث عنه فيها رجل، وكأن هذا الرجل يعني كل فرد من أفراد المسلمين. قال طاوس: «لما وقعت الفتنة زمن عثمان قال رجل لأهله: «أوثقوني فإني مجنون كيلا أوذيكم» فأوثقوه فلما قتل عثمان قال خلوا عني فقد صحوت، والحمد لله الذي عافاني من قتل عثمان.

أرأينا الى هذا التدرج المحكم في عرض الموضوع بدأ بالصحابة وثنى بالتابعين، ومن جهة أخرى فهناك انتقال من الخاص الى العام: الصحابة أولاً والتابعين ثانياً والعامة ثالثاً. وهكذا دائماً كل شيء عند الحافظ خاضع لنظام دقيق، ومقاييس محكمة، ومنهجية عجيبة لم تضعف منها هذه الأسانيد التي كانت تسبق كل خبر من الأخبار. ولعلنا نزداد عجباً حين نجد خبراً في مصدر من مصادر ابن عساكر قد رواه الحافظ في التاريخ ولكن ليس في مكان واحد لأن فيه عدداً من الأفكار كل واحدة منها أنزلها في مكان قد أعده لها ووضع بين يديها طريقة الى ذلك المصدر، وان دل هذا على شيء، فانما يدل على منهجية شديدة أخذ بها نفسه، ومن ثم يزيدنا اكباراً لهذا العمل، واحساساً بحاجتنا اليه في جميع ما نقوم به من دراسات تاريخية أو أدبية أو اجتماعية، وبشكل خاص ما يتعلق فيها بعصر صدر الإسلام.

قلت ان ابن عساكر كان محدثاً وكان مؤرخاً، والحقيقة أن هاتين الصفتين متلازمتان في تاريخه كله، وأن صفة المحدث كثيراً ما تطغى على منهجية المؤرخ، وشخصية المؤلف وحرصه على الاستيعاب والشمول.

وفي هذا الموضوع نعود الى ترجمة عثمان نستنطقها مفتشين عن الفتوحات التي تمت في عهد عثمان ــ وكما نعرف كانت كبيرة جداً ــ فنجد أن الحافظ ما كان ليخطر له أن يحدثنا عن هذه الفتوحات لولا أن أبا شيبة فيما رواه الحافظ عنه قرن الحديث عن الحج بالحديث عن الفتوحات كلما تحدث عن أمر الحج في سنة ذكر الفتوحات التي تمت فيها أيضاً.

وكذلك لم يكن اهتمامه بولاة عثمان أكثر من اهتمامه بالفتوحات التي تمت في زمنه. ان كل ما جمعه من أخبار عثمان ليس فيه خبر واحد تحدث حديثاً شاملاً عن ولاة عثمان، وما جاء من أخبارهم كان عرضاً في الحديث عن الفتنة وأسبابها.

وأزواج عثمان وأبناؤه وبناته كلهم ليس لهم نصيب في أخباره الا أبنيه من بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن ذكرهما يتطلبه الحديث عن فضائل عثمان، وإلا زوجاته اللواتي ورد ذكرهن في أحداث الدار.

لقد طغت صفة المحدث على منهجية المؤرخ في الموضوعات المتقدمة، وهكذا ابن عساكر دائماً لا تهمه ادارة البلاد وشؤون العباد بقدر ما تهمه الأحاديث والآثار واستقصاء طرقها، فهو محدث صاحب هدف ومؤرخ صاحب منهج، وغايته من وراء ما يستقصي من آثار وأخبار تثبيت فكرة يلح عليها، وليست هذه الفكرة لمناصرة فئة أو طائفة، ولكن غايتها تنقية الحنيفية البيضا من الشوائب والملابسات ومهما حاولت كتب التاريخ أن تشده الى جادتها فانه سرعان ما يبتعد عنها مفضلاً على حوادثها ــ مهما كانت هامة خبراً يناصر السنة، و ينفي البدعة.

و بعد أن عرفت بتاريخ مدينة دمشق، فتحدثت عن بنائه، وعن مراحل تأليفه، وأتيت بشيء من الموارد الهامة المفقودة التي نقل منها الحافظ، و بعد أن تحدثت عن منهجية المؤرخ وموضوعيته واستقصائه، وأسلوب المحدث والتزامه استطيع أن أقول:

ان تاريخ عصر صدر الإسلام لا يمكن أن ينجلي واضحاً ما لم يوطن الباحثون فيه، والدارسون له أنفسهم على الصبر، و يسلطوا الأضواء القوية على ما نقله الحافظ ابن عساكر من أخبار تتعلق بقضايا هذه المرحلة الهامة من مراحل تاريخ أمتنا العربية.

ان على كل باحث ودارس أن يمضي الأشهر الطويلة، بل السنوات العديدة في صحبة أخبار التاريخ ليستخلص منها صورة صادقة لمجريات الأحداث، ووقائع الأمور، لأن هذه الأخبار سوف تجعل في متناول يده كل ما قاله المؤرخون العرب في كثير من القضايا التي يفتش عنها، وتجعله ينظر عن كثب الى أكثر المؤلفات العربية التي ألفت منذ بدء عهد التأليف حتى نهاية القرن الخامس، وأهمها المؤلفات التاريخية الأدبية.

أليس يحق لنا اذاً أن نستمطر شآبيب الرحمة على روح حافظ دمشق ومحدثها فقد استطاع أن يصون لنا قدراً كبيراً مما جادت به قرائح الأجداد وأن يضع بين أيدينا الماضي أقرب ما يكون الى الحقيقة، وأبعد ما يكون عن الأهواء الشخصية والنزاعات الخاصة؟

ويحضرني في هذا المجال قول شاعر دمشق نزار القباني :

قد قضى الله أن تكوني دمشقاً ... فيك تبدا وتنتهي الأشياء

كذلك أراد الله أن يكون هذا التاريخ الكبير لدمشق لم يؤلف قبله مثله ولم يأت بعد ابن عساكر من استطاع أن يجاريه فيه.

السلطة في الاسلام: دراسة في نشوء الخلافة

رضوان السيد
كلية الآداب ــ الجامعة اللبنانية

I

ما تزال قضايا كثيرة في التاريخ والفكر العربيين الاسلاميين موضع أخذ ورد بين الدارسين. ولا يبدو ذلك غريباً في حقلٍ للدراسة باتّساع المجال الحضاريّ العربيّ، خصوصاً أنّ البحوث بدأت فيه بشكل جدّي قبل ما لا يزيد على قرن من الزمان. بيد أن ما يدعو للعجب والتساؤل في هذا السياق أن يستمّر الجدل في مسألة بأهمية مسألة السلطة في الاسلام نشوءاً وطبيعةً وتطوراً. فما يزال النزاع شديداً في طبيعة هذه السلطة، هل هي ثيوقراطية أو أوتوقراطية أو ديمقراطية. فإذا اعتبرنا هذا النزاع حول طبيعة السلطة مسوَّغاً لاعتماده على الفهم الخاصّ للاسلام ولهذه الأشكال السلطوية المذكورة كأدوات للتصنيف منذ أرسطو لا أكثر، فكيف يمكننا أن ننظر بالمنظار نفسه للتنازع في شأن نشوء السلطة في الاسلام؟ ذلك أنّ مسألة النشوء تعتمد دراستها على النصوص التاريخية التي تروي وقائع النشأة هذه. وقد تطرأ اختلافات في فهم هذا النصّ أو ذاك أو إعادة تركيب صورة الحدث استناداً الى البلاذري بدلاً من الطبري مَثَلاً. لكّن هذه الفروق ــ حتى مع أخذ الصُوَر المختلفة لنشوء السلطة عند الفرق الاسلامية في الاعتبار ــ تبقى محدودةً بحدود النصوص وسياقاتها.

إنّ الصُوَرَ التركيبية التي نقرؤها في كلّ دراسة عن السلطة الاسلامية الأولى نشوءاً وطبيعةً تعتمد أحد ثلاثة مناهج أو طرق، كلّها لا تعتبر النصّ التاريخيّ العربي والسياق العقدي والسياسي اللذين لا يمكن بحث مسألة السلطة في الاسلام إلاّ استناداً إليهما. **فهناك أولاً**: الدارسون المسلمون التقليديون من أهل السنة والجماعة الذين ينظرون للخلافة الاسلامية لا باعتبارها شكلاً اجتهادياً من أشكال السلطة والحكم والتصرف السياسي، بل يرونها جزءاً من العقيدة الاسلامية نفسها. وما دام الأمر كذلك

فإنّ الصورة التاريخية التي يعرضونها للمسألة لا يمكن الجدل فيها والاّ كان ذلك خروجاً على الاسلام نفسه. وأودّ أن ألاحظ هنا قبل الانتقال إلى المنهجين الآخرين أنّ أصوليي أهل السنة والجماعة القدامى يعتبرون الخلافة أو الامامة اجتهادية وليست من ضروريات الدين. ثم إنّ الصورة السلبية للخلافة الاسلامية الأولى لدى مختلف فرق الشيعة لا تختلف عن الصورة السنيّة في الأصل وان اختلفت في النتيجة. فهي قضية أيديولوجية أساسية عندهم لا يمكن النقاش فيها والاّ اختلّت الصورة التاريخية للمذهب كلّه.

وهناك ثانياً: المستشرقون الأوائل و بعض المحدّثين منهم. وهم الذين أدخلوا إلى مجال دراسة المسألة السياسية في الاسلام مصطلحات مثل الثيوقراطية والأوتوقراطية والديمقراطية والأوليجارشية. واذا كنا لا نستطيع لوم رجال مثل ألفرد كريمر وسنوك هورغرونيه وكارل هاينرش بيكر على هذا الخُلْف المنهجي باعتبار غربتهم عن بيئتنا الحضارية، واعتمادهم نظريات شمولية في فهم الحضارات، هي التي كانت سائدة أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن، فإنّ العقّاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل وحتّى محمد أقبال لا يبقون بمنأى عن مثل هذا اللوم، لاندفاعهم في السبيل نفسه في حقبة بحثيه أكثر حداثة، وفي موضوع، لا بدّ أنهم عرفوه أكثر مما خبره المستشرقون السالفو الذكر.

وهناك ثالثاً : النقديّون التوفيقيون من المستشرقين والمسلمين المعاصرين. وهؤلاء يحاولون تركيب منظومة من أمرين: النظم السياسية التي كانت سائدة عند الفرس والروم، ثم ما يسمّونه تقاليد البيئة العربية في الجزيرة شمالاً وجنوباً في القرن السادس الميلادي. فإذا صحّ أنّ الدولة الاسلامية في تطوّرها عرفت النظم الفارسية والبيزنطية، فإنّ اجتماع السقيفة لم يدرس ولا شكّ الأمر من هذا المنطلق. أمّا البيئة العربية السائدة فهي تعبيرٌ غامضٌ يختلفون حوله كثيراً في التفصيل.

إنّ المشترك بين الدارسين في هذه الاتجاهات هو تجاهلهم للنصّ التاريخيّ الاسلاميّ الذي يصف الوقائع التاريخية التي أحاطت بنشوء الخلافة أو يعرض صورة أيديولوجية للمسألة. وتجاهلهم لموقع الدين الجديد الذي كان يظهر و يتجذّر في بيئات

القرن السابع الميلادي حاملاً جديداً لتلك البيئات متبادلاً معها التصادم والاستيعاب(١).

إنني لا أرى مفيداً هنا العودة لتركيب صورة عن قضيتي نشوء السلطة وطبيعتها آستناداً لنهج مسبق لن يوافقني عليه الآخرون(٢). بل سأحاول أن أقرأ نصوصاً رديفةً لم تلق الاهتمام الكافي من قبل — علّها تساعد في تحديد بعض المسائل المتصلة بالقضيتين السالفتي الذكر.

II

اللحظة الاسلامية:

روى أحمد بن جنبل (— ٢٤١هـ)، والبخاريّ (٢٥٦هـ) ومسلم بن الحَجّاج (— ٢٦١هـ)، وابن ماجه (— ٣٠٣هـ) بأسانيد متشابهة عن أبي هريرة بطريق أبي حازم مرفوعاً(٣): «.. قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: انّ بني اسرائيل كانت **تسوسهم** الأنبياء كلّما هلك نبيٌّ **خلف** نبيٌّ. وإنه لا نبيَّ بعدي. إنه سيكون (أو ستكون) خُلَفَاء فَتَكْثُرُ. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فُوابيعة الأوّل فالأوّل، وأعطُوهم حقَّهم الذي جعل الله لهم؛ فإنّ الله سائلُهم عمّا استرعاهم».

إنّ الواضح في هذا الأثر محاولة التمييز بين السلطة عند يهود، والسلطة في المجال الاسلامي ولم يكن مجهولاً لدى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين أنّ ملوك

---

١. قارن بمحاولة لفهم ذلك مصطلحياً في كتابي: مفاهيم الجماعات في الاسلام، دار التنوير — بيروت، ١٩٨٤، ص ص ٩ — ٤٤.

٢. عرضت تصوراً مستنداً للنص التاريخي في قضية نشوء السلطة في الاسلام؛ في كتابي: الأمة والجماعة والسلطة، دار إقرأ ببيروت، ١٩٨٤، ص ص ٦٩ — ٨٧.

٣. مسند احمد ٢/٢٩٧، وصحيح البخاري ٤/٢٠٦، وصحيح مسلم ٣/١٠٧١ رقم ١٨٤٢، ومسند ابن ماجه ٢/٩٥٩ رقم ٢٨٧١. وهناك أثر آخر في جامع الترمذي ٤/١٧٤، ١٧٥ رقم ٢٨٧٧ يذكر على لسان شبان من يهود المدينة أنهم خاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم قائلين: (إن داود دعا ربه أن لا يزال من ذريته نبي. وإنا نخاف إنْ تبعناك يقتلُنا اليهود).

يهود لم يكونوا دائماً أنبياء، ففي القرآن خبرٌ عن يهود(٤) : إذ قالوا لنبيّ لهم ابعث لنا مَلِكاً نقاتلْ في سبيل الله. وفيه(٥) : «وقال لهم نبيُّهم إنّ الله بعث لكم طالوت مَلِكاً ..» . فالمقصودُ في الحديث النبويّ أنّ يهوداً كانت تتابع بينهم الأنبياء. وأنّ السلطة السياسية كانت تتأسّس عندهم على النبوّة، فإمّا أن يتولاّها النبي بنفسه كما في حالتي داود وسليمان، وإمّا يكِلَها إلى رجلٍ موثوقٍ كما في حالة صموئيل مع شاول (طالوت)(٦) . وهنا يكمن الفرق بين السلطة في الاسلام والسلطة في اليهودية. فالسلطة في اليهودية القديمة سلطة إلهيةٌ نبويّةٌ؛ يهوه هو الذي يعيّن النبي/ الملك أو الملك/ النبيّ ــ وهو الذي يخلعه. بينما يذكر الأثر أنّ النبوة في الاسلام تنتهي بمحمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، وتستمرُّ السلطةــ بشريةً بحتةً تعتمدُ على البيعة من الجماعة. ولأنَّ المُبايعَ فردٌ أو بَشَرٌ غير معصوم فيمكن أن يخطىء أو يضلّ أو يخرج على شروط البيعة. وهنا يطلب الأثر من المبايعين الوفاء بالبيعة رغم كلّ شيء حِفْظاً للاستقرار، ورعايةً لوحدة الأمة. وهكذا فإنّ الأمر قائمٌ منذ بدايته على **مصلحة** المُدْرَكَة من جانب الأمّة. والمصلحة ــ كما هو معلومــ أمر بشريٌّ اجتهاديٌّ بحتٌ.

إنّ هذا التأويل للنصّ السالف الاثبات لا يتّفق ومنطوقة فقط. بل يندرج في سياق الرؤية القرآنية للعالم ولدور الاسلام فيه. إنّ الاسلامَ جاء مُرْسياً ومثبّتاً للسُنَن الكونية والطبيعية والاجتماعية. فمعجزته الكبرى (القرآن) لا تعتمد خرق قوانين الطبيعة. وتصويره لتدخّلات الجنّ والشياطين قبل الاسلام في النظامين الطبيعي والاجتماعي وانتهاء ذلك بظهور الاسلام، يصبّ في السياق نفسه؛ سياق استقرار العاديّ والطبيعي والاجتماعي المستند للسنن المعقولة والمُدْرَكة. فبالقرآن والاسلام بدأ التاريخ الانسانيُّ البحتُ على هذه الأرض، والمسألةُ السياسيةُ صارت مسألةً إنسانيةً

٤. سورة البقرة، آية ٢٤٦.

٥. سورة البقر، آية ٢٤٧.

٦. قارن بالرؤية الاسلامية الاولى للمسألة في تفسير الطبري ٢/ ٣٧٨ــ ٣٨٠. وانظر الرؤية التاريخية، وهي مشابهةٌ لرؤية المفسرين الاسلاميين الأوائل في:

M. Noth Geschichte Israels; Vandenhoeck u. Ruprecht; Göttingen 1969; PP. 152 — 165

خالصةً كسائر الأمور المندرجة في الاجتماع البشريّ. هذه هي صورة النصّ الاسلاميّ (القرآني والنبوي) للعالم ودور الإنسان والاسلام فيه أياً كان الرأيُ في ذلك.

اللحظة العربية

أ. يقول الشافعي (ـــ ٢٠٤ هـ) في **الرسالة** (٧): «كلّ من كان حول مكّة من العرب لم يكن يعرفُ إمارةً. وكانت تأنفُ أن يعطي بعضُها بعضاً **طاعة الإمارة**».

ب. ويقول الخطّابي (ـــ ٣٨٨ هـ) إيضاحاً لتصرُّف سعد بن عُبادة في السقيفة(٨): إنَّ سعداً انما حضر ذلك المقام لأن ينصّب أميراً على قومه على **مذهب العرب في الجاهلية** أن لا يسود القبيلة إلاّ رجلٌ منها. وكان حُكْمُ الإسلام خلافَ ذلك..».

ومن هنا نفهم معنى قول الشافعيّ إنّ العرب (أي الأعراب) لم يكونوا يعرفون الإمارة. إنهم لم يكونوا يرضون أن يسودهم رجلٌ أو ملأٌ من غير قبيلتهم. وطبيعيٌّ أن لا يصح هذا في الاسلام الذي يتجاوز القبيلة، ويجمع الشعوب والقبائل في أمة متعارفة يتأسّسُ عليها نظامٌ سياسي(٩). ويبقى هنا أمرٌ لا بُدَّ من إيضاحه. فالشافعيّ يحدّث عمّن حول مكّة من الأعراب، بينما يتحدّث الخطّابي عن الخزرج والأوس (الأنصار) بالمدينة، وهم لم يكونوا أعراباً ولا رحّلاً. ويعني هذا أنّ البنية الاجتماعية ليثرب قبل الاسلام مشابهة لتلك التي كانت سائدة بمكة من حيث الاستقرار، بيد أنّ سكّان يثرب كانوا في غالبيتهم من الفلاحين في حين كان سكّان مكّة في الغالب تجاراً وصُنّاعاً، فماذا كانت أفكار هؤلاء المستقرّين حول الامارة حسب تعبير الشافعيّ؟. ينقل المصعب بن عبد الله الزُبيريّ (ـــ ٢٣٦ هـ) عن شيوخه من القرشيين المكيين خبر أحد أبناء مكّة في الجاهلية واسمه عُثمان بن الحُويرث بن أسد بن عبد العُزّى؛ فيقول (١٠): «ذكروا

٧. ـــ الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، ط. الحلبي بمصر ١٩٤٠، ص ٨٠.

٨. غريب الحديث للخطابي، تحقيق عبد الكريم ابراهيم العزباوي، ط. دار الفكر بدمشق ١٩٨٢م، ١٢٨/٢.

٩. قارن بكتابي السالف الذكر: الأمة والجماعة والسلطة، ص ص ٢٦ ـــ ٣١.

١٠. نسب قريش للمصعب الزبيري، تحقيق ليفي بروفنسال، ط. دار المعارف بمصر، ص ص ٢٠٩ ـــ ٢١٠. وقارن بالخبر عن الزبير بن بكار، ابن أخ مصعب، في الروض الانف للسهيلي ٣٥٩/٢، وعثمان بن الحويرث يذكر في تاريخ قريش بمكة في سياق آخر، هو التمرد على الوثنية والبحث عن دين آخر، وقد كان بين قلة اعتنقت النصرانية. وربما فسر هذا علاقته بالشام والبيزنطيين؛ قارن بسيرة ابن هشام ٢٢٢/١، والروض الأنف ٣٤٧/٢، ٣٥٨، وانظر كتابي السالف الذكر: مفاهيم الجماعات في الاسلام، ص ص ٩ ـــ ١٣.

أن عثمان خرج الى قيصر فسأله أن يملكه على قريش، وقال ـ أحملُهُم على دينك(١١) فيدخلون في طاعتك. ففعل، وكتب له عهداً وختمه بالذهب. فهابت قريش قيصر وهمّوا أن يدينوا له. ثمّ قام الأسود بن المطّلب أبو زمعة: فصاح ـ والناسُ في الطواف: إنّ قريشاً **لَقَاح لا تَمْلَكُ ولا تُمْلَكُ..** فاتّسعت (كذا) قريش على كلامه ومنعوه ممّا جاء له، فمات عند ابن جفنة..)).

ويبدو قوله: لا تَملك ولا تُملك تفسيراً لقوله: لقاح.. أما **السهيليُّ** فَيَروي العبارة عن **الزبير بن بكّار** على النحو التالي: (١٢) ألا إنّ مكّة حَيٌّ لَقَاحٌ لا تَدين لَمِلكٍ. ويشرح ابن فارس ذلك بقوله(١٣): «قومٌ لَقَاحٌ ـ بفتح اللام ـ إذا لم يَدينوا الملك، ولم يملِكْهم سلطان». ويمضي صاحب **لسان العرب** قُدُماً فيذكر أنّ القوم اللّقاح هم الذين(١٤): «لم يدينوا للملوك، ولم يُمْلَكوا، ولم يُصِبهُمْ في الجاهلية سباءٌ».

انّ هذا كلّه يعني ثلاثة أمور؛ **أولها**: أنّ القبيلة العربية لم تكن بغير سلطة بيد أنها كانت قاصرة عليها ذات صبغة تعاقدية اصطلاحية شورويةٍ(١٥). **وثانيها**: أنّ المِلْك في عرف العرب الجاهليين هو ذلك السلطان الذي يجمع في طاعته عدة قبائل هو من غيرها. **وثالثها**: أنّ السلطة في الاسلام غير السلطة في القبيلة العربية، لكنها أيضاً غير

---

١١. والطاعة من معاني الدين؛ ففي القرآن الكريم (سورة يوسف/ ٧٦): (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أنْ يشاء الله.

١٢. الروض الأنف السهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، ط. عيسى الحلبي بمصر ١٩٦٧م، ٢/٣٥٩.

١٣. معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، ط. عيسى الحلبي بمصر ١٣٦٩هـ، ٢/٢٦٢.

١٤. لسان العرب لابن منظور، نشره مصورة عن طبعة بولاق بلا تاريخ، مادة (لقح). وفي غريب الحديث للخطابي ٣/٥٥: «اللقاح: البلد الذي لا يؤدي الى الملوك خَرْجاً ـ يقال: قومٌ لَقَاح إذا لم يُمْلَكوا».

١٥. يوضح المقصود من السلطة في القبيلة مفهوم السيادة الذي تعبر عنه أبيات للشاعر الجاهلي الأفوه الأودي (ديوانه، في الطرائف الادبية، صنع عبد العزيز الميمني، نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧م، ص ١٠):

والبيت لا يبتنى الا له عمد ... ولا عماد اذا لم ترس أوتاد
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة اذا جهالهم سادوا
تلفى الامور بأهل الرشد ما صلحت ... فان تولوا فبالاشرار تنقاد
اذا تولى سراة القوم أمرهم ... نما على ذاك أمر القوم فازدادوا

وانظر كلاما في السيادة والسؤدد في مقدمتي على الجوهر النفيس في سياسة الرئيس لابن الحداد، نشر دار الطليعة ببيروت ١٩٨٣، ص ص ٣١ ـ ٣٣.

السلطة المَلكية التي كان يأباها الأعرابُ اللقاحُ (١٦).

الخلافة :

سمّى المسلمون أبا بكر رئيسهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم «خليفة رسول الله» (١٧)، ولم يسمّوه أميراً أو ملكاً أو سيّداً. والمفرد قرآنيّ. لذلك سنعود اليه بدءاً في القرآن :

أ) في سورة يونس / ١٤ : ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون (١٨).

ب) وفي سورة الأعراف / ٦٩ : واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح (١٩).

جـ) وفي سورة البقرة / ٣٠ واذ قال ربّك للملائكة اني جاعلٌ في الأرض خليفة.

د) وفي سورة ص / ٢٦ :« ياداود إنّا جعلْناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق . .».

إن استعراضاً سريعاً لسياقات ورود المفردة المذكورة في القرآن يوضّح أمرين اثنين، أنّ الخليفة يقوم مقامَ سابقٍ جماعةً أو فرداً. وأنّ الخلائف أو الخلفاء أو الخليفة يكونون سائدينَ ومسيطرين في المجال الذي استُخلفوا فيه. فاذا عُدْنا لتخصيص الأمر تفهُّماً لمضمون لقب الصِدّيق؛ وجدنا أن اللّقب في الحقيقة لا يساعِدُنا كثيراً.

أ) ففي تفسير الطبري (٢٠) : الخليفة الفعيلة. من قولك : خلف فُلان فُلاناً في هذا الأمر إذا قام مقامَهُ فيه بعده.. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة، لأنه

---

١٦ . في سيرة ابن هشام ٤٠٤/٢ أن أبا سفيان قال للعباس بن عبد المطلب ابان فتح مكة عندما رأى كثافة جند المسلمين : «والله يا ابا الفضل لقد اصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيماً» فأجابه العباس : «يا أبا سفيان! إنها النبوة». ويعني هذا أن القرشيين الذي كانوا يعرفون السلطة القبلية فقط، كانوا يعتبرون كل ما يتجاوزها ملكاً. وقد نبه العباس أبا سفيان إلى أن السلطة الاسلامية ليست ملكاً بل هي شكل جديد من أشكال السلطة غير القبلية وغير الملك.

١٧ . تاريخ الطبري ١/ ١٨٤٩، ١٨٥٠، والاحكام السلطانية لأبي يعلى الحنبلي ص ٢٧.

١٨ . يتكرر المفرد «خلائف» في سورة الانعام، ١٦٥، وسورة فاطر، ٤٩، وسورة يونس، ٧٣.

١٩ . يتكرر المفرد «خلفاء» في سورة الأعراف، آية ٧٤، والنمل، آية ٦٢.

٢٠ . تفسير الطبري، طبع الحلبي بمصر بدون تاريخ، ١٥٦/١، وقارن بتخريج الدلالات السمعية للخزاعي ص ص ٤٨ ــ ٤٩.

خَلَفَ الذي كان قبله فقام بالأمر مَقَامَه فكان منه خَلَفاً ».

ب) وفي **غريب الحديث** للخطّابي[٢١] : «قال ابنُ الأعرابي، رُوي أنّ أعرابياً جاء الى أبي بكر فقال : أنت خليفة رسول الله قال : لا. قال : فما أنت ؟ قال : أنا الخالفةُ بعده، أي القاعد بعده. قال : الخالفة الذي يستخلفه الرئيس على قومه وأهله..».

إنّ اللقب لا يعني إذن غير تقريرٍ لأمرٍ تأريخي فأبو بكر جاء بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للسلطة. أمّا اللقب نفسه فجرى الاستئناس فيه ولا شك بالقرآن. لكنّ الأمر يبقى رغم ذلك مشكلاً؛ فلقب رئيس المسلمين الأول بعد رسول الله صار عَلَماً على منصب رئاسة الدولة في الاسلام الى جانب ألقاب أخرى واضحة المضمون أو المعنى من مثل الإمام أو أمير المؤمنين. إنّ الاصرار على التمايز في اللقب يشي بتمايز في المضمون علينا هنا أن نبحث عنه في غير الجذر اللّغويّ الذي انبثق منه. و يبدو أنّ هذا الأمر أثار اهتمام المسلمين منذ وقت مبكّر، ففي **طبقات ابن سعد**[٢٢] أنّ عمر بن الخّطاب خاطب أحد أقربائه قائلاً : أرِدْتَ أن ألقى الله مَلِكاً خائناً ؟. وفي ابن سعد روايتان[٢٣] إحداهما عن سلمان الفارسي والأخرى عن ابن أبي العوجاء يتساءل فيهما عمر عن الَفرْق بين الخلافة والمُلْك، وهل هو خليفةٌ أو مَلِكٌ؛ فيجيبهُ سلمان أو غيره : «بل أنت خليفة. فالخليفةُ لا يأخذ إلاّ حقاً ولا يضعه إلاّ في حقّ فأنت بحمد الله كذلك. والمَلِكُ يَعسِفُ الناسَ فيأخذ من هذا، و يُعْطي هذا..».

إنّ هذه الأقوال تُحَدّدُ مضمون **الخلافة** بأنه الأخْذُ والوَضْعُ في حق. بيد أنّ هذا لا يشكّل تمايزاً بين نظام الخلافة ونظام المُلْك أو السيادة. فالسيّد الجاهليّ أكثر من

---

٢١. غريب الحديث للخطابي ٢/٢٣. و يذكر القلقشندي القصة محورة في مآثر الانافة ١/١٤ موحيا بأن أبا بكر سمى نفسه «خالفة» ـ وهي تتضمن معنى سلبياً ـ تواضعا منه : مقارنة برسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي طبقات ابن سعد ٣/١/١٣٠ عن ابن ابي مليكة أن رجلا قال لأ بي بكر: يا خليفة الله! فقال : لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله . أنا راضٍ بذلك.

٢٢. طبقات ابن سعد ٣/١/٢١٩.

٢٣. طبقات ابن سعد ٣/١/٢٢١.

عادل إنه متفضّل(٢٤). وليس كلّ ملك ظالماً، بدليل أنّ القرآن الكريم الذي يذكر بعض الملوك بشكل سلبيّ يُثني على المَلَكية العادلة في مناسبات أخرى؛ ففيه(٢٥): «لقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم مُلكاً عظيما». وفيه(٢٦): «اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعَلكم ملوكا». وهكذا فانّ العدالة ليست خصيصةً من خصائص نظام الخلافة. فلا بد اذن من بحثٍ مزيدٍ عن مميّزات نظام أو منظومة الخلافة على المنظومات الأخرى.

الشورى:

أ) في سورة الشورى(٢٧): والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصلاة وأمرهُم شورى بينهم وممّا رزقْناهم ينفقون. والذين إذا أصابهم البَغْي هم ينتصرون.

ب) وجاء في سورة آل عمران(٢٨): فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم. ولو كنْت فَظّاً غليظَ القلب لانفضُّوا من حولك. فاعْفُ عنهم واستغفر لهم وشاورْهُم في الأمر. فاذا عزمْتَ فتوكّلْ على الله. إنّ الله يُحِبُّ المتوكّلين.

إنّ مفرد الشورى قرآني كما يتضح من هاتين الآيتين في هاتين السورتين المبكّرتين نسبياً. أما الأولى فتُحدّدُ للأمة المؤمنة ست خصائص من بينها أنّ «أمرهم شورى بينهم». وبمفهوم المخالفة نستنتج أنه إن انتفت خصيصةٌ من هذه الخصائص نقص وصف الأمة بمقدارها. وأما الثانية فقد نزلت بعد هزيمة أحد. ومن المعروف أنّ شورى النبيّ صلّى عليه وسلّم لأصحابه هي التي أدّت الى الخروج للقاء المشركين في العراء. وكان رأي رسول الله التحصّن بالمدينة وعدم الخروج. رغم ذلك أو بسبب ذلك؛ فإنّ القرآن الكريم يطلب الى النبيّ رئيس الأمة أن يعود لا ستشارتها في الامر، لكي

٢٤. قارن بمعنى ذلك في مقدمتي على الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص ص ٣٢ــ ٣٤، ٤٩ ــ ٥٥.

٢٥. سورة النساء آية ٥٤.

٢٦. سورة المائدة، آية ٢٠.

٢٧. سورة الشورى، آية ٣٦ــ ٣٩.

٢٨. سورة آل عمران، آية ١٥٩ ــ ١٦٠.

تنتفي الشبهة تماماً في المسألة. لكن: ما هو الأمر الذي يتكرر في الآيتين؟ .. يقول الراغب الأصفهاني إنّ الأمر(٢٩) هو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلّها. و يقول الفيروزأبادي(٣٠): هو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال والأحوال كلّها ومن ضمنها مسائل الحرب التي أدتّ آراؤهم واختلافاتهم إلى الهزيمة فيها. بذلك و بذلك فقط تكتمل خصائص الأمة باكتمال وصفها التقريري في القرآن.

جـ) يقول عمر بن الخّطاب(٣١): «لا بيعة إلاّ عن مشورة. فمن بايع عن غير مشورة فانه لا يُتَابَعُ هو والذي بايعه تَغِرّة أم يُقْتَلا ..».

د) و يقول عمر بن الخّطاب برواية المعرور بن سو يد عنه(٣٢): «من دعا إلى إمارة نفسه أو غيره من غير مشورةٍ من المسلمين فلا يَحِلُّ لكم إلاّ أن تَقْتُلوه».

هـ) و يقول عمر برواية ابن عَبّاس عنه(٣٣): «الامارةُ شُورى».

إنّ أقوال عمر هذه التي ردّدتها أوثق المصادر لا تزيد عن أن تكون إصْراراً على تطبيق مبدأ الشورى في المسألة السياسية. لكنّها قبل ذلك وبعده توضّح أمراً أساسياً لا يخفى عند تأمّل الآيتين القرآنيتين السالفتي الذكر. إنّ الامة تصبح المرجع والمصدر في غياب الرسول صلّى الله عليه وسلّم. ومن هنا ضرورة الشورى والتشاور. ومن هنا إصرار عمر على قتل الذين يحاولون أن يغصبوا الأمة أمرها. أي أن يتولّوا السلطة أو ينتزعوها في

---

٢٩. مفردات غريب القرآن للراغب الاصفهاني، ص٢٤.

٣٠. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزأبادي ٣٩/٢.

٣١. قطعة من أثر طويل عن عمر في المصنف لعبد الرزاق ٤٣٩/٥ ــ ٤٤٥، وسيرة ابن هشام ٣٧٢/٢، ٣٧٣، وأنساب الاشراف ٥٨٣/١ ــ ٥٨٤، ومسند أحمد ٥٥/١ ــ ٥٧، وتاريخ الطبري ١٨٢٠/١، ١٨٢٤، وتاريخ المدينة لعمر بن شبه النميري ٩٤٤/٣، ٩٣٤، وصحيح البخاري (فتح الباري) ١٤٤/١٢، ١٤٨، وغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ٣٥٥/٣، وغريب الحديث للخطابي ١٢٣/٢. ولفظ القطعة في البخاري: «.. فلا يُتابَعُ هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا». ولفظها في الخطابي: «.. فلا يؤمر واحد منهما تغرة أن يقتلا».

٣٢ الأثر في المصنف لعبد الرزاق ٤٤٥/٥، وغريب الحديث للخطابي ١٢٤/٢، وتاريخ المدينة لعمر بن شبه ٨٣٦/٣، وفتح الباري ١٢٤/١٢. ولفظة في تاريخ المدينة: «فلا يحل لكم إلا أن تقاتلوه».

٣٣. المصنف لعبد الرزاق ٤٤٦/٥. وقارن بطبقات ابن سعد ٣٥٣/٣.

غياب شورى الامة أو تكليفها أو تعاقدها. إن الامة هي مصدرُ السلطة بمقتضى القرآن. واذا كان التمايز الأول للخلافة بين أنظمة أو منظومات الحكم هو كونها رئاسة في الامة وليس في القبيلة؛ فإن التمايز الثاني الذي حاول عمر هنا أن يؤكد عليه هو أنّ الأمة في نظام الخلافة الاسلامية هي مصدر السلطة بخلاف المنظومتين القبلية والملكية.

ولم يكتف عمر بالتأكيد المبدئي هذا بل حاول بعد طعنه وقبل موته أن يضع طريقةً عامةً لتطبيق الشورى في الخلافة في الرواية المشهورة عنه عند ترشيح أهل الشوري. ذكر عبد الله بن عمر في حديث الشورى أنّ عمر حين طُعن (٣٤) دعا علياً وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، والزبير — وأحسبه قال: — وسعد بن أبي وقاص، فقال: اني نظرت في أمر الناس فلم أرعندهم شِقاقاً. فإن يكُ شِقاقٌ فهو فيكم. ثم إنّ قومكم إمّا يؤمرون أحدكم أيها الثلاثة (علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف)... فإن كنتَ في شيء من أمر الناس يا عليّ فاتّق الله، ولا تحمل بني هاشم على رقاب الناس.. وان كنت يا عثمانُ على شيء فاتّق الله ولا تحمل بني أبي مُعيط على رقاب الناس.. ليصلّ بالناس صهيب. ثم تشاوروا. ثم أجْمِعُوا أمركم في الثلاث وآجمعوا أمراء الأجناد. فمن تأمّر منكم من غير مشورةٍ من المسلمين فاقتلوه. قال الزهريّ: «فلمّا مات عمر اجتمعوا فقال لهم عبد الرحمن: إن شئتم اخترتُ لكم منكم.. فولّوه ذلك. فقال المسور: فما رأيتُ مثل عبد الرحمن، والله ما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار ولا غيرهم من ذوى الرأي الاّ آستشارهم تلك الليلة..»

طريقةُ عمر المقترحة إذن لتحقيق الشورى تتلخّصُ في إعطاء الخليفة حَقّ الترشيح لأكثر من واحد من كبار الأمة، على أن تُجْمِع الامة خلال ثلاثة أيام على أحدهم فتبايعهُ لكي لا يَحْدُثَ فراغٌ في السلطة. وكان عمر أمير المؤمنين قد رأى في طريقة اختيار أبي بكر «فلتةً — وفي الله شرّها» (٣٥)، لأنها لم تتمّ في سياق تنظيميٍّ واضح إذ كانت هناك إمكانيةٌ أن يأتي أحدٌ غير أبي بكر في ظروف لا يَصْلُحُ لها غيره،

٣٤. المصنف ٥/ ٤٨٠ — ٤٨٢، وطبقات ابن سعد ٣/٥٥٤ — ٥٤٥.

٣٥. قطعة من الأثر الذي ذكرنا مصادره في الرقم ٣١. وانظر قراءة مفصلة لي لهذه الآثار والوقائع في كتابي: الأمة والجماعة والسلطة، ص ص ٧٨ — ٨٣.

لكنَّ طريقة عمر نفسها ــ وهي اجتهاد آخرُ ليس أكثر ــ لم تلق اتّباعاً مستمراً إذ جرى اختيار عليّ بطريقة مختلفة. ثم ساد في الاختيار نظامٌ لولاية العهد تجاوز العقد واقتصر على البيْعة.

والحق أنّ طريقة عمر في الشورى زالت مع اختيار أمير المؤمنين عثمان، لا لأنها لم تكن صالحة فيما يبدو، بل للغموض في مفهوم **أهل الشورى**. فالملحوظ أنّ عبد الرحمن بن عوف استشار بعد موت عمر **المهاجرين والأنصار** وغيرهم من ذوي الرأي(٣٦). وجميع هؤلاء كانوا من سكّان المدينة. فهل فهم كبار الصحابة من «أهل الشورى» مهاجري المدينة وأنصارها والذين نزلوا بالمدينة بعد فتح مكّة من وفود العرب، ممن لا يُعتبرون من المهاجرين لأنه «لا هِجْرَة بعد الفتح»(٣٧)؟.. إذا كان الأمر كذلك فلماذا قالت عائشة أمّ المؤمنين «إنَّ عليّاً أخذ الأمر بغير شُورى»(٣٨)؟.. رغم أنّ سكّان المدينة بايعوه جميعاً ومعهم الذين قدموا المدينةَ ثوّاراً على عثمان من أهل البصرة ومصر. ثم إذا كان صحيحاً أنّ كبار الصحابة لم يعتبروا «الاعراب» من أهل الشورى ولهم في ذلك مسوّغات(٣٩)، فلماذا لم يعتبروا سكّان الأمصار من أهل الشورى، وهي الأمصار التي مصّرها(٤٠) عمر ونزلها رجالٌ من أهل السابقة وبعض المهاجرين والأنصار؟. وهناك كلامٌ منسوبٌ لأمير المؤمنين عليّ يقول فيه(٤١) «.. ولعمري لئن كانت الامامة لا تنعقد حتى تحضرها عامّة الناس ما الى ذلك سبيل. ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها. ثم ليس للشاهد أن يرجع، ولا للغائب أن يختار..». والامام عليّ لم يذكر هنا من هم **أهلها**. لكنه حدّد طريقاً للاختيار يجعله خاصًّا بأبناء المصر الذي يتوفّى فيه الإمام، وعلى الآخرين خارج المصر/ العاصمة أن يبايعوا ذلك الذي عقد له أهل المصر الجامع. وهذا يشبه أن يكون ما كان يجري في حقبة الخلافة الراشدة، فقد كانت هناك

٣٦. في المصنف لعبد الرزاق ٤٨٢/٥، وطبقات ابن سعد ٥٤٥/٣.

٣٧. قارن بكتابي الأمة والجماعة والسلطة، ص ص ٥٩ ــ ٦٤.

٣٨. تاريخ الطبري، والاوائل لأبي هلال العسكري ٣٠٨/١.

٣٩. قارن عن ذلك كتابي: الأمة والجماعة والسلطة، ص ص ٥٩ ــ ٦٤.

٤٠. قارن عن ذلك طبقات ابن سعد ٢٠٢/١/٣، ٢٠٤.

٤١. شرح نهج البلاغة ٣٢٨/٩.

«بيعة انعقاد» ثم تأتي البيعة العامة(٤٢). وتأتي أقوال أخرى للإمام عليّ تنكر على الطلقاء أن يكونوا من أهل الشورى(٤٣). والطلقاء هم الذين أسلموا بعد فتح مكّة ممن ينطبق عليهم قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الفتح: اذهبوا فأنتم الطلقاء(٤٤).. بيد أنّ أهل الشورى المقصودين هنا هم مثل أولئك الستة الذين اعتبرهم عمر الأحق بالترشيح للخلافة. أي أنّ علياً يرى حرمان الطلقاء من حقّ الترشيح للخلافة، وليس من حقّ المشاركة في الاختيار. ويبدو أنّ هذا هو معنى قول ابن حبيب(٤٥) إنّ مآثر قريش في الاسلام ثلاثة: «النبوة والخلافة والشورى» فقد كان منهم النبيّ، ومنهم الخلفاء، وفيهم وحدهم الشورى، أي أنّه كان على المسلمين أن يختاروا خليفتهم من قريش، فانحصر حقّ الترشيح للخلافة فيها.

إنّ هذا كلّه يشعر بتحوّل فكرة الشورى ومبدئها تدريجياً الى أمر جدليّ يتحدّث عنه الجميع دون أن يتمكّن أحد من التقاطه خصوصاً بعد مقتل الامام عليّ ووصول الأمويين إلى السلطة. فهناك شاعر موالٍ لبني أمية هو عبد الله بن همّام السّلولي يقول عندما طلب معاوية الى الناس أن يبايعوا لابنه يزيد من بعده(٤٦)

ولا لمن سالك الشورى مشاورة ... الاّ بطعن وضرب صائب حَذِمِ
أنّى تكون لهم شورى وقد قتلوا ... عثمان ضحّوا به في أشهر الحُرُمِ

وقد أتى هذا في سياق رفض كبار أبناء الصحابة البيعة ليزيد بعد أبيه، ومطالبتهم لمعاوية بأن يعيد الأمر شورى، أي أن لا يبايع لأحدٍ من بعد وهو حيّ. والشاعر الأمويُّ يقول للأمويين إنّ عليهم أن لا يجيبوا المطالبين بالشورى الاّ بالسيف.

---

٤٢. قارن بتخريج الدلالات السمعية للخزاعي، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الغرب الاسلامي ١٩٨٥، ص ص ٣٧ — ٤٣.

٤٣. شرح نهج البلاغة ١٢/١٤٦ — ١٤٧.

٤٤. سيرة ابن هشام ٢/٤١٢.

٤٥. طبقات فحول الشعراء لابن سلام، تحقيق محمود شاكر، ٢/٦٣٠ — ٦٣١. وانظر نسب قريش للمصعب الزبيري، ص ١٢٤.

٤٦. طبقات فحول الشعراء لابن سلام، تحقيق محمود شاكر، ٢/٦٣٠ — ٦٣١. وانظر نسب قريش للمصعب الزبيري ص ١٢٤.

ذلك أنهم (يعني المهاجرين والأنصار بالمدينة) فقدوا حقّهم في **الشورى** (المشاركة في الاختيار والترشيح للخلافة) عندما تركوا عثمان يُقتل بين ظهرانيهم أو شاركوا في قتله. وتذكر بعض المصادر أنّ أحد الخمسة الذين رفضوا البيعة ليزيد في حياة والده؛ وهو عبد الرحمن بن أبي بكر، قال لمعاوية: (٤٧) «تُريدون أن تجعلوها هرقليةً كلما مات هرقلٌ قام هرقل». بل إنّ رجلاً كالحسن البصري (ـ ١١٠ هـ) كان يرى أنّ معاوية وصل للسلطة بدون شورى الأمّة صاحبة السلطة؛ فقد جاء في قولٍ له عن نقائص معاوية: (٤٨) «.. انتزاؤه على هذه الامة بالسفهاء حتى ابتزّها أمرها بغير **مشورة** منهم، وفيهم بقايا الصحابة، وذوو الفضيلة. **واستخلافه** ابنه». إنه لا وراثة للسلطة في الاسلام. وهذا أمر تقتضيه طبيعة السلطة فيه التي هي حق الأمة وليست حقّ فرد معيّن فيها.

ووضع تطبيق الشورى على المحك للمرة الأخيرة في القرن الهجري الأول في ثورة عبد الله بن الزبير، إذ يذكر الطبريُّ أنّ موسم الحج عام ٦٣ هـ حضر(٤٩) «فحج ابن الزبير بالناس.. وكان يسمّى العائذ ويرون الامر شورى». ويعني هذا أن الناس بمكة لم يكونوا يعترفون بيزيد بن معاوية خليفةً للمسلمين، ويرون أن يتشاور المسلمون في اختيار رئيس للأمة. وقد بدا ذلك جذّاباً لكثير من الورعين والزهاد والمتضررين من السيطرة الاموية فسارعوا عرباً وموالي من العراق والشام ومصر الى مكة لنصرة (العائذون) والمشاركة في الشورى، أي في اختيار امام شرعيّ للمسلمين. ويعني هذا من ضمن ما يعنيه أنّ المسلمين جميعا كانوا يرون لأنفسهم الحق في المشاركة في اختيار الامام، وان سلّموا لقريشٍ بحق الترشيح للخلافة. لكن ما أن توفي يزيد حتّى دعا ابن الزبير لنفسه مستشيراً قريشاً فقط، وطالباً البيعة. فما شعر القادمون من الأنصار إلاّ وقد صعد المنبر وتسمّى بأمير المؤمنين: (٥٠) «وانما كان يدعو قبل ذلك الى **أن تكون شورى بين الامة**. فلما كان ثلاثة أشهر بعد وفاة يزيد دعا الى بيعة نفسه، فبويع له بالخلافة لتسع خلون من رجب سنة أربع وستين»، فغضب المخدوعون وفارقوه.

٤٧ . تاريخ الطبري ١٧٤/٢ وما بعدها.

٤٨ . تاريخ الطبري ١٤٦/٢، والأخبار الموفقيات ص ٥٧٤، وشرح نهج البلاغة ٤٥٦/١.

٤٩ . تاريخ الطبري ٤٢٢/٢.

٥٠ . خليفة بن خياط ٢٥٢/١ ـــ ٢٥٣. وقارن بطبقات ابن سعد ١١٩/٥، وأنساب الاشراف ١٨٨/٥.

V

وحدة السلطة ووظيفتها :

أ) أخبرنا يزيد بن هارون(٥١)، أنا بقية، حدثني صفوان بن رستم عن عبد الرحمن بن ميسرة عن تميم الداري، قال، تطاول الناس في البناء في زمن عمر، فقال عمر: «يا معشر العُريب. الأرض الأرض.. إنه **لا اسلام الا بجماعة. ولا جماعة الا بامارة.** ولا إمارة إلاّ بطاعة. فمن سوّده قوْمهُ على الفقه كان حياة له ولهم. ومن سوّده قومه على غير فقْهٍ كان هلاكاً له ولهم».

يربط عمر هنا الاسلام بالجماعة، أي بالامة، أمة الاسلام. ولقد كان واضحاً منذ البداية في نهج كالنهج الاسلامي يقوم على الدعوة المستمرة، والاستيعاب المستمر، والامتداد المستمر، أنّ فئة كهنوتية أو تنظيما أعلى ذا طابع لاهوتي لا تستطيع أو يستطيع ان يستغرق الدعوة، كما لا يمكن للدعوة ان تتقبّله وهكذا توّحد الاسلام بالمسلمين، وتوحّد المسلمون بالاسلام، فكانت فلسفة الدين الجديد التي تجعل الناس من خلال جماعتهم واجتماعهم يشاركون فيه، وارثين للنبوة وللدعوة. من أجل هذا كان مفهوماً ربطُ عمر للاسلام بتحقّق جماعته. لكن الجديد في عبارة عمر ربطه للجماعة بالامارة، أي بالتنظيم السياسي.

صحيح أنّ كلّ مجموعة بشرية تتحول تلقائياً الى جماعة سياسية لكن غير صحيح في المجال الاسلامي هذا الارتباط الوثيق بين الاسلام والكيان السياسي المعين او النظام السياسي المحدد. إن الدولة ذات الحدود والقيود والسدود والطابع المحلي، والأجهزة المنظِّمة والمنظَّمة لا يمكن لها أن تتساوق والاسلام، إسلام الدعوة الذي لا يرى لنفسه حدوداً غير حدود العالم البشري المنظور. في هذا السياق فإن عبارة عمر لا تعني ان الاسلام يقتضي نظاما سلطويا معيّناً، بل تعني ان هذه الجماعة الاسلامية الجديدة عليها أن تنتظم في سياق سياسي مرن يحقق الحاجات الانسانية الاساسية لأعضائه فيمكّنهم من حمل دعوته ورسالته عن طريق الجماعة الاولى الى العالم.

---

٥١ . سنن الدرامي ص ٧٩.

ب) روى(٥٢) حذيفة بن اليمان (٣٤ هـ) عن النبي صلّى الله عليه وسلّم حديثاً في السلوك في الفتنة، سأله فيه كيف يتصرّف إذا اضطربت الأمور، فقال النبيّ حسب الرواية : «تلزم جماعة المسلمين وامامهم فقلت : فان لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفِرَق كُلَّها ولو أن تَعَضَّ على أصل شجرةٍ حتى يُدْرِكَكَ الموتُ وأنت على ذلك» .

جـ) وفي الحديث(٥٣) عن عرفجة بن شُريح أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه» .

د) وفي رسالة الشافعي(٥٤) : «اجمع المسلمون.. ان يكون الخليفة واحدا، والقاضي واحدا، والامير واحدا، والامام..» .

اذا كانت عبارةُ عمر ترى المصلحة في نظام سياسي يحوط الجماعة (هو الخلافة)، فان الأثرين (ب، جـ) عن النبي (صلعم) يقرران أنّ الجماعة الواحدة في النظام السياسي الواحد، لا تحتمل أكثر من إمامٍ واحد. وأحاديثُ الآحاد هذه عن رسول الله (صلعم) تتحوّل تدريجياً إلى إجماعٍ في رسالة الشافعي (ـــ ٢٠٤ هـ) المبكّرة نسبيا. ولن نبحث هنا المسألة عند المتكلّمين والفقهاء المتأخرين لخروج ذلك على الحدود التي وضعناها هنا للبحث. ما يمكن قوله هنا ان قضية وحدة الجماعة هي التي أدت ومنذ حقبة الراشدين إلى مسألة وحدة الإمام أو الخليفة، رغم أنها لا تقتضيها بالضرورة. فوحدة السلطة امر غير وحدة السلطان. وقد ظلّت السلطة واحدة في الاسلام لوحدة مرجعيّتها (الشريعة) حتى وقت قريب نسبياً رغم كثرة السلاطين والمتسلطين. لكن رغم ذلك، فإن الآثار عن رسول الله وصحابته الاوائل أصرّت على وحدة السلطان رغم تحقّق وحدة السلطة. يبدو ذلك في مثل قول بعض الصحابة يوم السقيفة ـــ عندما قالت الانصار: منّا أمير ومنكم

٥٢. صحيح مسلم ٣/١٤٧٦.

٥٣. صحيح مسلم ٣/١٤٨٠.

٥٤. الرسالة للشافعي ص ٤١٩.

أمير(٥٥) ــ لا يصلح سيفان في غمد أو لا يجتمع اثنان في قرن.. أمّا مسألةُ الطاعة التي تؤكّد عليها آثارٌ كثيرةٌ، في العسر واليسر والمنشط والمكره، فتتصل بأمرٍ آخر هو مسألة الضبط والربط في محاولة لأحداثِ وَعْيٍ بضرورة التنظيم ضمن جماعات وفئات خارجة من ظلّ نظام قبلي لم يكن هذا الوعْيُ فيه موجوداً أو متبلوراً(٥٦).

هـ) ويظلّ الامر واضحاً رغم هذا التأكيد على ضرورة السلطة ووحدانية السلطان. فهناك نظام الخلافة الذي كان يتبلور من ضمن التجربة التاريخية للجماعة. وهناك الدعوة المستمرة والتي تحول دون تمركز السلطة وأن تُصبح دولة في يد فئة محدودة من الناس. وهناك أخيراً الطابع الوظيفي للخلافة الذي يسلبها كلّ قدسية في الوقت الذي يعطيها فيه مشروعيةً وتحدداً. يقول الامام عليٌّ في الرّد على الخوارج الذين قالوا: لا حكم إلا لله(٥٧): «كلمة حق أريد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلاّ لله، ولكنَّ هؤلاء يقولون: لا إمرة! وإنه لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع بها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل ويُجمع به الفيء، ويُقاتَلُ به العدو، وتأمن به السُبل، ويؤخَذُ فيه للقوي من الضعيف ــ حتى يستريح برٌّ، ويُستراح به من فاجرٍ».

والواضح أن الخوارج لم يكونوا يدعون هنا الى الغاء السلطة بحد ذاتها بل انهم رأوا في تطورات نظام الخلافة ما لا يتفق ومصالحهم، وما فهموه من علاقة السلطة بالدعوة في الاسلام. أما الامام علي فقد فهم من ولهم عودةً إلى المنظومة القبلية في السلطة التي لا تحقق الوظائف الموكولة للإمامة في الاسلام أياً كانت الانتقادات الموجّهة الى تصرّفات بَعض الخلفاء. إن الخلافة (أو الامارة أو الامرة) في الاسلام نظامٌ اجتهادي في السياسة قام لتحقيق أغراض محددة. والحكم عليه صلاحية أو بقاء مرهونٌ بمدى تحقيقه لوظائفه تلك.

---

٥٥ . المصنف لعبد الرزاق ٤٤٤/٥، وفتح الباري شرح البخاري ١٥٢/١٢.

٥٦ . قارن بقول الشافعي السالف الذكر، الرسالة ص ٨٠: «وكانت تأنف أن يعطي بعضها بعضاً طاعة الامارة».

٥٧ . شرح نهج البلاغة ٣٠٧/٢. وقارن العبارة معدلة في المصنف لعبد الرزاق ١٥٠/١، والكامل للمبرد ٢٠٦/٣.

د) وعندما بدأت الحركة ضد عثمان، وتصاعدت أصواتٌ تدعو لقلب النظام إن كان شكل السلطة أيام عثمان مفروضاً ولا يمكن تغييره؛ ارتعدت فرائصُ كثيرٍ من الصحابة خوفاً على الاسلام إذا جرى تغيير نظام الخلافة بطريقة غير ملائمة. وعن أحد هؤلاء الصحابة حنظلة بن الربيع؛ كاتب النبي روت المصادرُ الأبيات التالية (٥٨) :

عجبت لما يخوض الناس فيه ... يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنه ... ولاقوا بعدها ذُلاً ذليلا
وكانوا كاليهود وكالنصارى ... سواء ـ كلّهم ضلّوا السبيلا

كانت هذه الصفحات قراءة في نصوص ذات طابع أيديولوجي في أكثرها. إنها نصوص لا تستعمل عادة في مجال التحليل التاريخي للوقائع. لكنها تمثّل رؤية من جانب بعض المعاصرين لقيام السلطة الاسلامية الأولى أو لواقع تلك السلطة، وما ينبغي أن تكون عليه. فعساها تكون مفيدة في إيضاح بعض المسائل، والوصول إلى تركيب أكثر تحدُّداً لما كان.

٥٨. تهذيب الكمال للمزني م ١/ق ٣٤٣.

الفهارس العامة

الأعـــلام

الأمكنة والبقـاع

الجماعات والشعوب والقبائل

المحتويـــات

تتوجه لجنة التحرير بالشكر والتقدير لكل من :
محمد يونس العبادي
نوفان رجا الحمود
حامد الزغـــول
على ما بذلوه من جهد في سبيل اخراج هذا المجلد.

رقم الايداع لدى مديرية
المكتبات والوثائق الوطنية
١٩٨٧/٢/٦٨

University of Jordan

Yarmouk University



Proceedings of the Second Symposium on the History of Bilad al-Sham During The Early Islamic Period Up to 40 A.H./640 A.D.

PART OF THE PAPERS PRESENTED TO THE SYMPOSIUM

Letter of Prophet MOHAMMAD to Heraclius

Edited by

Muhammad Adnan Bakhit

Vol. III Amman 1987



University of Jordan

Yarmouk University

Proceedings of the Second Symposium

on the History of Bilad al-Sham During The Early Islamic Period Up to 40 A.H./640 A.D.

PART OF THE PAPERS PRESENTED TO THE SYMPOSIUM

Letter of Prophet MOHAMMAD to Heraclius

Edited

by

Muhammad Adnan Bakhit

Vol. III Amman 1987